الكِفايـة

في التَّفسيرِ بِالمأْثورِ والدِّراية

تأليف الفقير إلى رحمة ربه
عبدالله خضر حمد
باحث عراقي

الجزء السابع عشر

[سورة الأنفال، الآية: ٥٤]- [سورة التوبة، الآية: ١١٠]

الطبعة الأولى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

الرقم الدولى(ISBN):٥-٧١٥-٧٢-٩٩٥٣
الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م
الناشر: دار القلم- بيروت – لبنان

ملاحظة:

إلى الذين يرغبون بطبع التفسير من دور النشر والجهات الخيرية، يرجى مراسلة المؤلف -لطفا وتكرما- على البريد الالكتروني الآتي، وذلك لإرسال التفسير بأحدث نسخة إن شاء الله، وفقنا الله تعالى وإيَّاكم لما يرضيه برحمته، آمين.

Abdulla.khdhir@gmail.com
Abdulla. khdhir@hotmail.com

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

القرآن

{كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)} [الأنفال : ٥٤]

التفسير:

شأن هؤلاء الكافرين في ذلك كشأن آل فرعون الذين كذبوا موسى، وشأن الذين كذبوا رسلهم من الأمم السابقة فأهلكهم الله بسبب ذنوبهم، وأغرق آل فرعون في البحر، وكل منهم كان فاعلا ما لم يكن له فِعْلُه من تكذيبهم رسل الله وجحودهم آياته، وإشراكهم في العبادة غيره.

قوله تعالى:{كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ} [الأنفال : ٥٤]، أي:" شأن هؤلاء الكافرين في ذلك كشأن آل فرعون الذين كذبوا موسى، وشأن الذين كذبوا رسلهم من الأمم السابقة"[١].

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره : غير هؤلاء المشركون بالله ، المقتولون ببدر ، نعمةَ ربهم التي أنعم بها عليهم ، بابتعاثه محمدًا منهم وبين أظهرهم ، داعيًا لهم إلى الهدى ، بتكذيبهم إياه ، وحربهم له {كدأب آل فرعون}، كسنة آل فرعون وعادتهم وفعلهم بموسى نبي الله ، في تكذيبهم إياه، وقصدهم لحربه ، وعادة من قبلهم من الأمم المكذبة رسلَها وصنيعهم"[٢].

قال الصابوني:" كرره لزيادة التشنيع والتوبيخ على إجرامهم، أي: شأن هؤلاء وحالهم كشأن وحال المكذبين السابقين حيث غيروا حالهم فغيّر الله نعمته عليهم"[٣].

قوله تعالى:{فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ} [الأنفال : ٥٤]، أي:" فأهلكهم الله بسبب ذنوبهم"[٤].

قال الطبري: أي:" بعضًا بالرجفة ، وبعضًا بالخسف ، وبعضا بالريح "[٥].

قوله تعالى:{وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ} [الأنفال : ٥٤]، أي:" وأغرق آل فرعون في البحر"[٦].

قال الطبري: أي:" في اليم "[٧].

قوله تعالى:{وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ} [الأنفال : ٥٤]، أي:" وكل من الفرق المكذبة كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصي حيث عرَّضوها للعذاب"[٨].

قال البيضاوي:" وكل من الفرق المكذبة، أو من غرقى القبط وقتلى قريش. كانوا ظالمين أنفسهم بالكفر والمعاصي"[٩].

قال البغوي:" يعني: الأولين والآخرين"[١٠].

قال الطبري: "يقول : كل هؤلاء الأمم التي أهلكناها كانوا فاعلين ما لم يكن لهم فعله ، من تكذيبهم رسلَ الله والجحود لآياته ، فكذلك أهلكنا هؤلاء الذين أهلكناهم ببدر ، إذ غيروا نعمة الله عندهم ، بالقتل بالسيف ، وأذللنا بعضهم بالإسار والسِّبَاء"[١١].

الفوائد:

١- التنديد بالظلم وأهله، وأنه الذنب الذي يطلق على سائر الذنوب.

---

[١] التفسير الميسر:١٨٤.
[٢] تفسير الطبري:٢٠/١٤-٢١.
[٣] صفوة التفاسير:٤٧٣/١.
[٤] التفسير الميسر:١٨٤.
[٥] تفسير الطبري:٢٠/١٤.
[٦] التفسير الميسر:١٨٤.
[٧] تفسير الطبري:٢٠/١٤.
[٨] صفوة التفاسير:٤٧٣/١.
[٩] تفسير البيضاوي:٦٤/٣.
[١٠] تفسيرالبغوي:٣٦٩/٣.
[١١] تفسير الطبري:٢٠/١٤.

٢- أن التولي عن حكم الله وحكم رسوله إلى حكم الأهواء سبب لإصابة الله بالمصائب، وهذا كقوله: {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ}

القرآن

{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥)} [الأنفال : ٥٥]

التفسير:

إن شر ما دبَّ على الأرض عند الله الكفار المصرُّون على الكفر، فهم لا يصدقون رسل الله، ولا يُقرون بوحدانيته، ولا يتبعون شرعه.

سبب النزول:

قال أبو صالح عن ابن عباس: "نزلت في بني قريظة من اليهود، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه"[١].

قوله تعالى:{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ} [الأنفال : ٥٥]، أي:" إن شر ما دبَّ على الأرض عند الله"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن شر ما دبّ على الأرض عند الله"[٣].

قال القرطبي:" أي: من يدب على وجه الأرض في علم الله وحكمه"[٤].

قال ابن أبي زمنين:{ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ}" يعني: الخلق عند الله"[٥].

قال ابن عباس[٦]، ومجاهد[٧]:" هم نفر من قريش من بني عبد الدار".

قال ابن عطية:" المعنى المقصود: تفضيل الدواب الذميمة كالخنزير والكلب العقور على الكافرين الذين حتم عليهم بأنهم لا يؤمنون، وهذا الذي يقتضيه اللفظ، وأما الكافر الذي يؤمن فيما يستأنفه من عمره فليس بشر الدواب"[٨].

قوله تعالى:{الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنفال : ٥٥]، أي:" الذين أصروا على الكفر ورسخوا فيه فهم لا يتوقع منهم إيمان"[٩].

قال الطبري:" {الذين كفروا} بربهم، فجحدوا وحدانيته، وعبدوا غيره، فهم لا يصدِّقون رسلَ الله، ولا يقرُّون بوحيه وتنزيله"[١٠].

قال البيضاوي:أي:" أصروا على الكفر ورسخوا فيه، {فهم لا يؤمنون}، فلا يتوقع منهم إيمان، ولعله إخبار عن قوم مطبوعين على الكفر بأنهم لا يؤمنون، و«الفاء» للعطف والتنبيه على أن تحقق المعطوف عليه يستدعي تحقق المعطوف"[١١].

قال مقاتل:" يعني: بأنهم لا يؤمنون، وهم يهود قريظة فمنهم حيى ابن أخطب اليهودي، وإخوته، ومالك بن الضيف"[١٢].

قال الكلبي: "يعني: يهود بني قريظة، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه"[١٣].

---

[١] زاد المسير:٢١٩/٢.
[٢] التفسير الميسر:١٨٤.
[٣] تفسير الطبري:٢١/١٤.
[٤] تفسير القرطبي:٣٠/٨.
[٥] تفسير ابن أبي زمنين:١٨٣/٢.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٩١٨٠):ص١٧١٩/٥.
[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٨٠):ص١٧١٩/٥.
[٨] المحرر الوجيز:٥٤١/٢.
[٩] صفوة التفاسير:٤٧٣/١.
[١٠] تفسير الطبري:٢١/١٤.
[١١] تفسير البيضاوي:٦٤/٣.
[١٢] تفسير مقاتل بن سليمان:١٢٢/٢.
[١٣] تفسيرالبغوي:٣٦٩/٣.

قال ابن أبي زمنين:" هؤلاء الذين يموتون على كفرهم"[١].

قال الزجاج:" عنى أن هؤلاء لا يؤمنون أبدا، كما قال لنوح: {أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ} [هود : ٣٦]"[٢].

الفوائد:

١- بيان أن شر الدواب هم الكفار من أهل الكتاب والمشركين بل هم شر البرية.

٢- سنة الله فيمن توغل في الظلم والشر والفساد يحرم التوبة فلا يموت إلا كافرا.

القرآن

{الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦)} [الأنفال : ٥٦]

التفسير:

مِن أولئك الأشرار اليهود الذين دخلوا معك في المعاهدات بأن لا يحاربوك ولا يظاهروا عليك أحدًا، ثم ينقضون عهدهم المرة تلو المرة، وهم لا يخافون الله.

قوله تعالى:{الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ} [الأنفال : ٥٦]، أي:" مِن أولئك الأشرار اليهود الذين دخلوا معك في المعاهدات بأن لا يحاربوك ولا يظاهروا عليك أحدًا"[٣].

قال الطبري: " يقول : أخذت عهودهم ومواثيقهم أن لا يحاربوك، ولا يظاهروا عليك محاربًا لك ، كقريظة ونظرائهم ممن كان بينك وبينهم عهد وعقد"[٤].

قال البغوي:" عني عاهدتهم وقيل: أي: عاهدت معهم. وقيل أدخل «من» لأن معناه: أخذت منهم العهد"[٥].

عن مجاهد قوله : "{الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم}، قال : قريظة مالئوا على محمد يوم الخندق أعداءه"[٦].

قال الكلبي:" هؤلاء قوم ممن كان وادع رسول الله ﷺ وكانوا ينقضون العهد"[٧].

قال ابن عطية:" قوله {الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ}، يحتمل أن يريد أن الموصوف ب شَرَّ الدَّوَابِّ هم الذين لا يؤمنون المعاهدون من الكفار فكانوا شر الدواب على هذا بثلاثة أوصاف: الكفر والموافاة عليه والمعاهدة مع النقض، {والَّذِينَ} على هذا بدل البعض من الكل، ويحتمل أن يريد بقوله {الَّذِينَ عاهَدْتَ} {الَّذِينَ} الأولى، فتكون بدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة، والمعنى على هذا الذين عاهدت فرقة أو طائفة منهم"[٨].

قال القرطبي:" و{من}في قوله :{منهم} للتبعيض، لان العهد إنما كان يجري مع أشرافهم ثم ينقضونه. والمعني بهم قريظة والنضير، في قول مجاهد وغيره. نقضوا العهد فأعانوا مشركي مكة بالسلاح، ثم اعتذروا فقالوا: نسينا، فعاهدهم عليه السلام ثانية فنقضوا يوم الخندق"[٩].

قوله تعالى:{ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ} [الأنفال : ٥٦]، أي:" ثم ينقضون عهدهم المرة تلو المرة"[١٠].

---

[١] تفسير ابن أبي زمنين:١٨٣/٢.
[٢] معاني القرآن:٤١٩/٢.
[٣] التفسير الميسر:١٨٤.
[٤] تفسير الطبري:٢١/١٤-٢٢.
[٥] تفسير البغوي:٣٦٩/٣.
[٦] أخرجه الطبري(١٦٢١٠):ص٢٢/١٤.
[٧] تفسير ابن ابي زمنين:١٨٣/٢.
[٨] المحرر الوجيز:٥٤١/٢.
[٩] تفسير القرطبي:٣٠/٨.
[١٠] التفسير الميسر:١٨٤.

قال الطبري:أي:"عهودهم ومواثيقهم كلما عاهدوك وواثقوك، حاربوك وظاهروا عليك"[١].

قال مقاتل:" وذلك أن اليهود نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين النبي- ﷺ- وأعانوا مشركي مكة بالسلاح على قتال النبي- ﷺ- وأصحابه ثم يقولون نسينا وأخطأنا، ثم يعاهدهم الثانية فينقضون العهد فذلك قوله: {ثم ينقضون عهدهم في كل مرة}، يعني: في كل عام مرة"[٢].

قال البغوي:" وهم بنو قريظة، نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وأعانوا المشركين بالسلاح على قتال النبي ﷺ وأصحابه، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا فعاهدهم الثانية، فنقضوا العهد ومالئوا الكفار على رسول الله ﷺ يوم الخندق، وركب كعب بن الأشرف إلى مكة، فوافقهم على مخالفة النبي ﷺ"[٣].

قال ابن عطية:" و«المعاهدة» في هذه الآية، المسالمة وترك الحرب، وأجمع المتأولون أن الآية نزلت في بني قريظة، وهي بعد تعم كل من اتصف بهذه الصفة إلى يوم القيامة، ومن قال إن المراد ب الدَّوَابِّ الناس فقول لا يستوفي المذمة، ولا مرية في أن الدواب تعم الناس وسائر الحيوان، وفي تعميم اللفظة في هذه الآية استيفاء المذمة، وقوله {فِي كُلِّ مَرَّةٍ} يقتضي أن الغدر قد كان وقع منهم وتكرر ذلك، وحديث قريظة هو أنهم عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، على ألا يحاربوه ولا يعينوا عليه عدوا من غيرهم، فلما اجتمعت الأحزاب على النبي ﷺ بالمدينة غلب على ظن بني قريظة أن النبي ﷺ، مغلوب ومستأصل، وخدع حيي بن أخطب النضري كعب بن أسد القرظي صاحب بني قريظة وعهدهم، فغدروا ووالوا قريشا وأمدوهم بالسلاح والأدراع، فلما انجلت تلك الحال عن النبي ﷺ، أمره الله بالخروج إليهم وحربهم فاستنزلوا، وضربت أعناقهم بحكم سعد بن معاذ، واستيعاب القصة في سيرة ابن هشام، وإنما اقتضبت منها ما يخص تفسير الآية"[٤].

قوله تعالى:{وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ} [الأنفال : ٥٦]، أي:" وهم لا يخافون الله"[٥].

قال مقاتل:أي:" نقض العهد"[٦].

قال الطبري:أي:" ولا يخافون في فعلهم ذلك أن يوقع بهم وقعة تجتاحهم وتهلكهم"[٧].

قال البغوي:يعني:" لا يخافون الله تعالى في نقض العهد"[٨].

قال القرطبي:" أي: لا يخافون الانتقام"[٩].

قال البيضاوي: أي: {لايتقون}" سبة الغدر ومغبته، أو لا يتقون الله فيه أو نصره للمؤمنين وتسليطه إياهم عليهم"[١٠].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة أن وفاء الإنسان بالعهود، مقياس إنسانيته الكريمة، ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة، كما في هذه الآية والتي قبلها.

٢- ومن فوائد الآية: فضيلة التقوى وأنها من أسباب الإهتداء والإتعاظ، وكلما ازداد الإنسان تقوى ازداد هدى وموعظة.

---

[١] تفسير الطبري:٢٢/١٤.
[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:١٢٢/٢.
[٣] تفسير البغوي:٣٦٩/٣.
[٤] المحرر الوجيز:٥٤١/٢.
[٥] التفسير الميسر:١٨٤.
[٦] تفسير مقاتل بن سليمان:١٢٢/٢.
[٧] تفسير الطبري:٢٢/١٤.
[٨] تفسير البغوي:٣٦٩/٣.
[٩] تفسير القرطبي:٣٠/٨.
[١٠] تفسير مقاتل بن سليمان:٦٤/٣.

القرآن

{فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧)} [الأنفال : ٥٧]

التفسير:

فإن واجهت هؤلاء الناقضين للعهود والمواثيق في المعركة، فأنزِلْ بهم من العذاب ما يُدْخل الرعب في قلوب الآخرين، ويشتت جموعهم؛ لعلهم يذّكرون، فلا يجترئون على مثل الذي أقدم عليه السابقون.

قوله تعالى:{فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ} [الأنفال : ٥٧]، أي:" فإن واجهت هؤلاء الناقضين للعهود والمواثيق في المعركة"[١].

قال الزمخشري:" فإما تصادفنهم وتظفرن بهم"[٢].

قال البيضاوي: أي:" إما تصادفنهم وتظفرن بهم، في الحرب"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : فإما تلقيَنَّ في الحرب هؤلاء الذين عاهدتهم فنقضوا عهدك مرة بعد مرة من قريظة ، فتأسرهم"[٤].

قال ابن عطية:" معناه :وتحصلهم في ثقافك أو تلقاهم بحال ضعف تقدر عليهم فيها وتغلبهم، وهذا لازم من اللفظ لقوله فِي الْحَرْبِ، وقيل ثقف أخذ بسرعة ومن ذلك قولهم: رجل ثقف لقف، وقال بعض الناس معناه تصادفنهم إلى نحو هذا من الأقوال التي لا ترتبط في المعنى، وذلك أن المصادف يغلب فيمكن التشريد به، وقد لا يغلب، والثقاف في اللغة ما تشد به القناة ونحوها، ومنه قول الشاعر[٥]:

إنَّ قَنَاتِي لَنَبْعٌ مَا يُؤَيِّسُهَا ... عَضُّ الثِّقَافِ ولاَ دُهْنٌ ولاَ نَارُ

وقال آخر[٦]:

تَدْعُو قُعَيناً وَقَدْ عَضَّ الحَدِيدُ بِهَا ... عَضَّ الثِّقَافِ عَلَى صُمِّ الأنَابِيبِ "[٧]

قوله تعالى:{فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ} [الأنفال : ٥٧]، أي:" فأنزِلْ بهم من العذاب ما يُدْخل الرعب في قلوب الآخرين، ويشتت جموعهم"[٨].

قال ابن عباس:" يعني : نكّل بهم من بعدهم"[٩].

قال سعيد بن جبير:" أنذر بهم من خلفهم"[١٠].

قال الضحاك:" : نكل بهم من بعدهم"[١١].

قال قتادة:" يقول : عظْ بهم من سواهم من الناس"[١٢].

---

[١] التفسير الميسر:١٨٤.

[٢] الكشاف:٢٣٠/٢.

[٣] تفسير البيضاوي:٦٤/٣.

[٤] تفسير الطبري:٢٢/١٤.

[٥] لم أتعرف على قائله، والبيت من شواهد ابن عطية في المحرر الوجيز:٥٤٢/٢.

[٦]البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور (ص:٥٤)، وذكر الطاهر في شرحه: تدعو قعيناً؛ أي: تستعينُ ببني قعين، وهم من بطون أسد. عض الحديد بها؛ أي عضها حديد القيد. الثقاف: آلة من خشب أو حديد تسوى بها قنوات الرماح لإزالة كعوبها الناتئةِ. الأنابيب: جمع أنبوب، وهو كعب في العصا والقعن (بالتحريك): قصر في الأنف فاحش. وقعين: حي مشتق منه، وهما قعينان: قعين في بني أسد وقعين في قيس عيلان. والأنابيب: جمع أنبوبة وهي كعب القصبة والرمح.

[٧] المحرر الوجيز:٥٤٢/٢.

[٨] التفسير الميسر:١٨٤.

[٩] أخرجه الطبري(١٦٢١٢):ص٢٣/١٤.

[١٠] أخرجه الطبري(١٦٢١٧):ص٢٣/١٤.

[١١] أخرجه الطبري(١٦٢١٩):ص٢٤/١٤.

[١٢] أخرجه الطبري(١٦٢١٤):ص٢٣/١٤.

قال السدي:" يقول : نكل بهم من خلفهم ، مَنْ بعدهم من العدوّ ، لعلهم يحذرون أن ينكُثوا فتصنع بهم مثل ذلك"[١].

عن ابن زيد:{ فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم}، قال : أخفهم بما تصنع بهؤلاء. وقرأ : {وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ } [الأنفال : ٦٠] "[٢].

قال الزمخشري:" ففرق عن محاربتك ومناصبتك بقتلهم شر قتلة والنكاية فيهم، من وراءهم من الكفرة، حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد، اعتبارا بهم واتعاظا بحالهم"[٣].

قال البيضاوي: أي:" إ ففرّق عن مناصبتك ونكل عنها بقتلهم والنكاية فيهم من خلفهم من وراءهم من الكفرة والتشريد تفريق على اضطراب"[٤].

قال الطبري:" يقول : فافعل بهم فعلا يكون مشرّدًا مَن خلفهم من نظرائهم ، ممن بينك وبينه عهد وعقد، و «التشريد»، التطريد والتبديد والتفريق، وإنما أمِرَ بذلك نبيُّ الله ﷺ أن يفعل بالناقض العهد بينه وبينهم إذا قدر عليهم فعلا يكون إخافةً لمن وراءهم ، ممن كان بين رسول الله ﷺ وبينه عهد ، حتى لا يجترئوا على مثل الذي اجترأ عليه هؤلاء الذين وصف الله صفتهم في هذه الآية من نقض العهد "[٥].

قال ابن عطية:" {فَشَرِّدْ} معناه طرد وخوف وأبعده عن مثل فعلهم، والشريد المبعد عن وطن أو نحوه، والمعنى بفعل تفعله بهم من قتل أو نحوه يكون تخويفا لمن خلفهم أي لمن يأتي بعدهم بمثل ما أتوا به، وسواء كان معاصرا لهم أم لا، وما تقدم الشيء فهو بين يديه وما تأخر عنه فهو خلفه، فمعنى الآية فإن أسرت هؤلاء الناقضين في حربك لهم فافعل بهم من النقمة ما يكون تشريدا لمن يأتي خلفهم في مثل طريقتهم، والضمير في لَعَلَّهُمْ عائد على الفرقة المشردة، وقال ابن عباس: المعنى نكل بهم من خلفهم، وقالت فرقة «شرد بهم» معناه سمع بهم، حكاه الزهراوي عن أبي عبيدة، والمعنى متقارب لأن التسميع بهم في ضمن ما فسرناه أولا"[٦].

وقرئ «فشرذ» بالذال المعجمة وكأنه مقلوب شذر ومن خلفهم، والمعنى واحد فإنه إذا شرد من وراءهم فقد فعل التشريد في الوراء[٧].

وقرأ أبو حيوة: «من خلفهم». ومعناه: فافعل التشريد من ورائهم، لأنه إذا شرد الذين وراءهم فقد فعل التشريد في الوراء وأوقعه فيه، لأن الوراء جهة المشردين، فإذا جعل الوراء ظرفا للتشريد فقد دل على تشريد من فيه، فلم يبق فرق بين القراءتين [٨].

قوله تعالى:{لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [الأنفال : ٥٧]، أي:" لعلهم يذّكرون، فلا يجترئون على مثل الذي أقدم عليه السابقون"[٩].

قال الزمخشري:" لعل المشردين من ورائهم يتعظون"[١٠].

قال البيضاوي:" لعل المشردين يتعظون"[١١].

قال السمعاني:" يعني: يتذكرون"[١٢].

قال ابن عطية:" معناه: يتعظون"[١٣].

---

[١] أخرجه الطبري(١٦٢١٥):ص١٤/٢٣.

[٢] أخرجه الطبري(١٦٢٢٠):ص١٤/٢٤.

[٣] الكشاف:٢/٢٣٠.

[٤] تفسير البيضاوي:٣/٦٤.

[٥] تفسير الطبري:١٤/٢٢-٢٣.

[٦] المحرر الوجيز:٢/٥٤٢-٥٤٣.

[٧] انظر: تفسير البيضاوي:٣/٦٤.

[٨] انظر: الكشاف:٢/٢٣٠-٢٣١.

[٩] التفسير الميسر:١٨٤.

[١٠] الكشاف:٢/٢٣١.

[١١] تفسير البيضاوي:٣/٦٤.

[١٢] تفسير السمعاني:٢/٢٧٤.

[١٣] المحرر الوجيز:٢/٥٤٣.

قال الطبري:" معناه : كي يتعظوا بما فعلت بهؤلاء الذين وصفت صفتهم، فيحذروا نقضَ العهد الذي بينك وبينهم خوفَ أن ينزل بهم منك ما نزل بهؤلاء إذا هم نقضوه"[١].

قال المراغي:" أي: لعل من خلفهم من الأعداء يذكرون النكال فيمنعهم ذلك من نقض العهد ومن القتال"[٢].

عن السدي:"{لعلهم يذكرون}، يقول: لعلهم يحذرون أن ينكثوا، فيصنع بهم مثل ذلك"[٣].
ذلك"[٣].

عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه :"{لعلهم يذكرون}، لعلهم يعقلون"[٤].

الفوائد:

١- من السياسة الحربية النافعة أن يضرب القائد عدوه بعنف وشدة ليكون نكالا لغيره من الأعداء.

٢- أن من فوائد العقوبات والحدود المرتبة على المعاصي، أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي، بل وزجرا لمن عملها أن لا يعاودها.

القرآن

{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)} [الأنفال : ٥٨]

التفسير:

وإن خفت -أيها الرسول- من قومٍ خيانة ظهرت بوادرها فألق إليهم عهدهم، كي يكون الطرفان مستويين في العلم بأنه لا عهد بعد اليوم. إن الله لا يحب الخائنين في عهودهم الناقضين للعهد والميثاق.

سبب النزول:

قال الشافعي -رحمه الله-: "نزلت في أهل هدنة، بلغ النبي - ﷺ - عنهم شيء، استدل به على خيانتهم"[٥].

قال الطبري:" وقيل: نزلت الآية في قريظة... عن مجاهد: {فانبذ إليهم على سواء}، قال: قريظة"[٦].

قوله تعالى:{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً} [الأنفال : ٥٨]، أي:" وإن خفت -أيها الرسول- من قومٍ خيانة ظهرت بوادرها"[٧].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : {وإما تخافن}، يا محمد ، من عدو لك بينك وبينه عهد وعقد ، أن ينكث عهد. وينقض عقده ، ويغدر بك وذلك هو " الخيانة " والغدر"[٨].

قال الزمخشري:" {وإما تخافن من قوم} معاهدين {خيانة} ونكثا بأمارات تلوح لك"[٩].

قال السمعاني:" معنى «المخافة» هاهنا: هو الإحساس بالخيانة"[١٠].

قوله تعالى:{فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ} [الأنفال : ٥٨]، أي:" فألق إليهم عهدهم، كي يكون الطرفان مستويين في العلم بأنه لا عهد بعد اليوم"[١١].

---

[١] تفسير الطبري:١٤/٢٤.
[٢] تفسير المراغي:١٠/٢١.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٩١٩٠):ص٥/١٧٢٠.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٩١٩١):ص٥/١٧٢٠.
[٥] تفسير الإمام الشافعي:٢/٨٨٥.
[٦] تفسير الطبري:١٤/٢٦، والخبر أخرجه الطبري(١٦٢٢١):ص١٤/٢٦.
[٧] التفسير الميسر:١٨٤.
[٨] تفسير الطبري:١٤/٢٥.
[٩] الكشاف:٢/٢٣١.
[١٠] تفسير السمعاني:٢/٢٧٤.
[١١] التفسير الميسر:١٨٤.

قال الزمخشري:" فاطرح إليهم العهد {على سواء} على طريق مستو قصد، وذلك أن تظهر لهم نبذ العهد وتخبرهم إخبارا مكشوفا بينا أنك قطعت ما بينك وبينهم، ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد فيكون ذلك خيانة منك"[١].

قال الطبري:" يقول : فناجزهم بالحرب ، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم ، بما كان منهم من ظهور أمار الغدر والخيانة منهم ، حتى تصير أنتَ وهم على سواء في العلم بأنك لهم محارب ، فيأخذوا للحرب آلتها ، وتبرأ من الغدر"[٢].

قال السمعاني:" يعني: فانبذ العهد إليهم على حالة تستوي أنت وهم في العلم به، والمراد من الآية: ألا تقاتلهم قبل نبذ العهد، وقبل علمهم بالنبذ حتى لا تنسب إلى نقض العهد، وهذه الآية تعد من فصيح القرآن"[٣].

عن مجاهد قوله:"{فانبذ إليهم على سواء}، قال: قريظة"[٤].

قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:"{على سواء} أي: حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك أن تغدرهم، أو تسعى في شيء مما منعه موجب العهد؛ حتى تخبرهم بذلك"[٥].

وفي تفسير قوله تعالى:{ عَلَى سَوَاءٍ} [الأنفال : ٥٨]، وجوه:

أحدها: معناه: حتى يستوي علمك وعلمهم بأن كل فريق منكم حرب لصاحبه لا سِلْم. قاله الطبري[٦].

والثاني: على المهل.

طقال الوليد بن مسلم: "إنه مما تبين لنا أن قوله : {فانبذ إليهم على سواء}، أنه : على مهل كما حدثنا بكير، عن مقاتل بن حيان في قول الله : {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} [التوبة : ١ - ٢]"[٧].

والثالث: معناه : فانبذ إليهم على عدل، يعني : حتى يعتدل علمك وعلمهم بما عليه بعضكما لبعض من المحاربة ، واستشهدوا لقولهم ذلك بقول الراجز [٨]:

وَاضْرِبْ وُجُوهَ الغُدُرِ الأعْدَاءِ حَتَّى يُجِيبُوكَ إلَى السَّوَاءِ

يعني : إلى العدل[٩].

والرابع: معناه : الوسَط ، من قول حسان[١٠]:

يَا وَيْحَ أَنْصَارِ الرَّسُولِ ورَهْطِهِ بَعْدَ الُمغيَّبِ فِي سَوَاءِ المُلْحَدِ

بمعنى : في وسط اللَّحْد[١١].

قال الطبري:" وكذلك هذه المعاني متقاربة ، لأن «العدل» ، وسط لا يعلو فوق الحق ولا يقصّر عنه ، وكذلك «الوسط » عدل ، واستواء علم الفريقين فيما عليه بعضهم لبعض بعد المهادنة ، عدل من الفعل ووسط. وأما الذي قاله الوليد بن مسلم من أن معناه : «المهل» ، فما لا أعلم له وجهًا في كلام العرب"[١٢].

---

(١) الكشاف:٢٣١/٢.

(٢) تفسير الطبري:٢٥/١٤.

(٣) تفسير السمعاني:٢٧٤/٢.

(٤) أخرجه الطبري(٩١٩٣):ص١٧٢١/٥.

(٥) تفسير السعدي:٣٢٤.

(٦) انظر: تتفسير الطبري:٢٦/١٤.

(٧) أخرجه الطبري(١٦٢٢٢):ص٢٦/١٤-٢٧.

(٨) لم أتعرف على القائل، والبيت من شواهد الطبري في تفسيره: ٢٧/١٤.

(٩) انظر: تفسير الطبري:٢٧/١٤.

(١٠)ديوانه: ٩٨.

(١١) انظر: تفسير الطبري:٢٧/١٤.

(١٢) تفسير الطبري:٢٧/١٤.

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال : ٥٨]، أي:" . إن الله لا يحب الخائنين في عهودهم الناقضين للعهد والميثاق"[١].

قال مقاتل:" يعنى: اليهود"[٢].

قال الطبري:أي:" الغادرين بمن كان منه في أمان وعهد بينه وبينه أن يغدر به فيحاربه ، قبل إعلامه إياه أنه له حرب ، وأنه قد فاسخه العقد"[٣].

قال الزمخشري:أي:" فلا يكن منك إخفاء نكث العهد والخداع"[٤].

عن علي بن حسين قال: "لا تقاتل عدوك حتى تنبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين"[٥].

فإن قال قائل : وكيف يجوز نقضُ العهد بخوف الخيانة ، و " الخوف " ظنٌّ لا يقين ؟

قيل : "إن الأمر بخلاف ما إليه ذهبت ، وإنما معناه : إذا ظهرت أمارُ الخيانة من عدوك ، وخفت وقوعهم بك ، فألق إليهم مقاليد السَّلم وآذنهم بالحرب. وذلك كالذي كان من بني قريظة إذ أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله ﷺ ومحاربتهم معهم ، بعد العهد الذي كانوا عاهدوا رسولَ الله ﷺ على المسالمة ، ولن يقاتلوا رسولَ الله ﷺ .فكانت إجابتهم إياه إلى ذلك ، موجبًا لرسول الله ﷺ خوف الغدر به وبأصحابه منهم. فكذلك حكم كل قوم أهل موادعةٍ للمؤمنين ، ظهر لإمام المسلمين منهم من دلائل الغدر مثل الذي ظهرَ لرسول الله ﷺ وأصحابه من قريظة منها ، فحقٌّ على إمام المسلمين أن ينبذ إليهم على سواء ، ويؤذنهم بالحرب"[٦].

الفوائد:

١- جواز إعلان إلغاء المعاهدة وضرب العدو فورا إن بدرت منه بوادر واضحة بأنه عازم على نقض المعاهدة وذلك لتفويت عنصر المباغتة عليه.

٢- أن نقض العهود من صفات المنافقين، والوفاء بالعهود من صفات المؤمنين، وأنه إذا عقدت وأبرمت وجب الوفاء بها والالتزام بها من الطرفين، حتى ولو كانت مع كفار.

٣- حرمة الغدر والخيانة.

٤- ذكر أهل العلم:أن للمشركين مع المسلمين ثلاث حالات[٧]:

أ- أن لا يكون بيننا وبينهم عهد، فيجب قتالهم بعد دعوتهم إلى الإسلام وإبائهم عنه وعن بذل الجزية؛ ولكن بشرط قدرتنا على ذلك.

ب- أن يكون بيننا وبينهم عهد محفوظ يستقيمون فيه، فهنا يجب الوفاء لهم بعهدهم، لقوله تعالى {فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين} [التوبة:٧]، وكقوله تعالى {إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين} [التوبة:٤].

ت- أن يكون بيننا وبينهم عهد نخاف خيانتهم فيه، فهنا يجب أن ننبذ إليهم العهد ونخبرهم أنه لا عهد بيننا، لقوله تعالى {وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين} [الأنفال:٥٨].

القرآن

{وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩)} [الأنفال : ٥٩]

---

[١] التفسير الميسر:١٨٤.

[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:١٢٣/٢.

[٣] تفسير الطبري:٢٥/١٤.

[٤] الكشاف:٢٣١/٢.

[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٩١٩٤):ص١٧٢١/٥.

[٦] تفسير الطبري:٢٥/١٤-٢٦.

[٧]قاله الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في كتابه (القول المفيد) (٤٨٠/ ٢.

التفسير:
ولا يظنن الذين جحدوا آيات الله أنهم فاتوا ونجَوْا، وأن الله لا يقدر عليهم، إنهم لن يُفْلِتوا من عذاب الله.

قوله تعالى:{وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا} [الأنفال : ٥٩]، أي:" ولا يظنن الذين جحدوا آيات الله أنهم فاتوا ونجَوْا، وأن الله لا يقدر عليهم"[١].

قال الزجاج:" معناها: لا يحسبن من أفلت من هذه الحرب قد سبق إلى الحياة"[٢].

قال السعدي:" أي: لا يحسب الكافرون بربهم المكذبون بآياته، أنهم سبقوا الله وفاتوه"[٣].
وفاتوه"[٣].

قال مقاتل: {كفروا}" بتوحيد الله، يعني: كفار العرب"[٤].

قال الزمخشري:" {سبقوا}: أفلتوا وفاتوا من أن يظفر بهم"[٥].

قال ابو السعود:" {سبقوا} حال بمعنى سابقين، أي: مفلتين هاربين، وهذا على قراءة الخطاب لإزاحة ما عسى يحذر من عاقبة النبذ لما أنه إيقاظ للعدو وتمكين لهم من الهرب والخلاص من أيدي المؤمنين وفيه نفي لقدرتهم على المقاومة والمقابلة على أبلغ وجه وآكده كما أشير إليه وقيل نزلت فيمن أفلت من فل المشركين"[٦].

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر والكسائى:{ولا تحسبن} بالتاء وكسر «السين»، غير عاصم فإنه فتح «السين» وفى سورة «النور» {لَا تَحْسَبَنَّ} [النور : ٥٧] أيضا بالتاء، وقرأ ابن عامر وحمزة {ولا يحسبن الذين كفروا} بالياء وفتح «السين»، وروى حفص عن عاصم بالياء ههنا وفى سورة «النور» بالتاء، وقرأ الباقون غير حمزة وابن عامر فى السورتين بالتاء، وقرأ حمزة وابن عامر بالياء [٧].

قال الزجاج:" والقراءة الجيدة {ولا تحسبن} بالتاء على مخاطبة النبي - ﷺ - وتكون «تحسبن» عاملة في الذين، ويكون {سبقوا} الخبر"[٨].

قوله تعالى:{إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ} [الأنفال : ٥٩]، أي:" إنهم لن يُفْلِتوا من عذاب الله"[٩].

قال مقاتل: " يقول إنهم لن يفوقوا الله بأعمالهم الخبيثة حتى يعاقبهم الله بما يقولون"[١٠].

قال الزمخشري:" إنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزا عن إدراكهم"[١١].

قال البغوي:" أي: لأنهم لا يعجزون، ولا يفوتونني"[١٢].

قال أبو السعود:" أي: لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزا عن إدراكهم تعليل للنهي على طريقة الاستئناف"[١٣].

قال ابن عباس:" يقول: لا يفوتونا"[١٤].

قال السدي:"يقول : لا يفوتون"[١٥].

---

[١] التفسير الميسر:١٨٤.
[٢] معاني القرآن:٤٢١/٢.
[٣] تفسير السعدي:٣٢٤.
[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:١٢٣/٢.
[٥] الكشاف:٢٣١/٢.
[٦] تفسير أبي السعود:٣٢/٤.
[٧] انظر: السبعة في القراءات:٣٠٧.
[٨] معاني القرآن:٤٢١/٢.
[٩] التفسير الميسر:١٨٤.
[١٠] تفسير مقاتل بن سليمان:١٢٣/٢.
[١١] الكشاف:٢٣١/٢.
[١٢] تفسير البغوي:٣٧١/٣.
[١٣] تفسير أبي السعود:٣١/٤.
[١٤] اخرجه ابن ابي حاتم(٩١٩٥):ص١٧٢١/٥.
[١٥] أخرجه الطبري(١٦٢٢٣):ص٣١/١٤.

قال السعدي:أي: " فإنهم لا يعجزونه، والله لهم بالمرصاد"[1].

كلهم قرأ {إنهم لا يعجزون} بكسر «الألف» على الابتداء، إلا ابن عامر فإنه قرأ: {إنهم} بفتح «الألف»[2].

الفوائد:

١- أن الله تعالى الله للكافرين بالمرصاد.
٢- أن لله تعالى الحكمة البالغة في إمهال الكافرين وعدم معاجلتهم بالعقوبة، التي من جملتها ابتلاء عباده المؤمنين وامتحانهم، وتزودهم من طاعته ومراضيه، ما يصلون به المنازل العالية، واتصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغيها[3].

القرآن

{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)} [الأنفال : ٦٠]

التفسير:

وأعدُّوا - يا معشر المسلمين - لمواجهة أعدائكم كل ما تقدرون عليه مِن عدد وعدة، لتُدْخلوا بذلك الرهبة في قلوب أعداء الله وأعدائكم المتربصين بكم، وتخيفوا آخرين لا تظهر لكم عداوتهم الآن، لكن الله يعلمهم ويعلم ما يضمرونه. وما تبذلوا من مال وغيره في سبيل الله قليلا أو كثيرًا يخلفه الله عليكم في الدنيا، ويدخر لكم ثوابه إلى يوم القيامة، وأنتم لا تُنْقصون من أجر ذلك شيئًا.

قوله تعالى:{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ} [الأنفال : ٦٠]، أي:" أعدوا لقتال أعدائكم جميع أنواع القوة: المادية، والمعنوية، ومن الخيل التي تربط في سبيل الله"[4].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : {وأعدوا}، لهؤلاء الذين كفروا بربهم ، الذين بينكم وبينهم عهد ، إذا خفتم خيانتهم وغدرهم ، أيها المؤمنون بالله ورسوله ما أطقتم أن تعدّوه لهم من الآلات التي تكون قوة لكم عليهم ، من السلاح والخيل"[5].

قال أبو عبدالله الحليمي:" أمر الله تعالى باستكمال العدة، ونص على الخيل لأنها من أعظم المعاون إذ كانت تصلح للطلب والهرب"[6].

عن صالح بن كيسان ، عن رجل من جهينة ، يرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "{وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} ، ألا إنَّ الرمي هو القوة ، ألا إنّ الرمي هو القوة"[7].

عن عقبة بن عامر ، عن النبي ﷺ في قوله : "{وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} ، " ألا إن القوة الرمي"[8].

عن عكرمة في قوله :"{وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة}، قال : الحصون {ومن رباط الخيل}، قال : الإناث"[9].

---

(١) تفسير السعدي:٣٢٤.
(٢) انظر: السبعة في القراءات:٣٠٨.
(٣) انظر: تفسير السعدي:٣٢٤.
(٤) صفوة التفاسير:٤٧٤/١.
(٥) تفسير الطبري:٣١/١٤.
(٦) المنهاج في شعب الإيمان:٤٩٣/٢.
(٧) أخرجه الطبري(١٦٢٢٤):ص٣١/١٤.
(٨) أخرجه الطبري(١٦٢٢٩):ص٣٣/١٤.
(٩) أخرجه الطبري(١٦٢٣٠):ص٣٤/١٤.

عن رجاء بن أبي سلمة قال : "لقي رجل مجاهدًا بمكة ، ومع مجاهد جُوَالَق، قال : فقال مجاهد : هذا من القوة! ومجاهد يتجهز للغزو"[١].

عن السدي : "{وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة}، من سلاح"[٢].

قال الزمخشري:" {من قوة}، من كل ما يتقوى به في الحرب من عددها"[٣].

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله أمر المؤمنين بإعداد الجهاد وآلة الحرب وما يتقوّون به على جهاد عدوه وعدوهم من المشركين ، من السلاح والرمي وغير ذلك ، ورباط الخيل ولا وجه لأن يقال : عني بـ«القوة »، معنى دون معنى من معاني«القوة»، وقد عمَّ الله الأمر بها"[٤].

قال الشافعي -رحمه الله-: "فإن الله - عز وجل- ندب إلى اتخاذ الخيل فقال: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} الآية، فأطاع في الرباط، وكانت عليهم مؤنة في اتخاذه، وله غناء بشهوده عليه، ليس الراجل شبيها به"[٥].

أخرج الواحدي عن يزيد بن عبد الله بن عريب، عن أبيه، عن جده، عن رسول الله ﷺ، قال: "نزلت هذه الآية: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ}[٦]، في أصحاب الخيل، وقال ﷺ: إن الشياطين لا تخبل أحدا في بيته فرس عتيق من الخيل"[٧].

قال السمعاتي:"وروي عن النبي أنه قال:«لن يخبل الجن آدميا في داره فرس عتيق ". أورده النقاش في تفسيره"[٨].

عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال: "خيرُ مَا عاشَ النَّاسُ لَهُ رجلٌ ممسكٌ بعِنانِ فرسِهِ فِي سبيلِ اللهِ كلّمَا سمعَ هيعةً أَوْ فزعةً طارَ عَلَى متنِ فرسِهِ، فَالتمسَ الموتَ وَالقتلَ فِي مظانِّهِ، أو رجلٌ فِي شعبةٍ منْ هذِهِ الشّعابِ، أَوْ فِي بطنِ وادٍ منْ هذ الأوديةِ فِي غنيمةٍ يقيمُ الصَّلاة ويُؤتي الزكَاة يعبدُ اللهَ حتَّى يأتيهِ اليقينُ، ليسَ مِنَ النَّاس إِلَّا فِي خَيرٍ"[٩].

قوله تعالى:{تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال : ٦٠]، أي:" تُخيفون بتلك القوة الكفار أعداء الله وأعداءكم"[١٠].

عن مقاتل بن حيان قوله: "{ترهبون به عدو الله وعدوكم}، من المشركين"[١١].

قال مقاتل بن سلمان:" يعني: كفار العرب"[١].

---

[١] أخرجه الطبري(١٦٢٣١):ص٣٤/١٤.
[٢] أخرجه الطبري(١٦٢٣٢):ص٣٤/١٤.
[٣] الكشاف:٢٣٢/٢.
[٤] تفسير الطبري:٣٧/١٤.
[٥] تفسير الإمام الشافعي:٨٨٧/٢.
[٦][البقرة : ٢٧٤].
[٧] أسباب النزول(١٧٥):ص٩٢. إسناده ضعيف: قال السيوطي في لباب النقول (ص ٥١) بعد أن ذكر هذه الآية وهذا الحديث:
يزيد وأبوه مجهولان أ. هـ.
وجاء في لسان الميزان (ج ٣ ص ٣١٥) في ترجمة عبد الله بن عريب المليكي: أخرج ابن مندة في المعرفة من طريق أبي عتبة أحمد بن الفرج عن بقية عنه [أي عن عبد الله بن عريب المليكي] عن أبيه عن جده رفعه: لن يخبل الشيطان أحدا في داره فرس عتيق، وأخرجه ابن قانع من طريق أبي حيوة عن سعيد بن سنان عن عمرو بن عريب عن أبيه عن جده، وأخرج الطبراني من طريق أبي جعفر النفيلي عن سعيد بن سنان عن يزيد بن عبد الله بن عريب عن أبيه عن جده حديثا آخرا في الخيل.
قال العلائي: هذا اختلاف شديد مع ما في روايته من الجهالة يعني عبد الله ويزيد وعمرا. أهـ.
وانظر طبقات ابن سعد (٧/ ٢/ ١٤٧) ، الإصابة (٢/ ٤٧٩).
[٨] تفسير السمعاني:٢٧٥/٢. وانظر: تاويلات أهل السنة للماتريدي:٢٤٩/٥.
[٩]رواه النسائي في السير من الكبرى كما في تحفة الأشراف (٩/ ٣٠٨)، و مسلم (١٨٨٩).
[١٠] صفوة التفاسير:٤٧٤/١.
[١١] أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٠٦):ص١٧٢٣/٥.

قال الطبري:" يقول : تخيفون بإعدادكم ذلك عدوَّ الله وعدوكم من المشركين"[٢].
عن ابن عباس:"{ترهبون به عدو الله وعدوكم} ، قال : تخزون به عدو الله وعدوكم"[٣].
وعن ابن عباس أيضا:"{ترهبون به}، تخزون به"[٤].
يقال منه :"أرهبت العدو ، ورهَّبته ، فأنا أرهبه وأرهِّبه ، إرهابًا وترهيبًا ، وهو الرَّهَب والرُّهْب " ، ومنه قول طفيل الغنوي[٥]:

وَيْلُ أُمِّ حَيٍّ دَفَعْتُمْ فِي نُحُورِهِمُ بَنِي كِلابٍ غَدَاةَ الرُّعْبِ والرَّهَبِ[٦]

قوله تعالى:{وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ} [الأنفال : ٦٠]، أي:" وترهبون به آخرين غيرهم ،لا تعلمون ما هم عليه من النفاق ولكن الله يعلمهم "[٧].
قال الزجاج:" أي: وترهبون آخرين من دونهم"[٨].
عن مقاتل بن حيان:{ الله يعلمهم}" يقول: الله يعلم ما في قلوب المنافقين من النفاق الذي يسرون"[٩].
قال مقاتل:" يقول وترهبون فيما استعددتم به آخرين من دون كفار العرب، يعني: اليهود لا تعرفهم يا محمد {الله يعلمهم}، يقول: الله يعرفهم، يعني: اليهود"[١٠].
وفي قوله تعالى:{وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ} [الأنفال : ٦٠]، أقوال:
أحدها : هم بنو قريظة ، قاله مجاهد[١١].
والثاني : أهل فارس والروم. قاله السدي[١٢].
والثالث : المنافقون ؛ قاله الحسن وابن زيد[١٣].
والرابع : الشياطين، قاله معاذ بن جبل[١٤]. وحكي الطبري عن الآخرين أنهم قوم من الجن[١٥].
والخامس : كل من لا تعرفون عداوته ، قاله بعض المتأخرين[١٦].
والسادس: أنهم الأعداء الذين يكونون من بعد إلى يوم القيامة. أفاده الماتريدي[١٧].
قال الطبري:" وأما قوله : {وآخرين من دونهم لا تعلمونهم}، فإن قول من قال : عنى به الجن ، أقربُ وأشبهُ بالصواب ، لأنه جل ثناؤه قد أدخل بقوله : {ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم} ، الأمرَ بارتباط الخيل لإرهاب كل عدوٍّ لله وللمؤمنين يعلمونهم ، ولا شك أن المؤمنين كانوا عالمين بعداوة قريظة وفارس لهم ، لعلمهم بأنهم مشركون ، وأنهم لهم حرب. ولا معنى لأن يقال : وهم يعلمونهم لهم أعداءً : (وآخرين من دونهم لا تعلمونهم) ، ولكن معنى ذلك إن شاء الله : ترهبون بارتباطكم ، أيها المؤمنون ، الخيلَ عدوَّ الله وأعداءكم من بني آدم الذين قد علمتم عداوتهم لكم ، لكفرهم بالله ورسوله ، وترهبون بذلك جنسًا آخر من غير بني آدم

---

[١]تفسير مقاتل بن سليمان:١٢٣/٢ .
[٢] تفسير الطبري:٣١/١٤.
[٣] أخرجه الطبري(١٦٢٣٣):ص٣٤/١٤.
[٤] أخرجه الطبري(١٦٢٣٥):ص٣٥/١٤.
[٥]ديوانه : ٥٦ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٤٩ يمدح بها بني جعفر بن كلاب ، من أبيات ثلاثة ، مفردة.
[٦] انظر: تفسير الطبري:٣٥/١٤، ومجاز القرآن لأبي عبيدة:٢٤٩/١.
[٧] صفوة التفاسير:٤٧٤/١.
[٨] معاني القرآن:٤٢٢/٢.
[٩] أخرجه ابن أبي حاتم(٩١١٣):ص١٧٢٤/٥.
[١٠]تفسير مقاتل بن سليمان:١٢٣/٢ .
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٦٢٣٩):ص٣٦/١٤.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٦٢٤١):ص٣٦/١٤.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٢٤٢):ص٣٦/١٤.
[١٤] انظر: النكت والعيون:٣٣٠/٢.
[١٥] انظر: تفسير الطبري:٣٧/١٤.
[١٦] انظر: النكت والعيون:٣٣٠/٢.
[١٧] انظر: تاويلات أهل السنة:٢٤٩/٥.

، لا تعلمون أماكنهم وأحوالهم ، الله يعلمهم دونكم ، لأن بني آدم لا يرونهم. وقيل : إن صهيل الخيل يرهب الجن ، وأن الجن لا تقرب دارًا فيها فرس.

فإن قال قائل : فإن المؤمنين كانوا لا يعلمون ما عليه المنافقون ، فما تنكر أن يكون عُنِي بذلك المنافقون ؟

قيل : فإن المنافقين لم يكن تروعهم خيل المسلمين ولا سلاحهم ، وإنما كان يَرُوعهم أن يظهر المسلمون على سرائرهم التي كانوا يستسرُّون من الكفر ، وإنما أمر المؤمنون بإعداد القوة لإرهاب العدو ، فأما من لم يرهبه ذلك ، فغير داخل في معنى من أمر بإعداد ذلك له المؤمنون. وقيل : {لا تعلمونهم}، فاكتفي لـ «العلم»، بمنصوب واحد في هذا الموضع ، لأنه أريد : لا تعرفونهم ، كما قال الشاعر [١]:

فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُنِي وَوَهْبًا وَأَنَّا سَوْفَ يَلْقَاهُ كِلانا"[٢].

قوله تعالى:{وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنفال : ٦٠]، أي:" وما تنفقوا في الجهاد وفي سائر وجوه الخيرات"[٣].

قوله تعالى:{يُوَفَّ إِلَيْكُمْ} [الأنفال : ٦٠]، أي:" تُعْطون جزاءه وافياً كاملاً يوم القيامة"[٤].

عن ابن عباس عن النبي ﷺ :"أنه كان يأمر بأن لا يصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت: {وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم}، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين"[٥].

قوله تعالى:{وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال : ٦٠]، أي:" ولا تنقصون من ذلك الأجر شيئاً"[٦].

قال محمد بن إسحاق: " أي: لا يضيع لكم عند الله أجره في الآخرة وعاجل خلفه في الدنيا"[٧].

الفوائد:

١- وجوب إعداد القوة وهي في كل زمان بحسبه.
٢- أن القوة مطلوبة في الإسلام، القوة في الإيمان والعقيدة، والقوة في العمل، والقوة في الأبدان؛ لأن هذا ينتج خيرًا للمسلمين.
٣- أن الواجب على كل دولة إسلامية عربية أو غير عربية أن تعد العدة وأن تستقيم على دين الله وعلى شريعته، وأعظم العدة الاستقامة على الحق والثبات عليه وطاعة الله ورسوله في كل شيء وتحكيم شريعته، هذه هي العدة، ثم العدة الحسية من الجيش الطيب والسلاح المناسب في الوقت الحاضر حسب طاقتهم، فالله أمرهم بما يستطيعون، حيث يقول تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ}.

---

[١] الشعر لنمر بن تولب،انظر: الاقتضاب : ٣٠٣ ، المفصل الزمخشري : ٨٨ . وكان النمر بن تولب ، نازع رجلا يقال له " وهب " ، من قومه ، في بئر تدعى " الدحول " (بالحاء المهملة) ، في أرض عكل ، نميرة الماء ، يقول فيها من هذه الأبيات :

ولكنَّ الدَّحُولَ إذَا أتَاهَا ... عِجَافُ المَالِ تتْرُكُهُ سِمَانَا

وكان النمر سقاه منها ، فلم يشكر له ، وخان الأمانة ونازعه فيها فقال :

يُرِيدُ خِيَانَتِي وَهْبٌ ، وأَرْجُو ... مِنَ اللهِ البراءَةَ وَالأمَانَا

فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُنِي وَوَهْبًا ... وَيَعْلَمُ أَنْ سَيَلْقَاهُ كِلانَا

وَإِنَّ بَنِي رَبِيعَةَ بَعْدَ وَهْبٍ ... كَرَاعِي البَيْتِ يَحْفَظُهُ فخانَا.

[٢] تفسير الطبري:١٤/٣٧-٣٩.

[٣] صفوة التفاسير:٤٧٤/١.

[٤] صفوة التفاسير:٤٧٤/١.

[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٩١١٤):ص١٧٢٤/٥.

[٦] صفوة التفاسير:٤٧٤/١.

[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٩١١٥):ص١٧٢٤/٥.

٤- شملت الآية لقسمي الجهاد: جهاد السيف والسنان وجهاد الحجة والبيان.

القرآن

{وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١)} [الأنفال : ٦١]

التفسير:

وإن مالوا إلى ترك الحرب ورغبوا في مسالمتكم فمِلْ إلى ذلك -أيها النبي- وفَوِّضْ أمرك إلى الله، وثق به. إنه هو السميع لأقوالهم، العليم بنيَّاتهم.

قوله تعالى:{وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا} [الأنفال : ٦١]، أي:" وإن مالوا إلى ترك الحرب ورغبوا في مسالمتكم فمِلْ إلى ذلك -أيها النبي-"[١].

قال مجاهد:" يعني: الصلح، يعني: قريظة"[٢].

قال مقاتل:" يقول: إن أرادوا الصلح فأرده"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : وإما تخافنّ من قوم خيانة وغدرًا ، فانبذ إليهم على سواء وآذنهم بالحرب {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها}، وإن مالوا إلى مسالمتك ومتاركتك الحربَ ، إما بالدخول في الإسلام ، وإما بإعطاء الجزية ، وإما بموادعة ، ونحو ذلك من أسباب السلم والصلح، فمل إليها ، وابذل لهم ما مالوا إليه من ذلك وسألوكه"[٤].

يقال منه: جنح الرجل إلى كذا يجنح إليه جنوحًا، وهي لتميم وقيس ، فيما ذكر عنها ، تقول :يجنُح، بضم النون ، وآخرون : يقولون :يَجْنِح، بكسر النون ، وذلك إذا مال ، ومنه قول نابغة بني ذبيان[٥]:

جَوَانِحَ قَدْ أَيْقَنَّ أَنَّ قَبِيلَهُ إذَا ... مَا التَقَى الجمْعانِ أَوَّلُ غَالِبِ

جوانح : موائل[٦].

قرأ عاصم وحده فى رواية أبى بكر {وإن جنحوا للسلم} بكسر «السين»، وقرأ الباقون {للسلم}، وروى حفص عن عاصم {للسلم} أيضا بالفتح[٧].

قوله تعالى:{وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [الأنفال : ٦١]، أي:" وفَوِّضْ أمرك إلى الله، وثق به"[٨].

قال الطبري:"يقول:فوّض إلى الله، يا محمد ، أمرك ، واستكفِه ، واثقًا به أنه يكفيك"[٩].

وقال مقاتل:" يقول وثق بالله فإنه معك في النصر إن نقضوا الصلح"[١٠].

عن ابن إسحاق : "{وتوكل على الله}، إن الله كافيك"[١١].

---

(١) التفسير الميسر:١٨٤.

(٢) تفسير مجاهد:٣٥٧.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:١٢٣/٢.

(٤) تفسير الطبري:٤٠/١٤.

(٥)ديوانه : ٤٣ ، من شعره المشهور في عمرو بن الحارث الأعرج ، حين هرب إلى الشأم ، من النعمان بن المنذر في خبر المتجردة ، وقبله ، ذكر فيها غارة جيشه ، والنسور التي تتبع الجيش :

إذَا مَا غَزَوْا بِالجَيْشِ ، حَلَّقَ فَوْقَهُمْ ... عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ

يُصَاحِبْنَهُمْ حَتَّى يُغِرْنَ مُغَارَهم ... مِنَ الضَّارِيَاتِ بالدِّمَاءِ الدَّوَارِبِ

تَرَاهُنَّ خَلْفَ القومِ خُزْرًا عُيُونهَا ... جُلُوسَ الشُّيُوخِ فِي ثِيَابِ المَرَانِبِ

جَوَانِحَ قَدْ أَيْقَنَّ . . . .

وهذا من جيد الشعر وخالصه.

(٦) انظر: تفسير الطبري:٤٠/١٤.

(٧) انظر: السبعة في القراءات:٣٠٨.

(٨) التفسير الميسر:١٨٤.

(٩) تفسير الطبري:٤٣/١٤.

(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:١٢٣/٢.

(١١) أخرجه الطبري(١٦٢٥٢):ص٤٣/١٤.

قوله تعالى:{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنفال : ٦١]، أي:" إنه هو السميع لأقوالهم، العليم بنيَّاتهم"[١].

قال الطبري:" يعني بذلك : إن الله الذي تتوكل عليه ،{سميع}، لما تقول أنت ومن تسالمه وتتاركه الحربَ من أعداء الله وأعدائك عند عقد السلم بينك وبينه ، وما يشترط كل فريق منكم على صاحبه من الشروط {العليم}، بما يضمره كل فريق منكم للفريق الآخر من الوفاء بما عاقده عليه ، ومن المضمر ذلك منكم في قلبه ، والمنطوي على خلافه لصاحبه"[٢].

وقال مقاتل:" {إنه هو السميع} لما أرادوا من الصلح، {العليم} به" [٣].

اختلف المفسرون في حكم هذه الآية، على قولين:

أحدهما: أن المعنيين هم المشركون، وأنها نسخت بآية السيف. وبعضهم يقول: بقوله: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [التوبة : ٢٩]. وهذا مروي عن ابن عباس[٤]، والحسن[٥]، وعكرمة[٦]، وعكرمة[٦]، وقتادة[٧]، وابن زيد[٨].

وقال مقاتل:" نسختها الآية التي فى سورة محمد- ﷺ-: {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ} [محمد : ٣٥]" [٩].

والثاني: أن المعنيين هم أهل الكتاب. وأنها محكمة. وقال مجاهد: "قريظة"[١٠].

قال ابن الجوزي:" فعلى هذا القول إن قلنا: إنها نزلت في ترك حرب أهل الكتاب إذا بذلوا الجزية وقاموا بشرط الذمة فهي محكمة، وإن قيل: نزلت في موادعتهم على غير جزية توجه النسخ لها بآية الجزية وهي قوله تعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله}"[١١].

وقال ابن كثير-بعد عزو دعوى النسخ إلى قائليه-: "وفيه نظر لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك. فأما إن كان العدو كثيفا فإنه يجوز مهادنتهم كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية فلا منافاة ولا نسخ"[١٢].

وهكذا رد دعوى النسخ ابن العربي لعدم وجود الشروط لوقوعه[١٣]، ومكي بن أبي طالب[١٤]، والطبري[١٥].

الفوائد:

---

[١] التفسير الميسر:١٨٤.

[٢] تفسير الطبري:٤٣/١٤.

[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:١٢٣/٢.

[٤]ذكر النسخ النحاس هنا عن ابن عباس بآية: {فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم}، انظر: الناسخ والمنسوخ:١٥٥.
وذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٩٩، عن ابن عباس رضي الله عنهما وعزاه إلى أبي عبيد وابن المنذر، وابن أبي حاتم.
وذكر النسخ ابن الجوزي عن ابن عباس بآية{قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله}، انظر: نواسخ القرآن:٢/.٤٥٠

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٦٢٤٧):ص٤١/١٤.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٦٢٤٧):ص٤١/١٤.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٦٢٤٥)، و(١٦٢٤٦):ص٤١/١٤، والناسخ والمنسوخ للنحاس: ١٥٥؛ والإيضاح لمكي: ٢٥٩.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٦٢٥٠):ص٤٢/١٤.

[٩] تفسير مقاتل بن سليمان:١٢٣/٢.

[١٠] أخرجه الطبري(١٦٢٥١):ص٤٣/١٤.

[١١] نواسخ القرآن:٤٥١/٢.

[١٢] تفسير ابن كثير:٨٤/٤.

[١٣] انظر: إحكام القرآن:٢١/ ٨٧٦.

[١٤]انظر: الإيضاح: ٢٥٩.

[١٥] انظر: تفسير الطبري:٤٢/١٤-٤٣. قال الطبري:" فأما ما قاله قتادة ومن قال مثل قوله ، من أن هذه الآية منسوخة ، فقولٌ لا دلالة عليه من كتاب ولا سنة ولا فطرة عقل. وقد دللنا في غير موضع من كتابنا هذا وغيره على أن الناسخ لا يكون إلا ما نفى حكم المنسوخ من كل وجه. فأما ما كان بخلاف ذلك ، فغير كائنٍ ناسخا".

١- تقرير مبدأ: السلم المسلح.
٢- جواز قبول السلم في ظروف معينه، وعدم قبوله في أخرى وذلك بحسب حال المسلمين قوة وضعفا، لأن النبي ﷺ فعلهما جميعا، كما صالح أهل مكة على ترك الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وصالح كثيرا من قبائل العرب صلحا مطلقا، فلما فتح الله عليه مكة نبذ إليهم عهودهم، وأجل من لا عهد له أربعة أشهر، كما في قول الله سبحانه: {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢)} [التوبة : ١ - ٢].

وبعث ﷺ المنادين بذلك عام تسع من الهجرة بعد الفتح مع الصديق لما حج رضي الله عنه، ولأن الحاجة والمصلحة الإسلامية قد تدعو إلى الهدنة المطلقة ثم قطعها عند زوال الحاجة، كما فعل ذلك النبي ﷺ، وقد بسط العلامة ابن القيم - رحمه الله - القول في ذلك في كتابه (أحكام أهل الذمة) ، واختار ذلك شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة من أهل العلم[١].

٣- اثبات اسمين من أسمائه تعالى، وهما:«السميع»، «العليم»:

- فـ«السميع»: هو "الذي يسمع جميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، فالسر عنده علانية البعيد عنده قريب"[٢].

وسمعه تعالى نوعان[٣]:

احدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، واحاطته التامة بها.

والثاني: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيصيبهم ويثيبهم، ومنه قوله تعالى: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [إبراهيم:٣٩]، وقول المصلي «سمع الله لمن حمده»، أي: استجاب.

- و«العليم»:هو المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[٤].

القرآن

{وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢)} [الأنفال : ٦٢]

التفسير:

وإن أراد الذين عاهدوك المكر بك فإن الله سيكفيك خداعهم؛ إنه هو الذي أنزل عليك نصره وقوَّاك بالمؤمنين من المهاجرين والأنصار.

قوله تعالى:{وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ} [الأنفال : ٦٢]، أي:" وإن أراد الذين عاهدوك المكر بك"[٥].

قال البغوي:أي:" يغدروا ويمكروا بك"[٦].

قال الزجاج:" أي: إن أرادوا بإظهار الصلح خديعتك"[٧].

---

[١] انظر: مجموع فتاوى ابن باز: ٢١٢/٨-٢١٣.
[٢]توضيح الكافية الشافية:١١٨، وتفسير أسماء الله الحسنى للسعدي:٢٠٩.
[٣] انظر: الحق الواضح المبين:٣٥، تفسير اسماء الله الحسنى للسعدي:٢١٠.
[٤] انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.
[٥] التفسير الميسر:١٨٥.
[٦] تفسير البغوي:٣٧٤/٣.
[٧] معاني القرآن:٤٢٢/٢.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : وإن يرد ، يا محمد ، هؤلاء الذين أمرتك بأن تنبذ إليهم على سواء إن خفت منهم خيانة ، وبمسالمتهم إن جنحوا للسلم ، خداعَك والمكرَ بك"[١].

عن مجاهد ، "{وإن يريدوا أن يخدعوك}، قال : قريظة"[٢].

قوله تعالى:{فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ} [الأنفال : ٦٢]، أي:" فإن الله سيكفيك خداعهم"[٣].

قال البغوي:أي:" كافيك الله"[٤].

قال الزجاج:" أي: فإن الذي يتولى كفايتك الله"[٥].

قال الطبري:" يقول: فإن الله كافيكهم وكافيك خداعَهم إياك، لأنه متكفل بإظهار دينك على الأديان ، ومتضمِّنٌ أن يجعل كلمته العليا وكلمة أعدائه السفلى "[٦].

قال السعدي:" أي: كافيك ما يؤذيك، وهو القائم بمصالحك ومهماتك، فقد سبق [لك] من كفايته لك ونصره ما يطمئن به قلبك"[٧].

عن ابن إسحاق : "{وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله}، هو من وراء ذلك"[٨].

قوله تعالى:{هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال : ٦٢]، أي:" إنه هو الذي أنزل عليك نصره وقوَّاك بالمؤمنين من المهاجرين والأنصار"[٩].

قال البغوي:" أي: بالأنصار"[١٠].

قال الطبري:"يقول : الله الذي قواك بنصره إياك على أعدائه{وبالمؤمنين} ، يعني: بالأنصار"[١١].

قال السعدي:" أي: أعانك بمعونة سماوية، وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء، ومعونة بالمؤمنين بأن قيضهم لنصرك"[١٢].

قال الزجاج:" معنى{أيدك}: قواك"[١٣].

عن السدي: "{هو الذي أيدك بنصره}، قال : بالأنصار"[١٤].

الفوائد:

١- أن الحسب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة، قال تعالى: {وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ}، ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده، وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} ٣. ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله[١٥].

٢- بيان تأييد النبي ﷺ بالصحابة رضي الله عنهم، إذ ألّف بين قلوبهم وجعلهم إخوانا بعضهم يحب بعض.

---

(١) تفسير الطبري:٤٤/١٤.
(٢) أخرجه الطبري(١٦٢٥٣):ص٤٤/١٤.
(٣) التفسير الميسر:١٨٥.
(٤) تفسير البغوي:٣٧٤/٣.
(٥) معاني القرآن:٤٢٣/٢.
(٦) تفسير الطبري:٤٤/١٤.
(٧) تفسير السعدي:٣٢٥.
(٨) أخرجه الطبري(١٦٢٥٤):ص٤٤/١٤.
(٩) التفسير الميسر:١٨٥.
(١٠) تفسير البغوي:٣٧٤/٣.
(١١) تفسير الطبري:٤٤/١٤.
(١٢) تفسير السعدي:٣٢٥.
(١٣) معاني القرآن:٤٢٣/٢.
(١٤) أخرجه الطبري(١٦٢٥٥):ص٤٤/١٤.
(١٥) انظر: زاد المعاد: ١٦/١ ـ ١٧.

القرآن
{وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)} [الأنفال : ٦٣]

التفسير:

وجَمَع بين قلوبهم بعد التفرق، لو أنفقت مال الدنيا على جمع قلوبهم ما استطعت إلى ذلك سبيلا ولكن الله جمع بينها على الإيمان فأصبحوا إخوانًا متحابين، إنه عزيز في مُلْكه، حكيم في أمره وتدبيره.

قوله تعالى:{وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ} [الأنفال : ٦٣]، أي:" وجَمَع بين قلوبهم بعد التفرق"(١).

قال الفراء:يعني:" بين قلوب الأنصار من الأوس والخزرج كانت بينهم حرب، فلما دخل المدينة رسول الله ﷺ أصلح الله به وبالإسلام ذات بينهم"(٢).

قال الزجاج:" أي: جمعهم على المودة على الإيمان"(٣).

قال الطبري:يريد" وجمع بين قلوب المؤمنين من الأوس والخزرج ، بعد التفرق والتشتت ، على دينه الحق ، فصيَّرهم به جميعًا بعد أن كانوا أشتاتًا ، وإخوانًا بعد أن كانوا أعداء"(٤).

قال السعدي:أي:" فاجتمعوا وائتلفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا بسعي أحد، ولا بقوة غير قوة الله"(٥).

عن السدي : "{وألف بين قلوبهم}، قال : هؤلاء الأنصار ، ألف بين قلوبهم من بعد حرب ، فيما كان بينهم"(٦).

عن ابن إسحاق:"{وألف بين قلوبهم}، على الهدى الذي بعثك به إليهم"(٧).

قال محمد جواد مغنية: "ليس من شك أن الله سبحانه هو الذي ألف بين قلوب الصحابة بعد أن كانت عصية على التأليف بخاصة بين الأوس والخزرج الذين امتدت الحروب بينهم ١٢٠ سنة .. وأيضاً ليس من شك أن الله سبحانه يجري الأمور على سننها، والمسببات على أسبابها؛ وسبب التأليف بين قلوب أصحاب محمد ﷺ هو الإسلام وإيمانهم به نظرياً وعملياً، والإسلام من عند الله، فصحت النسبة إليه تعالى"(٨).

قوله تعالى:{لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ} [الأنفال : ٦٣]، أي:" لو أنفقت مال الدنيا على جمع قلوبهم ما استطعت إلى ذلك سبيلا، ولكن الله جمع بينها على الإيمان فأصبحوا إخوانًا متحابين"(٩).

قال السعدي:أي:" فلو أنفقت ما في الأرض جميعا من ذهب وفضة وغيرهما لتأليفهم بعد تلك النفرة والفرقة الشديدة {ما ألفت بين قلوبهم} لأنه لا يقدر على تقليب القلوب إلا الله تعالى"(١٠).

قال الطبري:يريد" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : لو أنفقت ، يا محمد ، ما في الأرض جميعا من ذهب ووَرِق وعَرَض ، ما جمعت أنت بين قلوبهم بحيْلك، ولكن الله جمعها على الهدى فأتلفت واجتمعت ، تقوية من الله لك وتأييدًا منه ومعونة على عدوك. يقول جل ثناؤه :

---

(١) التفسير الميسر:١٨٥.
(٢) معاني القرآن:٤١٧/١.
(٣) معاني القرآن:٤٢٣/٢.
(٤) تفسير الطبري:٤٥/١٤.
(٥) تفسير السعدي:٣٢٥.
(٦) أخرجه الطبري(١٦٢٥٦):ص٤٥/١٤.
(٧) أخرجه الطبري(١٦٢٥٨):ص٤٦/١٤.
(٨) التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية:٣/ ٥٠٣.
(٩) التفسير الميسر:١٨٥.
(١٠) تفسير السعدي:٣٢٥.

والذي فعل ذلك وسبَّبه لك حتى صاروا لك أعوانًا وأنصارًا ويدًا واحدة على من بغاك سوءًا هو الذي إن رام عدوٌّ منك مرامًا يكفيك كيده وينصرك عليه ، فثق به وامض لأمره ، وتوكل عليه"[١].

قال الزجاج:" أعلم الله جل وعز أن تأليف قلوب المؤمنين من الآيات العظام وذلك أن النبي - ﷺ - بعث إلى قوم أنفتهم شديدة، ونصرة بعضهم بعضا ومعاونته أبلغ نصرة ومعاونة، كان يلطم من القبيلة لطمة فيقاتل عنه حتى يدرك ثأره، فألف الايمان بين قلوبهم حتى قاتل الرجل أباه وأخاه وابنه، فأعلم الله عز وجل أن هذا ما تولاة منهم إلا هو"[٢].

عن ابن إسحاق:" {لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم}، بدينه الذي جمعهم عليه يعني الأوس والخزرج"[٣].

عن الوليد بن أبي مغيث ، عن مجاهد قال : "إذا التقى المسلمان فتصافحا غُفِر لهما. قال قلت لمجاهد : بمصافحةٍ يغفر لهما ؟ فقال مجاهد: أما سمعته يقول : {لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم}؟ فقال الوليد لمجاهد : أنت أعلم مني"[٤].

عن عبدة بن أبي لبابة، عن مجاهد ، ولقيته وأخذ بيدي فقال : إذا تراءى المتحابَّان في الله، فأخذ أحدهما بيد صاحبه وضحك إليه ، تحاتّت خطاياهما كما يتحاتُّ ورق الشجر. قال عبدة : فقلت له : إنّ هذا ليسير! قال : لا تقل ذلك ، فإن الله يقول : {لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم}! قال عبدة : فعرفت أنه أفقه مني"[٥].

عن أبي الأحوص قال : "سمعت عبد الله يقول : {لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم}، الآية ، قال : هم المتحابون في الله"[٦].

عن عمير بن إسحاق قال: "كنا نُحدَّث أن أوّل ما يرفع من الناس- أو قال : عن الناس- الألفة"[٧].

قوله تعالى:{إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال : ٦٣]، أي:" ، إنه عزيز في مُلْكه، حكيم في أمره وتدبيره"[٨].

قال الطبري:" يقول : إن الله الذي ألف بين قلوب الأوس والخزرج بعد تشتت كلمتهما وتعاديهما ، وجعلهم لك أنصارًا {عزيز}، لا يقهره شيء ، ولا يردّ قضاءه رادٌّ ، ولكنه ينفذ في خلقه حكمه. يقول : فعليه فتوكل ، وبه فثق{حكيم}، في تدبير خلقه"[٩].

الفوائد:

١- في هذه الآية تذكير الله تعالى لنبيه بما أنعم عليه من تأييده له بالمؤمنين الذين هم المهاجرون والأنصار.

٢- إن الله تعالى جعل أحد أسباب تأييد الرسول ﷺ الصحابة الكرام وقد ألف بين قلوبهم وجمع كلمتهم ووحد صفهم ومن كانت هذه صفته فلابد أن يكون عدلاً خياراً.

٣- أنه لا ألفة ولا تعاون ولا تناصر، إلا بتعميق مفهوم الإيمان في النفوس، ولنا في هذا تجربة فريدة مضيئة سوف تبقى مثلا أعلى ما بقيت الحياة فقد كانت حياة العرب قبل الإسلام أشبه بحالنا اليوم من الفرقة والقتال والتناحر والخصام والأنانية، وحب الذات، وعدم التمييز في النصر بين الظالم والمظلوم، وعدم الإيثار، والتضحية للمضطهدين

---

[١] تفسير الطبري:٤٥/١٤.
[٢] معاني القرآن:٤٢٣/٢.
[٣] أخرجه الطبري(١٦٢٥٨):ص٤٦/١٤.
[٤] أخرجه الطبري(١٦٢٥٩):ص٤٦/١٤.
[٥] أخرجه الطبري(١٦٢٦٠):ص٤٦/١٤-٤٧.
[٦] أخرجه الطبري(١٦٢٦٤):ص٤٨/١٤.
[٧] أخرجه الطبري(١٦٢٦٢):ص٤٧/١٤-٤٨.
[٨] التفسير الميسر:١٨٥.
[٩] تفسير الطبري:٤٨/١٤.

والمحتاجين والمشردين من الضعفاء والمساكين، وعندما شع نور الإسلام في قلوب أولئك القوم قلب أفعالهم وأقوالهم رأسا على عقب فاستيقظوا بعد الضلالة والعمى وأدركوا أن التآخي في الله ليس مجرد شعار في كلمة يجرونها على ألسنتهم وتتناقلها أفواههم وإنما هو حقيقة عملية يتصل بواقع الحياة، وبكل أوجه العلاقات القائمة من تعاون وتناصر، وتناصح وإيثار ومحبة، وقد قام بتطبيق ذلك تطبيقا عمليا كل من المهاجرين والأنصار، رضوان الله عليهم، ثم تبعهم على ذلك عامة المسلمين على درجات متفاوتة.

وهذا يؤكد لنا أن مناط التآخي والمحبة والتناصر بين المسلمين هو فهم الإسلام فهما صحيحا، وتطبيقه تطبيقا تاما كما فهمه وطبقه أولئك الصفوة الأفاضل الأبرار، بلا تردد أو مداهنة أو احتيال.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات اسمين من أسماء الله. وهما «العزيز»«الحكيم»:

- فـ«العزيز»:هو المنيع الذي لا يغلب. والعز في كلام العرب على ثلاثة أوجه.

أحدها: بمعنى الغلبة، ومنه قولهم:من عز بز، أي: من غلب سلب، يقال منه: عز يعز -بضم العين- من يعز. ومنه قول الله سبحانه: {وعزني في الخطاب} [ص : ٢٣].

والثاني: بمعنى الشدة والقوة. يقال منه: عز يعز -بفتح العين- من "يعز" ، كقول الهذلي -يصف العقاب-[(١)]:

حتى انتهيت إلى فراش عزيزة سوداء روثة أنفها كالمخصف

جعلها عزيزة، لأنها من أقوى جوارح الطير.

والوجه الثالث: أن يكون بمعنى نفاسة القدر. يقال منه: عز الشيء يعز -بكسر العين- من يعز، فيتأول معنى العزيز على هذا، أنه الذي لا يعادله شيء، وأنه لا مثل له، ولا نظير"[(٢)].

- و«الحكيم»:"هو المحكم لخلق الأشياء. صرف عن مفعل إلى فعيل، كقولهم: أليم بمعنى: مؤلم، وسميع بمعنى: مسمع؛ كقوله -جل وعز-: {آلر، تلك آيات الكتاب الحكيم} [يونس:١] وقال في موضع آخر: {كتاب أحكمت آياته} [هود: ١]، فدل على أن المراد بـ«الحكيم هنا الذي أحكمت آياته، صرف عن مفعل إلى فعيل.

ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها، إذ ليس كل الخليقة موصوفا بوثاقة البنية، وشدة الأسر كالبقة، والنملة، وما أشبههما من ضعاف الخلق، إلا أن التدبير فيهما، والدلالة بهما على كون الصانع وإثباته، ليس بدون الدلالة عليه بخلق السموات والأرض والجبال وسائر معاظم الخليقة، وكذلك. هذا في قوله -جل وعز-: {الذي أحسن كل شيء خلقه} [السجدة:٧] لم تقع الإشارة به إلى الحسن الرائق في المنظر، فإن هذا المعنى معدوم في القرد، والخنزير، والدب، وأشكالها من الحيوان، وإنما ينصرف المعنى فيهإلى حسن التدبير في إنشاء كل شيء من خلقه على ما أحب أن ينشئه عليه وإبرازه على الهيئة التي أراد أن يهيئه عليها. كقوله [تعالى]: {وخلق كل شيء فقدره تقديرا} [الفرقان:٢]"[(٣)].

---

(١)ديوان الهذليين القسم الثاني ص ١١٠، وشرح أشعارهم للسكري ص ١٠٨٩ آخر قصيدة لأبي كبير الهذلي، أبياتها ٢٣ بيتاً، مطلعها:

أزهير هل عن شيبة من مصرف ... أم لا خلود لباذلٍ متكلفِ

وفي مقاييس اللغة ٢/ ١٨٢ وتهذيب الأزهري ٧/ ١٤٧ برواية: فتخاء، بدل، سوداء، وفي اللسان والقاموس وشرحه (عزز). وفي الديوان، يريد: أن منسرها حديد دقيق كأنه مخصف. والروثة: طرف الأنف، وفراشها: عشها.

والبيت استشهد به الزجاج في تفسير الأسماء ص ٣٤ على معنى "العزيز".

(٢) شأن الدعاء:١/٤٧-٤٨.

(٣)انظر:شأن الدعاء:١/٧٢-٧٣.

القرآن
{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤)} [الأنفال : ٦٤]
التفسير:
يا أيها النبي إن الله كافيك، وكافي الذين معك من المؤمنين شرَّ أعدائكم.
في سبب نزول الآية قولان:
أحدهما: عن سعيد بن جبير قال: "لما أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر، فنزلت:{يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين}"[١]. وروي عن سعيد بن المسيب نحو ذلك[٢]. وأخرج الطبراني نحوه عن ابن عباس[٣].
والثاني: عن محمد بن إسحاق عن الزهري في قول الله: "{حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين}، قال: يقال: نزلت في الأنصار"[٤].
قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ} [الأنفال : ٦٤]، أي:" يا أيها النبي إن الله كافيك شرّ أعدائك"[٥].
قال الواحدي:" المعنى: يكفيك الله"[٦].
قال النحاس:" {حسبك الله}، ابتداء وخبر، أي: كافيك الله، ويقال: أحسبه إذا كفاه"[٧].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : {يا أيها النبي حسبك الله}"[٨].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(٩١٣٥):ص١٧٢٨/٥.
[٢] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٧٢٨/٥. حكاه دون ذكر الإسناد.
[٣]روي الطبراني (١٢/ ٦٠) (١٢٤٧٠) من طريق إسحاق بن بشر الكاهلي ثنا خلف بن خليفة عن أبي هاشم الرماني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «أسلم مع النبي - ﷺ - تسعة وثلاثون رجلا وامرأة، وأسلم عمر تمام الأربعين، فأنزل الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}». قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٠١): [رواه الطبراني وفيه إسحاق بن بشر الكاهلي وهو كذاب].
قال عبدالسلام بن محسن آل عيسى في كتابه: "دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية رضي الله عنه" (١/ ١٤٣: ١٤٧): [وكان إسلام عمر رضي الله عنه فيما روي بعد تسعة وثلاثين رجلاً. وقيل: إن إسلامه كان بعد أربعين رجلاً. وقيل: بعد خمسة وأربعين رجلاً. وأمّا عدد النساء اللاتي سبقن عمر بالإسلام فقيل إنهن إحدى عشرة إمرأة. وقيل إحدى وعشرين. وهذه الروايات لا تخلو من ضعف كما هو مبين في الهامش، ولكنها متقاربة في تحديد العدد، فالرواية الأولى حددت عدد الرجال السابقين لعمر بالإسلام بتسعة وثلاثين، والثانية حددتهم بأربعين، والثالثة بخمسة وأربعين، وهذا فارق غير معتبر إذ إنّ زيادة العدد، أو نقصه بواحد، أو اثنين، أو ثلاثة، أو أربعة أمر معتاد في الإحصاء حيث إن بعض المسلمين كان يخفي إسلامه فيعلم به البعض، ويخفي على البعض.
وعلى أيّ حال فإن إسلام عمر - رضي الله عنه - كان في السنة السادسة، أو السابعة كما تقدم ذلك. إلاّ أن تحديد عدد من أسلم من الرجال بأربعين، أو نحوها، والنساء بعشرة، أو عشرين فيه نظر، فإن ابن إسحاق رحمه الله ذكر أن عدد المهاجرين إلى الحبشة الهجرة الثانية كانوا ثلاثة وثمانين رجلاً. ونقل ابن حجر عن ابن جرير الطبري أن نساءهم، وأبناءهم كانوا معهم، فقال: وقيل: إن عدة نسائهم ثمان عشرة امرأة. وقد ذكر ابن إسحاق أن إسلام عمر رضي الله عنه كان بعد الهجرة الثانية إلى الحبشة. لذلك قال ابن كثير رحمه الله بعد أن ذكر إسلام عمر كان بعد الهجرة الثانية للحبشة: "وهذا يرد قول من زعم أنه (أي: إسلام عمر) كان تمام أربعين من المسلمين، فإن المهاجرين إلى الحبشة كانوا فوق الثمانين، اللهم إلا أن يقال: إنه كان تمام الأربعين بعد خروج المهاجرين". ولعلّ مما يؤيّد كلام ابن كثير - رحمه الله - قول ابن إسحق رحمه الله بعد ذكره لأسماء المهاجرين إلى الحبشة وهم ثلاثة وثمانون رجلاً. ثم ذكر إسلام عمر - رضي الله عنه - فقال: "وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله - ﷺ - إلى الحبشة"].
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٩١٣٦):ص١٧٢٨/٥.
[٥] التفسير الميسر:١٨٥.
[٦] الوجيز:٤٤٧.
[٧] معاني القرآن:١٠٣/٢.
[٨] تفسير الطبري:٤٨/١٤.

قوله تعالى:{وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال : ٦٤]، أي:" وإن الله كافي الذين معك من المؤمنين شرَّ أعدائكم"[١].

قال ابن أبي زمنين:" أي: و[الله] حسب من اتبعك"[٢].

قال الواحدي:المعنى:" ويكفي [الله] من اتَّبعك من المؤمنين "[٣].

قال الطبري:أي: "وحسب من اتبعك من المؤمنين ، الله، يقول لهم جل ثناؤه : ناهضوا عدوكم ، فإن الله كافيكم أمرهم ، ولا يهولنكم كثرة عددهم وقلة عددكم ، فإن الله مؤيدكم بنصره"[٤].

قال النحاس:" {ومن اتبعك} في موضع نصب معطوف على «الكاف» في التأويل، أي: يكفيك الله ويكفي من اتبعك"[٥].

قال الطبري:" يقول لهم جل ثناؤه: ناهضوا عدوكم، فإن الله كافيكم أمرهم، ولا يهولنكم كثرة عددهم وقلة عددكم، فإن الله مؤيدكم بنصره"[٦].

عن الشعبي:" {يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين}، قال:حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين، الله"[٧].

عن ابن زيد في قوله: "{يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين}، قال: يا أيها النبي حسبك الله، وحسب من اتبعك من المؤمنين، إنّ حسبك أنت وهم، الله"[٨].

قال الواحدي:" قال أهل المعاني: كرر في {حَسْبُكَ اللَّهُ} بعد ما ذكر في قوله: {وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ}؛ لأن المعنى هناك: إن أرادوا خداعك كفاك الله أمرهم، والمعنى هاهنا عام في كل كفاية تحتاج إليها"[٩].

وفي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال : ٦٤]، قولان[١٠]:

أحدهما: معناه: حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين الله ، وهذا قول الشعبي[١١]، وابن والكلبي[١٣]، ومقاتل[١٤].

أي: يكفيك الله ويكفي من اتبعك من المؤمنين، فتكون {من} في موضع النصب. قال الشاعر[١٥]:

إِذَا كانت الهيجاء وانشقّتِ العصا ... فحسبُك والضَّحاكَ سيفٌ مُهَنَّد

والقول الثاني: حسبك الله ومتبعوك إلى جهاد العدو من المؤمنين ، دون القاعدين عنك منهم.

---

[١] التفسير الميسر:١٨٥.

[٢] تفسير ابن أبي زمنين:١٨٦/٢.

[٣] الوجيز:٤٤٧.

[٤] تفسير الطبري:٤٨/١٤-٤٩.

[٥] معاني القرآن:١٠٣/٢.

[٦] تفسير الطبري:٤٩/١٤.

[٧] أخرجه الطبري(١٦٢٦٥):ص٤٩/١٤.

[٨] أخرجه الطبري(١٦٢٦٨):ص٤٩/١٤.

[٩] التفسير البسيط:٢٣٠/١٠. ذكره بمعناه الفخر الرازي ١٥/ ١٩١، والقرطبي ٨/ ٤٢.

[١٠] انظر: معاني القرآن للفراء:٤١٧/١، ومعاني القرآن للنحاس:١٠٣/٢، وتفسير السمعاني:٢٧٧/٢، والنكت والعيون:٣٣١/٢.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١٦٢٦٥)- (١٦٢٦٧):ص٤٩/١٤.

[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٦٢٦٨):ص٤٩/١٤.

[١٣] انظر: النكت والعيون:٣٣١/٢.

[١٤] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١٢٤/٢.

[١٥]الشاهد لجرير في ذيل الأمالي ١٤٠، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في خزانة الأدب ٧/ ٥٨١، وسمط اللئالي ص ٨٩٩، وشرح الأشموني ١/ ٢٢٤، وشرح شواهد الإيضاح ص ٣٧٤، وشرح شواهد المغني ٢/ ٩٠٠، وشرح عمدة الحافظ ٤٠٧، وشرح المفصل ٢/ ٥١، ولسان العرب (حسب) و (هيج) ، و (عصا) ، ومغني اللبيب ٢/ ٥٦٣، والمقاصد النحوية ٣/ ٨٤.

أي: وحسبك تباعك من المؤمنين؛ فتكون {من} في موضع الرفع. وهذا قول الفراء[1]، واستشهد على صحة قوله ذلك بقوله : {حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ} [الأنفال : ٦٥].

قال الثعلبي:" قال اكثر المفسرين: محل {مَنِ} نصب عطفا على «الكاف» في قوله {حَسْبُكَ}، ومعنى الآية: وحسب من أتبعك، وقال بعضهم رفع عطفا على اسم «الله»، تقديره: حسبك الله ومتّبعوك من المؤمنين"[2].

وقد سئل الجلال السيوطي عن قول الناس: «ما لي إلا الله وأنت»؛ هل يجوز عملا بقوله تعالى: {يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين} [الأنفال: ٦٤]؛ فأجاب بأن ذلك القول لا تشهد لصحته الآية، لأن قوله: {ومن اتبعك} معطوف على الكاف لا على لفظ الجلالة، فيكون المعنى: الله حسبك وحسب من اتبعك، واستدل لعدم الجواز بما ورد أن رجلا قال للنبي - ﷺ -: ما شاء الله، وشئت. فقال له - ﷺ -: «بل ما شاء الله وحده»[3].

عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: - «حسبنا الله ونعم الوكيل» - قالها إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: {إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل} [آل عمران:١٧٣]"[4].

الفوائد:

١- لا كافي إلا الله تعالى، ومن زعم أن هناك من يكفي سوى الله تعالى فقد أشرك.
٢- أن الله وحده حسب كل أحد، لا يشاركه في ذلك أحد، وهذا هو المعنى الصحيح لقول تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [الأنفال: ٦٤]، وهو المعنى الذي اختاره أكثر العلماء والذي تؤيده الأدلة الكثيرة.
قال ابن القيم رحمه الله بعد ذكره للآية السابقة: "أي: الله وحده كافيك، وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد"[5].
٣- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات عدالة الصحابة بتعديل الله لهم، وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم، فقال: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}.

القرآن

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥)} [الأنفال : ٦٥]

التفسير:

يا أيها النبي حُثَّ المؤمنين بك على القتال، إن يكن منكم عشرون صابرون عند لقاء العدو يغلبوا مائتين منهم، وإن يكن منكم مائة مجاهدة صابرة يغلبوا ألفًا من الكفار؛ لأنهم قوم لا عِلْم ولا فهم عندهم لما أعدَّ الله للمجاهدين في سبيله، فهم يقاتلون من أجل العلو في الأرض والفساد فيها.

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ} [الأنفال : ٦٥]، أي:" يا أيها النبي حُثَّ المؤمنين بك على القتال"[6].

قال البغوي:" أي: حثهم على القتال"[7].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: حُثَّ متبعيك ومصدِّقيك على ما جئتهم به من الحق، على قتال من أدبر وتولى عن الحق من المشركين"[1].

---

[1] انظر: معاني القرآن:٤١٧/١.
[2] الكشف والبيان:٣٧٠/٤.
[3] أخرجه ابن ماجه: الكفارات (٢١١٧) ، وأحمد (٢١٤/١). وجواب السيوطي ذكره في " الحاوي " (١/ ٣٣٧).
[4] البخاري (٤٥٦٣)، والنسائي في الكبرى (١١٠١٥).
[5] زاد المعاد: ١٢، وانظر: الحق الواضح المبين، ص٧٨، وشرح النونية للهراس، ٢/ ١٠٣.
[6] التفسير الميسر:١٨٥.
[7] تفسير البغوي:٣٧٤/٣.

قال الزجاج:" «التحريض» في اللغة، أن يحث الإنسان على الشيء حثا يعلم معه أنه حارض إن تخلف عنه، و«الحارض» الذي قد قارب الهلاك، وقوله تعالى: {حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا} [يوسف : ٨٥]، أي: حتى تذوب غما فتقارب الهلاك فتكون من الهالكين"[٢].

قال أبو السعود:" أي: بالغ في حثهم عليه وترغيبهم فيه بكل ما أمكن من الأمور المرغبة التي أعظمها تذكير وعده تعالى بالنصر وحكمه بكفايته تعالى أو بكفايتهم وأصل «التحريض»: الحرض، وهو أن ينهكه المرض حتى يشفي على الموت، وقال الراغب كأنه في الأصل إزالة الحرض وهو ما لا خير فيه ولا يعتد به. قلت: فالأوجه حينئذ أن يجعل الحرض عبارة عن ضعف القلب الذي هو من باب نهك المرض، وقيل: معنى «تحريضهم» تسميتهم حرضا بأن يقال إني أراك في هذا الأمر حرضا، أي: محرضا فيه لتهيجه إلى الإقدام وقرئ حرص بالصاد المهملة وهو واضح"[٣].

قوله تعالى:{إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ} [الأنفال : ٦٥]، أي:" إن يكن منكم عشرون صابرون عند لقاء العدو يغلبوا مائتين منهم"[٤].

قال الطبري:"{إن يكن منكم عشرون} رجلا{صابرون}، عند لقاء العدو، ويحتسبون أنفسهم ويثبتون، لعدوهم {يغلبوا مئتين}، من عدوهم ويقهروهم "[٥].

قال أبو السعود:" وعد كريم منه تعالى بتغليب كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم بطريق الاستئناف بعد الأمر بتحريضهم"[٦].

قوله تعالى:{وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [الأنفال : ٦٥]، أي:" وإن يكن منكم مائة مجاهدة صابرة يغلبوا ألفًا من الكفار "[٧].

قوله تعالى:{بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} [الأنفال : ٦٥]، أي:" لأنهم قوم لا عِلْم ولا فهم عندهم لما أعدَّ الله للمجاهدين في سبيله، فهم يقاتلون من أجل العلو في الأرض والفساد فيها"[٨].

قال الطبري:" يقول: من أجل أن المشركين قوم يقاتلون على غير رجاء ثواب، ولا لطلب أجر ولا احتساب، لأنهم لم يفقهوا أن الله مُوجبٌ لمن قاتل احتسابًا، وطلب موعود الله في الميعاد، ما وعد المجاهدين في سبيله، فهم لا يثبتون إذا صدقوا في اللقاء، خشية أن يُقتلوا فتذهب دنياهم"[٩].

قال البغوي:" أي: إن المشركون يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب، ولا يثبتون إذا صدقتموهم القتال، خشية أن يقتلوا"[١٠].

قال أبو السعود:" أي: بسبب أنهم قوم جهلة بالله تعالى وباليوم الآخر لا يقاتلون احتسابا وامتثالا بأمر الله تعالى وإعلاء لكلمته وابتغاء لرضوانه كما يفعله المؤمنون وإنما يقاتلون للحمية الجاهلية واتباع خطوات الشيطان وإثارة ثائرة البغي والعدوان فلا يستحقون إلا القهر والخذلان وأما ما قيل من أن من لا يؤمن بالله واليوم الآخر لا يؤمن بالميعاد فالسعادة عنده ليست إلا هذه الحياة الدنيوية فيشح بها ولا يعرضها للزوال بمزاولة الحروب واقتحام موارد الخطوب فيميل إلى ما فيه السلامة فيفر فيغلب وأما من اعتقد أن لا سعادة في هذه الحياة الفانية وإنما السعادة

---

(١) تفسير الطبري:٥٠/١٤.
(٢) معاني القرآن:٤٢٣/٢-٤٢٤.
(٣) تفسير أبي السعود:٣٤/٤.
(٤) التفسير الميسر:١٨٥.
(٥) تفسير الطبري:٥٠/١٤-٥١.
(٦) تفسير أبي السعود:٣٤/٤.
(٧) التفسير الميسر:١٨٥.
(٨) التفسير الميسر:١٨٥.
(٩) تفسير الطبري:٥١/١٤.
(١٠) تفسير البغوي:٣٧٥/٣.

هي الحياة الباقية فلا يبال بهذه الحياة الدنيا ولا يقيم لها وزنا فيقدم على الجهاد بقلب قوي وعزم صحيح فيقوم الواحد من مثله مقام الكثير فكلام حق لكنه لا يلائم المقام"[١].

وروي عن ابن إسحاق: "{بأنهم قوم لا يفقهون}، أي لا يقاتلون على نِيَّةٍ ولا حقٍّ فيه، ولا معرفة بخير ولا شر"[٢].

قال الطبري:" وهذه الآية -أعني قوله: {إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين}- وإن كان مخرجها مخرج الخبر، فإن معناها الأمر. يدلّ على ذلك قوله: {الآن خفف الله عنكم}، فلم يكن التخفيف إلا بعد التثقيل. ولو كان ثبوت العشرة منهم للمئة من عدوهم كان غير فرض عليهم قبل التخفيف، وكان ندبًا، لم يكن للتخفيف وجه، لأن التخفيف إنما هو ترخيص في ترك الواحد من المسلمين الثبوتَ للعشرة من العدو. وإذا لم يكن التشديد قد كان له متقدِّمًا، لم يكن للترخيص وجه، إذ كان المفهوم من الترخيص إنما هو بعد التشديد. وإذ كان ذلك كذلك، فمعلوم أن حكم قوله: {الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا}، ناسخ لحكم قوله: {إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا}. وقد بينا في كتابنا «البيان عن أصول الأحكام»، أن كل خبرٍ من الله وعد فيه عباده على عملٍ ثوابًا وجزاء، وعلى تركه عقابًا وعذابًا، وإن لم يكن خارجًا ظاهرُه مخرج الأمر"[٣].

قال ابن الجوزي في حكم هذه الآية:" قال المفسرون: لفظ هذا الكلام لفظ الخبر، ومعناه الأمر والمراد: يقاتلوا مائتين، وكان هذا فرضا في أول الأمر ثم نسخ بقوله تعالى: {الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ} [الأنفال: ٦٦] ففرض على الرجل أن يثبت لرجلين فإن زاد جاز له الفرار"[٤].

قال الضحاك:" كان هذا واجبًا أن لا يفر واحد من عشرة"[٥].

قال عطاء:"كان الواحد لعشرة، ثم جعل الواحد باثنين؛ لا ينبغي له أن يفرَّ منهما"[٦].

عن السدي: "{إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين}، يقول: يقاتلوا مئتين، فكانوا أضعف من ذلك، فنسخها الله عنهم. فخفف فقال: {فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين}، فجعل أول مرة الرجل لعشرة، ثم جعل الرجل لاثنين"[٧].

قال ابن عباس:" لما نزلت هذه الآية، ثقلت على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مئتين، ومئة ألفا، فخفف الله عنهم. فنسخها بالآية الأخرى فقال: {الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين}، قال: وكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم ينبغ لهم أن يفروا منهم. وإن كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم أن يقاتلوا، وجاز لهم أن يتحوّزوا عنهم"[٨].

عن مجاهد في قوله: "{إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين}، قال: كان فرض عليهم إذا لقي عشرون مئتين أن لا يفروا، فإنهم إن لم يفرُّوا غَلَبوا. ثم خفف الله عنهم فقال: {إن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله} ، فيقول: لا ينبغي أن يفرّ ألف من ألفين، فإنهم إن صبروا لهم غلبوهم"[٩].

عن عكرمة، في قوله: "{إن يكن منكم عشرون صابرون}، قال: واحد من المسلمين وعشرة من المشركين. ثم خفف عنهم فجعل عليهم أن لا يفرَّ رجل من رجلين"[١٠].

---

[١] تفسير أبي السعود:٣٤/٤.
[٢] أخرجه الطبري(١٦٢٨٥):ص٥٦/١٤.
[٣] تفسير الطبري:٥٦/١٤-٥٧.
[٤] نواسخ القرآن:١٥٠.
[٥] أخرجه الطبري(١٦٢٨٣):ص٥٦/١٤.
[٦] أخرجه الطبري(١٦٢٦٩):ص٥١/١٤.
[٧] أخرجه الطبري(١٦٢٨١):ص٥٥/١٤-٥٦.
[٨] أخرجه الطبري(١٦٢٧١):ص٥٢/١٤.
[٩] أخرجه الطبري(١٦٢٨٢):ص٥٦/١٤.
[١٠] أخرجه الطبري(١٦٢٧٥):ص٥٤/١٤.

وعن عكرمة والحسن قالا قال في «سورة الأنفال»: {إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون}، ثم نسخ فقال: {الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا}، إلى قوله: {والله مع الصابرين}"[١].

قال أبو جعفر النحاس: "وهذا تخفيف لا نسخ، لأن معنى النسخ رفع حكم المنسوخ ولم يرفع حكم الأول، لأنه لم يقل فيه: لا يقاتل الرجل عشرة، بل إن قدر على ذلك فهو الاختيار له. ونظير هذا إفطار الصائم في السفر، لا يقال إنه نسخ الصوم، وإنما هو تخفيف ورخصة، والصيام له أفضل"[٢].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: وجوب تحريض. المؤمنين على الجهاد وحثهم عليه في كل زمان ومكان.
٢- ومنها أن الله تعالى قد مدح الصحابة رضي الله تعالى عنهمبالشجاعة وبأن القليل منهم يقاوم الكثير من الكفار وبأنهم كافون لرسول الله ﷺ في المساعدة والتأييد.
٣- حرمة هزيمة الواحد من الواحد والواحد من الاثنين، ويجوز ما فوق ذلك.
٤- وجوب تثقيف المجاهدين عقلا وروحا وصناعة.

القرآن

{الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)} [الأنفال : ٦٦]

التفسير:

الآن خفف الله عنكم أيها المؤمنون لما فيكم من الضعف، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين من الكافرين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين منهم بإذن الله تعالى. والله مع الصابرين بتأييده ونصره.

قوله تعالى:{الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا} [الأنفال : ٦٦]، أي:" الآن رفع الله عنكم ما فيه مشقة عليكم أيها المؤمنون، وعلم ضعفكم فرحمكم في أمر القتال"[٣].

قال البغوي:" أي: ضعفا في الواحد عن قتال العشرة وفي المائة عن قتال الألف"[٤].

قال الطبري:" يعني: أن في الواحد منهم عن لقاء العشرة من عدوهم ضعفًا"[٥].

وقرىء{ضَعْفًا} بضم الضاد وفتحها[٦]، وفي اختلاف القراءتين وجهان[٧]:

أحدهما : أنهما لغتان ومعناهما واحد ، قاله الفراء[٨].

والثاني : معناهما مختلف .

وفي اختلافهما وجهان[٩]:

أحدهما : أنها بالفتح : الضعف في الأموال ، وبالضم : الضعف في الأحوال .

الثاني : أنها بالفتح : الضعف في النيات ، وبالضم : الضعف في الأبدان .

وقيل بعكس الوجهين في الوجهين .

---

[١] أخرجه الطبري(١٦٢٧٤):ص٥٤/١٤.
[٢] الناسخ والمنسوخ:١٤٩.
[٣] صفوة التفاسير:٤٧٧/١
[٤] تفسير البغوي:٣٧٥/٣.
[٥] تفسير الطبري:٥١/١٤.
[٦] انظر: السبعة في القراءات:٣٠٨-٣٠٩.
[٧] انظر: السبعة في القراءات:٣٠٨-٣٠٩، والحجة للقراء السبعة:١٦٢/٤، والنكت والعيون:٣٠٣/٢.
[٨] انظر: النكت والعيون:٣٠٣/٢.
[٩] انظر النكت والعيون:٣٠٣/٢.

قوله تعالى:{فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ} [الأنفال : ٦٦]، أي:" إن يوجد منكم مائة صابرة على الشدائد يتغلبوا على مائتين من الكفرة"[١].

قال الطبري:أي:" عند لقائهم للثبات لهم، {يغلبوا مئتين} منهم"[٢].

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «إن تكن ... فإن تكن»[٣] بالتاء جميعا، وقرأ أبو عمرو «فإن تكن منكم مائة صابرة» بالتاء والأخرى بالياء، وقرأ عاصم وحمزة والكسائى الحرفين جميعا بالياء، وليس عن نافع خلاف أنهما بالتاء إلا ما رواه خارجة عن نافع أنهما بالياء [٤].

قوله تعالى:{وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ} [الأنفال : ٦٦]، أي:" وإن يوجد منكم ألف صابرون في ساحة اللقاء، يتغلبوا على ألفين من الأعداء بتيسير الله وتسهيله"[٥].

قال ابن ابي نجيح:" يقول: لا ينبغي أن يفر ألف من ألفين، فإنهم إن صبروا لهم غلبوهم"[٦].

قال الطبري:" {بإذن الله}، يعني: بتخلية الله إياهم لغلبتهم، ومعونته إياهم"[٧].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال : ٦٦]، أي:" والله مع الصابرين بتأييده ونصره"[٨].

قال الطبري:أي:"لعدوهم وعدو الله، احتسابًا في صبره، وطلبًا لجزيل الثواب من ربه، بالعون منه له، والنصر عليه"[٩].

وفي قوله تعالى:{وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال : ٦٦]، قولان[١٠]:

أحدهما : مع الصابرين على القتال في معونتهم على أعدائهم .

الثاني : مع الصابرين على الطاعة في قبول عملهم وإجزال ثوابهم.

قال الماوردي:"فصار حتماً على من لاقى عدوه من المشركين زحفاً أن لا ينهزم مع القوة على المصابرة حتى يقضي الله من أمره ما شاء فأما الهزيمة مع العجز عن المصابرة فإن قاتله أكثر من مثليه جاز أن يُولي عنهم منهزماً ، وإن قاتله مثلاه فمن دون حرم عليه أن يوليّ عنهم منهزماً على صفتين:

- إما أن يتحرف لقتال وهو أن يهرب ليطلب، ويفر ليكر فإن الحرب كرٌ وفرٌ ، وهرب وطلب.
- وإما أن يتحيز إلى فئة أخرى ليقاتل معها ، قربت الفئة أو بعدت، وذلك ظاهر في قوله تعالى :{وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَومَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ}، أي: صار بالمكان الذي يحق عليه غضب الله ، مأخوذ من المبوأ وهو المكان"[١١].

ومذهب الشافعي وأصحابه[١٢] وموافقيه أن هذا على العموم ، محكوم به في كل مسلم لاقى عدواً ، وبه قال عبد الله بن عباس[١٣].

---

[١] صفوة التفاسير:٤٧٧/١
[٢] تفسير الطبري:٥١/١٤.
[٣] في الآيتين: ٦٥، و٦٦.
[٤] انظر: السبعة في القراءات:٣٠٨.
[٥] صفوة التفاسير:٤٧٧/١
[٦] أخرجه الطبري(١٦٢٧٨):ص٥٥/١٤.
[٧] تفسير الطبري:٥١/١٤.
[٨] التفسير الميسر:١٨٥.
[٩] تفسير الطبري:٥١/١٤.
[١٠] انظر: النكت والعيون:٣٠٢/٢.
[١١] النكت والعيون:٣٠٢/٢.
[١٢] انظر: النكت والعيون:٣٠٣/٢.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٢٧٧):ص٥٤/١٤-٥٥.

قال ابن عباس:" إنما أمر الرجل أن يصبر نفسه لعشرة، والعشرة لمئة إذ المسلمون قليل، فلما كثر المسلمون، خفف الله عنهم. فأمر الرجل أن يصبر لرجلين، والعشرة للعشرين، والمئة للمئتين"[١].

وحكي عن الحسن[٢]، ومجاهد[٣]، وقتادة[٤]، والضحاك[٥]: أن ذلك خاص في أهل بدر ، بدر ، وبه قال أبو حنيفة[٦].

عن مجاهد قوله: "{إن يكن منكم عشرون صابرون}، إلى قوله: {وإن يكن منكم مئة}، قال: هذا لأصحاب محمد ﷺ يوم بدر، جعل على الرجل منهم عشرة من الكفار، فضجوا من ذلك، فجعل على الرجل قتال رجلين، تخفيفا من الله"[٧].

الفوائد:

١- وجوب الصبر في ساحة المعارك ويحرم الهزيمة إذا كان عدد المؤمنين اثنى عشر ألف مقاتل أو أكثر إذ هذا العدد لا يغلب١ من قلة بإذن الله تعالى.

٢- معية الله بالعلم والتأييد والنصر للصابرين دون الجزعين.

القرآن

{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧)} [الأنفال : ٦٧]

التفسير:

لا ينبغي لنبي أن يكون له أسرى مِن أعدائه حتى يبالغ في القتل؛ لإدخال الرعب في قلوبهم ويوطد دعائم الدين، تريدون -يا معشر المسلمين- بأخذكم الفداء من أسرى «بدر» متاع الدنيا، والله يريد إظهار دينه الذي به تدرك الآخرة. والله عزيز لا يُقْهر، حكيم في شرعه.

سبب نزول الآيات:[٦٧ إلى ٦٩]:

عن أبي عبيدة ، عن عبد الله قال : "لما كان يوم بدر وجيء بالأسرى ، قال رسول الله ﷺ : ما تقولون في هؤلاء الأسرى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، قومك وأهلك ، استبقهم واستأنهم ، لعل الله أن يتوب عليهم. وقال عمر : يا رسول الله ، كذبوك وأخرجوك ، قدّمهم فاضرب أعناقهم! وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، انظر واديًا كثير الحطب فأدخلهم فيه ، ثم أضرمه عليهم نارا. قال : فقال له العباس : قُطِعتْ رَحِمُك! قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم ، ثم دخل. فقال ناس : يأخذ بقول أبي بكر. وقال ناس : يأخذ بقول عُمر. وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : " إنّ الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوبَ رجال حتى تكون أشد من الحجارة! وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ، قال : {فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [سورة إبراهيم : ٣٦] ، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال : {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ } ، الآية [سورة المائدة : ١١٨]، ومثلك يا عمر مثل نوح ، قال : { رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا } [سورة نوح : ٢٦] ، ومثلك كمثل موسى قال : { رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ } [سورة يونس : ٨٨]. قال رسول الله ﷺ : أنتم اليوم عالة ، فلا ينفلتَنّ أحدٌ منهم إلا بفداء أو ضرب عنق. قال عبد الله بن مسعود : إلا سهيل بن بيضاء ، فإني سمعته يذكر الإسلام! فسكت رسول الله ﷺ ، فما رأيتُني في

---

[١] أخرجه الطبري(١٦٢٧٧):ص١٤/٥٤-٥٥.
[٢] انظر: النكت والعيون:٣٠٣/٢.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٢٧٦):ص١٤/٥٤.
[٤] انظر: النكت والعيون:٣٠٣/٢.
[٥] انظر: النكت والعيون:٣٠٣/٢.
[٦] انظر: النكت والعيون:٣٠٣/٢.
[٧] أخرجه الطبري(١٦٢٧٦):ص١٤/٥٤.

يوم أخوفَ أن تقع عليَّ الحجارة من السماء ، مني في ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلا سهيل بن بيضاء. قال : فأنزل الله : {ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض} ، إلى آخر الثلاث الآيات"[1].

عن عبد الله بن عباس قال : "لما أسروا الأسارى ، يعني يوم بدر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين أبو بكر وعمر وعلي ؟ قال : ما ترون في الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، هم بنو العم والعشيرة ، وأرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم للإسلام! فقال رسول الله ﷺ : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ فقال : لا والذي لا إله إلا هو ، ما أرى الذي رأى أبو بكر ، يا نبي الله ، ولكن أرى أن تمكننا منهم ، فتمكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، وتمكنني من فلان - نسيبٍ لعمر - فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهويَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهوَ ما قلت. قال عمر : فلما كان من الغد ، جئت إلى رسول الله ﷺ ، فإذا هو وأبو بكر قاعدان يبكيان ، فقلت : يا رسول الله ، أخبرني من أيِّ شيء تبكي أنتَ وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت! فقال رسول الله ﷺ : أبكي للذي عرَض لأصحابي من أخذهم الفداء ، ولقد عُرِض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة! لشجرة قريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عز وجل : {ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض}، إلى قوله : {حلالا طيبا} ، وأحلّ الله الغنيمة لهم"[2].

قوله تعالى:{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال : ٦٧]، أي:" لا ينبغي لنبي أن يكون له أسرى مِن أعدائه حتى يبالغ في القتل؛ لإدخال الرعب في قلوبهم ويوطد دعائم الدين"[3].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : ما كان لنبي أن يحتبس كافرًا قدر عليه وصار في يده من عبدة الأوثان للفداء أو للمنّ، حتى يبالغ في قتل المشركين فيها ، ويقهرهم غلبة وقسرًا"[4].

قال الزجاج:"{حتى يثخن في الأرض}، معناه حتى يبالغ في قتل أعدائه، ويجوز أن يكون حتى يتمكن في الأرض. و«الإثخان» في كل شيء قوة الشيء وشدته يقال قد أثخنته"[5]..." فالأسر بعد المبالغة في القتل"[6].

و«الأسر» في كلام العرب : "الحبس، وإنما قال الله جل ثناؤه [ذلك] لنبيه محمد ﷺ ، يعرِّفه أن قتل المشركين الذين أسرهم ﷺ يوم بدر ثم فادى بهم ، كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم "[7].

عن ابن إسحاق : "{ما كان لنبي أن يكون له أسرى}، من عدوه {حتى يثخن في الأرض}، أي : يثخن عدوه حتى ينفيهم من الأرض"[8].

عن سعيد بن جبير في قوله : "{ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض}، قال : إذا أسرتموهم فلا تفادوهم حتى تثخنوا فيهم القتلَ"[9].

عبيد بن سليمان قال:" سمعت الضحاك يقول في قوله:{ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض} ، يعني : الذين أسروا ببدر"[1].

---

[1] أخرجه الطبري(١٦٢٩٣):١٤/٦١-٦٢.
[2] أخرجه الطبري(١٦٢٩٤):ص١٤/٦٢، وأخرجه مسلم (١٣٨٣/٣ - ح: ١٧٦٣) والإمام أحمد (الفتح الرباني: ١٤/١٠٢ - ح: ٢٩٢) وابن جرير (٣١/١٠) والبيهقي في "الدلائل" (١٣٧/٣) وأبو نعيم في "الدلائل" (١٧١/٢)، والواحدي في اسباب النزول:٢٤٠ من طريق سماك الحنفي به.
[3] التفسير الميسر:١٨٥.
[4] تفسير الطبري:١٤/٥٨٥٩.
[5] معاني القرآن:٢/٤٢٥.
[6] معاني القرآن:٥/٦.
[7] تفسير الطبري:١٤/٥٩.
[8] أخرجه الطبري(١٦٢٩٢):ص١٤/٦٠-٦١.
[9] أخرجه الطبري(١٦٢٨٩):ص١٤/٦٠.

عن مجاهد قال:" «الإثخان»، القتل"[٢].

وعن مجاهد أيضا: "{ما كان لنبي أن يكون له أسرى}، الآية ، نزلت الرخصة بعدُ ، إن شئت فمنّ ، وإن شئت ففاد"[٣].

قرأ أبو عمرو وحده «أن تكون له أسرى» بالتاء، وقرأ الباقون {أن يكون له} بالياء[٤].

قوله تعالى:{تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا} [الأنفال : ٦٧]، أي:" تريدون -يا معشر المسلمين- بأخذكم الفداء من أسرى «بدر» متاع الدنيا"[٥].

قال الطبري:" يقول : تريدون بأخذكم الفداء من المشركين متاع الدنيا وطُعْمها"[٦].

عن ابن إسحاق : "{ تريدون عرض الدنيا}، أي : المتاع والفداء بأخذ الرجال "[٧].

عن عكرمة في قوله: {تريدون عرض الدنيا}، يعني: الخراج"[٨].

عن جابر بن زيد كان يقول: "ليس أحد يعمل عملا يريد به وجه الله يأخذ عليه شيئا من عرض الدنيا إلا كان حظه منه، يعني قوله: {تريدون عرض الدنيا}"[٩].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ} [الأنفال : ٦٧]، أي:" والله يريد إظهار دينه الذي به تدرك الآخرة"[١٠].

قال أبو الليث:" يعني: عزة الدين"[١١].

قال الطبري:" يقول: والله يريد لكم زينة الآخرة وما أعدّ للمؤمنين وأهل ولايته في جناته ، بقتلكم إياهم وإثخانكم في الأرض. يقول لهم : فاطلبوا ما يريد الله لكم وله اعملوا، لا ما تدعوكم إليه أهواء أنفسكم من الرغبة في الدنيا وأسبابها"[١٢].

عن الحسن في قوله: "{تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة}، قال: لو لم يكن لنا ذنوب نخاف على أنفسنا منها إلا حبنا الدنيا لخشينا على أنفسنا، أريدوا ما أراد الله"[١٣].

عن محمد ابن إسحاق :"{والله يريد الآخرة}، بقتلهم ، لظهور الدين الذي يريدون إطفاءه ، الذي به تدرك الآخرة"[١٤].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال : ٦٧]، أي:" والله عزيز لا يُقْهر، حكيم في شرعه"[١٥].

قال أبو الليث:" {عزيز} في ملكه، {حكيم} في أمره"[١٦].

قال الطبري:" يقول : إن أنتم أردتم الآخرة ، لم يغلبكم عدوّ لكم ، لأن الله عزيز لا يقهر ولا يغلب وأنه{حكيم} في تدبيره أمرَ خلقه "[١٧].

---

(١) أخرجه الطبري(١٦٢٩١):ص٦٠/١٤.
(٢) أخرجه الطبري(١٦٢٨٨):ص٦٠/١٤.
(٣) أخرجه الطبري(١٦٢٩٠):ص٦٠/١٤.
(٤) انظر: السبعة في القراءات:٣٠٩.
(٥) التفسير الميسر:١٨٥.
(٦) تفسير الطبري:٥٩/١٤.
(٧) أخرجه الطبري(١٦٢٩٢):ص٦٠/١٤-٦١، وابن أبي حاتم(٩١٥٨):ص١٧٣٣/٥.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٥٦):ص١٧٣٣/٥.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٥٧):ص١٧٣٣/٥.
(١٠) التفسير الميسر:١٨٥.
(١١) بحر العلوم:٣٢/٢.
(١٢) تفسير الطبري:٥٩/١٤.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٥٩):ص١٧٣٣/٥.
(١٤) أخرجه الطبري(١٦٢٩٢):ص٦٠/١٤-٦١.
(١٥) التفسير الميسر:١٨٥.
(١٦) بحر العلوم:٣٢/٢.
(١٧) تفسير الطبري:٥٩/١٤.

عن ابن عباس قوله : "{ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض}، وذلك يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل ، فلما كثروا واشتد سلطانهم ، أنزل الله تبارك وتعالى بعد هذا في الأسارى : {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً}، [سورة محمد : ٤] ، فجعل الله النبيَّ والمؤمنين في أمر الأسارى بالخيار ، إن شاءوا قتلوهم ، وإن شاءوا استعبدوهم ، وإن شاءوا فادَوْهم"[١].

قال ابن الجوزي:" روي عن ابن عباس[٢]، ومجاهد[٣]، في آخرين أن هذه الآية منسوخة بقوله: {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء} [محمد : ٤]، وليس للنسخ وجه لأن غزاة بدر كانت وفي المسلمين قلة، فلما كثروا واشتد سلطانهم نزلت الآية الأخرى، ويبين هذا قوله: {حتى يثخن في الأرض}"[٤].

قال أبو جعفر النحاس: "ليس ها هنا ناسخ ولا منسوخ، لأنه قال عزوجل {ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض} فلما أثخن في الأرض كان له أسرى"[٥].

ويقول مكي بن أبي طالب: "والذي يوجبه النظر وعليه جماعة من العلماء أن الآية غير منسوخة، لأنه خبر والخبر لا ينسخ"[٦].

الفوائد:

١- إرشاد الله تعالى لقادة الأمة الإسلامية في الجهاد أن لا يفادوا الأسرى وأن لا يمنوا عليهما بإطلاقهم إلا بعد أن يخنثوا في أرض العدو قتلا وتشريدا فإذا خافهم العدو ورهبهم عندئذ يمكنهم أن يفادوا الأسرى أو يمنوا عليهم.

٢- التزهيد في الرغبة في الدنيا لحقارتها، والترغيب في الآخرة لعظم أجرها.

٣- أنه قد يلمح من شدة في بعض آيات العتاب المدنية مثل قوله تعالى :{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨)}. فإنما القصد فيه إلى نوع من تربية المجتمع الإسلامي في أشخاص أصحاب النبي - ﷺ - لتكون أسساً للتربية العامة في جميع مراحل الحياة، ولهذا عدل عن توجيه الكلام بطريق الإفراد في أول الكلام في قوله (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ...) الذي أخرج مخرج الغيبة مع أن المقصود به هو النبي - ﷺ - إلى الجمع في قوله (تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا) الذي قصد به تربية جماعة المؤمنين.

٤- ومن الفوائد: إثبات اسمين من أسماء الله. وهما «العزيز»«الحكيم»:

- فـ«العزيز»:هو المنيع الذي لا يغلب"[٧].
- و«الحكيم»:"هو المحكم لخلق الأشياء، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها[٨].

القرآن

{لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨)} [الأنفال : ٦٨]

التفسير:

---

[١] أخرجه الطبري(١٦٢٨٦):ص٥٩/١٤-٦٠.

[٢]روى هذا القول النحاس بإسناده عن ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة، وذكره مكي بن أبي طالب بدون إسناد، عنه. انظر: الناسخ والمنسوخ ص:١٥٦؛ والإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه (٢٦٥).

[٣] انظر: زاد المسير:٢٢٥/٢، ونواسخ القرآن لابن الجوزي:٤٥٥/٢.

[٤] نواسخ القرآن:٤٥٥/٢.

[٥] انظر: الناسخ والمنسوخ ص:١٥٦.

[٦]الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه (٢٦٥).

[٧] شأن الدعاء:٤٧/١-٤٨.

[٨]انظر:شأن الدعاء:٧٢/١-٧٣.

لولا كتاب من الله سبق به القضاء والقدر بإباحة الغنيمة وفداء الأسرى لهذه الأمة، لنالكم عذاب عظيم بسبب أخْذكم الغنيمة والفداء قبل أن ينزل بشأنهما تشريع.

قوله تعالى:{لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ} [الأنفال : ٦٨]، أي:" لولا كتاب من الله سبق به القضاء والقدر بإباحة الغنيمة وفداء الأسرى لهذه الأمة"[١].

قال أبو الليث:" يقول: لولا أن الله أحل الغنائم لأمة محمد ﷺ"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لأهل بدر الذين غنموا وأخذوا من الأسرى الفداء : {لولا كتاب من الله سبق}، يقول : لولا قضاء من الله سبق لكم أهل بدر في اللوح المحفوظ ، بأن الله مُحِلٌّ لكم الغنيمة ، وأن الله قضى فيما قضى أنه لا يُضِلّ قومًا بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، وأنه لا يعذب أحدًا شهد المشهد الذي شهدتموه ببدر مع رسولا الله ﷺ ناصرًا دينَ الله"[٣].

الله"[٣].

وفي قوله تعالى:{لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ} [الأنفال : ٦٨]، أقوال:

أحدها: لولا كتاب من الله سبق لأهل بدر أن لا يعذبهم، لمسهم فيما أخذوه من فداء أسرى بدر عذاب عظيم ، قاله الحسن[٤]، مجاهد[٥]، وقتادة[٦]، وسعيد بن جبير[٧].

والثاني : لولا كتاب من الله سبق في أنه سيحل لكم الغنائم لمسكم في تعجلها من أهل بدر عذاب عظيم ، قاله ابن عباس[٨]، وأبو هريرة[٩]، والحسن[١٠]، ومجاهد[١١].

قال أبو هريرة:" : يعني : لولا أنه سبق في علمي أني سأحلُّ الغنائم"[١٢].

عن الأعمش: في قوله:"{لولا كتاب من الله سبق}، قال: سبق من الله أن أحل لهم الغنيمة"[١٣].

عن ابن عباس قوله : "{لولا كتاب من الله سبق} الآية ، وكانت الغنائم قبل أن يبعث النبي ﷺ في الأمم ، إذا أصابوا مغنمًا جعلوه للقربان ، وحرم الله عليهم أن يأكلوا منه قليلا أو كثيرًا. حُرّم ذلك على كل نبي وعلى أمته ، فكانوا لا يأكلون منه ، ولا يغلُّون منه ، ولا يأخذون منه قليلا ولا كثيرًا إلا عذبهم الله عليه. وكان الله حرمه عليهم تحريمًا شديدًا ، فلم يحله لنبيّ إلا لمحمد ﷺ . وكان قد سبق من الله في قضائه أن المغنم له ولأمته حلال ، فذلك قوله يوم بدر ، في أخذ الفداء من الأسارى : {لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم}"[١٤].

عن الحسن في قوله : "{لولا كتاب من الله سبق} الآية ، قال : إن الله كان مُطْعِم هذه الأمة الغنيمةَ ، وإنهم أخذوا الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤمروا به. قال : فعاب الله ذلك عليهم ، ثم أحله الله"[١٥].

وفي رواية أخرى عن الحسن في قول الله : "{لولا كتاب من الله سبق} الآية ، وذلك يوم بدر ، وأخذ أصحاب النبي ﷺ المغانمَ والأسارى قبل أن يؤمروا به ، وكان الله تبارك وتعالى قد

---

[١] التفسير الميسر:١٨٥.

[٢] بحر العلوم:٣٢/٢.

[٣] تفسير الطبري:٦٤/١٤.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٣١١):ص٦٩/١٤.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٦٣١٠)، و(١٦٣١٤):ص٦٩/١٤

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٦٣١٢):ص٦٩/١٤.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٦٣٠٩):ص٦٨/١٤.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٦٢٩٧):ص٦٥/١٤ ، و(١٦٣١٦):ص٦٩/١٤.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٦٣٠٠)ص:٦٦/١٤.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٦٢٩٦):ص٦٥/١٤.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١٦٣١٦):ص٦٩/١٤-٧٠.

[١٢] اخرجه الطبري(١٦٣٠٠).:ص٦٦/١٤

[١٣] أخرجه الطبري(١٦٢٩٩):ص٦٦/١٤.

[١٤] أخرجه الطبري(١٦٢٩٧):ص٦٥/١٤.

[١٥] أخرجه الطبري(١٦٢٩٥):ص٦٥/١٤.

كتب في أم الكتاب : المغانم والأسارى حلال لمحمد وأمته، ولم يكن أحله لأمة قبلهم ، وأخذوا المغانم وأسروا الأسارى قبل أن ينزل إليهم في ذلك ، قال الله : {لولا كتاب من الله سبق}، يعني في الكتاب الأول. أن المغانم والأسارى حلال لكم"[١].

وروي عن الحسن أيضا:" {لولا كتاب من الله سبق}، قال : {سبق}، أن لا يعذب أحدًا من أهل بدر"[٢].

والثالث : لولا كتاب من الله سبق أن لا يؤاخذ أحداً بعمل أتاه على جهالة لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، قاله مجاهد[٣]، ابن اسحاق[٤].

والرابع : لولا كتاب من الله سبق وهو القرآن الذي آمنتم به المقتضي غفران الصغائر لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم . ذكره الماوردي[٥].

والخامس: لولا كتاب من الله سبق من أنه يغفر لمن عمل الخطايا ثم علم ما عليه فتاب، حكاه ابن الجوزي عن الزجاج[٦].

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ، ما قد بيناه قبلُ. وذلك أن قوله : {لولا كتاب من الله سبق}، خبر عامٌّ غير محصور على معنى دون معنى ، وكل هذه المعاني التي ذكرتها عمن ذكرت ، مما قد سبق في كتاب الله أنه لا يؤاخذ بشيء منها هذه الأمة ، وذلك : ما عملوا من عمل بجهالة ، و إحلال الغنيمة ، والمغفرة لأهل بدر ، وكل ذلك مما كتب لهم. وإذ كان ذلك كذلك ، فلا وجه لأن يخصّ من ذلك معنى دون معنى ، وقد عم الله الخبر بكل ذلك ، بغير دلالة توجب صحة القول بخصوصه"[٧].

قوله تعالى:{لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الأنفال : ٦٨]، أي:" لنالكم عذاب عظيم بسبب أَخْذكم الغنيمة والفداء قبل أن ينزل بشأنهما تشريع"[٨].

قال الطبري:أي:" لنالكم من الله ، بأخذكم الغنيمة والفداء ، عذاب عظيم"[٩].

قال أبو هريرة:" : لمسكم فيما أخذتم من الأسارى عذاب عظيم"[١٠].

قال أبو الليث:" يعني: لأصابكم فيما أخذتم من الفداء عذاب عظيم"[١١].

عن ابن إسحاق :"{لمسكم فيما أخذتم}، لعذبتكم فيما صنعتم"[١٢].

عن سعيد بن جبير:"{لمسكم فيما أخذتم}، قال: من الفداء {عذاب عظيم}"[١٣].

عن ابن عباس قوله: "{لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم}، يقول: غنائم بدر قبل أن يحلها لهم يقول: لولا أني لا أعذب من عصاني حتى أتقدم إليهم {لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم}"[١٤].

وعن أبي هريرة ، قال : "قال رسول الله ﷺ : ما أحلت الغنائم لأحدٍ سُودِ الرؤوس من قبلكم ، كانت تنزل نارٌ من السماء وتأكلها ، حتى كان يوم بدر ، فوقع الناس في الغنائم ، فأنزل الله : {لولا كتاب من الله سبق لمسكم} ، حتى بلغ ، (حلالا طيبًا}"[١٥].

---

[١] أخرجه الطبري(١٦٢٩٦):ص١٤/٦٥.
[٢] أخره الطبري(١٦٣١٣):ص١٤/٦٩.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٣١٦):ص١٤/٦٩-٧٠.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٣١٧):ص١٤/٧٠
[٥] انظر: النكت والعيون:٢/٣٣٣.
[٦] انظر: زاد المسير:٢/٢٢٦.
[٧] تفسير الطبري:١٤/٧٠-٧١.
[٨] التفسير الميسر:١٨٥.
[٩] تفسير الطبري:١٤/٦٤.
[١٠] اخرجه الطبري(١٦٣٠٠).:ص١٤/٦٦
[١١] بحر العلوم:٢/٣٢.
[١٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٧١):ص٥/١٧٣٦.
[١٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٧٣):ص٥/١٧٣٦.
[١٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٩١٧٢):ص٥/١٧٣٦.
[١٥] أخرجه الطبري(١٦٣٠١):ص١٤/٦٦.

عن عبيدة ، قال : "أسر المسلمون من المشركين سبعين وقتلوا سبعين ، فقال رسول الله ﷺ : اختاروا أن تأخذوا منهم الفداء فتقوَّوْا به على عدوكم ، وإن قبلتموه قتل منكم سبعون أو تقتلوهم! فقالوا : بل نأخذ الفدية منهم ، وقُتل منهم سبعون ، قال عبيدة ، وطلبوا الخيرتين كلتيهما"[1].

عن عبيدة أيضا، قال : "كان فداء أسارى بدر مئة أوقية ، و «الأوقية» أربعون درهمًا ، ومن الدنانير ستة دنانير"[2].

قال ابن إسحاق : لما نزلت : "{لولا كتاب من الله سبق}، الآية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو نزل عذابٌ من السماء لم ينج منه إلا سعد بن معاذ ، لقوله : يا نبي الله ، كان الإثخان في القتل أحبّ إلي من استبقاء الرجال"[3].

قال ابن زيد : "لم يكن من المؤمنين أحد ممن نُصِر إلا أحبَّ الغنائم ، إلا عمر بن الخطاب ، جعل لا يلقى أسيرًا إلا ضرب عنقه ، وقال : يا رسول الله ، ما لنا وللغنائم ، نحن قوم نجاهد في دين الله حتى يُعبد الله! فقال رسول الله ﷺ : «لو عذبنا في هذا الأمر يا عمر ما نجا غيرك! قال الله : لا تعودوا تستحلون قبل أن أحلّ لكم"»[4].

الفوائد:

١- إباحة الغنائم.
٢- ومن الفوائد: أن الرسول ﷺ كانت تصدر عنه بعض التصرفات التى لم يوح إليه شىء بخصوصها، بل كان أمرها متروكا إلى اجتهاده الخاص، فكان فى بعض الأحيان يؤديه اجتهاده إلى ما هو حسن، متجاوزا ما هو أحسن منه، ففى هذه الحادثة(قبول الفداء وعدم الإثخان في الأرض)، لم يكن من الرسول إلا الاجتهاد فى قضية لم يوح إليه فيها بشىء، ولم يخطىء فى حكمه فيها، لأن الرسول ﷺ لا يقر على خطأ، وإنما عدل عما هو أحسن إلى ما هو حسن.
٣- أن الله تعالى كتب مقادير المخلوقات، والمقصود بهذه الكتابة، الكتابة في اللوح المحفوظ، وهو الكتاب الذي لم يفرط فيه الله من شيء، فكل ما جرى ويجري فهو مكتوب عند الله، وأدلة هذه المرتبة كثيرة نذكر منها:

أ- الأدلة من القرآن الكريم:

١ - قوله تعالى: مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ [الأنعام: ٣٨] على أحد الوجهين، وهو أن المقصود بالكتاب هنا اللوح المحفوظ، فالله أثبت فيه جميع الحوادث[5] ، فكل ما يجري مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ.

٢ - وقال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ [الأنبياء: ١٠٥]، "فأخبر تعالى أن هذا مكتوب مسطور في الكتب الشرعية والقدرية فهو كائن لا محالة"[6]. والآية دالة على مرتبة الكتابة عند من فسر الزبور بالكتب بعد الذكر، والذكر أم الكتاب عند الله وهو اللوح المحفوظ[7].

---

[1] أخرجه الطبري(١٦٣٠٣):ص١٤/٦٧.
[2] أخرجه الطبري(١٦٣٠٤):ص١٤/٦٧.
[3] أخرجه الطبري(١٦٣٢٠):ص١٤/٧١.
[4] أخرجه الطبري(١٦٣١٩):ص١٤/٧١.
[5]انظر: ((فتح البيان في مقاصد القرآن)) (٣/ ١٥٧). وانظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٨). والوجه الثاني: أن المقصود بالكتاب القرآن، انظر: ((شفاء العليل)) (ص: ٤٠).
[6]تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٩).
[7]انظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٥٧)، وانظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٧٨).

٣ - وقال تعالى في قصة أسرى بدر: لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [الأنفال: ٦٨] أي: لولا كتاب سبق به القضاء والقدر عند الله أنه قد أحل لكم الغنائم، وأن الله رفع عن أمة محمد ﷺ العذاب، لمسكم العذاب[١] فالآية دليل على الكتاب السابق.
٤ - وقال تعالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [الحج: ٧٠] وهذه الآية من أوضح الأدلة الدالة على علمه المحيط بكل شيء، وأنه علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب الله ذلك في كتابه اللوح المحفوظ[٢] فالآية جمعت بن المرتبتين.
٥ - وقال تعالى: وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ [النمل:٧٥]. أي: خفية، أو سر من أسرار العالم العلوي والسفلي إلا في كتاب مبين قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فما من حادث جلي أو خفي إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ[٣]، فالآية دليل على الكتابة السابقة لكل ما سيقع.
٦ - وقال تعالى في آية جمعت بين مرتبتي العلم والكتابة: وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ [يونس: ٦١] فما يعزب عن ربك، أي: ما يغيب عن علمه، وبصره، وسمعه ومشاهدته أي شيء حتى مثاقيل الذر، بل ما هو أصغر منها، وهذه مرتبة العلم، وقوله: إِلاَّ فِي كِتَابٍ مرتبة الكتابة، وكثيراً ما يقرن الله سبحانه وتعالى بين هاتين المرتبتين[٤].
ب- الأدلة من السنة:
١ - من أوضح أدلة هذه المرتبة ما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء"[٥]، فالدليل من الحديث قوله: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض".
٢ - وفي الحديث الطويل الذي رواه علي رضي الله عنه بيان أن كل نفس قد كتب مكانها من الجنة والنار، وقد كتبت شقية أو سعيدة ونصه: قال: "كنا في جنازة في بقيع الغرقد، ومعه مخصرة فنكس، فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا وكتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة قال: فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير عمل أهل الشقاوة، فقال: اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ: فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى [الليل: ٥ - ١٠]"[٦]، وهذا دليل واضح على الكتابة السابقة ومنها كتابة أهل الجنة وأهل النار.
٣ - وقد ورد عن النبي ﷺ ما يبين أن ما مضت به المقادير، وسبق علم الله به، قد تمت كتابته في اللوح المحفوظ، وجف القلم الذي كتب به، وامتنعت فيه الزيادة والنقصان، فعن جابر رضي الله عنه قال: "جاء سراقة بن مالك بن جعشم -رضي الله عنه- قال: يا رسول الله، بيّن لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما نستقبل؟ قال:

---

[١] انظر: تفسير السعدي:٣/ ١٩١، تحقيق: محمد زهري النجار..
[٢]انظر:تفسير ابن كثير: ٥/ ٤٤٨)، وانظر أيضاً: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨٩).
[٣]انظر: تفسير السعدي:٥/ ٥٩٨.
[٤]انظر: تفسير السعدي:٣/ ٣٦٦.
[٥]رواه مسلم (٢٦٥٣).
[٦]رواه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

لا، بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير، قال: ففيم العمل؟ قال زهير: ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه، فسألت ما قال؟ فقال: اعملوا فكل ميسر"(١).

٤ - ومن الأحاديث المشهورة حديث: أول ما خلق الله القلم، وفيه أن الله أمره بكتابة ما هو كائن إلى يوم القيامة، فعن أبي حفصة قال: "قال عبادة بن الصامت لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب قال: رب وماذا أكتب؟ قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات على غير هذا فليس مني"(٢).

وفي رواية أخرى عن عبدالواحد بن سليم قال: "قدمت مكة فلقيت عطاء بن أبي رباح، فقلت له: يا أبا محمد: إن أهل البصرة يقولون في القدر، قال: يا بني أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: فاقرأ الزخرف. قال: فقرأت: حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ فقال: أتدري ما أم الكتاب؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه كتاب كتبه الله قبل أن يخلق السموات، وقبل أن يخلق الأرض، فيه أن فرعون من أهل النار، وفيه تبت يد أبي لهب وتب، قال عطاء: فلقيت الوليد بن عبادة بن الصامت صاحب رسول ﷺ فسألته: ما كانت وصية أبيك عند الموت؟ قال: دعاني أبي فقال لي: يا بني، اتق الله، واعلم أنك لن تتقي الله حتى تؤمن بالله، وتؤمن بالقدر خيره وشره، فإن مت على غير هذا دخلت النار. وإني سمعت رسول ﷺ يقول: (إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب. فقال: ما أكتب؟ قال اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد"(٣).

فقوله للقلم بعد خلقه: "اكتب مقادير كل شيء" ، جمع مقدار وهو الشيء الذي يعرف به قدر الشيء، وكميته، كالمكيال والميزان، وقد يستعمل بمعنى القدر نفسه وهو الكمية والكيفية، وفي الرواية الأخرى: "اكتب القدر"، والمقصود بأم الكتاب في الآية التي استشهد بها عطاء: اللوح المحفوظ، فالروايتان فيهما دليل على مرتبة الكتابة، حيث أمر الله القلم بكتابة ما هو كائن إلى يوم القيامة.

٥ - وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: "خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان فقال: أتدرون ما هذان الكتابان فقلنا: لا يا رسول الله إلا أن تخبرنا، فقال: للذي في يده اليمنى: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم، وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم، ولا ينقص منهم أبداً، ثم قال للذي في شماله: وهذا كتاب من رب العالمين، فيه أسماء أهل النار، وأسماء آبائهم، وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً ... الحديث"(٤)، فقوله: "وفي يده كتابان فقال: أتدرون ما هذان الكتابان؟". الظاهر من الإشارة أنهما حسيان، وقيل: تمثيل واستحضار للمعنى الدقيق الخفي في مشاهدة السامع حتى كأنه ينظر إليه رأي العين ... ولا يستبعد إجراؤه على الحقيقة، فإن الله قادر على كل شيء، والدليل من الحديث قوله: هذا كتاب من رب العالمين لكل من أهل الجنة وأهل النار، مكتوبة فيه أسماؤهم وقبائلهم، ففي ذلك إثبات الكتابة لما قضاه الله وقدره وعلمه.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٤٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٧٠٠)، وابن أبي عاصم (١٠٢)، والطبراني في ((مسند الشاميين)) (١/ ٥٨) (٥٩)، والبيهقي (١٠/ ٢٠٤) (٢٠٦٦٤)، والضياء (٨/ ٢٧٤) (٣٣٦). والحديث سكت عنه أبو داود، وصححه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود))، وحسنه ابن عثيمين في ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٠٥).

(٣) رواه الترمذي (٢١٥٥)، والطيالسي (ص: ٧٩)، والضياء (٨/ ٣٥١) (٤٢٩). قال الترمذي: غريب من هذا الوجه، وحسنه ابن حجر في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (١/ ٩٥) كما قال ذلك في المقدمة، وصححه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)).

(٤) رواه الترمذي (٢١٤١)، وأحمد (٢/ ١٦٧) (٦٥٦٣)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٦/ ٤٥٢) (١١٤٧٣)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٥/ ١٦٨). قال الترمذي: حسن غريب صحيح، وقال ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٥/ ١٢): [رواته] كلهم عدول، وقال ابن رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ١٧١): روي هذا الحديث عن النبي - ﷺ- من وجوه متعددة.

وبعد الكلام على أدلة هاتين المرتبتين: مرتبة العلم، ومرتبة الكتابة، يحسن أن نذكر هنا أنه يتعلق بهاتين المرتبتين عدة تقادير وهي بإيجاز:
أ- التقدير الأول: كتابة ذلك قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة عندما خلق الله القلم. ودليل هذا التقدير الحديث الأول من أدلة مرتبة الكتابة والذي تقدم قبل قليل، وأيضاً قول النبي ﷺ لأبي هريرة: "جف القلم بما أنت لاق"[(١)].
ب- التقدير حين أخذ الميثاق على بني آدم وهم على ظهر أبيهم آدم، ودليله حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سئل عن هذه الآية: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى [الأعراف: ١٧٢] الآية فقال: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال: "إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذريته، قال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل النار"[(٢)]، وهناك روايات أخرى ذكرها ابن كثير، والسيوطي وليس هذا موضع مناقشة مسألة الميثاق والخلاف فيه، وإنما المقصود هنا أن من رجح أن المقصود بالآية الفطرة قالوا: إن الروايات الواردة في ذلك ترجع إلى القدر السابق.
ج- التقدير العمري عند أول تخليق النطفة، وهذا دليله حديث عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فوالله الذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها"[(٣)].
د- التقدير الحولي في ليلة القدر، ودليله قوله تعالى: فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ [الدخان: ٤] أي: يقضى فيها أمر السنة كلها من معايش الناس ومصائبهم، وموتهم وحياتهم، إلى مثلها من السنة الأخرى.
هـ - التقدير اليومي، ودليله قوله - تعالى -: كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ [الرحمن: ٢٩] قال صلى الله عليه وسلم في هذه الآية: "من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً ويخفض آخرين"[(٤)][(٥)].

القرآن

{فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩)} [الأنفال : ٦٩]

التفسير:

---

(١) رواه البخاري (٥٠٧٦).
(٢) رواه أبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، وأحمد (١/ ٤٤) (٣١١)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٦/ ٣٤٧) (١١١٩٠)، وابن حبان (١٤/ ٣٧) (٦١٦٦)، والحاكم (١/ ٨٠). والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الترمذي: حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر وذكر بعضهم بينهما رجلاً مجهولاً، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، وقال ابن عبدالبر في ((التمهيد)) (٢/ ٦): منقطع بهذا الإسناد ولكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه ثابتة، وحسنه ابن حجر في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (١/ ٩٧) كما قال في المقدمة.
(٣) رواه مسلم (٢٦٤٣).
(٤) رواه ابن ماجه (١٦٨)، والبزار (١/ ٣٩)، وابن حبان (٢/ ٤٦٤) (٦٨٩)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٣/ ٢٧٨) (٣١٤٠). من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وحسن إسناده البزار والبوصيري في ((زوائد ابن ماجه)) (١/ ٢٩)، وحسنه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه).
(٥) انظر : القضاء والقدر لعبدالرحمن بن صالح المحمود - ص: ٤٥ - ٥١.

فكلوا من الغنائم وفداء الأسرى فهو حلال طيب، وحافظوا على أحكام دين الله وتشريعاته. إن الله غفور لعباده، رحيم بهم.

سبب النزول:

قال البغوي والسمعاني:" روي أنه لما نزلت الآية الأولى، كف أصحاب رسول الله ﷺ أيديهم عما أخذوا من الفداء فنزل: {فكلوا مما غنمتم}"[(١)].

قوله تعالى:{فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا} [الأنفال : ٦٩]، أي:" فكلوا من الغنائم وفداء الأسرى فهو حلال طيب"[(٢)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره للمؤمنين من أهل بدر: {فكلوا}، أيها المؤمنون {مما غنمتم}، من أموال المشركين {حلالا}، بإحلاله لكم {طيبا}"[(٣)].

قال أبو الليث:" ثم طيبها[أي: الغنائم]- وأحلها لهم، فقال: {فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا}"[(٤)].

عن عمر بن الخطاب قال: "فأنزل الله {فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا}، فأحل الله الغنيمة لهم"[(٥)].

قال التستري:" الحلال ما لا يعصى الله فيه، والطيب ما لا ينسى الله فيه"[(٦)].

قال الماتريدي:" قال بعضهم: قوله: {حلالا طيبا} واحد، كل حلال طيب، وكل حرام خبيث، وإنما يطيب إذا حل، ويخبث إذا حرم، ولكن يحتمل قوله: {حلالا} بالشرع، {طيبا} في الطبع، وكذلك الحرام هو حرام بالشرع، وخبيث بالطبع، وإنما يتكلم بالحل والحرمة من جهة الشرع، والطيب والخبيث بالطبع.

و«الطيب»: هو الذي يتلذذ به ولا تبعة فيه؛ لأن خوف التبعة ينغص عليه ويذهب بطيبه ولذته، وجائز ما ذكر من «الطيب» - هاهنا - لما أن أهل الشرك كانوا يأخذون الأموال ويجمعونها من وجه لا يحل، وبأسباب فاسدة، فيكرهون التناول منها إذا غنموها لتلك الأسباب الفاسدة، فطيب قلوبهم بقوله: {طيبا}، وفيه دليل جواز التقلب في البيع الفاسد وطيب التناول منه، وإن كان مكتسبا بأسباب"[(٧)].

قوله تعالى:{وَاتَّقُوا اللَّهَ} [الأنفال : ٦٩]، أي:" وحافظوا على أحكام دين الله وتشريعاته"[(٨)].

قال الطبري:" يقول : وخافوا الله أن تعودوا ، أن تفعلوا في دينكم شيئا بعد هذه من قبل أن يُعْهَد فيه إليكم ، كما فعلتم في أخذ الفداء وأكل الغنيمة ، وأخذتموهما من قبل أن يحلا لكم"[(٩)].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنفال : ٦٩]، أي:" إن الله غفور لعباده، رحيم بهم"[(١٠)].

قال الطبري: يعني: " {غفور}، لذنوب أهل الإيمان من عباده {رحيم}، بهم ، أن يعاقبهم بعد توبتهم منها "[(١١)].

قال الواحدي: {غفور}" غفر لكم ما أخذتم من الفِداء، {رحيم} رحمكم لأنَّكم أولياؤه"[(١)].

---

(١) تفسير البغوي:٣٧٧/٣، وتفسير السمعاني:٢٨١/٢. واللفظ للبغوي.
(٢) التفسير الميسر:١٨٥.
(٣) تفسير الطبري:٧١/١٤.
(٤) بحر العلوم:٣٢/٢.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(٩١٧٤):ص١٧٣٦/٥.
(٦) تفسير التستري:٧٢.
(٧) تأويلات أهل السنة:٢٦٤/٥-٢٦٥.
(٨) التفسير الميسر:١٨٥.
(٩) تفسير الطبري:٧١/١٤-٧٢.
(١٠) التفسير الميسر:١٨٥.
(١١) تفسير الطبري:٧٢/١٤.

قال الزمخشري:" معناه أنكم إذا اتقيتموه بعد ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل أن يؤذن لكم فيه، غفر لكم ورحمكم وتاب عليكم"(٢).

الفوائد:

١- إباحة الغنائم.

٢- وجوب تقوى الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله في الأمر والنهي.

٣- ومن الفوائد: إثبات هذين الاسمين الكريمين: «الغفور»، و«الرحيم»؛ وما تضمناه من صفة، وفعل.

- فـ«الغفور»: هو الذي تكثر منه المغفرة. وبناء فعول: بناء المبالغة في الكثرة(٣).

والفرق بين صيغتي:«الغفار»، و«الغفور»: أن "«الغفار»(٤)، معناه: الستار لذنوب عباده في الدنيا بأن لا يهتكهم ولا يشيدهما عليهم، ويكون معنى «الغفور»: منصرفا إلى مغفرة الذنوب في الآخرة، والتجاوز عن العقوبة فيها"(٥).

- و«الرحيم»:أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء (٦).

القرآن

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠)} [الأنفال : ٧٠]

التفسير:

يا أيها النبي قل لمن أسرتموهم في «بدر» : لا تأسوا على الفداء الذي أخذ منكم، إن يعلم الله تعالى في قلوبكم خيرًا يؤتكم خيرًا مما أُخذ منكم من المال بأن يُيَسِّر لكم من فضله خيرًا كثيرًا -وقد أنجز الله وعده للعباس رضي الله عنه وغيره-، ويغفر لكم ذنوبكم. والله سبحانه غفور لذنوب عباده إذا تابوا، رحيم بهم.(٧).

سبب النزول:

قال العباس: "فيّ نزلت: {ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض}، فأخبرت النبي ﷺ بإسلامي، وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذ مني فأبى، فأبدلني الله بها عشرين عبدًا، كلهم تاجر، مالي في يديه"(٨).

وعن ابن عباس: "{يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى}، عباس وأصحابه، قال: قالوا للنبي ﷺ: آمنا بما جئت به، ونشهد إنك لرسول الله، لننصحن لك على قومنا. فنزل: {إن يعلم الله في قلوبكم خيرًا يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم}، إيمانًا وتصديقًا، يخلف لكم خيرًا مما أصيب منكم {ويغفر لكم}، الشرك الذي كنتم عليه. قال: فكان العباس يقول: ما أحب أن هذه الآية لم

---

(١) الوجيز:٤٤٩.

(٢) الكشاف:٢٣٨/٢.

(٣) انظر: شأن الدعاء:٦٥/١.

(٤)قال الخطابي:" الغفار: هو الذي يغفر ذنوب عباده مرة بعد أخرى. كلما تكررت التوبة في الذنب من العبد تكررت المغفرة. كقوله -سبحانه-: {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} [طه:٨٢].

وأصل الغفر في اللغة: الستر والتغطية، ومنه قيل لجنة الرأس: المغفر، وبه سمي زئبر الثوب غفرا وذلك لأنه يستر سداه؛ فالغفار: الستار لذنوب عباده، والمسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته. ومعنى الستر في هذا أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهره فيعيونهم ويقال: إن المغفرة مأخوذة من الغفر: وهو فيما حكاه بعض أهل اللغة نبت يداوى به الجراح، يقال إنه إذا ذر عليها دملها وأبراها". [شأن الدعاء:٥٢/١-٥٣، وانظر: اللسان وتاج العروس، مادة"غفر"].

(٥) شأن الدعاء:٦٥/١.

(٦) انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٨٨/١، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.

(٧) التفسير الميسر:١٨٦.

(٨) أخرجه الطبري(١٦٣٢١):ص٧٣/١٤.

تنزل فينا، وأن لي الدنيا، لقد قال: {يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم}، فقد أعطاني خيرًا مما أخذ مني مئة ضعف، وقال: {ويغفر لكم}، وأرجو أن يكون قد غُفِر لي"[١].

وعن الضحاك في قوله: "{يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى} الآية، يعني: العباسَ وأصحابه، أسروا يوم بدر. يقول الله: إن عملتم بطاعتي ونصحتم لي ولرسولي، أعطيتكم خيرًا مما أخذ منكم وغفرت لكم. وكان العباس بن عبد المطلب يقول: لقد أعطانا الله خصلتين، ما شيء هو أفضل منهما: عشرين عبدًا. وأما الثانية: فنحن في موعود الصادق ننتظر المغفرة من الله سبحانه"[٢].

ونقل الواحدي عن الكلبي، قال: "نزلت في العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، وكان العباس أسر يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب وكان خرج بها معه إلى بدر ليطعم بها الناس، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا إطعام أهل بدر، ولم يكن بلغته النوبة حتى أسر، فأخذت منه وأخذها رسول الله - ﷺ - منه، قال: فكلمت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يجعل لي العشرين الأوقية الذهب التي أخذها مني فداء، فأبى علي وقال: "أما شيء خرجت تستعين به علينا فلا"، وكلفني فداء ابن أخي عقيل بن أبي طالب عشرين أوقية من فضة، فقلت له: تركتني والله أسأل قريشا بكفي والناس ما بقيت، قال: "فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل قبل مخرجك إلى بدر وقلت لها: إن حدث بي حدث في وجهي هذا فهو لك ولعبد الله والفضل وقثم"؟ قال: قلت: وما يدريك؟ قال: "أخبرني الله بذلك"، قال: أشهد إنك لصادق وإني قد دفعت إليها ذهبا ولم يطلع عليها أحد إلا الله، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، قال العباس: فأعطاني الله خيرا مما أخذ مني، كما قال: عشرين عبدا كلهم يضرب بمال كثير مكان العشرين أوقية، وأنا أرجو المغفرة من ربي"[٣].

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى} [الأنفال : ٧٠]، أي:" يا أيها النبي قل لمن أسرتموهم في «بدر»"[٤].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا أيها النبي، قل لمن في يديك وفي يدي أصحابك من أسرى المشركين الذين أخذ منهم من الفداء ما أخذ"[٥].

قال الزمخشري:" {في أيديكم}، في ملكتكم، كأن أيديكم قابضة عليهم"[٦].

قرأ أبو عمرو وحده {قل لمن في أيديكم من الأسرى} بالألف، وقرأ الباقون {من الأسرى} بغير «ألف»[٧].

قوله تعالى:{إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا} [الأنفال : ٧٠]، أي:" إن يعلم الله في قلوبكم إيماناً وإخلاصاً، وصدقاً في دعوى الإيمان"[٨].

قال الطبري:" يقول: إن يعلم الله في قلوبكم إسلامًا"[٩].

قال الزمخشري:أي:" خلوص إيمان وصحة نية"[١٠].

قوله تعالى:{يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ} [الأنفال : ٧٠]، أي:" يعطكم أفضل مما أخذ منكم من الفداء"[١١].

قال الطبري:أي:"من الفداء"[١].

---

[١] أخرجه الطبري(١٦٣٢٦):ص١٤/٧٤.
[٢] أخرجه الطبري(١٦٣٢٧):ص١٤/٧٥.
[٣] أسباب النزول:٢٤١-٢٤٢.
[٤] التفسير الميسر:١٨٥.
[٥] تفسير الطبري:١٤/٧٢.
[٦] الكشاف:٢/٢٣٨.
[٧] انظر: السبعة في القراءات:٣٠٩.
[٨] صفوة التفاسير:١/٤٧٨.
[٩] تفسير الطبري:١٤/٧٢.
[١٠] الكشاف:٢/٢٣٨.
[١١] صفوة التفاسير:١/٤٧٨.

قال الزمخشري:أي:" من الفداء، إما أن يخلفكم في الدنيا أضعافه، أو يثيبكم في الآخرة"[٢].

قال السعدي:" أي: من المال، بأن ييسر لكم من فضله، {خيرا} وأكثر مما أخذ منكم"[٣].

وفي قراءة الأعمش: «يثبكم خيرا»[٤].

قوله تعالى:{وَيَغْفِرْ لَكُمْ} [الأنفال : ٧٠]، أي:"ويمحو عنكم ما سلف من الذنوب"[٥].

قال الطبري:" يقول: ويصفح لكم عن عقوبة جُرْمكم الذي اجترمتموه بقتالكم نبي الله وأصحابه وكفركم بالله"[٦].

قال السعدي:أي:" ذنوبكم، ويدخلكم الجنة وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له - بعد ذلك - من المال شيء كثير، حتى إنه مرة لما قدم على النبي ﷺ مال كثير، أتاه العباس فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله"[٧].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنفال : ٧٠]، أي:" والله واسع المغفرة، عظيم الرحمة لمن تاب وأناب"[٨].

قال الطبري:أي:" {والله غفور}، لذنوب عباده إذا تابوا ، {رحيم} ، بهم، أن يعاقبهم عليها بعد التوبة"[٩].

عن ابن عباس قوله: "{يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى} الآية، وكان العباس أسر يوم بدر، فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس حين نزلت هذه الآية: لقد أعطاني الله خَصلتين، ما أحب أن لي بهما الدنيا: أني أسرت يوم بدر ففديت نفسي بأربعين أوقية، فآتاني أربعين عبدًا، وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله"[١٠].

عن ابن عباس أيضا: قوله: "{يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى} إلى قوله: {والله غفور رحيم}، يعني بذلك: من أسر يوم بدر. يقول: إن عملتم بطاعتي ونصحتم لرسولي، آتيتكم خيرًا مما أخذ منكم، وغفرت لكم"[١١].

الفوائد:

١- فضل العباس عم رسول الله ﷺ لنزول الآية في حقه وشأنه.
٢- فضل إضمار الخير والنيات الصالحة.
٣- إطلاق لفظ الخير على الإسلام والقرآن وحقا هما الخير والخير كله.
٤- ماترك عبد شيئا لله إلا عوضه خيرا منه.
٥- ومن فوائد الآية فقه التعامل مع الاسرى، منها: العمل على دعوتهم إلى الله -سبحانه- بالوسائل المشروعة، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وإنقاذهم من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، فمن أعظم أنواع البر والإحسان إليه؛ دعوتهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومن الموعظة الحسنة ما قاله تعالى للأسرى المشركين:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}، وهذا غاية الملاينة والملاطفة في دعوتهم إلى

---

[١] تفسير الطبري:٧٢/١٤.
[٢] الكشاف:٢٣٨/٢.
[٣] تفسير السعدي:٣٢٧.
[٤] انظر: الكشاف:٢٣٨/٢.
[٥] صفوة التفاسير:٤٧٨/١.
[٦] تفسير الطبري:٧٢/١٤.
[٧] تفسير السعدي:٣٢٧.
[٨] صفوة التفاسير:٤٧٨/١.
[٩] تفسير الطبري:٧٢/١٤.
[١٠] أخرجه الطبري(١٦٣٢٤):ص٧٤/١٤.
[١١] أخرجه الطبري(١٦٣٢٥):ص٧٤/١٤.

الإسلام، وأنّ الله سيعوضهم عن الفدية التي أخذت منهم إن هم أذعنوا للإسلام وآبوا إلى الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم.

القرآن

{وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)} [الأنفال : ٧١]

التفسير:

وإن يرد الذين أَطْلَقْتَ صراحهم -أيها النبي- من الأسرى الغدر بك مرة أخرى فلا تَيْئَسْ، فقد خانوا الله من قبل وحاربوك، فنصرك الله عليهم. والله عليم بما تنطوي عليه الصدور، حكيم في تدبير شؤون عباده.

قوله تعالى:{وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ} [الأنفال : ٧١]، أي:" وإن يرد الذين أَطْلَقْتَ صراحهم -أيها النبي- من الأسرى الغدر بك مرة أخرى"[١].

قال البغوي:" يعني: الأسارى"[٢].

قال أبو الليث: " يعني: خلافك ويميلوا إلى الكفر بعد إسلامهم"[٣].

قال الزمخشري:أي:" نكث ما بايعوك عليه من الإسلام والردة واستحباب دين آبائهم"[٤].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه : وإن يرد هؤلاء الأسارى الذين في أيديكم {خيانتك}، أي: الغدر بك والمكرَ والخداع ، بإظهارهم لك بالقول خلافَ ما في نفوسهم"[٥].

عن ابن عباس : "{وإن يريدوا خيانتك}، يعني : العباس وأصحابه في قولهم : آمنا بما جئت به ، ونشهد أنك رسول الله ، لننصحن لك على قومنا "[٦].

عن قتادة قوله : "{وإن يريدوا خيانتك} الآية ، قال : ذكر لنا أن رجلا كتب لنبي الله ﷺ ، ثم عمد فنافق ، فلحق بالمشركين بمكة ، ثم قال :" ما كان محمد يكتب إلا ما شئت! " فلما سمع ذلك رجل من الأنصار ، نذر لئن أمكنه الله منه ليضربنه بالسيف. فلما كان يوم الفتح ، أمَّن رسول الله ﷺ الناس إلا عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ومِقْيَس بن صُبابة، وابن خطل ، وامرأة كانت تدعو على النبيّ ﷺ كل صباح. فجاء عثمان بابن أبي سرح ، وكان رضيعه أو : أخاه من الرضاعة فقال : يا رسول الله ، هذا فلان أقبل تائبًا نادمًا! فأعرض نبي الله ﷺ . فلما سمع به الأنصاريّ أقبل متقلدًا سيفه ، فأطاف به، وجعل ينظر إلى رسول الله ﷺ رجاء أن يومئ إليه. ثم إن رسول الله ﷺ قدّم يده فبايعه ، فقال : أما والله لقد تلوَّمتك فيه لتوفي نذرك! فقال : يا نبيّ الله إنيّ هِبْتك ، فلولا أوْمضت إليّ! فقال : إنه لا ينبغي لنبيٍّ أن يومض"[٧].

قوله تعالى:{فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ} [الأنفال : ٧١]، أي:" فقد خانوا الله من قبل وحاربوك، فقواك ونصرك الله عليهم وجعلك تتمكن من رقابهم، فإن عادوا إلى الخيانة فسيمكنك منهم أيضاً"[٨].

قال البغوي: يعني: "ببدر"[٩].

قال الزمخشري:أي:" في كفرهم به ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه فأمكن منهم كما رأيتم يوم بدر فسيمكن منهم إن أعادوا الخيانة. وقيل: المراد بـ«الخيانة» منع ما ضمنوا من الفداء"[١].

---

[١] التفسير الميسر:١٨٥.

[٢] تفسير البغوي:٣٧٩/٣.

[٣] بحر العلوم:٣٤/٢.

[٤] الكشاف:٢٣٩/٢.

[٥] تفسير الطبري:٧٥/١٤.

[٦] أخرجه الطبري(١٦٣٢٨):ص٧٥/١٤-٧٦.

[٧] أخرجه الطبري(١٦٣٢٩):ص٧٦/١٤.

[٨] انظر: التفسير الميسر:١٨٥، وصفوة التفاسير:٤٧٨/١.

[٩] تفسير البغوي:٣٧٩/٣.

قال الطبري:" يقول: فقد خالفوا أمر الله من قبل وقعة بدر، وأمكن منهم ببدر المؤمنين"[٢].

قال أبو الليث: " يعني: عصوا الله وكفروا من قبل، فأمكنك منهم وأظهرك عليهم يوم بدر، حتى قهرتهم وأسرتهم"[٣].

قال ابن عباس : "يقول : إن كان قولهم خيانة {فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم}، يقول : قد كفروا وقاتلوك ، فأمكنك الله منهم"[٤].

عن السدي : "{وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم}، يقول : قد كفروا بالله ونقضوا عهده ، فأمكن منهم ببدر "[٥].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الأنفال : ٧١]، أي:" والله عليم بما تنطوي عليه الصدور، حكيم في تدبير شؤون عباده"[٦].

قال الطبري: يقول : " {والله عليم} بما يقولون بألسنتهم ويضمرونه في نفوسهم {حكيم} ، في تدبيرهم وتدبير أمور خلقه سواهم "[٧].

قال أبو الليث: " {والله عليم} بخلقه، {حكيم} حيث أمكنك عليهم، يعني: إن خانوك أمكنك منهم، لتفعل بهم مثل ما فعلت من قبل"[٨].

الفوائد:

١- أن الله ﷻ: لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب ألا فليتق وليتوكل عليه.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات اسمين من اسمائه تعالى، وهما:«العليم»، «الحكيم»:

- فـ«العليم»: من أسمائه -عزّ وجل-، والْعِلْمُ صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجلَّ، ، فهو سبحانه «العليم»المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[٩].

قال الخطابي:"«العليم»: هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق. كقوله تعالى: {إنه عليم بذات الصدور} [لقمان:٢٣]. وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم، ولذلك قال -سبحانه-: {وفوق كل ذي علم عليم} [يوسف:٧٦]. والآدميون -وإن كانوا يوصفون بالعلم- فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات، دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فيخلف علمهم الجهل، ويعقب ذكرهم النسيان، وقد نجد الواحد منهم عالما بالفقه غير عالم بالنحو وعالما بهما غير عالم بالحساب وبالطب ونحوهما من الأمور، وعلم الله -سبحانه- علم حقيقة، وكمال {قد أحاط بكل شيء علما} [الطلاق:١٢]، {وأحصى كل شيء عددا} [الجن: ٢٨]"[١٠].

- و«الحكيم»:"هو المحكم لخلق الأشياء، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها[١١].

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى

---

[١] الكشاف:٢٣٩/٢.
[٢] تفسير الطبري:٧٥/١٤.
[٣] بحر العلوم:٣٤/٢.
[٤] أخرجه الطبري(١٦٣٢٨):ص٧٥/١٤-٧٦.
[٥] أخرجه الطبري(١٦٣٣٠):ص٧٦/١٤-٧٧.
[٦] التفسير الميسر:١٨٥.
[٧] تفسير الطبري:٧٥/١٤.
[٨] بحر العلوم:٣٤/٢.
[٩] انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.
[١٠] شأن الدعاء:٥٧.
[١١]انظر:شأن الدعاء:٧٢/١-٧٣.

يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢)} [الأنفال : ٧٢]

التفسير:

إن الذين صدَّقوا الله، ورسوله وعملوا بشرعه، وهاجروا إلى دار الإسلام، أو بلد يتمكنون فيه من عبادة ربهم، وجاهدوا في سبيل الله بالمال والنفس، والذين أنزلوا المهاجرين في دورهم، وواسوهم بأموالهم، ونصروا دين الله، أولئك بعضهم نصراء بعض. أما الذين آمنوا ولم يهاجروا من دار الكفر فلستم مكلفين بحمايتهم ونصرتهم حتى يهاجروا، وإن وقع عليهم ظلم من الكفار فطلبوا نصرتكم فاستجيبوا لهم، إلا على قوم بينكم وبينهم عهد مؤكد لم ينقضوه. والله بصير بأعمالكم، يجزي كلا على قدر نيته وعمله.

قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا} [الأنفال : ٧٢]، أي:" إن الذين صدَّقوا الله، ورسوله وعملوا بشرعه"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : إن الذين صدقوا الله ورسوله"[٢].

قوله تعالى:{وَهَاجَرُوا} [الأنفال : ٧٢]، أي:" وهاجروا إلى دار الإسلام، أو بلد يتمكنون فيه من عبادة ربهم"[٣].

قال الطبري:" يعني: هجروا قومهم وعشيرتهم ودورهم ، يعني : تركوهم وخرجوا عنهم ، وهجرهم قومهم وعشيرتهم "[٤].

قال البغوي: " أي: هجروا قومهم وديارهم، يعني المهاجرين"[٥].

قال الزمخشري:" أى: فارقوا أوطانهم وقومهم حبا لله ورسوله: هم المهاجرون"[٦].

قوله تعالى:{وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنفال : ٧٢]، أي:" وجاهدوا في سبيل الله بالمال والنفس"[٧].

قال الطبري:"يقول : بالغوا في إتعاب نفوسهم وإنصَابها في حرب أعداء الله من الكفار {في سبيل الله}، يقول : في دين الله الذي جعله طريقا إلى رحمته والنجاة من عذابه "[٨].

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا} [الأنفال : ٧٢]، أي:" والذين أنزلوا المهاجرين في دورهم، وواسوهم بأموالهم، ونصروا دين الله"[٩].

قال البغوي: يعني:" رسول الله ﷺ والمهاجرين معه، أي: أسكنوهم منازلهم، {ونصروا} أي: ونصروهم على أعدائهم وهم الأنصار رضي الله عنهم"[١٠].

قال الزمخشري:" والذين آووهم إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم: هم الأنصار"[١١].

قال الطبري:" يقول : والذين آووا رسول الله والمهاجرين معه ، يعني : أنهم جعلوا لهم مأوًى يأوون إليه ، وهو المثوى والمسكن ، يقول : أسكنوهم ، وجعلوا لهم من منازلهم مساكنَ إذ أخرجهم قومهم من منازلهم {ونصروا}، يقول : ونصروهم على أعدائهم وأعداء الله من المشركين "[١٢].

---

[١] التفسير الميسر:١٨٥.
[٢] تفسير الطبري:٧٧/١٤.
[٣] التفسير الميسر:١٨٥.
[٤] تفسير الطبري:٧٧/١٤.
[٥] تفسير البغوي:٣٧٩/٣.
[٦] الكشاف:٢٣٩/٢.
[٧] التفسير الميسر:١٨٥.
[٨] تفسير الطبري:٧٧/١٤.
[٩] التفسير الميسر:١٨٥.
[١٠] تفسير البغوي:٣٧٩/٣.
[١١] الكشاف:٢٣٩/٢.
[١٢] تفسير الطبري:٧٧/١٤.

قوله تعالى:{أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [الأنفال : ٧٢]، أي:" أولئك بعضهم نصراء بعض"[١].

قال البغوي: أي:"دون أقربائهم من الكفار. قيل: في العون والنصرة"[٢].

قال الطبري:" يقول : هاتان الفرقتان ، يعني المهاجرين والأنصار ، بعضهم أنصار بعض ، وأعوان على من سواهم من المشركين ، وأيديهم واحدة على من كفر بالله ، وبعضهم إخوان لبعض دون أقربائهم الكفار"[٣].

وقال الزمخشري:" أى: يتولى بعضهم بعضا في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون ذوى القرابات، حتى نسخ ذلك بقوله تعالى {وَأُولُو الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ}[٤]"[٥].

وقد قيل : "إنما عنى [بقوله: {أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} أن بعضهم أولى بميراث بعض، وأن الله ورَّث بعضهم من بعض بالهجرة والنصرة ، دون القرابة والأرحام ، وأن الله نسخ ذلك بعدُ بقوله : {وَأُولُو الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ}، [سورة الأنفال : ٧٥ \ وسورة الأحزاب : ٦]"[٦].

قال ابن عباس : "جعل الميراث للمهاجرين والأنصار دون ذوي الأرحام ، قال الله : {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا}، يقول : ما لكم من ميراثهم من شيء ، وكانوا يعملون بذلك حتى أنزل الله هذه الآية : {وَأُولُو الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} [سورة الأنفال : ٧٥ \ وسورة الأحزاب : ٦] ، في الميراث ، فنسخت التي قبلها ، وصار الميراث لذوي الأرحام"[٧].

قال مجاهد:" الثلاث الآيات خواتيم الأنفال ، فيهن ذكر ما كان والىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مهاجري المسلمين وبين الأنصار في الميراث. ثم نسخ ذلك آخرها : {وَأُولُو الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}"[٨].

عن قتادة : "{والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا} ، إلى قوله : {ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا} ، قال : لبث المسلمون زمانا يتوارثون بالهجرة ، والأعرابي المسلم لا يرث من المهاجر شيئًا ، فنسخ ذلك بعد ذلك ، فألحق الله { وَأُولُو الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا} [سورة الأحزاب : ٦] ، أي : من أهل الشرك ، فأجيزت الوصية ، ولا ميراث لهم ، وصارت المواريث بالملل ، والمسلمون يرث بعضهم بعضًا من المهاجرين والمؤمنين ، ولا يرث أهل ملتين"[٩].

عن عكرمة والحسن قالا:"{إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله} ، إلى قوله : {ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا} ، كان الأعرابي لا يرث المهاجر ، ولا يرثه المهاجر ، فنسخها فقال : {وَأُولُو الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}"[١٠].

---

[١] التفسير الميسر:١٨٥.
[٢] تفسير البغوي:٣٧٩/٣.
[٣] تفسير الطبري:٧٧/١٤-٧٨.
[٤][سورة الأنفال : ٧٥ \ وسورة الأحزاب : ٦].
[٥] الكشاف:٢٣٩/٢.
[٦] تفسير الطبري:٧٨/١٤.
[٧] أخرجه الطبري(١٦٣٣١):ص٧٨/١٣.
[٨] أخرجه الطبري(١٦٣٣٣):ص٧٩/١٣.
[٩] أخرجه الطبري(١٦٣٣٥):ص٨٠/١٤.
[١٠] أخرجه الطبري(١٦٣٣٦):ص٨٠/١٤.

عن السدي : "{إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعهم أولياء بعض}، في الميراث {والذين آمنوا ولم يهاجروا}، وهؤلاء الأعراب {ما لكم من ولايتهم من شيء} ، في الميراث {وإن استنصروكم في الدين} يقول : بأنهم مسلمون {فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والذين كفروا بعضهم أولياء بعض} ، في الميراث {والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم} ، ثم نسختها الفرائض والمواريث ، " وأولوا الأرحام " . الذين توارثوا على الهجرة {بعضهم أولى ببعض في كتاب الله} ، فتوارث الأعرابُ والمهاجرون"[1].

عن عبد الله بن كثير قوله : "{إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا} ، إلى قوله : {بما تعملون بصير}، قال : بلغنا أنها كانت في الميراث ، لا يتوارث المؤمنون الذين هاجروا ، والمؤمنون الذين لم يهاجروا. قال : ثم نزل بعد : { وَأُولُو الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } ، فتوارثوا ولم يهاجروا قال ابن جريج ، قال مجاهد : خواتيم " الأنفال " الثلاث الآيات ، فيهن ذكر ما كان والىَ رسول الله ﷺ بين المهاجرين المسلمين وبين الأنصار في الميراث ، ثم نسخ ذلك آخرها : { وَأُولُو الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ}"[2].

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا} [الأنفال : ٧٢]، أي:" أما الذين آمنوا ولم يهاجروا من دار الكفر"[3].

قال الطبري:أي: "والذين صدقوا بالله ورسوله {ولم يهاجروا} قومهم الكفار، ولم يفارقوا دارَ الكفر إلى دار الإسلام"[4].

قوله تعالى:{مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا} [الأنفال : ٧٢]، أي:" فلستم مكلفين بحمايتهم ونصرتهم حتى يهاجروا"[5].

قال الطبري:أي: "{ما لكم}، أيها المؤمنون بالله ورسوله. المهاجرون قومَهم المشركين وأرضَ الحرب {من ولايتهم}، يعني : من نصرتهم وميراثهم، {من شيء حتى يهاجروا}، قومَهم ودورَهم من دار الحرب إلى دار الإسلام "[6].

عن ابن عباس قوله: "{ما لكم من ولايتهم من شيء}، ما لكم من ميراثهم شيء"[7].

عن قتادة: "{ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا}، قال : كان المسلمون يتوارثون بالهجرة، وآخى النبي ﷺ بينهم ، فكانوا يتوارثون بالإسلام والهجرة. وكان الرجل يسلم ولا يهاجر ، لا يرث أخاه ، فنسخ ذلك قوله : {وَأُولُو الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ} [سورة الأحزاب : ٦]"[8].

عن الزهري : "أن النبي ﷺ أخذ على رجل دخل في الإسلام فقال : تقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتحج البيت، وتصوم رمضان، وأنك لا ترى نار مشرك إلا وأنت حرب"[9].

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم«وليتهم» و «هنالك الولية لله» [الكهف: ٤٤]، بفتح «الواو» فيهما، وقرأ الكسائى«من وليتهم» بفتح «الواو»، وقرأ «هنالك الولية» بكسر الواو، وقرأ حمزة «من وليتهم» و «هنالك الولية»، بالكسر فيهما[10].

---

[1] أخرجه الطبري(١٦٣٣٧):ص١٤/٨٠-٨١.
[2] أخرجه الطبري(١٦٣٣٤):ص١٤/٧٩-٨٠.
[3] التفسير الميسر:١٨٥.
[4] تفسير الطبري:١٤/٨١.
[5] التفسير الميسر:١٨٥.
[6] تفسير الطبري:١٤/٨١-٨٢.
[7] أخرجه ابن ابي حاتم(٩١٩١):ص٥/١٧٤٠.
[8] أخرجه الطبري(١٦٣٣٨):ص١٤/٨١.
[9] أخرجه الطبري(١٦٣٤٠):ص١٤/٨٢-٨٣.
يعني بذلك : أن يبعد منزله عن منزل المشرك "حتى لا يرى ناره " نهى منه ﷺ عن جوار لمشرك.
[10] انظر: السبعة في القراءات:٣٠٩.

قوله تعالى:{وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ} [الأنفال : ٧٢]، أي:" وإن وقع عليهم ظلم من الكفار فطلبوا نصرتكم فاستجيبوا لهم"[١].

قال الطبري:" يقول : إن استنصركم هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا {في الدين}، يعني : بأنهم من أهل دينكم على أعدائكم وأعدائهم من المشركين ، {فعليكم}، أيها المؤمنون من المهاجرين والأنصار، {النصر}"[٢].

قال ابن كثير:" يقول تعالى : وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب ، الذين لم يهاجروا في قتال ديني ، على عدو لهم فانصروهم ، فإنه واجب عليكم نصرهم ؛ لأنهم إخوانكم في الدين"[٣]. الدين"[٣].

قال الزمخشري:" {فعليكم النصر}، فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين"[٤].

عن ابن عباس قوله : "{وإن استنصروكم في الدين}، يعني : إن استنصركم الأعراب المسلمون ، أيها المهاجرون والأنصار ، على عدوهم ، فعليكم أن تنصروهم إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق"[٥].

قال ابن عباس أيضا:" ترك النبي ﷺ الناسَ يوم تُوفي على أربع منازل : مؤمن مهاجر ، والأنصار ، وأعرابي مؤمن لم يهاجر؛ إن استنصره النبي ﷺ نصره ، وإن تركه فهو إذْنُه ، وإن استنصر النبي ﷺ في الدين كان حقًّا عليه أن ينصره ، فذلك قوله : {وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر} والرابعة : التابعون بإحسان"[٦].

قوله تعالى:{إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ} [الأنفال : ٧٢]، أي:" إلا على قوم بينكم وبينهم عهد مؤكد لم ينقضوه"[٧].

قال الطبري: " يعني : عهد قد وثَّق به بعضكم على بعض أن لا يحاربه "[٨].

قال الزمخشري:أي:"عهد، فإنه لا يجوز لكم نصرهم عليهم، لأنهم لا يبتدؤون بالقتال، إذ الميثاق مانع من ذلك"[٩].

قال ابن كثير:" إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار { بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ } أي : مهادنة إلى مدة ، فلا تخفروا ذمتكم ، ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم، وهذا مروي عن ابن عباس ، رضي الله عنه"[١٠].

عن ابن عباس قوله : "{وإن استنصروكم في الدين}، يعني : إن استنصركم الأعراب المسلمون ، أيها المهاجرون والأنصار ، على عدوهم ، فعليكم أن تنصروهم"[١١].

قال قتادة:" نهى المسلمون عن أهل ميثاقهم فو الله لأخوك المسلم أعظم عليك حرمة وحقا"[١٢].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الأنفال : ٧٢]، أي:" والله بصير بأعمالكم، يجزي كلا على قدر نيته وعمله"[١٣].

---

[١] التفسير الميسر:١٨٥.
[٢] تفسير الطبري:٨٢/١٤.
[٣] تفسير ابن كثير:٩٧/٤.
[٤] الكشاف:٢٣٩/٢.
[٥] أخرجه الطبري(١٦٣٤٠):ص٨٣/١٤.
[٦] أخرجه الطبري(١٦٣٤١):ص٨٣/١٤.
[٧] التفسير الميسر:١٨٥.
[٨] تفسير الطبري:٨٢/١٤.
[٩] الكشاف:٢٣٩/٢.
[١٠] تفسير ابن كثير:٩٧/٤.
[١١] أخرجه الطبري(١٦٣٤٠):ص٨٣/١٤.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٩١٩٦):ص١٧٤٠/٥.
[١٣] التفسير الميسر:١٨٥.

قال الطبري: "يقول : والله بما تعملون فيما أمركم ونهاكم من ولاية بعضكم بعضًا ، أيها المهاجرون والأنصار ، وترك ولاية من آمن ولم يهاجر ونصرتكم إياهم عند استنصاركم في الدين ، وغير ذلك من فرائض الله التي فرضها عليكم {بصير}، يراه ويبصره ، فلا يخفى عليه من ذلك ولا من غيره شيء"[١].

الفوائد:

١- بيان تفاوت المؤمنين في كمالاتهم وعلو درجاتهم عند ربهم.
٢- أكمل المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والهجرة والجهاد وسبقوا لذلك وهم المهاجرون الأولون والذين جمعوا بين الإيمان والإيواء والنصرة والجهاد وهم الأنصار.
٣- دون ذلك من آمنوا وهاجروا وجاهدوا ولكن بعد صلح الحدبيبة.
٤- وأدنى أصناف المؤمنين من آمنوا ولم يهاجروا وهؤلاء على خطر عظيم.
٥- وجوب نصرة المؤمنين بموالاتهم ومحبتهم ووجوب معاداة الكافرين وخذلانهم وبغضهم.
٦- ومن أسمائه تعالى: {الْبَصِيرُ}، هو المبصر. فعيل بمعنى مفعل. كقولهم، أليم: بمعنى: مؤلم، وكقول عمرو بن معد يكرب[٢]:

أمن ريحانة الداعي السميع

يريد: المسمع. ويقال: البصير: العالم بخفيات الأمور"[٣].

قال ابن عثيمين:" «البصير»، يعني: المدرك لجميع المبصرات"[٤].

القرآن

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)} [الأنفال : ٧٣]

التفسير:

والذين كفروا بعضهم نصراء بعض، وإن لم تكونوا -أيها المؤمنون- نصراء بعض تكن في الأرض فتنة للمؤمنين عن دين الله، وفساد عريض بالصد عن سبيل الله وتقوية دعائم الكفر.

سبب النزول:

عن أبي مالك قال: "قال رجل : نورّث أرحامنا من المشركين! فنزلت : {والذين كفروا بعضهم أولياء بعض}، الآية"[٥].

عن ابن عباس قوله : "{والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير} ، نزلت في مواريث مشركي أهل العهد"[٦].

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [الأنفال : ٧٣]، أي:" والذين كفروا بعضهم نصراء بعض"[٧].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : {والذين كفروا}، بالله ورسوله، بعضهم أعوان بعض وأنصاره ، وأحق به من المؤمنين بالله ورسوله"[١].

---

[١] تفسير الطبري:٨٢/١٤.

[٢]هذا صدر بيت، عجزه: يؤرقني وأصحابي هجوع.

وهو مطلع الأصمعية رقم (٦١)، وأبياتها (٣٧) بيتا لعمرو بن معد يكرب الزبيدي، وفي الكامل ١/ ١٧٢، وأمالي ابن الشجري ١/ ٦٤ و ٢/ ١٠٦، وتفسير الطبري ١/ ١٢٣، وتهذيب الأزهري ٢/ ١٢٤، والشريشي ٢/ ٢٥٨، وسرح العيون ٢٧١، وأورده ابن فارس في الصاحبي ص ٢٠١، شاهدا على السميع بمعنى: مسمع، وضعهم فعيل بمعنى مفعل، وروح المعاني ١/ ١٥٠، والشطرة في غريب القرآن ص ١٧ وانظر تفسير أسماء الله الحسنى ص ٤٣.

[٣] شان الدعاء:٦٠-٦١.

[٤] انظر: شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين:٢٠٨/١.

[٥] أخرجه الطبري(١٦٣٤٣):ص٨٤/١٤.

[٦] أخرجه الطبري(١٦٣٤٤):ص٨٤/١٤.

[٧] التفسير الميسر:١٨٥.

قال الزمخشري:" ظاهره إثبات الموالاة بينهم كقوله تعالى في المسلمين {أولئك بعضهم أولياء بعض}، ومعناه: نهى المسلمين عن موالاة الذين كفروا وموارثتهم وإيجاب مباعدتهم ومصارمتهم وإن كانوا أقارب، وأن يتركوا يتوارثون بعضهم بعضا"[٢].

قال ابن كثير:" لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضُهم أولياء بعض ، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار"[٣].

وفي قوله تعالى:{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [الأنفال : ٧٣]، وجهان:

أحدهما : بعضهم أنصار بعض ، قاله قتادة[٤]، وابن إسحاق[٥].

قال ابن إسحاق:" : حض الله المؤمنين على التواصل ، فجعل المهاجرين والأنصار أهل ولاية في الدين دون سواهم ، وجعل الكفار بعضهم أولياء بعض"[٦].

والثاني : بعضهم وارث بعض ، قاله ابن عباس[٧]، وأبو مالك [٨].

قال ابن زيد:" كان المؤمن المهاجر والمؤمن الذي ليس بمهاجر ، لا يتوارثان وإن كانا أخوين مؤمنين. قال : وذلك لأن هذا الدين كان بهذا البلد قليلا حتى كان يوم الفتح ، فلما كان يوم الفتح ، وانقطعت الهجرة توارثوا حيثما كانوا بالأرحام. وقال النبي ﷺ :«لا هجرة بعد الفتح»، وقرأ : {وَأُولُو الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ}"[٩].

عن أسامة ، عن النبي ﷺ قال : "لا يتوارث أهل ملتين ، ولا يرث مسلم كافرًا ، ولا كافر مسلما" ، ثم قرأ : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ }"[١٠].

قال الطبري:" وأولى التأويلين بتأويل قوله : {والذين كفروا بعضهم أولياء بعض}، قول من قال : معناه : أن بعضهم أنصار بعض دون المؤمنين ، وأنه دلالة على تحريم الله على المؤمن المقامَ في دار الحرب وترك الهجرة ، لأن المعروف في كلام العرب من معنى " الوليّ " ، أنه النصير والمعين ، أو : ابن العم والنسيب. فأما الوارث فغير معروف ذلك من معانيه ، إلا بمعنى أنه يليه في القيام بإرثه من بعده. وذلك معنى بعيد ، وإن كان قد يحتمله الكلام. وتوجيه معنى كلام الله إلى الأظهر الأشهر ، أولى من توجيهه إلى خلاف ذلك"[١١].

قوله تعالى:{ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [الأنفال : ٧٣]، أي:" وإن لم تكونوا -أيها المؤمنون- نصراء بعض، تكن في الأرض فتنة للمؤمنين عن دين الله، وفساد عريض بالصد عن سبيل الله وتقوية دعائم الكفر"[١٢].

قال الزمخشري:" أى: إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولى بعضهم بعضا حتى في التوارث، تفضيلا لنسبة الإسلام على نسبة القرابة ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار، ولم تجعلوا قرابتهم كلا قرابة تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة، لأن المسلمين ما لم يصيروا يدا واحدة على الشرك، كان الشرك ظاهرا والفساد زائدا"[١٣].

---

[١] تفسير الطبري:٨٤/١٤.
[٢] الكشاف:٢٤٠/٢.
[٣] تفسير ابن كثير:٩٧/٤.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٣٤٦):ص٨٥/١٤.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٦٣٤٧):ص٨٥/١٤.
[٦] أخرجه الطبري(١٦٣٤٧):ص٨٥/١٤.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٦٣٤٤):ص٨٤/١٤.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٦٣٤٣):ص٨٤/١٤.
[٩] أخرجه الطبري(١٦٣٤٥):ص٨٤/١٤-٨٥.
[١٠] أخرجه الحاكم في) المستدرك (٢٤٠/٢)، وقال:" صحيح الإسناد ولم يخرجاه".
[١١] تفسير الطبري:٨٧/١٤.
[١٢] التفسير الميسر:١٨٥.
[١٣] الكشاف:٢٤٠/٢.

قال ابن كثير:" أي : إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين ، وإلا وقعت الفتنة في الناس ، وهو التباس الأمر ، واختلاط المؤمن بالكافر ، فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض"[١].

قال السعدي:" قوله: {إلا تفعلوه} أي: موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين، بأن واليتموهم كلهم أو عاديتموهم كلهم، أو واليتم الكافرين وعاديتم المؤمنين، {تكن فتنة في الأرض وفساد كبير} فإنه يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وعدم كثير من العبادات الكبار، كالجهاد والهجرة، وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين التي تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض"[٢].

وفي قوله تعالى:{ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [الأنفال : ٧٣]، وجهان:
أحدهما : إلاَّ تناصروا أيها المؤمنون، {تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ}، يعني: بغلبة الكفار، {وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} بضعف الإيمان، قاله ابن اسحاق[٣]، وابن جريج[٤]، وابن جرير[٥].
والثاني : إلاّ تتوارثوا بالإسلام والهجرة{تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ} باختلاف الكلمة، {وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} بتقوية الخارج على الجماعة ، قاله ابن عباس[٦]، وابن زيد[٧].

قال الطبري:إن" أولى التأويلين بقوله : {إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير} ، تأويلُ من قال : إلا تفعلوا ما أمرتكم به من التعاون والنصرة على الدين ، تكن فتنة في الأرض إذْ كان مبتدأ الآية من قوله : {إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله}، بالحث على الموالاة على الدين والتناصر جاء ، فكذلك الواجب أن يكون خاتمتها به"[٨].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: بيان الولاية الدنيوية الناقصة بين الكفار والشياطين، إذ أثبتها تعالى بين الكفار والشياطين على معنى الذم لهم في آيات، منها:
- في النساء: {فقاتلوا أولياء الشيطان} [النساء: ٧٦].
- وفي الأعراف: {إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون} [الأعراف: ٢٧]، {إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون} [الأعراف: ٣٠].
- وفي الأنفال: {والذين كفروا بعضهم أولياء بعض} [الأنفال: ٧٣].

وهذا الضرب من الولاية موالاة دنيوية غير خالصة ولا نافعة في الأخرى؛ لقوله تعالى في أهلها: {تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى} [الحشر: ١٤]، {كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك} [الحشر: ١٦]، {يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا} [الدخان: ٤١][٩].

٢- ومنها: أنه بموالاة الكفار يحصل في القلوب من الشكوك، والركون إلى أهل الباطل والميل إليهم، واشتباه الحق على المسلمين نتيجة امتزاجهم بأعدائهم وموالاة بعضهم لبعض.

قال الشيخ ابن عثيمين:" موالاة الكفار بالموادة والمناصرة واتخاذهم بطانة: حرام منهي عنها بنص القرآن الكريم، قال الله تعالى: {لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله}[كالمجادلة:٢٢]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

---

[١] تفسير ابن كثير:٩٨/٤.
[٢] تفسير السعدي:٣٢٦-٣٢٧.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٣٥٠):ص٨٦/١٤-٨٧.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٣٥١):ص٨٧/١٤.
[٥] انظر: تفسير الطبري:٨٧/١٤.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٦٣٤٩):ص٨٦/١٤.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٦٣٤٨):ص٨٦/١٤.
[٨] تفسير الطبري:٨٧/١٤.
[٩] انظر: رسالة الشرك ومظاهره: ١٧١.

تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[المائدة:٥٧]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[المائدة:٥١]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا}[آل عمران:١١٨]، وأخبر أنه إذا لم يكن المؤمنون بعضهم أولياء بعض، والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ويتميز هؤلاء عن هؤلاء، فإنها تكون فتنة في الأرض وفساد كبير"[١].

القرآن

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤)} [الأنفال : ٧٤]

التفسير:

والذين آمنوا بالله ورسوله، وتركوا ديارهم قاصدين دار الإسلام أو بلدًا يتمكنون فيه من عبادة ربهم، وجاهدوا لإعلاء كلمة الله، والذين نصروا إخوانهم المهاجرين وآووهم وواسوهم بالمال والتأييد، أولئك هم المؤمنون الصادقون حقًا، لهم مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم واسع في جنات النعيم.

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [الأنفال : ٧٤]، أي:" والذين آمنوا بالله ورسوله، وتركوا ديارهم قاصدين دار الإسلام أو بلدًا يتمكنون فيه من عبادة ربهم، وجاهدوا لإعلاء كلمة الله"[٢].

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا} [الأنفال : ٧٤]، أي:" والذين نصروا إخوانهم المهاجرين وآووهم وواسوهم بالمال والتأييد"[٣].

قال الطبري: أي:" آوَوْا رسول الله ﷺ والمهاجرين معه ونصروهم ، ونصروا دين الله"[٤].

قوله تعالى:{أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} [الأنفال : ٧٤]، أي:" أولئك هم المؤمنون الصادقون حقًا"[٥].

قال الطبري: أي:" أولئك هم أهل الإيمان بالله ورسوله حقًّا ، لا من آمن ولم يهاجر دارَ الشرك ، وأقام بين أظهر أهل الشرك ، ولم يغزُ مع المسلمين عدوهم"[٦].

قال البغوي:أي:" لا مرية ولا ريب في إيمانهم. قيل: حققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد وبذل المال في الدين"[٧].

قال الزمخشري:" لأنهم صدقوا إيمانهم وحققوه، بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الأهل والانسلاخ من المال لأجل الدين، وليس بتكرار لأن هذه الآية واردة للثناء عليهم والشهادة لهم مع الموعد الكريم، والأولى للأمر بالتواصل "[٨].

قوله تعالى:{لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال : ٧٤]، أي:" لهم مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم واسع في جنات النعيم"[٩].

---

[١] مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٣/ ١٢) (٣٨٣) ، وانظر: الولاء والبراء في الإسلام، البركاتي:١٦.
[٢] التفسير الميسر:١٨٥.
[٣] التفسير الميسر:١٨٥.
[٤] تفسير الطبري:١٤/٨٨.
[٥] التفسير الميسر:١٨٥.
[٦] تفسير الطبري:١٤/٨٨.
[٧] تفسير البغوي:٣/٣٨٠.
[٨] الكشاف:٢/٢٤٠.
[٩] التفسير الميسر:١٨٥.

قال الطبري: أي:" يقول : لهم ستر من الله على ذنوبهم ، بعفوه لهم عنها {ورزق كريم}، يقول : لهم في الجنة مطعم ومشرب هنيٌّ كريم، لا يتغير في أجوافهم فيصير نجْوًا، ولكنه يصير رشحًا كرشح المسك "[1].

قال السعدي:" {لهم مغفرة} من الله تمحى بها سيئاتهم، وتضمحل بها زلاتهم، {و} لهم {رزق كريم} أي: خير كثير من الرب الكريم في جنات النعيم"[2].

قال ابن كثير:" لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا ، عطف بذكر ما لهم في الآخرة ، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان ، كما تقدم في أول السورة ، وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن ذنوب إن كانت ، وبالرزق الكريم ، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف ، دائم مستمر أبدا لا ينقطع ولا ينقضي ، ولا يسأم ولا يمل لحسنه وتنوعه، ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة كما قال : { وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنْهَارُ } الآية [التوبة : ١٠٠] ، وقال : { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَااغْفِرْ لَنَا وَلإخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } [الحشر : ١٠]وفي الحديث المتفق عليه ، بل المتواتر من طرق صحيحة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : "المرء مع من أحب" ، وفي الحديث الآخر : «من أحب قوما حُشر معهُم»[3]"[4].

عن جرير قال : قال رسول الله ﷺ : "المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض ، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة"[5].

قال البغوي:" فإن قيل: أي معنى في تكرار هذه الآية؟ قيل: المهاجرون كانوا على طبقات: فكان بعضهم أهل الهجرة الأولى، وهم الذي هاجروا قبل الحديبية، وبعضهم أهل الهجرة الثانية، وهم الذين هاجروا بعد صلح الحديبية قبل فتح مكة، وكان بعضهم ذا هجرتين هجرة الحبشة والهجرة إلى المدينة، فالمراد من الآية الأولى الهجرة الأولى، ومن الثانية الهجرة الثانية"[6].

وقد قسم الله تعالى المؤمنين في هذه الآية والتي بعدها، إلى قسمين:

القسم الأول: المهاجرون الأولون، وقد أثبت لهم تعالى أربع صفات تدل على علو شأنهم ورفعة مكانتهم[7]:

- أولها: أنهم آمنوا بالله وملائكة وكتبه ورسله واليوم الآخر وقبلوا جميع التكاليف التي بلغها النبي ﷺ إليهم.
- وثانيها: أنهم فارقوا الأوطان، وتركوا الأقارب والجيران في طلب مرضاة الله.
- وثالثها: أنهم جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، فأما جهادهم بالمال فلأنهم لما فارقوا الأوطان ضاعت دورهم ومساكنهم وضياعهم، كما أنهم احتاجوا إلى الإنفاق على تلك الغزوات، وأما المجاهدة بالنفس، فلما أقدموا عليه من مباشرة القتال واقتحام المعارك، والخوض في المهالك، وذلك يدل على أنهم أزالوا أطماعهم عن الحياة وبذلوا أنفسهم في سبيل الله.

---

[1] تفسير الطبري:١٤/٨٨.

[2] افسير السعدي:٣٢٧.

[3]جاء من حديث أبي قرصافة وجابر ، أما حديث جابر فرواه الطبراني في المعجم الكبير (١٩/٣) من طريق زياد عن عزة بنت عياض عن أبي قرصافة مرفوعا بلفظ : "من أحب قوما حشره الله في زمرتهم" ، وفي إسناده من لا يعرف. رواه الخطيب في تاريخه (١٩٦/٥) من طريق إسماعيل بن يحيى عن سفيان عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر مرفوعا بلفظ : "من أحب قوما على أعمالهم. حشر يوم القيامة في زمرتهم ، فحوسب بحسابهم وإن لم يعمل أعمالهم" وإسماعيل بن يحيى ، ضعيف.

[4] تفسير ابن كثير:٩٩/٤.

[5] أخرجه الإمام احمد في المسند (٣٤٣/٤).

[6] تفسير البغوي:٣٨٠/٣.

[7] انظر: تفسير الرازي:١٥/ ٢١٥.

- ورابع هذه الصفات: أنهم كانوا أول الناس إقداماً على هذه الأفعال والتزاماً لهذه الأحوال؛ ولهذه المسابقة أثر عظيم في تقوية الدين. وإنما كان السبق موجباً للفضيلة، لأن إقدامهم على هذه الأفعال يوجب اقتداء غيرهم بهم، فيصير ذلك سبباً للقوة أو الكمال.

القسم الثاني: الأنصار، ونعتهم سبحانه بأنهم آووا النبي ﷺ ومن هاجر معه في مساكنهم، وآثروهم على أنفسهم وأولادهم، وبأنهم سالموا من سالمهم، وعادوا من عاداهم، ولهذا شرفهم الله بهذا الوصف، حتى أصبح اسم الأنصار علماً عليهم مدى الدهر(١).

ثم إن الله سبحانه وتعالى بين أن هذين القسمين {هم المؤمنون حقاً} وقال {هم} وهو ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر، يفيد قصر المبتدأ على الخبر، أي كأنهم هم وحدهم المؤمنون لا غيرهم، وهذا هو من باب المدح العظيم، أولئك جميعاً لهم مغفرة من الله ورزق كريم في الدنيا والآخرة؛ وقدم الجار والمجرور لمزيد اختصاصهم بهذه المنزلة العظيمة، أي كأن المغفرة والرحمة وجدت لهم، فهم يستحقونها على الوجه الأكمل"(٢).

القسم الثالث: ثم ألحق تبارك وتعالى بهذين القسمين قسماً ثالثاً وهم المؤمنون المهاجرون المجاهدون الذين جاؤوا من بعدهم وساروا على نهجهم، فقال في الآية التالية: {وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ} [الأنفال: ٧٥].

مما تقدم يتبين لنا وجه الاستدلال من الآية: وهو أن الله سبحانه وتعالى أثنى على المهاجرين والأنصار، وصدق عليهم وصف الإيمان، ثم مدح بقية الصحابة ممن هاجر وجاهد، فيكون هذا الثناء العاطر والمدح الجزيل والشهادة الإلهية شاملة لجميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ينال هذا الثناء والمدح إلا من كان عدلاً.

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أنه من هاجر في سبيل الله تعالى فراراً من الفتن، وإقامة لشعائر الدين: فإن الله قد وعده بالهداية والتوفيق والرزق.

٢- في هذه الآية الكريمة: تعظيم للمهاجرين والأنصار، وثناء عليهم وتشريف واختصاص لهم، حكم لهم بالإيمان الحق الكامل، مع ما آل إليه حالهم رضي الله عنهم من المغفرة والرزق الكريم. قال العلامة المنصوري: "وهو كلام مسوق للثناء عليهم، والشهادة بفوزهم بالقدح المعلى من الإيمان"(٣).

٣- فضيلة الصحابة-رضي الله عنهم- إذ مدحهم الله في كتابه الكريم، وأثنى عليهم في مواضع كثيرة، ومن ذلك قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}، وقوله تعالى: {رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْه ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} [البينة:٨].

وقد ورد في فضائل الصحابة ما لا يُحصى من الآثار والأحاديث الصحيحة عن رسول الله - ﷺ -، ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه بسنده قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "النجوم أمنة السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أنا أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون"(٤).

٤- أن المهاجرين المجاهدين في سبيل الله الناصرين لدينه ونبيه ﷺ هم المؤمنون إيمانا كاملا حقا وأن لهم مغفرة من الله تعالى ورزقا كريما، فإن قوله: {هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا}

---

(١) انظر: التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية :٣/ ٥١٢.

(٢) انظر: صحابة رسول الله في القرآن، للدكتور محسن عبد الحميد :ص: ٩.

(٣) المقتطف: ٢/ ٣٥٩.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب بيان أن بقاء النبي - ﷺ - أمان لأصحابه، وبقاء أصحابه أمان للأمة، برقم ٢٥٣١، قال محمد فؤاد عبد الباقي نقلاً عن النووي في معنى (النجوم أمنة السماء): إن النجوم ما دامت باقية فالسماء باقية فإذا انكدرت النجوم وتناثرت في القيامة وهنت السماء فانفطرت، وانشقت وذهبت.

بالحصر يدل على كمال إيمانهم بالنسبة إلى غيرهم، لأن الحصر لإفادة الكمال لا لنفي الإيمان عمن غيرهم بدليل قوله: {حَقًّا} أي إيمانا حقا كاملا.

٥- ويستقفاد من قوله تعالى:{ وَنَصَرُوا}، أن نصر الرسول ﷺ يشمل نصره باللسان والسنان والبنان، بالقول والفعل. نصرا له في ذات نفسه حماية لعرضه، وصونا لحرمته، وإرغاما لأعدائه ومبغضيه، وانتصارا له من كل من يؤذيه، وإجلالا لمقام النبوة من أي قدح أو عيب.

القرآن

{وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)} [الأنفال : ٧٥]

التفسير:

والذين آمنوا مِن بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار، وهاجروا وجاهدوا معكم في سبيل الله، فأولئك منكم -أيها المؤمنون- لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وأولو القرابة بعضهم أولى ببعض في التوارث في حكم الله من عامة المسلمين. إن الله بكل شيء عليم يعلم ما يصلح عباده مِن توريث بعضهم من بعض في القرابة والنسب دون التوارث بالحِلْف، وغير ذلك مما كان في أول الإسلام.

سبب النزول:

عن الزبير بن العوام قال: "أنزل الله فينا خاصة معشر قريش والأنصار {وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله}، قال: وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فواخيناهم وأورثناهم، فآخى أبو بكر خارجة بن زيد، وآخى عمر فلانا وآخى عثمان بن عفان رجلا من بني زريق بن سعد الزرقي ويقول بعض الناس غيره قال الزبير: وواخيت أنا كعب بن مالك، وأورثونا وأورثناهم، فلما كان يوم أحد قيل لي: قد قتل أخوك كعب بن مالك، فجئته فانتقلته، فوجدت السلاح قد ثقله فيما نرى، فو الله يا بني لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة فرجعنا إلى مواريثنا"[(١)].

عن عيسى بن الحارث: "أن أخاه شريح بن الحارث كانت له سُرِّيَّة ، فولدت منه جارية ، فلما شبت الجارية زُوِّجت ، فولدت غلامًا ، ثم ماتت السرِّية ، واختصم شريح بن الحارث والغلام إلى شريح القاضي في ميراثها ، فجعل شريح بن الحارث يقول : ليس له ميراث في كتاب الله! قال : فقضى شريح بالميراث للغلام. قال : {وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله}، فركب ميسرة بن يزيد إلى ابن الزبير ، فأخبره بقضاء شريح وقوله ، فكتب ابن الزبير إلى شريح : إن ميسرة أخبرني أنك قضيت بكذا وكذا، وقلت: {وأولوا الأرحام بعضهم أؤلى ببعض في كتاب الله}، وإنه ليس كذلك ، إنما نزلت هذه الآية : أنّ الرجل كان يعاقد الرجل يقول : «ترثني وأرثك»، فنزلت:{وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله}. فجاء بالكتاب إلى شريح ، فقال شريح:أعتقها حيتان بطنها!، وأبى أن يرجع عن قضائه"[(٢)]. وفي رواية أخرى :" كان الرجل يعاقد الرجل يقول :«ترثني وأرثك»، فلما نزلت تُرِك ذلك"[(٣)].

عن ابن عباس" وقيل له أن ابن مسعود لا يورث الموالي دون ذوي الأرحام، ويقول: إن ذوي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، فقال ابن عباس: هيهات هيهات أين ذهب؟ إنما كان المهاجرون يتوارثون دون الأعراب فنزلت وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله يعني: أنه يورث المولى"[(٤)].

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(٩٢٠٦):ص١٧٤٢/٥-١٧٤٣.
(٢) أخرجه الطبري(١٦٣٥٤):ص٩٠/١٤-٩١.
(٣) أخرجه الطبري(١٦٣٥٥):ص٩١/١٤.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(٩٢٠٩):ص١٧٤٣/٥.

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ} [الأنفال : ٧٥]، أي:" والذين آمنوا مِن بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار، وهاجروا وجاهدوا معكم في سبيل الله"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : {والذين آمنوا}، بالله ورسوله ، من بعد تبياني ما بيَّنت من ولاية المهاجرين والأنصار بعضهم بعضًا ، وانقطاع ولايتهم ممن آمن ولم يهاجر حتى يهاجر، {وهاجروا} دارَ الكفر إلى دار الإسلام، {وجاهدوا معكم} أيها المؤمنون"[٢].

قال الزمخشري:{ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ}" يريد: اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة، كقوله : {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} [الحشر : ١٠] ألحقهم بهم وجعلهم منهم تفضلا منه وترغيبا"[٣].

عن ابن إسحاق قال: "حض الله المؤمنين على التواصل، فجعل المهاجرين والأنصار أهل ولاية في الدين دون من سواهم"[٤].

قال الضحاك:" فإن رسول الله ﷺ توفي وترك الناس على أربع منازل: مؤمن مهاجر، ومسلم أعرابي والذين آووا ونصروا والتابعين بإحسان"[٥].

قوله تعالى:{فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ} [الأنفال : ٧٥]، أي:" فأولئك منكم -أيها المؤمنون- لهم ما لكم وعليهم ما عليكم"[٦].

قال البيضاوي:" أي: من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار"[٧].

قال الطبري:أي:" في الولاية ، يجب عليكم لهم من الحق والنصرة في الدين والموارثة ، مثل الذي يجب لكم عليهم ، ولبعضكم على بعض"[٨].

قال القاسمي:" أي من جملتكم، أي المهاجرون والأنصار، في استحقاق ما استحقيتموه من الموالاة والمناصرة، وكمال الإيمان والمغفرة والرزق الكريم. وهل المراد من قوله من بعد هو من بعد الهجرة الأولى، أو من بعد الحديبية. وهي الهجرة الثانية، أو من بعد نزول هذه الآية، أو من بعد يوم بدر؟ أقول- واللفظ الكريم يعمها كلها، والتخصيص بأحدهما تخصيص بلا مخصص"[٩].

قوله تعالى:{وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} [الأنفال : ٧٥]، أي:" وأولو القرابة بعضهم أولى ببعض في التوارث في حكم الله من عامة المسلمين"[١٠].

قال ابن الجوزي:" أي: في المواريث بالهجرة"[١١].

قال البيضاوي:" في التوارث من الأجانب، {في كتاب الله}، في حكمه"[١٢].

قال الزجاج:" أي: بعضهم في المواريث أولى ببعض، وهذه المواريث في الولاية بالهجرة منسوخة، نسخها ما في سورة «النساء» من الفرائض"[١٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : والمتناسبون بالأرحام {بعضهم أولى ببعض}، في الميراث ، إذا كانوا ممن قسم الله له منه نصيبًا وحظًّا ، من الحليف والولي {في كتاب الله}، يقول : في حكم الله الذي كتبه في اللوح المحفوظ والسابق من القضاء"[١].

---

[١] التفسير الميسر:١٨٥.
[٢] تفسير الطبري:٨٩/١٤.
[٣] الكشاف:٢٤٠/٢.
[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٢٠٤):ص١٧٤٢/٥.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٢٠٥):ص١٧٤٢/٥.
[٦] التفسير الميسر:١٨٥.
[٧] تفسير البيضاوي:٦٩/٣.
[٨] تفسير الطبري:٨٩/١٤.
[٩] محاسن التأويل:٣٣٧/٥-٣٣٨.
[١٠] التفسير الميسر:١٨٥.
[١١] زاد المسير:٢٢٩/٢.
[١٢] تفسير البيضاوي:٦٩/٣.
[١٣] معاني القرآن:٤٢٥/٢.

قال الزمخشري:" {وأولوا الأرحام}، أولو القرابات أو أولى بالتوارث، وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة"[٢].

وفي قوله تعالى:{ فِي كِتَابِ اللَّهِ} [الأنفال : ٧٥]، أقوال:

أحدها: أنه اللوح المحفوظ. ذكره ابن الجوزي[٣]، وهو اختيار الثعلبي[٤].

والثاني: أنه القرآن، قاله قتادة[٥]، -وقد بين لهم قسمة الميراث في سورة «النساء»-[٦].

والثالث: أنه حكم الله، وهذا قول الزجاج[٧]، والطبري[٨]، وابن كثير[٩].

والرابع: في حكمه وقسمته. قاله الزمخشري[١٠].

قال القاسمي:" {كتاب الله} يطلق على كل منها"[١١].

قال قتادة:"كان لا يرث الأعرابيُّ المهاجرَ، حتى أنزل الله:{وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله}"[١٢].

قال عكرمة: "لبث برهة والأعرابي لا يرث المهاجر، ولا المهاجر يرث الأعرابي حتى فتحت مكة ودخل الناس في الدين أفواجا، فأنزل الله تعالى: {وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله}"[١٣].

قال ابن إسحاق:" ثم ردّ المواريث إلى الأرحام ممن أسلم بعد الولاية من المهاجرين والأنصار دونهم ، إلى الأرحام التي بينهم، فقال : {والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله}، أي : بالميراث"[١٤].

قال ابن عباس:"فكان المهاجر لا يتولى الأعرابي ولا يرث وهو مؤمن ولا يرث الأعرابي المهاجر فنسختها هذه الآية: {وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله}"[١٥].

عن سعيد بن جبير في قول الله: "{وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم}، فنسخت هذه الآية ما كان قبلها من مواريث العقد والحلف والمواريث بالهجرة وصارت لذوي الأرحام، قال: والوالد أولى من الأخ والأخ والأخت أولى من ابن الأخ وابن الأخ أولى من العم والعم أولى من ابن العم وابن العم أولى من الخال، وليس للخال ولا العمة ولا الخالة من الميراث نصيب في قول زيد رضي الله عنه وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعطي ثلثي المال للعمة والثلث للخالة، إذا لم يكن له وارث وكان علي وابن مسعود رضي الله عنهما يعني: يردان ما فضل من الميراث على ذوي الأرحام على قدر سهمانهم غير الزوج والمرأة"[١٦].

---

[١] تفسير الطبري:٩٠/١٤.
[٢] الكشاف:٢٤٠/٢.
[٣] انظر: زاد المسير:٢٢٩/٢.
[٤] انظر: الكشف والبيان:٣٧٥/٤.
[٥] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٩٢١١):ص١٧٤٤/٥.
[٦]سورة النساء [١١- ١٢].
[٧] انظر: زاد المسير:٢٢٩/٢.
[٨] انظر: تفسير الطبري:٩٠/١٤.
[٩] انظر: تفسير ابن كثير:٩٩/٤.
[١٠] انظر: الكشاف:٢٤٠/٢.
[١١] محاسن التأويل:٣٣٧/٥.
[١٢] أخرجه الطبري(١٦٣٥٣):ص٩٠/١٤.
[١٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٩١٩٠):ص١٧٣٩/٥.
[١٤] أخرجه الطبري(١٦٣٥٢):ص٨٩/١٤.
[١٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٢٠٧):ص١٧٤٣/٥.
[١٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٩٢٠٨):ص١٧٤٣/٥.

عن سفيان عن نسير بن ذعلوق قال: "قال رجل للربيع: أوص لي بمصحفك فنظر إلى ابن له صغير فقال: {وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله}"[1].

قال ابن كثير:" وليس المراد بقوله:{ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ } خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة ، الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة ، بل يُدْلون بوارث ، كالخالة ، والخال ، والعمة ، وأولاد البنات ، وأولاد الأخوات ، ونحوهم ، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية ، ويعتقد ذلك صريحا في المسألة ، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات. كما نص ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة وغير واحد : على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أو لا وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص. ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث : "إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه ، فلا وصِيَّة لوارث" ، قالوا : فلو كان ذا حق لكان له فرض في كتاب الله مسمى ، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثا"[2].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنفال : ٧٥]، أي:"إن الله بكل شيء عليم يعلم ما يصلح عباده مِن توريث بعضهم من بعض في القرابة والنسب دون التوارث بالحِلْف، وغير ذلك مما كان في أول الإسلام"[3].

قال البيضاوي:أي:" من المواريث والحكمة في إناطتها بنسبة الإسلام والمظاهرة، أولا واعتبار القرابة ثانيا"[4].

قال السعدي:" ومنه ما يعلمه من أحوالكم التي يجري من شرائعه الدينية عليكم ما يناسبها"[5].

قال القاسمي:" فيقضي بين عباده بما شاء من أحكامه التي هي منتهى الصواب والحكمة والصلاح"[6].

عن سعيد بن جبير:"{إن الله بكل شيء عليم}، يعني: من أعمالكم عليم"[7].

قال ابن إسحاق {عليم}، أي: عليم بما يخفون"[8].

الفوائد:

١- في الآية دليلٌ على أنَّ مَن آمن وهاجر وجاهد مع المهاجرين والأنصار من الصحابة الذين تأخَّر إسلامُهم أنَّهم منهم في الأجر والثواب، مع التفاوت الكبير بين هؤلاء وهؤلاء، قال الشوكاني في فتح القدير:"ثمَّ أخبر سبحانه بأنَّ من هاجر بعد هجرتهم وجاهد مع المهاجرين الأوَّلين والأنصار فهو مِن جملتِهم أي: من جملة المهاجرين الأوَّلين والأنصار في استحقاق ما استحقُّوه من الموالاة والمناصرة وكمال الإيمان والمغفرة والرزق الكريم"[9].

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: نسخ التوارث بغير المصاهرة والنسب والولاء.

٣- ومنها: إثبات اسم من اسمائه تعالى، وهو «العليم»، أي: المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[10].

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(٩٢١٠):ص١٧٤٤/٥.
(٢) تفسير ابن كثير:٩٩/٤-١٠٠.
(٣) التفسير الميسر:١٨٥.
(٤) تفسير البيضاوي:٦٩/٣.
(٥) افسير السعدي:٣٢٧.
(٦) محاسن التأويل:٣٣٧/٥.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(٩٢١٧):ص١٧٤٤/٥.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(٩٢١٢):ص١٧٤٤/٥.
(٩) فتح القدير: ٣٧٦/٢.
(١٠) انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.

آخر تفسير سورة «الأنفال»، ولله الحمد والمنة، وعليه الثقة والتكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل.

«آخر تفسير سورة الأنفال، والحمد لله وحده»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة «التوبة»

سورة «التوبة»: هي السورة التاسعة في ترتيب المصحف، تأتي بعد سورة «الأنفال»، وبعد «المائدة» في ترتيب النزول[١]، وعدد آياتها (١٢٩) مائة وتسع وعشرون آية عند الكوفيّين، ومائة وثلاثون عند الباقين، عدد كلماتها (٢٤٩٧)ألفان وأربعمائة وسبع وتسعون كلمة. وحروفها (١٠٧٨٧)عشرة آلاف وسبعمائة وسبع وثمانون حرفاً، والآيات المختَلف فيها ثلاث: { بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [التوبة : ٣]، {عَادٍ وَثَمُودَ} [التوبة : ٧٠]، {عَذَابًا أَلِيمًا } [التوبة : ٧٤] [٢].

مجموع فواصل آياته (ل م ن ر ب) يجمها «لم نربّ» على «اللاَّم» منها آية واحدة {إِلَّا قَلِيلٌ} [التوبة : ٣٨]، وعلى «الباءِ» آية {وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [التوبة : ٧٨]، وكلّ آية منها آخرها «راء» فما قبل «الرّاءِ» «ياء»[٣].

أسماء السورة:

ولهذه السورة أسماء أشهرها:

أولا:- اسمها التوقيفي:

١- سورة «التوبة»

اشتهرت هذه السرة باسم«سورة التوبة»، وبذلك كتبت في اكثر المصاحف وكتب التفسير والسنة، وقد وردت تسميتها في كلام الصحاب-رضي الله عنهم-.

- فعن حذيفة-رضي الله عنه- قال:"التي تسمون سورة«التوبة» هي سورة العذاب، والله ما تركت أحدا إلا نالت منه، ولا تقرءون منها مما كنا نقرأ إلا ربعها"[٤].
- عن سعيد بن جبير-رضي الله عنه- قال:" قلت لابن عباس-رضي الله عنهما- سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة..."[٥].

وقد ترجم لها الترمذي في جامعه[٦]، باسم التوبة في كتاب التفسير، والحاكم في المستدرك[٧]، في كتاب التفسير.

---

(١) انظر: الكشاف: ٢٤١/٢.

(٢)انظر: بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي:١/ ٢٢٧، و عمدة القاري:٣٤٤/١٨.

(٣)انظر: بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي:١/ ٢٢٧.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة التوبة، حديث رقم(٣٢٧٤):ص٣٦١/٢، وأبو عبيد في فضائله، باب"فضل سورة براءة":ص١٣٠، وأورده السيوطي في الدر المنثور:١٢٠/٤، وعزاه للطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الحشر، حديث رقم(٤٨٨٢):ص٣٦٤/٦، ومسلم كتاب التفسير، باب"في سورة براءة والأنفال والحشر"، حديث رقم(٣٠٣١):ص٢٣٢٢/٤.

(٦) انظر: سنن الترمذي:٢٧٢/٥.

(٧) انظر: المستدرك:٣٦١/٢.

وسُميت بهذا الاسم لتكرار الحديث فيها عن التوبة والتائبين؛ ومن ذلك قوله: {فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} [التوبة : ٣]، وقوله: { فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} [التوبة : ٥، ١١]، وقوله: {ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ } [التوبة : ٢٧]، وقوله: {فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ} [التوبة : ٧٤]، وقوله: {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِم} [التوبة : ١٠٢]، وقوله: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ} [التوبة : ١١٧]، وقوله: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} [التوبة : ١٠٤]، وقوله: {التَّائِبُونَ الْعَابِدُون} [التوبة : ١١٢].

كما ورد فيها حدث عظيم وهو توبة الله تعالى على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة «تبوك»، وفيهم يقول تعالى: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة : ١١٨].

٢- سورة «براءة»

براءة: مصدر الفعل«برأ»، يقال: برا من العهد، بمعنى: خَلِص، وقيل: برئ، إذا تخلص، ومنه قوله تعالى: {أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ} [القمر : ٤٣]، أي: "براءة من عقابه تعالى، وأمان منه"[١].

، ويقال: برئ، إذا تنزه وتباعد، وبرئ، إذا أعذر وأنذر، ومنه قوله تعالى: {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [التوبة : ١]، أي: إعذار وإنذار[٢].

وسُميت بذلك في بعض المصاحف[٣]، وقد جاءت هذه النسمية في كلام الصحابة-رضي الله عنهم-:

- عن ابي هريرة في قصة حج ابي بكر بالناس-:"فأذّن معنا عليّ يوم النحر في أهل منى ببراءة...الحديث"[٤].
- وعن البراء-رضي الله عنه-، قال:"آخر سورة نزلت سورة البراءة...الحديث"[٥].
- وعن أبي عطية الهمداني، قال:"كتب عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-: تعلموا سورة براءة، وعلموا نساءكم سورة النور"[٦].
- وعن ابن عباس-رضي الله عنهما- قال:" سألت علي بن ابي طالب-رضي الله عنه- لِمَ لَمْ تكتب «بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ؟» قال: لأن «بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ» أمان، وبراءة نزلت بالسيف"[٧].

وقد ذكر هذا الاسم معظم المفسرين في كتبهم وبعضهم عنون بها السورة كالقرطبي[٨]، والكلبي[٩]، والثعالبي[١٠]، وأبي السعود[١١]، وسماها السخاوي[١٢]، والسيوطي[١٣]، في كتابيهما

---

[١] محاسن التأويل:٩٥/٩.

[٢] انظر: اللسان، مادة" برأ":ص٣٣/١.

[٣] انظر: التحرير والتنوير: ٩٥/١٠.

[٤] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير"سورة البارءة"، حديث رقم(٥٦٥٥):ص٢٤٥/٥.

[٥] أخرجه البخاري، كتاب التفسير"سورة النساء"، ديث رقم(٤٦-٥):ص٢٢٣/٥.

[٦] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان باب في تعظيم القرآن"فضائل السور والآيات"، حديث رقم(٢٤٣٧):ص٤٧٢/٢، وأبو عبيد في فضائله:ص١٣٠، وزاد نسبته السيوطي في الدر المنثور:١٢٠/٤، لسعيد بن منصور وأبي الشيخ.

[٧] أورد السيوطي في الدر المنثور:١٢٠/٤، وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه.

[٨] انظر: تفسيره:٩١/٨ .

[٩] انظر: تفسيره:٧٠/٢ .

[١٠] انظر: تفسيره: ١١٤/٢.

[١١] انظر: تفسيره: ٣٩/٣.

[١٢] انظر: جمال القرآء: ٣٦/١.

[١٣] انظر: الإتقان: ١٧٢/١.

بسورة«براءة» ثم ذكرا بقية اسمائها، وبذلك ترجم لها البخاري في كتاب التفسير في صحيحه[1].

ووجه تسميتها بذلك، لافتتاحها بقوله سبحانه: {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، وهي تسمية لها باول كلمة منها، ولأنها نزلت بغظهار البراءة من الكفار.

وهذان الاسمان: «التوبة»، و«البراءة» هما الاسمان التوفيقيان للسورة، وهما اشهر أسمائها، وذكر لها ابن الجوزي تسعة أسماء مع عز وكل قول لقائله ..قال: "والمشهور بين الناس: «التوبة وبراءة»"[2].

وقد وقع الاسمان(التوبة، والبراءة) معا في حديث زيد بن ثابت في صحيح البخاري، قال زيد:" «أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده»، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: «كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟» قال عمر: هذا والله خير، «فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر»، قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، «فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن»، قلت: «كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟»، قال: هو والله خير، " فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره، {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} [التوبة: ١٢٨] حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه "[3].

---

[1] صحيح البخاري: ٢٤٤/٥.

[2] زاد المسير: ٣/ ٣٨٩.

[3] رواه الزهري، عن عبيد بن السباق، عن زيد بن ثابت في قصة جمع القرآن في عهد أبي بكر وقال فيه: حتى حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة الأنصاري - وفي رواية: أبي خزيمة، وفي رواية على الشك: خزيمة أو أبي خزيمة - لم أجدها مع أحد غيره: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم} [التوبة: ١٢٨ - ١٢٩] حتى خاتمة براءة.

أخرجه أبو عبيد في "فضائل القرآن" ص٢٨٣، والبخاري (٤٦٧٩) ، والطبراني في "الشاميين" (٣١٩٠) من طريق أبي اليمان، عن شعيب، عن الزهري، عن عبيد بن السباق، به. وقال فيه: خزيمة الأنصاري.

وأخرجه البخاري (٧١٩١) ، والبيهقي ٤٠/٢ - ٤١ من طريق محمد بن عبيد الله أبو ثابت، وأبو بكر المروزي (٤٥) من طريق سويد بن سعيد، والطبراني (٤٩٠٣) ، والبيهقي ٤١/٢ من طريق أبي الوليد الطيالسي - وقرن البيهقي بالطيالسي إبراهيم بن مرة - أربعتهم عن إبراهيم بن سعد، عن الزهري، به، وقرن البيهقي بأبي الوليد الطيالسي إبراهيم بن حمزة. ولم يسق لفظه.

وقالوا فيه: خزيمة أو أبو خزيمة على الشك.

وأخرجه أبو عبيد ص٢٨١، والترمذي (٣١٠٣) ، وأبو يعلى (٦٤) ، وابن أبي داود في "المصاحف" ص١٣ - ١٤ من طريق عبد الرحمن بن مهدي، وأبو يعلى (٩١) من طريق عبد العزيز بن أبي سلمة، وابن أبي داود ص١٢ - ١٣ من طريق أبي داود الطيالسي، ثلاثتهم عن إبراهيم بن سعد، عن الزهري، به.

وقالوا فيه: خزيمة بن ثابت.

وأخرجه أبو عبيد ص٢٨٤، وابن أبي داود ص١٤ - ١٥، وأبو يعلى (٧١) ، والطبراني (٤٩٠٢) من طريق يونس بن يزيد الأيلي، والطبراني (٤٩٠١) من طريق عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، كلاهما عن الزهري، به. وقالا فيه: خزيمة بن ثابت.

وأخرجه ابن أبي داود ص١٤، والطبراني (٤٩٠٤) من طريق إبراهيم بن إسماعيل الأنصاري، عن الزهري، به. وقال فيه: رجل من الأنصار، ورواية الطبراني مختصرة: سمعت من رسول الله ﷺ آية، وطلبتها فلم أجدها حتى وجدتها مع رجل من الأنصار: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم} الآية.

ثانيا: اسماءها الإجتهادية:

ا-سورة«الفاضحة»

«الفاضحة»: مصدر من الفعل«فضح»، ويقال: افتضح الرجل يفتضح افتضاحا: إذا ركب امرا سيئا فاشتهر به، والفضيحة: ايم لكل امر سيء يشهر صاحبه بما يسوء[١].

وقد ورد هذه التسمية عند بعض الصحابة:

- عن سعيد بن جبير، قال:"قلا لابن عباس سورة التوبة؟ قال التوبة، هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم، ومنهم، حتى ظنوا أنها لم تبق أحدا منهم إلا ذكر فيها..الحديث"[٢].
- عن عكرمة، قال: قال عمر-رضي الله عنه-: "ما فرغ من تنزيل براءة حتى ظننا أنه لم يبق منا احد إلا سينزل فيه، وكانت تسمى الفاضحة[٣].
- عن قتادة، قال:" كانت هذه السورة تسمى الفاضحة، فاضحة المنافقين.."[٤].

وقد وردت هذه التسمية في كتب التفسير، كتفسير الماوردي[٥]، والزمخشري[٦]، وابن عطية[٧]، وابن الجوزي[٨]، والرازي[٩]، والقرطبي[١٠]، والنسفي[١١]، والكلبي[١٢]، والبيضاوي[١٣]، والثعالبي[١٤]، وأبي السعود[١٥]، والشوكاني[١٦]، والألوسي[١٧]، كما ذكرها

قلنا: ومما سبق من التفصيل يتبين أن معظم الرواة الثقات متفقون على أن اسم الصحابي هو خزيمة بن ثابت الأنصاري إلا رواية واحدة عند البخاري انفرد بها موسى بن إسماعيل، عن إبراهيم بن سعد، فقال: أبو خزيمة الأنصاري، ولعل الصواب ما عليه الأكثر.

وأما الآية، فقد وردت بانها الآية التي في الاحزاب: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ} [الأحزاب: ٢٣] ، اخرجه احمد(٢١٦٤٠):ص٥٠١/٣٥-٥٠٢، وأخرجه أبو عبيد في "فضائل القرآن" ص٢٨٣، والبخاري (٢٨٠٧) و (٤٧٨٤) ، والطبراني في "الشاميين" (٣٢١٣) من طريق الحكم بن نافع، بهذا الإسناد.

وأخرجه البخاري (٢٨٠٧) من طريق سليمان بن بلال، عن محمد بن أبي عتيق، عن الزهري، به.

وأخرج الطبراني (٤٨٤٣) من طريق خالد بن خداش، عن عبد العزيز بن محمد الدراوردي، عن عمرو بن أبي عمرو، و (٤٨٤٤) من طريق إبراهيم بن محمد، عن عبد العزيز الدراوردي، عن عمارة بن غزية، كلاهما عن الزهري، به، قصةَ نسخ القرآن في عهد أبي بكر دون قصة خزيمة.

وسواء كانت الآية التي في سورة التوبة، أو التي في سورة الأحزاب، فقد ثبت كونها قرآنا بإقرار الصحابة زيدا على إثباتها في المصحف وإجماعهم على تداولها وقراءتها فيما بعد في الأمصار، ومعنى قول زيد: "فلم أجدها إلا مع خزيمة" أي: أنه لم يجدها مكتوبة عند أحد إلا عند خزيمة، فالذي انفرد به خزيمة هو كتابتها لا حفظها، وليست الكتابة شرطا في المتواتر بل المشروط فيه أن يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب، ولو لم يكتبه واحد منهم. انظر "الفتح" ١٥/٩. [انظر: مسند احمد:٥٠٢/٣٥-٥٠٤. الهامش].

(١) اللسان، مادة"ف ض ح":ص٥٤٥/٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الحشر، حديث رقم(٤٨٨٢):ص٣٦٤/٦، ومسلم كتاب التفسير، باب"في سورة براءة والأنفال والحشر"، حديث رقم(٣٠٣١):ص٢٣٢٢/٤.

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور:١٢١/٤، وعزاه لأبي الشيخ.

(٤) انظر: الإتقان:١٧٣/١.

(٥) انظر: ٣٣٦/٢.

(٦)انظر:١٣٦/٢.

(٧)انظر:٣/٢.

(٨)انظر:٣٨٩/٣.

(٩)انظر:١٧٢/١٥.

(١٠)انظر:٦١/٨.

(١١)انظر:١١٤/٢.

(١٢)انظر:٧٠/٢.

(١٣)انظر:٣٩٤/١.

(١٤)انظر:١١٤/٢.

(١٥)انظر:٣٩/٣.

(١٦)انظر:٤٨١/٢.

(١٧)انظر:٤٠/٦.

الكرماني في غرائب التفسير[١]، والفيروزآبادي في البصائر[٢]، والسيوطي في الإتقان[٣]، الإتقان[٣]، والسخاوي في جمال القراء[٤].

ووجه تسميتها بسورة«الفاضحة»، لأنها فضحت المنافقين عند نزولها بإظهار نفاقهم وكشف اسرارهم، وأنبائهم بما في قلوبهم من الكفر وسوء النيات.

قال ابن عاشور:" وأحسب أن ما تحكيه من أحوال المنافقين يعرف به المتصفون بها أنهم المراد فعرف المؤمنون كثيرا من أولئك مثل قوله تعالى: ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني [التوبة: ٤٩] فقد قالها بعضهم وسمعت منهم، وقوله: ومنهم الذين يؤذون النبيء ويقولون هو أذن [التوبة: ٦١] فهؤلاء نقلت مقالتهم بين المسلمين. وقوله: وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم [التوبة: ٤٢]"[٥].

٢-سورة «العذاب»

إذ سماها بذلك بعض الصحابة، ومما ورد في ذلك:

- عن ابن عباس:" أن عمر-رضي الله عنه- قيل له:" سورة التوبة؟ قال: هي إلى العذاب اقرب، ما أقلعت عن الناس حتى ما كادت تدع منهم احدا"[٦].
- عن ابن مسعود-رضي الله عنه- قال:" يسمونها سورة التوبة ، وإنها لسورة العذاب، يعني: براءة"[٧].

وذكر هذه الاسم بعض المفسرين في كتبهم كتفسير الزمخشري[٨]، وابن عطية[٩]، وابن وابن الجوزي[١٠]، والرازي[١١]، والخازن[١٢]، وأبي السعود[١٣]، والشوكاني[١٤]، والالوسي[١٥]، وذكرها ابن العربي الأحكام[١٦]، والسيوطي[١٧]، والسخاوي[١٨]، والفيروزآبادي[١٩]، في كتبهم.

ووجه تسميتها بذلك، لأنها نزلت بعذاب الكفار وتكرر فيها.

قال الفيروزآبادي:"وذلك لما فيها من إنعقاد الكفاربالعذاب مرة بعد أخرى في قوله تعالى: {سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ} (التوبة: ١٠١]"[٢٠].

٣- سورة«المقشقشة»

[١]انظر:٤٤٧/١.
[٢]انظر:٢٢٧/١.
[٣]انظر:١٧٢/١.
[٤]انظر:٣٦/١.
[٥] التحرير والتنوير:٩٦/١٠.
[٦] اورده السيوطي في الدر المنثور:١٢١/٤، وعزاه إلى أبي عوانة وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه، وانظر: مسند الفاروق(١١٤):ص٦١/١
[٧] أورده السيوطي في الدر المنثور:١٢١/٤، وعزاه لابي عوانة وابن المنذر، وابي الشيخ، وابن مردويه.
[٨] انظر: تفسبره: ١٣٦/٢.
[٩] انظر: تفسبره: ٣/٢.
[١٠] انظر: تفسبره: ٣٨٩/٣.
[١١] انظر: تفسبره: ٦/١٠.
[١٢] انظر: تفسبره: ٣٣٢/٢.
[١٣] انظر: تفسبره: ٣٩/٣.
[١٤] انظر: تفسبره: ٤٨١/٢.
[١٥] انظر: تفسبره: ٤٠/٩.
[١٦] انظر: ٨٩١/٢.
[١٧] انظر: ١٧٢/١ .
[١٨] انظر: ٣٦/١ .
[١٩] انظر:٢٢٨/١ .
[٢٠] البصائر: ٢٢٨/١.

المقشقشة: من الفعل"قشقش"، يقال: قد قشقش المريض: إذا افاق وبرا، والقشقشة: تهيؤ البرء، وفي الحديث:" كان يقال لسورتي: قل هو الله احد، وقل يا ايها الكافرون، المقشقشان"، أي: المبرئتان من النفاق والشرك، كا يبرأ المريض من علته(1).

قال أبو عبيدة:"ومعناه المبرئتان من الكفر والشك والنفاق كما يقشقش الهناء الجرب فيبرئه"(2).

قال السخاوي:" وتسمى المقشقشة؛ لأنها تقشقش من النفاق أي تبرئ منه"(3).

قال الزمخشري:" وهي تقشقش من النفاق: أي تبرئ منه"(4).

وأسماها بذلك ابن عمر-رضي الله عنهما-، فعن زيد بن اسلم:" ان رجلا قال لعبدالله: سورة التوبة؟ فقال ابن عمر-رضي الله عنهما-:وأيتهن سورة التوبة، فقال: براءة، فقال ابن عمر: وهل فعل بالناس الافاعيل إلا هي، ما كنا ندعوها إلا المقشقشة"(5).

وقد وردت هذه النسمية في كتب المفسرين وعلوم القرآن(6).

ووجه تسميتها بذلك، لأنها تخلص وتبرئ من آمن بها من النفاق والشرك، لما فيها من الدعاء إلى الإخلاص، ولما فيها من وصف أحوال المنافقين(7).

٤- سورة«البحوث»

«البحث» لغة: أن تسأل عن شيء وتستخبر، وتبحّث عن الشيء، اي: فتشتّت عنه، والبحوث: جمع بحث(8).

جاء في النهاية:"ورأيت في الفائق(9): سورة البحوث-بفتح الباء- فإن صحت فهي فعول من ابنية المبالغة، ويقع على الذكر والأنثى كامرأة صبور، ويكون من باب غضافة الموصوف إلى الصفة"(10).

وسمّاها بذلك المقداد كما اخرج الحاكم عنه أنه قيل له:"لوقعدت العام عن الغزو، قال:" أتت علينا البَحوث يعني سورة التوبة، قال الله عزّ وجل: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا}(11)، ولا أجدني إلا خفيفا"(12).

ونسب هذه التسمية إلى ابي أيوب الأنصاري(13)، كما عدّها المفسرون(14) من بين اسماء السورة.

ووجه تسميتها بسورة«البَحوث»، لما تضمنته من ذكر المنافقين ونفاقهم والبحث عن أسرارهم.

٥- سورة«المنقرة»:

«التنقير» لغة: التفتيش، انتقر الشيء ونقّر عنه: بحث عنه، والتنقير عن الامر: البحث عنه، و«المنقرة»-بكسر القاف- المشددة من نقّر الطائر الشيء ينقره، إذا خربه(15).

---

(1) انظر: اللسان، مادة" ق ش ش":ص٦/٣٣٧، والنهاية:٦٦/٤.
(2)مجاز القرآن ١/ ٦، وانظر: اللسان «قشقش» ٦/ ٣٣٧.
(3) جمال القراء:١٩٨/١.
(4) الكشاف:١٧١/٢.
(5) أورده السيوطي في الدر المنثور:١٢١/٤، وعزاه لابي الشيخ واين مردويه.
(6) انظر: اسماء المفسرين في الاسم الثاني من الاسماء الاجتهادية، «سورة العذاب».
(7) انظر:.جمال القراء: ١٩٨/١، وروح المعاني:٢٣٥/٥
(8) انظر: اللسان، مادة: بحث":ص١١٥/٢.
(9) الفائق في غريب الحديث للزمخشري:٤٠٧/٢.
(10) النهاية:٩٩/١.
(11)[التوبة : ٤١].
(12) المستدرك، كتاب التفسير"سورة التوبة"، حديث رقم(٣٢٨٢):ص٣٦٣/٢.
(13) نسب تسميتها إليه الطبرسي في مجمع البيان:٦/١٠، والفيروزآبادي في البصائر:٢٨٨/١.
(14) انظر: اسماء المفسرين الاسم الثاني من الاسماء الإجتهادية"سورة العذاب".
(15) انظر: اللسان، مادة"نقر":ص٢٢٧/٥.

وأسماها بـ«المنقرة» عبدالله بن عبيد بن عمير، كما اخرجه عنه ابو الشيخ، قال:"كانت براءة تسمة المنقرة، نقرت عما ي قلوب المشركين"[١].

كما وردت هذه النسمية للسورة في بعض كتب المفسرين، كتفسير الزمخشري[٢]، والرازي[٣]، والبيضاوي[٤]، وابي السعود[٥]، والالوسي[٦]، وذكرها الكرماني في العجائب[٧]، العجائب[٧]، والسخاوي[٨]، والسيوطي[٩] في كتابيهما.

ووجه تسميتها بـ«المنقرة»، لأنها نقرت عما في قلوب المشركين، أي: بحث كما قال عبدالله بن عبيد، ولعله يعني: من نوايا الغدر بالمسلمين، والتمالي على نقض العهد[١٠].

٦- سورة«الحافرة»:

حفر الشيء يحفره حفرا، واحتفره: نقّاه كما تحفر الارض بالحديدة، وكانت سورة «براءة» تسمى«الحافرة»، وذلك أنها حفرت عن قلوب المنافقين[١١].

ونسب الالوسي[١٢] هذه التسمية إلى الحسن البصري، وذكرها ابن الفرس[١٣]، وذكرها بعض المفسرين كالزمخشري[١٤]، والطبرسي[١٥]، وابن الجوزي[١٦]، والرازي[١٧]، والنسفي[١٨]، والبيضاوي[١٩]، وابي السعود[٢٠]، وذكرها السخاوي[٢١]، والفيروزآبادي[٢٢].

ووجه تسميتها بذلك، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين ما كانوا يسترونه، فبحثت عنها فأظهرته للمسلمين، وذلك أنه لما فرض القتال تبين المنافق من غيره، ومن يوالي المؤمنين ممن يوالي اعدائهم، قال الفيروزآبادي:"الحافرة، لأنها تحفر قلوب أهل النفاق بمثل قوله: { إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيم} [التوبة : ١١٠]، {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِم} [التوبة : ٧٧]"[٢٣].

قال السخاوي:" والحافرة؛ لأنها حفرت عن أسرارهم"[٢٤].

٧- سورة«المثيرة»

---

(١) الدر المنثور:١٢١/٤.
(٢) انظر: تفسيره: ١٣٦/٢.
(٣) انظر: تفسيره: ١٧٢/١٥.
(٤) انظر: تفسيره: ٣٩٤/١.
(٥) انظر: تفسيره: ٣٩/٣.
(٦) انظر: تفسيره: ٤٠/٩.
(٧) انظر: العجائب:٤٤٧/١.
(٨) انظر: جمال القراء:٣٦/١.
(٩) انظر: الإتقان:١٧٢/١.
(١٠) انظر: التحرير والتنوير:٩٦/١.
(١١) انظر: اللسان، مادة"حفر":ص٢٠٤/٤.
(١٢) انظر: تفسيره: ٤٠/٩.
(١٣) كما في الإتقان للسيوطي:١٣٧/١.
(١٤) انظر: تفسيره: ١٣٦/٢.
(١٥) انظر: تفسيره: ٦/١٠.
(١٦) انظر: تفسيره: ٣٨٩/٣.
(١٧) انظر: تفسيره: ١٧٢/١٥.
(١٨) انظر: تفسيره: ١١٤/٢.
(١٩) انظر: تفسيره: ٣٩٤/١.
(٢٠) انظر: تفسيره: ٣٩/٣.
(٢١) انظر: جمال القرىء:٣٦/١.
(٢٢) انظر: البصائر:٢٢٨/١.
(٢٣) البصائر:٢٢٨/١.
(٢٤) جمال القراء:١٩٨/١.

وردت هذه التسمية عند قتادة، وذلك في قوله:" كانت هذه السورة تسمى: الفاضحة- فاضحة المنافقين- وكان يقال لها: المثيرة- أنبأت بمثالبهم وعوراتهم- فقال: المثالب: العيوب"[١].
العيوب"[١].

كما وردت هذه التسمية في كتب التفسير وعلوم القرآن[٢]، وذكرها الكرماني في العجائب[٣].

ووجه تسميتها بذلك، لأنها أثارت مخازي المنافقين وكشفت عن أحوالهم وهتكت أستارهم[٤].

٨- سورة«المبعثرة»

قال ابن العربي:" يقال: بعثرت المتاع، إذا جعلت أعلاه أسفله، وقلبت جميعه وقلبته، ومنه قوله تعالى: {وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ} [الانفطار : ٤]"[٥].

وعن ثابت بن الحارث الانصاري:" ماكانوا يدعون سورة التوبة إلا المبعثرة، فإنها تبعثر أخبار المنافقين"[٦].

وسماها بهذا الاسم ابن عباس[٧]، والحارث بن يزيد[٨]، وروي عن محمد بن إسحاق:" كانت براءة تسمى في زمان النبي-ﷺ-«المبعثرة»، لما كشفت من سرائر الناس"[٩].

وذكر هذه التسمية كثير من المفسرين[١٠]، كما ذكرها الكرماني في العجائب[١١]، والسخاوي[١٢].

وفي وجه التسمية بـ«المبعثرة»، يقول السخاوي:" وتسمى المبعثرة؛ لأنها بعثرت عن أسرار المنافقين"[١٣].

وقال السيوطي:- أثناء ذكره لأسماء براءة- "وحكى ابن الفرس من أسمائها المبعثرة- وأظنه تصحيف المنقرة- فإن صح كملت الأسماء عشرة، ثم رأيته كذلك- يعني المبعثرة- بخط السخاوي في «جمال القراء» وقال: لأنها بعثرت عن أسرار المنافقين"[١٤].

قال الزمخشري:" وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحث عنها وتثيرها"[١٥].

٩- سورة«المدمدمة»

يقال: دمدمهم ودمدم عليهم، أي: طحنهم وأهلكهم، وفي التنزيل: {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا} [الشمس : ١٤]، أي: أهلكهك[١٦].

ونسبها الالوسي إلى سفيان بن عيينة[١٧]، وذكرها كثير من المفسرين في كتبهم[١٨]، كما ذكرها السخاوي[١]، والسيوطي في كتابيهما[٢].

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٤٥):ص١٨٢٩/٦.
(٢) انظر: أسماء المفسرين في الاسم الثاني من الاسماء الغجتهادية"العذاب".
(٣) انظر: العجائب: ٤٤٧/١
(٤) انظر: مجمع البيان للطبرسي:٦/١٠.
(٥) أحكام القرآن:٨١٩/٢.
(٦) أحكام القرىن لان العربي:٨٩١/٢.
(٧) انظر: البصائر: ٢٢٨/١.
(٨) عزاه غليه ابن الجوزي في زاد المسير:٢٢٨/٣.
(٩) أخرجه ابن المنذر كما في الدر المنثور:١٢١/٤، وانظر: زاد المسير:٢٢٨/٣.
(١٠) انظر: أسماء المفسرين في الاسم الأول من الاسماء الغجتهادية"الفاضحة".
(١١) انظر: العجائب:٤٤٨/١.
(١٢) انظر :جمال القراء:١٩٨/١.
(١٣) جمال القراء:١٩٨/١.
(١٤) الإتقان:١٥٥/١-١٥٦.
(١٥) الكشاف:١٧١/٢.
(١٦) انظر: اللسان، مادة"دم دم":ص٢٠٨/١٢.
(١٧) انظر: روح المعاني:٤٠/٩.
(١٨) انظر: اسماء المفسرين فيالاسم الاول من الأسماء الإجتهادية"الفاضحة".

ووجه تسميتها بذلك، لأن فيها هلاك المنافقين.

١٠- سورة«المخزية»

المخزي:-بضم الميم وسكون الخاء- : المذلّ المحقور، والخزي: الهوان، وقد أخزاه الله: أي: أهانه الله[٣].

وذكر هذه التسمية بعض المفسرين كالزمخشري[٤]، والرازي[٥]، والنسفي[٦]، والخازن[٧]، والبيضاوي[٨]، وابي السعود[٩]، والشوكاني[١٠]، والألوسي[١١]، كما ذكرها السخاوي[١٢]، والسيوطي[١٣] في كتابيهما، دون نسبتها إلى أحد.

ووجه تسميتها بـ«المخزية»، لأنها فيها خزيا للمنافقين، وذلك في قوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ} [التوبة : ٢]، أي:" واعلموا أن الله مُذلُّ الكافرين، ومُورثهم العارَ في الدنيا، والنارَ في الآخرة"[١٤].

١١- سورة«المنكِّلة»

يقال: نكّل به تنكيلا، إذا جعله نكالا وعبرة لغيره، ويقال: نكّلت بفلان إذا عاقبته في جرم اجرمه، تنكّل غيره عن ارتكاب مثله[١٥].

وقد وقعت هذه التسمية في بعض كتب التفسير وعلوم القرآن[١٦]، دون أن ينسب هذا الاسم إلى قائل.

ووجه تسميتها بذلك، لأنها معاقبة لهم ومنكّلة بهم.

١٢- سورة«المشردة»

يقال: شرد البعير والدابة، نفر، فهو شارد، والجمع شرد، والتشريد: الطرد، رجل شريد: طريد، قال تعالى: {فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [الأنفال : ٥٧]، أي: فرّق وبدّد جكعهم[١٧].

وذكر هذا الاسم قسم من المفسرين في كتبهم وفي كتب علوم القرآن[١٨]، دون الإشارة غلى من سماه بذلك.

وسميت بذلك" لأنها شردت جموع المنافقين وفرّقتهم"[١٩].

وبعد فغن سائر هذه الأسماء إنما هي ألقاب وصفات للسورة لاهم ما اشتملت عليه، وقد شمل الزمخشري معانيها في تفسيره بقوله:" لها عدة أسماء: براءة، التوبة، المقشقشة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكلة، المدمدمة، سورة العذاب، لأن فيها

---

[١] انظر: جمال القراء:٣٦/١.
[٢] انظر: الإتقان:١٧٣/١.
[٣] انظر: اللسان، مادة"خزي":ص٢٢٦/١٤.
[٤] انظر: تفسيره: ٢،١٣٦.
[٥] انظر: تفسيره: ١٧٢/١٥.
[٦] انظر: تفسيره: ١١٤/٢.
[٧] انظر: تفسيره: ٣٣٢/٢.
[٨] انظر: تفسيره: ٣٩٤/١.
[٩] انظر: تفسيره: ٣٩/٣.
[١٠] انظر: تفسيره: ٤٨١/٢.
[١١] انظر: تفسيره: ٤٠/٩.
[١٢] انظر: جمال القراء:٣٦/١.
[١٣] انظر: الإتقان:١٧٣/١.
[١٤] تفسير الطبري:١١٢/١٤.
[١٥] انظر: اللسان، مادة"نكل":ص٦٧٧/١١.
[١٦] انظر: اسماء المفسرين في الاسم السابق"المخزية".
[١٧] انظر: اللسان، مادة"شرط:ص٢٣٦/٣.
[١٨] انظر: أسماء المفسرين الاسم الأول من الاسماء الإجتهادية"الفاضحة"..
[١٩] تفسير الخازي:٣٣٢/٢.

التوبة على المؤمنين، وهي تقشقش من النفاق أى تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين تبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها وتفضحهم وتنكلهم وتشرد بهم وتخزيهم وتدمدم عليهم"[١].

وتشترك هذه السورة مع سورة الانفال باسم«القرينتين»، كما سماها بهذا الاسم عثمان بن عفان-رضي الله عنه-، إذ أخرج عنه النحاس في ناسهـ قال:" وكانتا تدعيان في زمان رسول الله ﷺ القرينتين فلذلك جعلتهما في السبع الطوال "[٢].

مكية السورة ومدنيتها:

اختلف أهل التفسير في مكان نزول السورة على قولين:

أحدهما: أنها مَدَنيّة. وهذا قول ابن عباس[٣]، وعبدالله بن الزبير[٤]، وقتادة[٥]، وعليه جمهور المفسرين[٦].

قال الفيروزآبادي:"هذه السورة مَدَنيّة بالاتِّفاق"[٧].

والثاني: أنها مدنية إلا الآيتين الأخيرتين فمكيتان، وهما: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)} [التوبة : ١٢٨ - ١٢٩]. قاله مقاتل[٨]، وبه قال الزمخشري[٩]، والفخر الرازي[١٠]، وابن جزى الكلبي[١١].

قال العز بم عبدالسلام:" سورة التوبة مدنية اتفاقاً، أو إلا آيتين في آخرها، {لَقَدْ جَاءَكُمْ..} [١٢٨، ١٢٩] ، نزلتا بمكة"[١٢].

قال ابن الجوزي:" هي مدنية باجماعهم، سوى الآيتين اللتين في آخرها: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُم..}[١٣]، فانها نزلت بمكة"[١٤].

روى البخاري في «صحيحه» من حديث البراء قال: "آخر سورة نزلت براءة، وآخر آية نزلت: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلْ: اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلاَلَةِ} [النساء: ١٧٦]"[١٥].

وقد نقل عن بعض العرب أنه سمع قارئا يقرأ هذه السورة، فقال الأعرابي: "إني لأحسب هذه من آخر ما نزل من القرآن. قيل له: ومن أين علمت؟ فقال: إني لأسمع عهودا تنبذ، ووصايا تنفذ"[١٦].

واختلفوا في أول ما نزل من (براءة) على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن أول ما نزل منها قوله تعالى: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ} [التوبة : ٢٥]، يعرِّفهم نصره، ويوطِّنهم لغزوة «تَبُوك»، قاله مجاهد[١٧].

---

[١] الكشاف:٢٤١/٢.

[٢] الناسخ والمنسوخ: ٤٧٨.

[٣] انظر: الدر المنثور:١١٩/٤، وعزاه لابن مردويه، وانظر: بحر العلوم:٣٧/٢.

[٤]انظر: الدر المنثور:١١٩/٤، وعزاه لابن مردويه.

[٥]انظر: الدر المنثور:١١٩/٤، وعزاه لابن المنذر.

[٦] انظر: بحر العلوم:٣٧/٢، والكشف والبيان:٥/٥، والتفسير الوسيط للواحدي:٤٧٥/٢، ودرج الدرر:٨٥٧/٢، الدرر:٨٥٧/٢، وتفسير النسفي:٦٦١/١، وتفسير ابن كثير:١٠١/٤، وغيرهم.

[٧] انظر: البصائر:٢٢٧/١.

[٨] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١٥٣/٢-١٥٤.

[٩] انظر: الكشاف:٢٤١/٢.

[١٠] انظر: مفاتيح الغيب:٥٢١/١٥.

[١١] انظر: التسهيل:٣٣١/١.

[١٢] تفسير العز بن عبدالسلام:٥/٢.

[١٣][التوبة : ١٢٨-١٢٩].

[١٤] زاد المسير:٢٣٠/٢.

[١٥] صحيح البخاري(٤٦٠٥):ص٥٠/٦، وأخرجه مسلم في الفرائض باب آخر آية أنزلت آية الكلالة رقم (١٦١٨)

[١٦] زاد المسير:٢٣٠/٢.

[١٧] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٥٩):ص٢٧٠/١٤.

والثاني: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالً} [التوبة : ٤١]، قاله مسلم بن صبيح[١]، وأبو الضحى[٢]، وأبو مالك[٣].
والثالث: {إِلَّا تَنْصُرُوه} [التوبة : ٤٠]، قاله مقاتل[٤].
قال ابن الجوزي:"وهذا الخلاف إنما هو في أول ما نزل منها بالمدينة، فانهم قد قالوا: نزلت الآيتان اللتان في آخرها بمكة"[٥].

مناسبة سورة«البراءة» مع سورة «الأنفال»:

إن سورة«التوبة» كالمتممة لسورة«الانفال» في معظم ما في أصول الدين وفروعه، وفي التشريع الذي جلّه في أحكام القتال والاستعداد له، وأسباب النصر فيه، وأحكام المعاهدات والمواثيق من حفظها ونبذها عند وجود المقتضى لذلك، وأحكام الولاية في الحرب وغيرها بين المؤمنين بعضهم مع بعض، والكافرين بعضهم مع بعض، وأحوال المؤمنين الصادقين والكفار والمذبذبين من المنافقين ومرضى القلوب، فما بدىء به في الأولى أتم في الثانية، **و**يمكن تأشير أهم أوجه المناسبة بين السورتين، كما يأتي[٦]:

١- تفصيل الكلام في قتال المشركين وأهل الكتاب.
ومن هنا، فإن هناك وجهَ مناسبةٍ ورابطة عضوية وموضوعية بين السورتين الكريمتين، فموضوعهما واحد، وهو القتال، إلا أن سورة الأنفال تُمَثِّل أول مراحل تشريع القتال، وسورة التوبة تُمَثِّل آخر مرحلة من مراحل تشريع القتال، فقد جاء فيها آية السيف، وهي قوله تعالى :{ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }[التوبة: ٥]، قال القرطبي: "نسخت هذه الآية كل آية في القرآن فيها ذِكْرُ الإعراض والصبر على أذى الأعداء [٧].
٢- تحدثت سورة الأنفال عن غزوة بدر، وهي فاتحة الغزوات، وتناولت سورة التوبة غزوةَ تبوكَ، وهي خاتمة الغزوات.
٣- ذكر في الأولى صدّ المشركين عن المسجد الحرام، وأنهم ليسوا بأوليائه، وجاء في الثانية « ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ » إلى آخر الآيات.
٤- ذكرت العهود في سورة الأنفال، وافتتحت سورة التوبة بتفصيل الكلام فيها.
٥- ذكر في سورة الأنفال الترغيب في إنفاق المال في سبيل الله، وجاء ذلك بأبلغ وجه في براءة.
٦- جاء في الأولى ذكر المنافقين والذين في قلوبهم مرض - وفصل ذلك في الثانية أتمّ تفصيل.
٧- جاء ذكر المنافقين ودورهم في الإرجاف في قوله تعالى :﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾]الأنفال: ٤٩]، فإن سورة التوبة فضحت المنافقين وكشفت أسرارهم؛ ولهذا سمّيت" الفاضحة " و"البَحُوث"[٨].

وقد ذكروا في عدم كتابة البسملة في بداية سورة التوبة، أقوال[٩]:

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٥٧):ص٢٦٩/١٤.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٥٨):ص٢٧٠/١٤.
[٣] انظر: زاد المسير:٢٣٠/٢.
[٤] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١٧١/٢.
[٥] زاد المسير:٢٣٠/٢.
[٦] انظر: تفسير المراغي:٥٠/١٠-٥١.
[٧] انظر: تفسير القرطبي:٧٣/٨.
[٨] انظر: أسماء السورة الإجتهادية.
[٩] انظر: زاد المسير: ٢٣١/٢، وتفسير المراغي:٥٠/١٠-٥١.

أحدهما: أنه لم يكتب الصحابة ولا من بعدهم البسملة في أولها، لأنها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور.

والثاني: رعاية لمن كان يقول إنها مع الأنفال سورة واحدة.

روي عن يزيد الفارسي، قال: "قال لنا ابن عباس- رضي الله عنهما- قلت لعثمان: "ما حملكم إلى أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. فقال عثمان: كان النبي - ﷺ - مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه من السورة ذوات العدد فكان إذا نزل عليه يدعو بعض من يكتب فيقول: ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا. وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها؟ فمن أجل ذلك فرقت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ"[1].

وكان قتادة يقول: "هما سورة واحدة"[2].

والثالث: لأنها جاءت لرفع الأمان والابتداء بالبسملة مذكورا فيها اسم الله موصوفا بالرحمة يوجبه.

عن ابن عباس-رضي الله عنهما- قال:" سألت علي بن ابي طالب-رضي الله عنه- لِم لَمْ تكتب «بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ؟» قال: لأن «بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ» أمان، وبراءة نزلت بالسيف"[3].

وعن ابن الحنفية، قال: "قلت لأبي: لم لم تكتبوا في «براءة» «بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ» ؟ فقال: يا بني، إن (براءة) نزلت بالسيف، وإن «بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ» أمان"[4].

وسئل سفيان بن عيينة عن هذا، فقال: "لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت في المنافقين"[5].

والرابع: أن رسول الله ﷺ، لما كتب في صلح الحديبية «بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ» ، لم يقبلوها وردوها، فما ردها الله عليهم، قاله عبد العزيز بن يحيى المكي[1].

---

[1] أخرجه أحمد (١/ ٥٧)، وأبو داود (٧٨٦، ٧٨٧)، والترمذي (٣٠٨٦)، وابن حبان (٤٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣٠)، والبيهقي في سننه (٢/ ٤٢) وغيرهم.

من طريق عوف، عن يزيد الفارسي، عن ابن عباس به.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، لا نعرفه إلا من حديث عوف، عن يزيد الفارسي، عن ابن عباس، ويزيد الفارسي قد روى عن ابن عباس غير حديث، ويقال: هو يزيد بن هرمز.

ويزيد الرقاشي؛ هو: يزيد بن أبان الرقاشي ولم يدرك ابن عباس وإنما روى عن أنس بن مالك وكلاهما من أهل البصرة، ويزيد الفارسي أقدم من يزيد الرقاشي.

قلت: وقد خولف الترمذي في تصحيحه لهذا الحديث.

قال الشيخ أحمد شاكر -رحمه الله- في تعليقه على المسند (١/ ١٩٧ - ١٩٨) في إسناده نظر كثير، بل هو عندي ضعيف جدًا، بل هو حديث لا أصل له ..... ثم قال: فهذا يزيد الفارسي الذي انفرد برواية هذا الحديث، يكاد يكون مجهولًا حتى شُبِّهَ على مثل ابن مهدي وأحمد والبخاري أن يكون وابن هرمز أو غيره، ويذكره البخاري في الضعفاء.

فلا يقبل منه مثل هذا الحديث ينفرد به، وفيه تشكيك في معرفة سور القرآن الثابتة بالتواتر القطعي، قراءة وسماعًا وكتابة في المصاحف، وفيه تشكيك في إثبات البسملة في أوائل السور، كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه، وحاشاه من ذلك.

فلا علينا إذا قلنا إنه حديث لا أصل له تطبيقًا للقواعد الصحيحة التي لا خلاف فيها بين أئمة الحديث، أهـ.

والحديث مختلف في إسناده على عوف الأعرابي. وانظر علل الدارقطني (٢٧٦). وضعّف إسناده أيضًا الشيخ الألباني في ضعيف سنن أبي داود (١٦٨، ١٦٩).

(٢) سقط من الأصل، والاستدراك من المعرفة للبيهقي (٢/ ٣٧٢).

[2] زاد المسير:٢٣١/٢.

[3] أورده السيوطي في الدر المنثور:١٢٠/٤، وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه.

[4] زاد المسير:٢٣١/٢.

[5] انظر: زاد المسير:٢٣١/٢.

والقول الأخير لا يصح، وهو رأي لعبد العزيز، وليس بشيء وحديث صلح الحديبية متفق عليه. والله أعلم.

أغراض السورة ومقاصدها:

قال ابن عاشور" :افتتحت السورة كما تفتتح العهود وصكوك العقود بأدل كلمة على الغرض الذي يراد منها، كما في قولهم: هذا ما عهد به فلان، وهذا ما اصطلح عليه فلان وفلان، وقول الموثقين: باع، أو وكَّل، أو تزوَّج، وذلك هو مقتضى الحال في إنشاء الرسائل والمواثيق ونحوها"(٢).

وبالفعل فإن هذه السورة ابتدأت حديثها بإعلان البراءة من أفعال الكافرين، وأعلنت المفاصلة بين أهل الحق وأهل الباطل، وأهل الإيمان وأهل الشرك، وأهل الإسلام وأهل النفاق .

هذا من حيث فاتحة السورة، وتحديد هدفها العام، ثم وراء ذلك تضمنت السورة مقاصد أُخر، نذكر منها(٣):

أولا:- معاداة من أعرض عن اتباع الداعي إلى الله في توحيده، واتباع ما يرضيه، وموالاة من أقبل عليه. يدل على هذا المقصد: قصة الثلاثة المخلَّفين، فإنهم هُجروا، وأُعرض عنهم بكل اعتبار، حتى بالكلام وبالسلام، إلى أن تاب الله عليهم .

ثانيا:- تضمنت السورة من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى الكثير؛ وذلك لتذكير تالي القرآن وسامعه المرة بعد المرة بربه وخالقه، وما هو متصف به من صفات الكمال، الذي يثمر له زيادة تعظيمه وحبه والرجاء في رحمته وإحسانه، والخوف من عقابه، لمن أعرض عن هداية كتابه، أو خالف حكمته وسننه في خلقه، وهذا أعلى مقاصد القرآن، في إكمال الإيمان، وإعلاء شأن الإنسان .

ثالثا:- تقرير عدة عقائد من أصول الإيمان، وكمال التوحيد، وحصول اليقين، جُمعت كلها في آية واحدة من هذه السورة، وهي قوله تعالى: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [التوبة : ٥١]. فالمؤمن يعتقد أن الله تعالى هو مولاه الذي يتولى نصره وتوفيقه؛ فهو بمقتضى إيمانه يتوكل عليه ويفوض أمره إليه.

رابعا:- بيان أن من مقتضى الإيمان الصحيح، تحري المؤمن إرضاء الله ورسوله معاً؛ ذلك بأن كل ما يرضي رسوله ﷺ يرضي الله سبحانه، فرضا الله ورضا رسوله متلازمان، لا ينفكان، ولا يقبل إيمان عبد من غير اجتماعهما.

خامسا:- بيان علو مكانة رسول الله ﷺ وعناية الله تعالى به وحفظه ورعايته وتكريمه وتأديبه وتكميله إياه.

سادسا:- حظر التخلف عن هديه ﷺ وسنته، والرغبة بالنفس عن نفسه، وبيان أن كل من يصون نفسه عن جهاد وعمل، بذل الرسول ﷺ نفسه فيه، فهو مفضل لنفسه على نفسه الكريمة في عهده، ومن ثم فإنه ينبغي لكل مؤمن أن يتأسى به ﷺ في بذله ماله ونفسه لله والجهاد في سبيل الله بقدر إمكانه.

سابعا:- تقرير أن دين الإسلام هو نور الله تعالى العام، وهداه الكامل التام، الذي نسخ به ما تقدمه من الأديان، ووعد الله عز وجل بإتمامه، وخذلان مريدي إطفائه.

ثامنا:- بيان أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هما مدخل الإسلام ومفتاحه وما يتحقق به، وهو قوله تعالى في المشركين: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [التوبة : ١١].

---

(١) انظر: زاد المسير:٢٣١/٢.
(٢) التحرير والتنوير:١٠٢/١٠.
(٣) انظر:مقاصد سورة التوبة، إسلام ويب، [موقع التكروني].

تاسعا:- بيان أن بناء الإسلام على العلم الصحيح، دون التقليد الذي ذمه القرآن: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة : ٣١].

عاشرا:- التأكيد على المساواة بين الرجال والنساء في ولاية الإيمان المطلقة ، في قوله {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [التوبة : ٧١]، والمساواة بينهما في جميع نعيم الآخرة تبعاً للمساواة في التكليف، يفهم ذلك من قوله سبحانه: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة : ٧٢].

الحادي عشر:- كون بذل الأموال في سبيل الله آية الإيمان الصحيح وقِوام الدين الحنيف، وفضل النفقة في الجهاد قلَّت أو كثرت، وكون الجزاء عليها أحسن الجزاء. وكون البخل والامتناع عن الإنفاق في سبيل الله آية الكفر والنفاق.

الثاني عشر:- بيان فوائد الزكاة المفروضة والصدقات، وإصلاح الإسلام النظام المالي للبشر، وامتيازه بذلك على جميع الأديان .

الثالث عشر:- إعلان البراءة من المشركين، لدفع المفاسد المترتبة على بقائها .

الرابع عشر:- التأكيد على أهمية الجهاد في سبيل الله؛ لنشر دينه، وقتال من يقف في وجه دعوة الإسلام، وتوعد الذين يتقاعسون عن الجهاد بحياة الذل والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

الخامس عشر:- عقد المعاهدات مع الدول والأمم من حقوق الأمة، لها غُنْمها، وعليها غُرمها، وإنما يعقدها الإمام أو نائبه من حيث إنه هو الممثل لوحدة الأمة. ووجوب الوفاء بالمعاهدة ما دام الطرف الآخر من الأعداء يفي بها، ولا ينقص منها شيئاً .

السادس عشر:- بينت السورة أن الهدنة بين المسلمين ومن حاربهم مشروعة، وللمسلمين أن يبدؤوا بها إذا اقتضت مصلحتهم ذلك .

السابع عشر:- تأمين الحربي، بالإذن له بدخول دار الإسلام جائز للمصلحة، فإذا استأمن لأجل سماع كلام الله، أو الوقوف على حقيقة الإسلام، وجبت إجارته ثم إبلاغه مأمنه عند الخروج من دار الإسلام .

الثامن عشر:- ذم القرآن للكفار والمنافقين، ونزاهته في ذمهم عن السب والشتم، ووصفهم بأنهم لا يرقبون ولا يراعون في أحد من المؤمنين قرابة ولا عهداً، وأنهم يصدون عن سبيل الله، وأن أكثرهم فاسقون، وأنهم هم المعتدون، وأشد ما وصفهم به أنهم رجس، وأنه كلما نزلت سورة من القرآن زادتهم رجساً إلى رجسهم، حتى ماتوا على كفرهم .

التاسع عشر:- بيان سياسة الإسلام في التعامل مع المنافقين، وأن من أظهر الإسلام منهم يعامل كما يعامل سائر المسلمين؛ لأن قاعدة الإسلام في هذا الصدد: أن الحكم على الظواهر، وأن الله تعالى وحده هو الذي يحاسب، ويعاقب على السرائر.

فضائل السورة:

وردت عدة أحاديث في فضائل هذه السورة، منها:

أولا:- ذكر ابن رجب أن عبد الله ابن الإمام أحمد، وسعيد بن منصور أخرجا عن أُبيٍّ بن كعب- رضي الله عنه-: أن النبي ﷺ قرأ يوم الجمعة «براءة» وهو قائم يذكر بايام الله"[1].

---

[1] اخرجه احمد(٢١٢٨٧):ص٣٥/٢٠٨-٢٠٩، حديث صحيح، وإسناد قوي إن ثبت سماع عطاء بن يسار من أُبيّ بن كعب، عبد العزيز بن محمد -وهو الدراوردي- وشيخه شريك بن عبد الله صدوقان لا بأس بهما.
وأخرجه ابن ماجه (١١١١)، وذكر فيه سورة الملك، وأخرجه ابن خزيمة (١٨٠٧) و (١٨٠٨) ، والحاكم ١/٢٨٧-٢٨٨ و٢/٢٢٩-٢٣٠، والبيهقي ٣/٢١٩-٢٢٠ من طرق عن سعيد بن أبي مريم، عن محمد بن جعفر بن أبي كثير، عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر، عن عطاء بن يسار عن أبي ذر قال: دخلت المسجد يوم الجمعة ... فذكره. فجعله من حديث أبي ذر.
قلنا: قال الذهبي في "تلخيص المستدرك": ما أحسب عطاءً أدرك أبا ذر، ومثله قال الحافظ في "إتحاف المهرة" ١٤/١٧٢-١٧٣.

ثانيا:- عن أبي بن كعب عن رسول الله-ﷺ-، قال:" ما نزل من القرآن إلا آية آية وحرف حرف، ما خلا سورة براءة وقل هو الله أحد، فإنها أنزلت عليّ ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة"[١].

ثالثا:- وروي عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: " من قال إذا أصبح وإذا أمسى: «حسبي الله لا إله إلا هو؛ عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم»؛ سبع مرات؛ كفاه الله ما أهمه، صادقاً كان أو كاذبا"[٢].

قال البيهقي: ورواه عبد الله بن جعفر، عن شريك، عن عطاء، عن أبي الدرداء، عن أُبي بن كعب وجعل القصة بينهما، ورواه حرب بن قيس، عن أبي الدرداء، وجعل القصة بينه وبين أُبي، ورواه عيسى بن جارية، عن جابر ابن عبد الله فذكر معنى هذه القصة بين ابن مسعود وأُبي بن كعب، ورواه الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس فجعل معنى هذه القصة بين رجل غير مسمى وبين عبد الله بن مسعود، وجعل المصيب عبد الله بن مسعود بدل أُبي. وليس في الباب أصح من هذا الحديث الذي ذكرنا إسناده، والله أعلم، فقد رواه أبو سلمة بن عبد الرحمن مرسلاً بين أبي ذر وبين أبي بن كعب في شيءٍ سأله عنه، وأسنده محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة.

قلنا: أما رواية عبد الله بن جعفر فلم نجدها.

وأما رواية حرب بن قيس فستأتي في مسند أبي الدرداء ١٩٨/٥. وإسنادها ضعيف.

وأما رواية عيسى بن خارجة، فأخرجها أبو يعلى (١٧٩٩) و (١٨٠٠) ، ومن طريقه أخرجها ابن حبان (٢٧٩٤) ، وإسنادها ضعيف.

وأما رواية الحكم بن أبان، فأخرجها ابن خزيمة (١٨٠٩) ، وإسنادها ضعيف.

وأما رواية أبي سلمة المرسلة فأخرجها عبد الرزاق (٥٤٢٤) ، وإسنادها ضعيف.

وأما رواية محمد بن عمرو الموصولة فأخرجها الطيالسي (٢٣٦٥) ، والبزار (٦٤٣-كشف الأستار) ، والطحاوي ٣٦٧/١، والبيهقي ٢٢٠/٣. وإسنادها حسن.

قلنا: ولم ينفرد محمد بن عمرو بوصله، بل توبع، فأخرجه الطبراني في "مسند الشاميين" (٢٨٤٠) من طريق معاوية بن سلام، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، به مختصراً. وإسناده صحيح.

وأخرجه عبد الرزاق (٥٤٢١) عن معمر، عن عمرو وغيره، عن الحسن، فذكر القصة بين ابن مسعود وأُبي بن كعب، مثل رواية عيسى بن خارجة.

وفي باب الإنصات إلى الخطيب يوم الجمعة عن أبي هريرة سلف برقم (٧٣٣٢) ، وانظر تتمة شواهده هناك.

قال التهانوي في أعلام السنن٧٣/٤:"رواه عبدالله بن احمد من زياداته، ورجاله رجال الصحيح كذا في "مجمع الزوائد"(٢١٧/١)، وهو صحيح، كذا في كنز العمال:٢٧٥/٤.

[١] أخرجه الثعلبي عن عائشة، في الكشف والبيان:٥/٥، وذكره الزمخشري في الكشاف:١٧٩/٢، والحديث موضوع، انظر: تحقيقه في فضل سورة الانفال، والحديث وغن كان موضوعا إلا أنه مذكور في فضل هذه السورة ولهذا اتيت به في هذا المقام وهكذا في جميع السور.

[٢] حديث منكر، أخرجه أبو داود (٥٠٨١) - عن يزيد بن محمد الدمشقي -، وابن عساكر في "التاريخ" (١٠/ ١٤٦/ ٢) - من طريق أبي زرعة وإبراهيم بن عبد الله بن صفوان - ثلاثتهم قالوا: حدثنا عبد الرزاق بن عمر بن مسلم - زاد يزيد بن محمد الدمشقي: وكان من ثقات المسلمين من المتعبدين -: أخبرنا مدرك بن أبي سعد (وقال يزيد: ابن سعد، شيخ ثقة) عن يونس بن ميسرة بن حلبس عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: ... فذكره موقوفاً عليه.

وخالفهم أحمد بن عبد الله بن عبد الرزاق المقرىء فقال: أخبرنا جدي عبد الرزاق ابن عمر بإسناده المذكور عن أبي الدرداء مرفوعاً.

أخرجه ابن السني في "عمل اليوم والليلة" (رقم ٧١) ، وابن عساكر (١٠/ ١٥٧/ ١) من طريقين عنه؛ إلا أن ابن السني لم يذكر فيه قوله:

"صادقاً كان أو كاذباً".

وكذلك لم يذكر هذه الزيادة في رواية أبي داود الحافظ ابن كثير في "التفسير"، والسيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٢٩٧) . ولما ذكرها ابن كثير من رواية ابن عساكر الأولى الموقوفة؛ قال:

"وهذه زيادة غريبة". ثم قال في حديث ابن عساكر هذا المرفوع - وفيه الزيادة -.

"وهذا منكر، والله أعلم".

وجملة القول في هذا الحديث: أن إسناد الموقوف رجاله ثقات، بخلاف المرفوع؛ فإن مداره على أحمد بن عبد الله بن عبد الرزاق المقرىء، ولم أعرفه، ولا ذكره ابن الجزري في "غاية النهاية في طبقات القراء".

ومع ذلك؛ فقد خالف الثقات الذين أوقفوه؛ كما رأيت، فحري بمثله أن يكون ما رفعه منكراً.

هذا ما تيسر من التمهيد للسورة، وسوف نبدأ في تفسير آياتها بالتفصيل والتحليل، والله نسأل أن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه وأن يجنبنا فتنة القول والعمل. وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا ونوايانا خالصة لوجهه الكريم.

القرآن

{بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١)} [التوبة : ١]

التفسير:

هذه براءة من الله ورسوله، وإعلان بالتخلي عن العهود التي كانت بين المسلمين والمشركين.

سبب النزول:

وأما قول المنذري في "الترغيب" (١/ ٢٢٧) :

"رواه أبو داود هكذا موقوفاً، ورفعه ابن السني وغيره، وقد يقال: إن مثل هذا لا يقال من قبل الرأي والاجتهاد، فسبيله سبيل المرفوع"!

فأقول: ذلك من الممكن بالنسبة لأصل الحديث، بخلاف الزيادة؛ فإنها غريبة منكرة؛ كما قال ابن كثير، وهو ظاهر جداً؛ إذ لا يعقل أن يؤجر المرء على شيء لا يصدق به، بل هذا شيء غير معهود في الشرع. والله أعلم.

ثم رأيت الحديث قد روي مرسلاً بلفظ:

"من قال: حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم؛ قال الله عز وجل: لأكفين عبدي؛ صادقاً كان أو كاذباً".

أخرجه الطبراني في "الدعاء" (ق ١١٨/ ٢) ، وعنه عبد الغني المقدسي في "السنن" (٢٣٥/ ١) من طريق هشام بن عمار: حدثنا مدرك بن أبي سعد الفزاري عن يونس بن ميسرة بن حلبس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ... فذكره.

وهذا إسناد مرسل، رجاله ثقات؛ على ضعف في هشام بن عمار؛ فإنه كان يتلقن.

فهذه علة أخرى في الحديث؛ وهي الإرسال والاضطراب في متنه. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأما المقدسي فقال:

"هذا حديث مرسل، ورجاله كلهم ثقات"! [انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة(٥٢٨٦):ص١١/٤٤٩-٤٥١]

قال ابن عباس: "نزلت في أبي سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وسائر رؤساء قريش الذين نقضوا العهد، وهم الذين هموا بإخراج الرسول"(١).

قوله تعالى:{بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [التوبة : ١]، أي:" هذه براءة من المشركين ومن عهودهم كائنة من الله ورسوله"(٢).

قال الطبري: يعني :" هذه براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين، لأن العهود بين المسلمين والمشركين عهد رسول الله ﷺ، لم يكن يتولى عقدها إلا رسول الله ﷺ أو من يعقدها بأمره، ولكنه خاطب المؤمنين بذلك لعلمهم بمعناه، وأن عقودَ النبي ﷺ على أمته كانت عقودهم، لأنهم كانوا لكل أفعاله فيهم راضين، ولعقوده عليهم مسلِّمين، فصار عقده عليهم كعقودهم على أنفسهم"(٣).

قال الفراء:" المعنى والله أعلم: هذه براءة من الله.."(٤).

قال ابن قتيبة:" أي: تبرؤ من الله ورسوله إلى من كان له عهد من المشركين"(٥).

قال السمعاني:أي: "هذه براءة، والبراءة: نقض العصمة، ومعنى الآية: تبرؤ من الله ورسوله {إلى الذين عاهدتم من المشركين} وقال بعضهم: برىء الله ورسوله من المشركين"(٦).

قال البغوي:" أي: هذه براءة من الله. وهي مصدر كالنشاءة والدناءة. قال المفسرون: لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك، كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، فأمر الله عز وجل بنقض عهودهم، وذلك قوله عز وجل: {وإما تخافن من قوم خيانة} الآية [الأنفال -٥٨]"(٧).

قال الزمخشري:" براءة خبر مبتدإ محذوف أى هذه براءة ومن لابتداء الغاية، متعلق بمحذوف وليس بصلة، كما في قولك: برئت من الدين. والمعنى: هذه براءة واصلة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم كما يقال: كتاب من فلان إلى فلان. ويجوز أن يكون براءة مبتدأ لتخصيصها بصفتها، والخبر إلى الذين عاهدتم كما تقول: رجل من بنى تميم في الدار"(٨).

عن السدي قوله: "{براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين}، قال: لما نزلت هذه الآية برئ من عهد كل مشرك ولم يعاهد بعدها إلا من كان عاهد وأجرى لكل قوم مدتهم"(٩).

عن مجاهد في قوله: "{براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين}، إلى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد وغير هم أقبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ منها فأراد الحج، ثم قال: إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك، فأرسل أبا بكر وعليا فطافا في الناس بذي المجاز وبأمكنتهم التي كانوا يبيعون بها وبالموسم كله، فأذنوا أصحاب العهد أن يأمنوا أربعة أشهر"(١٠).

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم علقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين؟ قلت: قد أذن الله في معاهدة المشركين أولا فاتفق المسلمون مع رسول الله ﷺ وعاهدوهم، فلما نقضوا العهد أوجب الله تعالى النبذ إليهم، فخوطب المسلمون بما نجدد من ذلك فقيل لهم: اعلموا أن الله

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول:٢٤٣. بدون إسناد.
(٢) صفوة التفاسير:٤٨٤/١.
(٣) تفسير الطبري:٩٥/١٤-٩٦.
(٤) معاني القرآن:٢٧٠/١.
(٥) غريب القرآن:١٥٩.
(٦) تفسير السمعاني:٢٨٥/٢.
(٧) تفسير البغوي:٨/٤.
(٨) الكشاف:٢٤٢/٢.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٢١٦):ص١٧٤٦/٦.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٢١٧):ص١٧٤٦/٦.

ورسوله قد برئا مما عاهدتم به المشركين. وروى أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب، فنكثوا إلا ناسا منهم وهم بنو ضمرة وبنو كنانة فنبذ العهد إلى الناكثين، وأمروا أن يسيحوا في الأرض أربعة أشهر آمنين أين شاءوا لا يتعرض لهم، وهي الأشهر الحرم في قوله فإذا انسلخ الأشهر الحرم وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها، وكان نزولها سنة تسع من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان، وكان الأمير فيها عتاب بن أسيد، فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر رضى الله عنه على موسم سنة تسع، ثم أتبعه عليا رضى الله عنه راكب العضباء ليقرأها على أهل الموسم، فقيل له: لو بعثت بها إلى أبى بكر رضى الله عنه؟ فقال: لا يؤدى عنى إلا رجل منى، فلما دنا على سمع أبو بكر الرغاء، فوقف، وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما لحقه قال: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور. وروى أن أبا بكر لما كان ببعض الطريق هبط جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، لا يبلغن رسالتك إلا رجل منك، فأرسل عليا، فرجع أبو بكر رضى الله عنهما إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أشىء نزل من السماء قال: نعم، فسر وأنت على الموسم، وعلى ينادى بالآى. فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضى الله عنه وحدثهم عن مناسكهم، وقام على رضى الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: يا أيها الناس، إنى رسول رسول الله إليكم. فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية. وعن مجاهد رضى الله عنه ثلاث عشرة آية، ثم قال: أمرت بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذى عهد عهده: فقالوا عند ذلك يا على، أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف. وقيل:

إنما أمر أن لا يبلغ عنه إلا رجل منه، لأن العرب عادتها في نقض عهودها أن يتولى ذلك على القبيلة رجل منها، فلو تولاه أبو بكر رضى الله عنه لجاز أن يقولوا: هذا خلاف ما يعرف فينا من نقض العهود، فأزيحت علتهم بتولية ذلك عليا رضى الله عنه"[١].

وقرئ «براءة» بالنصب، على: اسمعوا براءة. وقرأ أهل نجران «من الله» بكسر النون، والوجه الفتح مع لام التعريف لكثرته. والمعنى أن الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين وأنه منبوذ إليهم[٢].

القرآن

{فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢)} [التوبة : ٢]

التفسير:

فسيروا -أيها المشركون- في الأرض مدَّة أربعة أشهر، تذهبون حيث شئتم آمنين من المؤمنين، واعلموا أنكم لن تُفْلِتوا من العقوبة، وأن الله مذل الكافرين ومورثهم العار في الدنيا، والنار في الآخرة.

قوله تعالى:{فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} [التوبة : ٢]، أي:" فسيروا -أيها المشركون- في الأرض مدَّة أربعة أشهر، تذهبون حيث شئتم آمنين من المؤمنين"[٣].

قال أبو عبيدة:" سيروا وأقبلوا وأدبروا، «١» والعرب تفعل هذا، قال عنترة[٤]:

شطّت مزار العاشقين فأصبحت عسرا علىّ طلابك ابنة مخرم"[٥]

واختلفوا فيمن جعل له أمان هذه الأربعة الأشهر على أربعة أقاويل :

---

(١) الكشاف:٢/٢٤٢-٢٤٤.

(٢) انظر: الكشاف:٢/٢٤٢.

(٣) التفسير الميسر:١/١٨٧.

(٤)هذا البيت من معلقته وهو فى ديوانه فى الستة: ٤٥، وشرح العشر ٩١.

(٥) مجاز القرآن:١/٢٥٢.

أحدها : أن الله تعالى جعلها أجلاً لمن كان رسول الله -ﷺ- قد أمنه أقل من أربعة أشهر ولمن كان أجل أمانه غير محدود ثم هو بعد الأربعة حرب ، فأما من لا أمان له فهو حرب ، قاله ابن إسحاق[1].

والثاني : أن الأربعة الأشهر أمان أصحاب العهد من كان عهده أكثر منها حط إليها ، ومن كان عهده أقل منها إليها ، ومن لم يكن له من رسول الله عهد جعل له أمان خمسين ليلة من يوم النحر إلى سلخ المحرم لقوله تعالى :{فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ}. قاله ابن عباس[2]، والضحاك[3]، وقتادة[4].

والثالث : أن الأربعة الأشهر عهد المشركين كافة ، المعاهد منهم وغير المعاهد ، قاله الزهري ومحمد بن كعب[5]، ومجاهد[6]، والسدي[7].

والرابع : أن الأربعة ألاشهر عهد وأمان لمن لم يكن له من رسول الله -ﷺ- عهد ولا أمان ، أما أصحاب العهود فهم على عهودهم إلى انقضاء مددهم ، قاله الكلبي[8].

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ من قال: الأجلُ الذي جعله الله لأهل العهد من المشركين، وأذن لهم بالسياحة فيه بقوله: (فسيحوا في الأرض أربعة أشهر) ، إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله ﷺ، ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته. فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ولم يظاهروا عليه، فإن الله جل ثناؤه أمر نبيه ﷺ بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله: {إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [سورة التوبة: ٤]، فإن ظنّ ظانٌّ أن قول الله تعالى ذكره: {فَإِذَا انْسَلَخَ الأشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [سورة التوبة: ٥] ، يدلُّ على خلاف ما قلنا في ذلك، إذ كان ذلك ينبئ على أن الفرض على المؤمنين كان بعد انقضاء الأشهر الحرم، قتْلَ كل مشرك، فإن الأمر في ذلك بخلاف ما ظن، وذلك أن الآية التي تتلو ذلك تبين عن صحة ما قلنا، وفسادِ ما ظنه من ظنّ أن انسلاخ الأشهر الحرم كان يبيح قتل كل مشرك، كان له عهد من رسول الله ﷺ، أو لم يكن له منه عهد، وذلك قوله: {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}، [سورة التوبة: ٧] ، فهؤلاء مشركون، وقد أمر الله نبيه ﷺ والمؤمنين بالاستقامة لهم في عهدهم، ما استقاموا لهم بترك نقض صلحهم، وترك مظاهرة عدوهم عليهم.

وبعدُ، ففي الأخبار المتظاهرة عن رسول الله ﷺ: أنه حين بعث عليًّا رحمة الله عليه ببراءة إلى أهل العهود بينه وبينهم، أمره فيما أمره أن ينادي به فيهم: "ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته"، أوضحُ الدليل على صحة ما قلنا. وذلك أن الله لم يأمر نبيه ﷺ بنقض عهد قوم كان عاهدهم إلى أجل فاستقاموا على عهدهم بترك نقضه، وأنه إنما أجل أربعة أشهر من كان قد نقض عهده قبل التأجيل، أو من كان له عهد إلى أجل غير محدود. فأما من كان أجل عهده محدودًا، ولم يجعل بنقضه على نفسه سبيلا فإن رسول الله ﷺ كان بإتمام عهده إلى غاية أجله مأمورًا. وبذلك بعث مناديه ينادي به في أهل الموسم من العرب"[9].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٦٣٥٦):ص١٤/٩٦-٩٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٦٣٥٧):١٤/٩٨.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٦٣٥٩):١٤/٩٨-٩٩.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٦٣٦٠):١٤/٩٩.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٦٣٦٢):١٤/١٠٠.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٦٣٦٤):١٤/١٠٠.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٦٣٦١):١٤/٩٩-١٠٠.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٦٣٦٧):ص١٤/١٠٢.
(٩) تفسير الطبري:١٤/١٠١-١٠٢.

عن أبي هريرة قال: كنت مع علي رحمة الله عليه، حين بعثه النبي ﷺ ينادي. فكان إذا صَحِل صوته ناديتُ، قلت: بأي شيء كنتم تنادون؟ قال: بأربع: لا يطُفْ بالكعبة عُريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهدٌ فعهده إلى مدته، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك"(١).

وفي خبر عن المحرّر بن أبي هريرة، عن أبيه قال: "كنت مع علي حين بعثه رسول الله ﷺ ببراءة إلى أهل مكة، فكنت أنادي حتى صَحِل صوتي. فقلت: بأي شيء كنت تنادي؟ قال: أمرنا أن ننادي: أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فأجله إلى أربعة أشهر، فإذا حلّ الأجل فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يطُفْ بالبيت عريان، ولا يحج بعد العام مشرك"(٢).

قال الطبري:" ا الخبر وهمًا من ناقله في الأجل، لأن الأخبار متظاهرة في الأجل بخلافه، مع خلاف قيس شعبة في نفس هذا الحديث على ما بينته... عن الحارث الأعور، عن علي رحمة الله عليه قال: «أمرت بأربع: أمرت أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطف رجل بالبيت عريانًا، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مسلمة، وأن يتمّ إلى كل ذي عهد عهده»(٣)"(٤).

عن زيد بن يثيع قال: "نزلت «براءة»، فبعث بها رسول الله ﷺ أبا بكر، ثم أرسل عليًّا فأخذها منه. فلما رجع أبو بكر قال: هل نزل فيَّ شيء؟ قال: لا ولكني أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي. فانطلق إلى مكة، فقام فيهم بأربع: أن لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا، ولا يطف بالكعبة عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ومن كان بينه وبين رسول الله عهدٌ فعهده إلى مدته"(٥).

عن ابن عباس: "أن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر ببراءة، ثم أتبعه عليًّا، فأخذها منه، فقال أبو بكر: يا رسول الله حدث فيّ شيء؟ قال: "لا أنت صاحبي في الغار وعلى الحوض، ولا يؤدِّي عني إلا أنا أو عليّ! وكان الذي بعث به عليًّا أربعا: لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ولا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مُدَّته"(٦).

عن عامر قال: "بعث النبي ﷺ عليًّا رحمة الله عليه، فنادى: ألا لا يحجنَّ بعد العام مشرك، ولا يطف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فأجله إلى مدته، والله بريء من المشركين ورسوله"(٧).

عن أبي جعفر محمد بن علي بن حسين بن علي قال: "لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ، وقد كان بعث أبا بكر الصديق رحمة الله عليه ليقيم الحج للناس؛ قيل له: يا رسول الله، لو بعثت إلى أبي بكر! فقال: لا يؤدِّي عني إلا رجل من أهل بيتي! ثم دعا علي بن أبي طالب رحمة الله عليه، فقال: اخرج بهذه القصة من صدر "براءة"، وأذِّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنًى: أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته. فخرج علي بن أبي طالب رحمة الله عليه على ناقة رسول الله ﷺ العضباء، حتى أدرك أبا بكر الصديق بالطريق. فلما رآه أبو بكر قال: أميرٌ أو مأمور؟ قال: مأمور، ثم مضيا رحمة الله عليهما، فأقام أبو بكر للناس الحج، والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحجّ التي كانوا عليها في الجاهلية. حتى إذا كان يوم النحر،

---

(١) أخرجه الطبري(١٦٣٦٨):ص١٤/١٠٢-١٠٣.
(٢) أخرجه الطبري(١٦٣٧٠):ص١٤/١٠٤-١٠٥.
(٣) أخرجه الطبري(١٦٣٧١):ص١٤/١٠٥.
(٤) تفسير الطبري:١٤/١٠٥.
(٥) أخرجه الطبري(١٦٣٧٢):ص١٤/١٠٦.
(٦) أخرجه الطبري(١٦٣٧٥):ص١٤/١٠٧.
(٧) أخرجه الطبري(١٦٣٧٦):ص١٤/١٠٧.

قام علي بن أبي طالب رحمة الله عليه، فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ، فقال: يا أيها الناس، لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو له إلى مدته. فلم يحجّ بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان. ثم قدما على رسول الله ﷺ. وكان هذا من "براءة"، فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العامّ، وأهل المدة إلى الأجل المسمى"[1].

عن السدي قال: لما نزلت هذه الآيات إلى رأس أربعين آية، بعث بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر وأمَّره على الحج. فلما سار فبلغ الشجرة من ذي الحليفة، أتبعه بعليّ فأخذها منه. فرجع أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أنزل في شأني شيء؟ قال: لا ولكن لا يبلّغ عني غيري، أو رجل مني، أما ترضى يا أبا بكر أنك كنت معي في الغار، وأنك صاحبي على الحوض؟ قال: بلى، يا رسول الله! فسار أبو بكر على الحاجّ، وعلي يؤذن ببراءة، فقام يوم الأضحى فقال: لا يقربنَّ المسجد الحرام مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوفنّ بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فله عهده إلى مدته، وإن هذه أيام أكل وشرب، وإن الله لا يدخل الجنة إلا من كان مسلما. فقالوا: نحن نبرأ من عهدك وعهد ابن عمك إلا من الطعن والضرب! فرجع المشركون، فلام بعضهم بعضًا وقالوا: ما تصنعون، وقد أسلمت قريش؟ فأسلموا"[2].

قال الطبري:" قال أبو جعفر : فقد أنبأت هذه الأخبار ونظائرها عن صحة ما قلنا ، وأن أجل الأشهر الأربعة إنما كان لمن وصفنا. فأما من كان عهده إلى مدة معلومة ، فلم يجعل لرسول الله ﷺ وللمؤمنين لنَقْضِه ومظاهرة أعدائهم عليهم سبيلا فإن رسول الله ﷺ قد وَفَى له بعهده إلى مدته ، عن أمر الله إياه بذلك. وعلى ذلك دلّ ظاهرُ التنزيل ، وتظاهرت به الأخبار عن الرسول ﷺ"[3].

واختلفوا في أول مَدَى الأربعة الأشهر على ثلاثة أقوال:

أحدها : أن أولها يوم يوم الحج الأكبر وهو يوم النحر ، وآخرها انقضاء العاشر من شهر ربيع الآخر ، قاله محمد بن كعب[4]، ومجاهد[5]، والسدي[6].

والثاني : أنها شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، قاله الزهري[7].

والثالث : أن أولها يوم العشرين من ذي القعدة ، وآخرها يوم العشرين من شهر ربيع الأول ، لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك اليوم ثم صار في السنة الثانية في العشر من ذي الحجة وفيها حجة الوداع ، لأجل ما كانوا عليه في الجاهلية من النسيء ، فأقره النبي -ﷺ- فيه حتى

---

(1) أخرجه الطبري(١٦٣٧٧):ص١٤/١٠٧-١٠٨.
(2) أخرجه الطبري(١٦٣٧٨):ص١٤/١٠٨-١٠٩.
(3) تفسير الطبري:١٤/١٠٩.
(4) انظر: تفسير الطبري(١٦٣٦٢):١٤/١٠٠.
(5) انظر: تفسير الطبري(١٦٣٦٤):١٤/١٠٠.
(6) انظر: تفسير الطبري(١٦٣٦١):١٤/٩٩-١٠٠.
(7) انظر: تفسير الطبري(١٦٣٦٦):ص١٤/١٠١.

نزل تحريم النسيء وقال:« إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»[1]، {وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ}، أي: لا تعجزونه هرباً ولا تفوتونه طلباً[2].

قال الطبري:" وأما الأشهر الأربعة ...كان ابتداؤها يوم الحج الأكبر، وانقضاؤها انقضاء عشر من ربيع الآخر ، فذلك أربعة أشهر متتابعة ، جُعِل لأهل العهد الذين وصفنا أمرهم ، فيها ، السياحةُ في الأرض ، يذهبون حيث شاؤوا ، لا يعرض لهم فيها من المسلمين أحدٌ بحرب ولا قتل ولا سلب"[3].

قوله تعالى:{وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ} [التوبة : ٢]، أي:" واعلموا أنكم لن تُفْلِتوا من العقوبة وإن أمهلكم هذه المدة"[4].

قال الطبري:" يقول لأهل العهد من الذين كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهدٌ قبل نزول هذه الآية : اعلموا ، أيها المشركون ، أنكم إن سحتم في الأرض ، واخترتم ذلك مع كفركم بالله. على الإقرار بتوحيد وتصديق رسوله (غير معجزي الله) ، يقول : غير مُفِيتيه بأنفسكم ، لأنكم حيث ذهبتم وأين كنتم من الأرض ، ففي قبضته وسلطانه ، لا يمنعكم منه وزيرٌ ، ولا يحول بينكم وبينه إذا أرادكم بعذاب معقلٌ ولا موئل. إلا الإيمان به وبرسوله. والتوبة من معصيته. يقول : فبادروا عقوبته بتوبة ، ودعوا السياحة التي لا تنفعكم"[5].

قوله تعالى:{وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ} [التوبة : ٢]، أي:" وأن الله مذل الكافرين ومورثهم العار في الدنيا، والنار في الآخرة"[6].

قال الطبري:" يقول : واعلموا أن الله مُذلُّ الكافرين ، ومُورثهم العارَ في الدنيا ، والنارَ في الآخرة"[7].

واختلف في حكم قوله تعالى: {فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} [التوبة : ٢]، على قولين:

أحدهما: أن التأجيل منسوخ بآية «السيف». ذكره هبة الله[8]، وابن حزم الأنصاري[9].

وقيل: أنه منسوخ بقوله: {فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ} [الأنفال : ٥٨][10].

الثاني: أنه محكم. وهذا قول جمهور المفسرين[11].

قال ابن الجوزي:" زعم بعض ناقلي التفسير ممن لا يدري ما ينقل: أن التأجيل منسوخ بآية السيف[12]. وقال بعضهم منسوخ بقوله: {فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ} [الأنفال : ٥٨]، وهذا سوء فهم، وخلاف لما عليه المفسرون"[1].

---

(١) الحديث:«إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر بين جمادى وشعبان أى شهر هذا أليس ذى الحجة قالوا بلى أى بلد هذا أليس البلدة الحرام قالوا بلى أى يوم هذا أليس يوم النحر قالوا بلى قال فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه ألا هل بلغت».

أخرجه أحمد (٣٧/٥، رقم ٢٠٤٠٢) ، والبخارى (٢١١٠/٥، رقم ٥٢٣٠) ، ومسلم (١٣٠٥/٣، رقم ١٦٧٩) ، وأبو داود (١٩٥/٢، رقم ١٩٤٧) . وأخرجه أيضًا: ابن حبان (٣١٢/١٣، رقم ٥٩٧٤).

(٢) انظر: النكت والعيون:٣٣٨/٢.

(٣) تفسير الطبري:١٠٩/١٤-١١٠.

(٤) انظر: التفسير الميسر:١٨٧/١، وصفوة التفاسير:٤٨٥/١

(٥) تفسير الطبري:١١١/١٤-١١٢.

(٦) التفسير الميسر:١٨٧/١.

(٧) تفسير الطبري:١١٢/١٤.

(٨) ذكره في ناسخه:٥١.

(٩) انظر: معرفة الناسخ والمنسوخ: ٢٤٠.

(١٠)انظر: نواسخ القرآن:٤٦١/٢.

(١١) انظر: نواسخ القرآن:٤٦١/٢.

(١٢)ذكره هبة الله في ناسخه (٥١) وابن حزم الأنصاري في معرفة الناسخ والمنسوخ ص: ٢٤٠.

فوائد الآيتين:[١-٢]:
١- جواز عقد المعاهدات بين المسلمين والكافرين إذا كان ذلك لدفع ضرر محقق عن المسلمين، أو جلب نفع للإسلام والمسلمين محققا كذلك.
٢- تحريم الغدر والخيانة، ولذا كان إلغاء المعاهدات علنيا وإمداد أصحابها بمدة ثلث سنة يفكرون في أمرهم ويطلبون الأصلح لهم.
٣- اقتضت أن تفتتح السورة بهذا الإعلان العام ببراءة الله ورسوله من المشركين، وأن يتكرر إعلان البراءة من الله ورسوله بعد آية واحدة بنفس القوة ونفس النغمة العالية حتى لا يبقى لقلب مؤمن أن يبقى على صلة مع قوم يبرأ الله منهم ويبرأ رسوله.

القرآن

{وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣)} [التوبة : ٣]

التفسير:

وإعلام من الله ورسوله وإنذار إلى الناس يوم النحر أن الله بريء من المشركين، ورسوله بريء منهم كذلك. فإن رجعتم -أيها المشركون- إلى الحق وتركتم شرككم فهو خير لكم، وإن أعرضتم عن قَبول الحق وأبيتم الدخول في دين الله فاعلموا أنكم لن تُفْلِتوا من عذاب الله. وأنذر -أيها الرسول- هؤلاء المعرضين عن الإسلام عذاب الله الموجع.

قوله تعالى:{وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ} [التوبة : ٣]، أي:" وإعلام من الله ورسوله وإنذار إلى الناس يوم النحر أن الله بريء من المشركين، ورسوله بريء منهم كذلك"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : وإعلامٌ من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر

وفي «الأذان» ها هنا ثلاثة أقوال:

أحدها : أنه القصص ، وهذا قول تفرد به سليمان بن موسى الشامي[٣].

قال ابن جريج: "زعم سليمان الشامي أن الأذان: القصص، قال: فتحة براءة حتى تختم"[٤].

والثاني : أنه النداء بالأمر الذي يسمع بالأذن ، حكاه علي بن عيسى[٥].

الثالث : أنه الإعلام ، قاله ابن زيد[٦]. وهذا قول الكافة[٧].

وفي {يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ}، أربعة أقوال :

أحدها : أنه يوم عرفة ، قاله عمر بن الخطاب[٨]، وابن عباس[٩]، وابن المسيب[١٠]، وعطاء[١١].

وروى ابن جريج عن محمد بن قيس بن مخرمة :"أن رسول الله -ﷺ- خطب يوم عرفة وقال : {هَذَا يَوْمُ الْحَجِّ الأَكْبَرِ}"[١].

---

(١) نواسخ القرآن:٤٦١/٢. وانظر: اختلاف المفسرين فيمن جعلت له هذه الأشهر في تفسير قوله تعالى: {فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} [التوبة : ٢].
(٢) التفسير الميسر:١٨٧/١.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٦٣٨٠):ص١١٢/١٤.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٩٢٢٤):ص١٧٤٧/٦.
(٥) انظر: النكت والعيون:٣٣٩/٢.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٢٢٥):ص١٧٤٧/٦.
(٧) انظر: النكت والعيون:٣٣٩/٢.
(٨) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٩٢٢٩):ص١٧٤٨/٦.
(٩) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٩٢٣٠):ص١٧٤٨/٦.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٦٣٨٥)، و(١٦٣٨٦):ص١١٤/١٤.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٦٣٨٤):ص١١٤/١٤.

روي عن سهل السراج قال: "سئل الحسن عن يوم الحج الأكبر فقال: ما لكم وللحج الأكبر؟ ذاك عام فيه أبو بكر الذي استخلفه رسول الله، ﷺ- فحج بالناس"[٢].
والثاني : أنه يوم النحر ، قاله علي بن أبي طلب[٣]، وعبد الله بن أبي أوفى[٤]، والمغيرة بن شعبه[٥]، وسعيد بن جبير[٦]، ومجاهد[٧]، ونافع بن جبير[٨]، وعامر الشعبي[٩]، وإبراهيم النخعي[١٠]، وأبو جحيفة[١١]، وعبدالله بن شداد[١٢]، وهو مروي عن ابن عباس[١٣] أيضا.

وروي عن علي رضي الله عنه قال: "وسألته يعني النبي ﷺ عن يوم الحج الأكبر، فقال: هو يوم النحر"[١٤].

وعن ابن عمر:" أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر في حجة الوداع، فقال: هذا يوم الحج الأكبر"[١٥].
والثالث :أنه اليوم الثاني من يوم النحر. قاله سعيد بن المسيب[١٦].
والرابع: أنها أيام الحج كلها ، فعبر عن الأيام باليوم ، قاله مجاهد[١٧]، وسفيان[١٨].

عن أبي عبيد قال:" كان سفيان يقول : يوم الحج، و يوم الجمل، ويوم صفين، أي : أيامه كلها"[١٩].

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصحة ، قولُ من قال : يوم الحج الأكبر ، يوم النحر ، لتظاهر الأخبار عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ أن عليًّا نادى بما أرسله به رسول الله ﷺ من الرسالة إلى المشركين ، وتلا عليهم " براءة " ، يوم النحر. هذا ، مع الأخبار التي ذكرناها عن رسول الله ﷺ أنه قال يوم النحر : أتدرون أيّ يوم هذا ؟ هذا يوم الحج الأكبر، وبعدُ ، فإن " اليوم " إنما يضاف إلى المعنى الذي يكون فيه ، كقول الناس : يوم عرفة " ، وذلك يوم وقوف الناس بعرفة و " يوم الأضحى " ، وذلك يوم يضحون فيه " ويوم الفطر " ، وذلك يوم يفطرون فيه. وكذلك " يوم الحج " ، يوم يحجون فيه ، وإنما يحج الناس ويقضون مناسكهم يوم النحر ، لأن في ليلة نهار يوم النحر الوقوفُ بعرفة غير فائت إلى طلوع الفجر،

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٢٢٨):ص١٧٤٨/٦.
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٢٣١):ص١٧٤٨/٦.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٣٩٤)-(١٦٣٩٦):ص١١٦/١٤.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٣٩٧)-(١٦٤٠٤):ص١١٦/١٤-١١٧.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٦٤١١)-(١٦٤١٣):ص١١٨/١٤-١١٩.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٦٤١٥):ص١١٩/١٤.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٦٤٢٩):ص١٢١/١٤.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٦٤٢٣):ص١٢٠/١٤.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٦٤٢٥):ص١٢٠/١٤.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٦٤٢٤):ص١٢٠/١٤.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٦٤١٦):ص١١٩/١٤.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٦٤٢١):ص١٢٠/١٤.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٤١٤):ص١١٩/١٤.
[١٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٢٢٦):ص١٧٤٧/٦.
[١٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٩٢٢٧):ص١٧٤٨/٦.
[١٦] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٩٢٣٢):ص١٧٤٨/٦.
[١٧] انظر: تفسير الطبري(١٦٤٥٥):ص١٢٧/١٤.
[١٨] انظر: تفسير الطبري(١٦٤٥٧):ص١٢٧/١٤.
[١٩] أخرجه الطبري(١٦٤٥٧):ص١٢٧/١٤.

وفي صبيحتها يعمل أعمال الحج. فأما يوم عرفة ، فإنه وإن كان الوقوف بعرفة ، فغير فائت الوقوف به إلى طلوع الفجر من ليلة النحر ، والحج كله يوم النحر"(١).

وفي سبب التسمية بذلك ثلاثة أقوال:
أحدها : أنه سمي بذلك لأنه كان في سنة اجتمع فيها حج المسلمين والمشركين ، ووافق أيضاً عيد اليهود والنصارى ، قاله الحسن(٢).
والثاني : أن الحج الأكبر القِران ، والأصغر الإفراد ، وهذا معنى قول مجاهد(٣).
عن مجاهد قال : "الحج الأكبر ، أيام منى كلها ، ومجامع المشركين حين كانوا بذي المجاز وعكاظ ومَجَنَّة ، حين نودي فيهم : أن لا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا ، وأن لا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهدٌ فعهده إلى مدته"(٤).
والثالث : أن الحج الأكبر هو الحج ، والأصغر هو العمرة ، قاله عبدالله بن شداد(٥).
قوله تعالى:{فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} [التوبة : ٣]، أي:" فإن رجعتم -أيها المشركون- إلى الحق وتركتم شرككم فهو خير لكم"(٦).
قوله تعالى:{وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ} [التوبة : ٣]، أي:" وإن أعرضتم عن قَبول الحق وأبيتم الدخول في دين الله فاعلموا أنكم لن تُفْلِتوا من عذاب الله"(٧).
قوله تعالى:{وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [التوبة : ٣]، أي:" وأنذر -أيها الرسول- هؤلاء المعرضين عن الإسلام عذاب الله الموجع"(٨).

القرآن

{إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤)} [التوبة : ٤]

التفسير:
ويُستثنى من الحكم السابق المشركون الذين دخلوا معكم في عهد محدد بمدة، ولم يخونوا العهد، ولم يعاونوا عليكم أحدا من الأعداء، فأكملوا لهم عهدهم إلى نهايته المحدودة. إن الله يحب المتقين الذين أدَّوا ما أمروا به، واتقوا الشرك والخيانة، وغير ذلك من المعاصي.
قوله تعالى:{إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [التوبة : ٤]، أي:" ويُستثنى من الحكم السابق المشركون الذين دخلوا معكم في عهد محدد بمدة"(٩).
عن ابن إسحاق: "{إلا الذين عاهدتم من المشركين}، أي: العهد الخاص إلى الأجل المسمى {ثم لم ينقصوكم شيئا}، الآية"(١٠).
قوله تعالى:{ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا} [التوبة : ٤]، أي:" ولم ينقصوا من شروط الميثاق شيئا"(١١).
وقرئ: «لم ينقضوكم»، بالضاد معجمة، أى: لم ينقضوا عهدكم(١٢).

---

(١) تفسير الطبري:١٢٧/١٤-١٢٨.
(٢) انظر: النكت والعيون:٣٣٩/٢.
(٣) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون:٣٣٩/٢. وانظر: الخبر التالي.
(٤) أخرجه الطبري(١٦٤٥٦):ص١٢٧/١٤.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٦٤٣٨):ص١٢٢/١٤.
(٦) التفسير الميسر:١٨٧/١.
(٧) التفسير الميسر:١٨٧/١.
(٨) التفسير الميسر:١٨٧/١.
(٩) التفسير الميسر:١٨٧/١.
(١٠) أخرجه الطبري(١٦٤٧٢):ص١٣٢/١٤.
(١١) صفوة التفاسير:٤٨٥/١.
(١٢) انظر: الكشاف:٢٤٧/٢.

قوله تعالى:{وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا} [التوبة : ٤]، أي:" لم يعينوا عليكم أحداً من أعدائكم"(١).

قوله تعالى:{فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ} [التوبة : ٤]، أي:" فأكملوا لهم عهدهم إلى نهايته المحدودة"(٢).

قال الزمخشري:"أي: فأدوه إليهم تاما كاملا...والاستثناء بمعنى الاستدراك، وكأنه قيل -بعد أن أمروا في الناكثين-: ولكن الذين لم ينكثوا فأتموا عليهم عهدهم، ولا تجروهم مجراهم، ولا تجعلوا الوفى كالغادر"(٣).

عن السدي: "{فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم}، يقول: إلى أجلهم"(٤).

عن قتادة قوله: "{إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا} ، الآية، قال: هم مشركو قريش، الذين عاهدهم رسول الله ﷺ زمن الحديبية، وكان بقي من مدتهم أربعة أشهر بعد يوم النحر. فأمر الله نبيه أن يوفي لهم بعهدهم إلى مدتهم، ومن لا عهد له إلى انسلاخ المحرم، ونبذ إلى كل ذي عهد عهده، وأمره بقتالهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأن لا يقبل منهم إلا ذلك"(٥).

عن ابن عباس قال: "مدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل "براءة" أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من شهر ربيع الآخر، وذلك أربعة أشهر. فإن نقضَ المشركون عهدهم، وظاهروا عدوًّا فلا عهد لهم. وإن وفوْا بعهدهم الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، ولم يظاهروا عليه عدوًّا، فقد أمر أن يؤدِّي إليهم عهدهم ويفي به"(٦).

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة : ٤]، أي:" إن الله يحب المتقين الذين أدَّوا ما أمروا به، واتقوا الشرك والخيانة، وغير ذلك من المعاصي"(٧).

قال الطبري:" يقول: إن الله يحب من اتقاه بطاعته، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه"(٨).

معاصيه"(٨).

قال الزمخشري:" يعنى: أن قضية التقوى أن لا يسوى بين القبيلين فاتقوا الله في ذلك لم ينقصوكم شيئا لم يقتلوا منكم أحدا ولم يضروكم قط ولم يظاهروا ولم يعاونوا عليكم عدوا، كما عدت بنو بكر على خزاعة عيبة رسول الله ﷺ، وظاهرتهم قريش بالسلاح حتى وفد عمرو بن سالم الخزاعي على رسول الله ﷺ فأنشد:

لاهم إنى ناشد محمدا حلف أبينا وأبيك الأتلدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ذمامك المؤكدا
هم بيتونا بالحطيم هجدا وقتلونا ركعا وسجدا

فقال عليه الصلاة والسلام: «لا نصرت إن لم أنصركم»(٩)"(١).

---

(١) صفوة التفاسير:٤٨٥/١.
(٢) التفسير الميسر:١٨٧/١.
(٣) الكشاف:٢٤٦/٢-٢٤٧.
(٤) أخرجه الطبري(١٦٤٧١):ص١٣٢/١٤.
(٥) أخرجه الطبري(١٦٤٧٣):ص١٣٣/١٤.
(٦) أخرجه الطبري(١٦٤٧٤):ص١٣٣/١٤.
(٧) التفسير الميسر:١٨٧/١.
(٨) تفسير الطبري:١٣٢/١٤.
(٩)رواه ابن هشام في سيرته:ص٣٩٤/٢-٣٩٥، في غزوة مؤتة من طريق ابن إسحاق، والبيهقي في "دلائل النبوة" في" باب فتح مكة" عن الحاكم بسنده إلى ابن إسحاق، حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة قالا:" كان في صلح رسول الله ﷺ يوم الحديبية بينه وبين قريش أنه من شاء أعيد في عقد محمد وعهده دخل ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فدخلت خزاعة في عقد محمد صلى الله عليه وسلم ودخلت بنو بكر في عقد قريش فمكثوا في الهدنة نحو السبعة أو الثمانية عشر شهرا ثم إن بني بكر الذين دخلوا في عقد قريش وثبوا على خزاعة الذين دخلوا في عقد رسول الله ﷺ ليلا بماء يقال له الوتير قريب من مكة وقالت قريش هذا ليل وما يعلم بنا محمد ولا يرانا أحد فأعانوا بني بكر بالكراع والسلاح وقابلوا

فوائد الآيتين:[٣-٤]:
١- البراءة من المشركين والكافرين، فإن الله تعالى بريء من المشركين ورسولُهُ - ﷺ -.
٢- وجوب الوفاء بالمعاهدات ذات الآجال إلى أجلها إلا أن ينقضها المعاهدون.

خزاعة معهم للضغن على رسول الله ﷺ وركب عمر بن سالم الخزاعي إلى رسول الله ﷺ عند ذلك يخبره الخبر فلما قدم عليه أنشده
(اللهم إني ناشدا محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا)
(أن قريشا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا)
(فهم أذل وأقل عددا ... قد جعلوا لي بكداء مرصدا)
(هم بيتونا بالوتير هجدا ... فقتلونا ركعا وسجدا)
(فانصرنا رسول الله نصرا عتدا ... وادعوا عباد الله يأتوا مددا) فقال رسول الله ﷺ «نصرت يا عمرو بن سالم»". مختصر.
ورواه البيهقي ايضا في السنن الكبرى(١٨٨٥٩):ص٣٩٠/٩، والصغرى(٢٩٦٢):ص١٦/٤.
ورواه الطبراني في معجمه الكبير(١٠٥٢):ص٤٣٣/٢٣، والصغير(٩٦٨):ص١٦٧/٢، ثنا سعيد بن عبد الرحمن التستري حدثنا يحيى بن سليمان بن نضلة المديني ثنا عمي محمد بن نضلة عن جعفر ابن محمد عن أبيه عن جدة علي بن الحسين حدثتني ميمونة بنت الحارث قالت:" كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش ...". فذكر القصة والشعر بزيادة ونقص.
ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه(٣٦٩٠٠):ص٣٩٨/٧، في المغازي في باب فتح مكة عن عروة مرسلا فذكر القصة والشعر.
ورواه ابن زنجويه في كتاب الأموال (٦٧٥):ص٤٠٥/١، عن عكرمة مرسلا فذكر القصة والشعر.
ورواه الواقدي في كتاب المغازي مطولا فذكر القصة والشعر مرسلا عن جماعة كثيرة ثم قال: وحدثني عبد الحميد بن جعفر عن عمران بن أبي أنس عن ابن عباس، قال: "قام رسول الله ﷺ وهو يجر طرف ردائه ويقول: «يا عمرو لا نصرت إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي».
ورواه ابن حبان في "صحيحه" الإحسان/ رقم (٥٩٩٦)، من حديث مجاهد عن ابن عمر بمعناه.
وذكرها موسى بن عقبة في "المغازي"، وفيها: أن أبا بكر الصديق قال لرسول الله - ﷺ -: أتريد قريشا؟ قال: "نعم"، قال: أليس بينك وبينهم مدة؟ قال: "ألم يبلغك ما صنعوا ببني كعب؟ ".
[وانظر: تخريج احاديث الكشاف (٥٢٥) - الحديث الخامس:ص٥٧/٢-٥٧].
(١) الكشاف:٢٤٦/٢-٢٤٧.
قال المحقق:" إن قريشا أخلفوك الموعدا ... وتقضوا ذمامك المؤكدا
وزعموا أن لست تنجي أحدا ... وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا في الحطيم هجدا ... وقتلونا ركعا وسجدا
فانصر هداك الله نصرا اعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ... في فيلق كالبحر يجرى مزيدا
أبيض مثل الشمس يسمو صعدا ... إن شيم خطب وجهه تربدا
لعمرو بن سلام الخزاعي. لما خرج رسول الله ﷺ من مكة أعانت قريش بنى بكر على حرب بنى خزاعة، ففزع عمرو إليه بالمدينة وأنشده ذلك، فقال ﷺ: «لا نصرت إن لم أنصركم».
و «لاهم» أصله اللهم، خفف وأظهر في مقام الإضمار للدلالة على التعظيم والتهييج لما أراده. والحلف: العهد. والأتلد: الأقدم. والتفت إلى الخطاب للاستعطاف. وجعله كالأب لهم لمراعاته مصالحهم. وعطف بثمة للترتيب في الاخبار ونزع إليه كناية عن نقض العهد. و «الذمام» العهد. وقيل: مع ذمة بمعنى العهد أيضا. وروى «ميثاقك» .
وأذل، وأقل، بمعنى أذلاء قليلون، فليس مفيدا للزيادة. ويجوز أنه على بابه بالنظر لزعمهم، أى: أذل وأقل مما زعموا فيك وفي قومك. و «الحطيم» معروف، كانوا في الجاهلية يحلفون فيه فيحطم الكاذب. ويروى «بالأتير» والأتير: الطريق، وواحدة وتيرة. وهو هنا اسم ماء لخزاعة بأسفل مكة. و «الهجد» جمع هاجد، وهو المتيقظ من النوم العبادة. و «العتيد» الحاضر، يقال: عنده تعتيدا، وأعتده إعتادا: هيأه وأحضره، فهو عتيد وأعتد.
وفيه جعل اسم التفضيل بمعنى المفعول، فلعله من عند إذا حضر. والأصل أعده إعدادا فأبدلت الدال تاء، و «هداك الله» جملة اعتراضية دعائية. و «المدد» الزيادة: أى يأتوا زيادة لنا تعيننا على أعدائنا. وفي الاضافة إلى الله تهييج لهم. و «الفيلق» الجيش المزدحم المتكاثف. كالبحر في الكثرة وسرعة السير. و «المزيد» المخرج للرغوة من شدة السير والغليان. «يسمو» يعلو «صعدا» أى صعودا. «إن شيم» أى رئي. وروى بالمهملة: أى أحق، «تربد» أى تغير وصار مغيرا كلون الرماد. والغضب عند نزول المكروه أمارة الشجاعة. وهذا كان سبب فتح مكة".

٣- فضل التقوى وأهلها وهو اتقاء سخط الله بفعل المحبوب له تعالى وترك المكروه.
القرآن
{فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)} [التوبة : ٥]
التفسير:
فإذا انقضت الأشهر الأربعة التي أمَّنتم فيها المشركين، فأعلنوا الحرب على أعداء الله حيث كانوا، واقصدوهم بالحصار في معاقلهم، وترصدوا لهم في طرقهم، فإن رجعوا عن كفرهم ودخلوا الإسلام والتزموا شرائعه من إقام الصلاة وإخراج الزكاة، فاتركوهم، فقد أصبحوا إخوانكم في الإسلام، إن الله غفور لمن تاب وأناب، رحيم بهم.
قوله تعالى:{فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ} [التوبة : ٥]، أي:" فإذا انقضت الأشهر الأربعة التي أمَّنتم فيها المشركين"[١].
قال الطبري:يعني:" فإذا انقضى ومضى وخرج، يقال منه: سلخنا شهر كذا نسلَخه سَلْخًا وسُلُوخًا، بمعنى: خرجنا منه. ومنه قولهم: "شاة مسلوخة"، بمعنى: المنزوعة من جلدها، المخرجة منه، ويعني بـ "الأشهر الحرم"، ذا القعدة، وذا الحجة، والمحرم"[٢].
قال البيضاوي:" وأصل «الانسلاخ» خروج الشيء مما لابسه من سلخ الشاة"[٣].
وفي الأشهر الحرم قولان :
أحدهما : أنها رجب وذو العقدة وذو الحجة والمحرم ، ثلاثة سرد وواحد فرد ، وهذا رأي الجمهور[٤].
والثاني : أنها الأربعة الأشهر التي جعلها الله تعالى أن يسيحوا فيها آمنين وهي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع عشر من شهر ربيع الآخر ، قاله الحسن[٥]، والسدي[٦].
عن مجاهد وعمرو بن شعيب في قوله: "{فإذا انسلخ الأشهر الحرم}، أنها الأربعة التي قال الله: {فسيحوا في الأرض} ، قال: هي "الحُرم"، من أجل أنهم أومنوا فيها حتى يسيحوها"[٧].
قوله تعالى:{فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة : ٥]، أي:" فأعلنوا الحرب على أعداء الله حيث كانوا"[٨].
وفي قوله تعالى:{فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} [التوبة : ٥]، قولان[٩]:
أحدهما : في حل أو حرم .
والثاني : في الأشهر الحرم وفي غيرها . والقتل وإن كان بلفظ الأمر فهو على وجه التخيير لوروده بعد حظر اعتباراً بالأصلح .
قال الطبري:" يقول: فاقتلوهم حيث لقيتموهم من الأرض، في الحرم، وغير الحرم في الأشهر الحرم وغير الأشهر الحرم"[١٠].
قوله تعالى:{وَخُذُوهُمْ} [التوبة : ٥]، أي:"وأسروهم"[١١].
قال مقاتل والطبري:" يعني: وأسروهم"[١].

---

[١] التفسير الميسر:١/١٨٧.
[٢] تفسير الطبري:١٤/١٣٣-١٣٤.
[٣] تفسير البيضاوي:٣/٧١.
[٤] انظر: النكت والعيون:٢/٣٤٠.
[٥] انظر: النكت والعيون:٢/٣٤٠.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٦٤٧٧):ص١٤/١٣٦.
[٧] أخرجه الطبري(١٦٤٧٨):ص١٤/١٣٧.
[٨] التفسير الميسر:١/١٨٧.
[٩] انظر: النكت والعيون:٢/٣٤٠.
[١٠] تفسير الطبري١٤/١٣٤.
[١١] تفسير الطبري:١٤/١٣٤.

قال ابن قتيبة:" أي: أسروهم. والأسير: أخيذ"[2].
وفي قوله تعالى:{وَخُذُوهُمْ} [التوبة : ٥]، وجهان[3]:
أحدهما : على التقديم والتأخير ، وتقديره فخذوا المشركين حيث وجدتموهم واقتلوهم .
والثاني : أنه على سياقه من غير تقديم ولا تأخير ، وتقديره : فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم .
قوله تعالى:{وَاحْصُرُوهُمْ} [التوبة : ٥]، أي:" واقصدوهم بالحصار في معاقلهم"[4].
قال مقاتل:" يعني: والتمسوهم"[5].
قال ابن قتيبة:أي:" احبسوهم. والحصر: الحبس"[6].
قال الطبري:" يقول: وامنعوهم من التصرف في بلاد الإسلام ودخول مكة"[7].
قال ابن زيد:" لا تتركوهم يضربون في البلاد، ولا يخرجوا لتجارة، ضَيِّقوا عليهم بعدها"[8].
وفي قوله تعالى:{وَاحْصُرُوهُمْ} [التوبة : ٥]، وجهان[9]:
أحدهما : أنه استرقاقهم .
والثاني : أنه الفداء بمال أو شراء .
قوله تعالى:{وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [التوبة : ٥]، أي:" وترصدوا لهم في طرقهم"[10].
قال مقاتل:" يقول: وأرصدوهم بكل طريق وهم كفار"[11].
قال الطبري:" يقول: واقعدوا لهم بالطلب لقتلهم أو أسرهم كل طريق ومرقَب"[12].
قال ابن قتيبة:" {كل مرصد} أي: كل طريق يرصدونكم به"[13].
وفي قوله تعالى:{وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [التوبة : ٥]، وجهان[14]:
أحدهما : أن يطلبوا في كل مكان فيكون القتل إذا وجدوا ، والطلب إذا بعدوا .
والثاني : أن يفعل بهم كل ما أرصده الله تعالى لهم فيما حكم به تعالى عليهم من قتل أو استرقاق أو مفاداة أو منٍّ ليعتبر فيها فعل الأصلح منها .
قوله تعالى:{فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} [التوبة : ٥]، أي:" فإن رجعوا عن كفرهم ودخلوا الإسلام والتزموا شرائعه من إقام الصلاة وإخراج الزكاة، فاتركوهم، فقد أصبحوا إخوانكم في الإسلام"[15].
قال الماوردي:" {فَإِن تَابُواْ}، أي: أسلموا ، لأن التوبة من الكفر تكون بالإسلام"[16].
قال الطبري:" يقول: فإن رجعوا عما نهاهم عليه من الشرك بالله وجحود نبوة نبيه محمد ﷺ، إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأنداد، والإقرار بنبوة محمد ﷺ"[1].

---

[1] تفسير مقاتل بن سليمان:١٥٧/٢، تفسير الطبري:١٣٤/١٤.
[2] غريب القرآن:١٨٣.
[3] انظر: النكت والعيون:٣٤٠/٢.
[4] التفسير الميسر:١٨٧/١.
[5] تفسير مقاتل بن سليمان:١٥٧/٢.
[6] غريب القرآن:١٨٣.
[7] تفسير الطبري:١٣٤/١٤.
[8] أخرجه الطبري(١٦٤٧٩):ص١٣٧/١٤.
[9] انظر: النكت والعيون:٣٤٠/٢.
[10] التفسير الميسر:١٨٧/١.
[11] تفسير مقاتل بن سليمان:١٥٧/٢.
[12] تفسير الطبري:١٣٤/١٤.
[13] غريب القرآن:١٨٣.
[14] انظر: النكت والعيون:٣٤١/٢.
[15] التفسير الميسر:١٨٧/١.
[16] النكت والعيون:٣٤١/٢.

وفي قوله تعالى:{وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ}[التوبة : ٥]، وجهان:
أحدهما : أي اعترفوا بإقامتها ، وهو مقتضى قول أبي حنيفة[٢]، لأنه لا يقتل تارك الصلاة إذا اعترف بها .
الثاني : أنه أراد فعل الصلاة ، وهو مقتضى قول مالك والشافعي[٣]، لأنهما يقتلان تارك الصلاة وإن اعترف به.

قال الماوردي:"{وَءَاتُوا الزَّكَاةَ}، يعني: اعترفوا بها على الوجهين معاً ، لأن تارك الزكاة لا يقتل مع الاعتراف بها وتؤخذ من ماله جبراً ، وهذا إجماع"[٤].

قال قتادة:" يقول: خلوا سبيل من أمركم الله أن تخلوا سبيله، فإنما الناس ثلاثة: رَهْط مسلم عليه الزكاة، ومشرك عليه الجزية، وصاحب حرب يأمن بتجارته في المسلمين إذا أعطى عُشُور ماله"[٥].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة : ٥]، أي:" إن الله غفور لمن تاب وأناب، رحيم بهم"[٦].

قال مقاتل:" {غفور} للذنوب ما كان في الشرك {رحيم}،بهم فى الإسلام"[٧].

قال ابن زيد:" ثم أمر بالعفو {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم}"[٨].

عن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده، وعبادته لا يشرك له شيئًا، فارقها والله عنه راضٍ، قال: وقال أنس: هو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل هَرْج الأحاديث، واختلاف الأهواء. وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل الله، قال الله: {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم}، قال: توبتهم، خلع الأوثان، وعبادة ربهم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ثم قال في آية أخرى: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ} [سورة التوبة: ١١]"[٩].

وفي حكم قوله تعالى: {فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة : ٥]، ثلاثة أقوال:
أحدها: أن حكم الأسارى كان وجوب قتلهم ثم نسخ بقوله: {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء} [محمد : ٤]. قاله الحسن[١٠]، وعطاء[١١]، والضحاك[١٢]، والسدي[١٣].
قال ابن الجوزي:"وهذا يرده قوله: {وخذوهم}"[١٤].

---

[١] تفسير الطبري:١٣٥/١٤.
[٢] انظر: النكت والعيون:٣٤١/٢.
[٣] انظر: النكت والعيون:٣٤١/٢.
[٤] النكت والعيون:٣٤١/٢.
[٥] أخرجه الطبري(١٦٤٧٦):ص١٣٦/١٤.
[٦] التفسير الميسر:١٨٧/١.
[٧] تفسير مقاتل بن سليمان:١٥٧/٢.
[٨] أخرجه الطبري(١٦٤٧٩):ص١٣٧/١٤.
[٩] أخرجه الطبري(١٦٤٧٥):ص١٣٥/١٤-١٣٦.
[١٠] حكاه عنه ابن الجوزي في نواسخ القرآن:٤٦٤/٢.
[١١] حكاه عنه ابن الجوزي في نواسخ القرآن:٤٦٤/٢، والنحاس في الناسخ والمنسوخ:١٦٤، ومحمد مكي بن أبي طالب في الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه:٢٦٧.
[١٢] حكاه عنه ابن الجوزي في نواسخ القرآن:٤٦٤/٢، والنحاس في الناسخ والمنسوخ:١٦٤، ومحمد مكي بن أبي طالب في الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه:٢٦٧.
[١٣] حكاه عنه النحاس في الناسخ والمنسوخ:١٦٤، ومحمد مكي بن أبي طالب في الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه:٢٦٧.
[١٤] الناسخ والمنسوخ:٤٦٥/٢.

والثاني: بالعكس فإنه كان الحكم في الأسارى، أنه لا يجوز قتلهم صبرا، وإنما يجوز المن أو الفداء، بقوله: {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} [محمد : ٤]، ثم نسخ ذلك بقوله {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} [التوبة : ٥]. قاله مجاهد[١]، وقتادة[٢].

وقد حكى مكي بن أبي طالب، عن قتادة "أن هذه الآية محكمة ناسخة لقوله: {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} [محمد : ٤]"[٣].

والثالث: أن الآيتين محكمتان، لأن قوله {فاقتلوا المشركين} أمر بالقتل وقوله: {وخذوهم} أي: ائسروهم، فإذا حصل الأسير في يد الإمام فهو مخير إن شاء من عليه وإن شاء فاداه، وإن شاء قتله صبرا، أي: ذلك رأى فيه المصلحة للمسلمين. فعلى هذا قول جابر بن زيد[٤]، وعليه الإمام أحمد[٥]، وعامة الفقهاء[٦].

قال ابن الجوزي:"وقد ذكر بعض من لا فهم له من ناقلي التفسير أن هذه الآية وهي آية السيف نسخت من القرآن مائة وأربعا وعشرين آية ثم صار آخرها ناسخا لأولها، وهو قوله: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} [التوبة : ٥][٧]. وهذا سوء فهم. لأن المعنى: اقتلوهم وأسروهم إلا أن يتوبوا من شركهم، ويقروا بالصلاة والزكاة فخلوا سبيلهم ولا تقتلوهم"[٨].

الفوائد:

١- وجوب الوفاء بالعهود ما لم ينقضها المعاهدون.
٢- إقام الصلاة شرط في صحة الإيمان.
٣- ومن الفوائد: إثبات هذين الاسمين الكريمين: «الغفور»، و«الرحيم»؛ وما تضمناه من صفة، وفعل.
   - فـ«الغفور»: هو: "الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب عل كل من يتوب ففي الحديث: "إن الله يقول يابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة"[٩]. وقال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ} [النجم:٣٢].

---

[١] ذكره ابن الجوزي عنه في زاد المسير:٣٩٩/٣، ونواسخ القرآن:٤٦٤/٢.
[٢] ذكره ابن الجوزي عنه في زاد المسير:٣٩٩/٣، ونواسخ القرآن:٤٦٤/٢.
[٣] انظر: الإسيضاح:٣٦٧، ثم قال: نقلا عن ابن زيد: "الآيتان محكمتان غير منسوختين، ومعنى آية براءة أنه تعالى ذكره أمر بقتل المشركين حيث وجدوا، ثم قال: {وخذوهم} يعني: أساري القتل أو المن أو الفداء".
[٤] حكاه عنه ابن الجوزي في نواسخ القرآن: ٤٦٥/٢، وزاد المسير:٣٩٩/٣.
[٥] انظر: زاد المسير:٣٩٩/٣.
[٦] انظر: الناسخ والمنسوخ:٤٦٥/٢.
[٧]وهذا القول ذكره ابن حزم في ناسخه ص: ٣٤٠، وهبة الله في ناسخه (٥١) ويذكر السيوطي في الدر المنثور٢/ ٢١٣: "أن الجزء الأخير من الآية نسخ واستثني من الجزء الأول". وعزا هذا القول إلى أبي داود في ناسخه: وأورد مكي بن أبي طالب في ناسخه (٢٦٩) مثل هذا القول عن ابن حبيب، ثم رد عليه بقوله: "لا يجوز في هذا نسخ، لأنها أحكام الأصناف من الكفار، حكم الله على قوم بالقتل إذا أقاموا على كفرهم، وحكم لقوم بأنهم إذا آمنوا وتابوا أن لا يعرض لهم، وأخبرنا بالرحمة والمغفرة لهم، وحكم لمن استجار بالنبي عليه السلام وأتاه، أن يجيره ويبلغه إلى موضع يأمن فيه، فلا استثناء في هذا إذ لا حرف فيه للاستثناء ولا نسخ فيه إنما كل آية في حكم منفرد، وفي صنف غير الصنف الآخر، فذكر النسخ في هذا وهم وغلط ظاهر وعلينا أن نتبين الحق والصواب".
[٨] الناسخ والمنسوخ:٤٦٥/٢.
[٩]أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/ ١٤٧) بنحوه، والترمذي في سننه (٥/ ٥٤٨) كتاب الدعوات باب في فضل التوبة والاستغفار، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٥) كتاب الآداب باب فضل العمل، والدارمي (٢/ ٢٣٠) كتاب الرقاق باب إذا تقرب العبد إلى الله عن أنس، وقال الترمذي هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه، وصححه الشيخ الألباني بمجموع طرقه. انظر: السلسلة الصحيحة (١/ ٢٠٠).

وقد فتح الله الأسباب لنيل مغفرته بالتوبة، والاستغفار، والإيمان، والعمل الصالح، والإحسان إلى عباد الله، والعفو عنهم، وقوة الطمع في فضل الله، وحسن الظن بالله، وغير ذلك مما جعله الله مقرباً لمغفرته"(١).

قال الخطابي:"«الغفور»:هو الذي تكثر منه المغفرة. وبناء فعول: بناء المبالغة في الكثرة(٢).

- و«الرحيم»:أي: "ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء" (٣).

القرآن

{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦)} [التوبة : ٦]

التفسير:

وإذا طلب أحد من المشركين الذين استبيحت دماؤهم وأموالهم الدخول في جوارك -أيها الرسول- ورغب في الأمان، فأجبه إلى طلبه حتى يسمع القرآن الكريم ويطَّلع على هدايته، ثم أَعِدْه من حيث أتى آمنًا؛ وذلك لإقامة الحجة عليه؛ ذلك بسبب أن الكفار قوم جاهلون بحقائق الإسلام، فربما اختاروه إذا زال الجهل عنهم.

قوله تعالى:{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ} [التوبة : ٦]، أي:" وإذا طلب أحد من المشركين الذين استبيحت دماؤهم وأموالهم الدخول في جوارك -أيها الرسول- ورغب في الأمان"(٤).

قال ابن إسحاق:" أي: من هؤلاء الذين أمرتك بقتالهم"(٥).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه: وإن استأمنك، يا محمد، من المشركين، الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، أحدٌ ليسمع كلام الله منك ، وهو القرآن الذي أنزله الله عليه"(٦).

قوله تعالى:{فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [التوبة : ٦]، أي:" فأجبه إلى طلبه حتى يسمع القرآن الكريم ويطَّلع على هدايته"(٧).

قال الطبري:" يقول: فأمّنه حتى يسمع كلام الله وتتلوه عليه "(٨).

وفي كلام الله وجهان:

أحدهما : أنه عني سورة براءة خاصة ليعلم ما فيها من حكم المقيم على العهد . وحكم الناقض له والسيرة في المشركين والفرق بينهم وبين المنافقين. ذكره الماوردي(٩).

الثاني : يعني القرآن كله ، ليهتدي به من ضلاله ويرجع به عن كفره. وهذا قول مجاهد(١٠)، والسدي(١١).

قوله تعالى:{ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ} [التوبة : ٦]، أي:" ثم أَعِدْه من حيث أتى آمنًا"(١٢).

---

(١)الحق الواضح المبين، السعدي:٧٣، ٧٤، وانظر: أسماء الله الحسنى:٢١٩.
(٢) انظر: شأن الدعاء:٦٥/١.
(٣) انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٨٨/١، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.
(٤) التفسير الميسر:١٨٧/١.
(٥) أخرجه الطبري(١٦٤٨١):ص١٣٨/١٤.
(٦) تفسير الطبري:١٣٨/١٤.
(٧) التفسير الميسر:١٨٧/١.
(٨) تفسير الطبري:١٣٨/١٤.
(٩) انظر: النكت والعيون:٣٤١/٢.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٦٤٨٣):ص١٣٩/١٤.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٦٤٨٢):ص١٣٩/١٤.
(١٢) التفسير الميسر:١٨٧/١.

قال الطبري:" يقول: ثم رُدَّه بعد سماعه كلام الله إن هو أبَي أن يسلم، ولم يتعظ لما تلوته عليه من كلام الله فيؤمن، إلى حيث يأمن منك وممن في طاعتك، حتى يلحق بداره وقومه من المشركين"[1].

قال البيضاوي:أي:" موضع أمنه إن لم يسلم"[2].

قوله تعالى:{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ} [التوبة : ٦]، أي:" ذلك بسبب أن الكفار قوم جاهلون بحقائق الإسلام، فربما اختاروه إذا زال الجهل عنهم"[3].

قال الطبري:" يقول: تفعل ذلك بهم، من إعطائك إياهم الأمان ليسمعوا القرآن، وردِّك إياهم إذا أبوا الإسلام إلى مأمنهم، من أجل أنهم قوم جهلة لا يفقهون عن الله حجة، ولا يعلمون ما لهم بالإيمان بالله لو آمنوا، وما عليهم من الوِزْر والإثم بتركهم الإيمان بالله"[4].

قال الزمخشري:"{ذلك} أى: ذلك الأمر، يعنى: الأمر بالإجارة في قوله فأجره. بسبب بأنهم قوم جهلة لا يعلمون ما الإسلام وما حقيقة ما تدعو إليه، فلا بد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا ويفهموا الحق"[5].

قال البيضاوي:" {ذلك} الأمن أو الأمر، {بأنهم قوم لا يعلمون} ما الإيمان وما حقيقة ما تدعوهم إليه فلا بد من أمانهم ريثما يسمعون ويتدبرون "[6].

الفوائد:

١- احترام الجوار، والإقرار به، وتأمين السفراء والممثلين لدولة كافرة.
٢- قبول طلب كل من طلب من الكافرين الإذن له بدخول بلاد الإسلام ليتعلم الدين الإسلامي.
٣- القرآن كلام الله تعالى حقا بحروفه ومعانيه لقوله {حتى يسمع كلام الله} الذي يتلوه عليه ﷺ.

القرآن

{كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧)} [التوبة : ٧]

التفسير:

لا ينبغي أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام في صلح (الحديبية) فما أقاموا على الوفاء بعهدكم فأقيموا لهم على مثل ذلك. إن الله يحب المتقين الموفِّين بعهودهم.

قوله تعالى:{كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [التوبة : ٧]، أي:" لا ينبغي أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام في صلح «الحديبية»"[7].

وفي قوله تعالى:{إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [التوبة : ٧]، أقوال:

أحدها : أنهم قوم من بني بكر بن كنانة ، قاله ابن إسحاق[8].

وروي عن السدي: هم بنو جذيمة بن الدُّئِل"[9].

---

[1] تفسير الطبري:١٣٨/١٤.
[2] تفسير البيضاوي:٧٢/٣.
[3] التفسير الميسر:١٨٧/١.
[4] تفسير الطبري:١٣٨/١٤.
[5] الكشاف:٢٤٩/٢.
[6] تفسير البيضاوي:٧٢/٣.
[7] التفسير الميسر:١٨٨/١.
[8] انظر: تفسير الطبري(١٦٤٩٢):ص١٤٢/١٤.
[9] أخرجه الطبري(١٦٤٩٠):ص١٤١/١٤. قال المحقق:" هكذا جاء هنا " بنو جذيمة بن الدئل "، وفي رقم: ١٦٤٩١: " جذيمة بكر كنانة ". ولا أعلم في " الدئل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة "، " جذيمة " فإن " جذيمة كنانة " إنما هم: " بنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة "، أبناء عمومة " الدئل "، و " بكر بن عبد مناة ".

وروي عن محمد بن عباد بن جعفر:" هم جذيمة بكر كنانة"[١].
والثاني : أنهم قريش ، وهو قول ابن عباس[٢]، وقتادة[٣]، وابن زيد[٤].
والثالث : خزاعة ، قاله مجاهد[٥].
والرابع : بنو ضمرة ، قاله الكلبي[٦].
قال الطبري:" وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي، قولُ من قال: هم بعضُ بني بكر من كنانة، ممن كان أقام على عهده، ولم يكن دخل في نقض ما كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش يوم الحديبية من العهد مع قريش، حين نقضوه بمعونتهم حلفاءَهم من بني الدُّئِل، على حلفاء رسول الله ﷺ من خزاعة، وإنما قلتُ: هذا القول أولى الأقوال في ذلك بالصواب، لأن الله أمر نبيه والمؤمنين بإتمام العهد لمن كانوا عاهدوه عند المسجد الحرام، ما استقاموا على عهدهم. وقد بيَّنَّا أن هذه الآيات إنما نادى بها عليّ في سنة تسع من الهجرة، وذلك بعد فتح مكة بسنة، فلم يكن بمكة من قريش ولا خزاعة كافرٌ يومئذ بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدٌ، فيؤمر بالوفاء له بعهده ما استقام على عهده، لأنّ من كان منهم من ساكني مكة، كان قد نقض العهد وحورب قبل نزول هذه الآيات"[٧].
قوله تعالى:{فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ} [التوبة : ٧]، أي:" فما أقاموا على الوفاء بعهدكم فأقيموا لهم على مثل ذلك"[٨].
قال الماوردي:" يعني: فما أقاموا على الوفاء بالعهد فأقيموا عليه ، فدل على أنهم إذا نقضوا العهد سقط أمانهم وحلّت دماؤهم"[٩].
قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة : ٧]، أي:" إن الله يحب المتقين الموفِّين بعهودهم"[١٠].
وفي حكم قوله تعالى: {فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُم} [التوبة : ٧]، قولان:
أحدهما: أنه محكمة. وهذا قول جمهور المفسرين[١١].
قال الطبري:" فإن الله جل ثناؤه أمرَ المؤمنين بالوفاء لهم بعهدهم، والاستقامة لهم عليه، ما داموا عليه للمؤمنين مستقيمين"[١٢].
الثاني: معناه: ما أقاموا على الوفاء بعهدهم {فاستقيموا لهم}، ثم نسخ هذا بآية السيف. وهذا قول هبة الله[١٣].
الفوائد:
١- وجوب مراقبة الله تعالى ومراعاة القرابة واحترام العهود.

وبنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة، هم أهل الغميصاء، الذين أوقع بهم خالد بن الوليد بعد الفتح، فأرسل رسول الله ﷺ عليا رضي الله عنه ليتلافى خطأ خالد بن الوليد، فودي لهم الدماء وما أصيب من الأموال، حتى إنه إنه ليدي لهم ميلغة الكلب".
(انظر: سيرة ابن هشام ٤: ٧٠ - ٧٣)
(١) أخرجه الطبري(١٦٤٩١):ص١٤٢/١٤.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٦٤٩٣)-(١٦٤٩٥):ص١٤٣/١٤.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٦٤٩٢):ص١٤٣/١٤.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٦٤٩٧):ص١٤٣/١٤-١٤٤.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٦٤٩٨):ص١٤٤/١٤.
(٦) انظر: النكت والعيون:٣٤٢/٢.
(٧) تفسير الطبري:١٤٤/١٤.
(٨) التفسير الميسر:١٨٨/١.
(٩) النكت والعيون:٣٤٢/٢.
(١٠) التفسير الميسر:١٨٨/١.
(١١) انظر: تفسير الطبري:١٤١/١٤.
(١٢) تفسير الطبري:١٤١/١٤.
(١٣)في ناسخه:٥١.

٢- في الآية إثبات محبة الله - تعالى - لعباده المؤمنين، ومحبتهم له، وهذا أصل دين الخليل ﷺ إمام الحنفاء[١]، وهذا هو "الذي جاء به الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة، وعليه مشايخ المعرفة، وعموم المسلمين: أن الله يُحِب، ويُحَب"[٢].

القرآن

{كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨)} [التوبة : ٨]

التفسير:

إن شأن المشركين أن يلتزموا بالعهود ما دامت الغلبة لغيرهم، أما إذا شعروا بالقوة على المؤمنين فإنهم لا يراعون القرابة ولا العهد، فلا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم، فإنهم يقولون لكم كلامًا بألسنتهم؛ لترضوا عنهم، ولكن قلوبهم تأبى ذلك، وأكثرهم متمردون على الإسلام ناقضون للعهد.

قوله تعالى:{كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً} [التوبة : ٨]، أي:" كيف يكون لهم عهد وحالهم هذه أنهم إن يظفروا بكم لا يراعون القرابة ولا العهد، فلا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم"[٣].

وفي قوله تعالى: {لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ} [التوبة : ٨]، وجوه:

أحدها: لا يخافوا : حكاه الماوردي عن السدي[٤].

الثاني: لا يحفظوا فيكم قرابة ولا عهدا. قاله مقاتل[٥].

والثالث:لا يراقبوا. قاله أبو عبيدة[٦].

والرابع: لا يراعوا [٧].

وقوله تعالى:{ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً} [التوبة : ٨]، في «الإلّ» سبعة أقوال:

أحدها : أنه العهد ، وهوقول مجاهد[٨] أيضا، وابن زيد[٩].ومنه قول القائل[١٠]:

وَجَدْنَاهُمُ كَاذِبًا إِلُّهُمْ   وَذُو الإِلّ وَالْعَهْدِ لا يَكْذِب

وروي عن ابن إسحاق: "{كيف وإن يظهروا عليكم}، أي: المشركون الذين لا عهد لهم إلى مدة من أهل العهد العام {لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة}"[١١].

والثاني : أنه اسم الله تعالى ، قاله مجاهد[١٢]،وابن مجلز[١٣]، ويكون معناه: لا يرقبون الله فيكم .

والثالث : أنه الحلف ، وهو قول قتادة[١٤].

والرابع : أن الإل اليمين، والذمة العهد ، قاله أبو عبيدة[١٥]، ومنه قول ابن مقبل[١٦]:

أَفْسَدَ النَّاسَ خُلُوفٌ خَلَفُوا   قَطَعُوا الإِلَّ وَأَعْرَاقَ الرَّحِمْ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى:٣٥٤/٢.

(٢) انظر: النبوات (ص: ٩٧) ، وانظر: الاستقامة (١٠٣/٢) ، منهاج السنة النبوية (١٦٧/٣ - ١٦٨.

(٣) التفسير الميسر:١٨٨، وصفوة التفاسير:٤٨٦/١.

(٤) انظر: النكت والعيون:٣٤٢/٢.

(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١٥٨/٢.

(٦) انظر: مجاز القرآن:٢٥٣/١.

(٧) انظر: النكت والعيون:٣٤٢/٢.

(٨) انظر: تفسير الطبري(١٦٥٠٩)، (١٦٥١١)، (١٦٥١٢):ص١٤٨/١٤.

(٩) انظر: تفسير الطبري(١٦٥١٠):ص١٤٨/١٤.

(١٠)البيت من شواهد الطبري في تفسيره:١٤٩/١٤، ولم أقف عليه.

(١١) أخرجه الطبري(١٦٥١٣):ص١٤٩/١٤-١٥٠.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٦٤٩٩)، و(١٦٥٠١):ص١٤٦/١٤.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٦٥٠٠):ص١٤٦/١٤.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٦٥٠٨):ص١٤٧/١٤.

(١٥) انظر: مجاز القرآن:٢٥٣/١.

(١٦)البيت لابن مقبل في تفسير الطبري:١٤٨/١٤، و النكت والعيون:٣٤٣/٢، وتفسير ابن كثير:١١٥/٤، وبلا نسبة في تفسير البحر المحيط ٥/ ٥.

والخامس : أنه الجوار ، قاله الحسن[١].
والسادس : أنه القرابة ، قاله ابن عباس[٢]، والضحاك[٣]، والسدي[٤]، والتستري[٥]، ومنه قول قول حسان[٦]:
لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ كَإِلِّ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النَّعامِ
والسابع : أن الإل العهد والعقد والميثاق واليمين ، وأن الذمة في هذا الموضع التذمم ممن لا عهد له ، قاله بعض البصريين[٧].
قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء المشركين الذين أمر نبيَّه والمؤمنين بقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، وحصرهم والقعود لهم على كل مرصد: أنهم لو ظهروا على المؤمنين لم يرقبوا فيهم "إلا".
و"الإلّ": اسم يشتمل على معان ثلاثة: وهي العهد، والعقد، والحلف، والقرابة، وهو أيضا بمعنى "الله". فإذْ كانت الكلمة تشمل هذه المعاني الثلاثة، ولم يكن الله خصّ من ذلك معنى دون معنى، فالصواب أن يُعَمّ ذلك كما عمّ بها جل ثناؤه معانيها الثلاثة، فيقال: لا يرقبون في مؤمنٍ اللهَ، ولا قرابةً، ولا عهدًا، ولا ميثاقًا"[٨]
وفي وقوله تعالى:{وَلَا ذِمَّةً} [التوبة : ٨]، ثلاثة أوجه :
أحدها : الجوار ، قاله ابن بحر[٩].
الثاني : أنه التذمم ممن لا عهد له ، قاله بعض البصريين[١٠].
والثالث : أنه العهد وهو قول أبي عبيدة .
قوله تعالى:{يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ} [التوبة : ٨]، أي:" يرضونكم بالكلام الجميل إن كان الظفر لكم عليهم وتمنع قلوبهم من الإذعان والوفاء بما أظهروه"[١١].
وفي قوله تعالى:{يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ} [التوبة : ٨]، ثلاثة اوجه[١٢]:
أحدها : يرضونك بأفواههم في الوفاء وتأبى قلوبهم إلا الغدر .
والثاني : يرضونكم بأفواههم في الطاعة وتأبى قلوبهم إلا المعصية .
والثالث : يرضونكم بأفواهم في الوعد بالإيمان وتأبى قلوبهم إلا الشرك ، لأن النبي -ﷺ- لا يرضيه من المشركين إلا بالإيمان .

---

[١] انظر: النكت والعيون:٣٤٣/٢.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٦٥٠٢):ص١٤٦/١٤.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٥٠٤):ص١٤٧/١٤.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٥٠٧):ص١٤٧/١٤.
[٥] انظر: تفسير التستري:٧٣.
[٦]ديوانه: ٤٠٧، واللسان (ألل) ، من أبيات هجا بها أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم الرسول ﷺ، وأخوه من الرضاعة، وكان ممن يشبه برسول الله ﷺ. وكان أبو سفيان ممن يؤذي النبي ﷺ، ويهجوه، ويؤذي المسلمين، فانبرى له حسان فأخذ منه كل ما أخذ. ثم أسلم في فتح مكة، وشهد حنينا، وثبت فيمن ثبت مع نبي الله، وظل آخذا بلجام بغلة رسول الله يكفها ورسول الله يركضها إلى الكفار. ثم ظل أبو سفيان بعد ذلك لا يرفع رأسه إلى رسول الله حياء منه.
ولكن كان من هجاء حسان له، بعد البيت: فَإِنَّكَ إِن تَمُتَّ إلى قُرَيْشٍ ... كَذَاتِ البَوِّ جائِلَةَ المَرَامِ
وَأَنْتَ مُنَوَّطٌ بِهِمُ هَجِينٌ ... كما نِيطَ السَّرَائِحُ بالخِدَامِ
فَلا تَفْخَر بِقَوْمٍ لَسْتَ مِنْهُمْ ... ولا تَكُ كاللِّئَامِ بَنِي هِشَامِ
" السقب "، ولد الناقة ساعة يولد. و " الرأل "، ولد النعام. يقول: ما قرابتك في قريش، إلا كقرابة الفصيل، من ولد النعام!.
[٧] انظر: النكت والعيون:٣٤٣/٢.
[٨] تفسير الطبري:١٤٨/١٤.
[٩] انظر: النكت والعيون:٣٤٣/٢.
[١٠] انظر: النكت والعيون:٣٤٣/٢.
[١١] صفوة التفاسير:٤٨٦/١.
[١٢] انظر: النكت والعيون:٣٤٣/٢.

قوله تعالى:{وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ} [التوبة : ٨]، أي:" وأكثرهم ناقضون للعهد خارجون عن طاعة الله"[١].

وفي قوله تعالى:{وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ} [التوبة : ٨]، وجهان[٢]:

أحدهما : في نقض العهد وإن كان جميعهم بالشرك فاسقاً .

والثاني : وأكثرهم فاسق في دينه وإن كان كل دينهم فسقاً .

عن مجاهد قوله: "{وأكثرهم فاسقون}، قال: القرون الماضية"[٣].

عن قتادة قوله: "{وأكثرهم فاسقون}، قال: ذم الله- تعالى أكثر الناس"[٤].

الفوائد:

١- من كان الاعتداء وصفا له لا يؤمن على شيء، ولا يوثق فيه في شيء، لفساد ملكته النفسية.

٢- استبعاد ثبات المشركين على العهد، لأنهم إن يظفروا بالمسلمين لا يراعوا فيهم عهداً ولا ذمة، وإنما يرضونهم بالكلام الجميل، إن كان الظفر للمسلمين عليهم، وتمتنع قلوبهم عن الإذعان والوفاء بما يبدونه بألسنتهم.

القرآن

{اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩)} [التوبة : ٩]

التفسير:

استبدلوا بآيات الله عرض الدنيا التافه، فأعرضوا عن الحق ومنعوا الراغبين في الإسلام عن الدخول فيه، لقد قَبُح فعلهم، وساء صنيعهم.

قوله تعالى:{اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} [التوبة : ٩]، أي:" استبدلوا بآيات الله عرض الدنيا التافه"[٥].

قال الزمخشري:" {اشتروا} استبدلوا {بآيات الله} بالقرآن والإسلام، {ثمنا قليلا} وهو اتباع الأهواء والشهوات"[٦].

سئل الحسن عن قوله: "{ثمنا قليلا}، قال: الثمن القليل: الدنيا بحذافيرها"[٧].

وفي «آيات الله» تعالى ها هنا وجهان[٨]:

أحدهما : حججه ودلائله .

والثاني : آيات الله التوراة التي فيها صفة رسول الله -ﷺ- .

قال الماوردي:" الثمن القليل : ما جعلوه من ذلك بدلاً . وفي صفته بالقليل وجهان :

أحدهما : لأنه حرام ، والحرام قليل .

والثاني : لأنها من عروض الدنيا التي بقاؤها قليل"[٩].

وفيمن أريد بهذه الآية قولان :

أحدهما : أنهم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان على طعامه ، وهذا قول مجاهد[١٠] ومن زعم أن الآيات حجج الله تعالى.

قال مجاهد:" أبو سفيان بن حرب أطعم حلفاءه وترك حلفاء محمد ﷺ"[١١].

---

[١] صفوة التفاسير:٤٨٦/١.
[٢] انظر: النكت والعيون:٣٤٣/٢-٣٤٤.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠١٠):ص١٧٥٩/٦.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠١١):ص١٧٥٩/٦.
[٥] التفسير الميسر:١٨٨/١.
[٦] الكشاف:٢٥٠/٢.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠١٣):ص١٧٥٩/٦.
[٨] انظر: النكت والعيون:٣٤٤/٢.
[٩] النكت والعيون:٣٤٤/٢.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٦٥١٤):ص١٥١/١٤.
[١١] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠١٢):ص١٧٥٩/٦.

والثاني : أنهم قوم من اليهود دخلوا في العهد ثم رجعوا عنه. وهذا قول من زعم أنها آيات التوراة .
قوله تعالى:{فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ} [التوبة : ٩]، أي:" فأعرضوا عن الحق ومنعوا الراغبين في الإسلام عن الدخول فيه"[١].
قال الطبري:" معناه: فمنعوا الناس من الدخول في الإسلام، وحاولوا ردَّ المسلمين عن دينهم"[٢].
قال الزمخشري:" فعدلوا عنه أو صرفوا غيرهم. وقيل: هم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم هم المعتدون المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة"[٣].
قال البيضاوي:" {عن سبيله} دينه الموصل إليه، أو سبيل بيته بحصر الحجاج والعمار، والفاء للدلالة على أن اشتراءهم أداهم إلى الصد"[٤].
وفي قوله تعالى:{فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ} [التوبة : ٩]، ثلاثة أوجه[٥]:
أحدها : عن دين الله تعالى في المنع منه .
والثاني : عن طاعة الله في الوفاء بالعهد .
والثالث : عن قصد بيت الله حين أحصر بالحديبيّة .
قوله تعالى:{إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [التوبة : ٩]، أي:" لقد قَبُح فعلهم، وساء صنيعهم"[٦].
قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: إن هؤلاء المشركين الذين وصفت صفاتهم، ساء عملهم الذي كانوا يعملون، من اشترائهم الكفرَ بالإيمان، والضلالة بالهدى، وصدهم عن سبيل الله من آمن بالله ورسوله، أو من أراد أن يؤمن"[٧].
قال البيضاوي:" عملهم هذا أو ما دل عليه قوله: {لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة} فهو تفسير لا تكرير. وقيل الأول عام في الناقضين وهذا خاص بالذين اشتروا وهم اليهود، أو الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم. وأولئك هم المعتدون في الشرارة"[٨].
القرآن
{لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠)} [التوبة : ١٠]
التفسير:
إن هؤلاء المشركين حرب على الإيمان وأهله، فلا يقيمون وزنًا لقرابة المؤمن ولا لعهده، وشأنهم العدوان والظلم.
قوله تعالى:{لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً} [التوبة : ١٠]، أي:" إن هؤلاء المشركين حرب على الإيمان وأهله، فلا يقيمون وزنًا لقرابة المؤمن ولا لعهده"[٩].
قال مقاتل:" يعني: لا يحفظون في مؤمن قرابة ولا عهدا"[١٠].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: لا يتقي هؤلاء المشركون الذين أمرتكم، أيها المؤمنون، بقتلهم حيث وجدتموهم، في قتل مؤمن لو قدروا عليه {إلا ولا ذمة}، يقول: فلا تبقوا عليهم، أيها المؤمنون، كما لا يبقون عليكم لو ظهروا عليكم"[١١].

---
[١] التفسير الميسر:١٨٨/١.
[٢] تفسير الطبري:١٥١/١٤.
[٣] الكشاف:٢٥٠/٢.
[٤] تفسير البيضاوي:٧٣/٣.
[٥] انظر: النكت والعيون:٣٤٤/٢.
[٦] التفسير الميسر:١٨٨/١.
[٧] تفسير الطبري:١٥١/١٤.
[٨] تفسير البيضاوي:٧٣/٣.
[٩] التفسير الميسر:١٨٨/١.
[١٠] تفسير مقاتل بن سليمان:٥٩١/٢.
[١١] تفسير الطبري:١٥١/١٤.

قال السمعاني: "المراقبة: الحفظ "[1].
عن الضحاك بن مزاحم :"{لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة}، قال: الذمة الحلف"[2].
قوله تعالى:{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ} [التوبة : ١٠]، أي:" وشأنهم العدوان والظلم"[3].
قال الطبري:" يقول: المتجاوزون فيكم إلى ما ليس لهم بالظلم والاعتداء"[4].
قال أبو الليث السمرقندي:" بنقض العهد وترك أمر الله تعالى"[5].

فوائد الآيتين:[٩-١٠]:

١- ذم سلوك الكافرين وتصرفاتهم في الحياة وحسبهم أن باعوا الحق س بالباطل، واشتروا الضلالة بالهدى.

٢- بيان كيفية التعامل مع أهل الأمان من الكفار، فإن التعامل معهم بألا نعتدي عليهم، ولا نظلمهم، ثم بعد ذلك نتعامل معهم كما بين النبي ﷺ ألا نبدأهم بالسلام، وإن كانوا في الطريق فيضطرهم إلى أضيقها، وأيضاً إن استطعت ألا يكون مديرك أو المسئول عنك كافراً تفعل؛ لأن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، يعني: إن وجدت نفسك مثلاً في شركة كلها هندوس من الصغير إلى المدير، فأولى لك أن تذهب إلى شركة فيها مسلمون، ويكون مديرك مسلماً، فإنه سيراقب الله فيك، أما الكافر فإنه سيتربص بك الدوائر، يقول الله جل وعلا: {لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً} [التوبة:١٠]، فهو إن استطاع أن يقطع دابرك سيقطعه، فالكافر يضمر لك في قلبه حقداً دفيناً.

لكن لو عملت في شركة وهذه الشركة مديرك فيها كافر، أو صاحب لك زميلك في العمل كافر، فيجب عليك ألا تظلمه، وتؤدي له حقه، ثم تعامله بما أمرك النبي ﷺ بألا تبدأه بالسلام في حال من الأحوال، ولا تهنئه في عيد من أعياده الخاصة.

يمكن إجمال بعض أهداف اليهود فيما يأتي[6]:

أ- تأسيس وتثبيت مملكتهم إسرائيل: بحيث يكون مركزها أور شليم- القدس- وتكون هي منطلق نشاطهم.

وبسبب تخلف المسلمين وبعدهم عن دينهم تمكن اليهود من تحقيق أكثر أحلامهم مع الأسف.

ب- التحكم في شعوب العالم، وتسخيرها لخدمتهم؛ لأنهم بزعمهم هم شعب الله المختار، وغيرهم يجب أن يكون مسخراً لخدمتهم.

ت- القضاء على المسلمين: لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُون [التوبة: ١٠]، وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ ... [البقرة: ٢١٧].

ث- إفساد الشعوب، وتحطيم أخلاقهم بسلاح المنكرات من خمر، وزنى، وكذب، وسينما، وربا، وغش، وغدر، وخيانة.

القرآن

{فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١)} [التوبة : ١١]

التفسير:

فإن أقلعوا عن عبادة غير الله، ونطقوا بكلمة التوحيد، والتزموا شرائع الإسلام من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فإنهم إخوانكم في الإسلام. ونبين الآيات، ونوضحها لقوم ينتفعون بها.

---

[1] تفسير السمعاني:٢٩١/٢.
[2] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٠٩):ص١٧٥٩/٦.
[3] التفسير الميسر:١٨٨/١.
[4] تفسير الطبري:١٥١/١٤.
[5] بحر العلوم:٤١/٢.
[6] انظر: رسائل في الأديان والفرق والمذاهب لمحمد الحمد:٨٤.

قوله تعالى:{فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ} [التوبة : ١١]، أي:" فإن أقلعوا عن عبادة غير الله، ونطقوا بكلمة التوحيد، والتزموا شرائع الإسلام من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فإنهم إخوانكم في الإسلام"[١].

قال الزمخشري:" {فإن تابوا} عن الكفر ونقض العهد، {فإخوانكم في الدين}، فهم إخوانكم على حذف المبتدإ، كقوله تعالى: {فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ} [الأحزاب : ٥]"[٢].

قال قتادة:"يقول: إن تركوا اللات والعزّى، وشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله"[٣].

عن ابن عباس:"{فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة}، قال: حرَّمت هذه الآية دماءَ أهل القِبْلة"[٤].

قال ابن زيد: "افترضت الصلاة والزكاة جميعًا لم يفرَّق بينهما. وقرأ: {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين}، وأبى أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة. وقال: رحم الله أبا بكر، ما كان أفقهه"[٥].

عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: "أمرتم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يزك فلا صلاة له"[٦].

قوله تعالى:{وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [التوبة : ١١]، أي:" ونبين الآيات، ونوضحها لقوم ينتفعون بها"[٧].

قال الزمخشري:"{ونفصل الآيات}، ونبينها. وهذا اعتراض، كأنه قيل: وإن من تأمل تفصيلها فهو العالم بعثا وتحريضا على تأمل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين، وعلى المحافظة عليها"[٨].

الفوائد:

١- عدم تكفير أحد من أهل القبلة، فإن أهل القبلة هم الموحدون الله تعالى في عبادته ومعاملته كما أمرهم بجعلهم الدين الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه كله لله وحده لا شريك له، فهم فيه لله مستسلمون ومنقادون، ولما أحل الله ورسوله محللون، ولما حرم الله على لسان رسوله محرمون، وعما ينافي الإسلام تاركون.

٢- أن الإقرار بالشهادتين هو المدخل في الإسلام، والعنوان على ترك الكفر السابق، فهما كافيتان في العصمة من القتل في أثناء القتال؛ وأما الاعتداد بإسلام قائليها بعد ذلك: فلا بد فيه من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لقوله تعالى: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ} [التوبة : ٥] وقال بعدها: {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين}.

القرآن

{وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢)} [التوبة : ١٢]

التفسير:

---

[١] التفسير الميسر:١٨٨/١.

[٢] الكشاف:٢٥١/٢.

[٣] أخرجه الطبري(١٦٥١٦):ص١٥٢/١٤.

[٤] أخرجه الطبري(١٦٥١٧):ص١٥٢/١٤-١٥٣

[٥] أخرجه الطبري(١٦٥١٨):ص١٥٣/١٤

[٦] أخرجه الطبري(١٦٥١٩):ص١٥٣/١٤

[٧] التفسير الميسر:١٨٨/١.

[٨] الكشاف:٢٥١/٢.

وإنْ نَقَضَ هؤلاء المشركون العهود التي أبرمتموها معهم، وأظهروا الطعن في دين الإسلام، فقاتلوهم فإنهم رؤساء الضلال، لا عهد لهم ولا ذمة، حتى ينتهوا عن كفرهم وعداوتهم للإسلام.

قوله تعالى:{وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ} [التوبة : ١٢]، أي:" وإنْ نَقَضَ هؤلاء المشركون العهود التي أبرمتموها معهم"(١).

عن مجاهد قوله: "{وإن نكثوا أيمانهم}، قال: عهدهم"(٢).

عن السدي: "{وإن نكثوا أيمانهم}، عهدهم الذي عاهدوا على الإسلام"(٣).

قوله تعالى:{وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ} [التوبة : ١٢]، أي:" وأظهروا الطعن في دين الإسلام"(٤).

قوله تعالى:{فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} [التوبة : ١٢]، أي:" فقاتلوهم فإنهم رؤساء الضلال"(٥).

قال الفراء:" يقول: رءوس الكفر"(٦).

قال الطبري:" يقول: فقاتلوا رؤساء الكفر بالله"(٧).

وفي قوله تعالى:{فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} [التوبة : ١٢]، أقوال:

أحدها : يعني رؤوسَ المشركين، أهلَ مكة.قاله الضحاك (٨).

والثاني : أنهم زعماء قريش ، قاله ابن عباس(٩).

قال ابن عباس:" يعني أهل العهد من المشركين، سماهم «أئمة الكفر»، وهم كذلك. يقول الله لنبيه: وإن نكثوا العهد الذي بينك وبينهم، فقاتلهم، أئمةُ الكفر لا أيمان لهم {لعلهم ينتهون}"(١٠).

قال مقاتل:" يعني قادة الكفر كفار قريش: أبا سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم"(١١).

والثالث : أنهم الذين كانوا قد هموا بإخراج رسول الله -ﷺ- ، قاله قتادة(١٢).

قال قتادة:" فكان من أئمة الكفر: أبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأبو سفيان، وسهيل بن عمرو، وهم الذين همُّوا بإخراجه"(١٣).

والرابع: أنه ما قوتل أهلُ هذه الآية بعدُ. وهذا قول حذيفة(١٤).

قَرَأَ ابْن كثير وَأَبُو عَمْرو وَنَافِع «أيمة» بهمز الْألف وَبعدهَا يَاء سَاكِنة غير أَن نَافِعًا يخْتَلف عَنهُ فى ذَلِك فروى المسيبى وَأَبُو بكر بن أَبى أويس «ءايمة» ممدودة الْهمزَة وَبعدهَا يَاء كالساكنة وَقَالَ أَحْمد ابْن صَالح عَن أَبى بكر بن أَبى أويس أحفظ عَن نَافِع {أَئِمَّة} بهمزتين

وَقَالَ أَبُو عمَارَة عَن يَعْقُوب بن جَعْفَر وَإِسْحَق المسيبى وأبى بكر ابْن أَبى أويس عَن أهل الْمَدِينَة «أيمة» همزوا الْألف بفتحة شبه الِاسْتِفْهَام أخبرنى بذلك إِسْمَاعِيل بن أَحْمد عَن أَبى عمر الدورى عَن أَبى عمَارَة عَن يَعْقُوب

وَقَالَ القاضى إِسْمَاعِيل عَن قالون بِهَمْزَة وَاحِدَة

---

(١) التفسير الميسر:١٨٨/١.

(٢) أخرجه الطبري(١٦٥٣١):ص١٥٦/١٤.

(٣) أخرجه الطبري(١٦٥٣٢):ص١٥٦/١٤.

(٤) التفسير الميسر:١٨٨/١.

(٥) التفسير الميسر:١٨٨/١.

(٦) معاني القرآن:٤٢٥/١.

(٧) تفسير الطبري:١٥٤/١٤.

(٨) انظر: تفسير الطبري(١٦٥٢٥):ص١٥٥/١٤.

(٩) انظر: تفسير الطبري(١٦٥٢٠):ص١٥٤/١٤.

(١٠) أخرجه الطبري(١٦٥٢٠):ص١٥٤/١٤.

(١١) تفسير مقاتل بن سليمان:١٥٩/٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٦٥٢١):ص١٥٤/١٤.

(١٣) أخرجه الطبري(١٦٥٢١):ص١٥٤/١٤.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٦٥٢٧)-(١٦٥٢٩):ص١٥٥/١٤-١٥٦.

وَقَرَأَ عَاصِم وَابْن عَامر وَحَمْزَة والكسائى {أَئِمَّة} بهمزتي[1].

قوله تعالى:{إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ} [التوبة : ١٢]، أي:"إنهم لا عهد لهم ولا ذمة"[2].

قال الفراء:" لا عهود لهم"[3].

قال الطبري:" يقول: إن رؤساء الكفر لا عهد لهم"[4].

عن عمار بن ياسر، في قوله: "{لا أيمان لهم}، قال: لا عهد لهم"[5].

عن حذيفة في قوله: "{فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم} ، قال: لا عهد لهم"[6].

عن صلة بن زفر: "{إنهم لا أيمان لهم}، لا عهد لهم"[7].

وقراءة الجمهور {لَا أَيْمَان لَهُم} بفتح «الألف»، من اليمين لنقضهم إياها . وقرأ ابن عامر: «إنَّهُم لاَ إيْمَانَ لَهُمْ» بكسر «الألف»[8]، وهي قراءة الحسن[9]. وفيها إذا كسرت وجهان[10]:

أحدهما : أنهم كفرة لا إيمان لهم .

والثاني : أنهم لا يعطون أماناً .

قوله تعالى:{لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} [التوبة : ١٢]، أي:" كي يكفوا عن الإجرام، وينتهوا عن الطعن في الإسلام"[11].

قال الطبري:" لكي ينتهوا عن الطعن في دينكم والمظاهرة عليكم"[12].

قال البيضاوي:" متعلق بقوله {فقاتلوا أئمة الكفر}، أى: ليكن غرضكم في مقاتلتهم بعد ما وجد منهم ما وجد من العظائم أن تكون المقاتلة سببا في انتهائهم عما هم عليه. وهذا من غاية كرمه وفضله وعوده على المسيء بالرحمة كلما عاد"[13].

الفوائد:

١- في الآية بيان أنواع القتال في الإسلام والحكمة منه.

٢- الرد على الخوارج الذين استدلوا بهذه الآية على قتال من خالفهم من أهل القبلة، ويستحلون بها دماءهم وأموالهم.

روي عن قتادة في قوله: "{فقاتلوا أئمة الكفر}، أبو سفيان بن حرب، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وسهيل بن عمرو، وهم الذين نكثوا عهد الله، وهمُّوا بإخراج الرسول. وليس والله كما تأوَّله أهل الشبهات والبدع والفِرَى على الله وعلى كتابه"[14].

الفوائد:

القرآن

{أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣)} [التوبة : ١٣]

---

[1] انظر: السبعة في القراءات:٣١٢.

[2] التفسير الميسر:١٨٨/١.

[3] معاني القرآن:٤٢٥/١.

[4] تفسير الطبري:١٥٤/١٤.

[5] أخرجه الطبري(١٦٥٣٢):ص١٥٦/١٤.

[6] أخرجه الطبري(١٦٥٣٤):ص١٥٧/١٤.

[7] أخرجه الطبري(١٦٥٣٠):ص١٥٦/١٤.

[8] انظر: السبعة في القراءات:٣١٢.

[9] انظر النكت والعيون:٣٤٥/٢.

[10] انظر النكت والعيون:٣٤٥/٢.

[11] صفوة التفاسير:٤٨٧/١.

[12] تفسير الطبري:١٥٤/١٤.

[13] تفسير البيضاوي:٢٥١/٢.

[14] أخرجه الطبري(١٦٥٢٦):ص١٥٥/١٤.

التفسير:
لا تترددوا في قتال هؤلاء القوم الذين نقضوا عهودهم، وعملوا على إخراج الرسول من (مكة) ، وهم الذين بدؤوا بإيذائكم أول الأمر، أتخافونهم أو تخافون ملاقاتهم في الحرب؟ فالله أحق أن تخافوه إن كنتم مؤمنين حقًا.

قوله تعالى:{أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ} [التوبة : ١٣]، أي:" ألا تقاتلون يا معشر المؤمنين قوماً نقضوا العهود وطعنوا في دينكم"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله، حاضًّا لهم على جهاد أعدائهم من المشركين: {ألا تقاتلون}، أيها المؤمنون، هؤلاء المشركين الذين نقضوا العهد الذي بينكم وبينهم، وطعنوا في دينكم، وظاهروا عليكم أعداءكم"[٢].

قال البيضاوي:" دخلت الهمزة على {لا تقاتلون} تقريرا بانتفاء المقاتلة. ومعناه: الحض عليها على سبيل المبالغة"[٣].

عن السدي قوله: "{ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم}، من بعد عهدهم"[٤].

قوله تعالى:{وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ} [التوبة : ١٣]، أي:" عزموا على تهجير الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة حين تشاوروا بدار الندوة على إخراجه من بين أظهركم"[٥].

قال الطبري:أي:" من بين أظهرهم فاخرجوه "[٦].

قال مقاتل:" يعني: النبي- ﷺ- من مكة حين هموا في دار الندوة بقتل النبي- ﷺ- أو بوثاقه أو بإخراجه"[٧].

قوله تعالى:{وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [التوبة : ١٣]، أي:" هم البادئون بالقتال حيث قاتلوا حلفاءكم خزاعة"[٨].

قال الطبري:أي:" بالقتال، يعني فعلهم ذلك يوم بدر، وقيل: قتالهم حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من خزاعة"[٩].

قال الزمخشري:" وبخهم بترك مقاتلتهم وحضهم عليها، ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها. ويقرر أن من كان في مثل صفاتهم من نكث العهد وإخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب، حقيق بأن لا تترك مصادمته، وأن يوبخ من فرط فيها"[١٠].

عن مجاهد: "{وهم بدأوكم أول مرة} ، قال: قتال قريش حلفاءَ محمد ﷺ"[١١].

قوله تعالى:{أَتَخْشَوْنَهُمْ} [التوبة : ١٣]، أي:" أتخافونهم فتتركون قتالهم خوفاً على أنفسكم منهم؟"[١٢].

قال الطبري:" يقول: أتخافونهم على أنفسكم فتتركوا قتالهم خوفًا على أنفسكم منهم"[١٣].

قال الزمخشري:" تقرير بالخشية منهم وتوبيخ عليها"[١٤].

---

[١] صفوة التفاسير:٤٨٧/١.
[٢] تفسير الطبري:١٥٨/١٤.
[٣] تفسير البيضاوي:٢٥٢/٢.
[٤] أخرجه الطبري(١٦٥٣٥):ص١٥٩/١٤.
[٥] صفوة التفاسير:٤٨٧/١.
[٦] تفسير الطبري:١٥٨/١٤.
[٧] تفسير مقاتل بن سليمان:١٦٠/٢.
[٨] صفوة التفاسير:٤٨٧/١.
[٩] تفسير الطبري:١٥٨/١٤.
[١٠] الكشاف:٢٥٢/٢.
[١١] أخرجه الطبري(١٦٥٣٦):ص١٥٩/١٤.
[١٢] صفوة التفاسير:٤٨٧/١.
[١٣] تفسير الطبري:١٥٨/١٤.
[١٤] الكشاف:٢٥٢/٢.

قوله تعالى:{فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [التوبة : ١٣]، أي:" فالله أحق أن تخافوا عقوبته إن تركتم أمره، إن كنتم مصدقين بعذابه وثوابه"[١].

قال الطبري:" يقول: فالله أولى بكم أن تخافوا عقوبته بترككم جهادهم، وتحذروا سخطه عليكم، من هؤلاء المشركين الذين لا يملكون لكم ضرًّا ولا نفعًا إلا بإذن الله، {إن كنتم مؤمنين} ، يقول: إن كنتم مقرّين أن خشية الله لكم أولى من خشية هؤلاء المشركين على أنفسكم"[٢].

قال الزمخشري:" يعنى: أن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمن إلا ربه، ولا يبالى بمن سواه، كقوله تعالى: {وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ} [الأحزاب : ٣٩]"[٣].

عن ابن إسحاق قال: "أمر الله رسوله بجهاد أهل الشرك ممن نقض من أهل العهد الخاص، ومن كان من أهل العهد العامّ، بعد الأربعة الأشهر التي ضرب لهم أجلا إلا أن يعدُوَ فيها عادٍ منهم، فيقتل بعدائه، ثم قال: {ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول} ، إلى قوله: {والله خبير بما تعملون}"[٤].

الفوائد:

١- مشروعية استعمال أسلوب التهييج والإثارة للجهاد.
٢- وجوب خشية الله تعالى بطاعته وترك معصيته.
٣- أن الخشية: شدة الخوف، وأسباب الخوف متعددة ومنها(٥):
٤- التقصير في الطاعات.
٥- التقصير في الشكر سواء شكر النعم الخَلْقية أو غيرها من نعم الرزق والأمن.
٦- ارتكاب الكثير من المحرمات.

القرآن

{قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤)} [التوبة : ١٤]

التفسير:

يا معشر المؤمنين قاتلوا أعداء الله يعذبهم عز وجل بأيديكم، ويذلهم بالهزيمة والخزي، وينصركم عليهم، ويُعْلِ كلمته، ويشف بهزيمتهم صدوركم التي طالما لحق بها الحزن والغم من كيد هؤلاء المشركين.

قوله تعالى:{قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ} [التوبة : ١٤]، أي:" يا معشر المؤمنين قاتلوا أعداء الله يعذبهم عز وجل بأيديكم"[٦].

قوله تعالى:{وَيُخْزِهِمْ} [التوبة : ١٤]، أي:" ويذلهم بالهزيمة والخزي"[٧].

قوله تعالى:{وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ} [التوبة : ١٤]، أي:" وينصركم عليهم، ويُعْلِ كلمته"[٨].

قوله تعالى:{وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} [التوبة : ١٤]، أي:" ويشف بهزيمتهم صدوركم التي طالما لحق بها الحزن والغم من كيد هؤلاء المشركين"[٩].

الفوائد:

١- لازم الإيمان الشجاعة فمن ضعفت شجاعته ضعف إيمانه.

---

[١] صفوة التفاسير:٤٨٧/١.
[٢] تفسير الطبري:١٥٨/١٤.
[٣] الكشاف:٢٥٢/٢.
[٤] أخرجه الطبري(١٦٥٣٩):ص١٥٩/١٤.
[٥] انظر: فوائد من شرح كتاب التوحيد:٩٥.
[٦] التفسير الميسر:١٨٩/١.
[٧] التفسير الميسر:١٨٩/١.
[٨] التفسير الميسر:١٨٩/١.
[٩] التفسير الميسر:١٨٩/١.

٢- من ثمرات القتال دخول الناس في دين الله تعالى.

القرآن

{وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)} [التوبة : ١٥]

التفسير:

ويُذْهِب عن قلوب المؤمنين الغيظ. ومن تاب من هؤلاء المعاندين فإن الله يتوب على من يشاء. والله عليم بصدق توبة التائب، حكيم في تدبيره وصنعه ووَضْع تشريعاته لعباده.

قوله تعالى:{وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ} [التوبة : ١٥]، أي:" ويُذْهِب عن قلوب المؤمنين الغيظ"[١].

قوله تعالى:{وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ} [التوبة : ١٥]، أي:" ومن تاب من هؤلاء المعاندين فإن الله يتوب على من يشاء"[٢].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة : ١٥]، أي:" والله عليم بصدق توبة التائب، حكيم في تدبيره وصنعه ووَضْع تشريعاته لعباده"[٣].

الفوائد:

١- لقد أهاب النبي ﷺ لذلك بالمؤمنين، وحثهم على قتال أعدائهم أعداء الإسلام والمسلمين، ليشفي الله قلوب المؤمنين بإعلاء كلمة "لا إله إلا الله" وتعذيب المشركين وخزيهم، ويذهب ما أصاب المؤمنين من غيظ وكرب. ويعذب المشركين ويجزيهم.

٢- دلت هذه الآيات على أن انفعال النفور والاشمئزاز، وانفعال الفرح والاستبشار، وانفعال الخوف والفزع، وانفعال الغيظ والغضب، إنما تكون في القلوب، فدل ذلك على أن القلوب هي محل الانفعالات، والله أعلم.

القرآن

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)} [التوبة : ١٦]

التفسير:

مِن سنة الله الابتلاء، فلا تظنوا يا معشر المؤمنين أن يترككم الله دون اختبار؛ ليعلم الله علمًا ظاهرًا للخلق الذين أخلصوا في جهادهم، ولم يتخذوا غير الله ورسوله والمؤمنين بطانة وأولياء. والله خبير بجميع أعمالكم ومجازيكم بها.

قوله تعالى:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ} [التوبة : ١٦]، أي:" ، فلا تظنوا يا معشر المؤمنين أن يترككم الله دون اختبار؛ ليعلم الله علمًا ظاهرًا للخلق الذين أخلصوا في جهادهم"[٤].

قوله تعالى:{وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً} [التوبة : ١٦]، أي:" ولم يتخذوا غير الله ورسوله والمؤمنين بطانة وأولياء"[٥].

قال الزجاج:" أي: ولم يتخذوا بينهم وبين الكافرين دخيلة مودة"[٦].

وفي قوله تعالى:{وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً} [التوبة : ١٦]، وجوه من التفسير:

أحدها : أنها الخيانة ، قاله قتادة[٧].

---

(١) التفسير الميسر:١٨٩/١.

(٢) التفسير الميسر:١٨٩/١.

(٣) التفسير الميسر:١٨٩/١.

(٤) التفسير الميسر:١٨٩/١.

(٥) التفسير الميسر:١٨٩/١.

(٦) معاني القرآن:٤٣٧/٢.

(٧) انظر: النكت والعيون:٢٤٦/٢.

والثاني : أنها البطانة من غير المسلمين، قاله ابن عباس[١]، وقطرب[٢]، ومقاتل[٣]، والفراء[٤]، والفراء[٤]، والطبري[٥]، والزجاج[٦]. ومنه قول الشاعر :

وجعلت قومك دون ذاك وليجة ساقوا إليك الخير غير مشوب

عن ابن عباس قوله: "{وليجة} قال: الوليجة: البطانة من غير دينهم"[٧].

قال الفراء:" الوليجة: البطانة من المشركين يتخذونهم فيفشون إليهم أسرارهم، ويعلمونهم أمورهم. فنهوا عن ذلك"[٨].

قال الطبري:" «الوليجة»: هو الشيء يدخل في آخر غيره، يقالُ منه: "ولج فلان في كذا يلِجه، فهو وليجة"،، وإنما عنى بها في هذا الموضع: البطانة من المشركين. نهى الله المؤمنين أن يتخذوا من عدوهم من المشركين أولياء، يفشون إليهم أسرارهم"[٩].

والثالث : الدخول في ولاية المشركين، من قولهم: ولج فلان في كذا إذا دخل فيه. وهذا قول السدي[١٠]، أبي عبيدة[١١]، ومنه قول طرفة بن العبد[١٢]:

فإن القوا فى يتّلجن موالجا تضايق عنها أن تولجّه الإبر

ويقال للكناس الذي يلج فيه الوحش من الشجر: دولج وتولج، قال الشاعر[١٣]:

متخذا منها إيادا دولجا

قال يحيى بن سلام:" «الوليجة»:أن يدخل في دين الله ما يقارب به المنافقين"[١٤].

وروي عن معمر عن الحسن:"«وليجة»، قال: هو الكفر والنفاق، أو قال: أحدهما"[١٥].

وعن الربيع في قوله: "{وليجة}، قال: دخلاء"[١٦].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [التوبة : ١٦]، أي:" والله خبير بجميع أعمالكم ومجازيكم بها"[١٧].

الفوائد:

١- امتحان الله الناس في الفتن للتمييز بينهم، فإن الله- وله الحمد- أجرى العادة بمقتضى الحكمة البالغة أن يبتلي عباده بوقوع الفتن ليميز الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق، بما يضمرونه ويظهرونه من ترك طاعته والعمل بمعصيته، ومن هو بخلاف ذلك

٢- ومن أسمائه تعالى: «الخبير»: أي:"العالم العارف بما كان وما يكون"[١٨].

---

[١] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٠٤٦):ص١٧٦٤/٦.
[٢] انظر: النكت والعيون:٣٤٦/٢.
[٣] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١٦٢/٢.
[٤] انظر: معاني القرآن:٤٢٦/١.
[٥] انظر: تفسير الطبري:١٦٣/١٤.
[٦] انظر: معاني القرآن:٤٣٧/٢.
[٧] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٠٤٦):ص١٧٦٤/٦.
[٨] معاني القرآن:٤٢٦/١.
[٩] تفسير الطبري:١٦٣/١٤.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٦٥٤٨):ص١٦٤/١٤.
[١١] انظر: مجاز القرآن:٢٥٤/١.
[١٢]فى ملحق ديوانه من الستة وفى اللسان (ولج) والعيني ٤/ ٥٨١.
[١٣]هذا الشطر فى ديوان جرير (نشر الصاوى) ٩.
[١٤] تفسير يحيى بن سلام:٦٩٧/٢.
[١٥] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٤٧):ص١٧٦٥/٦.
[١٦] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٤٨):ص١٧٦٥/٦.
[١٧] التفسير الميسر:١٨٩/١.
[١٨] جامع الأصول:١٧٣/٤.

قال الخطابي:"هو العالم بكنه الشيء، المطلع على حقيقته، كقوله تعالى: { فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيْرَاً } [الفرقان:٥٩]. يقال فلان بهذا الأمر خبير؛ وله به خبر، وهو أخبر به من فلان؛ أي: أعلم. إلا أن الخبر في صفة المخلوقين إنما يستعمل في نوع العلم الذي يدخلة الاختبار، ويتوصل إليه بالامتحان، والاجتهاد، دون النوع المعلوم ببدائه العقول.

وعلم الله -سبحانه- سواء فيما غمض من الأشياء و فيما لطف، وفيما تجلى به منه وظهر. وإنما تختلف مدارك علوم الآدميين الذين يتوصلون إليها بمقدمات من حس، وبمعاناة من نظر، وفكر؛ ولذلك قيل لهم: ليس الخبر كالمعاينة، وتعالى الله عن هذه الصفات علوا كبيرا"[١].

القرآن

{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧)} [التوبة : ١٧]

التفسير:

ليس من شأن المشركين إعمار بيوت الله، وهم يعلنون كفرهم بالله ويجعلون له شركاء. هؤلاء المشركون بطلت أعمالهم يوم القيامة، ومصيرهم الخلود في النار.

سبب النزول:

قال الواحدي:" قال المفسرون لما أسر العباس يوم بدر أقبل عليه المسلمون فعيروه بكفره بالله وقطيعة الرحم، وأغلظ علي له القول، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون، محاسننا، فقال له علي: ألكم محاسن؟ قال: نعم، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحاج، ونفك العاني؛ فأنزل الله - عز وجل - ردا على العباس: {ما كان للمشركين أن يعمروا} الآية"[٢].

قوله تعالى:{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ} [التوبة : ١٧]، أي:" ليس من شأن المشركين إعمار بيوت الله، وهم يعلنون كفرهم بالله ويجعلون له شركاء"[٣].

قال السدي:" يقول: ما ينبغي لهم أن يعمروه"[٤].

وفي قوله تعالى:{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ} [التوبة : ١٧]، وجهان[٥]:

أحدهما : ما كان لهم أن يعمروها بالكفر لأن مساجد الله تعالى تعمر بالإيمان .

والثاني : ما كان لهم أن يعمروه بالزيارة له والدخول إليه.

وفي قوله تعالى:{شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ} [التوبة : ١٧]، ثلاثة أقوال[٦]:

أحدها : أن فيما يقولونه أو يفعلونه دليل على كفرهم كما يدل عليه إقرارهم ، فكأن ذلك منهم هو شهادتهم على أنفسهم ، قاله الحسن [٧].

والثاني : يعني شاهدين على رسول الله -ﷺ- بالكفر لأنهم كذبوه وأكفروه وهو من أنفسهم ، قاله الكلبي [٨].

والثالث : أن النصراني إذا سئل ما أنت ؟ قال : نصراني ، واليهودي إذا سئل قال : يهودي ، وعابد الوثن يقول : مشرك ، وكان هؤلاء كفار وإن لم يقروا بالكفر ، قاله السدي[١].

---

[١] شأن الدعاء:٦٣.

[٢] أسباب النزول:٢٤٣. ذكره بدون إسناد.

[٣] التفسير الميسر:١٨٩/١.

[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٥٠):ص١٧٦٥/٦.

[٥] انظر: النكت والعيون:٣٤٦/٢.

[٦] انظر: النكت والعيون:٣٤٦/٢-٣٤٧.

[٧] انظر: النكت والعيون:٣٤٧/٢.

[٨] انظر: النكت والعيون:٣٤٧/٢.

قوله تعالى:{أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} [التوبة : ١٧]، أي:" هؤلاء المشركون بطلت أعمالهم يوم القيامة"[٢].

قال أبو مالك:"يعني، بطلت أعمالهم"[٣].

قوله تعالى:{وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ} [التوبة : ١٧]، أي:" ومصيرهم الخلود في النار"[٤].

عن ابن عباس قوله: "{هم خالدون}، أي: خالدا أبدا"[٥]. وروي عن السدي نحو ذلك[٦].

الفوائد:

١- منع القرآن الكريم المشركين من دخول المسجد الحرام، منعهم من عمارة سائر المساجد، لأنهم يشركون مع الله غيره في عباداتهم.

٢- من فوائد الآية الكريمة: أن الشهادة تكون بالفعل، قال تعالى: {ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر}، فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلونه[٧].

٣- أن الكافر عمله مردود ولو عمل أي عمل، والدليل قوله تعالى: {ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون} [التوبة: ١٧] ، وقوله تعالى: {وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا} [الفرقان: ٢٣].

القرآن

{إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)} [التوبة : ١٨]

التفسير:

لا يعتني ببيوت الله ويعمرها إلا الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ولا يخافون في الله لومة لائم، هؤلاء العُمَّار هم المهتدون إلى الحق.

قوله تعالى:{إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [التوبة : ١٨]، أي:" لا يعتني ببيوت الله ويعمرها إلا الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر"[٨].

عن ابن إسحاق قال: ثم ذكر قول قريش: إنَّا أهلُ الحرم، وسُقاة الحاج، وعُمَّار هذا البيت، ولا أحد أفضل منا! فقال: {إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر}، أي: إن عمارتكم ليست على ذلك، {إنما يعمر مساجد الله}، أي: من عمرها بحقها {من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله}، فأولئك عمارها"[٩].

وفي هذه المساجد قولان[١٠]:

أحدهما : أنها مواضع السجود من المصلى ، فعلى هذا عمارتها تحتمل ثلاثة أوجه[١١]:

أحدها : بالمحافظة على إقامة الصلاة .

والثاني : بترك الرياء .

والثالث : بالخشوع والإعراض عما ينهى .

---

(١) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٥٢):ص١٧٦٥/٦.

(٢) التفسير الميسر:١٨٩/١.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٥٣):ص١٧٦٥/٦.

(٤) التفسير الميسر:١٨٩/١.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٥٤):ص١٧٦٥/٦.

(٦) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٧٦/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.

(٧) انظر: شرح الطحاية/٤٦/١.

(٨) التفسير الميسر:١٨٩/١.

(٩) أخرجه الطبري(١٦٥٥٦):ص١٦٨/١٤.

(١٠) انظر: النكت والعيون:٣٤٧/٢.

(١١) انظر: النكت والعيون:٣٤٧/٢.

والقول الثاني : أنها بيوت الله تعالى المتخذة لإقامة الصلوات ، فعلى هذا عمارتها تحتمل ثلاثة أوجه[1]:
أحدها : إنما يعمرها بالإيمان من آمن بالله تعالى .
والثاني : إنما يعمرها بالزيارة لها والصلاة فيها من آمن بالله تعالى .
والثالث : إنما يرغب في عمارة بنائها من آمن بالله تعالى .
قوله تعالى:{وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ} [التوبة : ١٨]، أي:" أقام الصلاة المكتوبة بحدودها، وأدى الزكاة المفروضة بشروطها"[2].
قوله تعالى:{وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ} [التوبة : ١٨]، أي:" خاف الله ولم يرهب أحداً سواه"[3].
قوله تعالى:{فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [التوبة : ١٨]، أي:" فعسى أن يكونوا في زمرة المهتدين يوم القيامة"[4].
وفي قوله تعالى:{فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [التوبة : ١٨] وجهان:
أحدهما : أنه قال ذلك لهم تحذيراً من فعل ما يخالف هدايتهم[5].
والثاني: أن كل {عَسَى} من الله واجبة وإن كانت من غيره ترجياً ، قاله ابن عباس[6]، والسدي، وابن إسحاق[7].
قال ابن عباس:" يقول: إن أولئك هم المفلحون، كقوله لنبيه ﷺ {عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا}[8]، يقول: أن ربك سيبعثك مقاما محمودا، وهي الشفاعة، وكل «عسى» في القرآن واجبة"[9].
قال القرطبي:" و«عسى» من الله واجبة في جميع القرآن إلا قوله تعالى: {عسى ربه إن طلقكن أن يبدله} [التحريم: ٥]. وقال أبو عبيدة: «عسى» من الله إيجاب"[10].
قال أبو مالك: " كل شيء في القران: (عسى) فهو واجب الا حرفين، حرف في التحريم: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُن}[11]، وفي بني اسرائيل: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم}[12]"[13].
قال الشيخ ابن عثيمين: " {عَسَى} تأتي لأربعة معانٍ: للرجاء؛ والإشفاق؛ والتوقع؛ والتعليل؛ والظاهر أنها هنا للتوقع، أو للترجية - لا الترجي -؛ فإن الله عزّ وجلّ لا يتَرجى؛ كل شيء عنده هين؛ لكن الترجية بمعنى أنه يريد من المخاطَب أن يرجو هذا؛ أي افعلوا ما آمركم به عسى أن يكون خيراً؛ وهذا الذي ذكره الله هنا واقع حتى في الأمور غير التعبدية، أحياناً يفعل الإنسان شيئاً من الأمور العادية، ويقول: ليتني لم أفعل، أو ليت هذا لم يحصل؛ فإذا العاقبة تكون حميدة؛ فحينئذ يكون كره شيئاً وهو خير له؛ القتال كره لنا ولكن عاقبته خير؛ لأن المقاتل في سبيل الله حاله كما قال عزّ وجلّ آمراً نبيه أن يقول: {قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين} [التوبة: ٥٢]- يعني: لا بد من إحدى حسنيين وهما إما النصر، والظفر؛ وإما الشهادة"[14].

---

[1] انظر: النكت والعيون:٣٤٧/٢.
[2] صفوة التفاسير:٤٨٨/١.
[3] صفوة التفاسير:٤٨٨/١.
[4] صفوة التفاسير:٤٨٨/١.
[5] انظر: النكت والعيون:٣٤٧/٢-٣٤٨.
[6] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٠٦٠):ص١٧٦٦/٦.
[7] انظر: تفسير الطبري(١٦٥٥٦):ص١٦٨/١٤.
[8][الإسراء : ٧٩].
[9] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٦٠):ص١٧٦٦/٦.
[10]تفسير القرطبي: ٣/ ٣٩.
[11][التحريم : ٥].
[12][الإسراء : ٨].
[13]أخرجه ابن أبي حاتم (٢٠١٧): ص ٢/ ٣٨٣.
[14]تفسير ابن عثيمين(سورة البقرة): ٣/ ٤٩.

الفوائد:
١- فضيلة عمارة المساجد بالعبادة فيها وتطهيرها وصيانتها.
٢- وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والخشية من الله تعالى.
٣- أهل الأمن والنجاة من النار هم أصحاب الصفات الأربع المذكورة في الآية.

القرآن

{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩)} [التوبة : ١٩]

التفسير:

أجعلتم -أيها القوم- ما تقومون به من سقي الحجيج وعِمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟ لا تتساوى حال المؤمنين وحال الكافرين عند الله، لأن الله لا يقبل عملا بغير الإيمان. والله سبحانه لا يوفق لأعمال الخير القوم الظالمين لأنفسهم بالكفر.

في سبب نزول الآيتان(١٩-٢٠)، أقوال:

احدها: عن النعمان بن بشير قال: "كنت عند منبر رسول الله - ﷺ - فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد أن أسقي الحاج، وقال الآخر: ما أبالي أن لا أعمل عملا بعد أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر: الجهاد في سبيل أفضل مما قلتم، فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله - ﷺ - وهو يوم الجمعة - ولكني إذا صليت دخلت فاستفتيت رسول الله - ﷺ - فيما اختلفتم فيه، ففعل. فأنزل الله تعالى: {أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام} إلى قوله تعالى: {والله لا يهدي القوم الظالمين}"[1].

والثاني: قال ابن عباس:" قال العباس بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر : لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد ، لقد كنا نعمر المسجد الحرام ، ونسقي الحاج ، ونفك العاني! قال الله : {أجعلتم سقاية الحاج}، إلى قوله : {الظالمين} ، يعني: أن ذلك كان في الشرك ، ولا أقبل ما كان في الشرك"[2].

وروي عن الضحاك:"أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسرُوا يوم بدر يعيِّرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كنَّا نَعمُر المسجدَ الحرام، ونفُكُّ العاني، ونحجب البيتَ، ونسقي الحاج! فأنزل الله: {أجعلتم سقاية الحاج}، الآية"[3].

والثالث: وقال ابن سيرين ومرة الهمداني: "قال علي للعباس: ألا تهاجر؟ ألا تلحق بالنبي ﷺ؟ قال: ألست في شيء أفضل من الهجرة؟ ألست أسقي حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام؟ فنزلت هذه الآية، ونزل قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا}[4]"[5].

والرابع: وقال الحسن[6] والشعبي[1]، ومحمد بن كعب القرظي[2]: "نزلت الآية في علي والعباس والعباس وطلحة بن شيبة، وذلك أنهم افتخروا، فقال طلحة: أنا صاحب البيت بيدي مفتاحه ولو

---

[1] أخرجه مسلم (١٤٩٩/٣ - ح: ١٨٧٩) والإمام أحمد (الفتح الرباني: ١٥٩/١٨ - ح: ٢٩٣)، والطبري (١٦٥٥٧):ص١٦٩/١٤، وأبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه (فتح القدير: ٣٤٥/٢) وكما في الدر المنثور:٢١٨/٣، والطبراني في "الأوسط" (٢٦٦/١ - ح: ٤٢٣) عن النعمان به، وأخرجه الواحدي في اسباب النزول:٢٤٣. واللفظ له.

ويشهد له: ما أخرجه عبد الرزاق (تفسير ابن كثير: ٣٤٢/٢) وابن جرير (٦٧/١٠) من وجه آخر عن النعمان به، وإسناده صحيح.

[2] أخرجه الطبري(١٦٥٥٨):ص١٦٩/١٤-١٧٠ وابن المنذر وابن أبي حاتم (فتح القدير: ٣٤٦/٢) من طريق الوالبي - وهو علي بن أبي طلحة - عن ابن عباس رضي الله عنهما به، والواحدي في أسباب النزول:٢٤٤. وإسناده صحيح.

[3] أخرجه الطبري(١٦٥٦٦):ص١٧٢/١٤.

[4] [التوبة : ٢٠].

[5] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٧٢):ص١٧٦٩/٦، وذكره الواحدي في أسباب النزول:٢٤٤-٢٤٥.[مرسل]

[6] انظر: تفسير الطبري(١٦٥٦١):ص١٧١/١٤. ولفظه:" نزلت في علي، وعباس، وعثمان، وشيبة، تكلموا في ذلك، فقال العباس: ما أراني إلا تارك سقايتنا! فقال رسول الله ﷺ: "أقيموا على سقايتكم، فإن لكم فيها خيرًا".

أشاء بت فيه وإلي ثياب بيته، وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال علي: ما أدري ما تقولان، لقد صليت ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد. فأنزل الله تعالى هذه الآية"[٣].

وعن السدي:" افتخر علي، وعباس، وشيبة بن عثمان، فقال للعباس: أنا أفضلكم، أنا أسقي حُجَّاج بيت الله! وقال شيبة: أنا أعمُر مسجد الله! وقال علي: أنا هاجرت مع رسول الله ﷺ، وأجاهد معه في سبيل الله! فأنزل الله: {الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله}، إلى: {نعيم مقيم}"[٤].

قوله تعالى:{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة : ١٩]، أي:" أجعلتم -أيها القوم- ما تقومون به من سقي الحجيج وعِمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟"[٥].

قال الطبري:" وهذا توبيخ من الله تعالى ذكره لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت، فأعلمهم جل ثناؤه أن الفخر في الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله، لا في الذي افتخروا به من السِّدانة والسقاية"[٦].

قال الماوردي:" يعني بعمارته السدانة والقيام به"[٧].

عن الحسن قال: لما نزلت {أجعلتم سقاية الحاج}، قال العباس: ما أراني إلا تارك سقايتنا! فقال النبي ﷺ "أقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيرًا"[٨].

قوله تعالى:{لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ} [التوبة : ١٩]، أي:" لا تتساوى حال المؤمنين وحال الكافرين عند الله"[٩].

قال ابن عباس:" "يعني:الذين زعموا أنهم أهل العمارة"[١٠].

قال الزمخشري:" المعنى إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة، وأن يسوى بينهم. وجعل تسويتهم ظلما بعد ظلمهم بالكفر. وروى أن المشركين قالوا لليهود: نحن سقاة الحجيج وعمار المسجد الحرام، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه؟ فقالت لهم اليهود: أنتم أفضل"[١١].

وقراءة ابن الزبير وأبى وجزة السعدي-وكان من القراء-:«سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام»[١٢].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة : ١٩]، أي:" والله سبحانه لا يوفق لأعمال الخير القوم الظالمين لأنفسهم بالكفر"[١٣].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٦٥٦٢):ص١٧١/١٤. ولفظه:" نزلت في علي، والعباس، تكلما في ذلك".

[٢] انظر: تفسير الطبري(١٦٥٦٢):ص١٧١/١٤. ولفظه:" افتخر طلحة بن شيبة من بني عبد الدار، وعباس بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، فقال طلحة، أنا صاحب البيت، معي مفتاحه، لو أشاء بِتُّ فيه! وقال عباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، ولو أشاء بِتُّ في المسجد! وقال علي: ما أدري ما تقولان، لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد! فأنزل الله: {أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام}، الآية كلها".

[٣] أسباب النزول للواحدي:٢٤٤. [مرسل]

[٤] أخرجه الطبري(١٦٥٦٥):ص١٧٢/١٤.

[٥] التفسير الميسر:١٨٩/١.

[٦] تفسير الطبري:١٦٨/١٤.

[٧] النكت والعيون:٣٤٨/٢.

[٨] أخرجه الطبري(١٦٥٦٤):ص١٧١/١٤-١٧٢.

[٩] التفسير الميسر:١٨٩/١.

[١٠] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٦٨):ص١٧٦٨/٦.

[١١] الكشاف:٢٥٦/٢.

[١٢] انظر: الكشاف:٢٥٦/٢.

[١٣] التفسير الميسر:١٨٩/١.

قال ابن عباس:" " يعني: أن ذلك كان في الشرك، ولا أقبل ما كان في الشرك"[1].

عن ابن عباس قوله: (أجعلتم سقاية الحاج) ، إلى قوله: (الظالمين) ، وذلك أن المشركين قالوا: عمارة بيت الله، وقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون، من أجل أنهم أهله وعُمَّاره. فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: {قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ} [سورة المؤمنون: ٦٦، ٦٧] ، يعني أنهم يستكبرون بالحرم. وقال: {به سامرًا}، لأنهم كانوا يسمرون، ويهجرون القرآن والنبيَّ ﷺ. فخيَّر الإيمان بالله والجهاد مع نبي الله ﷺ، على عمران المشركين البيتَ وقيامهم على السقاية. ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به، أن كانوا يعمرون بيته ويخدمونه. قال الله: {لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين}، يعني: الذين زعموا أنهم أهل العمارة، فسماهم الله "ظالمين"، بشركهم، فلم تغن عنهم العمارة شيئًا"[2].

القرآن

{الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)} [التوبة : ٢٠]

التفسير:

الذين آمنوا بالله وتركوا دار الكفر قاصدين دار الإسلام، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في الجهاد لإعلاء كلمة الله، هؤلاء أعظم درجه عند الله، وأولئك هم الفائزون برضوانه.

قوله تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ} [التوبة : ٢٠]، أي:" الذين آمنوا بالله وتركوا دار الكفر قاصدين دار الإسلام، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في الجهاد لإعلاء كلمة الله، هؤلاء أعظم درجه عند الله"[3].

قال الزمخشري:أي:" هم أعظم درجة عند الله من أهل السقاية والعمارة عندكم"[4].

قال ابن عباس:" يقول: لا هجرة بعد الفتح، إنما هو الشهادة بعد ذلك وذلك أن المؤمنين كانوا على عهد رسول الله ﷺ على ثلاث منازل منهم: المؤمن المهاجر المباين لقومه في الهجرة، خرج إلى قوم مؤمنين في ديارهم وعقارهم وأموالهم"[5].

قوله تعالى:{وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [التوبة : ٢٠]، أي:" وأولئك هم الفائزون برضوانه"[6].

قال الزمخشري:أي:" {وأولئك هم الفائزون}، لا أنتم والمختصون بالفوز دونكم"[7].

عن السدي قوله: "{وأولئك هم الفائزون}، قال: إلى نعيم مقيم"[8].

فوائد الآيتين:[١٩-٢٠]:

١- أكمل المؤمنين وأعلاهم درجة، وأقربهم من الله منزلة من جمع الصفات الثلاث المذكورة في الآية (٢٠) وهي الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس.
٢- فضل الهجرة والجهاد.
٣- تفاوت أهل الجنة في علو درجاتهم.

القرآن

{يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١)} [التوبة : ٢١]

التفسير:

---

[1] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٦٩):ص١٧٦٨/٦.
[2] أخرجه الطبري(١٦٥٥٩):ص١٧٠/١٤.
[3] التفسير الميسر:١٨٩/١.
[4] الكشاف:٢٥٦/٢.
[5] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٧١):ص١٧٦٩/٦.
[6] التفسير الميسر:١٨٩/١.
[7] الكشاف:٢٥٦/٢.
[8] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٧٣):ص١٧٦٩/٦.

إن هؤلاء المؤمنين المهاجرين لهم البشرى من ربهم بالرحمة الواسعة والرضوان الذي لا سخط بعده، ومصيرهم إلى جنات الخلد والنعيم الدائم.

قوله تعالى:{يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ} [التوبة : ٢١]، أي:" إن هؤلاء المؤمنين المهاجرين لهم البشرى من ربهم بالرحمة الواسعة والرضوان الذي لا سخط بعده"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: يبشر هؤلاء الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله {ربُّهم برحمة منه}، لهم، أنه قد رحمهم من أن يعذبهم ، وبرضوان منه لهم، بأنه قد رضي عنهم بطاعتهم إياه، وأدائهم ما كلَّفهم"[٢].

قال الزجاج:" أي: يعلمهم في الدنيا ما لهم في الآخرة"[٣].

قوله تعالى:{وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ} [التوبة : ٢١]، أي:" ومصيرهم إلى جنات الخلد والنعيم الدائم"[٤].

قال الطبري:" يقول: وبساتين، لا يزول ولا يبيد، ثابت دائمٌ أبدًا لهم"[٥].

عن جابر بن عبد الله قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال الله سبحانه: أُعطيكم أفضل من هذا، فيقولون: ربَّنا، أيُّ شيء أفضل من هذا؟ قال: رِضْواني"[٦].

الفوائد:

١- بيان فضل هؤلاء الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله.

٢- بيان حال الجنات التي وعدها المتقون وما يصوره قوله: { لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ}، من نعيم ثابت دائمٌ.

القرآن

{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)} [التوبة : ٢٢]

التفسير:

ماكثين في تلك الجنان لا نهاية لإقامتهم وتنعمهم، وذلك ثواب ما قدَّموه من الطاعات والعمل الصالح في حياتهم الدنيا. إن الله تعالى عنده أجر عظيم لمن آمن وعمل صالحا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

قوله تعالى:{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [التوبة : ٢٢]، أي:" ماكثين في تلك الجنان لا نهاية لإقامتهم وتنعمهم"[٧].

قال الطبري:يقول:" ماكثين فيها، يعني في الجنات. {أبدا}، لا نهاية لذلك ولا حد"[٨].

قال أبو الليث:" يعني: مقيمين دائمين في الجنات أبدا، هو تأكيد للخلود"[٩].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [التوبة : ٢٢]، أي:" إن الله تعالى عنده أجر عظيم لمن آمن وعمل صالحا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه"[١٠].

قال أبو الليث:" وهي الجنة"[١١].

قال الطبري:" يقول: إن الله عنده لهؤلاء المؤمنين الذين نعتَهم جل ثناؤه النعتَ الذي ذكر في هذه الآية {أجر}، ثواب على طاعتهم لربّهم، وأدائهم ما كلفهم من الأعمال، {عظيم} وذلك النعيم الذي وعدَهم أن يعطيهم في الآخرة"[١].

---

(١) التفسير الميسر:١٩٠.
(٢) تفسير الطبري:١٧٤/١٤.
(٣) معاني القرآن:٤٣٩/٢.
(٤) التفسير الميسر:١٩٠.
(٥) تفسير الطبري:١٧٤/١٤.
(٦) أخرجه الطبري(١٦٥٦٧):ص١٧٤/١٤.
(٧) التفسير الميسر:١٩٠.
(٨) تفسير الطبري:١٧٥/١٤.
(٩) بحر العلوم:٤٧/٢.
(١٠) التفسير الميسر:١٩٠.
(١١) بحر العلوم:٤٧/٢.

الفوائد:
١- أن أهل الجنة خالدون فيها، وقد دلّت النصوص أن هذا التخليد أبدي.
٢- عظم هذا الأجر، والله تعالى هو العظيم جل وعلا وقد أثنى على هذا النعيم.
٣- بيان فضل الله تعالى على عباده إذ جعل هذا الجزاء أجرا بمنزلة الأجر المحتم الذي لابد من ان يناله العبد.

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣)} [التوبة : ٢٣]

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه لا تتخذوا أقرباءكم -من الآباء والإخوان وغيرهم- أولياء، تفشون إليهم أسرار المسلمين، وتستشيرونهم في أموركم، ما داموا على الكفر معادين للإسلام. ومن يتخذهم أولياء ويُلْقِ إليهم المودة فقد عصى الله تعالى، وظلم نفسه ظلمًا عظيمًا.

في سبب نزول الآيات:[٢٣-٢٤]، وجوه:

أحدها: عن مجاهد، قوله:"{سقاية الحاج}، أمروا بالهجرة فقال العباس بن عبد المطلب: أنا أسقي الحاج، وقال طلحة أخو بني عبد الدار: أنا أحجب الكعبة، فلا نهاجر، فأنزلت :{لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان}"[٢].

والثاني: نقل الواحدي عن الكلبي: "لما أمر رسول الله - ﷺ - بالهجرة إلى المدينة جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته: إنا قد أمرنا بالهجرة، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه، ومنهم من يتعلق به زوجته وعياله وولده، فيقولون: ناشدناك الله أن تدعنا إلى غير شيء فنضيع، فيرق فيجلس معهم ويدع الهجرة، فنزل قول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم} الآية. ونزل في الذين تخلفوا بمكة ولم يهاجروا قوله تعالى: {قل إن كان آباؤكم} إلى قوله: {فتربصوا حتى يأتي الله بأمره} يعني: القتال وفتح مكة"[٣].

وفي السياق نفسه نقل البغوي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: قال: "لما أمر النبي ﷺ الناس بالهجرة إلى المدينة، فمنهم من يتعلق به أهله وولده، يقولون: ننشدك بالله أن لا تضيعنا. فيرق لهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة، فأنزل الله عز وجل هذه الآية"[٤].

والثالث: وقال مقاتل: " نزلت في السبعة الذين ارتدوا عن الإسلام فلحقوا بمكة من المدينة فنهى الله عن ولايتهم فقال: {ومن يتولهم منكم} يا معشر المؤمنين {فأولئك هم الظالمون}"[٥].

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [التوبة : ٢٣]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه"[٦].

قال ابن عباس-رضي الله عنهما-:" ما أنزل الله آية في القرآن يا أيها الذين آمنوا إلا أن عليا شريفها وأميرها وسيدها، وما من أصحاب محمد أحد إلا وقد عوتب في القرآن إلا علي بن أبي طالب فإنه لم يعاتب في شيء منه"[٧].

قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك[يعني استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"[٢][١].

---

[١] تفسير الطبري:١٧٥/١٤.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٧٨):ص١٧٧٠/٦.
[٣] أسباب النزول:٢٤٥.
[٤] تفسير البغوي:٢٤/٤. وعزاه ابن حجر للثعلبي من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس. انظر: الكافي الشاف ص (٧٤).
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:١٦٤/٢، وعزاه ابن حجر للثعلبي، انظر: الكافي الشاف ص (٧٤).
[٦] التفسير الميسر:١٩٠.
[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(٨٨٨٣):ص١٦٦٩/٥.

عن الزهري قال: "إذا قال الله: يا أيها الذين آمنوا إفعلوا، فالنبي- ﷺ- منهم"[٢].
عن خيثمة قال: "ما تقرؤون في القرآن :{يا أيها الذين آمنوا}، فإنه في التوراة: «يا أيها المساكين»"[٣].

قوله تعالى:{لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ} [التوبة : ٢٣]، أي:" لا تتخذوا أقرباءكم -من الآباء والإخوان وغيرهم- أولياء، تفشون إليهم أسرار المسلمين، وتستشيرونهم في أموركم، ما داموا على الكفر معادين للإسلام"[٤].

قال القرطبي:" {إن استحبوا}، أي: أحبوا، كما يقال: استجاب بمعنى أجاب. أي لا تطيعوهم ولا تخصوهم. وخص الله سبحانه الآباء والإخوة إذ لا قرابة أقرب منها. فنفى الموالاة بينهم كما نفاها بين الناس بقوله تعالى:{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء}[المائدة: ٥١]، ليبين أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان، ولم يذكر الأبناء في هذه الآية إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التبع للآباء. والإحسان والهبة مستثناة من الولاية. قالت أسماء: يا رسول الله، إن أمي قدمت علي راغبة وهي مشركة أفأصلها؟ قال: «صلي أمك»[٥]"[٦].

عن أبي مالك :"قوله {استحبوا}، قال: إختاروا"[٧].

عن مقاتل بن حيان قوله: "{لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون}، يعني: الهجرة، يقول: هاجروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم"[٨].

قوله تعالى:{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [التوبة : ٢٣]، أي:" ومن يتخذهم أولياء ويُلْقِ إليهم المودة فقد عصى الله تعالى، وظلم نفسه ظلمًا عظيمًا"[٩].

قال القرطبي:" ظاهر هذه الآية أنها خطاب لجميع المؤمنين كافة، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين. وروت فرقة أن هذه الآية إنما نزلت في الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفرة. فالمخاطبة على هذا إنما هي للمؤمنين الذين كانوا بمكة وغيرها من بلاد العرب، خوطبوا بألا يوالوا الآباء والإخوة فيكونوا لهم تبعا في سكنى بلاد الكفر"[١٠].

الفوائد:

١- مباعدة الكفار والمفسدين والغلظة عليهم.
٢- نفي الولاية بين أهل الحق وأهل الباطل: إذ نفاها تعالى بين المؤمنين والكافرين، ونهى عنها في مثل آيات العقود، والأنفال، وبراءة، والممتحنة؛ فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ} [المائدة: ٥١]، {وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ} [المائدة: ٨١]، {مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الأنفال: ٧٢]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى

---

[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٧):ص ١٩٦/١.
([١]) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٣٣٧/١.
([٢]) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٨٨٦):ص١٦٦٩/٥.
([٣]) أخرجه ابن أبي حاتم(٨٨٨٤):ص١٦٦٩/٥.
[٤] التفسير الميسر:١٩٠.
[٥]البخاري ١٦١/٦، ١٦٢ في الهبة، باب الهدية للمشركين، و ٩١/٧ في الجهاد، باب إثم من عاهد ثم غدر، و ١٧/١٣ و ١٨ في الأدب، باب صلة الوالد المشرك، وأخرجه مسلم رقم (١٠٠٣) في الزكاة، باب فضل الصدقة على الأقربين ولو كانوا مشركين، وأبو داود رقم (١٦٦٨) في الزكاة، باب الصدقة على أهل الذمة.
[٦] تفسير القرطبي:٩٤/٨.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٨٠):ص١٧٧٠/٦.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٧٩):ص١٧٧٠/٦.
[٩] التفسير الميسر:١٩٠.
[١٠] تفسير القرطبي:٩٣/٨-٩٤.

الْإِيمَانِ} [التوبة: ٢٣]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ} [الممتحنة: ١].

١- حرمة اتخاذ الكافرين أولياء يوادون ولو كانوا من أقرب الأقرباء كالأب والابن والأخ.

٢- من الظلم الفظيع موالاة من عادى الله ورسوله والمؤمنين.

ذكر اهل العلم من شروط الشهادتين، سبعة نقاط:

أ- العلم المنافي للجهل: وهو العلم بمدلولها الذي يقتضيه جميع معاني توحيد الألوهية السابق ذكره، كما يقتضي أيضا محبة رسول الله ﷺ وتعظيمه ﷺ وطاعته والاقتداء بهديه، والاندفاع لنصرة ما جاء به من الحق بجميع القوى والماديات.

ب- اليقين المنافي للشك: وهو النطق بهما عن يقين يطمئن قلبه إليه، دون تسرب شيء من الشكوك التي يقوم ببذرها شياطين الجن والإنس.

ت- القبول المنافي للرد: وهو قبول جميع ما يلزم من مدلوهما، بحيث يقبل الناطق بهما جميع ما ورد من الله على لسان رسوله ﷺ دون رد شيء منه، أو الجناية عليه بالتأويل الفاسد، الذي وصفه الله بأنه تحريف للكلم عن مواضعه.

ث- الانقياد المنافي للترك: وهو الانقياد لحكم الله الذي اعترف بحصر الألوهية له في هذه الشهادة، والاستسلام لجميع شرعه الوارد في كتابه وسنة نبيه كما يستلزم ذلك، دون ترك شيء منه إنكارا أو تهاونا بحجة المتكاسل الكاذب.

ج- الإخلاص المنافي للشرك: وهو أن تصدر منه جميع الأقوال والأفعال خالصة لوجه الله وإبتغاء مرضاته، ليس فيها شائبة رياء أو سمعة أو قصد نفع أو غرض شخصي أو شهوة نفسية ظاهرة أو خفية، أو الاندفاع إلى العمل لمحبة شخص أو مذهب أو مبدء يستسلم له بغير هدى من الله، أو يؤثر محبة غيره على طاعته.

ح- الصدق المنافي للنفاق: وهو الصدق مع الله الذي اعترف بحصر الألوهية له في هذه الشهادة، وهو توحيد الإرادة، وذلك ببذل الجهد في طاعة الله وإمتثال أوامره وحفظ حدوده والغيرة على حرماته والغضب له والانتصار لدينه، دون تهاون أو فتور، إذ من نطق بها دون العمل بذلك كان منافقا مخادعا لله ورسوله والمؤمنين، أو مشرك عابد لشيطانه وهوى نفسه، وقد كذب قوله بعمله وسوء خطته، فلذا كان الكذب في أصل العقيدة نفاقا، سواء كان الكذب لفظيا أو عمليا، بل الكذب العملي أشد وأفظع.

خ- المحبة المنافية لضدها: وهو النطق بها عن محبة مقرونة بالإجلال والتعظيم، كما يستلزمه حصر التأله لله جل وعلا في هذه الشهادة، وذلك بالقيام بجميع شروط المحبة ولوازمها التي لا تنفك عنها، بين المحب والمحبوب شرعا وعقلا.

وشروط المحبة ولوازمها، هي:

أ- موافقة المحبوب فيما يحبه ويرضاه.

ب- رفض ما يكرهه أو يسخطه.

ت- محبة أحبابه وبغض أعدائه.

ث- موالاة من والاه ومعاداة من عاداه.

ج- القيام بنصرته والسير فيما رسمه عن حب وإخبات.

فمن عكس هذه الأمور ولم يوافق محبوبه فيها، فهو كاذب في محبته، وليس عنده من المحبة سوى الدعوى الفاجرة، إذ من أدعى محبة أحد وهو مخالف له فيما يحب أو ساع فيما يكره فدعواه واضحة للبطلان، كذلك من أدعى محبة أحد وهو محب لأعدائه أو موال لهم أو مبغض لأحبابه أو معاد لأوليائه فكذبه ظاهر مكشوف، هذا دليل عقلي ظاهر منضبط.

والدليل من النقل: قوله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْأِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُون}[1].

---

[1] انظر: الأجوبة العقدية لمبهمات العقيدة: ٢٤-٢٨.

القرآن

{قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)} [التوبة : ٢٤]

التفسير:

قل -يا أيها الرسول- للمؤمنين: إن فَضَّلتم الآباء والأبناء والإخوان والزوجات والقرابات والأموال التي جمعتموها والتجارة التي تخافون عدم رواجها والبيوت الفارهة التي أقمتم فيها، إن فَضَّلتم ذلك على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله فانتظروا عقاب الله ونكاله بكم. والله لا يوفق الخارجين عن طاعته.

قوله تعالى:{قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ} [التوبة : ٢٤]، أي:" قل -يا أيها الرسول- للمؤمنين: إن فَضَّلتم الآباء والأبناء والإخوان والزوجات"[١].

قوله تعالى:{وَعَشِيرَتُكُمْ} [التوبة : ٢٤]، أي:" وجماعتكم التي تستنصرون بهم"[٢].

قوله تعالى:{وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا} [التوبة : ٢٤]، أي:" وأموالكم التي اكتسبتموها"[٣].

قال ابن كثير:" أي : اكتسبتموها وحصلتموها"[٤].

قوله تعالى:{وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا} [التوبة : ٢٤]، أي:" والتجارة التي تخافون عدم رواجها"[٥].

وفي قوله تعالى:{وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا} [التوبة : ٢٤]، وجهان[٦]:

أحدهما : أنها أموال التجارات إذا نقص سعرها وكسد سوقها .

والثاني : أنهن البنات الأيامى إذا كسدن عند آبائهن ولم يخطبن .

قوله تعالى:{وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا} [التوبة : ٢٤]، أي:" والبيوت الفارهة التي أقمتم فيها"[٧].

قال ابن كثير:" أي : تحبونها لطيبها وحسنها"[٨].

قل الماوردي:"وهذا نزل في قوم أسلموا بمكة فأقاموا بها ولم يهاجروا إشفاقاً على فراق ما ذكره الله تعالى ميلاً إليه وحبّاً له فذمهم الله تعالى على ذلك"[٩].

قوله تعالى:{أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ} [التوبة : ٢٤]، أي:" إن كانت هذه الأشياء المذكورة أحب إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله وجهاد لنصرة دين الله"[١٠].

قال ابن كثير:" أي : إن كانت هذه الأشياء {أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ}"[١١].

قوله تعالى:{فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} [التوبة : ٢٤]، أي:" فانتظروا عقاب الله ونكاله بكم"[١٢].

قال ابن كثير:" أي : فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم"[١].

---

[١] التفسير الميسر:١٩٠.
[٢] صفوة التفاسير:٤٩١/١.
[٣] صفوة التفاسير:٤٩١/١.
[٤] تفسير ابن كثير:١٢٢/٤.
[٥] التفسير الميسر:١٩٠.
[٦] انظر: النكت والعيون:٣٤٩/٢.
[٧] التفسير الميسر:١٩٠.
[٨] تفسير ابن كثير:١٢٢/٤.
[٩] النكت والعيون:٣٤٩/٢.
[١٠] صفوة التفاسير:٤٩١/١.
[١١] تفسير ابن كثير:١٢٢/٤.
[١٢] التفسير الميسر:١٩٠.

عن زهرة بن معبد ، عن جده قال : "كنا مع رسول الله ﷺ ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب ، فقال : والله لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال رسول الله ﷺ : "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه". فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي. فقال رسول الله : "الآن يا عمر"[٢].

عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين"[٣].

قال رسول الله ﷺ: "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار" [٤]. وفي رواية: "لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى ... " [٥] إلى آخره.

وعن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم بأذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم"[٦].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة : ٢٤]، أي:" والله لا يوفق الخارجين عن طاعته"[٧].

قال الصابوني:" وهذا وعيد لمن آثر أهله، أو ماله، أو وطنه، على الهجرة والجهاد"[٨].

الفوائد:

١- فرضية محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله، ومحبة سائر محاب الله تعالى وكره سائر مكاره الله تعالى من العقائد والأحوال والأعمال والذوات والصفات.

٢- أن معنى محبة المرء لله أو في الله: أن لا تحبه لطمع في الدنيا؛ كما ذكره في " طبقات الحنابلة " عن أحمد [٩]، بل تحبه لما عليه من الهدى والاستقامة.

وروي عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: "قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا في الليلة الظلماء، وأدناه أن يحب على شيء من الجور، ويبغض على شيء من العدل، وهل الدين إلا الحب والبغض في الله؟ قال الله تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} [آل عمران: ٣١]"[١٠].

---

[١] تفسير ابن كثير:١٢٢/٤.

[٢] المسند (٣٣٦/٤)، وصحيح البخاري برقم (٦٦٣٢).

[٣] أخرجه البخاري: الإيمان (١٥) ، ومسلم: الإيمان (٤٤) ، والنسائي: الإيمان وشرائعه (٥٠١٣، ٥٠١٤) ، وابن ماجه: المقدمة (٦٧) ، وأحمد (١٧٧/٣، ٢٠٧/٣، ٢٧٥/٣، ٢٧٨/٣) ، والدارمي: الرقاق (٢٧٤١).

[٤] أخرجه البخاري: الإيمان (١٦) ، ومسلم: الإيمان (٤٣) ، والترمذي: الإيمان (٢٦٢٤) ، والنسائي: الإيمان وشرائعه (٤٩٨٧، ٤٩٨٨، ٤٩٨٩) ، وابن ماجه: الفتن (٤٠٣٣) ، وأحمد (١٠٣/٣، ١٧٢/٣، ١٧٤/٣، ٢٣٠/٣، ٢٤٨/٣، ٢٨٨/٣).

[٥] أخرجه البخاري: الأدب (٦٠٤١).

[٦] المسند (٤٢/٢) وسنن أبي داود برقم (٣٤٦٢).

[٧] التفسير الميسر:١٩٠.

[٨] صفوة التفاسير:٤٩٢/١.

[٩] انظر: طبقات الحنابلة: ص:٣٣ .

[١٠] ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم- كما في " تفسير ابن كثير " (٢/ ٢٩) -، وأبو نعيم في " الحلية " (٨/ ٣٦٨ و٩/ ٢٥٣)، والحاكم في " المستدرك " (٢/ ٢٩١) من طريق عبد الأعلى بن أعين، عن يحى بن أبي كثير عن عروة عن عائشة به.

وقال الحاكم: " هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه "! وتعقبه الذهبي في " التلخيص " بقوله:

" قلت: عبد الأعلى، قال الدارقطني: ليس بثقة ".

وفي " الميزان " (٢/ ٥٢٩): " قال العقيلي: جاء بأحاديث منكرة ليس منها شيء محفوظ "، ثم ساق هذا الحديث من منكراته، وقال ابن حبان في " المجروحين " (٢/ ١٥٦): " يروي عن يحى ابن أبي كثير ما ليس من حديثه، لا يجوز الاحتجاج به بحال ".

٣- حرمان أهل الفسق المتوغلين فيه من هداية الله تعالى إلى ما يكملهم ويسعدهم.

القرآن

{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥)} [التوبة : ٢٥]

التفسير:

لقد أنزل الله نَصْرَه عليكم في مواقع كثيرة عندما أخذتم بالأسباب وتوكلتم على الله. ويوم غزوة (حنين) قلتم: لن نُغْلَبَ اليوم من قلة، فغرَّتكم الكثرة فلم تنفعكم، وظهر عليكم العدو فلم تجدوا ملجأً في الأرض الواسعة ففررتم منهزمين.

قوله تعالى:{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ} [التوبة : ٢٥]، أي:" لقد أنزل الله نَصْرَه عليكم في مواقع كثيرة عندما أخذتم بالأسباب وتوكلتم على الله"[١].

قال ابن كثير:" يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله وأن ذلك من عنده تعالى ، وبتأييده وتقديره ، لا بعَددهم ولا بعُددهم ونبههم على أن النصر من عنده ، سواء قل الجمع أو كثر ، فإن يوم حُنين أعجبتهم كثرتهم ، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ. ثم أنزل [الله] نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلا ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين"[٢].

عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : "خير الصحابة أربعة ، وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ، ولن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة"[٣].

قوله تعالى:{وَيَوْمَ حُنَيْنٍ} [التوبة : ٢٥]، أي:" ونصركم أيضاً يوم حنين بعد الهزيمة التي منيتم بها بسبب اغتراركم بالكثرة"[٤].

قوله تعالى:{إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا} [التوبة : ٢٥]، أي:" فغرَّتكم الكثرة فلم تنفعكم"[٥].

قوله تعالى:{وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ} [التوبة : ٢٥]، أي:" وظهر عليكم العدو فلم تجدوا ملجأً في الأرض الواسعة"[٦].

قوله تعالى:{ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ} [التوبة : ٢٥]، أي:" ففررتم منهزمين"[٧].

قال ابن كثير:" قد كانت وقعة : «حُنين»[٨] بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة ، وذلك لما فرغ عليه السلام من فتح مكة ، وتمهدت أمورها ، وأسلم عامة أهلها ، وأطلقهم رسول الله ﷺ ، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه ، وأن أميرهم مالك بن عوف النَّضْري ، ومعه ثقيف بكمالها ، وبنو جُشم وبنو سعد بن بكر ، وأوزاع من بني هلال ، وهم قليل ، وناس من بني عمرو بن عامر ، وعوف بن عامر ، وقد أقبلوا معهم النساء والولدان والشاء والنَّعم ، وجاءوا بقَضِّهم وقَضِيضهم فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح ، وهو

قلت: وله علة أخرى، وهي عنعنة ابن أبي كثير، فقد كان يدلس كما في " التقريب " وغيره.

[١] التفسير الميسر:١٩٠.

[٢] تفسير ابن كثير:١٢٥/٤.

[٣] سنن ابن ماجه برقم (٢٨٢٧) وسنن البيهقي الكبرى (٢٦٣/٩) من طريق أبي سلمة العاملي عن الزهري عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لأكثم بن الجون ، فذكر نحو حديث ابن عباس. وقال البوصيري في الزوائد (٤١٢/٢) : "هذا إسناد ضعيف ؛ لضعف أبي سلمة العاملي الأزدي وعبد الملك بن محمد الصنعاني".

[٤] صفوة التفاسير:٤٩٢/١.

[٥] التفسير الميسر:١٩٠.

[٦] التفسير الميسر:١٩٠.

[٧] التفسير الميسر:١٩٠.

[٨] اسم واد بشرقي مكة معروف قاتل فيه صلي الله عليه وسلم هوازن.

عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة ، وهم الطلقاء في ألفين أيضا ، فسار بهم إلى العدو ، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له "حنين" ، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح ، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن ، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم ورشقوا بالنبال ، وأصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد ، كما أمرهم ملكهم. فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين ، كما قال الله ، عز وجل وثبت رسول الله ﷺ ، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو ، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر ، يثقلانها لئلا تسرع السير ، وهو ينوه باسمه ، عليه الصلاة والسلام ، ويدعو المسلمين إلى الرجعة، ويقول: " أين يا عباد الله ؟ إليَّ أنا رسول الله" ، ويقول في تلك الحال :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ، ومنهم من قال : ثمانون ، فمنهم : أبو بكر ، وعمر ، رضي الله عنهما ، والعباس وعلي ، والفضل بن عباس ، وأبو سفيان بن الحارث ، وأيمن بن أم أيمن ، وأسامة بن زيد ، وغيرهم ، رضي الله عنهم ثم أمر ﷺ عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادي بأعلى صوته : يا أصحاب الشجرة - يعني شجرة بيعة الرضوان ، التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها ، على ألا يفروا عنه - فجعل ينادي بهم : يا أصحاب السمرة ويقول تارة : يا أصحاب سورة البقرة ، فجعلوا يقولون : يا لبيك ، يا لبيك ، وانعطف الناس فجعلوا يتراجعوا إلى رسول الله ﷺ ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع ، لبس درعه ، ثم انحدر عنه ، وأرسله ، ورجع بنفسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما رجعت شرذمة منهم ، أمرهم عليه السلام أن يصدقوا الحملة ، وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره ، وقال : "اللهم أنجز لي ما وعدتني" ثم رمى القوم بها ، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال ، ثم انهزموا ، فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون ، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجدلة بين يدي رسول الله ﷺ"[١].

روي عن أبي عبد الرحمن الفهري - واسمه يزيد بن أسيد ، ويقال : يزيد بن أنيس ، ويقال : كُرْز - قال : "كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة حنين ، فسرنا في يوم قائظ شديد الحر ، فنزلنا تحت ظلال الشجر ، فلما زالت الشمس لبست لأمتي وركبت فرسي ، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو في فسطاطه ، فقلت : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ، حان الرواح ؟ فقال : "أجل". فقال : "يا بلال" فثار من تحت سمرة كأن ظله ظل طائر ، فقال : لبيك وسعديك ، وأنا فداؤك، فقال : "أسرج لي فرسي". فأخرج سرجا دفتاه من ليف ، ليس فيهما أشرٌ ولا بَطَر. قال : فأسرج ، فركب وركبنا ، فصافقناهم عشيتنا وليلتنا ، فتشامت الخيلان ، فولى المسلمون مدبرين ، كما قال الله ، عز وجل : {ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ}، فقال رسول الله ﷺ : "يا عباد الله ، أنا عبد الله ورسوله" ، ثم قال : " يا معشر المهاجرين ، أنا عبد الله ورسوله". قال : ثم اقتحم رسول الله ﷺ عن فرسه فأخذ كفا من تراب ، فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني : أنه ضرب به وجوههم ، وقال : "شاهت الوجوه". فهزمهم الله عز وجل. قال يعلى بن عطاء : فحدثني أبناؤهم ، عن آبائهم ، أنهم قالوا : لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه ترابا ، وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض ، كإمرار الحديد على الطست الجديد"[٢].

عن البراء بن عازب ، رضي الله عنهما ، أنه قال له رجل : "يا أبا عمارة ، أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ، فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفرّ ، إن هوازن كانوا قوما رُمَاة ، فلما لقيناهم وحَمَلنا عليهم انهزموا ، فأقبل الناس على الغنائم ، فاستقبلونا بالسهام ، فانهزم الناس ،

---

[١] تفسير ابن كثير:٤/١٢٥-١٣٦.

[٢] المسند (٥/٢٨٦) ودلائل النبوة (٥/١٤١).

فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ البيضاء ، وهو يقول :

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب"[1]

قال ابن كثير:" وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة ، إنه في مثل هذا اليوم في حَومة الوَغَى ، وقد انكشف عنه جيشه ، هو مع ذلك على بغلة وليست سريعة الجري ، ولا تصلح لكرّ ولا لفرّ ولا لهرب ، وهو مع هذا أيضًا يركضها إلى وجوههم وينوّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه ، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين ، وما هذا كله إلا ثقة بالله ، وتوكلا عليه ، وعلمًا منه بأنه سينصره ، ويتم ما أرسله به ، ويظهر دينه على سائر الأديان ؛ ولهذا قال تعالى : {ثُمَّ أَنزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ}، أي : طمأنينته وثباته على رسوله، {وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ} أي : الذين معه ، {وَأَنزلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا}، وهم الملائكة ، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير : ....عن عوف - هو ابن أبي جميلة الأعرابي - قال : سمعت عبد الرحمن مولى ابن بُرْثُن ، حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال : «لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حَلَب شاة - قال : فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم ، حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء ، فإذا هو رسول الله ﷺ - قال : فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه ، فقالوا لنا : شاهت الوجوه ، ارجعوا. قال : فانهزمنا ، وركبوا أكتافنا ، فكانت إياها»[2].

قال ابن مسعود ، رضي الله عنه : "كنت مع رسول الله ﷺ يوم حُنين ، فولى عنه الناس ، وبقيتُ معه في ثمانين رجلا من المهاجرين والأنصار ، قدمنا ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة. قال : ورسول الله ﷺ على بغلته يمضي قُدُما ، فحادَت بغلته ، فمال عن السرج ، فقلت : ارتفع رفعك الله. قال : "ناولني كفًا من التراب". فناولته ، قال : فضرب به وجوههم ، فامتلأت أعينهم ترابًا ، قال : "أين المهاجرون والأنصار ؟" قلت : هم هناك. قال : "اهتف بهم". فهتفت بهم ، فجاءوا وسيوفهم بأيمانهم ، كأنها الشهب ، وولى المشركون أدبارهم"[3]"[4].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: حرمة العجب بالنفس والعمل إذ هو أي العجب من العوائق الكبيرة عن النجاح.

٢- ومنها: صدق الاعتماد: أن تعتمد على الله اعتمادا صادقا، بحيث لا تسأل إلا الله، ولا تستعين إلا بالله، ولا ترجو إلا الله، ولا تخاف إلا الله، تعتمد على الله عز وجل بجلب المنافع ودفع المضار، ولا يكفي هذا الاعتماد دون الثقة به مع فعل السبب الذي أذن به، بحيث إنك واثق بدون تردد مع فعل السبب الذي أذن فيه.

٣- أنه من لم يعتمد على الله واعتمد على قوته، فإنه يخذل، ودليل ذلك ما وقع للصحابة مع نبيهم محمد ﷺ في غزوة حنين.

٤- أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للنصر على الأعداء، فإن الأمة لا تنتصر بعدد ولا عدة، وإنما تنتصر بهذا الدين، قال تعالى:{ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ} [التوبة: ٢٥] وقال: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج: ٤٠ - ٤١]. ولذا كانت مخالفة أمر رسول الله ﷺ وإرادة الدنيا من البعض سبب لوقوع الهزيمة في أحد، قال تعالى:{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم

---

[1] صحيح البخاري برقم (٢٨٦٤) ، وصحيح مسلم برقم (١٧٧٦).

[2] أخرجه الطبري(١٦٥٨٢):ص١٨٦/١٤.

[3] دلائل النبوة (١٤٢/٥) والمسند (٤٥٤/١).

[4] تفسير ابن كثير:١٢٨/٤-١٢٩.

مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [آل عمران: ١٦٥] وقال: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠].
٥- بيان إفضال الله تعالى وإكرامه لعباده المؤمنين

القرآن
{ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)} [التوبة : ٢٦]

التفسير:
ثم أنزل الله الطمأنينة على رسوله وعلى المؤمنين فثبتوا، وأمدَّهم بجنود من الملائكة لم يروها، فنصرهم على عدوهم، وعذَّب الذين كفروا. وتلك عقوبة الله للصادِّين عن دينه، المكذِّبين لرسوله.

قوله تعالى:{ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [التوبة : ٢٦]، أي:" ثم أنزل الله الطمأنينة على رسوله وعلى المؤمنين فثبتوا"[١].

وفي السكينة ثلاثة أقاويل :
أحدها : أنها الرحمة ، قاله علي بن عيسى[٢].
والثاني : أنها الأمن والطمأنينة[٣].
والثالث : أنها الوقار ، قاله الحسن[٤].

قوله تعالى:{وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا} [التوبة : ٢٦]، أي:" وأمدَّهم بجنود من الملائكة لم يروها فنصرهم على عدوهم"[٥].

وفي قوله تعالى:{وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا} [التوبة : ٢٦]، وجهان[٦]:
أحدهما : الملائكة .
والثاني : أنه تكثيرهم في أعين أعدائهم ، وهو محتمل .

قوله تعالى:{وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [التوبة : ٢٦]، أي:" وعذب الله الذين جحدوا وحدانيّته ورسالةَ رسوله محمدٍ ﷺ"[٧].

قال الطبري:"يقول: وعذب الله الذين جحدوا وحدانيّته ورسالةَ رسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم، بالقتل وسَبْي الأهلين والذراريّ، وسلب الأموال والذلة"[٨].

قوله تعالى:{وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} [التوبة : ٢٦]، أي:" وتلك عقوبة الله للصادِّين عن دينه، المكذِّبين لرسوله"[٩].

قال الطبري:" يقول: هذا الذي فعلنا بهم من القتل والسبي، هو ثواب أهل جحود وحدانيته ورسالة رسوله"[١٠].

عن السدي: "{وعذب الذين كفروا} ، يقول: قتلهم بالسيف"[١١].
عن سعيد: "{وعذب الذين كفروا} ، قال: بالهزيمة والقتل"[١٢].

---

[١]التفسير الميسر:١٩٠.
[٢] انظر: النكت والعيون:٣٤٩/٢.
[٣] انظر: النكت والعيون:٣٤٩/٢.
[٤] انظر: النكت والعيون:٣٤٩/٢.
[٥]التفسير الميسر:١٩٠.
[٦] انظر: النكت والعيون:٣٥٠/٢.
[٧] تفسير الطبري:١٨٩/١٤.
[٨] تفسير الطبري:١٨٩/١٤.
[٩]التفسير الميسر:١٩٠.
[١٠] تفسير الطبري:١٨٩/١٤.
[١١] أخرجه الطبري(١٦٥٨٨):ص١٨٩/١٤.
[١٢] أخرجه الطبري(١٦٥٨٩):ص١٨٩/١٤.

عن ابن زيد في قوله: "{وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين} ، قال: من بَقي منهم"[١].

الفوائد:

١- أن السكينة في قوله تعالى: {ثُمَّ أَنَزلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ }، هي سكينة مشتركة بين الرسول ﷺ والمؤمنين، سكن بها ما عرض له ﷺ من تأثير هزيمتهم، وسكن ما عرض لهم من اضطراب جمهور المسلمين بهزيمتهم حين ولوا مدبرين، وثبت رسول الله ﷺ في وجوه الكفار مع عدد قليل صار يكثر بعلمهم بموقفه.

٢- من فوائد الآية الكريمة: أن السكينة طمأنينة في القلب غير علم القلب وتصديقه؛ ولهذا قال يوم حُنَيْنٍ: {ثُمَّ أَنَزلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا} [التوبة: ٢٦] ، وقال تعالى: {ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا} [التوبة: ٤٠] ، ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار، وإنما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو، فلما أنزل السكينة في قلوبهم، مرجعهم من الحديبية، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، دل على أن الإيمان المزيد حال للقلب وصفة له، وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه، واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينة، كما يكون بالعلم، والريب المنافي لليقين يكون ريباً في العلم، وريباً في طمأنينة القلب.

ولهذا جاء في الدعاء المأثور: " اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا"[٢].

وفي حديث الصديق -رضي الله عنه- قال: قام رسول الله ﷺ مقامي فيكم، فقال: «نسأل الله العافية واليقين، فإنه لم تعط أمتي في الدنيا شيئا خيرا من العافية، ولا في الآخرة شيئا خيرا من اليقين»[٣].

فاليقين عند المصائب بعد العلم بأن الله قدرها سكينة القلب وطمأنينته وتسليمه، وهذا من تمام الإيمان بالقدر خيره وشره، كما قال تعالى: {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن: ١١][٤].

٣- ومن الفوائد: تأييد الله للرسول-ﷺ- بالملائكة: إذ أَيَّد الله رسوله بالملائكة في عدة مواضع، نُصرةً له ولدينه، منها على سبيل المثال:

أ- في الهجرة، قال المولى جل وعلا: {فَأَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا}[التوبة:٤٠].

ب- في بدر، قال الله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ}[الأنفال:٩].

---

[١] أخرجه الطبري(١٦٥٩٠):ص١٤/١٨٩.

[٢]أخرجه ابن المبارك فى الزهد (١٤٤/١، رقم ٤٣١) ، والترمذى (٥٢٨/٥، رقم ٣٥٠٢) وقال: حسن غريب. غريب. والحاكم (٧٠٩/١، رقم ١٩٣٤) وقال: صحيح على شرط البخارى. وأخرجه أيضًا: النسائى فى الكبرى (١٠٦/٦، رقم ١٠٢٣٤) ، والديلمى (٤٨٥/١، رقم ١٩٨١) . قال المناوى (١٣٣/٢) : فيه عبيد الله بن زحر ضعفوه، قال فى المنار: فالحديث لأجله حسن لا صحيح.

ومن غريب الحديث: "واجعله الوارث منى": أى سمعى وبصرى وقوتى أبقيها صحيحة سليمة واجعلها تلازمنى عند الموت لزوم الوارث لمورثه.

[٣] معجم المقرئ(٢٨):ص٤٠، ورواه ابن ابي شيبة في مصنفه(٢٩١٨٢)، (٢٩١٨٣):ص٦/٢٣، مختصرا.

[٤] انظر: الإيمان لابن تيمية:١٨١-١٨٢.

ت- في أُحدٍ، قاتل جبريل وميكائيل عليهما السلام عن يمين النبي - ﷺ - ويساره[١].
ث- في الخندق قال الله - عز وجل -: {إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا}[الأحزاب:٩].
ج- في غزوة بني قُرَيْظَةَ: جاء جبريل إلى النبي - ﷺ - بعد أن وضع السلاح من غزوة الخندق واغتسل، فقال له جبريل: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه فاخرج إليهم، فسأله النبي - ﷺ -: "إلى أين"؟ فأشار إلى بني قريظة، فخرج - ﷺ -، ونصره الله عليهم[٢].
ح- في حنين، قال الله - سبحانه وتعالى -: {ثُمَّ أَنَزلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ}[التوبة:٢٦].

القرآن

{ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧)} [التوبة : ٢٧]

التفسير:

ومن رجع عن كفره بعد ذلك ودخل الإسلام فإن الله يقبل توبة مَن يشاء منهم، فيغفر ذنبه. والله غفور رحيم.

قوله تعالى:{ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ} [التوبة : ٢٧]، أي:" ومن رجع عن كفره بعد ذلك ودخل الإسلام فإن الله يقبل توبة مَن يشاء منهم، فيغفر ذنبه"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ثم يتفضل الله بتوفيقه للتوبة والإنابة إليه، من بعد عذابه الذي به عذَّب من هلك منهم قتلا بالسيف{على من يشاء}، أي: يتوب الله على من يشاء من الأحياء، يُقْبِل به إلى طاعته"[٤].

عن سعيد بن جبير في قوله: "{يتوب الله}، يعني: يتجاوز"[٥].

عن ابن أبزى :{ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء}، قال: على الذين انهزموا عن النبي ﷺ يوم حنين"[٦].

قال ابن كثير:" قد تاب الله على بقية هوازن ، وأسلموا وقدموا عليه مسلمين ، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجِعِرَّانة ، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوما ، فعند ذلك خَيَّرهم بين سبيهم وبين أموالهم ، فاختاروا سبيهم ، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة ، فرده عليهم ، وقسم أموالهم بين الغانمين ، ونفل أناسا من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام ، فأعطاهم مائةً مائةً من الإبل ، وكان من جملة من أعطي مائة مالك بن عوف النَّضْري ، واستعمله على قومه كما كان ، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها :

ما إنْ رَأيتُ ولا سَمعتُ بمثْلِه ... في النَّاس كُلّهم بمثل مُحَمَّد
أوْفَى وأعْطَى للجزيل إذا اجتُدى ... ومَتى تَشَأ يُخْبِرْكَ عَمّا في غَد
وإذَا الكتيبة عَرّدَتْ أنيابُها ... بالسَّمْهَرِيّ وَضَرْب كُلّ مُهَنَّد
فَكَأنَّه ليث على أشْبَاله ... وسط الهَبَاءة خَادر في مَرْصَد"[٧]

---

[١]أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: إذ همت طائفتان، برقم ٤٠٤٥، ومسلم في كتاب الفضائل، باب قتال جبريل وميكائيل عن النبي - ﷺ - يوم أحد، برقم ٢٣٠٦.

[٢]أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب مرجع النبي - ﷺ - من الأحزاب، ٤١١٧، ومسلم في كتاب الجهاد، باب جواز قتال من نقض العهد، برقم ١٧٦٩.

[٣]التفسير الميسر:١٩١.

[٤] تفسير الطبري:١٩٠/١٤.

[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٠٦):ص١٧٧٥/٦.

[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٠٥):ص١٧٧٥/٦.

[٧] تفسير ابن كثير:١٣٠/٤.

قوله تعالى:{وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة : ٢٧]، أي:" والله عظيم المغفرة واسع الرحمة"[١].

قال الطبري:" {والله غفور}، لذنوب من أناب وتاب إليه منهم ومن غيرهم منها، {رحيم} بهم، فلا يعذبهم بعد توبتهم، ولا يؤاخذهم بها بعد إنابتهم"[٢].

قال محمد بن إسحاق: "{والله غفور}، أي: يغفر الذنب، {رحيم}، يرحم العباد على ما فيهم"[٣].

الفوائد:

١- من فائد الآية الكريمة: بيان الحكمة من القتال في سبيل الله تعالى.

٢- -ومنها: إثبات هذين الاسمين الكريمين: «الغفور»، و«الرحيم»؛ وما تضمناه من صفة، وفعل.

- فـ«الغفور»: هو الذي تكثر منه المغفرة. وبناء فعول: بناء المبالغة في الكثرة[٤].

والفرق بين صيغتي:«الغفار»، و«الغفور»: أن "«الغفار»[٥]، معناه: الستار لذنوب عباده في الدنيا بأن لا يهتكهم ولا يشيدهما عليهم، ويكون معنى «الغفور»: منصرفا إلى مغفرة الذنوب في الآخرة، والتجاوز عن العقوبة فيها"[٦].

- و«الرحيم»:أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء [٧].

قال الشيخ ابن عثيمين:"«الرحيم»:أي الموصل للرحمة من يشاء من عباده"[٨]، عباده"[٨]، وهو "صيغة مبالغة، أو صفة مشبهة من الرحمة؛ والرحمة صفة من صفات الله سبحانه وتعالى الذاتية الفعلية؛ فهي باعتبار أصل ثبوتها لله صفة ذاتية؛ وباعتبار تجدد من يرحمه الله صفة فعلية؛ ولهذا علقها الله سبحانه وتعالى بالمشيئة في قوله تعالى: {يعذب من يشاء ويرحم من يشاء} [العنكبوت: ٢١]، فهي صفة حقيقية ثابتة لله عز وجل، وأهل التأويل -والأصح أن نسميهم أهل التحريف- يقولون: إن الرحمة غير حقيقية؛ وأن المرادبرحمة الله إحسانه؛ أو إرادة الإحسان؛ فيفسرونها إما بالإرادة؛ وإما بالفعل؛ وهذا لا شك أنه خطأ؛ وحجتهم: أنهم يقولون: إن الرحمة رقة، ولين؛ والرقة، واللين لا تناسبان عظمة الخالق سبحانه وتعالى؛ فنقول لهم: إن هذه الرحمة رحمة المخلوق؛ أما رحمة الخالق فإنها تليق به سبحانه وتعالى؛ ولا تتضمن نقصاً؛ فهو ذو رحمة بالغة، وسلطان تام؛ فلا يرد بأسه عن القوم المجرمين"[٩].

٣- ومنها: إثبات ما ذكره أهل السنة والجماعة من أن أسماء الله سبحانه وتعالى المتعدية يستفاد منها ثبوت تلك الأحكام المأخوذة منها؛ فالأسماء المتعدية تتضمن الاسم، والصفة، والأثر - الذي هو الحكم المترتب عليه -؛ والعلماء يأخذون من مثل هذه الآية

---

[١] صفوة التفاسير:٤٩٢/١.

[٢] تفسير الطبري:١٩٠/١٤.

[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٠٧):ص١٧٧٥/٦.

[٤] انظر: شأن الدعاء:٦٥/١.

[٥]قال الخطابي:" الغفار: هو الذي يغفر ذنوب عباده مرة بعد أخرى. كلما تكررت التوبة في الذنب من العبد تكررت المغفرة. كقوله -سبحانه-: {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} [طه:٨٢].

وأصل الغفر في اللغة: الستر والتغطية، ومنه قيل لجنة الرأس: المغفر، وبه سمي زئبر الثوب غفرا وذلك لأنه يستر سداه؛ فالغفار: الستار لذنوب عباده، والمسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته. ومعنى الستر في هذا أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهره فيعيونهم ويقال: إن المغفرة مأخوذة من الغفر: وهو فيما حكاه بعض أهل اللغة نبت يداوى به الجراح، يقال إنه إذا ذر عليها دملها وأبراها". [شأن الدعاء:٥٢/١-٥٣، وانظر: اللسان وتاج العروس، مادة"غفر"].

[٦] شأن الدعاء:٦٥/١.

[٧] انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٨٨/١، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.

[٨] تفسير ابن عثيمين الفاتحة والبقرة:٥/١.

[٩] تفسير ابن عثيمين:الفاتحة والبقرة:٢٥٢/٢-٢٥٣.

ثبوت الأثر - وهو الحكم -؛ لأنه لكونه غفوراً رحيماً غفر لمن تاب من المحاربين قبل التمكن منه فيعفو عنه، فيكون في هذا دليل واضح على أن أسماء الله عز وجل تدل على «الذات» الذي هو المسمى؛ و «الصفة» ؛ و «الحكم» ، كما قال بذلك أهل العلم - رحمهم الله -[1].

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)} [التوبة : ٢٨]

التفسير:

يا معشر المؤمنين إنما المشركون رِجْس وخَبَث فلا تمكنوهم من الاقتراب من الحرم بعد هذا العام التاسع من الهجرة، وإن خفتم فقرًا لانقطاع غارتهم عنكم، فإن الله سيعوضكم عنها، ويكفيكم من فضله إن شاء، إن الله عليم بحالكم، حكيم في تدبير شؤونكم.

سبب النزول:

قال ابن عباس:" كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام يتجرون به، فلما نهوا عن أن يأتوا البيت قال المسلمون: فيمن أين لنا الطعام؟ قال: فأنزل الله عز وجل {وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ}، قال: فأنزل الله عليهم المطر وكثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم"[2].

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [التوبة : ٢٨]، أي:" يا معشر المؤمنين"[3].

قوله تعالى:{إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ} [التوبة : ٢٨]، أي:" إنما المشركون رِجْس وخَبَث"[4].

عن ابن عباس في قوله: "{إنما المشركون نجس}، قال: النجس: الكلب والخنزير"[5].

عن قتادة قوله: "{إنما المشركون نجس}، أي: أجناب"[6].

وقد أخبر عنهم بالمصدر للمبالغة كأنهم «عين النجاسة»، أو المراد: «ذو نجس» لخبث بواطنهم وفساد عقائدهم؛ أو لأن معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس؛ ويجوز أن يكون «نجس» صفة مشبهة.

قال الزمخشري:" «النجس»: مصدر، يقال: نجس نجسا، وقذر. قذرا. ومعناه ذو ونجس، لأن معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم. أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها، مبالغة في وصفهم بها، وعن ابن عباس رضى الله عنه: «أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير». وعن الحسن: «من صافح مشركا توضأ». وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين"[7].

قال أبو حيان:" وفي التحرير: وبالغ الحسن حتى قال: إن الوضوء يجب من مس المشرك، ولم يأخذ أحد بقول الحسن إلا الهادي من الزيدية. وقال قتادة، ومعمر بن راشد وغيرهما: وصف المشرك بالنجاسة لأنه جنب، إذ غسله من الجنابة ليس بغسل، وعلى هذا القول يجب الغسل على من أسلم من المشركين، وهو مذهب مالك. وقال ابن عبد الحكم: لا يجب، ولا شك أنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات، فجعلوا نجسا مبالغة في وصفهم بالنجاسة...والجمهور على أن المشرك من اتخذ مع الله إلها آخر، وعلى أن أهل الكتاب

---

(١) انظر: تسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:٢٥٩/٢.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٢٠):ص١٧٧٧/٦.
(٣) التفسير الميسر:١٩١.
(٤) التفسير الميسر:١٩١.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٠٨):ص١٧٧٥/٦.
(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٠٩):ص١٧٧٥/٦.
(٧) الكشاف:٢٦١/٢.

ليسوا بمشركين. ومن العلماء من أطلق عليهم اسم الإشراك لقوله: إن الله لا يغفر أن يشرك به {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} [النساء : ٤٨، ١١٦]، أي: يكفر به"[١].

وقرئ: «نجس»، بكسر النون وسكون الجيم، على تقدير حذف الموصوف، كأنه قيل، إنما المشركون جنس نجس، أو ضرب نجس[٢].

قوله تعالى:{فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا} [التوبة : ٢٨]، أي:" فلا تمكنوهم من الاقتراب من الحرم بعد هذا العام التاسع من الهجرة"[٣].

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل المسجد الحرام بعد عامي هذا أبدا، إلا أهل العهد وخدمكم»[٤].

وعن جابر بن عبد الله في قوله: "{إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا}، إلا أن يكون عبدا، أو أحدا من أهل الذمة"[٥].

عن ابن جريج :"تلا هذه الآية :{فلا يقربوا المسجد الحرام}، قال عمرو بن دينار: لا تدخلوا المسجد الحرام"[٦].

عن ابن المسيب قال: "قال الله تعالى: {إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام}، قال: كان أبو سفيان يدخل مسجد المدينة وهو كافر، غير أن ذلك لا يحل في المسجد الحرام"[٧]. الحرام"[٧].

عن ابن شهاب وسئل عن المشركين فقال: "ليس للمشرك أن يقرب المسجد الحرام بعد عامهم هذا، فكان ولاة الأمر لا يرخصون للمشركين في دخول مكة"[٨].

عن ابن عباس قال: "الحرم كله المسجد الحرام"[٩].

عن سعيد بن جبير: "الحرم كله مسجد"[١٠]. وروي عن مجاهد مثله[١١].

قال عطاء: "لا يدخل الحرم كله مشرك، وتلا :{بعد عامهم هذا}"[١٢].

عن قتادة قوله: "{بعد عامهم هذا}، وهو العام الذي حج فيه أبو بكر رضي الله عنه، ونادى علي فيه بالأذان وذلك لتسع مضين من هجرة رسول الله ﷺ وحج رسول الله صلى الله عليه وسلم من العام المقبل حجة الوداع، لم يحج قبلها ولا بعدها منذ هاجر"[١٣].

قال الزمخشري:يعني: " فلا يحجوا ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهلية بعد عامهم هذا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسع من الهجرة حين أمر أبو بكر على الموسم، وهو مذهب أبى حنيفة وأصحابه، ويدل عليه قول على كرم الله وجهه حين نادى ببراءة: ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك. ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندهم. وعند الشافعي: يمنعون من المسجد الحرام خاصة. وعند مالك: يمنعون منه ومن غيره من المساجد. وعن عطاء رضى الله عنه أن المراد بالمسجد الحرام: الحرم، وأن على المسلمين أن

---

[١] البحر المحيط:٣٩٧/٥-٣٩٨.
[٢] انظر: الكشاف:٢٦١/٢.
[٣] التفسير الميسر:١٩١.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠١٠):ص١٧٧٥/٦.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠١١):ص١٧٧٥/٦.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠١٢):ص١٧٧٦/٦.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠١٣):ص١٧٧٦/٦.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠١٤):ص١٧٧٦/٦.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠١٥):ص١٧٧٦/٦.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠١٦):ص١٧٧٦/٦.
[١١] انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٧٧٦/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠١٧):ص١٧٧٦/٦.
[١٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠١٨):ص١٧٧٦/٦.

لا يمكنوهم من دخوله، ونهى المشركين أن يقربوه راجع إلى نهى المسلمين عن تمكينهم منه[١] وقيل المراد أن يمنعوا من تولى المسجد الحرام والقيام بمصالحه ويعزلوا عن ذلك"[٢].

قوله تعالى:{وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً} [التوبة : ٢٨]، أي:" وإن خفتم فقرًا لانقطاع غارتهم عنكم"[٣].

قال عكرمة:" يعني بالعيلة: الفاقة"[٤]. وروي عن سعيد بن جبير والضحاك. نحو ذلك[٥].

قال الزمخشري:" أي: فقرا بسبب منع المشركين من الحج وما كان لكم في قدومهم عليكم من الأرفاق والمكاسب"[٦].

قوله تعالى:{فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ} [التوبة : ٢٨]، أي:" فإن الله سيعوضكم عنها، ويكفيكم من فضله إن شاء"[٧].

قال ابن عباس:" : فأنزل الله عليهم المطر وكثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم"[٨].

عنهم"[٨].

عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: قوله: "{فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء}، قال: المؤمنون: كنا نصيب من متاجر المشركين فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله عوضا لهم بأن لا يقربوهم المسجد الحرام، فهذه الآية في أول براءة في القراءة مع آخرها في التأويل"[٩].

وروي عن سعيد بن جبير :{فسوف يغنيكم الله من فضله}، قال: بالجزية"[١٠]. وروي عن الضحاك. مثله[١١].

عن قتادة قوله:"{فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء}، فأغناهم الله بهذا الخراج الجزية الجارية عليهم يأخذونها شهرا شهرا وعاما عاما، فليس لأحد من المشركين أن يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم ذلك، إلا صاحب جزية، أو عبد رجل من المسلمين"[١٢].

قال الزمخشري:أي:" من عطائه أو من تفضله بوجه آخر، فأرسل السماء عليهم مدرارا، فأغزر بها خيرهم وأكثر ميرهم[١٣]، وأسلم أهل تبالة وجرش فحملوا إلى مكة الطعام وما يعاش به، فكان ذلك أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته وعن ابن عباس رضى الله عنه: «ألقى الشيطان في قلوبهم الخوف وقال: من أين تأكلون؟ فأمرهم الله بقتال أهل الكتاب وأغناهم

---

(١) ذكر المحقق:" قال محمود: «هذا النهى راجع إلى نهى المسلمين عن تمكينهم منه» قال أحمد: وقد يستدل به من يقول: إن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، وخصوصا بالمناهى، فان ظاهر الآية توجه النهى إلى المشركين، إلا أنه بعيد، لأن المعلوم من المشركين أنهم لا ينزجرون بهذا النهى، والمقصود تطهير المسجد الحرام بابعادهم عنه، فلا يحصل هذا المقصود إلا بنهي المسلمين عن تمكينهم من قربانه، ويرشد إلى أن المخاطب في الحقيقة المسلمين، تصدير الكلام بخطابهم في قوله يا أيها الذين آمنوا وتضمينه نصا بخطابهم بقوله وإن خفتم عيلة وكثيرا ما يتوجه النهى على من المراد خلافه، وعلى ما المراد خلافه إذا كانت ثم ملازمة، كقوله: لا أرينك هاهنا، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، والله أعلم".

(٢) الكشاف:٢٦١/٢.

(٣) التفسير الميسر:١٩١.

(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠١٩):ص١٧٧٧/٦.

(٥) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٧٧٧/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.

(٦) الكشاف:٢٦١/٢.

(٧) التفسير الميسر:١٩١.

(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٢٠):ص١٧٧٧/٦.

(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٢١):ص١٧٧٧/٦.

(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٢٤):ص١٧٧٧/٦.

(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٧٧٧/٦. حكاه دون ذكر الإسناد

(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٢٢):ص١٧٧٧/٦.

(١٣)قوله «وأكثر ميرهم ... الخ» المير: إطعام الطعام. ويقال: بلد باليمن. وجرش: موضع منه أيضا، أفاده الصحاح.

بالجزية». وقيل: بفتح البلاد والغنائم. وقرئ: عائلة، بمعنى المصدر كالعافية، أو حالا عائلة. ومعنى قوله إن شاء الله. إن أوجبت الحكمة إغناءكم وكان مصلحة لكم في دينكم"[١].

وقرئ: «عائلة»، بمعنى المصدر كالعافية، أو حالا عائلة[٢].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة : ٢٨]، أي:" إن الله عليم بحالكم، حكيم في تدبير شؤونكم"[٣].

قال ابن كثير:" { إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ } أي : بما يصلحكم ، { حَكِيم } أي : فيما يأمر به وينهى عنه ؛ لأنه الكامل في أفعاله وأقواله ، العادل في خلقه وأمره ، تبارك وتعالى ؛ ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة"[٤].

قال الزمخشري:" {إن الله عليم} بأحوالكم، {حكيم} لا يعطى ولا يمنع إلا عن حكمة وصواب"[٥].

الفوائد:

١- تقرير نجاسة الكافر المعنوية.

٢- منع دخول المشرك الحرم المكي كائنا من كان بخلاف باقي المساجد فقد يؤذن للكافر لمصلحة أن يدخل بإذن المسلمين.

٣- لا يمنع المؤمن من امتثال أمر ربه الخوف من الفاقة والفقر فإن الله تعالى تعهد بالإغناء إن شاء.

٤- إثبات اسمين من اسمائه تعالى، وهما:«العليم»، و«الحكيم»:

- فـ«العليم»، والْعِلْمُ صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجلَّ، ،فهو سبحانه «العليم»المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[٦].

قال الخطابي:"«العليم»: هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق. كقوله تعالى: {إنه عليم بذات الصدور} [لقمان:٢٣]. وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم، ولذلك قال -سبحانه-: {وفوق كل ذي علم عليم} [يوسف:٧٦]. والآدميون -وإن كانوا يوصفون بالعلم- فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات، دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فيخلف علمهم الجهل، ويعقب ذكرهم النسيان، وقد نجد الواحد منهم عالما بالفقه غير عالم بالنحو وعالما بهما غير عالم بالحساب وبالطب ونحوهما من الأمور، وعلم الله -سبحانه- علم حقيقة، وكمال {قد أحاط بكل شيء علما} [الطلاق:١٢]، {وأحصى كل شيء عددا} [الجن: ٢٨]"[٧].

- و«الحكيم»: "هو المحكم لخلق الأشياء.قال تعالى:{آلر، تلك آيات الكتاب الحكيم} [يونس:١] وقال في موضع آخر: {كتاب أحكمت آياته} [هود: ١]، فدل على أن المراد بـ«الحكيم» هنا، الذي أحكمت آياته، صرف عن مفعل إلى فعيل، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها [٨].

القرآن

---

[١] الكشاف:٢/٢٦١.
[٢] انظر: الكشاف:٢/٢٦٢.
[٣] التفسير الميسر:١٩١.
[٤] تفسير ابن كثير:٤/١٣٢.
[٥] الكشاف:٢/٢٦١.
[٦] انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١/١٨٨.
[٧] شأن الدعاء:٥٧.
[٨] انظر: شأن الدعاء، للخطابي:٧٣-٧٤.

{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)} [التوبة : ٢٩]

التفسير:

أيها المسلمون قاتلوا الكفار الذين لا يؤمنون بالله، ولا يؤمنون بالبعث والجزاء، ولا يجتنبون ما نهى الله عنه ورسوله، ولا يلتزمون أحكام شريعة الإسلام من اليهود والنصارى، حتى يدفعوا الجزية التي تفرضونها عليهم بأيديهم خاضعين أذلاء.

قوله تعالى:{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ} [التوبة : ٢٩]، أي:" أيها المسلمون قاتلوا الكفار الذين لا يؤمنون بالله، ولا يؤمنون بالبعث والجزاء"[١].

عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: قوله: "{قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر}، حين أمر محمد ﷺ وأصحابه بغزوة تبوك"[٢].

عن ابن زيد:" قال الله تعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر}، قال: فلما فرغ رسول الله. ﷺ- من قتال من يليه من العرب أمره بجهاد أهل الكتاب قال: وجاهدهم أفضل الجهاد"[٣].

عن سعيد بن جبير :"{قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله}، يعني: الذين لا يصدقون بتوحيد الله"[٤].

فإن قيل: فأهل الكتاب قد آمنوا بالله واليوم الآخر فكيف قال ذلك فيهم؟

ففيه جوابان[٥]:

أحدهما : أن إقرارهم باليوم الآخر يوجب الإقرار بجميع حقوقه ، فكانوا بترك الإقرار بحقوقه كمن لا يقرّ به .

والثاني : أنه ذمّهم ذم من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر للكفر بنعمته ، وهم في الذم بالكفر كغيرهم .

قال ابن كثير:" قال ابن كثير:" فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ، ولا بما جاءوا به ، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه ، لا لأنه شرع الله ودينه ؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانا صحيحا لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ، صلوات الله عليه ، لأن جميع الأنبياء الأقدمين بشروا به ، وأمروا باتباعه ، فلما جاء وكفروا به ، وهو أشرف الرسل ، عُلِم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله ، بل لحظوظهم وأهوائهم ، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء ، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم ؛ ولهذا قال : { قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب ، بعد ما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجا ، فلما استقامت جزيرة العرب أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى ، وكان ذلك في سنة تسع ؛ ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم ، فَأَوْعَبوا معه ، واجتمع من المقاتلة نحو[من ثلاثين ألفا ، وتخلف بعضُ الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم ، وكان ذلك في عام جَدْب ، ووقت قَيْظ وحر ، وخرج ، عليه السلام ، يريد الشام لقتال الروم ، فبلغ تبوك ،

---

[١] التفسير الميسر:١٩١.

[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٢٥):ص١٧٧٨/٦.

[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٢٦):ص١٧٧٨/٦.

[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٢٧):ص١٧٧٨/٦.

[٥] انظر: النكت والعيون:٣٥٠/٢.

فنزل بها وأقام على مائها قريبًا من عشرين يومًا ، ثم استخار الله في الرجوع ، فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس"[1].

قوله تعالى:{وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ} [التوبة : ٢٩]، أي:" ولا يجتنبون ما نهى الله عنه ورسوله"[2].

عن سعيد بن جبير :"{ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله}، يعني: الخمر والخنزير"[3].

وفي قوله تعالى:{وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ} [التوبة : ٢٩]، وجهان[4]:

أحدهما : أنه ما أمر الله سبحانه وتعالى بنسخه من شرائعهم .

والثاني : ما أحله لهم وحرمه عليهم .

قوله تعالى:{وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ} [التوبة : ٢٩]، أي:" ولا يلتزمون أحكام شريعة الإسلام"[5].

في المراد بدينه في هذا الموضع وجهان :

أحدهما : العمل بما في التوراة من اتباع الرسول ، قاله الكلبي[6].

والثاني : أن {دين الحق}، يعني: دين الإسلام، لأن كل دين غير الإسلام باطل، لأنه ناسخ لما سواه من الأديان، وهذا قول سعيد بن جبير[7]، وعمر بن عبدالعزيز[8]، وحكاه الماوردي عن الجمهور[9].

قوله تعالى:{مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} [التوبة : ٢٩]، أي:" من هؤلاء المنحرفين من اليهود والنصارى الذين نزلت عليهم التوراة والإنجيل"[10].

عن سعيد بن جبير :"{من الذين أوتوا الكتاب}، يعني: من اليهود والنصارى، أوتوا الكتاب من قبل المسلمين أمة محمد ﷺ"[11].

قال الصابوني:" هذا بيان للمذكورين"[12].

وفي قوله تعالى:{مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} [التوبة : ٢٩]، وجهان[13]:

أحدهما : يعني من آباء الذين أوتوا الكتاب .

الثاني : من الذين أوتوا الكتاب بين أظهرهم لأنه في اتباعه كآبائهم .

قوله تعالى:{حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة : ٢٩]، أي:" حتى يدفعوا الجزية التي تفرضونها عليهم بأيديهم خاضعين أذلاء"[14].

قال الطبري:" حتى يعطوا الخراجَ عن رقابهم، الذي يبذلونه للمسلمين دَفْعًا عنها، وهم أذلاء مقهورون"[15].

قال ابن كثير:" أي : إن لم يسلموا ، { عَنْ يَدٍ } أي : عن قهر لهم وغلبة ، { وَهُمْ صَاغِرُونَ } أي : ذليلون حقيرون مهانون. فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على

---

(١) تفسير ابن كثير:١٣٢/٤.
(٢) التفسير الميسر:١٩١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٢٨):ص١٧٧٨/٦.
(٤) انظر: النكت والعيون:٣٥٠/٢.
(٥) التفسير الميسر:١٩١.
(٦) انظر: النكت والعيون:٣٥١/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٠٢٩):ص١٧٧٨/٦.
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٧٧٨/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
(٩) انظر: النكت والعيون:٣٥١/٢.
(١٠) صفوة التفاسير:٤٩٣/١.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٣٠):ص١٧٧٨/٦.
(١٢) صفوة التفاسير:٤٩٣/١.
(١٣) انظر: النكت والعيون:٣٥١/٢.
(١٤) التفسير الميسر:١٩١.
(١٥) تفسير الطبري:١٩٩/١٤-٢٠٠.

المسلمين ، بل هم أذلاء صَغَرة أشقياء ، كما جاء في صحيح مسلم ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : «لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه»[1]، ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم ، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ ، من رواية عبد الرحمن بن غَنْم الأشعري قال : كتبت لعمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، حين صالح نصارى من أهل الشام:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا ، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديرًا ولا كنيسة ، ولا قِلاية ولا صَوْمَعة راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ، ولا نحيي منها ما كان خطط المسلمين ، وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار ، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل ، وأن ينزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ، ولا نأوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوسًا ، ولا نكتم غشًا للمسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شركا ، ولا ندعو إليه أحدًا ؛ ولا نمنع أحدًا من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه ، وأن نوقر المسلمين ، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم ، في قلنسوة ، ولا عمامة ، ولا نعلين ، ولا فرق شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ، ولا نكتني بكُنَاهم ، ولا نركب السروج ، ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئا من السلاح ، ولا نحمله معنا ، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية ، ولا نبيع الخمور ، وأن نجز مقاديم رءوسنا ، وأن نلزم زِينا حيثما كنا ، وأن نشد الزنانير على أوساطنا ، وألا نظهر الصليب على كنائسنا ، وألا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضربا خفيا ، وألا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعانين ولا باعوثًا ، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ، وأن نرشد المسلمين ، ولا نطلع عليهم في منازلهم. قال : فلما أتيت عمر بالكتاب ، زاد فيه : ولا نضرب أحدًا من المسلمين ، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا ، وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وَوَظَّفْنا على أنفسنا ، فلا ذمة لنا ، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق"[2].

وفي قوله تعالى:{حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ} [التوبة : ٢٩]، فبه وجهان من التفسير[3]:

أحدهما : حتى يضمنوا الجزية وهو قول الشافعي لأنه يرى أن الجزية تجب انقضاء الحول وتؤخذ معه .

والثاني : حتى يدفعوا الجزية .

وفي الجزية وجهان[4]:

أحدهما : أنها من الأسماء المجملة لا يوفق على علمها إلا بالبيان .

والثاني : أنها من الأسماء العامة التي يجب إجراؤها على عمومها إلا ما خص بالدليل .

وفي قوله تعالى:{عَنْ يَدٍ} [التوبة : ٢٩]، ستة أوجه من التفسير:

أحدها : عن غنى وقدرة . قاله أبو سنان[5].

والثاني : عن قهر. قاله قتادة[6].

---

[1] صحيح مسلم برقم (٢١٦٧).
[2] تفسير ابن كثير:١٣٣/٤-١٣٤.
[3] انظر: النكت والعيون:٢٥١/٢.
[4] انظر: النكت والعيون:٣٥١/٢.
[5] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٣٥):ص١٧٨٠/٦.
[6] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٣٦):ص١٧٨٠/٦.

والثالث :معناه: من يده ولا يبعث به مع غيره. قاله سفيان بن عيينة[١].

والرابع: أنها من عطاء لا يقابله جزاء، وهذا معنى قول أبي عبيدة[٢] .

قال أبو عبيدة:" كل من انطاع لقاهر بشىء أعطاه من غير طيب نفس به وقهر له من يد فى يد، فقد أعطاه عن يد"[٣].

والخامس: أن يروا أن لنا في أخذها منهم يداً عليهم بحقن دمائهم بها. ذكره الماوردي[٤].

والسادس: يؤدونها بأيديهم ولا ينفذونها مع رسلهم كما يفعله المتكبرون. ذكره الماوردي[٥].

وروي عبد الله بن عباس قال: "سئل رسول الله ﷺ عن الجزية عن يد، قال: جزية الأرض والرقبة، جزية الأرض والرقبة قال جعفر: أحسبه قال ثلاثا"[٦].

وفي قوله تعالى: { وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة : ٢٩]، خمسة أقوال:

أحدها : أن يكونوا قياماً والآخذ لها جالساً ، قاله عكرمة[٧].

عن سفيان عن أبي سعد قال: "بعث المغيرة إلى رستم فقال له رستم: إلام تدعو؟ فقال له: أدعوك إلى الإسلام، فإن أسلمت فلك ما لنا وعليك ما علينا، قال: فإن أبيت؟ قال: فتعطي الجزية عن يد وأنت صاغر، فقال لترجمانه: قل له أما إعطاء الجزية فقد عرفتها، فما قولك وأنت صاغر؟ قال: تعطيها وأنت قائم وأنا جالس، وقال غير أبي سعد: والسوط على رأسك"[٨].

رأسك"[٨].

والثاني : أن يمشوا بها وهم كارهون، قال الطبري:"وذلك قولٌ رُوي عن ابن عباس ، من وجهٍ فيه نظر"[٩].

والثالث : أن يكونوا أذلاء مقهورين ، قاله أيو عبيدة[١٠]، والطبري[١١].

عن سعيد بن جبير في قوله: "{حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون}، يعني: مذلون"[١٢].

وعن أبي البختري عن سلمان :"{حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرو}،ن قال: وهم غير محمودين"[١٣].

عن أبي صالح في قوله:"{حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون}، قال: لا يمشون بها، هم يتلتلون فيها"[١٤].

والرابع : أن دفعها هو الصَّغار بعينه. ذكره الطبري عن آخرين[١٥].

والخامس : أن الصغار أن تجري عليهم أحكام الإسلام ، قاله الشافعي[١٦].

عن أبي هريرة قال:" بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى، قال: ثم أنزل في الآية التي تتبعها الجزية ولم تكن تؤخذ قبل ذلك، فجعلها عوضا مما منعهم من موافاة المشركين

---

[١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٣٧):ص١٧٨٠/٦.

[٢] انظر: مجاز القرآن:٢٥٦/١.

[٣]مجاز القرآن:٢٥٦/١.

[٤] انظر: النكت والعيون:٣٥١/٢.

[٥] انظر: النكت والعيون:٣٥١/٢.

[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٣٤):ص١٧٧٩/٦.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٦٦١٨):ص٢٠٠/١٤-٢٠١.

[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٤٢):ص١٧٨١/٦.

[٩] تفسير الطبري:٢٠١/١٤.

[١٠] انظر: مجاز القرآن:٢٥٦/١.

[١١] انظر: تفسير الطبري:٢٠٠/١٤.

[١٢] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٤٠):ص١٧٨٠/٦.

[١٣] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٣٩):ص١٧٨٠/٦.

[١٤] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٤١):ص١٧٨٠/٦.

[١٥] انظر: تفسير الطبري:٢٠١/١٤.

[١٦] انظر: النكت والعيون:٣٥٢/٢.

بتجاراتهم فقال قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر إلى قوله: صاغرون فلما أحق الله ذلك للمسلمين عرفوا أنه قد عاضهم أفضل مما كانوا وجدوا عليه مما كان المشركون يوافون به من التجارة"[1].

عن ابن عباس قال: "من نساء أهل الكتاب من تحل لنا ومنهم من لا تحل لنا، ثم تلا هذه الآية :{قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر}، الآية. فمن أعطى الجزية حل لنا نساؤهم ومن لم يعط الجزية لم تحل لنا نساؤهم قال الحكم: فذكرت ذلك لإبراهيم فأعجبه"[2].

عن مالك في قول الله تعالى :"{قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون}، قال مالك: فإنما يعطي أهل الكتاب الجزية من ثمن الخمر والخنزير، فذلك حلال للمسلمين أن يأخذوه من أهل الكتاب في الجزية ولا يحل لهم أن يأخذوا في جزيتهم الخنزير ولا الخمر بعينها"[3].

قال ابن كثير:"وقد استدلَّ بهذه الآية الكريمة مَن يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب ، أو من أشباههم كالمجوس ، لما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر وهذا مذهب الشافعي ، وأحمد - في المشهور عنه - وقال أبو حنيفة ، رحمه الله : بل تؤخذ من جميع الأعاجم ، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب. وقال الإمام مالك : بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابيٍّ ، ومجوسي ، ووثني، وغير ذلك ، ولمأخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا ، والله أعلم"[4].

الفوائد:

١- -وجوب قتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يدخلوا في حكم الإسلام وذلك من أجل إعدادهم للإسلام ليكملوا عليه ويسعدوا به.
٢- الإيمان غير الصحيح لا يعتبر إيمانا منجيا ولا مسعدا.
٣- استباحة ما حرم الله من المطاعم والمشارب والمناكح كفر صريح.
٤- مشروعية أخذ الجزية من أهل الكتاب وهي مقدرة١ في كتب الفقه مبينة وهي بحسب غنى المرء وفقره وسعته وضيقه.

القرآن

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠)} [التوبة : ٣٠]

التفسير:

لقد أشرك اليهود بالله عندما زعموا أن عزيرًا ابن الله. وأشرك النصارى بالله عندما ادَّعوا أن المسيح ابن الله.

وهذا القول اختلقوه من عند أنفسهم، وهم بذلك يشابهون قول المشركين من قبلهم. قَاتَلَ الله المشركين جميعًا كيف يعدلون عن الحق إلى الباطل؟

سبب النزول:

عن ابن عباس قال: "أتى رسولَ الله ﷺ سَلامُ بن مشكم، ونعمانُ بن أوفى، وشأسُ بن قيس، ومالك بن الصِّيف، فقالوا: كيف نتّبعك وقد تركت قِبْلتنا، وأنت لا تزعم أنّ عزيرًا ابن الله؟

---

[1] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٣١):ص١٧٧٩/٦.
[2] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٣٢):ص١٧٧٩/٦.
[3] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٣٣):ص١٧٧٩/٦.
[4] تفسير ابن كثير:١٣٢/٤-١٣٣.

فأنزل في ذلك من قولهم: {وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله}، إلى: {أنى يؤفكون}"[1].

قوله تعالى:{وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ} [التوبة : ٣٠]، أي:"زعم اليهود أن عزيزا ابن الله"[2].

قال ابن كثير:" وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال المشركين الكفار من اليهود والنصارى ، لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة ، والفِرْية على الله تعالى ، فأما اليهود فقالوا في العُزَير : "إنه ابن الله" ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا"[3].

وقوله تعالى:{وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ} [التوبة : ٣٠]، اختلف فيمن قال ذلك على ثلاثة أقوال:

أحدها : أن ذلك كان قول جميعهم ، وهو مروي عن ابن عباس[4].

والثاني : أنه قول طائفة من سلفهم[5].

والثالث : أنه قول جماعة ممن كانوا على عهد رسول الله -ﷺ- . وهذا قول ابن عباس[6] أيضا.

واختلف فيهم على قولين :

أحدهما : أنه فنحاص وحده ، ذكر ذلك عبيد بن عمير[7].

والثاني : أنهم جماعة وهم سلام ابن مشكم ونعمان بن أبي أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف ، وهذا مروي عن ابن عباس[8].

عن ابن عباس قوله: "{وقالت اليهود عزير ابن الله}، وإنما قالوا: هو ابن الله من أجل أن عُزَيرًا كان في أهل الكتاب، وكانت التوراة عندهم، فعملوا بها ما شاء الله أن يعملوا، ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق، وكان التّابوت فيهم. فلما رأى الله أنهم قد أضاعوا التوراة وعملوا بالأهواء، رفع الله عنهم التابوت، وأنساهُم التوراة، ونسخها من صدورهم، وأرسل الله عليهم مرضًا، فاستطلقت بطونهم حتى جعل الرجل يمشي كبدُه، حتى نسوا التوراة، ونسخت من صدورهم، وفيهم عزير. فمكثوا ما شاء الله أن يمكثُوا بعد ما نسخت التوراة من صدورهم، وكان عزير قبلُ من علمائهم، فدعا عزيرٌ الله، وابتهل إليه أن يردّ إليه الذي نسخَ من صدره من التوراة. فبينما هو يصلي مبتهلا إلى الله، نزل نور من الله فدخل جَوْفه، فعاد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة، فأذّن في قومه فقال: يا قوم، قد آتاني الله التوراةَ وردَّها إليَّ! فعلقَ بهم يعلمهم، فمكثوا ما شاء الله وهو يعلمهم. ثم إنَّ التابوت نزل بعد ذلك وبعد ذهابه منهم، فلما رأوا التابوت عرَضوا ما كان فيه على الذي كان عزير يعلِّمهم، فوجدوه مثله، فقالوا: والله ما أوتي عزير هذا إلا أنه ابن الله"[9].

وروي عن السدي: "{وقالت اليهود عزير ابن الله} ، إنما قالت ذلك، لأنهم ظهرت عليهم العمالقة فقتلوهم، وأخذوا التوراة، وذهب علماؤهم الذين بقُوا، وقد دفنوا كتب التوراة في الجبال. وكان عزير غلامًا يتعبَّد في رءوس الجبال، لا ينزل إلا يوم عيد. فجعل الغلام يبكي ويقول: "ربِّ تركتَ بني إسرائيل بغير عالم"! فلم يزل يبكي حتى سقطت أشفارُ عينيه، فنزل مرة إلى العيد، فلما رجع إذا هو بامرأة قد مثلتْ له عند قبر من تلك القبور تبكي وتقول: يا مطعماه، ويا كاسِياه! فقال لها: ويحك، من كان يطعمك أو يكسوك أو يسقيك أو ينفعك قبل هذا الرجل؟ قالت:

---

[1] أخرجه الطبري(١٦٦٢٠):ص٢٠٢/١٤.
[2] انظر: التفسير الميسر:١٩١.
[3] تفسير ابن كثير:١٣٣/٤.
[4] انظر: تفسير الطبري(١٦٦٢١):ص٢٠٢/١٤-٢٠٣.
[5] انظر: النكت والعيون:٣٥٣/٢.
[6] انظر: تفسير الطبري(١٦٦٢٠):ص٢٠٢/١٤.
[7] انظر: تفسير الطبري(١٦٦١٩):ص٢٠١/١٤.
[8] انظر: تفسير الطبري(١٦٦٢٠)-(١٦٦٢١):ص٢٠١/١٤-٢٠٢.
[9] أخرجه الطبري(١٦٦٢١):ص٢٠٢/١٤-٢٠٣.

الله! قال: فإن الله حي لم يمت! قالت: يا عزير، فمن كان يعلِّم العلماء قبلَ بني إسرائيل؟ قال: الله! قالت: فلم تبكي عليهم؟ فلما عرف أنه قد خُصِم، ولَّى مدبرًا، فدعته فقالت: يا عزير، إذا أصبحت غدًا فأت نهر كذا وكذا فاغتسل فيه، ثم اخرج فصلِّ ركعتين، فإنه يأتيك شيخٌ، فما أعطاك فخُذْه. فلما أصبح انطلق عزير إلى ذلك النهر، فاغتسل فيه، ثم خرج فصلى ركعتين. فجاءه الشيخُ فقال: افتح فمك! ففتح فمه، فألقى فيه شيئا كهيئة الجمرة العظيمة، مجتمع كهيئة القوارير، ثلاث مرار. فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة، فقال: يا بني إسرائيل، إني قد جئتكم بالتوراة! فقالوا: يا عزير، ما كنت كذَّابًا! فعمد فربط على كل إصبع له قلمًا، وكتب بأصابعه كلها، فكتب التوراة كلّها. فلما رجعَ العلماء، أخبروا بشأن عزير، فاستخرج أولئك العلماء كُتبهم التي كانوا دفنوها من التوراة في الجبال، وكانت في خوابٍ مدفونة، فعارضوها بتوراة عزير، فوجدوها مثلها، فقالوا: ما أعطاك الله هذا إلا أنك ابنه!"(١).

فإن قيل : فإذا كان ذلك قول بعضهم فلم أضيف إلى جميعهم ؟

قيل : "لأن من لم يقله عند نزول القرآن لم ينكره ، فلذلك أضيف إليهم إضافة جمع وإن تلفظ به بعضهم"(٢).

قال السعدي:" وهذه المقالة وإن لم تكن مقالة لعامتهم فقد قالها فرقة منهم، فيدل ذلك على أن في اليهود من الخبث والشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التي تجرأوا فيها على الله، وتنقصوا عظمته وجلاله. وقد قيل: إن سبب ادعائهم في {عزير} أنه ابن الله، أنه لما سلط الله الملوك على بني إسرائيل، ومزقوهم كل ممزق، وقتلوا حملة التوراة، وجدوا عزيرا بعد ذلك حافظا لها أو لأكثرها، فأملاها عليهم من حفظه، واستنسخوها، فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة"(٣).

قوله تعالى:{وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ} [التوبة : ٣٠]، أي:" وزعم النصارى - أعداء الله - أن المسيح ابن الله"(٤).

قال الماوردي:" وهذا قول جميعهم"(٥).

واختلف في سبب قولهم لذلك على قولين(٦):

أحدهما : أنه لما خلق من غير ذكر من البشر قالوا إنه ابن الله ، تعالى الله عن ذلك .

الثاني : أنهم قالوا ذلك لأجل من أحياه من الموتى وأبرأه من المرضى .

قوله تعالى:{ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ} [التوبة : ٣٠]، أي:" وهذا القول اختلقوه من عند أنفسهم"(٧).

قال ابن كثير:" أي : لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلاقهم "(٨).

قال السعدي:أي:" لم يقيموا عليه حجة ولا برهانا"(٩).

قوله تعالى:{يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ} [التوبة : ٣٠]، أي:" وهم بذلك يشابهون قول المشركين من قبلهم"(١٠).

قال ابن كثير:" أي : يشابهون { قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ } أي : من قبلهم من الأمم ، ضلوا كما ضل هؤلاء "(١١).

---

(١) أخرجه الطبري(١٦٦٢٢):ص٢٠٣-٢٠٤.
(٢) النكت والعيون:٣٥٣/٢.
(٣) تفسير السعدي:٣٣٤.
(٤) صفوة التفاسير:٤٩٣/١.
(٥) النكت والعيون:٣٥٣/٢.
(٦) انظر: النكت والعيون:٣٥٣/٢.
(٧) التفسير الميسر:١٩١.
(٨) تفسير ابن كثير:١٣٣/٤.
(٩) تفسير السعدي:٣٣٤.
(١٠) التفسير الميسر:١٩١.
(١١) تفسير ابن كثير:١٣٣/٤.

قال الطبري:" يقول: يُشْبِه قول هؤلاء في الكذب على الله والفرية عليه ونسبتهم المسيح إلى أنه لله ابنٌ، كذِبَ اليهود وفريتهم على الله في نسبتهم عزيرًا إلى أنه لله ابن، ولا ينبغي أن يكون لله ولدٌ سبحانه، بل له ما في السماوات والأرض، كل له قانتون"[١].

قال السعدي:" أي: يشابهون في قولهم هذا قول المشركين الذين يقولون: «الملائكة بنات الله» تشابهت قلوبهم، فتشابهت أقوالهم في البطلان"[٢].

قال الماوردي:" أي يشابهون ، مأخوذ من قولهم امرأة ضهياء إذا لم تحض تشبيهاً بالرجال ومنه ما جاء في الحديث: «أَجرَأُ النَّاسِ عَلى اللَّهِ تَعَالَى الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ خَلْقَهُ»[٣]، أي: يشبهون به"[٤].

وفيهم ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن قولهم ذلك يضاهي قول عبدة الأوثان في اللات والعزى ومناة وأن الملائكة بنات الله ، قاله ابن عباس في أحد قوليه-[٥]..

والثاني : أن قول النصارى المسيح ابن الله يضاهي قول اليهود عزير ابن الله، وهذا مروي عن ابن عباس[٦]، وقتادة[٧]، والسدي[٨]، وابن جريج[٩]. وهو اختيار الإمام الطبري[١٠].

عن ابن عباس قوله: "{يضاهئون قول الذين كفروا من قبل}، يقول: يُشَبِّهون"[١١].

عن قتادة قوله: "{يضاهئون قول الذين كفروا من قبل}، ضاهت النصارى قول اليهود قبلهم"[١٢].

عن السدّي: "{يضاهئون قول الذين كفروا من قبل}، النصارى يضاهئون قول اليهود في «عزيز»"[١٣].

عن ابن جريج: "{يضاهئون قول الذين كفروا من قبل}، يقول: النصارى، يضاهئون قول اليهود"[١٤].

والثالث : أنهم في تقليد أسلافهم يضاهون قول من تقدمهم، قاله الزجاج[١٥].

قال الزجاج:" أي: يشابهون في قولهم هذا ما تقدم من كفرتهم، أي إنما قالوه اتباعا لمن تقدم من كفرتهم. الدليل على ذلك قوله: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ال} [التوبة : ٣١]، أي: قبلوا منهم أن العزير والمسيح ابنا الله تعالى، وهذا معنى: (يضاهئون قول الذين كفروا من قبل}"[١٦].

---

[١] تفسير الطبري:١٤/٢٠٥-٢٠٦.

[٢] تفسير السعدي:٣٣٤.

[٣] جاء من حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: "قدم رسول الله ﷺ من سفر، وقد سترتُ سَهوةً لي بقِرام فيه تماثيل، فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه وتلون وجهه، وقال :يا عائشة، أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله».

أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب ما وُطئ من التصاوير، برقم (٥٩٥٤)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة، برقم (٢١٠٧).

[٤] النكت والعيون:٢/٣٥٣.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٦٦٢٧):ص١٤/٢٠٦.

[٦] أخرجه الطبري(١٦٦٢٣):ص١٤/٢٠٦.

[٧] أخرجه الطبري(١٦٦٢٤):ص١٤/٢٠٦.

[٨] أخرجه الطبري(١٦٦٢٥):ص١٤/٢٠٦.

[٩] أخرجه الطبري(١٦٦٢٦):ص١٤/٢٠٦.

[١٠] انظر: تفسير الطبري:١٤/٢٠٥.

[١١] أخرجه الطبري(١٦٦٢٣):ص١٤/٢٠٦.

[١٢] أخرجه الطبري(١٦٦٢٤):ص١٤/٢٠٦.

[١٣] أخرجه الطبري(١٦٦٢٥):ص١٤/٢٠٦.

[١٤] أخرجه الطبري(١٦٦٢٦):ص١٤/٢٠٦.

[١٥] انظر: معاني القرآن:٢/٤٤٣.

[١٦] انظر: معاني القرآن:٢/٤٤٣.

قوله تعالى:{قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [التوبة : ٣٠]، أي:" قَاتَلَ الله المشركين جميعًا كيف يعدلون عن الحق إلى الباطل؟"(١).

قال السعدي:" أي: كيف يصرفون على الحق، الصرف الواضح المبين، إلى القول الباطل المبين"(٢).

قال الطبري:" { أَنَّى يُؤْفَكُونَ }، يقول: أيَّ وجه يُذْهبُ بهم، ويحيدون؟ وكيف يصدُّون عن الحق؟ وقد بينا ذلك بشواهده فيما مضى قبل(٣).

قال ابن كثير:" { أَنَّى يُؤْفَكُونَ } ؟ أي : كيف يضلون عن الحق ، وهو ظاهر ، ويعدلون إلى الباطل ؟ "(٤).

قال الماوردي: { أَنَّى يُؤْفَكُونَ }، "معناه: كيف يُصرفون عن الحق إلى الإفك وهو الكذب"(٥).

وفي قوله تعالى:{قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [التوبة : ٣٠]، ثلاثة أقوال:

أحدها : معناه: لعنهم الله ، قاله ابن عباس.

عن ابن عباس قوله: "{قاتلهم الله}، يقول: لعنهم الله. وكل شيء في القرآن «قتل»، فهو لعن"(٦).

ومنه قول الشاعر(٧):

قَاتَلَهَا اللَّهُ تَلْحَانِي وَقَدْ عَلِمَتْ أَنِّي لِنَفْسِي إِفْسَادِي وَإِصْلَاحِي

والثاني : معناه: قتلهم الله ، ذكره الطبري عن بعض أهل العربية(٨).

قال الطبري:" فأما أهل المعرفة بكلام العرب فإنهم يقولون: معناه: قتلهم الله. والعرب تقول: "قاتعك الله"، و"قاتعها الله"، بمعنى: قاتلك الله. قالوا: و"قاتعك الله" أهون من "قاتله الله". وقد ذكروا أنهم يقولون: "شاقاه الله ما تاقاه"، يريدون: أشقاه الله ما أبقاه، قالوا: ومعنى قوله: {قاتلهم الله} ، كقوله: {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ} [سورة الذاريات: ١٠] ، و {قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ} [سورة البروج: ٤]، واحدٌ هو بمعنى التعجب، فإن كان الذي قالوا كما قالوا، فهو من نادر الكلام الذي جاء على غير القياس، لأنّ "فاعلت" لا تكاد أن تجيء فعلا إلا من اثنين، كقولهم: "خاصمت فلانًا"، و"قاتلته"، وما أشبه ذلك. وقد زعموا أن قولهم: "عافاك الله" منه، وأن معناه: أعفاك الله، بمعنى الدعاء لمن دعا له بأن يُعْفيه من السوء"(٩).

والثالث : أن الله تعالى فيما أعده لعذابهم وبينه من عداوتهم التي هي في مقابلة عصيانهم وكفرهم كأنه مقاتل لهم. ذكره الماوردي(١٠).

وروي عن ابن جريج قوله:"{قاتلهم الله}، يعني: النصارى، كلمةٌ من كلام العرب"(١١).

قال أحمد محمد شاكر:" يعني: أنها كلمة تقولها العرب، لا تريد بها معنى:«القتل»، كقولهم: «تربت يداك»، لا يراد بها وقوع الأمر"(١٢).

---

(١) التفسير الميسر:١٩١.

(٢) تفسير السعدي:٣٣٤.

(٣) تفسير الطبري:٢٠٨/١٤.

(٤) تفسير ابن كثير:١٣٣/٤.

(٥) النكت والعيون:٣٥٤/٢.

(٦) اخرجه الطبري(١٦٦٢٨):ص٢٠٧/١٤.

(٧) البيت لأبان بن تغلب في الكشف والبيان:٣٤/٥، وتفسير القرطبي:١١٩/٨، والبحر المحيط في التفسير:٤٠٣/٥، وفتح القدير للشوكاني:٤٠٣/٢، وهو منسوب لعبيد بن الأبرص في النكت والعيون:٣٥٤/٢، وباهر البرهان في معنى مشكلات القرآن:٥٨٧/١، .

(٨)انظر: تفسير الطبري:٢٠٧/١٤-٢٠٨.

(٩) تفسير الطبري:٢٠٧/١٤-٢٠٨.

(١٠) انظر: النكت والعيون:٣٥٤/٢.

(١١) اخرجه الطبري(١٦٦٢٩):ص٢٠٧/١٤.

(١٢) تفسير الطبري:٢٠٧/١٤.[الهامش: (١)].

الفوائد:

١- بيان الغلو في الرسل عند اليهود والنصارى، إذ ينطلق الغلو في الأنبياء من رفعهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله إياها ويحدث هذا الغلو حينما يوصف بعض الأنبياء بصفات الألوهية أو يوصف النبي بأنه ابن الله. ولقد حدث في تاريخ بني إسرائيل أن ادعى اليهود أن عزيرا ابن الله كما ادعت النصارى أن المسيح ابن الله.
٢- تقرير كفر اليهود والنصارى بذكر عقائدهم الكفرية.
٣- الحذر من الغلو في الصالحين من العلماء والأولياء.
٤- بيان الترابط الوثيق بين النصرانية المنحرفة والديانات الوثنية والفلسفية السابقة عليها كما حكم القرآن الكريم عليهم في هذه الآية.

القرآن

{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)} [التوبة : ٣١]

التفسير:

اتخذ اليهودُ والنصارى العلماءَ والعُبَّادَ أربابًا يُشَرِّعون لهم الأحكام، فيلتزمون بها ويتركون شرائع الله، واتخذوا المسيح عيسى ابن مريم إلهًا فعبدوه، وقد أمرهم الله بعبادته وحده دون غيره، فهو الإله الحق لا إله إلا هو. تنزَّه وتقدَّس عما يفتريه أهل الشرك والضلال.

قوله تعالى:{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [التوبة : ٣١]، أي:" اتخذ اليهودُ والنصارى العلماءَ والعُبَّادَ أربابًا يُشَرِّعون لهم الأحكام، فيلتزمون بها ويتركون شرائع الله"[١].

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه : اتخذ اليهود أحبارهم ، وهم العلماء، والنصارى {رهبانهم}، وهم أصحاب الصوامع وأهل الاجتهاد في دينهم منهم {أربابا من دون الله}، يعني : سادةً لهم من دون الله ، يطيعونهم في معاصي الله ، فيحلون ما أحلّوه لهم مما قد حرَّمه الله عليهم ، ويحرّمون ما يحرّمونه عليهم مما قد أحلّه الله لهم"[٢].

عن الضحاك : "{اتخذوا أحبارهم ورهبانهم}، قال : قُرَّاءهم وعلماءهم"[٣].

قال الثعلبي:" قال أهل المعاني: معناه اتخذوا أحبارهم ورهبانهم كالأذناب حيث أطاعوهم في كل شيء، كقوله: قال انفخوا حتى إذا جعله نارا أي كالنار"[٤].

وقال عبد الله المبارك:"وهل بدل الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها"[٥].

عن حذيفة : "{اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله}، قال : لم يعبدوهم ، ولكنهم أطاعوهم في المعاصي"[٦].

عن الحسن : "{اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا}، قال : في الطاعة"[٧].

عن ابن عباس قوله : "{اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله}، يقول : زيَّنُوا لهم طاعتهم"[٨].

عن عدي بن حاتم ، رضي الله عنه ، "أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرَّ إلى الشام ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثمَّ منَّ رسول الله صلى الله عليه

---

[١] التفسير الميسر:١٩١.
[٢] تفسير الطبري:١٤/٢٠٨-٢٠٩.
[٣] أخرجه الطبري(١٦٦٣٠):ص١٤/٢٠٩.
[٤] تفسير الثعلبي:٥/٣٥.
[٥]الجهاد لابن المبارك: ٢٨.
[٦] أخرجه الطبري(١٦٦٤٣):ص١٤/٢١٣.
[٧] أخرجه الطبري(١٦٦٣٩):ص١٤/٢١٢.
[٨] أخرجه الطبري(١٦٦٤٠):ص١٤/٢١٢.

وسلم على أخته وأعطاها ، فرجعت إلى أخيها ، ورَغَّبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عَدِيّ المدينة ، وكان رئيسا في قومه طيئ ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ، فتحدَّث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عَدِيّ صليب من فضة ، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ } قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم. فقال : "بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم". وقال رسول الله ﷺ : "يا عدي ، ما تقول ؟ أيُفرّك أن يقال : الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئًا أكبر من الله ؟ ما يُفرك ؟ أيفرّك أن يقال : لا إله إلا الله ؟ فهل تعلم من إله إلا الله" ؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم ، وشهد شهادة الحق ، قال : فلقد رأيتُ وجهه استبشر ثم قال : "إن اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون"(١).

وروي عن أبي العالية : "{اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا}، قال : قلت لأبي العالية : كيف كانت الرُّبوبية التي كانت في بني إسرائيل ؟ قال : [لم يسبوا أحبارنا بشيء مضى](٢) " ما أمرونا به ائتمرنا ، وما نهونا عنه انتهينا لقولهم " ، وهم يجدون في كتاب الله ما أمروا به وما نهوا عنه ، فاستنصحوا الرجالَ ، ونبذُوا كتاب الله وراء ظهورهم"(٣).

قوله تعالى:{وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ} [التوبة : ٣١]، أي:" واتخذوا المسيح عيسى ابن مريم إلهًا فعبدوه"(٤).

قوله تعالى:{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا} [التوبة : ٣١]، أي:" وقد أمرهم الله بعبادته وحده دون غيره"(٥).

قال الطبري:" يعني به : وما أمر هؤلاء اليهود والنصارى الذين اتخذوا الأحبارَ والرهبان والمسيحَ أربابًا ، إلا أن يعبدوا معبودًا واحدًا ، وأن يطيعوا إلا ربًّا واحدًا دون أرباب شتَّى ، وهو الله الذي له عبادة كل شيء، وطاعةُ كل خلق ، المستحقُّ على جميع خلقه الدينونة له بالوحدانية والربوبية"(٦).

قال ابن كثير:" أي : الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام ، وما حلله حل ، وما شرعه اتبع ، وما حكم به نفذ"(٧).

قوله تعالى:{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [التوبة : ٣١]، أي:" فهو الإله الحق لا إله إلا هو"(٨).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : لا تنبغي الألوهية إلا للواحد الذي أمر الخلقُ بعبادته ، ولزمت جميع العباد طاعته "(٩).

قال ابن كثير:" ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه "(١٠).

قوله تعالى:{سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة : ٣١]، أي:" تنزَّه وتقدَّس عما يفتريه أهل الشرك والضلال"(١١).

---

(١)سنن الترمذي برقم (٣٠٩٥) وتفسير الطبري (١٤/ ٢٠٩ - ٢١١) من طريق عبد السلام بن حرب عن غطيف بن أعين عن مصعب بن سعد عن عدي بن حاتم رضي الله عنه ، وقال الترمذي : "هذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث".

(٢) قال المحقق:" هذه الجملة التي وضعتها بين قوسين من المخطوطة ، ولا أدري ما هي ، ولكني أثبتها كما جاءت ، فلعل أحدا يجد الخبر في مكان آخر فيصححه".

(٣) أخرجه الطبري(١٦٦٤٢):ص٢١٢/١٤.

(٤) التفسير الميسر:١٩١.

(٥) التفسير الميسر:١٩١.

(٦) تفسير الطبري:٢١٣/١٤.

(٧) تفسير ابن كثير:١٣٥/٤.

(٨) التفسير الميسر:١٩١.

(٩) تفسير الطبري:٢١٣/١٤.

(١٠) تفسير ابن كثير:١٣٥/٤.

(١١) التفسير الميسر:١٩١.

قال ابن كثير:" أي : تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد "[١].

قال الطبري:" يقول : تنزيهًا وتطهيرًا لله عما يُشرك في طاعته وربوبيته ، القائلون : {عزير ابن الله}، والقائلون :{المسيح ابن الله}، المتخذون أحبارهم أربابًا من دون الله "[٢].

الفوائد:

١- أن طاعة العلماء ورجال الدين طاعة عمياء حتى يحلوا ويحرموا فيتبعوا شرك.

عن ابن عباس؛ قال: "تمتع النبي ﷺ، فقال عروة بن الزبير: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة. فقال ابن عباس: ما يقول عرية؟ قال: يقول نهى أبو بكر وعمر عن المتعة. فقال ابن عباس: أراهم سيهلكون؛ أقول: قال النبي ﷺ؛ ويقول: نهى أبو بكر وعمر"[٣].

وقال أحمد بن حنبل: " نظرت في المصحف فوجدت فيه طاعة رسول الله ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعا، ثم جعل يتلو: {فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم} [النور:٦٣]، وجعل يكررها، ويقول: وما الفتنة؟ الشرك. لعله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ فيهلكه. وجعل يتلو هذه الآية {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما} [النساء:٦٥]"[٤].

قال أهل العلم:" وإنما تجب طاعة الأحبار والرهبان إذا أمروا بطاعة الله، فهي تبع لا استقلال، وأما إذا أمروا بمعصية الله فلا سمع لهم ولا طاعة، «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[٥]، كما هو معلوم بالضرورة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة، ولما كانت هذه الطاعة من أنواع العبادة، بل هي العبادة، فإنها طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسن رسله، نبه المصنف بهذه الترجمة على وجوب اختصاص الرب تعالى بها، وأنه لا يطاع سواه إلا حيث كانت طاعته مندرجة تحت طاعة الله، والمقصود هنا الطاعة الخاصة في تحريم الحلال وتحليل الحرام"[٦].

والشرك على أربعة أنواع:

النوع الأول:- شرك الدعوة، والدليل قوله تعالى: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} .

النوع الثاني:- شرك النية والإرادة والقصد، والدليل قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} .

النوع الثالث:- شرك الطاعة، والدليل قوله تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا

---

[١] تفسير ابن كثير:١٣٥/٤.

[٢] تفسير الطبري:٢١٣/١٤.

[٣]صحيح. أحمد (٣١٢١).

وأورده الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله في كتابه (المطالب العالية) (٩٦/ ٧) وقال: ((قال إسحاق: نا سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن أيوب عن ابن أبي مليكة قال: قال عروة لابن عباس: (ويحك أضللت! تأمرنا بالعمرة في العشر وليس فيهن عمرة!) فقال: (يا عري فسل أمك). قال: (إن أبا بكر وعمر لم يقولا ذلك؛ وكانا أعلم برسول الله ﷺ وأتبع له منك). فقال: (من ههنا تردون؛ نجيئكم برسول الله ﷺ وتجيئون بأبي بكر وعمر). سنده صحيح، وبعضه مما يتعلق بالعمرة في صحيح مسلم).

[٤]رواه بإسناده ابن بطة العكبري رحمه الله في كتابه (الإبانة الكبرى) (٢٦٠/ ١) عن الفضل بن زياد.

ذكره بنحوه ابن مفلح في الفروع (١٠٧/ ١١)، وأيضا شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (١٠٤/ ١٩).

[٥] أخرجه البخاري: أخبار الآحاد (٧٢٥٧) ، ومسلم: الإمارة (١٨٤٠) ، والنسائي: البيعة (٤٢٠٥) ، وأبو داود: الجهاد (٢٦٢٥) ، وأحمد (٩٤/١، ١٢٩/١، ١٣١/١).

[٦] حاشية كتاب التوحيد:٢٧٦.

يُشْرِكُونَ} : وتفسيرها الذي لا إشكال فيه، طاعة العلماء والعباد في المعصية لا دعاؤهم إياهم، كما فسرها النبي ﷺ، لعدي بن حاتم لما سأله، فقال: لسنا نعبدهم، فذكر له أن عبادتهم طاعتهم في المعصية.
النوع الرابع:- شرك المحبة، والدليل قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ}[١] .

٢- بيان عداء اليهود والنصارى للإسلام وتعاونهم على إفساده وإفساد أهله.

القرآن

{يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)} [التوبة : ٣٢]

التفسير:

يريد الكفار بتكذيبهم أن يبطلوا دين الإسلام، ويبطلوا حجج الله وبراهينه على توحيده الذي جاء به محمد ﷺ، ويأبى الله إلا أن يتم دينه ويظهره، ويعلي كلمته، ولو كره ذلك الجاحدون.

قوله تعالى:{يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ} [التوبة : ٣٢]، أي:" يريد الكفار بتكذيبهم أن يبطلوا دين الإسلام، ويبطلوا حجج الله وبراهينه على توحيده الذي جاء به محمد-صلى الله عليه وسلم-"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: يريد هؤلاء المتخذون أحبارَهم ورهبانهم والمسيحَ ابن مريم أربابًا {أن يطفئوا نور الله بأفواههم}، يعني: أنهم يحاولون بتكذيبهم بدين الله الذي ابتعثَ به رسوله، وصدِّهم الناسَ عنه بألسنتهم، أن يبطلوه، وهو النُّور الذي جعله الله لخلقه ضياءً"[٣].

قال ابن كثير:" يقول تعالى : يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب { أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ }،أي : ما بعث به رسوله من الهدى ودين الحق ، بمجرد جدالهم وافترائهم ، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس ، أو نور القمر بنفخه ، وهذا لا سبيل إليه ، فكذلك ما أرسل الله به رسوله لا بد أن يتم ويظهر"[٤].

عن السدي قوله: "{بأفواههم}، يقول: بكلامهم"[٥].

قال الماوردي:"وإنما خص ذلك بأفواههم لما ذكرنا أنه ليس يقترن بقولهم دليل"[٦].

وفي نوره قولان :

أحدهما : أنه القرآن والإسلام ، قاله الحسن[٧]، وقتادة[٨].

وروي عن السدي:" {يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم} ، يقول: يريدون أن يطفئوا الإسلام بكلامهم"[٩].

وروي عن الضحاك في قوله: "{يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم}، يقول: يريدون أن يهلك محمد وأصحابه، أن لا يعبدوا الله بالإسلام في الأرض"[١٠].

ونقل الثعلبي عن الكلبي: "يعني يردون القرآن بألسنتهم تكذيبا له"[١١].

---

[١] انظر: الرسالة المفيدة:٤٤-٤٥.
[٢]التفسير الميسر:١٩٢.
[٣] تفسير الطبري:٢١٣/١٤-٢١٤.
[٤] تفسير ابن كثير:١٣٦/٤.
[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٦٧):ص١٧٨٥/٦.
[٦] النكت والعيون:٣٥٥.
[٧] حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون:١٧٨٥/٦.
[٨] حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون:١٧٨٥/٦.
[٩] أخرجه الطبري(١٦٦٤٤):ص٢١٤/١٤.
[١٠] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٦٦):ص١٧٨٥/٦.
[١١]الكشف والبيان:٣٥/٥ .

ونقل الثعلبي عن ابن عباس: "يريد اليهود والنصارى أن يلزموا توحيد الرحمن بالمخلوقين الذين لا تليق بهم الربوبية"[١].
والثاني : أنه آياته ودلائله، لأنه يهتدى بها كما يهتدى بالأنوار[٢].
قوله تعالى:{وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ} [التوبة : ٣٢]، أي:" ويأبى الله إلا أن يتم دينه ويظهره، ويعلي كلمته"[٣].
قال الثعلبي:" أي: يعلي دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذي بعث به رسوله ولو كره الكافرون"[٤].
قال الزجاج:" دخلت «إلا»، ولا جحد في الكلام، وأنت لا تقول: ضربت إلا زيدا، لأن الكلام غير دال على المحذوف، وإذا قلت: {ويأبى الله إلا أن يتم نوره}، فالمعنى: يأبى الله كل شيء إلا أن يتم نوره"[٥].
قوله تعالى:{وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [التوبة : ٣٢]، أي:" ولو كره ذلك الجاحدون"[٦].
عن الضحاك في قوله: "{ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون}، يعني بها: كفار العرب، وأهل الكتاب من حارب منهم النبي- ﷺ وكفر بآياته"[٧].
قال ابن كثير:" والكافر : هو الذي يستر الشيء ويغطيه ، ومنه سمي الليل "كافرا" ؛ لأنه يستر الأشياء ، والزارع كافرا ؛ لأنه يغطي الحب في الأرض كما قال : { أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ } [الحديد : ٢٠] "[٨].
الفوائد:

١- بشرى المسلمين بأنهم سيسودون العالم في يوم من الأيام ويصبح الإسلام هو الدين الذي يعبد الله به في الأرض لا غيره، ويشهد لهذا آية {ويكون الدين كله لله} فلو لم يعلم الله أن ذلك كائن لم يجعله غاية وطالب بالوصول إليها.
٢- توجيه الإعلام الإسلامي توجيهًا يتناسب مع عقيدتنا وشريعة ديننا ودعوتنا حتى نصل بها إلى العالم أجمع وإلى كل صقع وواد؛ نعرّفهم بالإسلام، وأنه هو الدين الذي ارتضاه رب العالمين للناس منهجًا.

ومن خلال وسائل الإعلام نستطيع أن نبين زيف الإرساليات النصرانية من التشويه الذي شوّهوا به ديننا وعقيدتنا، ولا يزالون يحاربون هذا الدين وأهله ليطفئوا نور الله ولكن هيهات هيهات لما يفعلون {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)} [التوبة: ٣٢].

إذن فما على المسلمين إلا أن يقفوا وقفة واحدة للدفاع عن هذا الدين والدعوة إليه وتفنيد الشبهات التي حاكها أعداء الإسلام والمسلمين من يهود ونصارى قال الله تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا} [المائدة: ٨٢] وذكر سبحانه وتعالى في موضع آخر: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} [البقرة: ١٢٠].

ولما للإعلام من الأهمية في نشر الدعوات والأفكار كان لزامًا على المسلمين أن يوجهوا هذا الجانب توجيهًا إسلاميًا ويخدموا به الدعوة الإسلامية وسبل نشرها في ربوع المعمورة.

---

[١] الكشف والبيان:٣٥/٥ .
[٢] انظر: النكت والعيون:٣٥٥.
[٣] التفسير الميسر:١٩٢.
[٤] الكشف والبيان:٣٥/٥ .
[٥] معاني القرآن:٤٤٤/٢ .
[٦] التفسير الميسر:١٩٢.
[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٦٨):ص١٧٨٦/٦.
[٨] تفسير ابن كثير:١٣٦/٤.

القرآن
{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)} [التوبة : ٣٣]
التفسير:
هو الذي أرسل رسوله محمدًا ﷺ بالقرآن ودين الإسلام؛ ليعليه على الأديان كلها، ولو كره المشركون دين الحق -الإسلام- وظهوره على الأديان.
قوله تعالى:{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} [التوبة : ٣٣]، أي:" هو الذي أرسل رسوله محمدًا ﷺ بالقرآن ودين الإسلام"[١].
عن قتادة :"{هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق}، قال: قاتل الله قوما ينتحلون دينا لم يصدقه قوم قط ولم يفلحه ولم ينصره إذا أظهروه إهراق به دماؤهم، وإذا سكتوا عنه كان فرحا في قلوبهم ذلك والله دين سوء قد ألاصوا هذا الأمر منذ بضع وستين سنة، فهل أفلحوا فيه يوما أو أنجحوا؟"[٢].
وفي قوله تعالى:{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} [التوبة : ٣٣]، أربعة اوجه من التفسير [٣]:
أحدها : أن الهدى البيان ، ودين الحق الإسلام ، قاله الضحاك[٤].
والثاني : أن الهدى الدليل ، ودين الحق المدلول عليه .
والثالث : معناه بالهدى إلى دين الحق .
والرابع : أن معناهما واحد وإنما جمع بينهما تأكيداً لتغاير اللفظين.
قوله تعالى:{لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} [التوبة : ٣٣]، أي:" ليعليه على الأديان كلها"[٥].
وفي قوله تعالى:{لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} [التوبة : ٣٣]، أوجه من التفسير:
أحدها : يعني: عند نزول عيسى عليه السلام فإنه لا يعبد الله تعالى إلاّ بالإسلام، فتصير المللُ كلُّها واحدةً، قاله أبو هريرة[٦]، وأبو جعفر[٧]، ومجاهد[٨].
عن أبي هريرة في قوله : "{ليظهره على الدين كله}، قال : حين خروج عيسى ابن مريم"[٩].
عن مجاهد: "{ليظهره على الدين كله}، قال: لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني ولا صاحب ملة إلا الإسلام وحتى تأمن الشاة الذئب والبقرة الأسد، والإنسان الحية وحتى لا تقرض فأرة جرابا وحتى توضع الجزية ويكسر الصليب ويقتل الخنزير فهو قوله: ليظهره على الدين كله"[١٠].
والثاني : معناه: أن يعلمه شرائع الدين كله ويطلعه عليه ، قاله ابن عباس[١١].
والثالث : ليظهر دلائله وحججه ، وقد فعل الله تعالى ذلك ، وهذا القول حكاه الماوردي عن كثير من العلماء[١٢].

---

[١] التفسير الميسر:١٩٢.
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٦٩):ص١٧٨٦/٦.
[٣] انظر: النكت والعيون:٣٥٥/٢.
[٤] انظر: النكت والعيون:٣٥٥/٢.
[٥] التفسير الميسر:١٩٢.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٦٦٤٥):ص٢١٥/١٤.
[٧] أخرجه الطبري(١٦٦٤٦):ص٢١٥/١٤.
[٨] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٧٢):ص١٧٨٦/٦.
[٩] أخرجه الطبري(١٦٦٤٥):ص٢١٥/١٤.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٧٢):ص١٧٨٦/٦.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٦٦٤٧):ص٢١٥/١٤، وتفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٧٠):ص١٧٨٦/٦.
[١٢] انظر: النكت والعيون:٣٥٦/٢ .

والرابع : ليظهره برغم المشركين من أهله[١].
والخامس : أنه وارد على سبب ، وهو أنه كان لقريش رحلتان رحلة الصيف إلى الشام ورحلة الشتاء إلى اليمن والعراق فلما أسلموا انقطعت عنهم الرحلتان للمباينة في الدين فذكروا ذلك للنبي -ﷺ- فأنزل الله تعالى عليه : {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}، يعني: في بلاد الرحلتين وقد أظهره الله تعالى فيهما. ذكره الماوردي[٢].
والسادس : أن الظهور الاستعلاء ، ودين الإسلام أعلى الأديان كلها وأكثرها أهلاً ، قد نصره الله بالبر والفاجر والمسلم والكافر. وهذا معنى قول ابن عباس[٣]، والضحاك[٤].
وروى النبي -ﷺ- قال : " إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم"[٥].
وروي عن ابن عباس:" قال: بعث الله محمدا ليظهره على الدين كله، فديننا فوق الملل، ورجالنا فوق نسائهم ولا يكون رجالهم فوق نسائنا"[٦].
قوله تعالى:{وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة : ٣٣]، أي:" ولو كره المشركون دين الحق -الإسلام- وظهوره على الأديان"[٧].
عن ابن عباس في قوله: "{ولو كره المشركون}، قال: كان المشركون واليهود يكرهون أن يظهر الله نبيه على أمر الدين كله"[٨].
الفوائد:
١- أن دين الإسلام هو الظاهر على سائر الأديان.
قال رسول الله -ﷺ-:"لا يزال هذا الدين ظاهراً على من ناوأه لا يضره مخالف ولا مفارق حتى يمضي من أمتي اثنا عشر أميراً كلهم من قريش"[٩].
٢- أن من وجوه إعجاز القرآن ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيّبات مما لم يكن فوقع على الوجه الذي أخبر به، كقوله: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}. وقوله: {وَعَدَ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ} ٤. وكقوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ الله وَالفَتْحُ ... } . [النصر: ١] . إلى آخرها. فدخل الناس في دين الله أفواجاً ودخلوا المسجد الحرام آمنين كما قال عليه السلام، واستخلف الله أصحابه وأمته في الأرض. ومكَّن لهم دينهم وملَّكهم من أقصى الشرق

---

[١]انظر: النكت والعيون:٣٥٦/٢ .
[٢]انظر: النكت والعيون:٣٥٦/٢ .
[٣] مانظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٧١):ص١٧٨٦/٦.
[٤] انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ١٧٨٦/٦ حكاه دون ذكر الإسناد.
[٥]عن أنس، وعن أبى بكرة وعن كعب بن مالك، حديث أنس: أخرجه النسائى فى الكبرى (٢٧٩/٥، رقم ٨٨٨٥) ، وابن حبان (٣٧٦/١٠، رقم ٤٥١٧) ، والطبرانى فى الأوسط (٢٦٨/٢ رقم ١٩٤٨) والضياء (٢٣١/٥ رقم ١٨٦٣) . وأخرجه أيضًا: البزار كما فى كشف الأستار (٢٨٦/٢، رقم ١٧٢٠) ، والطبرانى فى الصغير (٩٧/١، رقم ١٣٢) قال الهيثمى (٣٠٢/٥) : رواه البزار، والطبرانى فى الأوسط، وأحد أسانيد البزار ثقات.
حديث أبى بكرة: أخرجه أحمد (٤٥/٥، رقم ٢٠٤٧٢) والطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٣٠٢/٥) قال الهيثمى: رجالهما ثقات. وأخرجه أيضًا: ابن عدى (١٥٠/٢ ترجمة ٣٤٤ جعفر بن جسر بن فرقد القصاب) . قال المناوى (٢٧٩/٢) : قال الحافظ العراقى: إسناده جيد.
حديث كعب بن مالك: أخرجه أبو الشيخ فى طبقات المحدثين بأصبهان (١٤٤/٤، ترجمة ٥٨٨ أبى الحسن أحمد بن محمد بن زياد الهمذانى).
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٧١):ص١٧٨٦/٦.
[٧]التفسير الميسر:١٩٢.
[٨] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٧٣):ص١٧٨٧/٦.
[٩]أخرجه م. كتاب الإمارة (ب. الناس تبع لقريش) ١٤٥٣/٣، د. كتاب المهدى الباب الأول ٢٠٧/٢، حم ٨٧/٥-٨٨-٨٩. كلهم من حديث جابر بن سمرة - رضي الله عنه -، واللفظ للإمام أحمد.

إلى أقصى الغرب حتى دوَّخوا البلاد وملؤوا أقطار العالم. كما قال عليه السلام: "زويت لي الأرض[1]حتى رأيت مشارقها ومغاربها .."[2]. الحديث.

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤)} [التوبة : ٣٤]

التفسير:

يا أيها الذين صَدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إن كثيرًا من علماء أهل الكتاب وعُبَّادهم ليأخذون أموال الناس بغير حق كالرشوة وغيرها، ويمنعون الناس من الدخول في الإسلام، ويصدون عن سبيل الله. والذين يمسكون الأموال، ولا يؤدون زكاتها، ولا يُخْرجون منها الحقوق الواجبة، فبشِّرهم بعذاب موجع.

سبب النزول:

قال الواحدي:" نزلت في العلماء والقراء من أهل الكتاب كانوا يأخذون الرشاء من سفلتهم، وهي المآكل التي كانوا يصيبونها من عوامهم"[3].

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [التوبة : ٣٤]، أي:" يا أيها الذين صَدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه"[4].

قال الطبري: يقول: "يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، وأقروا بوحدانية ربهم"[5].

قوله تعالى:{إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ} [التوبة : ٣٤]، أي:" إن كثيرًا من علماء أهل الكتاب وعُبَّادهم ليأخذون أموال الناس بغير حق كالرشوة وغيرها"[6].

قال الطبري:يقول:" إن كثيرًا من العلماء والقُرَّاء من بني إسرائيل من اليهود والنصارى، يأخذون الرشى في أحكامهم ، ويحرّفون كتاب الله ، ويكتبون بأيديهم كتبًا ثم يقولون : " هذه من عند الله " ، ويأخذون بها ثمنًا قليلا من سِفلتهم"[7].

قال السدي:"" أما «الأحبار»، فمن اليهود. وأما «الرهبان»، فمن النصارى"[8].

وفي قوله تعالى:{إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ} [التوبة : ٣٤]، قولان:

أحدهما : أنه أخذ الرشا في الحكم ، قاله الحسن[9].

والثاني : أنه على العموم من أخذه بكل وجه محرم .

---

[1]قوله: "زويت لي الأرض" أي: جمعت وضمت. قال السندي: والمراد من الأرض ما سيبلغها ملك الأمة لا كلها، يدل عليه ما بعده.

[2]أخرجه مسلم مقطعا (١٩٢٠) و (٢٨٨٩)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي مقطعا (٢٣١٧) و (٢٣٤٨) و (٢٣٦٦) و (٢٣٧٩) من طريق أبي قلابة، به، وهو عند مسلم دون قوله: "وإذا وضع السيف ... " إلى قوله: "كلهم يزعم أنه نبي".
والحديث بتمامه في "مسند أحمد" (٢٢٣٩٥)، و"سنن ابن ماجة"(٣٩٥٢):ص٩٧/٥-٩٨، و"صحيح ابن حبان" (٧٢٣٨).

[3] أسباب النزول:٢٤٥.

[4]التفسير الميسر:١٩٢.

[5] تفسير الطبري:٢١٦/١٤.

[6]التفسير الميسر:١٩٢.

[7] تفسير الطبري:٢١٦/١٤.

[8] أخرجه الطبري(١٦٦٤٨):ص٢١٦/١٤.

[9] انظر: النكت والعيون:٣٥٧/٢.

قال الزمخشري:" ومعنى أكلهم بالباطل: أنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام، والتخفيف والمسامحة في الشرائع"[1].

قال الماوردي:"وإنما عبر عن الأخذ بالأكل لأن ما يأخذونه من هذه الأموال هي أثمان ما يأكلون ، وقد يطلق على أثمان المأكول اسم الأكل ، كما قال الشاعر :

ذر الآكلين الماء فما أرى   ينالون خيراً بعد أكلهم الماء

أي: ثمن الماء"[2].

قوله تعالى:{وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة : ٣٤]، أي:" ويمنعون الناس من الدخول في الإسلام"[3].

قال الطبري: " يقول : ويمنعون من أرادَ الدخول في الإسلام الدخولَ فيه ، بنهيهم إياهم عنه"[4].

قال السدي:"" وأما {سبيل الله}، فمحمد ﷺ"[5].

وفي قوله تعالى:{وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة : ٣٤]، وجهان[6]:

أحدهما : أنه منعهم من الحق في الحكم بقبول الرشا .

والثاني : أنه منعهم أهل دينهم من الدخول في الإسلام بإدخال الشبهة عليهم.

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة : ٣٤]، أي:" والذين يمسكون الأموال، ولا يؤدون زكاتها، ولا يُخْرِجون منها الحقوق الواجبة"[7].

وفي هذا الكنز المستحق عليه هذا الوعيد ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الكنز كل مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤدَّ زكاته ، سواء كان مدفوناً أو غير مدفون ، قاله ابن عباس[8]، وابن عمر[9]، وعكرمة[10]، والسدي[11]، وعامر[12]، وابن زيد[13]، والشافعي[14]، والطبري[15].

والثاني : أن الكنز ما زاد على أربعة آلاف درهم ، أديت منه الزكاة أم لم تؤد ، قاله عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه-[16].

عن جعدة بن هبيرة، عن علي -رضي الله عنه- قال:"أربعة آلاف درهم فما دونها «نفقة»، فما كان أكثر من ذلك فهو«كنز»"[17].

والثالث : أن الكنز ما فضل من المال عن الحاجة إليه.

عن عبد الواحد: "أنه سمع أبا مجيب قال: كان نعل سيف أبي هريرة من فضة، فنهاه عنها أبو ذر وقال: إن رسول الله ﷺ قال: "من ترك صَفْرَاء أو بيضاء كُوِي بها"[18].

---

(١) الكشاف:٢٦٦/٢.

(٢) انكت والعيون:٣٥٧/٢.

(٣) التفسير الميسر:١٩٢.

(٤) تفسير الطبري:٢١٦/١٤.

(٥) أخرجه الطبري(١٦٦٤٨):ص٢١٦/١٤.

(٦) انظر: النكت والعيون:٣٥٧/٢.

(٧) التفسير الميسر:١٩٢.

(٨) انظر: تفسير الطبري(١٦٦٦٩):ص٣٢٥/١٤.

(٩) انظر: تفسير الطبري(١٦٦٤٩)-(١٦٦٥٣):ص٢١٧/١٤-٢١٨.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٦٦٥٤):ص٢١٨/١٤.

(١١) انظر: تفسير الطبري(١٦٦٥٥):ص٢١٩/١٤.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٦٦٥٦):ص٢١٩/١٤.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٦٦٧٠):ص٢٢٥/١٤.

(١٤) انظر: النكت والعيون:٣٥٧/٢.

(١٥) انظر: تفسير الطبري:٢٢٦/١٤.

(١٦) انظر: تفسير الطبري(١٦٦٥٧)-(١٦٦٥٩):ص٢١٩/١٤.

(١٧) أخرجه الطبري(١٦٦٥٧):ص٢١٩/١٤.

(١٨) أخرجه الطبري(١٦٦٦٠):ص٢٢٠/١٤.

عن سالم بن أبي الجعد قال: لما نزلت: {والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله}، قال النبي ﷺ: "تبًّا للذهب! تبًّا للفضة! يقولها ثلاثًا، قال: فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: فأيَّ مال نتخذ؟! فقال عمر: أنا أعلم لكم ذلك! فقال: يا رسول الله، إن أصحابك قد شق عليهم، وقالوا: فأيَّ المال نتخذ؟ فقال: لسانًا ذاكرًا، وقلبًا شاكرًا، وزوجةً تُعين أحدكم على دينه"[(١)].

وروي عن سالم، عن ثوبان قال: "كنا في سفر، ونحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال المهاجرون: لوددنا أنَّا علمنا أيُّ المال خيرٌ فنتخذه؟ إذ نزل في الذهب والفضة ما نزل! فقال عمر: إن شئتم سألتُ رسول الله ﷺ عن ذلك! فقالوا: أجل! فانطلق، فتبعته أوضع على بعيري، فقال: يا رسول الله إن المهاجرين لما أنزل الله في الذهب والفضة ما أنزل، قالوا: وددنا أنّا علمنا أيّ المال خير فنتخذه؟ قال: نعم! فيتخذ أحدكم لسانًا ذاكرًا، وقلبًا شاكرًا، وزوجةٌ تعين أحدَكم على إيمانه"[(٢)].

وروى عن قتادة، عن شهر بن حوشب، عن صديّ بن عجلان أبي أمامة قال: "مات رجل: من أهل الصُّفة، فوجد في مئزره دينارٌ، فقال رسول الله ﷺ: كيّةٌ! ثم توفيّ آخر، فوجد في مئزره ديناران، فقال نبي الله: كيّتان!"[(٣)].

قال الطبري:" أولى الأقوال في ذلك بالصحة، القولُ الذي ذكر عن ابن عمر: من أن كل مالٍ أدّيت زكاته فليس بكنز يحرُم على صاحبه اكتنازُه وإن كثر = وأنّ كل مالٍ لم تُؤَّد زكاته فصاحبه مُعاقب مستحقٌّ وعيدَ الله، إلا أن يتفضل الله عليه بعفوه وإن قلّ، إذا كان مما يجبُ فيه الزكاة.

وذلك أن الله أوجب في خمس أواقٍ من الوَرِق على لسان رسوله رُبع عُشْرها، وفي عشرين مثقالا من الذهب مثل ذلك، رُبْع عشرها. فإذ كان ذلك فرضَ الله في الذهب والفضَّة على لسان رسوله، فمعلومٌ أن الكثير من المال وإن بلغ في الكثرة ألوفَ ألوفٍ، لو كان - وإن أدِّيت زكاته - من الكنوز التي أوعدَ الله أهلَها عليها العقاب، لم يكن فيه الزكاة التي ذكرنا من رُبْع العُشْر. لأن ما كان فرضًا إخراجُ جميعِه من المال، وحرامٌ اتخاذه، فزكاته الخروجُ من جميعه إلى أهله، لا رُبع عُشره. وذلك مثلُ المال المغصوب الذي هو حرامٌ على الغاصب إمساكُه، وفرضٌ عليه إخراجه من يده إلى يده، التطهّر منه: ردُّه إلى صاحبه. فلو كان ما زادَ من المال على أربعة آلاف درهم، أو ما فضل عن حاجة ربِّه التي لا بد منها، مما يستحق صاحبُه باقتنائه - إذا أدَّى إلى أهل السُّهْمان حقوقهم منها من الصدقة - وعيدَ الله، لم يكن اللازمُ ربَّه فيه رُبْع عشره، بل كان اللازم له الخروج من جميعه إلى أهله، وصرفه فيما يجب عليه صرفه، كالذي ذكرنا من أن الواجب على غاصِبِ رجلٍ مالَه، رَدُّه على ربِّه"[(٤)].

عن أبي هريرة: "أن رسول الله ﷺ قال: ما من رجل لا يؤدِّي زكاةَ ماله إلا جُعل يوم القيامة صفائحَ من نار يُكْوَى بها جبينه وجبهته وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي بين الناس، ثم يرى سبيله، وإن كانت إبلا إلا بُطِحَ لها بقاع قرقرٍ، تطؤه بأخفافها - حسبته قال: وتعضه بأفواهها - يردّ أولاها على أخراها، حتى يقضي بين الناس، ثم يرى سبيله. وإن كانت غنمًا فمثل ذلك، إلا أنها تنطحه بقُرُونها، وتطؤُه بأظلافها"[(٥)].

(١) أخرجه الطبري(١٦٦٦١):ص١٤/٢٢٠-٢٢١.
(٢) اخرجه الطبري(١٦٦٦٦):ص١٤/٢٢٢-٢٢٣.
(٣) أخرجه الطبري(١٦٦٦٥):ص١٤/٢٢٢.
(٤) تفسير الطبري:١٤/٣٢٣-٣٢٤.
(٥) أخرجه الطبري(١٦٦٦٧):ص١٤/٣٢٤.

والكنز في اللغة هو " كل شيء مجموع بعضُه على بعضٍ، في بطن الأرض كان أو على ظهرها، يدلُّ على ذلك قول الشاعر [١]:

لا دَرَّ دَرِّيَ إنْ أَطْعَمْتُ نَازِلَهُمْ   قَرْفَ الْحَتِيِّ وعِنْدِي الْبُرُّ مَكْنُوزُ

يعني بذلك: وعندي البرُّ مجموع بعضه على بعض. وكذلك تقول العرب للبدن المجتمع: "مكتنز"، لانضمام بعضه إلى بعض"[٢].

وفي المعنيين بقوبه تعالى:{وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة : ٣٤]، قولان:

أحدهما: أنه عامة في كل كنز، غير أنها خاصّة في أهل الكتاب، وإياهم عَنَى الله بها. وهذا قول ابو ذرّ الغفاري-رضي الله عنه-[٣]، وابن عباس[٤].

عن ابن عباس: (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) ، يقول: هم أهل الكتاب. وقال: هي خاصَّة وعامةٌ"[٥].

قال الطبري: يعني بقوله: «هي خاصة وعامة»، هي خاصة من المسلمين فيمن لم يؤدِّ زكاة ماله منهم، وعامة في أهل الكتاب، لأنهم كفار لا تقبل منهم نفقاتهم إن أنفقوا"[٦].

والثاني: أن المعنيين هم أهل الكتاب. وهذا قول معاوية بن أبي سفيان-رضي الله عنه-[٧].

عن زيد بن وهب قال: "مررت بالرَّبَذَة، فلقيت أبا ذرّ، فقلت: يا أبا ذرّ، ما أنزلك هذه البلاد؟ قال: كنت بالشأم، فقرأت هذه الآية: {والذين يكنزون الذهب والفضة}، الآية، فقال معاوية: ليست هذه الآية فينَا، إنما هذه الآية في أهل الكتاب! قال: فقلت: إنها لفينا وفيهم! قال: فارتَفَع في ذلك بيني وبينه القولُ، فكتب إلى عثمان يشكُوني، فكتب إليَّ عثمان أنْ أقبل إليّ! قال: فأقبلت، فلما قدمت المدينة ركِبني الناسُ كأنهم لم يروني قبل يومئذ، فشكوت ذلك إلى عثمان، فقال لي: تَنَحَّ قريبًا. قلت: والله لن أدعَ ما كنت أقول!"[٨].

---

[١] البيت للمتنخل الهذلي، انظر: ديوان الهذليين ٢: ١٥، اللسان (كنز) ، وغيرهما كثير، وهي أبيات جياد، وصف فيها جوع الجائع وصفا لا يبارى، يقول بعده، ووصف رجلا ضاعت نعمه، وشردته البيد: * * *لَوْ أَنَّهُ

جَاءَني جَوْعَانُ مُهْتَلِكٌ ... مِنْ بُؤسِ النَّاسِ، عَنْهُ الخَيْرُ مَحْجُوزُ

أعْيَى وقَصَّرَ لَمَّا فَاتَهُ نَعَمٌ ... يُبَادِرُ اللَّيْلَ بالعَلْيَاء مَحْفُوزُ

حَتَّى يَجِيءَ، وَجِنُّ اللَّيْلِ يُوغِلُهُ ... والشَّوْكُ فِي وَضَحِ الرِّجْلَيْنِ مَرْكُوزُ

قَدْ حَالَ دُونَ دَرِيسَيْهِ مُؤَوِّبَةٌ ... نِسْعٌ، لَهَا بِعِضَاهِ الأَرْضِ تَهْزِيزُ

كَأَنَّمَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَلَبَّتِهِ ... مِنْ جُلْبَةِ الجُوعِ جَيَّارٌ وإرْزِيزُ

لَبَاتَ أُسْوَةَ حَجَّاجٍ وَإِخْوَتِهِ ... فِي جَهْدِنا، أَوْ لَهُ شَفٌّ وَتَمْرِيزُ

" القرف "، ما يقرف عن الشيء، وهي قشره. و " الحتى " الدوم. يقول: لا أطعمه الخسيس، والبر عندي مخزون بعضه على بعض.

ثم يقول: ضاعت إبله، فتقاذفته البيد، فهو من قلقه يصعد على الروابي يتنور نارا يقصدها.

ثم قال: يدفعه سواد الليل ومخاوفه، وقد أضناه السير، فوقع في أرض ذات شوك، فعلق به، لا يكاد ينقشه من شدة ضعفه. ثم يقول: اشتدت ريح الشمال الباردة بالليل - وهي المؤوبة، والشمال، هي النسع - فطيرت عنه ثوبيه البالبين، فأخذه الجوع والبرد، فحمي جوفه من شدة الجوع، وذلك هو " الجيار "، واصطكت أسنانه، وذلك هو " الإرزيز ". ثم يقول: لو جاءني هذا الجائع المشرد، لكان بين أهله، فهو عندي بمنزلة حجاج وإخوته، وهم أولاد المتنخل، في ساعة العسرة، بل لكان له فضل عليهم - وهو " الشف " -، ولكان له زيادة وتمييز وهو " التمزيز ".

[٢] تفسير الطبري:٢٢٥/١٤-٢٢٦، وانظر: النكت والعيون:٣٥٨/٢.

[٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٦٧١)-(١٦٦٧٤):ص٢٢٧/١٤-٢٢٨.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٦٦٨)، (١٦٦٦٩):ص٣٢٤/١٤-٣٢٥.

[٥] أخرجه الطبري(١٦٦٦٨):ص٣٢٤/١٤-٣٢٥.

[٦] تفسير الطبري:٣٢٥/١٤.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٦٦٧١):ص٢٢٧/١٤.

[٨] أخرجه الطبري(١٦٦٧١):ص٢٢٧/١٤.

قال الزمخشري:" {والذين يكنزون} يجوز أن يكون إشارة إلى «الكثير من الأحبار والرهبان»، للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم: أخذ البراطيل. وكنز الأموال، والضن بها عن الإنفاق في سبيل الخير. ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنافقين، ويقرن بينهم وبين المرتشين من اليهود والنصارى، تغليظا ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت، ومن لا يعطى منكم طيب ماله: سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم"[١].

فإن قيل : فقد قال الله تعالى:{وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ}، فذكر جنسين، ثم قال: {وَلاَ يُنفِقُونَهَا}، و«الهاء» كناية ترجع إلى جنس واحد ، ولم يقل : «وَلاَ يُنفِقُونَهَما»، لترجع الكناية إليهما .

فعن ذلك جوابان[٢]:

أحدهما : أن الكناية راجعة إلى الكنوز ، وتقديره : ولا ينفقون الكنوز في سبيل الله . والثاني : أنه قال ذلك اكتفاء بذكر أحدهما عن الآخر لدلالة الكلام على اشتراكهما فيه ، كما قال تعالى: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا} [الجمعة: ١١] ، ولم يقل: «إليهما»، وكقول الشاعر[٣] :

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاض، وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفُ

فقال: "راض"، ولم يقل: "رضوان"، وقال حسان بن ثابت[٤]:

إنَّ شَرْخَ الشَّبَابِ والشَّعَرَ الأسْوَدَ مَا لَمْ يُعَاصَ كانَ جُنُونَا

فقال: "يعاص"، ولم يقل: "يعاصيا" في أشياء كثيرة.

قوله تعالى:{فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [التوبة : ٣٤]، أي:" فبشِّرهم بعذاب موجع"[٥].

واختلف في حكم هذه الآية على قولين[٦]:

أحدهما: أن المراد بالإنفاق إخراج الزكاة، وهذا مذهب الجمهور[٧]، والآية على هذا محكمة.

والثاني: أن المراد بالإنفاق إخراج ما فضل عن الحاجة، وقد زعم بعض نقلة التفسير: أنه كان يجب عليهم إخراج ذلك في أول الإسلام، ثم نسخ بالزكاة. ذكر ه ابن سلامة[٨].

قال ابن الجوزي:"وفي هذا القول بعد"[٩].

وقد روي :"أن عمر بن عبد العزيز وعراك ابن مالك[١٠]، قالا في هذه الآية: {والذين يكنزون الذهب والفضة} نسختها الآية الأخرى {خذ من أموالهم صدقة}[١١]"[١٢].

---

[١] الكشاف:٢/٢٦٦.

[٢] انظر: تفسير الطبري:١٤/٢٢٨-٢٢٩، والنكت والعيون:٢/٣٥٨-٣٥٩.

[٣] البيت لعمرو بن امرئ القيس، من بني الحارث بن الخزرج، جد عبد الله بن رواحة، جاهلي قديم، انظر: البيت في جمهرة أشعار العرب: ١٢٧، سيبويه ١: ٣٧، ٣٨ (منسوبا لقيس بن الخطيم، وهو خطأ) ، ومعاني القرآن للفراء ١: ٤٣٤، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ٢٥٨، الخزانة ٢: ١٩٠.

[٤]يوانه: ٤١٣، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ٢٥٨، والكامل ٢: ٧٩، واللسان (شرخ) ، و " الشرخ ": الحد، أي غاية ارتفاعه، يعني بذلك: أقصى قوته ونضارته وعنفوانه.

[٥]التفسير الميسر:١٩٢.

[٦] انظر: نواسخ القرآن:٢/٤٦٨.

[٧] انظر: نواسخ القرآن لابن الجوزي:٢/٤٦٨.

[٨]في ناسخه ص: ٥١.

[٩] نواسخ القرآن:٢/٤٦٨.

[١٠]هو: عراك بن مالك الغفاري الكناني المدني ثقة فاضل من الثالثة، مات في خلافة يزيد ابن عبد الملك بعد المائة. انظر: التقريب (٣٣٧).

[١١]الآية (١٠٣) من سورة التوبة.

[١٢] أخرجه ابن الجوزي في نواسخ القرآن:٢/٤٦٩، وذكر السيوطي في الدر المنثور٣/ ٢٣٢ - ٢٣٣، هذا القول وعزاه إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن عراك بن مالك وعمر بن عبد العزيز، وذكره أيضا مكي بن أبي طالب عن عمر بن عبد العزيز، ثم قال: (ومن حمل قوله {ولا ينفقونها} على معنى: ولا ينفقون الواجب عليهم منها، قال: هي محكمة منصوصة في الزكاة). انظر: الإيضاح ص: ٢٧٢ - ٢٧٣.
قلت: ولم يتعرض لدعوى النسخ هنا الطبري ولا النحاس.

الفوائد:
١- بيان حقيقة علماء اليهود والنصارى، وهي أنهم ماديون باعوا آخرتهم بدنياهم يحاربون الإسلام ويصدون عنه للمحافظة على الرئاسة وللأكل على حساب الإسلام.
٢- حرمة أكل أموال الناس بالباطل.
٣- حرمة جمع المال وكنزه وعدم الإنفاق منه.
٤- المال الذي تؤدى زكاته كل حول لا يقال له كنز ولو دفن تحت الأرض.

القرآن

{يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)} [التوبة : ٣٥]

التفسير:

يوم القيامة توضع قطع الذهب والفضة في النار، فإذا اشتدت حرارتها أُحرقت بها جباه أصحابها وجنوبهم وظهورهم.

وقيل لهم توبيخًا: هذا مالكم الذي أمسكتموه ومنعتم منه حقوق الله، فذوقوا العذاب الموجع؛ بسبب كنزكم وإمساككم.

قوله تعالى:{يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ} [التوبة : ٣٥]، أي:" يوم القيامة توضع قطع الذهب والفضة في النار، فإذا اشتدت حرارتها أحرقت بها جباه أصحابها وجنوبهم وظهورهم"[١].

عن حميد بن هلال قال :" كان أبو ذر يقول : بشّر الكنّازين بكيّ في الجباه ، وكيّ في الجنوب ، وكيٍّ في الظهور ، حتى يلتقي الحرُّ في أجوافهم"[٢].

عن ابن عباس : "{يوم يحمى عليها في نار جهنم}، قال : حية تنطوي على جبينه وجبهته تقول : أنا مالُك الذي بخلت به!"[٣].

قال طاوس:" بلغني أن الكنوز تتحوَّل يوم القيامة شجاعًا يتبع صاحبه وهو يفرُّ منه ، ويقول : أنا كنزك ! لا يدرك منه شيئًا إلا أخذه"[٤].

عن عبد الله قال : "والذي لا إله غيره ، لا يكوى عبد بكنز فيمسُّ دينارٌ دينارًا ولا درهم درهمًا ، ولكن يوسع جلده ، فيوضع كل دينار ودرهم على حِدَته"[٥].

عن ثوبان : "أن نبيّ الله ﷺ كان يقول : من ترك بعدَه كنزا مثَلَ له يوم القيامة شُجَاعًا أقرعَ له زبيبتان ، يتبعه يقول : ويلك ما أنت ؟ فيقول : أنا كنزك الذي تركته بعدك! فلا يزال يتبعه حتى يُلْقِمه يده فيقضمها ، ثم يتبعه سائر جسده"[٦].

عن الأحنف بن قيس قال : "قدمت المدينة ، فبينا أنا في حَلْقَة فيها ملأ من قريش ، إذ جاء رجل أخشن الثياب ، أخشن الجسد ، أخشن الوجه ، فقام عليهم فقال : بشِّر الكنازين برضْفٍ يحمى عليه في نار جهنم ، فيوضع على حَلَمة ثَدْي أحدهم حتى يخرج من نُغْضِ كتفه ، ويوضع على نُغْضِ كتفه ، حتى يخرج من حَلَمة ثدييه ، يتزلزل ، قال : فوضع القوم رءوسهم ، فما رأيت أحدًا منهم رجع إليه شيئًا. قال : وأدبر ، فاتبعته ، حتى جلس إلى ساريةٍ ، فقلت : ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قُلْت ! فقال : إن هؤلاء لا يعقلون شيئًا"[٧].

---

[١]التفسير الميسر:١٩٢.
[٢] أخرجه الطبري(١٦٦٧٥):ص١٤/٢٣٠.
[٣] أخرجه الطبري(١٦٦٧٩):ص١٤/٢٣٢.
[٤] أخرجه الطبري(١٦٦٨١):ص١٤/٢٣٣.
[٥] أخرجه الطبري(١٦٦٨٢):ص١٤/٢٣٣.
[٦] أخرجه الطبري(١٦٦٨٠):ص١٤/٢٣٢.
[٧] أخرجه الطبري(١٦٦٧٦):ص١٤/٢٣١.

عن حسان بن عطية قال : "كان شداد بن أوس ، رضي الله عنه ، في سفر ، فنزل منزلا فقال لغلامه : ائتنا بالشَّفْرَةِ نعْبَث بها. فأنكرت عليه ، فقال : ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخْطمُها وأزمُّها غير كلمتي هذه ، فلا تحفظونها علي ، واحفظوا ما أقول لكم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات : اللهم ، إني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرشد ، وأسألك شكر نعمتك ، وأسألك حسن عبادتك ، وأسألك قلبا سليما ، وأسألك لسانا صادقا ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب"[١].

قوله تعالى:{هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ} [التوبة : ٣٥]، أي:" يقال لهم تبكيتاً وتقريعاً: هذا ما كنزتموه لأنفسكم"[٢].

قال الزمخشري:" قوله {لأنفسكم}، أى: كنزتموه لننتفع به نفوسكم وتلتذ وتحصل لها الأغراض التي حامت حولها وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم وتتعذب وهو توبيخ لهم"[٣].

قوله تعالى:{فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ} [التوبة : ٣٥]، أي:" ، فذوقوا العذاب الموجع؛ بسبب كنزكم وإمساككم"[٤].

قال البغوي:" أي: تمنعون حقوق الله تعالى في أموالكم"[٥].

قال الزمخشري:" قوله {لأنفسكم}، أى: كنزتموه لننتفع به نفوسكم وتلتذ وتحصل لها الأغراض التي حامت حولها وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم وتتعذب وهو توبيخ"[٦].

قال السمعاني:" قوله تعالى: {هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون} وعيد وتهديد"[٧].

قال ابن كثير:" أي : يقال لهم هذا الكلام تبكيتا وتقريعا وتهكما ، كما في قوله : { ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ } [الدخان : ٤٨ ، ٤٩] أي : هذا بذاك ، وهو الذي كنتم تكنزون لأنفسكم ؛ ولهذا يقال : من أحب شيئا وقدمه على طاعة الله ، عذب به. وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم ، عذبوا بها ، كما كان أبو لهب ، لعنه الله ، جاهدًا في عداوة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه وامرأته تعينه في ذلك ، كانت يوم القيامة عونًا على عذابه أيضا { فِي جِيدِهَا } أي : في عنقها { حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ } [المسد : ٥] أي : تجمع من الحطب في النار وتلقي عليه ، ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه - كان - في الدنيا ، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها ، كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة ، فيحمى عليها في نار جهنم ، وناهيك بحرها ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم"[٨].

وقرئ: «تكنزون»، بضم النون، أى: وبال المال الذي كنتم تكنزونه أو وبال كونكم كانزين [٩].

الفوائد:

١- بيان عقوبة من يكنز المال ولا ينفق منه في سبيل الله وهي عقوبة شديدة.

---

[١] المسند (١٢٣/٤).
[٢] صفوة التفاسير:٤٩٧/١.
[٣] الكشاف:٢٦٩/٢.
[٤] التفسير الميسر:١٩٢.
[٥] تفسير البغوي:٤٤/٤.
[٦] الكشاف:٢٦٩/٢.
[٧] تفسير السمعاني:٣٠٧/٢.
[٨] تفسير ابن كثير:١٤١/٤.
[٩] انظر: الكشاف:٢٦٩/٢.

٢- دلت الآية على دخول النار في بعض الأعمال.

القرآن

{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)} [التوبة : ٣٦]

التفسير:

إنّ عدة الشهور في حكم الله وفيما كُتب في اللوح المحفوظ اثنا عشر شهرًا، يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حُرُم؛ حرَّم الله فيهنَّ القتال (هي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب) ذلك هو الدين المستقيم، فلا تظلموا فيهن أنفسكم؛ لزيادة تحريمها، وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها، لا أنَّ الظلم في غيرها جائز. وقاتلوا المشركين جميعًا كما يقاتلونكم جميعًا، واعلموا أن الله مع أهل التقوى بتأييده ونصره.

قوله تعالى:{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [التوبة : ٣٦]، أي:" إنّ عدة الشهور في حكم الله وفيما كُتب في اللوح المحفوظ اثنا عشر شهرًا، يوم خلق السموات والأرض"[١].

قوله تعالى:{مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ} [التوبة : ٣٦]، أي:" منها أربعة حُرُم؛ حرَّم الله فيهنَّ القتال (هي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب)"[٢].

قال الماوردي:" يعني أن من الاثني عشر شهراً أربعة حرم ، يعني بالحرم تعظيم انتهاك المحارم فيها"[٣].

قال ابن قتيبة:" والأربعة الحرم: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب. ورجب الشهر الأصم"[٤].

روي عن رسول الله-ﷺ-، قال:" إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر بين جمادى وشعبان. أى شهر هذا أليس ذى الحجة؟ قالوا بلى، أى بلد هذا أليس البلدة الحرام؟ قالوا بلى. أى يوم هذا أليس يوم النحر؟ قالوا بلى. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا. وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه، ألا هل بلغت"[٥].

وروي عن عن ابن عمر قال : خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنًى في أوسط أيام التشريق ، فقال : يا أيها الناس ، إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا ، منها أربعة حرم ، أوّلهن رجبُ مُضَر بين جمادى وشعبان ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم"[٦].

قوله تعالى:{ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} [التوبة : ٣٦]، أي:" ذلك هو الدين المستقيم، فلا تظلموا فيهن أنفسكم؛ لزيادة تحريمها، وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها، لا أنَّ الظلم في غيرها جائز"[٧].

---

[١]التفسير الميسر:١٩٢.

[٢]التفسير الميسر:١٩٢.

[٣] النكت والعيون:٣٦٠/٢.

[٤] غريب القرآن:١٨٥.

[٥]أخرجه أحمد (٣٧/٥، رقم ٢٠٤٠٢) ، والبخارى (٢١١٠/٥، رقم ٥٢٣٠) ، ومسلم (١٣٠٥/٣، رقم ١٦٧٩) ١٦٧٩) ، وأبو داود (١٩٥/٢، رقم ١٩٤٧) . وأخرجه أيضًا: ابن حبان (٣١٢/١٣، رقم ٥٩٧٤).

[٦] أخرجه الطبري(١٦٦٨٤):ص٢٣٤/١٤. قال المحقق:" وهذا إسناد ضعيف ، لضعف موسى بن عبيدة الربذي".

[٧]التفسير الميسر:١٩٢.

قال الطبري:" هذا الذي أخبرتكم به ، من أن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله ، وأن منها أربعة حرمًا : هو الدين المستقيم، فلا تعصوا الله فيها ، ولا تحلُّوا فيهن ما حرَّم الله عليكم ، فتكسبوا أنفسكم ما لا قِبَل لها به من سخط الله وعقابه"[١].

عن ابن زيد:"{فلا تظلموا فيهن أنفسكم}، قال : الظلم العمل بمعاصي الله ، والترك لطاعته"[٢].

وفي قوله تعالى:{ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} [التوبة : ٣٦]، وجهان:

أحدهما : أي ذلك الحساب الصحيح والعدد المستوفي ، قاله ابن قتيبة[٣].

والثاني : أي: المستقيم. قاله السدي[٤]، وابن زيد[٥].

وقال الكلبي:"يعني: القضاء الحق المستقيم"[٦].

وفي قوله تعالى:{فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} [التوبة : ٣٦]، وجوه:

أحدها : فلا تظلموها بمعاصي الله تعالى في الشهور الاثني عشر كلها ، قاله ابن عباس[٧].

والثاني : فلا تظلموها بمعاصي الله في الأربعة الأشهر ، قاله قتادة[٨].

والثالث : فلا تظلموا أنفسكم في الأربعة الأشهر الحرم بإحلالها بعد تحريم الله تعالى لها ، قاله الحسن[٩]، وابن إسحاق[١٠].

والرابع : فلا تظلموا فيها أنفسكم أي تتركوا فيها قتال عدوكم ، حكاه الماوردي عن ابن بحر[١١].

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب ، قولُ من قال : فلا تظلموا في الأشهر الأربعة أنفسَكم ، باستحلال حرامها ، فإن الله عظمها وعظَّم حرمتها. وإنما قلنا : ذلك أولى بالصواب في تأويله ، لقوله : (فلا تظلموا فيهن) ، فأخرج الكناية عنه مُخْرَجَ الكناية عن جمع ما بين الثلاثة إلى العشرة. وذلك أن العرب تقول فيما بين الثلاثة إلى العشرة ، إذا كَنَتْ عنه : " فعلنا ذلك لثلاث ليال خلون ، ولأربعة أيام بقين " وإذا أخبرت عما فوق العشرة إلى العشرين قالت : " فعلنا ذلك لثلاث عشرة خلت ، ولأربع عشرة مضت " فكان في قوله جل ثناؤه : (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) ، وإخراجِه كناية عدد الشهور التي نهى المؤمنين عن ظلم أنفسهم فيهن مخرج عدد الجمع القليل من الثلاثة إلى العشرة ، الدليلُ الواضح على أن " الهاء والنون " ، من ذكر الأشهر الأربعة ، دون الاثنى العشر. لأن ذلك لو كان كناية عن " الاثنى عشر شهرًا " ، لكان : فلا تظلموا فيها أنفُسكم"[١٢].

فإن قيل : "فلم جعل بعض الشهور أعظم حرمة من بعض ؟

قيل : ليكون كفهم فيها عن المعاصي ذريعة إلى استدامة الكف في غيرها توطئة للنفس على فراقها مصلحة منه في عباده ولطفاً بهم"[١٣].

قوله تعالى:{وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} [التوبة : ٣٦]، أي:" وقاتلوا المشركين جميعًا كما يقاتلونكم جميعًا"[١٤].

---

[١] تفسير الطبري:٢٣٧/١٤.

[٢] أخرجه الطبري(١٦٦٩٥):ص٢٣٨/١٤.

[٣] انظر: غريب القرآن:١٨٥.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٦٩٣):ص٢٣٧/١٤.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٦٦٩٤):ص٢٣٧/١٤.

[٦] انظر: النكت والعيون:٣٦٠/٢.

[٧]انظر: تفسير الطبري(١٦٦٩٦):ص٢٣٨/١٤ .

[٨]انظر: تفسير الطبري(١٦٦٩٨):ص٢٣٨/١٤ -٢٣٩.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٠٠)، و(١٦٧٠١):ص٢٣٩/١٤.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٦٦٩٩):ص٢٣٩/١٤.

[١١] انظر: النكت والعيون:٣٦٠/٢.

[١٢] تفسير الطبري:٢٣٩/١٤.

[١٣] النكت والعيون:٣٦٠/٢.

[١٤]التفسير الميسر:١٩٢.

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه : وقاتلوا المشركين بالله ، أيها المؤمنون ، جميعًا غير مختلفين ، مؤتلفين غير مفترقين ، كما يقاتلكم المشركون جميعًا ، مجتمعين غير متفرقين"[١].

عن ابن عباس[٢] وقتادة[٣]، قوله : "{وقاتلوا المشركين كافة}، يقول : جميعًا".

، عن السدي : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) ، أما " كافة " ، فجميع ، وأمركم مجتمع"[٤].

قوله تعالى:{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة : ٣٦]، أي:" واعلموا أن الله مع أهل التقوى بتأييده ونصره"[٥].

قال الطبري:" معناه : واعلموا ، أيها المؤمنون بالله ، أنكم إن قاتلتم المشركين كافة ، واتقيتم الله فأطعتموه فيما أمركم ونهاكم ، ولم تخالفوا أمره فتعصوه ، كان الله معكم على عدوكم وعدوه من المشركين ، ومن كان الله معه لم يغلبه شيء ، لأن الله مع من اتقاه فخافه وأطاعه فيما كلفه من أمره ونهيه"[٦].

وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام : هل هو منسوخ أو محكم ؟ على قولين[٧]:

أحدهما - وهو الأشهر : أنه منسوخ ؛ لأنه تعالى قال هاهنا : { فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ } وأمر بقتال المشركين وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمرًا عاما ، فلو كان محرما ما في الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها ؛ ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام - وهو ذو القعدة - كما ثبت في الصحيحين : أنه خرج إلى هوازن في شوال ، فلما كسرهم واستفاء أموالهم ، ورجع فَلُّهم ، فلجئوا إلى الطائف - عَمد إلى الطائف فحاصرها أربعين يوما ، وانصرف ولم يفتتحها فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام.

والقول الآخر : أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام ، وأنه لم ينسخ تحريم الحرام ، لقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ } الآية [المائدة : ٢] وقال : { الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ } الآية[البقرة : ١٩٤] وقال : { فَإِذَا انْسَلَخَ الأشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ } [الآية] [التوبة : ٥٠].

وقد تقدم أنها الأربعة المقررة في كل سنة ، لا أشهر التسيير على أحد القولين.

وأما قوله تعالى : { وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً } فيحتمل أنه منقطع عما قبله ، وأنه حكم مستأنف ، ويكون من باب التهييج والتحضيض ، أي : كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضا لهم إذا حاربتموهم ، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون ، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم ، كما قال تعالى : { الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ } [البقرة : ١٩٤] وقال تعالى : { وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ } الآية[البقرة : ١٩١] ، وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف ، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام ، فإنه من تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف ، فإنهم هم الذين ابتدءوا القتال ، وجمعوا الرجال ، ودعوا إلى الحرب والنزال ، فعندما قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم ، فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم ، فنالوا من المسلمين ، وقتلوا جماعة ، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريبا من أربعين يوما. وكان ابتداؤه في شهر حلال ، ودخل الشهر الحرام ،

---

[١] تفسير الطبري:٢٤١/١٤.
[٢] أخرجه الطبري(١٦٧٠٤):ص٢٤٢/١٤.
[٣] أخرجه الطبري(١٦٧٠٥):ص٢٤٢/١٤.
[٤] أخرجه الطبري(١٦٧٠٣):ص٢٤١/١٤-٢٤٢.
[٥]التفسير الميسر:١٩٢.
[٦] تفسير الطبري:٢٤٢/١٤.
[٧] انظر: تفسير ابن كثير:١٤٩/٤-١٥٠.

فاستمر فيه أياما ، ثم قفل عنهم لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء ، وهذا هو أمر مقرر ، وله نظائر كثيرة[1].

الفوائد:

١- بيان أن شهور السنة الهجرية اثنا عشر شهرا١ وأيامها ثلثمائة٢ وخمسة وخمسون يوما.
٢- بيان أن الأشهر الحرم أربعة وقد بينها الرسول ﷺ وهي رجب، والقعدة والحجة ومحرم.
٣- حرمة الأشهر االحرم، ومضاعفة السيآت فيها أي قبح الذنوب فيها.
٤- صفة المعية لله تعالى وهي معية خاصة بالنصر والتأييد لأهل تقواه.

قال أهل العلم:" معية الله تعالى لعبده لا يعلم كيفيتها إلا الله عز وجل، ولكن على أية حال معية الله تعالى معية علم وسمع وإحاطة ورعاية وغير ذلك، هذا كله من معاني المعية، ولا يبعد أن يكون الله تعالى مع عبده معية لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى"[2].

القرآن

{إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)} [التوبة : ٣٧]

التفسير:

إن الذي كانت تفعله العرب في الجاهلية من تحريم أربعة أشهر من السنة عددًا لا تحديدًا بأسماء الأشهر التي حرَّمها الله، فيؤخرون بعضها أو يقدِّمونه ويجعلون مكانه من أشهر الحل ما أرادوا حسب حاجتهم للقتال، إن ذلك زيادة في الكفر، يضل الشيطان به الذين كفروا، يحلون الذي أخروا تحريمه من الأشهر الأربعة عامًا، ويحرمونه عاما؛ ليوافقوا عدد الشهور الأربعة، فيحلوا ما حرَّم الله منها. زَيَّن لهم الشيطان الأعمال السيئة. والله لا يوفق القوم الكافرين إلى الحق والصواب.

قوله تعالى:{إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} [التوبة : ٣٧]، أي:" إنما تأخير حرمة شهر لشهر آخر زيادة في الكفر"[3].

عن مجاهد : "{إنما النسيء زيادة في الكفر}، يقول : ازدادوا به كفرًا إلى كفرهم"[4].

عن ابن عمر قال: "وقف رسول الله- ﷺ- بالعقبة فقال: إنما النسيء من الشيطان زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا"[5].

قال الماوردي:" النسيء في الأشهر فهو تأخيرها ، مأخوذ من بيع النسيئة ، ومنه قوله تعالى :{مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْنُنسِهَا}، أي: نؤخرها"[6].

وفي «نَسْء الأشهر»، قولان :

أحدهما : أنهم كانوا يؤخرون السنة أحد عشر يوماً حتى يجعلوا المحرم صفراً ، قاله ابن عباس[7].

والثاني : أنهم كانوا يؤخرون الحج في كل سنتين شهراً[8].

---

[1] انظر: تفسير ابن كثير:٤/١٤٩-١٥٠.وانظر: الأحاديث في: السيرة النبوية لابن هشام (١/٤٥).
[2]شرح كتاب الإبانة من أصول الديانة، أبو الأشبال حسن الزهيري آل مندوه المنصوري المصري، [مرقم آليا، الدرس(١٦)].
[3] صفوة التفاسير:١/٤٩٧.
[4] أخرجه الطبري(١٦٧١٧):ص١٤/٢٥٠.
[5] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠١٤):ص١٧٩٣/٦.
[6] النكت والعيون:٢/٣٦١.
[7] انظر: النكت والعيون:٢/٣٦١.
[8] انظر: النكت والعيون:٢/٣٦١.

عن ابن عباس : "{إنما النسيء زيادة في الكفر}، قال : فهو المحرَّم ، كان يحرَّم عامًا ، وصفرُ عامًا ، وزيد صفرٌ آخر في الأشهر الحُرُم ، وكانوا يحرمون صفرًا مرة ، ويحلُّونه مرة ، فعاب الله ذلك. وكانت هوازن وغطفان وبنو سُلَيْم تفعله"[1].

عن مجاهد : "{إنما النسيء زيادة في الكفر}، قال : حجوا في ذي الحجة عامين ، ثم حجوا في المحرم عامين ، ثم حجُّوا في صفر عامين ، فكانوا يحجون في كل سنة في كل شهر عامين ، حتى وافقت حجة أبي بكر الآخرَ من العامين في ذي القعدة ، قبل حجة النبي ﷺ بسنة. ثم حج النبي ﷺ من قابلٍ في ذي الحجة ، فذلك حين يقول النبي ﷺ في خطبته:«إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»"[2].

قال أبو عبيدة:" كانت النسأة فى الجاهلية، وهم بنو نقيم من كنانة اجتبروا لدينهم ولشدتهم فى دينهم فى الجاهلية، إذا اجتمعت العربفى ذى الحجة للموسم وأرادوا ان يؤخروا ذا الحجة فى قابل لحاجة أو لحرب، نادى مناد: إنّ المحرّم فى صفر[3] وكانوا يسمّون المحرّم وصفر الصفرين، والمحرم صفر الأكبر، وصفر المحرم الأصغر فيحلون المحرم ويحرّمون صفر، فلا يفعلون ذلك كل عام، حتى إذا حجّ النبي صل الله عليه وسلم فى ذى الحجة الذي يكون فيه الحج قال: «إن الزمان قد استدار وعاد كهيئته، فاحفظوا العدد»[4]. فبنصرف الناس بذلك إلى منازلهم"[5].

قال الواحدي:" وكان النسيء في الشهور: تأخير حرمةٍ لشهر إلى شهر آخر ليست له تلك الحرمة"[6].

قال الأزهري: "النسيء في هذه الآية بمعنى الإنساء، اسم وضع موضع المصدر الحقيقي من أنسأت، قال: وقد قال بعضهم: نسأت في هذا الموضع بمعنى أنسأت، ومنه قول عمير بن قيس بن جذل الطعان[7]:

ألسنا الناسئين على معد   شهور الحل نجعلها حراما"[8].

واختلف في أول من نسأ الشهور منهم، على النحو الآتي:

فقال الزبير بن بكار : "أول من نسأ الشهور: نعيم بن ثعلبة بن الحارث ابن مالك بن كنانة"[9].

- عن ابن عباس قوله : "{إنما النسيء زيادة في الكفر}، قال : " النسيء " ، هو أن " جُنَادة بن عوف بن أمية الكناني " ، كان يوافي الموسم كلَّ عام ، وكان يُكنى " أبا ثُمَامة " ، فينادي : " ألا إنّ أبا ثمامة لا يُحَابُ ولا يُعَابُ ، ألا وإن صَفَر العامِ الأوَّلِ العامَ حلالٌ " ، فيحله الناس ، فيحرم صَفَر عامًا ، ويحرِّم المحرم عامًا ، فذلك قوله تعالى : {إنما النسيء زيادة في الكفر}، إلى قوله : {الكافرين}. وقوله : {إنما النسيء زيادة في الكفر}، يقول : يتركون المحرم عامًا ، وعامًا يحرِّمونه"[10].

---

[1] أخرجه الطبري(١٦٧٠٧):ص١٤/٢٤٤.

[2] أخرجه الطبري(١٦٧١٤):ص١٤/٢٤٨-٢٤٩.

[3]«صفر» : وكان أبو عبيدة لا يصرفه (اللسان).

[4]هذا الحديث مذكور فى حجة الوداع (السيرة ٢/ ٢٥٠) على خلاف فى الرواية، وهو كذلك فى البخاري فى بدء الخلق وتفسير سورة التوبة وباب الأضاحى والتوحيد، وفى مسلم فى القسامة.

[5] مجاز القرآن:٢٥٨/١-٢٥٩.

[6] التفسير البسيط:٤١٨/١٠.

[7]انظر البيت منسوبًا لعمير بن قيس في "سيرة ابن هشام" ١/ ٤٦، و"تهذيب اللغة" (نسأ) ٤/ ٣٥٥٦، و"لسان العرب" (نسأ) ٧/ ٤٤٠٣.

[8] التفسير البسيط:٤١٨/١٠. نقل عنه الواحدي، وكلام الأزهري، انظر: "تهذيب اللغة" (نسأ) ٤/ ٣٥٥٦.

[9] النكت والعيون:٣٦١/٢.

[10] أخرجه الطبري(١٦٧٠٦):ص١٤/٢٤٣.

- قال قتادة:" فكان أول من نَسَأ النسيء : بنو مالك بن كنانة ، وكانوا ثلاثة : أبو ثمامة صفوان بني أمية أحد بني فقيم بن الحارث ، ثم أحد بني كنانة"[1].
- عن أبي وائل : "{إنما النسيء زيادة في الكفر}، الآية ، وكان رجل من بني كنانة يُسَمَّى " النسيء " ، فكان يجعل المحرَّم صفرًا ، ويستحل فيه الغنائم ، فنزلت هذه الآية"[2].
- وقال ابن زيد : "هذا رجل من بني كنانة يقال له : " القَلَمَّس " ، كان في الجاهلية. وكانوا في الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض في الشهر الحرام ، يلقى الرجل قاتل أبيه فلا يمُدّ إليه يده. فلما كان هو ، قال : " أخرجوا بنا " ، قالوا له : " هذا المحرَّم " ! فقال : " ننسئه العام ، هما العام صفران ، فإذا كان عام قابلٍ قضينا ، فجعلناهما محرَّمَين " . قال : ففعل ذلك. فلما كان عام قابل قال : " لا تغزوا في صفر ، حرِّموه مع المحرم ، هما محرَّمان ، المحرَّم أنسأناه عامًا أوَّلُ ونقضيه. ذلك " الإنساء " ، وقال منافرهم : وَمِنَّا مُنْسِي الشُّهُورِ القَلَمَّسُ"[3].
- وحكي الثعلبي عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس :"أن أول من نسأ النسيء عمرو بن لحي بن بلتعة بن خندف"[4].
- وقال أيوب بن عمر الغفاري : "أول من نسأ الشهور القَلمّس الأكبر وهو عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ، وآخر من نسأ الشهور أبو ثمامة جنادة بن عوف إلى أن نزل هذا التحريم سنة عشر وكان ينادي إني أنسأ الشهور في كل عام ، ألا أن أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب ، فحرم الله سبحانه بهذه الآية النسيء وجعله زيادة في الكفر "[5].

قوله تعالى:{يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا} [التوبة : ٣٧]، أي:" يضل الشيطان به الذين كفروا"[6].

قوله تعالى:{يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ} [التوبة : ٣٧]، أي:" يحلون الذي أخروا تحريمه من الأشهر الأربعة عامًا، ويحرمونه عاما؛ ليوافقوا عدد الشهور الأربعة، فيحلوا ما حرَّم الله منها"[7].

عن ابن عباس قوله : "{ليواطئوا عدة ما حرم الله}، يقول : يشبهون"[8].

عن السدي قوله: "{ليواطؤا عدة ما حرم الله}، فيواطئوا أربعة أشهر، {فيحلوا ما حرم الله}، فيحلوا المحرم"[9].

قوله تعالى:{زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ} [التوبة : ٣٧]، أي:" زَيَّن لهم الشيطان الأعمال السيئة"[10].

وفي قوله تعالى:{زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ} [التوبة : ٣٧]، وجهان:

أحدهما : أن الله تعالى زينها بالشهرة لها والعلامة المميزة بها لتجتنب[11].

الثاني : أن أنفسهم والشيطان زين لهم ذلك بالتحسين والترغيب ليواقعوها ، وهو معنى قول الحسن[12].

---

[1] أخرجه الطبري(١٦٧١٢):ص١٤/٢٤٧.
[2] أخرجه الطبري(١٦٧٠٩):ص١٤/٢٤٦.
[3] أخرجه الطبري(١٦٧١٦):ص١٤/٢٤٩-٢٥٠.
[4] الكشف والبيان:٥/٤٥.
[5] النكت والعيون:٢/٣٦١.
[6] التفسير الميسر:١٩٣.
[7] التفسير الميسر:١٩٣.
[8] أخرجه الطبري(١٦٧١٨):ص١٤/٢٥٠.
[9] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٢٤):ص٦/١٧٩٥.
[10] التفسير الميسر:١٩٣.
[11] انظر: النكت والعيون:٢/٣٦٢.
[12] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٠٢٥):ص٦/١٧٩٦.

عن منصور قال: "سألت الحسن عن قوله: {زين لهم}، قال: زين لهم الشيطان"[1].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [التوبة : ٣٧]، أي:" والله لا يوفق القوم الكافرين إلى الحق والصواب"[2].

الفوائد:

١- حرمة الاحتيال على الشرع بالفتاوى الباطلة لإحلال الحرام، وأن هذا الاحتيال ما هو إلا زيادة في الإثم.
٢- تزيين الباطل وتحسين المنكر من الشيطان.
٣- حرمان أهل الكفر والفسق من هداية الله تعالى وتوفيقه لما هو حق وخير حالا ومآلا.

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨)} [التوبة : ٣٨]

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، ما بالكم إذا قيل لكم: اخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله لقتال أعدائكم تكاسلتم ولزمتم مساكنكم؟ هل آثرتم حظوظكم الدنيوية على نعيم الآخرة؟ فما تستمتعون به في الدنيا قليل زائل، أما نعيم الآخرة الذي أعده الله للمؤمنين المجاهدين فكثير دائم.

سبب النزول:

قال الواحدي:" نزلت في الحث على غزوة تبوك، وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما رجع من الطائف وغزوة حنين أمر بالجهاد لغزو الروم، وذلك في زمان عسرة من الناس وجدب من البلاد وشدة من الحر، حين أخرفت النخل وطابت الثمار، فعظم على الناس غزوة الروم وأحبوا الظلال والمقام في المساكن والمال، وشق عليهم الخروج إلى القتال، فلما علم الله تثاقل الناس أنزل هذه الآية"[3].

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [التوبة : ٣٨]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه"[4].

قوله تعالى:{مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ} [التوبة : ٣٨]، أي:" ما بالكم إذا قيل لكم: اخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله لقتال أعدائكم تكاسلتم ولزمتم مساكنكم؟"[5].

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، أيّ شيء أمرُكم إذا قال لكم رسولُ الله محمدٌ: اخرجوا من منازلكم إلى مغزاكم، تثاقلتم إلى لزوم أرضكم ومساكنكم والجلوس فيها.. وهذه الآية حثٌّ من الله جل ثناؤه المؤمنين به من أصحاب رسوله على غزو الروم ، وذلك غزوة رسول الله ﷺ تبوك"[6].

عن مجاهد : "{ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض}، أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح ، وبعد الطائف ، وبعد حنين. أمروا بالنَّفير في الصيف ، حين خُرِفت النخل، وطابت الثمار ، واشتَهُوا الظلال ، وشقّ عليهم المخرج"[7].

عن السدي قوله: "{اثاقلتم إلى الأرض}، فيقول: حين قعدوا وأبوا الخروج"[1].

---

[1] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٢٥):ص١٧٩٦/٦.
[2] التفسير الميسر:١٩٣.
[3] أسباب النزول:٢٤٦.
[4] التفسير الميسر:١٩٣.
[5] التفسير الميسر:١٩٣.
[6] تفسير الطبري:٢٥١/١٤-٢٥٢.
[7] أخرجه الطبري(١٦٧١٩):ص٢٥٣/١٤.

وفي قوله تعالى:{ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ} [التوبة : ٣٨]، ثلاثة وجوه:
أحدها : إلى الإقامة بأرضكم ووطنكم .
والثاني : إلى الأرض حين أخرجت الثمر والزرع .

عن مجاهد قوله: "{ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض}، حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح، وبعد الطائف وبعد حنين، أمروا بالنفر في الصيف حين خرفت النخل، وطابت الثمار واشتهوا الظلال وشق عليهم المخرج"[٢].

الثالث : اطمأننتم إلى الدنيا ، فسماها أرضاً لأنها فيها ، وهذا قول الضحاك[٣].

قوله تعالى:{أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ} [التوبة : ٣٨]، أي:" هل آثرتم حظوظكم الدنيوية على نعيم الآخرة؟"[٤].

قال الطبري:" أرضيتم بحظ الدنيا والدّعة فيها، عوضًا من نعيم الآخرة ، وما عند الله للمتقين في جنانه"[٥].

قال الماوردي:" يعني بمنافع الدنيا بدلاً من ثواب الآخرة، والفرق بين الرضا والإرادة أن الرضا لما مضى ، والإرادة لما يأتي"[٦].

عن شريح بن عبيد قال: "قال أبو ثعلبة: الله أحب إليكم أم الدنيا؟ قالوا: بل الله قال: فما بالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض فلم تخرجوا حتى يخرجكم الشرط من منازلكم؟ وإذا قيل لكم انصرفوا على بركة الله مأذونا لكم ضربتم أكبادها وأسهرتم عيونها، حتى تبلغوا أهليكم؟"[٧].

قوله تعالى:{فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ} [التوبة : ٣٨]، أي:" فما تستمتعون به في الدنيا قليل زائل، أما نعيم الآخرة الذي أعده الله للمؤمنين المجاهدين فكثير دائم"[٨].

قال الطبري:" يقول : فما الذي يستمتع به المتمتعون في الدنيا من عيشها ولذَّاتها في نعيم الآخرة والكرامة التي أعدَّها الله لأوليائه وأهل طاعته {إلا قليل} ، يسير. يقول لهم : فاطلبوا ، أيها المؤمنون ، نعيم الآخرة ، وشرف الكرامة التي عند الله لأوليائه ، بطاعتِه والمسارعة إلى الإجابة إلى أمره في النفير لجهاد عدوِّه"[٩].

عن قيس عن المستورد أخى بني فهر قال: «قال رسول الله ﷺ» «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم ترجع»[١٠].

الفوائد:

١- وجوب الخروج إلى الجهاد إذا دعا الإمام بالدعوة العامة وهو ما يعرف بالتعبئة العامة أو النفير العام.
٢- يجب أن يكون النفير في سبيل الله لا في سبيل غير سبيله تعالى.
٣- بيان حقارة الدنيا وضآلتها أمام الآخرة.
٤- إبطال شبهة الروافظ الطاعنين عن الصحابة، بأنهم " تثاقلوا عن الجهاد، واختاروا الركون إلى الحياة الدنيا، رغم علمهم بأنها متاع قليل"[١١].

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٢٧):ص١٧٩٦/٦.
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٢٦):ص١٧٩٦/٦.
[٣] انظر: النكت والعيون:٣٦٢/٢.
[٤] التفسير الميسر:١٩٣.
[٥] تفسير الطبري:٢٥٢/١٤.
[٦] النكت والعيون:٣٦٢/٢-٣٦٣.
[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٢٨):ص١٧٩٦/٦.
[٨] التفسير الميسر:١٩٣.
[٩] تفسير الطبري:٢٥٣/١٤.
[١٠] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٢٩):ص١٧٩٦/٦، والغمام احمد في المسند:٢٢٨/٤.
[١١]الانتصار للصحب والآل من افتراءات السماوي الضال:٢٢٣.

وجوابه: "أنه ليس في هاتين الآيتين مطعن على أصحاب النبي - ﷺ -، وإنما فيهما حث الله تعالى الصحابة على الجهاد، وذلك عندما أمر النبي - ﷺ - أصحابه في غزوة تبوك بغزو الروم، وكان ذلك في زمن عسرة وفاقة من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم -، مع شدة الحر وبعد السفر، فشق ذلك على بعضهم، فنزلت الآيات في الترغيب في الجهاد في سبيل الله، والتحذير من التثاقل عنه فاستجاب أصحاب النبي - ﷺ - لأمر ربهم"[١].

القرآن

{إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)} [التوبة : ٣٩]

التفسير:

إن لا تنفروا أيها المؤمنون إلى قتال عدوكم ينزلِ الله عقوبته بكم، ويأت بقوم آخرين ينفرون إذا استُنْفروا، ويطيعون الله ورسوله، ولن تضروا الله شيئًا بتولِّيكم عن الجهاد، فهو الغني عنكم وأنتم الفقراء إليه. وما يريده الله يكون لا محالة. والله على كل شيء قدير من نصر دينه ونبيه دونكم.

قوله تعالى:{إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [التوبة : ٣٩]، أي:" إن لا تنفروا أيها المؤمنون إلى قتال عدوكم ينزلِ الله عقوبته بكم"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسوله، متوعِّدَهم على ترك النَّفْر إلى عدوّهم من الروم: إن لم تنفروا، أيها المؤمنون، إلى من استنفركم رسول الله، يعذّبكم الله عاجلا في الدنيا، بترككم النَّفْر إليهم، عذابًا مُوجعًا"[٣].

وروي عن نجدة الخراساني قال: "سمعت ابن عباس، سئل عن قوله: {إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا}، قال: إن رسول الله ﷺ استنفر حيًّا من أحياء العرب فتثاقلوا عنه، فأمسك عنهم المطر، فكان ذلك عذابَهم، فذلك قوله: {إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليما}"[٤].

وعن قتادة: "{إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا}، استنفر الله المؤمنين في لَهَبَان الحرّ في غزوة تبوك قِبَلَ الشأم، على ما يعلم الله من الجَهْد"[٥].

قوله تعالى:{وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} [التوبة : ٣٩]، أي:" ، ويأت بقوم آخرين ينفرون إذا استُنْفروا، ويطيعون الله ورسوله"[٦].

قال الطبري:" قول: يستبدل الله بكم نبيَّه قومًا غيرَكم، ينفرون إذا استنفروا، ويجيبونه إذا دعوا، ويطيعون الله ورسوله"[٧].

قال القرطبي:" وهذا تهديد شديد ووعيد مؤكد في ترك النفير"[٨].

قوله تعالى:{وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا} [التوبة : ٣٩]، أي:" ولن تضروا الله شيئًا بتولِّيكم عن الجهاد، فهو الغني عنكم وأنتم الفقراء إليه"[٩].

قال الطبري:" يقول: ولا تضروا الله، بترككم النّفير ومعصيتكم إياه شيئًا، لأنه لا حاجة به إليكم، بل أنتم أهل الحاجة إليه، وهو الغني عنكم وأنتم الفقراء"[١].

---

[١] الانتصار للصحب والآل من افتراءات السماوي الضال:٢٢٣.
[٢] التفسير الميسر:١٩٣.
[٣] تفسير الطبري:٢٥٤/١٤.
[٤] أخرجه الطبري(١٦٧٢١):ص٢٥٤/١٤-٢٥٥.
[٥] أخرجه الطبري(١٦٧٢٣):ص٢٥٥/١٤.
[٦] التفسير الميسر:١٩٣.
[٧] تفسير الطبري:٢٥٤/١٤.
[٨] تفسير القرطبي:١٤١/٨.
[٩] التفسير الميسر:١٩٣.

وفي قوله تعالى:{وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا} [التوبة : ٣٩]، وجهان:
أحدهما : ولا تضروا الله بترك النفير ، قاله الحسن[٢].
والثاني : ولا تضرّوا الرسول ، لما تكفل الله تعالى به من نصرته ، قاله الزجاج[٣].
قال الزجاج:" هذا وعيد شديد في التخلف عن الجهاد، وأعلم انه يستبدل لنصر دينه ونبيه قوما غير مثاقلين عن النصر إلى أعدائه إذ أعلمهم الله عز وجل أنهم إن تركوا نصره فلن يضره ذلك شيئا كما لم يضرره إذ كان بمكة لا ناصرين له"[٤].
قوله تعالى:{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التوبة : ٣٩]، أي:" . والله على كل شيء قدير من نصر دينه ونبيه دونكم"[٥].
قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: والله على إهلاككم واستبدال قوم غيركم بكم، وعلى كل ما يشاء من الأشياء، قدير"[٦].
وفي حكم هذه الآية، قولان:
أحدهما: أنها منسوخة بقوله تعالى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} [التوبة : ١٢٢]. وهذا قول ابن عباس[٧].
قال ابن ابي حاتم:"وروي عن عكرمة[٨] والحسن[٩]، وزيد بن أسلم: إنها منسوخة"[١٠].
القول الثاني: أن الآيتين محكمتين. وهذا قول الطبري[١١]، وأبي سليمان الدمشقي[١٢].
قال ابن الجوزي:" لا تنافي بين الآيتين، وإنما حكم كل آية قائم في موضعها. فإن قلنا: إن قوله: {إلا تنفروا} أريد به غزوة تبوك فإنه كان قد فرض على الناس كافة النفير مع رسول الله ﷺ، ولهذا عاتب المخلفين وجرت قصة الثلاثة الذين خلفوا[١٣]، وإن قلنا: إن الذين استنفروا حي من العرب معروف كما ذكرنا في التفسير عن ابن عباس، فإنه قال: استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا من أحياء العرب فتثاقلوا عنه، وأمسك عنهم المطر فكان عذابهم[١٤]. فإن أولئك وجب عليهم النفير حين استنفروا... أبو يعلى عن بعض العلماء أنهم قالوا: ليس هاهنا نسخ، ومتى لم يقاوم أهل الثغور العدو ففرض على الناس النفير إليهم، ومتى استغنوا عن إعانة من ورائهم، عذر القاعدون عنهم"[١٥].
قال الطبري:" ولا خبرَ بالذي قال عكرمة والحسن ، من نسخ حكم هذه الآية التي ذكَرا ، يجب التسليم له ، ولا حجةَ نافٍ لصحة ذلك. وقد رأى ثبوت الحكم بذلك عددٌ من الصحابة والتابعين سنذكرهم بعدُ ، وجائزٌ أن يكون قوله : {إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا}، الخاص من الناس ، ويكون المراد به من استنفرَه رسول الله ﷺ فلم ينفر ، على ما ذكرنا من الرواية عن ابن

---

[١] تفسير الطبري:٢٥٤/١٤.
[٢] انظر: النكت والعيون:٢٦٣/٢.
[٣] انظر: معاني القرآن:٤٤٨/٢.
[٤] انظر: معاني القرآن:٤٤٨/٢.
[٥] التفسير الميسر:١٩٣.
[٦] تفسير الطبري:٢٥٤/١٤.
[٧] دانظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٠٣٥):ص١٧٩٨/٦.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٢٤):ص٢٥٥/١٤-٢٥٦.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٢٤):ص٢٥٥/١٤-٢٥٦.
[١٠] تفسير ابن أبي حاتم:١٧٩٨/٦.
[١١] انظر: تفسير الطبري:٢٥٦/١٤.
[١٢] انظر: نواسخ القرآن لاين الجوزي:٤٧٠/٢.
[١٣]كما جاء في آية (١١٨) من السورة نفسها .
[١٤]رواه أبو داود والبيهقي في سننهما وفي إسنادهما نجدة بن نفيع وهو مجهول كما قال الحافظ في التقريب (٣٥٦) وذكر السيوطي هذا الحديث في الدر المنثور ٣/ ٢٣٩، وزاد نسبته إلى ابن المنذر، وأبي الشيخ والحاكم، وابن مردويه.
[١٥] نواسخ القرآن:٤٧٠/٢-٤٧١.

عباس، وإذا كان ذلك كذلك ، كان قوله : {وما كان المؤمنون لينفروا كافة} ، نهيًا من الله المؤمنين عن إخلاء بلاد الإسلام بغير مؤمنٍ مقيم فيها ، وإعلامًا من الله لهم أن الواجب النَّفرُ على بعضهم دون بعض ، وذلك على من استُنْفِرَ منهم دون من لم يُسْتَنْفَر. وإذا كان ذلك كذلك ، لم يكن في إحدى الآيتين نسخ للأخرى ، وكان حكم كل واحدة منهما ماضيًا فيما عُنِيَتْ به"[1].

الفوائد:

١- فضيلة الجهاد.

٢- وجوب نصرة رسول الله ﷺ في دينه في أمته في سنته.

٣- ومن اسمائه تعالى:«القدير»: إذ "وصف الله نفسه بأنه قادر على كل شيء، أراده: لا يعترضه عجز ولا فتور"[2].

روي البيهقي عن عبد العزيز قال الحليمي، قال: "و«القدير»: التام القدرة لا يلابس قدرته عجز بوجه"[3].

القرآن

{إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)} [التوبة : ٤٠]

التفسير:

يا معشر أصحاب رسول الله ﷺ إن لا تنفروا معه أيها المؤمنون إذا استَنْفَركم، وإن لا تنصروه؛ فقد أيده الله ونصره يوم أخرجه الكفار من قريش من بلده (مكة) ، وهو ثاني اثنين (هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه) وألجؤوهما إلى نقب في جبل ثور بـ «مكة» ، فمكثا فيه ثلاث ليال، إذ يقول لصاحبه (أبي بكر) لما رأى منه الخوف عليه: لا تحزن إن الله معنا بنصره وتأييده، فأنزل الله الطمأنينة في قلب رسول الله ﷺ، وأعانه بجنود لم يرها أحد من البشر وهم الملائكة، فأنجاه الله من عدوه وأذل الله أعداءه، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى. وكلمةُ الله هي العليا، وذلك بإعلاء شأن الإسلام. والله عزيز في ملكه، حكيم في تدبير شؤون عباده.

قوله تعالى:{إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [التوبة : ٤٠]، أي:" يا معشر أصحاب رسول الله ﷺ إن لا تنفروا معه أيها المؤمنون إذا استَنْفَركم، وإن لا تنصروه؛ فقد أيده الله ونصره يوم أخرجه الكفار من قريش من بلده (مكة)"[4].

عن مجاهد : "{إلا تنصروه}، ذكر ما كان في أول شأنه حين بعثَه. يقول الله : فأنا فاعلٌ ذلك به وناصره ، كما نصرته إذ ذاك وهو ثاني اثنين"[5].

عن قتادة قوله : "{إلا تنصروه فقد نصره الله}، الآية ، قال : فكان صاحبَه أبو بكر ، وأما {الغار} ، فجبل بمكة يقال له : « ثَوْر »"[6].

قوله تعالى:{ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ} [التوبة : ٤٠]، أي:" وهو ثاني اثنين (هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه)، حين كان هو والصديق مختبئين في النقب في جبل ثور"[7].

قال الزجاج:" و{ثاني اثنين}، منصوب على الحال، المعنى: فقد نصره الله أحد اثنين، أي: نصره منفردا إلا من أبي بكر - رضي الله عنه -"[8].

---

[1] تفسير الطبري:٢٥٦/١٤.

[2] شأن الدعاء للخطابي:٨٥.

[3] الاسما والصفات:١١١/٢.

[4] التفسير الميسر:١٩٣.

[5] أخرجه الطبري(١٦٧٢٥):ص٢٥٨/١٤.

[6] أخرجه الطبري(١٦٧٢٧):ص٢٥٨/١٤-٢٥٩.

[7] انظر: التفسير الميسر:١٩٣، وصفوة التفاسير:٤٩٨/١.

[8] معاني القرآن:٤٤٩/٢.

عن أنس ، "أن أبا بكر رضي الله عنه حدَّثهم قال : "بينا أنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار وأقدامُ المشركين فوق رؤوسنا ، فقلت : يا رسول الله ، لو أن أحدهم رفع قَدَمَه أبصرنا! فقال : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟"[١].

عن عروة قال : "لما خرج النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه ، وكان لأبي بكر مَنِيحةٌ من غَنَم تروح على أهله ، فأرسل أبو بكر عامر بن فهيرة في الغنم إلى ثور. وكان عامر بن فهيرةَ يروح بتلك الغنم على النبي ﷺ بالغار في ثور ، وهو " الغار " الذي سماه الله في القرآن"[٢].

عن مجاهد قال : "مكث أبو بكر مع النبي ﷺ في الغار ثلاثًا"[٣].

عن الزهري : "{إذ هما في الغار}، قال : في الجبل الذي يسمَّى ثورًا ، مكث فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر ثلاث ليال"[٤].

قوله تعالى:{إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة : ٤٠]، أي:" حين يقول لصاحبه وهو أبو بكر الصديق تطميناً وتطييباً: لا تخف فالله معنا بالمعونة والنصر"[٥].

عمرو بن الحارث ، عن أبيه : "أن أبا بكر الصديق رحمة الله تعالى عليه حين خطب قال : أيُّكم يقرأ " سورة التوبة " ؟ قال رجل : أنا. قال : اقرأ. فلما بلغ : {إذ يقول لصاحبه لا تحزن}، بكى أبو بكر وقال : أنا والله صاحبُه"[٦].

قوله تعالى:{فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ} [التوبة : ٤٠]، أي:" فأنزل الله الطمأنينة في قلب رسول الله ﷺ"[٧].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : فأنزل الله طمأنينته وسكونه على رسوله وقد قيل : على أبي بكر"[٨].

وفي قوله تعالى:{فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ} [التوبة : ٤٠]، قولان:

أحدهما : على النبي -ﷺ- ، قاله الزجاج[٩].

والثاني : على أبي بكر لأن الله قد أعلم نبيه بالنصر[١٠].

قال الزجاج:" يجوز أن تكون «الهاء» التي في {عليه} لأبي بكر، وجائز أن تكون ترجع على النبي - ﷺ - لأن الله جل ثناؤه ألقى في قلبه ما سكن به وعلم أنهم غير واصلين إليه"[١١].

وروي عن ابن عباس :"{سكينته عليه}، قال: على أبي بكر، أن النبي- ﷺ- لم تزل السكينة معه "[١٢].

وعن حبيب ابن أبي ثابت في قوله: "{فأنزل الله سكينته عليه}، قال: نزلت على أبي بكر، فأما النبي- ﷺ- فكانت سكينته عليه قبل ذلك"[١٣].

وروي عن قتادة في قوله: "{فأنزل الله سكينته عليه}، أي: على رسوله وعلى المؤمنين"[١].

---

[١] أخرجه الطبري(١٦٧٢٩):ص١٤/٢٥٩.
[٢] أخرجه الطبري(١٦٧٢٨):ص١٤/٢٥٩.
[٣] أخرجه الطبري(١٦٧٣٠):ص١٤/٢٦٠.
[٤] أخرجه الطبري(١٦٧٣١):ص١٤/٢٦٠.
[٥] صفوة التفسير:١/٤٩٨.
[٦] أخرجه الطبري(١٦٧٣٢):ص١٤/٢٦٠.
[٧] التفسير الميسر:١٩٣.
[٨] تفسير الطبري:١٤/٢٦١.
[٩] انظر: معاني القرآن:٢/٤٤٩.
[١٠] انظر: النكت والعيون:٢/٣٦٤.
[١١] معاني القرآن:٢/٤٤٩.
[١٢]أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٤٧):ص٦/١٨٠١ .
[١٣]أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٤٦):ص٦/١٨٠١ .

وفي «السكينة،» أقوال:
أحدها : : أنها الرحمة ، وهو قول الربيع ابن أنس[٢]، وابن عباس[٣].
والثاني : أنها الطمأنينة ، قاله الضحاك[٤]، وهو مروي عن ابن عباس ايضا[٥].
والثالث : أنها الوقار ، وهو قول قتادة[٦].
والرابع : أنها شيء يسكن الله به قلوبهم ، قاله الحسن[٧]، وعطاء[٨].
والخامس: ريح هفَافة لها وجه كوجه الإنسان ، وهذا قول عليّ -عليه السلام-[٩].
والراجح-والله أعلم- هو تفسير (السكينة) بطمأنينة القلب وسكينته.
قوله تعالى:{وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا} [التوبة : ٤٠]، أي:" وأعانه بجنود لم يرها أحد من البشر وهم الملائكة"[١٠].
قال الطبري:" يقول: وقوّاه بجنودٍ من عنده من الملائكة ، لم تروها أنتم"[١١].
قال الزجاج:" أيده بملائكة يصرفون وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه"[١٢]
عن ابن عباس في قوله: "{فأيدنا}، يقول: قوينا"[١٣].
عن إسماعيل بن أبي خالد:"{وأيده}، قال: أعانه جبريل"[١٤]. وروي عن الربيع بن أنس: نحو ذلك[١٥].
وفي قوله تعالى:{ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا} [التوبة : ٤٠]، وجهان:
أحدهما : بالملائكة. قاله السدي[١٦].
والثاني : بالثقة بوعده واليقين بنصره[١٧].
وفي تأييده وجهان[١٨]:
أحدهما : إخفاء أثره في الغار حين طلب .
والثاني : المنع من التعرض له حين هاجر .
قوله تعالى:{وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا} [التوبة : ٤٠]، أي:" وجعل كلمة الذين كفروا السفلى. وكلمةُ الله هي العليا، وذلك بإعلاء شأن الإسلام"[١٩].
قال الطبري:" {وجعل كلمة الذين كفروا}، وهي كلمة الشرك {السُّفْلى}، لأنها قُهِرَت وأذِلَّت ، وأبطلها الله تعالى ، ومحق أهلها ، وكل مقهور ومغلوب فهو أسفل من الغالب ،

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٤٨):ص١٨٠١/٦ .
[٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:٤٧٠/٢. وأخرجه الطبري في تفسيره(٥٦٨٣):ص٣٢٩/٥.
[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٢٤٨١):ص٤٦٩/٢.
[٤] انظر: النكت والعيون:٣٦٤/٢.
[٥] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٠٤٥):ص١٨٠٠/٦-١٨٠١.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٢٤٨٢):ص٤٧٠/٢. وأخرجه الطبري(٥٦٨٤):ص:٣٢٩/٥.
[٧] أخرج ابن أبي حاتم(٢٤٨٠):ص٤٦٩/٢.
[٨] أخرج ابن ابي حاتم (٢٤٨٠):ص٤٦٩/٢. وأخرجه الطبري في تفسيره(٥٦٨٢):٣٢٩/٥.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٤٤):ص١٨٠٠/٦.
[١٠] التفسير الميسر:١٩٣.
[١١] تفسير الطبري:٢٦١/١٤.
[١٢] معاني القرآن:٤٤٩/٢.
[١٣] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٤٩):ص١٨٠١/٦.
[١٤] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٥٠):ص١٨٠١/٦.
[١٥] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٨٠١/٦. حكاه دون ذر الإسناد.
[١٦] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٠٥١):ص١٨٠١/٦.
[١٧] انظر: النكت والعيون:٣٦٥/٢.
[١٨] انظر: النكت والعيون:٣٦٥/٢.
[١٩] صفوة التفسير:٤٩٨/١.

والغالب هو الأعلى {وكلمة الله هي العليا}، يقول : ودين الله وتوحيده وقولُ لا إله إلا الله ، وهي كلمتُه {العليا}، على الشرك وأهله ، الغالبةُ "[١].

قال الصابوني:"أي:جعل كلمة الشرك سافلة دنيئة حقيرة، أذل بها الشرك والمشركين، وكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» هي الغالبة الظاهرة، أعزَّ الله بها المسلمين"[٢].

وفي قوله تعالى:{وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى} [التوبة : ٤٠]، قولان[٣]:

أحدهما : بانقطاع الحجة .

والثاني : جعل كلمة الذين كفروا السفلى بذُلّ الخوف ، وكلمة الله هي العليا بعز الظفر .

قال الماوردي:" {وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا}، بظهور الحجة[٤].

عن ابن عباس قوله : "{وجعل كلمة الذين كفروا السفلى}، وهي : الشرك بالله {وكلمة الله هي العليا}، وهي : لا إله إلا الله"[٥].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة : ٤٠]، أي:" والله عزيز في ملكه، حكيم في تدبير شؤون عباده"[٦].

قال الطبري:" يعني : {والله عزيز}، في انتقامه من أهل الكفر به ، لا يقهره قاهر ، ولا يغلبه غالب ، ولا ينصر من عاقبه ناصر {حكيم}، في تدبيره خلقَه ، وتصريفه إياهم في مشيئته"[٧].

الفوائد:

١- في هذه الآية منقبة عظيمة للإمام أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، إذ أن الله تعالى عتب في قصة الغار والخروج معه - ﷺ - على كل الأمة إلا على أبي بكر بقوله تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ}.

٢- أن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه.

٣- ومن الفوائد: إثبات اسمين من أسماء الله. وهما «العزيز»«الحكيم»:

- فـ«العزيز»:هو المنيع الذي لا يغلب"[٨].
- و«الحكيم»:"هو المحكم لخلق الأشياء، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها[٩].

القرآن

{انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)} [التوبة : ٤١]

التفسير:

اخرجوا -أيها المؤمنون- للجهاد في سبيل الله شبابًا وشيوخًا في العسر واليسر، على أي حال كنتم، وأنفقوا أموالكم في سبيل الله، وقاتلوا بأيديكم لإعلاء كلمة الله، ذلك الخروج والبذل خير لكم في حالكم ومآلكم من التثاقل والإمساك والتخلف، إن كنتم من أهل العلم بفضل الجهاد والثواب عند الله فافعلوا ما أُمرتم به، واستجيبوا لله ورسوله.

سبب النزول:

---

[١] تفسير الطبري:٢٦١/١٤.
[٢] صفوة التفسير:٤٩٩/١.
[٣] انظر: النكت والعيون:٣٦٥/٢.
[٤] انظر: النكت والعيون:٣٦٥/٢.
[٥] أخرجه الطبري(١٦٧٣٣):ص٢٦١/١٤.
[٦] صفوة التفسير:٤٩٨/١.
[٧] تفسير الطبري:٢٦٢/١٤.
[٨] شأن الدعاء:٤٧/١-٤٨.
[٩]انظر:شأن الدعاء:٧٢/١-٧٣.

عن مجاهد قوله: "{يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض}، الآية، قال: هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وحنين وبعد الطائف. أمرهم بالنَّفير في الصيف، حين اختُرِفت النخل، وطابت الثمار، واشتهوا الظلال، وشقَّ عليهم المخرج. قال: فقالوا: الثقيل، ذو الحاجة، والضَّيْعة، والشغل، والمنتشرُ به أمره في ذلك كله. فأنزل الله: {انفروا خفافا وثقالا}، [سورة التوبة: ٤١]"[١].

وروي المعتمر، عن أبيه قال:" زعم حضرميّ أنه ذُكر له أن ناسًا كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلا أو كبيرًا، فيقول: إن أجتنبْه إباءً، فإني آثم! فأنزل الله: {انفروا خفافًا وثقالا}"[٢].

وقال السدي: "جاء المقداد بن الأسود إلى رسول الله ﷺ، وكان عظيما سمينا، فشكا إليه وسأله أن يأذن له، فنزلت فيه: {انفروا خفافا وثقالا}"[٣].

قوله تعالى:{انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا} [التوبة : ٤١]، أي:" اخرجوا -أيها المؤمنون- للجهاد في سبيل الله شبابًا وشيوخًا في العسر واليسر، على أي حال كنتم"[٤].

قال ابن كثير:" أمر الله تعالى بالنفير العام مع الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، عام غزوة تبوك ، لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب ، وحَتَّم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المَنْشَط والمَكْرَه والعسر واليسر ، فقال : { انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا }"[٥].

عن مسلم بن صبيح قال : "أول ما نزل من «براءة»: {انفروا خفافًا وثقالا}"[٦].

وروي عن مجاهد قال : "إن أول ما نزل من «براءة» :{لقد نصركم الله في مواطن كثيرة}، قال : يعرّفهم نصره ، ويوطِّنهم لغزوة تَبُوك"[٧].

واختلف في تفسير قوله تعالى:{انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا} [التوبة : ٤١]، على وجوه:

أحدها : يعني شباباً وشيوخاً ، قاله أبو طلحة[٨]، والحسن[٩]، وأبو صالح[١٠]، وعكرمة[١١]، ومجاهد[١٢]، والضحاك[١٣]، وبشر بن عطية[١٤]، ومقاتل بن حيان[١٥].

عن أنس بن مالك: "أن أبا طلحة قرأ سورة «براءة» فأتى على هذه الآية :{انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله}، قال: أرى ربنا يستنفرنا شيوخا وشبانا، جهزوني بني، قال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع النبي- ﷺ- حتى مات، وغزوت مع أبو بكر حتى مات وغزوت مع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه فيها"[١٦].

عن المغيرة بن النعمان قال: "كان رجل من النَّخع، وكان شيخًا بادنًا، فأراد الغزوَ، فمنعه سعد بن أبي وقاص فقال: إن الله يقول: {انفروا خفافًا وثقالا}، فأذن له سعد، فقتل الشيخ،

---

[١] أخرجه الطبري(١٦٧٢٠):ص١٤/٢٥٣.
[٢] أخرجه الطبري(١٦٧٥٣):ص١٤/٢٦٦-٢٦٧.
[٣]مرسل، حكاه الواحدي عنه في أسباب النزول:٢٤٧، وعزاه في الدر (٣/ ٢٤٦) لابن حاتم وأبي الشيخ.
[٤] التفسير الميسر:١٩٤.
[٥] تفسير ابن كثير:٤/١٥٦.
[٦] اخرجه الطبري(١٦٧٥٧):ص١٤/٢٦٩.
[٧] اخرجه الطبري(١٦٧٥٩):ص١٤/٢٧٠.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٣٦):ص١٤/٢٦٢.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٣٤):ص١٤/٢٦٢.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٣٨):ص١٤/٣٦٣.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٣٩):ص١٤/٣٦٣.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٤٣):ص١٤/٣٦٤.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٤٠):ص١٤/٣٦٣.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٤١):ص١٤/٣٦٣.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٤٢):ص١٤/٣٦٤.
[١٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٥٥):ص٦/١٨٠٢.

فسأل عنه بعدُ عُمَرُ، فقال: ما فعل الشيخ الذي كأنّه من بني هاشم؟ فقالوا: قتل يا أمير المؤمنين!"[١].

عن حبان بن زيد الشرعبيّ قال: نفرنا مع صَفْوان بن عمرو، وكان واليًا على حمص قِبَلَ الأفْسوس، إلى الجَرَاجمة، فلقيت شيخًا كبيرًا هِمًّا، قد سقط حاجباه على عينيه، من أهل دمشق، على راحلته، فيمن أغار. فأقبلت عليه فقلت: يا عمِّ، لقد أعذر الله إليك! قال: فرفع حاجبيه، فقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافًا وثقالا من يحبَّه الله يبتَليه، ثم يعيده فيبْتليه، إنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا الله"[٢].

والثاني : أغنياء وفقراء، قاله أبو صالح[٣].

وروي عن الحسن:"{ انفروا خفافا وثقالا}، في العسر واليسر"[٤].

والثالث : مشاغيل وغير مشاغيل ، قاله الحكم[٥].

والرابع : نشاطاً وغير نشاط ، قاله ابن عباس[٦]، وقتادة[٧].

والخامس : ركباناً ومشاة ، قاله أبو عمرو الأوزاعي[٨].

والسادس : ذا صنعة وغير ذي صنعة ، قاله ابن زيد[٩].

والسابع : ذا عيال وغير ذي عيال ، قاله زيد بن أسلم[١٠].

والثامن : أصحاء وغير أصحاء ومرضى ، قاله جويبر[١١].

عن راشد بن سعد، "عمن رأى المقداد بن الأسود فارسَ رسول الله ﷺ على تابوتٍ من توابيت الصَّيارفة بحمص، وقد فَضَل عنها من عِظَمِه، فقلت له: لقد أعذر الله إليك! فقال: أبتْ علينا «سورة البعوث»[١٢]، {انفروا خفافًا وثقالا}"[١٣].

والتاسع : على خفة البعير وثقله ، حكاه الماوردي عن علي بن عيسى[١٤].

والعاشر : خفافاً إلى الطاعة وثقالاً عن المخالفة[١٥].

والحادي عشر : خفافاً إلى المبارزة ، وثقالاً في المصابرة. أفاده الماوردي[١٦].

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمر المؤمنين بالنَّفر لجهاد أعدائه في سبيله، خفافًا وثقالا. وقد يدخل في "الخفاف" كل من كان سهلا عليه النفر لقوة بدنه على ذلك، وصحة جسمه وشبابه، ومن كان ذا يُسْرٍ بمالٍ وفراغ من الاشتغال، وقادرًا على الظهر والركاب، ويدخل في "الثقال"، كل من كان بخلاف ذلك، من ضعيف الجسم وعليله وسقيمه، ومن مُعسِرٍ من المال، ومشتغل بضيعة ومعاش، ومن كان لا ظهرَ له ولا ركاب، والشيخ وذو السِّن والعِيَال. فإذ كان قد يدخل في "الخفاف" و"الثقال" من

---

[١] أخرجه الطبري(١٦٧٣٧):ص١٤/٢٥٣.

[٢] اخرجه الطبري(١٦٧٤٥):ص١٤/٣٦٤-٣٦٥.

[٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٤٨):ص١٤/٣٦٦.

[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٦٠):ص٦/١٨٠٣.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٤٧):ص١٤/٣٦٥.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٤٩):ص١٤/٣٦٦.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٥٠):ص١٤/٣٦٦.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٥١):ص١٤/٣٦٦.

[٩] انظر: تفسيرالطبري(١٦٧٥٢):ص١٤/٢٦٦.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٥٢):ص١٤/٣٦٦.

[١١] انظر: النكت والعيون:٢/٣٦٥.

[١٢] وفي رواية(١٦٧٥٦):ص١٤/٢٦٨." أبَتْ علينا سورة البُحُوث"

[١٣] اخرجه الطبري(١٦٧٥٥):ص١٤/٢٦٧.

[١٤] انظر: النكت والعيون:٢/٣٦٥. ونسبه إلى الطبري أيضا، ولم أجده في تفسيره، وسوف يأتي رأيه في الترجيح.

[١٥] انظر: النكت والعيون:٢/٣٦٥.

[١٦] انظر: النكت والعيون:٢/٣٦٦.

وصفنا من أهل الصفات التي ذكرنا، ولم يكن الله جل ثناؤه خصَّ من ذلك صنفًا دون صنف في الكتاب، ولا على لسان الرسول ﷺ، ولا نَصَب على خصوصه دليلا وجب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أمر المؤمنين من أصحاب رسوله بالنفر للجهاد في سبيله خفافًا وثقالا مع رسوله ﷺ، على كل حال من أحوال الخفّة والثقل"[١].

قوله تعالى:{وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة : ٤١]، أي:" وأنفقوا أموالكم في سبيل الله، وقاتلوا بأيديكم لإعلاء كلمة"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله من أصحاب رسول الله ﷺ : {جاهدوا}، أيها المؤمنون ، الكفارَ {بأموالكم}، فأنفقوها في مجاهدتهم على دين الله الذي شرعه لكم ، حتى ينقادوا لكم فيدخلوا فيه طوعًا أو كرهًا ، أو يعطوكم الجزية عن يدٍ صَغَارًا ، إن كانوا أهل كتابٍ ، أو تقتلوهم {وأنفسكم} ، يقول : وبأنفسكم ، فقاتلوهم بأيديكم ، يخزهم الله وينصركم عليهم"[٣].

قال ابن كثير:" ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله ، وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله ، فقال : { وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } "[٤].

قوله تعالى:{ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [التوبة : ٤١]، أي:" ذلك الخروج والبذل خير لكم في حالكم ومآلكم من التثاقل والإمساك والتخلف، إن كنتم من أهل العلم بفضل الجهاد والثواب عند الله فافعلوا ما أُمرتم به، واستجيبوا لله ورسوله"[٥].

قال الطبري:" يقول : هذا الذي آمركم به من النفر في سبيل الله تعالى خفافًا وثقالا وجهادِ أعدائه بأموالكم وأنفسكم ، خيرٌ لكم من التثاقل إلى الأرض إذا استنفرتم ، والخلودِ إليها ، والرضا بالقليل من متاع الحياة الدنيا عِوضًا من الآخرة إن كنتم من أهل العلم بحقيقة ما بُيِّن لكم من فضل الجهاد في سبيل الله على القعود عنه"[٦].

قال ابن كثير:" أي : هذا خير لكم في الدنيا والآخرة ، ولأنكم تغرمون في النفقة قليلا فيغنيكم الله أموال عدوكم في الدنيا ، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة ، كما قال النبي ﷺ : "وتَكفَّل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يرده إلى منزله نائلا ما نال من أجر أو غنيمة" [٧]، ولهذا قال تعالى : { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ } [البقرة : ٢١٦].

ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد : ...عن أنس ؛ عن رسول الله ﷺ قال لرجل : "أسلم". قال : أجدني كارها. قال : "أسلم وإن كنت كارها»[٨]"[٩].

وروي عن عكرمة والحسن البصري قالا:" قال: {إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا}، وقال: {مَا كَانَ لأهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ} ، إلى قوله: {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، فنسختها الآية التي تلتها: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً} ، إلى قوله: {لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [سورة التوبة: ١٢٠ - ١٢٢]"[١٠].

---

[١] تفسير الطبري:٣٦٩/١٤.
[٢] التفسير الميسر:١٩٤.
[٣] تفسير الطبري:٢٧٠/١٤.
[٤] تفسير ابن كثير:١٥٧/٤.
[٥] التفسير الميسر:١٩٤.
[٦] تفسير الطبري:٢٧٠/١٤.
[٧]رواه البخاري في صحيحه برقم (٧٤٦٣) ومسلم في صحيحه برقم (١٨٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله الله عنه..
[٨]المسند (١٠٩/٣).
[٩] تفسير ابن كثير:١٥٨/٤.
[١٠] أخرجه الطبري(١٦٧٢٤):ص٢٥٥/١٤-٢٥٦.

قال الطبري:" ولا خبرَ بالذي قال عكرمة والحسن، من نسخ حكم هذه الآية التي ذكَرا، يجب التسليم له، ولا حجةَ نافٍ لصحة ذلك. وقد رأى ثبوت الحكم بذلك عددٌ من الصحابة والتابعين سنذكرهم بعدُ، وجائزٌ أن يكون قوله: {إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا}، الخاص من الناس، ويكون المراد به من استنفرَه رسول الله ﷺ فلم ينفر، على ما ذكرنا من الرواية عن ابن عباس.

وإذا كان ذلك كذلك، كان قوله: {وما كان المؤمنون لينفروا كافة}، نهيًا من الله المؤمنين عن إخلاء بلاد الإسلام بغير مؤمنٍ مقيم فيها، وإعلامًا من الله لهم أن الواجب النَّفرُ على بعضهم دون بعض، وذلك على من استُنْفِرَ منهم دون من لم يُسْتَنْفَر. وإذا كان ذلك كذلك، لم يكن في إحدى الآيتين نسخ للأخرى، وكان حكم كل واحدة منهما ماضيًا فيما عُنِيَتْ به"[1].

الفوائد:

١- من العبادات المالية الجهاد بالمال في سبيل الله عز وجل.

٢- أن دائرة العبادة تتسع بقدر امتداد النية لتشمل حياة الإنسان كلها، ما دام العمل موافقا لشرع الله سبحانه وتعالى، وما دامت نية العامل: ابتغاء وجه الله عز وجل. فأعمال الإنسان كلها عبادة إذا جمعت شرطي قبول العمل، وهذه الأعمال التي حملت اسم "العبادة" يمكن تصنيفها ضمن أنواع متعددة[2]:

- أولا: عبادات اعتقادية: وهي اعتقاد ما أخبر الله عز وجل به عن نفسه، وأخبر رسوله ﷺ عن ربه؛ من أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه، وما اشبه ذلك.

ودليل هذا النوع، قول الله عز وجل: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ} [البقرة: ١٧٧] .

- ثانيا: عبادات قلبية: وهي أعمال القلوب؛ كمحبة الله، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، ورجائه، وإخلاص الوجه له، والصبر على أوامره ونواهيه وأقداره، والرضا به وله وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والإخبات إليه، والطمأنينة به، ونحو ذلك من أعمال القلوب التي لا يجوز أن يقصد بها إلا الله عز وجل.

ومن أدلة هذا النوع: قول الله عز وجل: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [المائدة: ٢٣] ، وقوله سبحانه وتعالى: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ} [الزمر: ٥٤] ، وقوله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠] .

- ثالثا: عبادات قولية: ومن أجلها: النطق بكلمة الإخلاص "لا إله إلا الله"، والدعاء إلى الله والذب عنه، والقيام بذكره عز وجل، وتبليغ دينه، وقراءة القرآن، ونحو ذلك.

ومن أدلة هذا النوع: قول الله عز وجل: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥] ، وقوله سبحانه وتعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النحل: ٩٨] ، وقوله عز وجل: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠] .

- رابعا: عبادات بدنية: وتشمل اعمال الجوارح؛ من صلاة، وجهاد، وحج، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك.

ومن أدلة هذا النوع: قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الحج: ٧٧] ، وقوله ﷻ: {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} بالحج: ٢٩] ، وقوله سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا

---

[1] تفسير الطبري:٢٥٦/١٤.

[2] انظر تجريد التوحيد المفيد للمقريزي: ص١١٧ وما بعدها.

الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الجمعة: ٩] .

- خامسا: عبادات مالية: وتشمل إخراج الزكاة من المال، امتثالا لأمر الله، والوفاء بالنذر، والجهاد بالمال في سبيل الله عز وجل.

ومن أدلة هذا النوع: قول الله عز وجل: {وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة: ١١٠] ، وقوله سبحانه وتعالى: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [التوبة: ٤١] ، وقول الله عز وجل: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا} [الإنسان: ٧] .

إذًا العبادة تشمل جميع مجالات الحياة، بل تشمل الحياة بأسرها؛ فالحياة، والمحيا، والممات لله رب العالمين لا شريك له، كما قال سبحانه: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] .

٣- أن الجهاد كما يكون بالنفس يكون بالمال وهو خير من تركه حالا ومآلا.

القرآن

{لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢)} [التوبة : ٤٢]

التفسير:

وبَّخ الله جلَّ جلاله جماعة من المنافقين استأذنوا رسول الله ﷺ في التخلف عن غزوة (تبوك) مبينًا أنه لو كان خروجهم إلى غنيمة قريبة سهلة المنال لاتبعوك، ولكن لما دعوا إلى قتال الروم في أطراف بلاد (الشام) في وقت الحر تخاذلوا، وتخلفوا، وسيعتذرون لتخلفهم عن الخروج حالفين بأنهم لا يستطيعون ذلك، يهلكون أنفسهم بالكذب والنفاق، والله يعلم إنهم لكاذبون فيما يبدون لك من الأعذار.

قوله تعالى:{لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا} [التوبة : ٤٢]، أي:" لو كان ما دعوا إليه غُنماً قريباص سهل المنال"[١].

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه للنبي ﷺ ، وكانت جماعة من أصحابه قد استأذنوه في التخلُّف عنه حين خرج إلى تبوك ، فأذن لهم : لو كان ما تدعو إليه المتخلفين عنك والمستأذنيك في ترك الخروج معك إلى مغزاك الذي استنفرتهم إليه {عرضا قريبا}، يقول : غنيمة حاضرة"[٢].

قوله تعالى:{وَسَفَرًا قَاصِدًا} [التوبة : ٤٢]، أي:" وسفراً وسطاً ليس ببعيد"[٣].

قال الماوردي:" أي: سهلاً مقتصداً"[٤].

قال الطبري:" يقول : وموضعًا قريبًا سهلا "[٥].

قوله تعالى:{لَاتَّبَعُوكَ} [التوبة : ٤٢]، أي:" لخرجوا معك لا لوجه الله بل طمعاً في الغنيمة"[٦].

قال الطبري:أي:" نفروا معك إليهما،ولكنك استنفرتهم إلى موضع بعيد ، وكلفتهم سفرًا شاقًّا عليهم ، لأنك استنهضتهم في وقت الحرّ ، وزمان القَيْظ وحين الحاجة إلى الكِنّ"[١].

---

[١] صفوة التفاسير:٤٩٩/١.
[٢] تفسير الطبري:٣٧١/١٤.
[٣] صفوة التفاسير:٤٩٩/١.
[٤] النكت والعيون:٣٦٧/٢.
[٥] تفسير الطبري:٣٧١/١٤.
[٦] صفوة التفاسير:٤٩٩/١.

قوله تعالى:{وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ} [التوبة : ٤٢]، أي:" ولكن بعدت عليهم الطريق والمسافة الشاقة ولذلك اعتذروا عن الخروج لما في قلوبهم من النفاق"[٢].

قوله تعالى:{وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ} [التوبة : ٤٢]، أي:" وسيحلفون لكم معتذرين بأعذار كاذبة لو قدرنا على الخروج معكم لما تأخرنا، ولو كان لنا سعة في المال أو قوة في الأبدان لخرجنا للجهاد معكم"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : وسيحلف لك ، يا محمد ، هؤلاء المستأذنوك في ترك الخروج معك ، اعتذارًا منهم إليك بالباطل ، لتقبل منهم عذرهم ، وتأذن لهم في التخلُّف عنك ، بالله كاذبين " لو استطعنا لخرجنا معكم " ، يقول : لو أطقنا الخروجَ معكم بوجود السَّعة والمراكب والظهور وما لا بُدَّ للمسافر والغازي منه ، وصحة البدن والقوى ، لخرجنا معكم إلى عدوّكم"[٤].

عن قتادة قوله : "{لو كان عرضًا قريبًا}، إلى قوله{لكاذبون}، إنهم يستطيعون الخروج ، ولكن كان تَبْطِئَةً من عند أنفسهم والشيطان ، وزَهَادة في الخير"[٥].

وفي قوله تعالى:{لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ} [التوبة : ٤٢]، وجهان[٦]:

أحدهما : لو استطعنا فراق أوطاننا وترك ثمارنا .

والثاني : لو استطعنا مالاً نستمده ونفقةً نخرج بها لخرجنا معكم في السفر الذي دعوا إليه فتأخروا عنه وهو غزوة تبوك .

قال الماوردي:"ثم جاءوا بعد ذلك يحلفون بما أخبر الله عنهم من أنهم لو استطاعوا لخرجوا تصديقاً لقوله تعالى وتصحيحاً لرسالة نبيه -ﷺ- "[٧].

قوله تعالى:{يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ} [التوبة : ٤٢]، أي:" يوقعون أنفسهم في الهلاك بأيمانهم الكاذبة"[٨].

قال الطبري:" يقول : يوجبون لأنفسهم ، بحلفهم بالله كاذبين ، الهلاك والعطب ، لأنهم يورثونها سَخَط الله ، ويكسبونها أليم عقابه "[٩].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [التوبة : ٤٢]، أي:" ، والله يعلم إنهم لكاذبون فيما يبدون لك من الأعذار"[١٠].

قال الطبري:" في حلفهم بالله : (لو استطعنا لخرجنا معكم) ، لأنهم كانوا للخروج مطيقين ، بوجود السبيل إلى ذلك بالذي كان عندهم من الأموال ، مما يحتاج إليه الغازي في غزوه ، والمسافر في سفره ، وصحة الأبدان وقوَى الأجسام "[١١].

عن ابن إسحاق : "{والله يعلم إنهم لكاذبون}، أي : إنهم يستطيعون"[١٢].

الفوائد:

١- أن المؤمنين الذين يبعثهم إيمانهم بالله ورسوله على التضحية بالأموال والراحة وبكل شيء، وأما المنافقون فليس لديهم ما يبعثهم.

---

[١] تفسير الطبري:٣٧١/١٤.
[٢] صفوة التفاسير:٤٩٩/١.
[٣] صفوة التفاسير:٤٩٩/١.
[٤] تفسير الطبري:٣٧١/١٤.
[٥] أخرجه الطبري(١٦٧٦٠):ص٢٧٢/١٤.
[٦] انظر: النكت والعيون:٣٦٧/٢.
[٧] النكت والعيون:٣٦٧/٢.
[٨] صفوة التفاسير:٤٩٩/١.
[٩] تفسير الطبري:٣٧١/١٤.
[١٠]التفسير الميسر:١٩٤.
[١١] تفسير الطبري:٣٧/١٤-٢٧٢.
[١٢] أخرجه الطبري(١٦٧٦١):ص٢٧٢/١٤.

٢- في الآية الرد على المعتزلة إذ زعموا أن الاستطاعة إنما هي قبل الفعل وهي سلامة الجوارح وارتفاع الموانع فقط وأن القدرة المتقدمة على الفعل باقية فيه

وهذا القول باطل من جهتي العقل والنقل أما العقل فلأن القدرة الجاذبة أعني قدر العبد عرض من الأعراض وجملة الأعراض عندنا غير باقية أعني لا يبقى العرض زمانين.

والدليل على استحالة بقاء الأعراض أنها لو بقيت لاستحال عدمها وتقرير ذلك قد تقدم ويلزم صدور المقدور في حال عدم القدرة وهو محال، وأما النقل فقال الله عز وجل {وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون} إلى قوله تعالى {فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين}[١].

٣- أن الاستطاعة عند أهل السنة والجماعة قسمان:

أحدهما: سلامة الأسباب والآلات وصحة الجوارح والأعضاء، وهي المعنية بقوله تعالى:{وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً [آل عمران:٩٧] وبقوله تعالى: {فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا [المجادلة:٤] وبقوله تعالى خبرا عن أهل النفاق :{لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [التوبة:٤٢]، أي: لو كانت لنا الآلات والأسباب، وصحة التكليف تعتمد هذه الاستطاعة.

والثانية: الاستطاعة التي هي حقيقة القدرة التي يتهيأ بها الفعل، وهي المعنية بقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ} [هود:٢٠]، ألا ترى أن الله تعالى قد ذمهم بذلك والذم إنما يلحقهم بانعدام حقيقة القدرة عند وجود سلامة الأسباب وصحة الآلات لا بانعدام سلامة الأسباب وصحة الآلات لأن انتفاء تلك الاستطاعة لا يكون بتضييعه بل هو في ذلك مجبور فلم يلحقهم الذم بالامتناع عن الفعل عند انتفائها وكذا هي المعنية بقول صاحب موسى عليهما السلام: {قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} [الكهف:٦٧]، وقوله: {قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا} [الكهف:٧٥]، إذ لو كان المراد بها سلامة الأسباب والآلات لما عاتبه على ترك الصبر.

والاستطاعة الثانية عرض تحدث عندنا مقارنة للفعل ...[٢].

قال الطحاوي رحمه الله: " والاستطاعة التي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف به المخلوق به تكون مع الفعل وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكين وسلامة الآلات فهي قبل الفعل وبها يتعلق الخطاب"[٣].

قال الشارح: " والذي قاله عامة أهل السنة أن للعبد قدرة هي مناط الأمر والنهي وهذه قد تكون قبله لا يجب أن تكون معه والقدرة التي بها الفعل لابد أن تكون مع الفعل لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة.

وأما القدرة التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فقد تتقدم الأفعال وهذه القدرة المذكورة في قوله تعالى: {وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران:٩٧] وكذلك قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن:١٦] وكذا قوله تعالى {فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا} [المجادلة:٤]، والمراد منه استطاعة الأسباب والآلات ... وأما دليل ثبوت الاستطاعة التي هي حقيقة القدرة فقد ذكروا فيها قوله تعالى: {مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ

---

(١) انظر: مرهم العلل المعضلة في الرد على أئمة المعتزلة، اليافعي:١٦٦.

(٢)التمهيد:(ص ٥٣، ٥٤)، وانظر :تبصرة الأدلة: (ل ٣٣١ وما بعدها، والنور اللامع: (ل ١١٣، ١١٤)، وجامع المتون: (ص ١٨، ١٩)، وشرح العقيدة الطحاوية: للميداني الحنفي (ص ١٢٠، ١٢١).

(٣)شرح الطحاوية:ص ٤٩٩.

السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ} [هود:٢٠]، المراد نفي حقيقة القدرة لا نفي الأسباب والالات ... "[١].

وبهذا التفصيل ينحل الإشكال الذي وقعت فيه الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ومن وافقهم.

القرآن

{عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)} [التوبة : ٤٣]

التفسير:

عفا الله عنك -أيها النبي- عمَّا وقع منك مِن تَرْك الأولى والأكمل، وهو إذنك للمنافقين في القعود عن الجهاد، لأي سبب أَذِنْتَ لهؤلاء بالتخلف عن الغزوة، حتى يظهر لك الذين صدقوا في اعتذارهم وتعلم الكاذبين منهم في ذلك؟

سبب النزول:

عن عمرو بن ميمون الأودي قال : "اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء : إذنه للمنافقين ، وأخذه من الأسارى ، فأنزل الله : {عفا الله عنك لم أذنت لهم}، الآية"[٢].

قوله تعالى:{عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ} [التوبة : ٤٣]، أي:" عفا الله عنك -أيها النبي- عمَّا وقع منك مِن تَرْك الأولى والأكمل، وهو إذنك للمنافقين في القعود عن الجهاد، لأي سبب أَذِنْتَ لهؤلاء بالتخلف عن الغزوة"[٣].

قال الطبري:" وهذا عتاب من الله تعالى ذكره ، عاتبٌ به نبيَّه ﷺ في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه ، حين شخص إلى تبوك لغزو الروم ، من المنافقين. يقول جل ثناؤه : {عفا الله عنك} ، يا محمد ، ما كان منك في إذنك لهؤلاء المنافقين الذي استأذنوك في ترك الخروج معك ، وفي التخلف عنك ، من قبل أن تعلم صدقه من كذبه، {لِم أذنت لهم}، لأي شيء أذنت لهم ؟ "[٤].

قال الصابوني:" تلطف في عتاب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قدم العفو على العتاب إكراماً له عليه السلام والمعنى سامحك الله يا محمد لم أذنت لهؤلاء المنافقين في التخلف عن الخرنوج معك بمجرد الاعتذار!!"[٥].

قال الزمخشري:"معناه: مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم"[٦].

قال القرطبي:" قوله تعالى: {عفا الله عنك لم أذنت لهم}، قيل: هو افتتاح كلام، كما تقول: أصلحك الله وأعزك ورحمك! كان كذا وكذا. وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على قوله:{عفا الله عنك}، حكاه مكي والمهدوي والنحاس. وأخبره بالعفو قبل الذنب لئلا يطير قلبه فرقا[٧]. وقيل: المعنى: عفا الله عنك ما كان من ذنبك في أن أذنت لهم، فلا يحسن الوقف على قوله:{عفا الله عنك} على هذا التقدير، حكاه المهدوي واختاره النحاس. ثم قيل: في الإذن قولان:

[الأول]: {لم أذنت لهم} في الخروج معك، وفي خروجهم بلا عدة ونية صادقة فساد.

[الثاني}: {لم أذنت لهم} في القعود لما اعتلوا بأعذار.

---

[١] شرح الطحاوية:(٤٩٩ - ٥٠١)، وانظر :الدرء: (١/ ٦٠ - ٦٢)، والفتاوى: (٨/ ١٢٩، ١٣٠، ٢٩٠ - ٣٠٢، ٣٧١ - ٣٧٧، ٣٩٠ - ٣٩٢، ٤٦٩ - ٤٧٤، ٤٧٩، ٤٨٠، ١٨/ ١٧٢، ١٧٣)، والقضاء والقدر، المحمود (ص ٢١٢ – ٢١٤).

[٢] أخرجه الطبري(١٦٧٦٥):ص٢٧٣/١٤.

[٣] التفسير الميسر:١٩٤.

[٤] تفسير الطبري:٢٧٢/١٤-٢٧٣.

[٥] صفوة التفاسير:٤٩٩/١.

[٦] الكشاف:٢٧٤/٢.

[٧] الفرق بالتحريك: الخوف والجزع..

ذكرهما القشيري. قال: وهذا عتاب تلطف إذ قال:{عفا الله عنك}. وكان عليه السلام أذن من غير وحي نزل فيه"[(١)].

عن موسى بن سَرْوان، قال : "سألت مورِّقًا عن قوله : {عفا الله عنك}، قال : عاتبه ربه"[(٢)].

عن مِسْعَر عن عون قال : "هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة فقال: { عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ }"[(٣)].

عن مجاهد : "{عفا الله عنك لم أذنت لهم}، قال : ناسٌ قالوا : استأذِنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا"[(٤)].

عن قتادة قوله : "{عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا}، الآية ، عاتبه كما تسمعون ، ثم أنزل الله التي في « سورة النور »، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء ، فقال : {فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ} [سورة النور : ٦٢] ، فجعله الله رخصةً في ذلك من ذلك"[(٥)].

قوله تعالى:{حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} [التوبة : ٤٣]، أي:" حتى يظهر لك الذين صدقوا في اعتذارهم وتعلم الكاذبين منهم في ذلك"[(٦)].

قال ابن كثير:" يقول تعالى : هلا تركتهم لما استأذنوك ، فلم تأذن لأحد منهم في القعود ، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب ، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه"[(٧)].

قال الزمخشري:" هلا استأنيت بالإذن حتى يتبين لك من صدق في عذره ممن كذب فيه"[(٨)].

قال السبكي:" وفي هذه الآية من الملاطفة والأدب ما يظهر لأولى البصائر، فإنه كان مخيرا ﷺ، فاختار إحدى الخصلتين الجائزتين، وهي الإذن، فأتت الآية الكريمة ببيان ما كان يظهر من حالهم لو لم يأذن لهم، وصدرت بالعفو لئلا يحمل ﷺ على قلبه من ذلك، وفي ذلك ما لا يخفى من الملاطفة والأدب.

وكم في القرآن من آية لا نستطيع حصرها مما فيه تصريح وإشارة إلى علو قدره صلى الله عليه وسلم أكثر مما ذكرناه بكثير، فسبحان من شرفه وكرمه وعظمه على سائر الخلق، وصلى الله على هذا النبي الكريم، وحشرنا في زمرته ومن نحب بمنه وكرمه"[(٩)].

الفوائد:

١- مشروعية العتاب للمحب.
٢- جواز مخالفة الأولى على النبي ﷺ لعدم علمه ما لم يعلمه الله تعالى.
٣- في الآية بيان أن أقوال الرسول ليست كلها وحي، فلو كان جميع أقواله وأفعاله - ﷺ - بالوحي لما نزل القرآن بالعتاب في بعض المواضع، كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التحريم : ١]، وقوله سبحانه: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٦٧)لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ

---

(١) تفسير القرطبي:١٥٤/٨.
(٢) أخرجه الطبري(١٦٧٦٧):ص٢٧٤/١٤.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم، كما في تفسير ابن كثير:١٥٩/٤.
(٤) أخرجه الطبري(١٦٧٦٣):ص٢٧٣/١٤.
(٥) أخرجه الطبري(١٦٧٦٤):ص٢٧٣/١٤.
(٦) التفسير الميسر:١٩٤.
(٧) تفسير ابن كثير:١٥٩/٤.
(٨) الكشاف:٢٧٤/٢.
(٩) السيف المسلول على من سب الرسول:٤٤٧.

عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الأنفال : ٦٧-٦٨]، وقوله تعالى: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} [التوبة : ٨٤]، نزلت هذه الآية في رواية بعد الصلاة على المنافق وفي رواية قبلها بعد ما صمم العزم عليها. وعلى التقديرين العتاب على الفعل ثابت فعل القلب كان أو فعل الجوارح.

٤- أن جمهور العلماء على القول بعصمة الأنبياء قبل النبوة، وبعدها من الكفر إجماعاً، وأنَّهم كذلك معصومون مأمونون فيما يبلغونه عن الله تعالى، وأنهم معصومون من جميع كبائر الذنوب بعد النبوة إجماعاً، وما يخل بالمروءة من صغائرها ترجيحاً.

٥- أن آيات عتاب المصطفى-ﷺ- جاءت على ثلاثة أنواع، هي:

أولا:- عتاب التوجيه:

وهو ما يقصد به توجيه الرسول - ﷺ -في مطلع الرسالة والدعوة إليها- إلى ما يراد منه في تبليغ ما أنزله الله عليه من آيات رسالته وتبليغ ذلك إلى الأمة مهما لاقى في سبيل ذلك من إعنات وعناد وعقبات وإيذاء، ووقوفه بعزيمة صارمة وقوة إرادة ماضية أمام طغيان الشرك وعناد المشركين وشدة تمسكهم بما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من وثنية ملحدة وكفر عنيد، فلا يبالي بما يلقاه منهم من تكذيب ورد لرسالته، وسخرية به واستهزاء بما يلقيه إليهم من آيات الله حتى يخرجهم من ظلمات هذه الجهالة البليدة إلى نور المعرفة والعلم فيعرفوا الحق ويتقلبوه ويهتدوا بهديه.

وهذا النوع ينقسم إلى قسمين فرعيين:

أولهما: عتاب الدفع وتقوية العزيمة لينهض الرسول - ﷺ - بأبلغ الطاقة البشرية في تبليغ الرسالة ونشر الدعوة وألا يبالي بشيء يقف معوقاً لرسالته وتبليغ دعوته.

ثانيهما: عتاب الإقصار والمقصود منه تخفيف اندفاع النبي - ﷺ - في التبليغ عما يشق على نفسه من الجهد، وبذل فوق ما يستطع من طاقته البشرية حتى كاد يبخع نفسه ويضعف قوته لعظم ما كان يكابد مما كاد -لو استمر فيه- أن يؤخر نشر الدعوة.

وهذا القسم كالثمرة للقسم الأول لأن ما جاء في قوة الدفع والإغراء وشدة الخطاب جعل رسول الله - ﷺ - يندفع بقوة إلى تبليغ ما أنزل عليه ربه من آيات تخاطب الكفار وتجبه المشركين تجبيها يغمزهم من جميع جوانبهم العقدية والعقلية والاجتماعية حتى كان - ﷺ - يبلغ في ذلك كل مبلغ مما كاد يمس نهوضه بتبليغ رسالته ونشر دعوته كما عبر عنه القرآن الكريم فيما سنسوقه من آيات، فجاء هذا للرجوع به - صلى الله عليه وسلم - إلى الطريق الوسط السوي الذي يؤدي به إلى تبليغ رسالته تبليغاً بيناً دون أن يلحقه في ذلك إرهاق ربما أخر من سير الرسالة وقوفاً " مع ما أمر به مما هو تسبب والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ".

ثانيا: عتاب التنبيه:

المقصود منه تنبيه الرسول - ﷺ - إلى ما يحتمل وقوعه منه لو لم ينبه إلى ذلك لوقع مثل ذلك الفعل منه مرة أخرى.

ثالثا: عتاب التحذير:

المقصود منه تحذير رسول الله - ﷺ - من عاقبة أمر وقع فيه خطأ في اجتهاد يترتب عليه لو لم يحذر منه - ضرر في التشريع والأحكام وسير الأمة على مقتضى رسالة رسول الله - ﷺ - ودعوته التي جاء بها من عند الله تعالى(١).

القرآن

---

(١) انظر: آيات عتاب المصطفى - ﷺ - في ضوء العصمة والاجتهاد، د. عويد بن عيَّاد بن عايد المطرَفي: ص١١٤ وما بعدها بتصرف.

{لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤)} [التوبة : ٤٤]

التفسير:

ليس من شأن المؤمنين بالله ورسوله واليوم الآخر أن يستأذنوك -أيها النبي- في التخلف عن الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، وإنما هذا من شأن المنافقين. والله عليم بمن خافه فاتقاه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه.

قوله تعالى:{لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ} [التوبة : ٤٤]، أي:" ليس من شأن المؤمنين بالله ورسوله واليوم الآخر أن يستأذنوك -أيها النبي- في التخلف عن الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، وإنما هذا من شأن المنافقين"[١].

قال الطبري:" وهذا إعلامٌ من الله نبيَّه ﷺ سِيمَا المنافقين : أن من علاماتهم التي يُعرفون بها تخلُّفهم عن الجهاد في سبيل الله ، باستئذانهم رسول الله ﷺ في تركهم الخروجَ معه إذا استنفروا بالمعاذير الكاذبة. يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ : يا محمد ، لا تأذنَنَّ في التخلُّف عنك إذا خرجت لغزو عدوّك ، لمن استأذنك في التخلف من غير عذر ، فإنه لا يستأذنك في ذلك إلا منافق لا يؤمن بالله واليوم الآخر. فأمَّا الذي يصدّق بالله ، ويقرُّ بوحدانيته وبالبعث والدار الآخرة والثواب والعقاب ، فإنه لا يستأذنك في ترك الغزو وجهاد أعداء الله بماله ونفسه"[٢].

عن ابن عباس قوله : "{لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله}، فهذا تعييرٌ للمنافقين حين استأذنوا في القُعود عن الجهاد من غير عُذْر ، وعَذَر الله المؤمنين ، فقال : {لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ}، [سورة النور : ٦٢]"[٣].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} [التوبة : ٤٤]، أي:" والله عليم بمن خافه فاتقاه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه"[٤].

قال الطبري:" يقول : والله ذو علم بمن خافه ، فاتقاه بأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، والمسارعة إلى طاعته في غزو عدوّه وجهادهم بماله ونفسه ، وغير ذلك من أمره ونهيه"[٥].

الفوائد:

١- فضيلة الإيمان والتقوى إذ صاحبهما لا يمكنه أن يتخلف عن الجهاد بالنفس والمال.

٢- أن الإيمان بالله وباليوم الآخر هو الذي يثبت المؤمنين في القتال، فلا يفرون، ولا يستأذنون: قال تعالى: {لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم}.

١- ومن أسمائه «العليم»، والْعِلْمُ صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجلَّ، فهو سبحانه «العليم»المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[٦].

قال الخطابي:"«العليم»: هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق. كقوله تعالى: {إنه عليم بذات الصدور} [لقمان:٢٣]. وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم، ولذلك قال -سبحانه-: {وفوق كل ذي علم عليم} [يوسف:٧٦]. والآدميون -وإن كانوا يوصفون بالعلم- فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات، دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فيخلف علمهم الجهل، ويعقب ذكرهم النسيان، وقد نجد الواحد منهم عالما بالفقه غير عالم بالنحو وعالما بهما غير عالم بالحساب وبالطب ونحوهما من الأمور، وعلم

---

[١] التفسير الميسر:١٩٤.

[٢] تفسير الطبري:١٤/٢٧٤-٢٧٥.

[٣] أخرجه الطبري(١٦٧٦٨):ص١٤/٢٧٥.

[٤] التفسير الميسر:١٩٤.

[٥] تفسير الطبري:١٤/٢٧٥.

[٦] انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١/١٨٨.

الله -سبحانه- علم حقيقة، وكمال {قد أحاط بكل شيء علما} [الطلاق:١٢]، {وأحصى كل شيء عددا} [الجن: ٢٨]"[١].

القرآن

{إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)} [التوبة : ٤٥]

التفسير:

إنما يطلب الإذن للتخلف عن الجهاد الذين لا يصدِّقون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يعملون صالحًا، وشكَّتْ قلوبهم في صحة ما جئت به -أيها النبي- من الإسلام وشرائعه، فهم في شكهم يتحيَّرون.

قوله تعالى:{إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [التوبة : ٤٥]، أي:" إنما يطلب الإذن للتخلف عن الجهاد الذين لا يصدِّقون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يعملون صالحًا"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ : إنما يستأذنك ، يا محمد ، في التخلف خِلافكَ ، وترك الجهاد معك ، من غير عذر بيّنٍ ، الذين لا يصدّقون بالله ، ولا يقرّون بتوحيده"[٣].

قال ابن كثير:" أي : في القعود ممن لا عذر له { الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ } أي : لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم"[٤].

قوله تعالى:{وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ} [التوبة : ٤٥]، أي:" وشكَّتْ قلوبهم في صحة ما جئت به -أيها النبي- من الإسلام وشرائعه"[٥].

قال الطبري:" يقول : وشكت قلوبهم في حقيقة وحدانية الله ، وفي ثواب أهل طاعته ، وعقابه أهل معاصيه "[٦].

قال ابن كثير:" أي : شكت في صحة ما جئتهم به "[٧].

قوله تعالى:{فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} [التوبة : ٤٥]، أي:" ، فهم في شكهم يتحيَّرون"[٨].
يتحيَّرون"[٨].

قال الطبري:" يقول : في شكهم متحيّرون ، وفي ظلمة الحيرة متردِّدون ، لا يعرفون حقًّا من باطل ، فيعملون على بصيرة. وهذه صفة المنافقين "[٩].

قال ابن كثير:" أي : يتحيرون ، يُقَدِّمُون رجلا ويؤخرون أخرى ، وليست لهم قدم ثابتة في شيء ، فهم قوم حيارى هَلْكى ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا "[١٠].

عن عكرمة والحسن البصري قالا قوله : (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله) ، إلى قوله : {فهم في ريبهم يترددون}، نسختهما الآية التي في «النور» :{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ}، إلى : {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، [سورة النور : ٦٢]"[١١].

الفوائد:

---

(١) شأن الدعاء:٥٧.
(٢) التفسير الميسر:١٩٤.
(٣) تفسير الطبري:٢٧٥/١٤.
(٤) تفسير ابن كثير:١٥٩/٤.
(٥) التفسير الميسر:١٩٤.
(٦) تفسير الطبري:٢٧٥/١٤.
(٧) تفسير ابن كثير:١٥٩/٤.
(٨) التفسير الميسر:١٩٤.
(٩) تفسير الطبري:٢٧٥/١٤.
(١٠) تفسير ابن كثير:١٥٩/٤.
(١١) أخرجه الطبري(١٦٧٦٩):ص٢٧٦/١٤.

١- من فوائد الآية الكريمة: أن محل الإيمان بمعنى التصديق الجازم هو القلب، لقوله تعالى: {إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون}، وقال تعالى: {وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرات : ١٤]، ولحديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عن-ه قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يقول الله من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه، فيخرجون قد امتحشوا وعادوا حمما، فيلقون فى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل، أو قال: حمية السيل، وقال النبى - ﷺ - ألم تروا أنها تخرج صفراء ملتوية»[١].

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: نفى الإيمان بالله واليوم الآخر عن المستأذنين في التخلف والقعود عن الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ووصفهم سبحانه وتعالى بارتياب القلوب، وأنهم متحيرون في أمرهم يوافقون المسلمين فيما يسهل عليهم من العبادات تغطية لما في قلوبهم من نفاق، ويلتمسون لأنفسهم الأعذار مما فيه مشقة عليهم أو إنفاق لأموالهم، قال تعالى (إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ}.

٣- خطر الشك في العقيدة وأنه سبب الحيرة والتردد، وصاحبه لا يقدر على أن يجاهد بمال ولا نفس.

٤- أن الريب والشك الحاصل في القلب بسبب الجهل والخوض في الشبهات، هو الداء الحقيقي الذي ترتب عليه الزيغ والنفاق، والسلوك السيئ.

وقد ذكر أهل العلم إشارات شروط «لا إله إلا الله»، ولعل هذه الشروط تكون واضحة من الإشارات التي سنشير إليها في هذه العجالة، فاحرص عليها -أيها المسلم- وتحقق بها؛ لئلا تقف أمام باب الجنة فترد؛ لأنه لا يفتح لك!

أولا:- إن لكل شيء حقيقة، ولكل كلمة معنى، فينبغي أولا: أن تعلم معنى كلمة التوحيد: "لا إله إلا الله" علما منافيا للجهل بها، في النفي والإثبات، فهي تنفي الألوهية عن غير الله تعالى وتُثبتها له سبحانه، فلا معبود بحق إلا الله، وقد سبق ذلك وافيا في بيان "كلمة التوحيد".

ومن الأدلة على هذا الشرط، قول الله تعالى:

{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} [محمد: ١٩] .

{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ} [آل عمران: ١٨] .

{إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [الزخرف: ٨٦] .

وأخرج مسلم عن عثمان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله، دخل الجنة"[٢].

ويكتمل هذا الشرط بما يليه، وهو الشرط الثاني:

ثانيا:- اليقين المنافي للشك: ومعنى ذلك أن تستيقن يقينا جازما بمدلول كلمة التوحيد؛ لأنها لا تقبل شكا، ولا ظنا، ولا ترددا، ولا ارتيابا، بل ينبغي أن تقوم على اليقين القاطع الجازم. فقد قال الله تعالى في وصف المؤمنين الصادقين: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُون} [الحجرات: ١٥] .

فلا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين، بل لا بد من استيقان القلب، والبعد عن الشك، فإن لم يحصل هذا اليقين فهو النفاق، والمنافقون هم الذين ارتابت قلوبهم، قال الله

---

[١] أخرجه أحمد (٥٦/٣، رقم ١١٥٥٠) ، والبخارى (٢٤٠٠/٥، رقم ٦١٩٢) ، وأبو يعلى (٤٢٣/٢، رقم ١٢١٩) ، وأبو عوانة (١٥٨/١، رقم ٤٥٥) ، والبيهقى (١٩١/١٠، رقم ٢٠٥٦٨) .
وللحديث أطراف أخرى منها: "إذا خلص المؤمنون"، "أما أهل النار"، "إن أهل النار"، "هل تمارون فى القمر".

[٢] صحيح مسلم(٢٦):ص٥٥/١.

تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} [التوبة: ٤٥] .

عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، هن رسول الله-ﷺ-: " أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة"(١).

وعن أبي هريرة-رضي الله عنه-: عن المصطفة-ﷺ-" اذهب بنعلى هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة"(٢).

ثالثا:- وإذا علمت، وتيقنت، فينبغي أن يكون لهذا العلم اليقيني أثره، فيتحقق الشرط الثالث، وهو: القبول لما اقتضته هذه الكلمة، بالقلب واللسان: فمن رد دعوة التوحيد ولم يقبلها كان كافرا، سواء كان ذلك الرد بسبب الكِبْر أو العناد أو الحسد، وقد قال الله سبحانه وتعالى عن الكفار الذين ردوها استكبارا: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ، وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ} [الصافات: ٣٥، ٣٦] .

أما المؤمنون الذين قبلوا هذه الكلمة، وعملوا بمقتضاها فلهم النجاة عند الله تعالى؛ وعدا منه، لا يخلف الله وعده: {ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ١٠٣]، وقال تعالى: {فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥] .

وحتى ميول الإنسان وما يهواه، ينبغي أن تكون من وراء ما جاء به الرسول -ﷺ- وتابعة له: " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به"(٣)، وهذا هو تمام الانقياد وغايته!

رابعا:- الصدق في قول كلمة التوحيد، صدقا منافيا للكذب والنفاق، حيث يجب أن يواطئ قلبه لسانه ويوافقه، فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم، ولكن لم يطابق هذا القول ما في قلوبهم، فصار قولهم كذبا ونفاقا مخالفا للإيمان، ونزلوا في الدرك الأسفل من النار: {يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} [الفتح: ١١] .

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ، يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ، فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [البقرة: ٨-١٠] .... في آيات كثيرة، وسور بمجملها في القرآن الكريم تتحدث عنهم.

وفي الصحيحين: "ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله.. صدقا من قلبه، إلا حرمه الله على النار"(٤) فاشترط الصدق من القلب، كما اشترطه في قوله لضمام بن ثعلبة: "إن صدق ليدخلن الجنة"(٥).

خامسا:- المحبة، فيحب المؤمن هذه الكلمة، ويحب العمل بمقتضاها، ويحب أهلها العاملين بها، وإلا لم يتحقق الإيمان، ولم تكتب له النجاة، ومن أحب شيئا من دون الله فقد جعله لله ندا: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} [البقرة: ١٦٥] .

---

(١) أخرجه أحمد (٤٢١/٢، رقم ٩٤٤٧) ، ومسلم (٥٥/١، رقم ٢٧).

(٢) أخرجه مسلم (٥٩/١، رقم ٣١) . وأخرجه أيضا: أبو عوانة (٢١/١، رقم ١٧) ، وابن حبان (٤٠٩/١٠، رقم ٤٥٤٣) .

ومن غريب الحديث: "الحائط": البستان.

(٣) ذكره الحكيم (١٦٤/٤) ، وأخرجه الخطيب (٣٦٨/٤) . وأخرجه أيضا: ابن أبى عاصم (١٢/١، رقم ١٥).

وأخرجه البغوي في "شرح السنة": ١/ ٢١٣، وقال النووي في "الأربعين النووية": حديث حسن صحيح، رويناه في "كتاب الحجة" بإسناد صحيح، والحجة كتاب للشيخ أبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي. وانظر "جامع العلوم والحكم" ص٣٦٤، ٣٦٥.

(٤) أخرجه البخاري في العلم، باب من خصّ بالعلم قوما ١/ ٢٢٦، ومسلم في الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاكّ: ١/ ٦١.

(٥) أخرجه البخاري في الإيمان / ١٠٦، ومسلم في الإيمان: ١/ ٤٠، ٤١..

وعلامة حب العبد ربه: تقديم محابه وإن خالفت هواه، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه، وموالاة من والى الله ورسوله، ومعاداة من عاداه، واتباع رسوله -ﷺ- واقتفاء أثره وقبول هداه. وهذه كلها شروط في المحبة لا تتحقق إلا بها[١]، وهي مؤشر على حب الله للعبد بعد ذلك[٢].

ومتى استقرت هذه الكلمة في النفس والقلب، فإنه لا يعدلها شيء، ولا يفضل عليها، فإن حبها يملأ القلب فلا يتسع لغيرها، وعندئذ يجد حلاوة الإيمان: "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار"[٣].

سادسا:- الإخلاص، ومعناه: صدق التوجه إلى الله تعالى، وتصفية العمل بصالح النية، عن كل شائبة من شوائب الشرك وألوانه.

وقد تواردت الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، تؤكد هذا الشرط، وتجعله سببا لقبول الأعمال عند الله تعالى. قال الله سبحانه وتعالى:

{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} [البينة: ٥] .

{فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} [الزمر: ٢] .

وفي حديث عتبان بن مالك، عن النبي ﷺ: " إن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله"[٤].

والآيات والأحاديث في الإخلاص كثيرة جدا، فهو سبب القبول عند الله عز وجل، فلا يقبل الله تعالى من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه، وموافقا لشرعه.

سابعا:- ومع هذه الشروط مجتمعة، لا بد من الإقامة على هذه الكلمة؛ ليختم للعبد بها ختاما حسنا، فإنما الأعمال بالخواتيم، ففي حديث مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: "إن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار، ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة"[٥].

وفي حديث ابن مسعود -رضي الله عنه-: " إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكا ويؤمر بأربع كلمات ويقال له اكتب عمله ورزقه وأجله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة "[٦].

وفي الحديث:" أتدرون ما هذان الكتابان؟ هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم

---

[١]معارج القبول": ١/ ٣٨٣.

[٢]انظر: "التصور الإسلامي للإنسان والكون" ص٨٩، الطبعة الثانية، القاهرة.

[٣]أخرجه البخاري: ١/ ٧٢، ومسلم: ١/ ٦٦، كلاهما في كتاب الإيمان.

[٤]أخرجه البخارى (١/١٦٤، رقم ٤١٥) ، ومسلم (١/٤٥٥، رقم ٣٣) . وأخرجه أيضا: الطيالسى (ص ١٧٤، رقم ١٢٤١) ، وابن خزيمة (٣/٧٧، رقم ١٦٥٣) ، والطبرانى (١٨/٢٩، رقم ٥٠) ، والبيهقى (١٠/١٢٤، رقم ٢٠١٧٩).

[٥] صحيح مسلم (٢٦٤٣):ص٤/٢٠٣٦.

[٦]أخرجه أحمد (١/٣٨٢، رقم ٣٦٢٤) ، والبخارى (٣/١١٧٤، رقم ٣٠٣٦) ، ومسلم (٤/٢٠٣٦، رقم ٢٦٤٣) ٢٦٤٣) ، وأبو داود (٤/٢٢٨، رقم ٤٧٠٨) والترمذى (٤/٤٤٦، رقم ٢١٣٧) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١/٢٩، رقم ٧٦).

أبدا هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أى عمل وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أى عمل فرغ ربكم من العباد فريق فى الجنة وفريق فى السعير"[١].

وقد أمر الله تعالى بالإقامة على الإسلام والتوحيد: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ١٠٢] .

وقد جاءت الأحاديث الشريفة تبين هذا المعنى:

روي عن رسول الله ﷺ، قال:" من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة"[٢].

وعنه -ﷺ-:" من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيئا دخل النار"[٣].

وفي حديث أبي ذر: "ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك، إلا دخل الجنة، قال أبو ذر قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق قال فى الرابعة وإن رغم أنف أبى ذر"[٤].

وعن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- قال رسول الله ﷺ: "من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله، دخل الجنة"[٥].

وعن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- أن النبي -ﷺ- قال: "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله، وجبت له الجنة"[٦].

قال البيهقي: في هذين الحديثين شَرَطَ الوفاة على الإيمان، حتى يستحق دخول الجنان بوعد الله تعالى جده"[٧].

فاحرص -أيها المسلم- على كلمة التوحيد بشروطها تلك، واحذر من كل ما ينافيها، فإن ما ينافيها ويوقع في الشرك قد يكون أخفى من دبيب النمل[٨].

---

[١] أخرجه أحمد (١٦٧/٢، رقم ٦٥٦٣) ، والترمذى (٤٤٩/٤، رقم٢١٤١) وقال: حسن غريب صحيح. والنسائى فى الكبرى (٤٥٢/٦، رقم ١١٤٧٣) . وأخرجه أيضا: أبو نعيم فى الحلية (١٦٨/٥) .
ومن غريب الحديث: "أجمل على": أى جمع..

[٢] (عن أبى الدرداء. أبو يعلى عن أبى سعيد. الطبرانى عن معاذ):
حديث ابن مسعود: أخرجه أحمد (٣٨٢/١، رقم ٣٦٢٥) ، والبخارى (٤١٧/١، رقم ١١٨١) ، ومسلم (٩٤/١، رقم ٩٢).
حديث أبى يوب: أخرجه أحمد (٤١٦/٥، رقم ٢٣٥٧٠) ، والطبرانى (١٧١/٤، رقم ٤٠٤٢) .
حديث أبى الدرداء: أخرجه أحمد (٤٥٠/٦، رقم ٢٧٥٨٧) ، والنسائى فى الكبرى (٢٧٦/٦، رقم ١٠٩٦٣) ، وأبو نعيم (/٢٢٦) .
حديث أبى سعيد: أخرجه أبو يعلى (٣٠٢/٢، رقم ١٠٢٦) . وأخرجه أيضا: أحمد (٧٩/٣، رقم ١١٧٦٨) .
حديث معاذ: أخرجه الطبرانى (٤٦/٢٠، رقم ٧٥).

[٣] أخرجه أحمد (٣٩١/٣، رقم ١٥٢٤٧) ، وعبد بن حميد (٣٢٢/١، رقم ١٠٦٠) ، ومسلم (٩٤/١، رقم ٩٣) . وأخرجه أيضا: أبو يعلى (١٨٨/٤، رقم ٢٢٧٨) ، والبيهقى (٤٤/٧، رقم ١٣٠٧٥).

[٤] أخرجه أحمد (١٦٦/٥، رقم ٢١٥٠٤) ، والبخارى (٢١٩٣/٥، رقم ٥٤٨٩) ، ومسلم (٩٥/١، رقم ٩٤) .

[٥] أخرجه أحمد (٦٥/١، رقم ٤٦٤) ، ومسلم (٥٥/١، رقم ٢٦) ، وابن حبان (٤٣٠/١، رقم ٢٠١) ، والنسائى فى الكبرى (٢٧٤/٦، رقم ١٠٩٥٣) . وأخرجه أيضا: عبد بن حميد (ص ٤٨، رقم ٥٥) ، وأبو عوانة (١٩/١، رقم ١٠) .

[٦] أخرجه أحمد (٢٤٧/٥، رقم ٢٢١٨٠) ، وأبو داود (١٣٤/٣، رقم ٢٩٤٥) ، والطبرانى (٣٠٥/٢٠، رقم ٧٢٧) ، والحاكم (٥٠٣/١، رقم ١٢٩٩) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقى (٣٥٥/٦، رقم ١٢٧٩٧) . وأخرجه أيضا: ابن خزيمة.

[٧] الإيمان:٣٦.

[٨] في هذه الشروط راجع: "معارج القبول" ١/ ٣٧٨-٣٨٦، "تيسير العزيز الحميد" ص٦٩ وما بعدها، "فتح المجيد" ص٩١، "مجموعة الرسائل والمسائل النجدية": ٢/ ٥، ٦، ٨١.

وتلك الشروط السابقة، قد جمعها بعض العلماء في نَسَق واحد، فقال الشيخ حافظ الحكمي، رحمه الله[١]:

العلم واليقين والقبول والانقياد فادرِ ما أقول
والصدق والإخلاص والمحبة وفقك الله لما أحبّه

وقال ابن القيم -رحمه الله- في قصيدته النونية، مشيرا إلى أسنان هذا المفتاح الذي تفتح به أبواب الجنة، وهي العمل بشرائع الإسلام، وتحقيق تلك الشروط السابقة قال[٢]:

هذا، وفتح الباب ليس بممكن إلا بمفتاح على أسنان
مفتاحه بشهادة الإخلاص والتو حيد، تلك شهادة الإيمان
أسنانه الأعمال، وهي شرائع الـ ـإسلام، والمفتاح بالأسنان
لا تُلغِيَنْ هذا المثال فكم به من حل إشكال لذي العرفان!

القرآن

{وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)} [التوبة : ٤٦]

التفسير:

ولو أراد المنافقون الخروج معك -أيها النبي- إلى الجهاد لتأهَّبوا له بالزاد والراحلة، ولكن الله كره خروجهم فثَقُلَ عليهم الخروج قضاء وقدرًا، وإن كان أمرهم به شرعا، وقيل لهم: تخلفوا مع القاعدين من المرضى والضعفاء والنساء والصبيان.

قوله تعالى:{وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً} [التوبة : ٤٦]، أي:" ولو أراد المنافقون الخروج معك -أيها النبي- إلى الجهاد لتأهَّبوا له بالزاد والراحلة"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : ولو أراد هؤلاء المستأذنوك ، يا محمد ، في ترك الخروج معك لجهاد عدوّك ، الخروجَ معك {لأعدوا له عدة}، يقول : لأعدوا للخروج عدة ، ولتأهّبوا للسفر والعدوِ أهْبَتهما "[٤].

قال ابن كثير:" أي : معك إلى الغزو، لكانوا تأهبوا له "[٥].

قوله تعالى:{وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ} [التوبة : ٤٦]، أي:" ولكن الله كره خروجهم فثَقُلَ عليهم الخروج قضاء وقدرًا، وإن كان أمرهم به شرعا"[٦].

قال الطبري:"يعني : خروجهم لذلك، فثقَّل عليهم الخروجَ حتى استخفُّوا القعودَ في منازلهم خِلافك ، واستثقلوا السفر والخروج معك ، فتركوا لذلك الخروج "[٧].

قال ابن كثير:" أي : أبغض أن يخرجوا معك قَدرًا ، { فَثَبَّطَهُمْ } أي : أخرهم "[٨].

قوله تعالى:{وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة : ٤٦]، أي:" وقيل لهم: تخلفوا مع القاعدين من المرضى والضعفاء والنساء والصبيان"[٩].

قال ابن كثير:" أي : قدرًا"[١٠].

---

[١] انظر: عارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول:٣٢/١.
[٢]شرح ابن عيسى:٢/ ٤٧٤.
[٣] التفسير الميسر:١٩٤.
[٤] تفسير الطبري:٢٧٦/١٤.
[٥] تفسير ابن كثير:١٥٩/٤.
[٦] التفسير الميسر:١٩٤.
[٧] تفسير الطبري:٢٧٦/١٤-٢٧٧.
[٨] تفسير ابن كثير:١٥٩/٤.
[٩] التفسير الميسر:١٩٤.
[١٠] تفسير ابن كثير:١٥٩/٤.

قال الطبري:" يعني : اقعدوا مع المرضى والضعفاء الذين لا يجدون ما ينفقون ، ومع النساء والصبيان ، واتركوا الخروج مع رسول الله ﷺ والمجاهدين في سبيل الله، وكان تثبيط الله إياهم عن الخروج مع رسوله ﷺ والمؤمنين به ، لعلمه بنفاقهم وغشهم للإسلام وأهله ، وأنهم لو خرجوا معهم ضرُّوهم ولم ينفعوا. وذكر أن الذين استأذنوا رسول الله ﷺ في القعود كانوا : " عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول " ، و " الجد بن قيس " ، ومن كانا على مثل الذي كانا عليه"[١].

عن ابن إسحاق قال : "كان الذين استأذنوه فيما بلغني ، من ذوي الشرف ، منهم : عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، والجدّ بن قيس ، وكانوا أشرافًا في قومهم ، فثبطهم الله ، لعلمه بهم ، أن يخرجوا معهم ، فيفسدوا عليه جنده"[٢].

وفي قوله تعالى:{وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة : ٤٦]، وجهان:

أحدهما : مع القاعدين بغير عذر ، قاله الكلبي[٣].

والثاني : مع القاعدين بعذر من النساء والصبيان ، حكاه علي بن عيسى[٤].

وفي قائل ذلك قولان[٥]:

أحدهما : أنه النبي -ﷺ- ، غضباً عليهم ، لعلمه بذلك منهم .

والثاني : أنه قول بعضهم لبعض .

قال ابو بكر الخلال:" وكان أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول إن الله تعالى يكره الطاعة من العاصي كما يكره المعصية من الطائع. حكاه ابن أبي داود، وقرأ: {ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم}، و«انبعاثهم»: طاعة الله، والله يكرهه"[٦].

الفوائد:

١- سوابق الشر تحول بين صاحبها وبين فعل الخير.

٢- يتضح من الآية: أن لله حكماً حين يرضى لعبده شيئاً ولا يعينه عليه، إذ أن أهم المفاسد المترتبة على خروج هؤلاء مع المؤمنين: زيادة المؤمنين خبالاً أي: فساداً وشرا، وإيضاعهم خلالهم بالسعي بينهم بالفساد والشر، وإرادتهم الفتنة، وفي المؤمنين سماعون لهم قابلون منهم، مستجيبون لهم، فينتج من سعي هؤلاء وقبول هؤلاء من الشرور والمفاسد ما هو أعظم من مصلحة خروجهم[٧].

٣- ومن الفوائد: أن فعل العبد باختياره وقدرته، لقوله تعالى: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً}، فأثبت للعبد إتيانا بمشيئته وإعدادًا بإرادته.

٤- أن حقيقة الإيمان بالقضاء والقَدَرْ، هي: أنْ يعلم العبد أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وأنَّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنه لو فَعَلَ ما فَعَلْ فإنه لن يَحْجِبَ قضاء الله - عز وجل - وقدره، لأنه لا يمكن أن يفعل خلاف ما قدَّرَ الله - عز وجل -، لهذا وجب التسليم لله - عز وجل - في أمره، ووجب في أَمْرِ المصائب التي لا اختيار للعبد فيها أن يُسَلِّمَ لله - عز وجل - ذلك، وأن يؤمن بقضاء الله - عز وجل - الذي يقضيه، وقضاء الله - عز وجل -هو إنفاذه ما قَدَّر - عز وجل -، وهذا القضاء له جهتان:

أ- جهة متعلقة بالله - عز وجل -، وهي فعله سبحانه وتعالى، وفعله بأن يقضي صفة من صفاته.

فهذه يجب على العبد أن يُحِبَّهَا وأن يرضى بها لأنها صفة من صفات الله - جل جلاله -.

---

[١] تفسير الطبري:٢٧٧/١٤.

[٢] أخرجه الطبري(١٦٧٧٠):ص٢٧٧/١٤.

[٣] انظر: النكت والعيون:٣٦٨/٢.

[٤] انظر: النكت والعيون:٣٦٨/٢.

[٥] انظر: النكت والعيون:٣٦٨/٢.

[٦]العقيدة رواية أبي بكر الخلال:١١٧.

[٧]انظر: ((شرح العقيدة الطحاوية)) (ص: ٢٨٥)، وانظر: ((منهاج السنة)) (٢/ ٣٨).

ب- جهة متعلقة بالعبد لا بالرب، فيكون مَقْضِياً على العبد.
والمقضي على العبد نوعان:
أ- مقضي عليه من جهة المصائب.
ب- ومقضي عليه من جهة المعايب.

والمصايب ربما كان لا اختيار له فيها، والمعايب فَعَلَهَا بإرادته، لهذا بَحَثَ العلماء مسألة الرّضا بالقضاء وهل القضاء تسليم له، يعني الرضا به؟ وتحقيق القول في هذه المسألة أنْ تَعْلَمَ أَنَّ القضاء غير المَقْضِي، المقضي هذا تَعَلُّقْ القضاء بالعبد، والقضاء هو قضاء الله - عز وجل - وهو فعله، وقد يقال فيما يتعلق بالعبد: هذا قُضِيَ عليه وصار قضاءً عليه، فيكون قَضَاء بالنسبة للعبد وهو مَقْضِي، لهذا نقول: جهة الرب - عز وجل - في القضاء هذه نرضى بها ونحبها، وأما ما يقضيه الله - عز وجل - على العبد فإنه ما كان من المعايب من المعاصي والآثام التي تقع منه فإنه يجب عليه أن لا يرضى بها.

يعني: وَقَعَتْ عليه لكن يجب عليه أن يكره ذلك الذي وقع منه ولو كان قضاءً، ويجب عليه أن يسارع بالانسلاخ من آثاره بالتوبة والإنابة، فلا يُحِبُّ هذا العيب ولا هذا الذنب مع أنه قضاء ولا يرضى به؛ بل يسارع في تخليص نفسه منه، وأما ما كان من قبيل المصائب التي يُصاب بها العبد فإنّ الرضا بها مُسْتَحَبْ غير واجب، إذا أُصِيبَ بمصيبة فإنَّ الرضا بها مستحب، كما قال - عز وجل - {وَمَن يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن:١١] ، قال علقمة رحمه الله "هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلّم"[(١)] .

فالرضا بالمَقْضِيّ الذي هو من المصائب مستحب لا واجب بالنظر إلى تعلّقه بالعبد وهو المَقْضِي.

أما بالنظر إلى تعلقه بالله فسواء كان من المصايب أو من المعايب فإنه يجب الرّضا عن الله - عز وجل - بأفعاله وصفاته ومحبة أفعال الله - عز وجل - لأنّ الله - عز وجل - يفعل ما يفعل عن حكمة عظيمة، كما قال سبحانه: {وَلَوْ أَرَادُوا الخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ القَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إلاَّ خَبَالاً} [التوبة:٤٦-٤٧] ، فالله - عز وجل - يقضي بحكمته ما يشاء، وله الحكمة البالغة، لا يُسْألُ عما يفعل وهم يسألون.

فإذاً تَلَخَّصَ من ذلك أنَّ ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

ويتصل بهذا البحث، أو نطويه لأنه قد يطول علينا.

القرآن

{لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧)} [التوبة : ٤٧]

التفسير:

لو خرج المنافقون معكم -أيها المؤمنون- للجهاد لنشروا الاضطراب في الصفوف والشر والفساد، ولأسرعوا السير بينكم بالنميمة والبغضاء، يبغون فتنتكم بتثبيطكم عن الجهاد في سبيل الله، وفيكم -أيها المؤمنون- عيون لهم يسمعون أخباركم، وينقلونها إليهم. والله عليم بهؤلاء المنافقين الظالمين، وسيجازيهم على ذلك.

---

(١) اخرجه الطبري:٤٢١/٢٣.

قوله تعالى:{لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا} [التوبة : ٤٧]، أي:" لو خرج المنافقون معكم -أيها المؤمنون- للجهاد لنشروا الاضطراب في الصفوف والشر والفساد"[١].

قال الطبري:" يقول : لم يزيدوكم بخروجهم فيكم إلا فسادًا وضرًّا ، ولذلك ثبَّطتُهم عن الخروج معكم"[٢].

وفي قوله تعالى:{لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا} [التوبة : ٤٧]، وجهان:

أحدهما: يعني: اضطراباً. حكاه ابن عيسى[٣].

والثاني : فساداً، قاله أبو عبيدة[٤]، وحكاه الماوردي عن ابن عباس[٥].

قال الماوردي:" فإن قيل : فلم يكونوا في خبال فيزدادوا بهؤلاء الخارجين خبالاً ؟

قيل هذا من الاستثناء المنقطع، وتقديره : ما زادوكم قوة ، ولكن أوقعوا بينكم خبالاً"[٦].

وقيل:"المقتضي لوجود أصل «الخبال» في جمهرة المسلمين إنما يقصد إلى بعض ضعفاء الإيمان الذين يسمعون إلى قول المنافقين، ويتأثرون به في ضعف عزائمهم، ورعب قلوبهم، وخوفهم من ملاقاة العدو، وهم المقصودون بقوله {وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ}"[٧].

قوله تعالى:{وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ} [التوبة : ٤٧]، أي:" ولأسرعوا السير بينكم بالنميمة والبغضاء"[٨].

قال الطبري:"يقول : ولأسرعوا بركائبهم السَّير بينكم"[٩].

قال أبو عبيدة:" أي: لأسرعوا خلالكم أي بينكم، وأصله من التخلل"[١٠].

عن مجاهد قوله : "{ولأوضعوا خلالكم}، قال : لأسرعوا الأزقة"[١١].

وعن مجاهد أيضا: "{ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة}، يبطئونكم قال : رفاعة بن التابوت ، وعبد الله بن أبيّ ابن سلول ، وأوس بن قيظيّ"[١٢].

عن السدي قوله: "{لأوضعوا خلالكم}، يقول: أوضعوا رحالهم، حتى يدخلوا بينكم"[١٣].

عن قتادة : "{ولأوضعوا خلالكم} ، قال : لأسرعوا خلالكم، يبغونكم الفتنة بذلك"[١٤].

وعن قتادة أيضا: قوله: "{خلالكم}، يقول: بينكم"[١٥].

عن ابن زيد:«{لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا}، قال : هؤلاء المنافقون في غزوة تبوك. يسلِّي الله عنه نبيه ﷺ والمؤمنين فقال : وما يُحزنكم ؟{لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا}،! يقولون :"قد جُمع لكم ، وفُعِل وفُعِل، يخذِّلونكم"، {ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة}، الكفر»[١٦].

---

[١] التفسير الميسر:١٩٤.
[٢] تفسير الطبري:٢٧٨/١٤.
[٣] انظر: النكت والعيوم:٣٦٨/٢.
[٤] انظر: مجاز القرآن:٢٦١/١.
[٥] انظر: النكت والعيوم:٣٦٨/٢.
[٦] النكت والعيوم:٣٦٨/٢.
[٧] انظر: آيات عتاب المصطفى - ﷺ - في ضوء العصمة والاجتهاد:١٧٧.
[٨] التفسير الميسر:١٩٤.
[٩] تفسير الطبري:٢٧٨/١٤.
[١٠] مجاز القرآن:٢٦١/١.
[١١] أخرجه الطبري(١٦٧٧٤):ص٢٨٠/١٤.
[١٢] أخرجه الطبري(١٦٧٧٣):ص٢٨٠/١٤.
[١٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٩٢):ص١٨٠٨/٦.
[١٤] أخرجه الطبري(١٦٧٧٥):ص٢٨٠/١٤.
[١٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٩١):ص١٨٠٨/٦.
[١٦] أخرجه الطبري(١٦٧٧٦):ص٢٨٠/١٤.

و«الإيضاع»: من "إيضاع الخيل والركاب" ، وهو الإسراع بها في السير ، يقال للناقة إذا أسرعت السير : " وضعت الناقة تَضَع وَضعًا ومَوْضوعًا " ، و " أوضعها صاحبها " ، إذا جدّ بها وأسرع ، " يوضعها إيضاعًا " ، ومنه قول دريد بن الصمة[1]:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعْ   أَخُبُّ فِيهَا وَأَضَعْ

وأما أصل "الخلال"، فهو من" الخَلَل" ، وهي الفُرَج تكون بين القوم ، في الصفوف وغيرها. ومنه قول النبي ﷺ :"تَرَاصُّوا فِي الصُّفُوفِ لا يَتَخَلَّلُكُمْ [الشَّيَاطين ، كأنها] أَوْلادُ الحذَفِ[2].

قوله تعالى:{يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} [التوبة : ٤٧]، أي:" يبغون فتنتكم بتثبيطكم عن الجهاد في سبيل الله"[3].

قال الطبري:" يطلبون لكم ما تفتنون به ، عن مخرجكم في مغزاكم ، بتثبيطهم إياكم عنه"[4].

عن مجاهد:"{يبغونكم الفتنة}، يبغونكم: عبد الله بن نبتل وعبد الله بن أبي بن سلول ورفاعة بن تابوت وأوس بن قيظي"[5].

عن السدي {يبغونكم الفتنة}، يقول: الكفر"[6]. وروي عن عبد الرحمن بن زيد نحو ذلك[7].

قوله تعالى:{وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ} [التوبة : ٤٧]، أي:" وفيكم -أيها المؤمنون- عيون لهم يسمعون أخباركم، وينقلونها إليهم"[8].

قال أبو عبيدة:" أي: مطيعون لهم سامعون"[9].

قال ابن كثير:" أي : مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم ، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم ، فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير "[10].

عن ابن زيد:" {وفيكم سماعون لهم}، قال: مبلغون"[11].

وعن ابن زيد ايضا:" {وفيكم سماعون لهم}، يسمعون ما تأتون به لعدوكم"[12].

عن مجاهد قوله: "{وفيكم سماعون لهم}: محدثين بأحاديثهم، عيونا غير منافقين"[13].

وعن مجاهد أيضا: قوله: "{وفيكم سماعون لهم}، قال: عيون للمنافقين، عبد الله بن أبي بن سلول، ورفاعة ابن تابوت وأوس بن قيظي ليسوا بمنافقين، هم عيون للمنافقين"[1].

---

[1]سيرة ابن هشام ٤ : ٨٢ ، واللسان (وضع) ، وغيرهما ، وهذا رجز قاله دريد في يوم غزوة حنين ، وكان خرج مع هوزان ، عليهم مالك بن عوف النصري ، ودريد بن الصمة يومئذ شيخ كبير ، ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شيخًا مجربًا . وكان مالك بن عوف كره أن يكون لدريد بن الصمة رأي في حربهم هذه أو ذكر ، فقال دريد : " هذا يوم لم أشهده ولم يفتني " . يَا لَيْتَنِي فِيها جَذَعْ ... أَخُبُّ فيها وأَضَعْ
أَقُودُ وَطْفَاء الزَّمَعْ ... كَأَنَّها شَاةٌ صَدَعْ
" الجذع " ، الصغير الشاب. و " الخبب " ، ضرب من السير كالوضع . ثم وصف فرسه فيما تمنى. " وطفاء " ، طويلة الشعر ، و " الزمعة " الهنة الزائدة الناتئة فوق ظلف الشاة. و " الشاة " هنا : الوعل وهو شاة الجبل. و " صدع " الفتى القوي من الأوعال.

[2] انظر: تفسير الطبري:٢٧٨/١٤-٢٧٩.

[3] التفسير الميسر:١٩٤.

[4] تفسير الطبري:٢٧٩/١٤.

[5] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٩٣):ص١٨٠٨/٦.

[6] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٩٤):ص١٨٠٨/٦.

[7] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٨٠٨/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.

[8] التفسير الميسر:١٩٤.

[9] مجاز القرآن:٢٦١/١.

[10] تفسير ابن كثير:١٦٠/٤.

[11] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٩٧):ص١٨٠٩/٦.

[12] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٩٨):ص١٨٠٩/٦.

[13] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠١٠٠):ص١٨٠٨/٦.

قوله تعالى:{وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [التوبة : ٤٧]، أي:" والله عليم بهؤلاء المنافقين الظالمين، وسيجازيهم على ذلك"[٢].

قال ابن كثير:" فأخبر بأنه يعلم ما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون"[٣].

الفوائد:

١- خطر اندساس المنافقين في المجتمع الإسلامي.

٢- أن جود منافقين في صفوف المؤمنين خطر عليهم وضرر كبير لهم فلذا ينبغي أن لا يشركوا في أمر، وأن لا يعول عليهم في مهمة.

٣- أنه قد يلتبس على المؤمنين أمر المنافقين، حتى يصير لهم من السماعين، قال تعالى:{وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ}.

٤- وجوب الأخذ بالحيطة في الأمور ذات البال والأثر على حياة الإسلام والمسلمين.

٥- ويستفاد من الآية أن علم الله أحاط بكل شيء، فإن العلم صفة من صفات الله عز وجل، وهو أول مراتب القدر الأربع، وهو أن تؤمن بأن الله علم ما كان في الأزل -أي: في الماضي- ويعلم ما يكون في الوقت الحاضر، ويعلم ما سيكون في المستقبل، ويعلم المستحيل -أي: يعلم ما لم يكن لو كان كيف سيكون- قال الله تعالى عن الكفار لما طلبوا العودة إلى الدنيا: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} [الأنعام:٢٨] وهذا علم الله بما لم يكن لو كان كيف يكون، وقال أيضاً عن الكفار: {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال:٢٣] ، وقال الله عن المنافقين الذين لم يخرجوا في غزوة تبوك: {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا} [التوبة:٤٦ - ٤٧] وهم ما خرجوا ولكن علم الله ما سيكون منهم لو خرجوا، فلا بد من الإيمان بعلم الله تعالى[٤].

القرآن

{لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨)} [التوبة : ٤٨]

التفسير:

لقد ابتغى المنافقون فتنة المؤمنين عن دينهم وصدهم عن سبيل الله من قبل غزوة (تبوك) ، وكشف أمرهم، وصرَّفوا لك -أيها النبي- الأمور في إبطال ما جئت به، كما فعلوا يوم (أحد) ويوم (الخندق) ، ودبَّروا لك الكيد حتى جاء النصر من عند الله، وأعز جنده ونصر دينه، وهم كارهون له.

سبب النزول:

أخرجه الطبري عن الحسن قوله : "{وقلبوا لك الأمور}، قال : منهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، وعبد الله بن نبتل أخو بني عمرو بن عوف ، ورفاعة بن رافع ، وزيد بن التابوت القينقاعي"[٥]. قال الطبري:" وفيهم ، فيما حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن عبيد ، عن الحسن البصري ، أنزل الله : {لقد ابتغوا الفتنة من قبل}، الآية"[٦].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٩٦):ص١٨٠٩/٦.

[٢] التفسير الميسر:١٩٤.

[٣] تفسير ابن كثير:١٦٠/٤.

[٤] انظر: شرح كتاب السنة للبربهاري، عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن الراجحي، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، الدرس(٧)[مرقم آليا].

[٥] أخرجه الطبري(١٦٧٨٣):ص٢٨٤/١٤.

[٦] تفسير الطبري:٢٨٦/١٤، قطعة من الخبر(١٦٧٨٤):ص٢٨٤/١٤-٢٨٦.

قوله تعالى:{لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ} [التوبة : ٤٨]، أي:" لقد ابتغى المنافقون فتنة المؤمنين عن دينهم وصدهم عن سبيل الله من قبل غزوة (تبوك) ، وكشف أمرهم"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : لقد التمس هؤلاء المنافقون الفتنة لأصحابك ، يا محمد ، التمسوا صدَّهم عن دينهم وحرصوا على ردّهم إلى الكفرِ بالتخذيل عنه ، كفعل عبد الله بن أبيّ بك وبأصحابك يوم أحدٍ ، حين انصرف عنك بمن تبعه من قومه. وذلك كان ابتغاءهم ما كانوا ابتغوا لأصحاب وسول الله ﷺ من الفتنة من قبل. ويعني بقوله : {من قبل}، من قبل هذا"[٢].

قوله تعالى:{وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ} [التوبة : ٤٨]، أي:" وصرَّفوا لك -أيها النبي- الأمور في إبطال ما جئت به، كما فعلوا يوم (أحد) ويوم (الخندق) ودبَّروا لك الكيد"[٣].

قال الطبري:" يقول : وأجالوا فيك وفي إبطال الدين الذي بعثك به الله الرأيَ بالتخذيل عنك، وإنكار ما تأتيهم به ، وردّه عليك "[٤].

قال السدي:" أما قلبوا لك الأمور: فقلبوها ظهرا لبطن: كيف يصنعون؟!"[٥].

عن ابن إسحاق : "{وقلبوا لك الأمور}، أي : ليخذّلوا عنك أصحابك ، ويردُّوا عليك أمرك {حتى جاء الحق وظهر أمر الله}"[٦].

وفي قوله تعالى:{وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ} [التوبة : ٤٨]، أربعة وجوه[٧]:

أحدها : معاونتهم في الظاهر وممالأة المشركين في الباطن .

والثاني : قولهم بأفواههم ما ليس في قلوبهم .

والثالث : توقع الدوائر وانتظار الفرص .

والرابع : حلفهم بالله لو استطعنا لخرجنا معكم .

عن ابن إسحاق :"عن الزهري ، ويزيد بن رومان ، وعبد الله بن أبي بكر ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وغيرهم ، كلٌّ قد حدَّث في غزوة تبوك ما بلغَه عنها ، وبعض القوم يحدِّث ما لم يحدِّث بعضٌ ، وكلٌّ قد اجتمع حديثه في هذا الحديث : أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم ، وذلك في زمان عُسْرةٍ من الناس، وشدة من الحرّ ، وجَدْبٍ من البلاد ، وحين طاب الثمار ، وأحِبَّتِ الظلال ، فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص عنها ، على الحال من الزمان الذي هم عليه. وكان رسول الله ﷺ قلَّما يخرج في غزوةٍ إلا كَنَى عنها ، وأخبر أنه يريد غير الذي يَصْمِدُ له ، إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بيَّنها للناس ، لبعد الشُّقَّة ، وشدة الزمان وكثرة العدوّ الذي صَمَد له ، ليتأهَّب الناس لذلك أُهْبَتَه. فأمر الناس بالجهاد ، وأخبرهم أنه يريد الروم. فتجهز الناسُ على ما في أنفسهم من الكره لذلك الوجه ، لما فيه ، مع ما عظَّموا من ذكر الروم وغزوهم.

ثم إن رسول الله ﷺ جَدَّ في سفره ، فأمر الناس بالجهازِ والانكماش ، وحضَّ أهل الغنى على النفقة والحُمْلان في سبيل الله.

فلما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنية الوداع ، وضرب عبد الله بن أبي ابن سلول عسكره على حِدَةٍ أسفلَ منه بحذاء " ذباب " جبل بالجبانة أسفل من ثنية الوداع وكان فيما يزعمون ، ليس بأقل العسكرين. فلما سار رَسول الله ﷺ ، تخلف عنه عبد الله بن أبي فيمن تخلَّف من المنافقين وأهل الريب. وكان عبد الله بن أبي ، أخا بني عوف بن الخزرج ، وعبد الله بن نبتل ، أخا بني عمرو بن عوف ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، أخا بني قينقاع ، وكانوا من عظماء المنافقين ، وكانوا ممن يكيد للإسلام وأهله. قال : وفيهم ، فيما حدثنا ابن حميد قال ،

---

[١] التفسير الميسر:١٩٥.

[٢] تفسير الطبري:٢٨٣/١٤.

[٣] التفسير الميسر:١٩٥.

[٤] تفسير الطبري:٢٨٣/١٤.

[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٩٩):ص١٨٠٩/٦.

[٦] اخرجه الطبري(١٦٧٨٢):ص٢٨٣/١٤-٢٨٤.

[٧] انظر: النكت والعيون:٣٦٩/٢.

حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن عبيد ، عن الحسن البصري ، أنزل الله : {لقد ابتغوا الفتنة من قبل}، الآية"[1].

قوله تعالى:{حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ} [التوبة : ٤٨]، أي:" حتى جاء نصر الله وظهر دينه وعلا على سائر الأديان"[2].

قال الطبري:" يقول : حتى جاء نصر الله {وظهر أمر الله}، يقول : وظهر دين الله الذي أمرَ به وافترضه على خلقه ، وهو الإسلام "[3].

قوله تعالى:{وَهُمْ كَارِهُونَ} [التوبة : ٤٨]، أي:" والحال أنهم كارهون لذلك لنفاقهم"[4].

قال الطبري:" يقول : والمنافقون بظهور أمر الله ونصره إياك كارهون. (٥) وكذلك الآن ، يظهرك الله ويظهر دينه على الذين كفروا من الروم وغيرهم من أهل الكفر به ، وهم كارهون"[5].

الفوائد:

١- في الآية بيان لما جبل عليه هؤلاء المنافقون من إحداث الفتن، وإشاعة المخاوف بين المجتمع الإسلامى، فذكر الله تعالى أن هذا ديدنهم وعادتهم من قبل، فقد أحدثوا قبل ذلك عظائم الفتن في المجتمع الإسلامى، كالذي كان منهم في غزوة بني المصطلق وأمثالها، ولكن الله تعالى أوبقهم في موبقاتهم، وأوقعهم فيما دبروه لإفساد مجتمع المؤمنين، وهذا هو المراد بقوله :{حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ}، أي: نصر الله رسوله - ﷺ - وأصحابه من خلص المؤمنين، وكان المنافقون أكره الناس لهذا النصر، وأبغضهم لا يرون بين المؤمنين من توافق وألفة ومحبة وإخاء.

٢- أن من صفات المنافقين: المسرة بانخفاض دين المسلمين، وكراهية انتصاره. ودليل هذه الصفة قول الله عز وجل: {لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ} [التوبة: ٤٨] ؛ فقد طلب هؤلاء المنافقون الشر من البداية، واحتالوا في تشتيت أمر المسلمين وإبطال دينهم، حتى أظهر الله دينه، وأعز جنده، والمنافقون كارهون لذلك[6].

ومن الأدلة أيضا قوله سبحانه وتعالى: {إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ} [التوبة: ٥٠] ؛ فقد أخبر سبحانه وتعالى أن المنافقين إن أصاب رسول الله ﷺ ومن معه نصر وغنيمة ساءهم ذلك، وإن أصابهم قتل وهزيمة، قالوا: عملنا بالحزم فلم نخرج معكم، ثم ينقلبون وهم فرحون بمصابكم وسلامتهم[7].

٣- تدبير الله تعالى لأوليائه خير تدبير فلذا وجب الرضا بقضاء الله وقدره والتسليم به.

القرآن

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)} [التوبة : ٤٩]

التفسير:

---

(١) أخرجه الطبري(١٦٧٨٤):ص١٤/٢٨٤-٢٨٦. قال المحقق:" هذا خبر مفرق ، ذكرت مواضعه فيما سلف ، وهو في سيرة ابن هشام ٤ : ١٥٩ \ ثم ٤ : ١٦١ \ ثم ٤ : ١٦٢ ، وهو بتمامه في تاريخ الطبري ٣ : ١٤٢ ، ١٤٣ . والجزء الأخير من هذا الخبر ، مضى برقم : ١٦٨٧٣".

(٢) صفوة التفاسير:١/٥٠٣.

(٣) تفسير الطبري:١٤/٢٨٣.

(٤) صفوة التفاسير:١/٥٠٣.

(٥) تفسير الطبري:١٤/٢٨٣.

(٦)انظر : زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٣/ ٤٤٨.

(٧)انظر: المصدر نفسه ٣/ ٤٥٠.

ومِن هؤلاء المنافقين من يطلب الإذن للقعود عن الجهاد ويقول: لا توقعْني في الابتلاء بما يعرض لي في حالة الخروج من فتنة النساء. لقد سقط هؤلاء المنافقون في فتنة النفاق الكبرى. فإن جهنم لمحيطة بالكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يُفْلِت منهم أحد.

سبب النزول:

عن محمد بن إسحاق عن الزهري ، ويزيد بن رومان ، وعبد الله بن أبي بكر ، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قال : "قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه ، للجد بن قيس أخي بني سلمة : هل لك يا جدُّ العامَ في جلاد بني الأصفر ؟ فقال : يا رسول الله ، أوْ تأذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي ما رَجل أشدّ عُجْبًا بالنساء منّي ، وإني أخشى إن رأيت نساءَ بني الأصفر أن لا أصبر عنهن ! فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : قد أذنت لك ، ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية : {ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني}، الآية ، أي : إن كان إنما يخشى الفتنة من نساء بني الأصفر وليس ذلك به ، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والرغبة بنفسه عن نفسه ، أعظم"[1].

قوله تعالى:{وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي} [التوبة : ٤٩]، أي:" ومن هؤلاء المنافقين من يقول لك يا محمد ائذن لي في القعود ولا تفتني بسبب الأمر بالخروج"[2].

قال ابن عباس:" يقول : ائذن لي ولا تحرجني"[3].

قال الطبري:" ويعني جل ثناؤه بقوله : {ومنهم}، ومن المنافقين {من يقول ائذن لي}، أقم فلا أشخَصُ معك، {ولا تفتني}، يقول : ولا تبتلني برؤية نساء بني الأصفر وبناتِهم ، فإنّي بالنساء مغرمٌ ، فأخرج وآثَمُ بذلك "[4].

وفي قوله تعالى:{ وَلَا تَفْتِنِّي} [التوبة : ٤٩]، ثلاثة وجوه:

أحدها : لا تكسبني الإثم بالعصيان في المخالفة ، قاله الحسن[5]، وقتادة[6]، وأبو عبيدة[7]، والزجاج[8].

قال أبو عبيدة:" مجازه: ولا تؤثمنى"[9].

قال الزجاج:" أي: لا تؤثمني بأمرك إياي بالخروج، وذلك غير متيسر لي فآثم"[10].

والثاني : لا تصرفني عن شغلي ، قاله ابن بحر[11].

والثالث : أنها نزلت في الجد بن قيس قال : ائذن لي ولا تفتني ببنات بني الأصفر فإني مشتهر بالنساء ، قاله ابن عباس[12]، ومجاهد[13]، وابن زيد[14]، واختاره الفراء[15].

قال ابن عباس قوله : {ائذن لي ولا تفتني}، قال : هو الجدّ بن قيس قال : قد علمت الأنصار أني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن ، ولكن أعينك بمالي"[16].

---

[1] أخرجه الطبري(١٦٧٨٨):ص١٤/٢٨٧.
[2] صفوة التفاسير:١/٥٠٣.
[3] أخرجه الطبري(١٦٧٩٠):ص١٤/٢٨٨.
[4] تفسير الطبري:١٤/٢٨٦.
[5] انظر: النكت والعيون:٢/٣٧٠.
[6] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٩١):ص١٤/٢٨٨.
[7] مجاز القرآن:١/٢٦١.
[8] انظر: معاني القرآن:٢/٤٥١ .
[9] مجاز القرآن:١/٢٦١.
[10] معاني القرآن:٢/٤٥١.
[11] انظر: النكت والعيون:٢/٣٧٠.
[12] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٨٧):ص١٤/٢٨٧.
[13] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٨٥):ص١٤/٢٨٦-٢٨٧.
[14] انظر: تفسير الطبري(١٦٧٨٩):ص١٤/٢٨٧-٢٨٨.
[15] انظر: معاني القرآن:١/٤٤٠ .
[16] أخرجه الطبري(١٦٧٨٧):ص١٤/٢٨٧.

عن مجاهد في قول الله : :"{ائذن لي ولا تفتني}، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اغزُوا تبوك ، تغنموا بنات الأصفر ونساء الروم ! فقال الجدّ : ائذن لنا ، ولا تفتنَّا بالنساء"[1].

قوله تعالى:{أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا} [التوبة : ٤٩]، أي:" لقد سقط هؤلاء المنافقون في فتنة النفاق الكبرى"[2].

قال ابن كثير:" أي : قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا"[3].

قال ابن عباس:" يعني : في الحرج سقطوا "[4].

قال قتادة:" ألا في الإثم سقطوا "[5].

قال أبو عبيدة:" أي: ألا في الإثم وقعوا وصاروا"[6].

قوله تعالى:{وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [التوبة : ٤٩]، أي:" فإن جهنم لمحيطة بالكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يُفْلِت منهم أحد"[7].

قال ابن كثير:" أي : لا مَحيد لهم عنها ، ولا مَحيص ، ولا مَهرَب "[8].

قال الطبري:"يقول : وإن النار لمطيفة بمن كفر بالله وجحد آياته وكذَّب رسله ، محدقة بهم ، جامعة لهم جميعًا يوم القيامة، يقول : فكفى للجدّ بن قيس وأشكاله من المنافقين بِصِلِيِّها خزيًا"[9].

عن ابن زيد:" {ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني}، قال : هو رجل من المنافقين يقال له جَدُّ بن قيس ، فقال له رسول الله ﷺ : «العامَ نغزو بني الأصفر ونتَّخذ منهم سراريّ ووُصفاءَ»، فقال : أي رسول الله ، ائذن لي ولا تفتني ، إن لم تأذن لي افتتنت وقعدت ! وغضب رسول الله ﷺ، فقال الله : «{ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين}»، وكان من بني سلمة ، فقال لهم النبي ﷺ : «من سيدكم يا بني سَلِمة؟» فقالوا : جدُّ بن قيس ، غير أنه بخيلٌ جبان! فقال النبي ﷺ :«وأيُّ داءٍ أدْوَى من البخل ، ولكن سيِّدكم الفتى الأبيض ، الجعد : بشر بن البراء بن مَعْرُور»"[10].

الفوائد:

١- الآية تسجيل على المنافقين بأنهم مردوا على الكذب، ومرنوا على الفتن والبهتان.
٢- فضيحة الجد بن قيس وتسجيل اللعنة عليه وتبشيره بجهنم.

القرآن

{إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠)} [التوبة : ٥٠]

التفسير:

إن يصبك -أيها النبي- سرور وغنيمة يحزن المنافقون، وإن يلحق بك مكروه من هزيمة أو شدة يقولوا: نحن أصحاب رأي وتدبير قد احتطنا لأنفسنا بتخلفنا عن محمد، وينصرفوا وهم مسرورون بما صنعوا وبما أصابك من السوء.

---

[1] أخرجه الطبري(١٦٧٨٥):ص١٤/٢٨٦-٢٨٧.
[2] التفسير الميسر:١٩٥.
[3] تفسير ابن كثير:١٦١/٤.
[4] أخرجه الطبري(١٦٧٩٠):ص١٤/٢٨٨.
[5] أخرجه الطبري(١٦٧٩١):ص١٤/٢٨٨.
[6] مجاز القرآن:٢٦١/١.
[7] التفسير الميسر:١٩٥.
[8] تفسير ابن كثير:١٦١/٤.
[9] تفسير الطبري:٢٨٩/١٤.
[10] أخرجه الطبري(١٦٧٨٩):ص١٤/٢٨٧-٢٨٨.

قوله تعالى:{إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ} [التوبة : ٥٠]، أي:" إن يصبك -أيها النبي- سرور وغنيمة يحزن المنافقون"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : يا محمد ، إن يصبك سرورٌ بفتح الله عليك أرضَ الروم في غَزاتك هذه ، يسؤ الجدَّ بن قيس ونظراءه وأشياعهم من المنافقين"[٢].

قال ابن كثير:" يعلم تبارك وتعالى نبيه بعداوة هؤلاء له ؛ لأنه مهما أصابه من { حَسَنَةٌ } أي : فتح ونصر وظفر على الأعداء ، مما يسره ويسر أصحابه ، ساءهم ذلك "[٣].

قال ابن عباس:"يقول : إن تصبك في سفرك هذه الغزوة تبوك {حسنة تسؤهم}، قال : الجدُّ وأصحابه"[٤].

عن قتادة قوله: "{إن تصبك حسنة تسؤهم}، إن كان فتح للمسلمين كبر ذلك عليهم وساءَهم"[٥].

قوله تعالى:{وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ} [التوبة : ٥٠]، أي:" وإن يلحق بك مكروه من هزيمة أو شدة يقولوا: نحن أصحاب رأي وتدبير قد احتطنا لأنفسنا بتخلفنا عن"[٦].

قال الطبري:" وإن تصبك مصيبة بفلول جيشك فيها ، يقول الجد ونظراؤه : قد أخذنا حذرَنا بتخلّفنا عن محمد ، وترك أتباعه إلى عدوّه، من قبل أن تصيبه هذه المصيبة "[٧].

قال ابن كثير:" أي : قد احترزنا من متابعته من قبل هذا "[٨].

قال الكلبي : "عنى بالحسنة النصر يوم بدر، وبالمصيبة النكبة يوم أحد"[٩].

عن مجاهد : "{قد أخذنا أمرنا من قبل}، حِذْرنا"[١٠].

قوله تعالى:{وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ} [التوبة : ٥٠]، أي:" وينصرفوا وهم مسرورون بما صنعوا وبما أصابك من السوء"[١١].

قال الطبري:" يقول:ويرتدُّوا عن محمد وهم فرحون بما أصاب محمدًا وأصحابه من المصيبة، بفلول أصحابه وانهزامهم عنه، وقتل من قُتِل منهم "[١٢].

الفوائد:

١- بيان فرح المنافقين والكافرين بما يسوء المسلمين، وبيان استيائهم لما يفرح المسلمين وهي علامة النفاق البارزة في كل منافق.
٢- ذم المنافقين في قولهم:{ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ}، أي: إنا سلمنا مما أصاب غيرنا لأنا احتطنا لأنفسنا بالتخليف عنه، واستقلنا الأمر بواجبه، وحسنا التدبير، فذمهم الله عز وجل وعاب قولهم هذا، وامر النبي ﷺ أن يخالفهم فيقول: {لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا} كما سياتي في تفسير الآية الآتية.
٣- د بالحسنات: ما يستحسن المرء وقوعه، ويحسن في عينه.
٤- ومن الفوائد: أن المراد بـ«الحسنات» ما يستحسن المرء وقوعه، ويحسن في عينه، ويشمل ذلك الحسنات الشرعية، كالصلاة والزكاة وغيرها، لأنها تسر المؤمن، ويشمل

---

[١] التفسير الميسر:١٩٥.
[٢] تفسير الطبري:٢٨٩/١٤.
[٣] تفسير ابن كثير:١٦٢/٤.
[٤] أخرجه الطبري(١٦٧٩٢):ص٢٩٠/١٤.
[٥] أخرجه الطبري(١٦٧٩٥):ص٢٩٠/١٤.
[٦] التفسير الميسر:١٩٥.
[٧] تفسير الطبري:٢٨٩/١٤.
[٨] تفسير ابن كثير:١٦٢/٤.
[٩] النكت والعيون:٣٧٠/٢.
[١٠] أخرجه الطبري(١٦٧٩٣):ص٢٩٠/١٤.
[١١] التفسير الميسر:١٩٥.
[١٢] تفسير الطبري:٢٨٩/١٤.

الحسنات الدنيوية، كالمال والولد ونحوها، قال تعالى: إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ [التوبة: ٥٠]، وقال تعالى في آية أخرى: إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا [آل عمران: ١٢٠].

القرآن

{قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)} [التوبة : ٥١]

التفسير:

قل -أيها النبي- لهؤلاء المتخاذلين زجرًا لهم وتوبيخًا: لن يصيبنا إلا ما قدَّره الله علينا وكتبه في اللوح المحفوظ، هو ناصرنا على أعدائنا، وعلى الله، وحده فليعتمد المؤمنون به.

قوله تعالى:{قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا} [التوبة : ٥١]، أي:" قل -أيها النبي- لهؤلاء المتخاذلين زجرًا لهم وتوبيخًا: لن يصيبنا إلا ما قدَّره الله علينا وكتبه في اللوح المحفوظ"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره مؤدِّبًا نبيّه محمدًا ﷺ : {قل}، يا محمد ، لهؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عنك: {لن يصيبنا}، أيها المرتابون في دينهم {إلا ما كتب الله لنا}، في اللوح المحفوظ ، وقضاه علينا"[٢].

قال ابن كثير:" فأرشد الله تعالى رسوله ، صلوات الله وسلامه عليه ، إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة ، فقال : { قُلْ } أي : لهم { لَنْ يُصِيبَنَا إلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا } أي : نحن تحت مشيئة الله ، وقدره "[٣].

قال أبو عبيدة:"{ إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا}، إلا ما قضى الله لنا وعلينا"[٤].

وفي قوله تعالى:{قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا} [التوبة : ٥١]، وجهان:

أحدهما : إلا ما كتب الله لنا في اللوح المحفوظ أنه يصيبنا من خير أو شر ، لا أن ذلك بأفعالنا فنذمّ أو نحمد ، وهو معنى قول الحسن[٥].

والثاني : إلا ما كتب الله لنا في عاقبة أمرنا أنه ينصرنا ويعز دينه بنا[٦].

قوله تعالى:{هُوَ مَوْلَانَا} [التوبة : ٥١]، أي:" هو ناصرنا على أعدائنا"[٧].

قال أبو عبيدة:" أي: ربّنا"[٨].

قال الطبري:" يقول : هو ناصرنا على أعدائه"[٩].

قال ابن كثير:" أي : سيدنا وملجؤنا"[١٠].

قوله تعالى:{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [التوبة : ٥١]، أي:" وعلى الله، وحده فليعتمد المؤمنون به"[١١].

---

(١) التفسير الميسر:١٩٥.
(٢)تفسير الطبري:٢٩٠/١٤ .
(٣) تفسير ابن كثير:١٦٢/٤.
(٤) مجاز القرآن:٢٦١/١.
(٥) انظر: النكت والعيون:٣٧١/٢.
(٦) انظر: النكت والعيون:٣٧١/٢.
(٧) التفسير الميسر:١٩٥.
(٨) مجاز القرآن:٢٦١/١.
(٩)تفسير الطبري:٢٩٠/١٤ .
(١٠) تفسير ابن كثير:١٦٢/٤.
(١١) التفسير الميسر:١٩٥.

قال الطبري:" يقول : وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، فإنهم إن يتوكلوا عليه ، ولم يرجُوا النصر من عند غيره، ولم يخافوا شيئًا غيره ، يكفهم أمورهم ، وينصرهم على من بغاهم وكادهم"[(١)].

قال ابن كثير:" أي: ونحن متوكلون عليه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل "[(٢)].

الفوائد:

١- وجوب التوكل على الله وعدم الاهتمام بأقوال المنافقين.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: الإيمان بالقدر خيره وشره:

إذ "أن المقادير كلها خيرها وشرها حلوها ومرها من الله عز وجل فإنه خلق الخلق وقد علم ما يعملون وما إليه يصيرون، فلا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع وقال تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} [الأعراف : ٥٤]، وقال: {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا} [الأحزاب : ٣٨]، وقال: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر : ٤٩]، وقال: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا} [التوبة : ٥١]، وقال: { وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً } [الأنبياء : ٣٥]، وقال: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} [الأنفال : ٢٤] ، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس : ٩٦]، وقال: {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} [السجدة : ١٣]، وقال: {إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ} [النحل : ٣٧]، مثل هذا في القرآن كثير"[(٣)].

٣- ومن الفوائد: أن عدم الجزع والهلع من عند نزول الابتلاء، ومن يقرأ سيرة أولياء الله، يعلم بأنه عند نزول الابتلاء لطائفة منهم لم يجدَّ بهم الهلع بزمامه ولا أنزلهم عن غارب التوكل سنامه، قال بعض السلف: "نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله"[(٤)].

فاقرؤا إن شئتم محنة الإمام أحمد-رحمه الله- فهو خير مثال على الصبر والثبات امام النوازل.

أخرج ابن الجوزي عن مَيمون بن الأصبغ، قال: "كنتُ ببغداد، فسمعتُ ضَجّة، فقلتُ: ما هذا؟ فقالوا: أحمدُ بن حنبل يُمتَحن. فأتيتُ منزلى، فأخذتُ مالًا له خَطر، فذهبتُ به إلى من يُدخلنى إلى المجلس، فأدخلوني، فإذا بالسيوف قد جُرِّدت، وبالرِّماح قد رُكزت، وبالتِّراس قد نُصبت، وبالسياط قد طُرحت، فألبسونى قَباءٍ أسود، ومِنْطَقَة وسَيفًا، ووقفونى حيثُ أسمع الكلام، فأتى أمير المؤمنين، فجلس على كرسى، وأتى بأحمد بن حنبل، فقال له: وقرابتى من رسول الله ﷺ، لأضربنَّك بالسياط، أو تقولَ كما أقولُ، ثم التفت إلى جلاد، فقال: خُذه إليك، فأخذه. فلما ضُرب سوطًا قال: بسم الله، فلما ضُرب الثانى قال: لا حَول ولا قُوة إلا بالله، فلما ضُرب الثالث قال: القرآن كلامُ الله غير مَخلوق، فلما ضُرب الرابع قال: {قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا}. فضربه تسعةَ وعشرين سوطًا، وكانت تِكّة أحمد حاشِية ثوب، فانقطعت، فَنزل السراويل إلى عانَته،

[(١)] تفسير الطبري:١٤/٢٩٠-٢٩١.

[(٢)] تفسير ابن كثير:١٦٢/٤.

[(٣)] أصول السنة، ومعه رياض الجنة بتخريج أصول السنة، ابن أبي زَمَنِين المالكي: ١٩٧.

[(٤)] هذه مقالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما خرج إلى الشام فأخبره أمراء الأجناد بأن الوباء وقع بالشام فاستشار الصحابة في دخول الشام أو الرجوع عنها فأشار عليه مشيخة قريش من مهاجرة الفتح بأن يرجع بالناس ولا يقدمهم على الوباء، فأذن عمر بالناس، إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه. قال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين أفراراً من قدر الله؟

قال لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم. نفر من قدر الله عزوجل إلى قدر الله ... ، ثم جاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً في بعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علماً سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه". قال: فحمد الله عزوجل ثم انصرف. أخرجه البخاري في كتاب الطبّ باب ٣٠. فتح الباري ١٧٩/١٠، مسلم ١٧٤٠/٤، ١٧٤١، في سياق طويل عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -.

فقلتُ: الساعةَ ينهتِك، فرمى أحمدُ طَرفه نَحو السماءِ وحرَّك شَفتيه، فما كان بأسرع من أن بَقى السراويل لم ينزل. قال ميمون: فَدخلت إليه بعد سَبعة أيام، فقلت: يا أبا عبد الله، رأيتُك يوم ضَربوك قد انحلَّ سراويلك، فرفعتَ طرفك نحو السماءِ، ورأيتُك تُحرك شفَتيك، فأى شيءٍ قُلتَ؟ قال: قلتُ: اللهُم إنى أسألك باسمك الذى ملأتَ به العرشَ، إن كنتَ تعلمُ أنى على الصواب فلا تهتك لى سِتْرًا"[1].

قال أحمد بن الفَرج: "حضرتُ أحمد لما ضُرب، فتقدّم أبو الدَّنّ فَضربه بضعةَ عشر سوطًا، فأقبل الدمُ من أكتافِه، وكان عليه سَراويل فانقطع خَيطه، فنزل السراويل، فلحظتى وقد حَرّك شَفتيه، فعادَ السراويل كما كان، فسألتُه عن ذلك، فقال: قلتُ: إلهى وسَيدى، وقَفتنى هذا الموقف، فَتهتكنى على رؤوس الخَلائق، فعادَ السراويل كما كان"[2].

وقال على بن محمد القرشي:" لما قُدّم أحمد بن حنبل ليضرب وجُرّد، وبقى فى سَراويله، فبينا هو يُضرب انحلَّ السراويل، فجعلَ يُحرك شَفتيه بشىءٍ، فرأيتُ يَدين خَرجتا من تَحته وهو يُضرب، فشدَّتا السراويل، فلما فَرغوا من الضَّرب، قلنا له: ما كنتَ تقول حيثُ انحلَّ السراويل؟ قال: قلتُ يا من لا يعلمُ العرشُ منه أينَ هو إلا هو، إن كنتُ على الحقِّ فلا تُبْدِ عَورتى، فهذا الذى قلتُ"[3].

عن شاباص التائب قال: "لقد ضربتُ أحمد بن حنبل ثمانين سوطًا، لو ضربتُه فيلًا لهدَّتْه"[4].

عن محمد بن جَعفر الراشدى، قال: حدثنى بعض أصحابنا، قال: لما أخذت أبا عبد الله السياط، قال: بكَ أستغيثُ يا جبارَ السماءِ ويا جبارَ الأرض"[5].

عن عبدالله بن أحمد بن حنبل، قال: "كنتُ كثيرًا أسمع والدى يقول: رحمَ الله أبا الهيثَم، عفا الله عن أبى الهيثم الحَداد، اليوم الذى أخرجتُ فيه للسياط، ومُدت يَداى للعُقابين، إذا أنا بإنسان يَجذب ثَوبى من وَرائى، ويقول لى: تَعرفنى. قلتُ: لا، قال: أنا أبو الهيثم العَيّار، اللِّصُّ الطَّرار، مكتوب فى ديوان أمير المؤمنين أنى ضُربت ثمانيةَ عشر ألف سوط بالتفاريق، وصَبرتُ فى ذلك على طاعة الشيطان لأجل الدنيا، فاصبر أنتَ فى طاعة الرحمن لأجل الدين. قال: فضُربت ثمانية عَشر سوطًا بدل ما ضُرب ثمانية عشر ألفاً، وخرج الخادم، فقال: عَفا عنه أميرُ المؤمنين"[6].

قال محمد بن إبراهيم البوشنجي: "جعلوا يذاكرون أبا عبد الله بالرقة في التقية وما روي فيها. فقال: كيف تصنعون بحديث خباب: (إن من كان قبلكم كان ينشر أحدهم بالمنشار، لا يصده ذلك عن دينه»[7] قال: فأيسنا منه"[8].

---

[1] مناقب الإمام احمد:٤٤٧-٤٤٨.
[2] مناقب الإمام احمد: ٤٤٨.
[3] مناقب الإمام احمد: ٤٤٨-٤٤٩.
[4] مناقب الإمام احمد: ٤٥٠.
[5] مناقب الإمام احمد: ٤٥٠.
[6] مناقب الإمام احمد: ٤٥٠.
[7] الحديث:" كان الرجل فيمن كان قبلكم يؤخذ فيحفر له فى الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين ما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب ما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون ".
أخرجه أحمد (١٠٩/٥، رقم ٢١٠٩٥) ، والبخارى (١٣٢٢/٣، رقم ٣٤١٦) ، وأبو داود (٤٧/٣، رقم ٢٦٤٩) ، والنسائى فى الكبرى (٤٥٠/٣، رقم ٥٨٩٣) ، وفى الحديث عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله - ﷺ - وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فذكره.
[8] سير أعلام النبلاء:٢٣٩/١١.

أخرج ابن الجوزي عن عُبيد الله بن عبد الرحمن الزُّهرى، قال: "قرأتُ فى كتابى: وقال المُروذى فى مِحنة أحمد بن حنبل وهو بَين الهُنْبَازَيْن: يا أستاذ، قال الله تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ}، فقال أحمد: يا مَروذى، اخرج انظر، أى شىءٍ تَرى. قال: فخرجتُ إلى رَحبة دار الخليفة، فرأيتُ خَلقًا من الناس لا يُحصى عَددهم إلا الله، والصحفُ فى أيديهم، والأقلام والمحابر فى أذرعتهم، فقال لهم المُروذى: أى شىءٍ تَعلمون؟ فقالوا: ننتظر أحمد فنكبته، فقال المروذى: مكانكم، فدخل إلى أحمد بن حنبل وهو قائم بين الهُنْبَازَين، فقال له: رأيتُ قومًا بأيديهم الصحف والأقلام يَنتظرون ما تقول فَيكتبونه. فقال: يا مروذى، أُضلُّ هؤلاء كلَّهم، أقتل نَفسى، ولا أضل هؤلاء كلهم. قلت: هذا رجلٌ هانَت عليه نفسه فى الله تعالى فَبذلها، كما هانت على بلال نفسه. وقد رَوينا عن سعيد بن المسَيّب: أنه كانت نفسه عليه فى الله تعالى، أهون من نَفس ذُباب. وإنما تهون أنفسهم عليهم لتلمّحهم العَواقب، فعيون البَصائر ناظرة إلى المال لا إلى الحال، وشدة ابتِلاء أحمد دليلٌ على قُوة دينه، لأنه صَحَّ عن النبى ﷺ أنه قال: «يُبْتَلَى الرّجلُ على حَسَبِ دَينِه»، فَسبحان من أيّده وبَصَّره، وقَوّاه ونَصَره"(١).

أخرج ابن الجوزي عن أبي جعفر محمد ابن أحمد، قال: "سمعتُ أبا حاتم يقول: لما كان اليومُ الذي ضُرب فيه أحمد، قلتُ: أمرُّ اليومَ فأعرف خَبر أحمد، فبَكَّرتُ فإذا أنا بشيخ قائم، وهو يقول: اللهمَّ ثبته، اللهمَّ أعنه، ثم لم يَزل كالحَيران، ويقول: إن كان أجابَ حتى أدخل فأقوم مقامه، فخرج رجلٌ، فقال: لم يُجبهم، فقال: الحمدُ لله. فقلتُ: من هذا فقالوا: بِشر بن الحارث"(٢).

قال أبو القاسم البغوي: " رأيتُ أحمد بن حنبل داخلاً إلى جامع المدينة، وعليه كِساء أخضر، وبيده نَعلاه حاسر الرأس، فرأيتُ شَيخاً آدم طُوالاً أبيضَ اللحية؛ وكان على دَكّة المنارة قوم من أصحاب السلطان، فَنزلوا واستقبلوه وقَبلوا رأسه ويده، وقالوا له: ادعُ على من ظلمك. فقال: ليسَ بصابر من دَعا على ظالم"(٣).

قال ابن الجوزي:"قلت: وقد نُقِل إلينا حكايات في قصة ضرَبه لم يثبت عندنا صحتها فتنكبناها"(٤).

القرآن

{قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢)} [التوبة : ٥٢]

التفسير:

قل لهم -أيها النبي-: هل تنتظرون بنا إلا شهادة أو ظفرًا بكم؟ ونحن ننتظر بكم أن يصيبكم الله بعقوبة مِن عنده عاجلة تهلككم أو بأيدينا فنقتلكم، فانتظروا إنا معكم منتظرون ما الله فاعل بكل فريق منا ومنكم.

قوله تعالى:{قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ} [التوبة : ٥٢]، أي:" قل لهم -أيها النبي-: هل تنتظرون بنا إلا شهادة أو ظفرًا بكم؟"(٥).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : {قل}، يا محمد ، لهؤلاء المنافقين الذين وصفتُ لك صفتهم وبينت لك أمرهم : هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخَلَّتين اللتين هما أحسن من غيرهما ، إما ظفرًا بالعدو وفتحًا لنا بغَلَبَتِناهم ، ففيها الأجر والغنيمة والسلامة وإما قتلا من عدوِّنا لنا ، ففيه الشهادة ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار. وكلتاهما مما نُحبُّ ولا نكره"(٦).

---

(١) مناقب الإمام احمد، ابن الجوزي:٤٤٥-٤٤٦.
(٢) مناقب اللإمام احمد:٤٥٤.
(٣) مناقب الإمام احمد:٤٥١-٤٥٢.
(٤) مناقب الإمام احمد:٤٥٤.
(٥) التفسير الميسر:١٩٥.
(٦)تفسير الطبري:٢٩١/١٤ .

عن ابن عباس قوله : "{هل تربصون لنا إلا إحدى الحسنيين}، يقول : فتح أو شهادة وقال مرة أخرى : يقول القتل ، فهي الشهادة والحياة والرزق. وإما يخزيكم بأيدينا"[1].

عن مجاهد قوله : "{إلا إحدى الحسنيين}، قال : القتل في سبيل الله ، والظهور على أعدائه"[2].

عن قتادة قوله : "{هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين}، إلا فتحًا أو قتلا في سبيل الله"[3].

قوله تعالى:{وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا} [التوبة : ٥٢]، أي:" ونحن ننتظر بكم أن يصيبكم الله بعقوبة مِن عنده عاجلة تهلككم أو بأيدينا فنقتلكم"[4].

فنقتلكم"[4].

قال الطبري:" يقول : ونحن ننتظر بكم أن يصيبكم الله بعقوبة من عنده عاجلة ، تهلككم {أو بأيدينا}، فنقتلكم "[5].

قال أبو عبيدة:" {أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ}، أي: أن يميتكم"[6].

قال ابن عباس : "{بعذاب من عنده}، بالموت {أو بأيدينا}، قال : القتل"[7].

عن قتادة: "{ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا}، أي : قتل"[8].

قوله تعالى:{فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ} [التوبة : ٥٢]، أي:" فانتظروا إنا معكم منتظرون ما الله فاعل بكل فريق منا ومنكم"[9].

قال الطبري:"يقول : فانتظروا إنا معكم منتظرون ما الله فاعل بنا ، وما إليه صائرٌ أمر كلِّ فريقٍ منَّا ومنكم"[10].

الفوائد:

١- أن نتيجة الجهاد بالنفس: إما نصر يحمل الخير ويرفع كلمة الله، وإما استشهاد لا موت معه بل حياة به عند الله.

٢- مشروعية القول الذي يغيظ العدو ويحزنه.

القرآن

{قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣)} [التوبة : ٥٣]

التفسير:

قل -أيها النبي- للمنافقين: أنفقوا أموالكم كيف شئتم، وعلى أي حال شئتم طائعين أو كارهين، لن يقبل الله منكم نفقاتكم؛ لأنكم قوم خارجون عن دين الله وطاعته.

سبب النزول:

قال ابن عباس : "قال: الجدّ بن قيس: إني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن ، ولكن أعينك بمالي! قال : ففيه نزلت:{أنفقوا طوعًا أو كرهًا لن يتقبل منكم}، قال : لقوله:«أعينك بمالي»"[11].

---

[1] أخرجه الطبري(١٦٧٩٦):ص١٤/٢٩٢.
[2] أخرجه الطبري(١٦٧٩٨):ص١٤/٢٩٢.
[3] أخرجه الطبري(١٦٨٠٢):ص١٤/٢٩٢-٢٩٣.
[4] التفسير الميسر:١٩٥.
[5]تفسير الطبري:١٤/٢٩١ .
[6] مجاز القرآن:١/٢٦١.
[7] أخرجه الطبري(١٦٨٠١):ص١٤/٢٩٢.
[8] أخرجه الطبري(١٦٨٠٢):ص١٤/٢٩٢-٢٩٣.
[9] التفسير الميسر:١٩٥.
[10]تفسير الطبري:١٤/٢٩١ .
[11] أخرجه الطبري(١٦٨٠٣):ص١٤/٢٩٤.

قوله تعالى:{قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ} [التوبة : ٥٣]، أي:" قل -أيها النبي- للمنافقين: أنفقوا أموالكم كيف شئتم، وعلى أي حال شئتم طائعين أو كارهين، لن يقبل الله منكم نفقاتكم"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : {قل}، يا محمد ، لهؤلاء المنافقين : أنفقوا كيف شئتم أموالكم في سفركم هذا وغيره ، وعلى أي حال شئتم ، من حال الطوع والكره ، فإنكم إن تنفقوها لن يتقبَّل الله منكم نفقاتكم ، وأنتم في شك من دينكم ، وجهلٍ منكم بنبوة نبيكم ، وسوء معرفة منكم بثواب الله وعقابه"[٢].

قوله تعالى:{إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ} [التوبة : ٥٣]، أي:" لأنكم قوم خارجون عن دين الله وطاعته"[٣].

قال الطبري:" يقول : خارجين عن الإيمان بربكم"[٤].

وخرج قوله : {أنفقوا طوعا أو كرها}، مخرج الأمر ، ومعناه الجزاء، والعرب تفعل ذلك في الأماكن التي يحسن فيها " إن " ، التي تأتي بمعنى الجزاء ، كما قال جل ثناؤه : {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ }[سورة التوبة : ٨٠] ، فهو في لفظ الأمر ، ومعناه الجزاء ،ومنه قول كثير عزة [٥]:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لا مَلُومَةً ... لَدَيْنَا ، ولا مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ

فكذلك قوله : {أنفقوا طوعًا أو كرهًا}، إنما معناه : إن تنفقوا طوعًا أو كرهًا لن يُتَقَبَّل منكم[٦].

الفوائد:

١- تقرير مبدأ أن الرياء مبطلة للعمل كالشرك محبط للعمل.
٢- إطلاق الفسق على الكفر فكل كافر فاسق على الإطلاق.
٣- ومن الفوائد: آثار النفاق وأضراره، إذ أن النفاق له آثار خطيرة، وأضرار مُهلكة، منها ما يأتي:

أ- النفاق الأكبر يسبّب الخوف والرّعب في القلوب، قال الله - عز وجل -:
{يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِؤُواْ إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ}[التوبة: ٦٤].

ب- النفاق الأكبر يُوجب لعنة الله تعالى، قال الله - عز وجل -: {وَعَدَ اللهَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللهَ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ}[التوبة:٦٨]. وقال سبحانه: {لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً}[الأحزاب:٦٠-٦١].

ت- النفاق الأكبر يُخرج صاحبه من الإسلام؛ لأنه إسرار الكفر، وإظهار الخير، بل هو أشدُّ من الكفر الظاهر، قال الله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}[النساء:١٤٥].

ث- النفاق الأكبر لا يغفره الله إذا مات عليه صاحبه؛ لأنه أشدُّ من الكفر الظاهر الذي قال الله تعالى في أصحابه: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللهِ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّم خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا}[النساء:١٦٨-١٦٩].

---

[١] التفسير الميسر:١٩٥.
[٢] تفسير الطبري:٢٩٣/١٤.
[٣] التفسير الميسر:١٩٥.
[٤] تفسير الطبري:٢٩٣/١٤.
[٥] ديوانه ١: ٥٣ من قصيدته المشهورة. قلاه يقليه قلى فهو مقلي: كرهه وأبغضه. وتقلى تبغض، أي استعمل من الفعل أو القول ما يدعو إلى بغضه.
[٦] انظر: تفسير الطبري:٢٩٣/١٤-٢٩٤.

ج- النفاق الأكبر يوجب لصاحبه النار، ويُحرِّم عليه الجنة، قال الله - عز وجل -: {إِنَّ الله جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا}[النساء:١٤٠].
ح- النفاق الأكبر يُخلِّد صاحبه في النار، فلا يخرج منها أبداً؛ لقول الله - عز وجل -: {وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا}[التوبة:٦٨].
خ- النفاق الأكبر يُسبّب نسيان الله لصاحبه، قال الله تعالى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ الله فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[التوبة:٦٧].
د- النفاق الأكبر يُحبط جميع الأعمال، قال الله - عز وجل -: {قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِالله وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ}[التوبة:٥٣-٥٤].
ذ- النفاق الأكبر يُطفئ الله نور أصحابه يوم القيامة، قال الله - عز وجل -: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ}[الحديد:١٣].
ر- النفاق الأكبر يَحرِمُ العبد دعاء المؤمنين والصلاة عليه عند موته، قال الله - عز وجل -: {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِالله وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ}[التوبة:٨٤].
ز- النفاق الأكبر يُسبّب عذاب الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: {فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}[التوبة:٥٥].
س- النفاق الأكبر إذا أظهره صاحبه وأعلنه كان مرتدّاً عن الإسلام، فيكون حلال الدم والمال، وتُطبّق عليه أحكام المرتدّ، إلا أن قبول توبته عند الحاكم فيها خلاف في الظاهر؛ لأن المنافقين يُظهرون الإسلام دائماً[1].

أما إذا أخفى المنافق نفاقه وكفره؛ فإنه معصوم الدم والمال بما أظهر من الإيمان، والله يتولى السّرائر[2].
ش- النفاق الأكبر إذا أظهر صاحبه كفره يُوجب العداوة بين صاحبه والمؤمنين، فلا يُوالونه ولو كان أقرب قريب، وأما إذا لم يُظهر كفره فيُعامل بالظاهر، والله يتولّى السّرائر.
ص- النفاق الأصغر، وهو النفاق العملي، ينقص الإيمان ويضعفه، ويكون صاحبه على خطر من عذاب الله تعالى.
ض- النفاق الأصغر صاحبه على خطر؛ لئلا يجرّه إلى النفاق الأكبر.

ونعوذ بالله من غضبه، ومن جميع أنواع النفاق صغيره وكبيره، ونسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة[3].

القرآن

{وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤)} [التوبة : ٥٤]

التفسير:

---

[1] انظر: فتاوى ابن تيمية، ٢٨/ ٣٣٤.
[2] انظر: المنافقون في القرآن، للدكتور عبد العزيز الحميدي، ص٤٥٠.
[3] انظر: نُورُ الإيمان وظلمات النِّفَاق في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد القحطاني:٥١-٥٤.

وسبب عدم قَبول نفقاتهم أنهم أضمروا الكفر بالله عز وجل وتكذيب رسوله محمد ﷺ، ولا يأتون الصلاة إلا وهم متثاقلون، ولا ينفقون الأموال إلا وهم كارهون، فهم لا يرجون ثواب هذه الفرائض، ولا يخشون على تركها عقابًا بسبب كفرهم.

قوله تعالى:{وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ} [التوبة : ٥٤]، أي:" وسبب عدم قَبول نفقاتهم أنهم أضمروا الكفر بالله عز وجل وتكذيب رسوله محمد -ﷺ-"[١].

قال الطبري:أي:" ما منع قبول نفقاتهم إلا كفرهم بالله وبرسوله"[٢].

وقرأ الأخوان وزيد بن علي: «أن يقبل» بالياء، وباقي السبعة بالتاء، و«نفقاتهم» بالجميع، وزيد بن علي بالإفراد. وقرأ الأعرج بخلاف عنه: «أن تقبل» بالتاء من فوق «نفقتهم» بالإفراد. وفي هذه القراءات الفعل مبني للمفعول. وقرأت فرقة: «أن نقبل منهم نفقتهم» بالنون ونصب النفقة [٣].

قوله تعالى:{وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى} [التوبة : ٥٤]، أي:" ولا يأتون الصلاة إلا وهم متثاقلون"[٤].

قال الطبري:" يقول : لا يأتونها إلا متثاقلين بها، لأنهم لا يرجون بأدائها ثوابًا ، ولا يخافون بتركها عقابًا ، وإنما يقيمونها مخافةً على أنفسهم بتركها من المؤمنين ، فإذا أمنوهم لم يقيموها"[٥].

قوله تعالى:{وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ} [التوبة : ٥٤]، أي:" ولا ينفقون الأموال إلا وهم كارهون"[٦].

قال الطبري:" يقول : ولا ينفقون من أموالهم شيئًا {إلا وهم كارهون}، أن ينفقونه في الوجه الذي ينفقونه فيه ، مما فيه تقوية للإسلام وأهله "[٧].

قال أبو حيان:" ذكر السبب الذي هو بمفرده مانع من قبول نفقاتهم وهو الكفر، وأتبعه بما هو ناشىء عن الكفر ومستلزم له وهو دليل عليه. وذلك هو إتيان الصلاة وهم كسالى، وإيتاء النفقة وهم كارهون. فالكسل في الصلاة وترك النشاط إليها وأخذها بالإقبال من ثمرات الكفر، فإيقاعها عندهم لا يرجون به ثوابا، ولا يخافون بالتفريط فيها عقابا. وكذلك الإنفاق للأموال لا يكرهون ذلك إلا وهم لا يرجون به ثوابا. وذكر من أعمال البر هذين العملين الجليلين وهما الصلاة والنفقة، واكتفى بهما وإن كانوا أفسد حالا في سائر أعمال البر، لأن الصلاة أشرف الأعمال البدنية، والنفقة في سبيل الله أشرف الأعمال المالية، وهما وصفان المطلوب إظهارهما في الإسلام، ويستدل بهما على الإيمان، وتعداد القبائح يزيد الموصوف بها ذما وتقبيحا"[٨].

الفوائد:

١- أن الكافر لا تقبل منه النفقات، لقوله تعالى: {وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله}.

٢- أن الكفار خسروا أنفسهم؛ لأنهم لم يستفيدوا من وجودهم في الدنيا شيئا، بل ما استفادوا إلا الضرر، وخسروا أموالهم؛ لأنهم لم ينتفعوا بها، حتى ما أعطوه للخلق لينتفع به، فإنه لا ينفعهم؛ كما قال تعالى: {وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله

---

[١] التفسير الميسر:١٩٥.
[٢] تفسير الطبري:٢٩٤/١٤.[بتصرف بسيط].
[٣] انظر: البحر المحيط في التفسير:٤٣٥/٥.
[٤] التفسير الميسر:١٩٥.
[٥] تفسير الطبري:٢٩٥/١٤.
[٦] التفسير الميسر:١٩٥.
[٧] تفسير الطبري:٢٩٥/١٤.
[٨] البحر المحيط:٤٣٥/٥.

وبرسوله} [التوبة: ٥٤] وخسروا أهليهم، لأنهم في النار، فصاحب النار لا يأنس بأهله، بل إنه مغلق عليه في تابوت، ولا يرى أن أحدا أشد منه عذابا.

٣- أن العقيدة الصحيحة شرط لصحة الأعمال وقبولها. قال تعالى: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ١١٢] وفسادها سبب لردها في الدنيا وحبوطها في الآخرة كما قال تعالى: {وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ} [التوبة: ٥٤] قال تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً} [الفرقان: ٢٣]. إذًا العقيدة أساس لتصحيح العمل وهي أعظم الواجبات وآكدوها(١).

وتظهر أهمية العقيدة في النظر إلى أمور متعددة، منها:

أولاً: العقيدة أصل الدين، العقيدة هي أصل الدين، وهي أساسُ دعوة المرسلين.

ثانيا: أن العقيدة الصحيحة شرط لصحة الأعمال وقبولها.

ثالثًا: أن العقيدة سببٌ لسعادة الدنيا والآخرة كما قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى} [النحل: ٩٧] قال: {وَهُوَ مُؤْمِنٌ} هذا قيد، مفهومه من لم يكن مؤمنًا لا صلاح له لا في الدنيا ولا في الآخرة.

رابعًا: أنها أصلٌ في أعمال الجوارح بمعنى أن صلاح العقيدة يُورث صلاح العمل والعكس بالعكس.

خامسًا: أن العقيدة الصحيحة عصمة للدم والمال، وفسادها يوجب إهدارهما كما قال -ﷺ -: في عير ما حديث: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن يستقبلوا قبلتنا ويأكلوا ذبيحتنا ويصلوا صلاتنا فإذا فعلوا ذلك فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين»(٢).
المسلمين»(٢).

الحديث دال على أنه لا عصمة للمال والدم إلا بتحقيق الشهادتين والصلاة والزكاة.

سادسًا: أن العقيدة الصحيحة شرط لحصول النصر والتمكين للأمة، وتحقيق الأمن والاجتماع. قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور: ٥٥]

سابعًا: أن العقيدة الصحيحة تحرر العقل من الشبهات الفاسدة والخرافات السخيفة. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً} [النساء: ١٧٤] تمنحه القناعة التامة والانفراد العقلي السالم من التناقض والخلل، كما قال تعالى: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً} [النساء: ٨٢] فساد هذه العقيدة يورث القلق والحيرة(٣).

٤- ذكرت الآية الكريمة مجموعة من صفات المنافقين:

أ- انهم كفروا بالله وبرسوله.

ب- لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى.

ت- لا ينفقون إلا وهم كارهون.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، الحازمي: [الدرس(شرح العقيدة الواسطية)دروس صوتية].

(٢)أخرجه أحمد (٢٢٤/٣، رقم ١٣٣٧٢) ، والبخارى (١٥٣/١، رقم ٣٨٥) ، وأبو داود (٤٤/٣، رقم ٢٦٤١) ، ، والترمذى (٤/٥، رقم ٢٦٠٨) وقال: حسن صحيح غريب. والنسائى (٧٦/٧، رقم ٣٩٦٧) ، وابن حبان (٢١٥/١٣، رقم ٥٨٩٥) ، والدارقطنى (٢٣٢/١) ، والبيهقى (٣/٢، رقم ٢٠٣١) . وأخرجه أيضا: الضياء (٢٧٧/٥، رقم ١٩١٣).

(٣) انظر: شرح العقيدة الواسطية للحازمي:١٧-١٨. [مرقم آليا/ دروس صوتية].

وفي هذه الصفات غاية الذمّ للمنافقين ولمن فعل فعلهم، فينبغي لكل أحد أن يبتعد عن الفسق، ويُؤمن بالله ورسوله - ﷺ -، ويأتي الصلاة وهو نشيط البدن والقلب، ويُنفق وهو مُنشرح الصدر، ثابت القلب، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبّه بالمنافقين.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: حرمة التكاسل في الصلاة وأن ذلك من صفات المنافقين.

٦- ومنها: وجوب رضا النفس بما ينفق العبد في سبيل الله زكاة أو غيرها.

القرآن

{فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)} [التوبة : ٥٥]

التفسير:

فلا تعجبك -أيها النبي- أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم، إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الحياة الدنيا بالتعب في تحصيلها وبالمصائب التي تقع فيها، حيث لا يحتسبون ذلك عند الله، وتخرج أنفسهم، فيموتوا على كفرهم بالله ورسوله.

قوله تعالى:{فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ} [التوبة : ٥٥]، أي:" فلا تعجبك -أيها النبي- أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم"[١].

قوله تعالى:{إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [التوبة : ٥٥]، أي:" إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الحياة الدنيا بالتعب في تحصيلها وبالمصائب التي تقع فيها حيث لا يحتسبون ذلك عند الله"[٢].

وفي قوله تعالى: {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [التوبة : ٥٥]، خمسة أقوال:

أحدها : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة ، قاله ابن عباس[٣]، وقتادة[٤]، ويكون فيه تقديم وتأخير .

والثاني : إنما يريد الله ليعذبهم بما فرضه من الزكاة في أموالهم ، يعني المنافقين . وهذا قول الحسن[٥].

والثالث : ليعذبهم بمصائبهم في أموالهم أولادهم ، قاله ابن زيد[٦].

عن ابن زيد:" {إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا}، بالمصائب فيها ، هي لهم عذابٌ ، وهي للمؤمنين أجرٌ"[٧].

والرابع : ليعذبهم ببني أولادهم وغنيمة أموالهم ، يعني المشركين ، حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين[٨].

والخامس : يعذبهم بجمعها وحفظها وحبها والبخل بها والحزن عليها ، وكل هذا عذاب[٩].

قال الطبري:" وأولى التأويلين بالصواب في ذلك عندنا ، التأويلُ الذي ذكرنا عن الحسن. لأن ذلك هو الظاهر من التنزيل ، فصرْفُ تأويله إلى ما دلَّ عليه ظاهره ، أولى من صرفه إلى باطنٍ لا دلالةَ على صحته. وإنما وجَّه من وجَّه ذلك إلى التقديم وهو مؤخر ، لأنه لم يعرف لتعذيب الله المنافقين بأموالهم وأولادهم في الحياة الدنيا ، وجهًا يوجِّهه إليه ، وقال : كيف

---

[١] التفسير الميسر:١٩٦.
[٢] التفسير الميسر:١٩٦.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٠٥):ص٢٩٦/١٤.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٠٤):ص٢٩٦-٢٩٧.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٠٦):ص٢٩٦/١٤.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٠٧):ص٢٩٦/١٤.
[٧] أخرجه الطبري(١٦٨٠٧):ص٢٩٦/١٤.
[٨] انظر: النكت والعيون:٣٧٢/٢.
[٩] انظر: النكت والعيون:٣٧٢/٢.

يعذِّبهم بذلك في الدنيا ، وهي لهم فيها سرور ؟ وذهبَ عنه توجيهه إلى أنه من عظيم العذاب عليه إلزامُه ما أوجب الله عليه فيها من حقوقه وفرائضه ، إذ كان يلزمه ويؤخذ منه وهو غير طيِّب النفس ، ولا راجٍ من الله جزاءً ، ولا من الآخذ منه حمدًا ولا شكرًا ، على ضجرٍ منه وكُرْهٍ"[1].

قوله تعالى:{وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة : ٥٥]، أي:" وتخرج أنفسهم، فيموتوا على كفرهم بالله ورسوله"[2].

قال الطبري:" يعني: وتخرج أنفسهم ، فيموتوا على كفرهم بالله ، وجحودهم نبوّةَ نبيّ الله محمد صلى"[3].

قال الماوردي:" أي: تهلك بشدة"[4].

عن السدي :{وتزهق أنفسهم وهم كافرون}، قال: تزهق أنفسهم في الحياة الدنيا وهم كافرون قال: هذه آية فيها تقديم وتأخير"[5].

قال ابن كثير:" أي : ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم ، عياذا بالله من ذلك ، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه "[6].

عن الضحاك قوله: "{وتزهق أنفسهم}، قال: في الدنيا وهم كافرون قال: تزهق أنفسهم: تخرج"[7].

الفوائد:

١- كراهية استحسان المسلم لما عند أهل الفسق والنفاق من مال ومتاع.

٢- أن النفاق الأكبر يُسبّب عذاب الدنيا والآخرة.

٣- ودلت الآية أن الله سبحانه يفعل ما يشاء في العبد وإن لم يكن للعبد فيه مصلحة، يدل على صحة ما ذهبنا إليه قوله تعالى: {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، وهذه «لام كي»، تقديرها: إنما يريد الله تعذيبهم. وفي الآية تقديم وتقديرها: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة، وهذا قول أكثر المفسرين[8].

وقال بعضهم: أراد إنما يريد الله ليعذبهم في الحياة الدنيا؛ لأنهم منافقون فهم ينفقون كارهين فيعذبون بما ينفقون[9].

القرآن

{وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦)} [التوبة : ٥٦]

التفسير:

ويحلف هؤلاء المنافقون بالله لكم أيها المؤمنون كذبًا وباطلا إنهم لمنكم، وليسوا منكم، ولكنهم قوم يخافون فيحلفون تَقِيَّة لكم.

قوله تعالى:{وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ} [التوبة : ٥٦]، أي:" ويحلف هؤلاء المنافقون بالله لكم أيها المؤمنون كذبًا وباطلا إنهم لمنكم، وليسوا منكم"[10].

---

[1] تفسير الطبري:١٤/٢٩٦-٢٩٧.

[2] التفسير الميسر:١٩٦.

[3] تفسير الطبري:١٤/٢٩٧.

[4] النكت والعيون:٢/٣٧٢.

[5] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٢٨):ص٦/١٨١٤.

[6] تفسير ابن كثير:٤/١٦٣.

[7] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٢٩):ص٦/١٨١٤.

[8] ذكر هذا القول الطبري عن قتادة وابن عباس - رضي الله عنهما - وذكره القرطبي عن النحاس وقال: هو قول أكثر أهل العربية، انظر: تفسير القرطبي ٨/١٦٤..

[9] ذكر هذا القول القرطبي ولم يعزه إلى معين. انظر: تفسير القرطبي:٨/١٦٤.

[10] التفسير الميسر:١٩٦.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : ويحلف بالله لكم ، أيها المؤمنون ، هؤلاء المنافقون كذبًا وباطلا خوفًا منكم : {إنهم لمنكم} في الدين والملة "[1].

قال ابن كثير:" يخبر الله تعالى نبيه ، صلوات الله وسلامه عليه ، عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم أنهم { يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ } يمينًا مؤكدة "[2].

قال الضحاك:" إنما يحلفون بالله تقية"[3].

قوله تعالى:{وَمَا هُمْ مِنْكُمْ} [التوبة : ٥٦]، أي:"وليسوا منكم"[4].

قال الطبري:" يقول الله تعالى ، مكذّبًا لهم : {وما هم منكم}، أي ليسوا من أهل دينكم وملتكم ، بل هم أهل شكٍّ ونفاقٍ"[5].

قوله تعالى:{وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ} [التوبة : ٥٦]، أي:" ولكنهم قوم يخافون فيحلفون تَقِيَّة لكم"[6].

قال الطبري:" يقول : ولكنهم قوم يخَافونكم ، فهم خوفًا منكم يقولون بألسنتهم : " إنا منكم " ، ليأمنوا فيكم فلا يُقْتَلوا"[7].

قال ابن كثير:" أي : فهو الذي حملهم على الحلف "[8].

الفوائد:

١- الأيمان الكاذب شعار المنافقين وفي الحديث:« آية المنافق ثلاثة وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان»[9].
٢- أن الإيمان أصل الأعمال الدينية، وفي تعريف الإيمان روى أبو هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: "ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر بالقلب وصدقه والعمل، والذي نفسي بيده لا يدخلن الجنة أحد إلا بعمل يتقنه قالوا: يا رسول الله وما يتقنه؟ قال: يحكمه"[10].
٣- من صفات المنافقين: الجبن وشدة الخوف والهلع، وهذه الصفة من أهم الأسباب التي جعلتهم يخفون كفرهم ويظهرون الإسلام؛ لأنهم يخافون من القتل ومن أن تسلب أموالهم لكفرهم، وليس عندهم شجاعة فيقاتلون مع الكفار، فيلجأون إلى النفاق، قال تعالى:{ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ}، أي:" يخافون فيحلفون تَقِيَّة لكم"[11]، فهم يتصفون بـ«الفرق» - وهو الخوف - فلو وجد أحدهم في حال القتال حصناً أو كهفاً في جبل أو نفقاً في الأرض يدخله ليختفي فيه لذهب إليه مسرعاً، كما سيأتي بيان ذلك في الآية الآتية.

---

[1] تفسير الطبري:٢٩٧/١٤.
[2] تفسير ابن كثير:١٦٣/٤.
[3] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٢٩):ص١٨١٤/٦.
[4] التفسير الميسر:١٩٦.
[5] تفسير الطبري:٢٩٧/١٤-٢٩٨.
[6] التفسير الميسر:١٩٦.
[7] تفسير الطبري:٢٩٨/١٤.
[8] تفسير ابن كثير:١٦٣/٤.
[9]حديث أبى هريرة: أخرجه أحمد (٣٥٧/٢، رقم ٨٦٧٠) ، والبخارى (٢١/١، رقم ٣٣) ، ومسلم (٧٨/١، رقم ٥٩) ، والترمذى (١٩/٥، رقم ٢٦٣١) ، وقال: حسن غريب، والنسائى (١١٦/٨، رقم ٥٠٢١) . وأخرجه أيضا: أبو يعلى (٤٠٦/١١، رقم ٦٥٣٣) .
وللحديث أطراف أخرى منها: "ثلاث من كن فيه"..
[10]أخرجه اللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة ٨٣٩/٤، وابن عدي في الكامل ٢٢٩٠/٦ وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن بحير (مجبر) بن عبد الرحمن قال ابن عدي: "روى عن الثقات بالمناكير وعن أبيه عن مالك بالبواطيل".
قلت: وهذه الرواية من طريق أبيه عن مالك. قال الذهبي: "قال ابن يونس ليس بثقة"، وقال الخطيب: "كذاب".
انظر: ميزان الاعتدال ٦٢١/٣ .
[11] التفسير الميسر:١٩٦.

القرآن

{لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧)} [التوبة : ٥٧]

التفسير:

لو يجد هؤلاء المنافقون مأمنًا وحصنًا يحفظهم، أو كهفًا في جبل يؤويهم، أو نفقًا في الأرض ينجيهم منكم، لانصرفوا إليه وهم يسرعون.

قوله تعالى:{لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا} [التوبة : ٥٧]، أي:" لو يجد هؤلاء المنافقون مأمنًا وحصنًا يحفظهم، أو كهفًا في جبل يؤويهم، أو نفقًا في الأرض ينجيهم منكم"[١].

قال السعدي:" ثم ذكر شدة جبنهم فقال: {لو يجدون ملجأ} يلجأون إليه عندما تنزل بهم الشدائد، {أو مغارات} يدخلونها فيستقرون فيها {أو مدخلا} أي: محلا يدخلونه فيتحصنون فيه"[٢].

روي عن ابن شوذب في قوله: {لو يجدون ملجأ أو مغارات}، قال: تذهبون على وجوهكم في الأرض"[٣].

وفي «الملجأ» ففيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه الحرز ، قاله ابن عباس[٤]، ومجاهد[٥].

والثاني : الحصن ، قاله قتادة[٦].

والثالث : الموضع الحريز من الجبل ، قاله الطبري[٧].

والرابع : المهرب ، قاله السدي[٨].

قال الماوردي:"ومعاني هذه كلها متقاربة"[٩].

قال ابن كثير:" أي : حصنا يتحصنون به ، وحرزا يحترزون به "[١٠].

وأما «المغارات»، ففيها ثلاثة وجوه:

أحدهما : أنها الغيران في الجبال ، قاله ابن عباس[١١]، وقتادة[١٢].

قال ابن كثير:" وهي التي في الجبال "[١٣].

والثاني : المدخل الساتر لمن دخل فيه ، قاله علي بن عيسى[١٤].

والثالث: الأسراب في الأرض المخفية. وهذا مروي عن ابن عباس ايضا[١٥].

وأما «المدَّخل»، ففيه ثلاثة وجوه :

أحدهما : أنه النفق في الأرض، وهو السرب، قاله ابن عباس[١٦]، وقتادة[١٧]، واختاره الطبري[١٨].

---

(١) التفسير الميسر:١٩٦.
(٢) مجاز القرآن:٢٦١/١.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٣٥):ص١٨١٤/٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٦٨٠٩):ص٢٩٩/١٤.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٦٨١٠):ص٢٩٩/١٤-٣٠٠.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٦٨١٢):ص٣٠٠/١٤.
(٧) انظر: تفسير الطبري:٢٩٨/١٤.
(٨) انظر: النكت والعيون:٣٧٢/٢.
(٩) النكت والعيون:٣٧٢/٢.
(١٠) تفسير ابن كثير:١٦٣/٤.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٦٨٠٩):ص٢٩٩/١٤.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٦٨١٢):ص٣٠٠/١٤.
(١٣) تفسير ابن كثير:١٦٣/٤.
(١٤) انظر: النكت والعيون:٣٧٣/٢.
(١٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٣٣٣):ص١٨١٤/٦.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(١٦٨٠٩):ص٢٩٩/١٤.
(١٧) انظر: تفسير الطبري(١٦٨١٢):ص٣٠٠/١٤.
(١٨) انظر: تفسير الطبري:٢٩٨/١٤.

قال ابن كثير:" وهو السَّرَب في الأرض والنفَق "[١].
والثاني : أن المدخل: المتبوأ. يقول: لو يجدون متبوأ. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا[٢].
والثالث: أنه المدخل الضيق الذي يدخل فيه بشدة[٣].
قوله تعالى:{لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ} [التوبة : ٥٧]، أي:" لانصرفوا إليه وهم يسرعون"[٤].
قال السعدي:" أي: يسرعون ويهرعون، فليس لهم ملكة، يقتدرون بها على الثبات"[٥].
قال الطبري:" ، يقول : لأدبروا إليه ، هربًا منكم، وهم يسرعون في مَشْيِهم"[٦].
قال ابن كثير:" أي : يسرعون في ذهابهم عنكم ، لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة ، وودوا أنهم لا يخالطونكم ، ولكن للضرورة أحكام ؛ ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغَمٍّ ؛ لأن الإسلام وأهله لا يزال في عزّ ونصر ورفعة ؛ فلهذا كلما سُرّ المؤمنون ساءهم ذلك ، فهم يودون ألا يخالطوا المؤمنين ؛ ولهذا قال : { لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ }"[٧].
عن مجاهد :"{لولوا إليه}، قال: لفروا إليه منكم"[٨].
عن السدي قوله: "{وهم يجمحون}، أما {يجمحون}: فيسرعون"[٩].
قال أبو عبيدة:" {يَجْمَحُونَ}، يجمح، أي: يطمح يريد أن يسرع"[١٠].
وقيل : إن " الجماح " مشيٌ بين المشيين[١١]، ومنه قول مهلهل[١٢] :

لَقَدْ جَمَحْتُ جِمَاحًا فِي دِمَائِهِمُ ... حَتَّى رَأَيْتُ ذَوِي أَحْسَابِهِمْ خَمَدُوا

الفوائد:
١- أن الجبن والخور والضعف والخوف من لوازم الكفر والنفاق.
٢- بيان أن المنافقين لو يجدون شيئاً يلوذون به عن الجهاد للاذوا به، فلو وجد أحدهم في حال القتال حصناً أو كهفاً في جبل أو نفقاً في الأرض يدخله ليختفي فيه لذهب إليه مسرعا[١٣].

القرآن
{وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨)} [التوبة : ٥٨]
التفسير:
ومن المنافقين مَن يعيبك في قسمة الصدقات، فإن نالهم نصيب منها رضوا وسكتوا، وإن لم يصبهم حظ منها سخطوا عليك وعابوك.

---
(١) تفسير ابن كثير:١٦٣/٤.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٣٣٦):ص١٨١٥/٦.
(٣) انظر: النكت والعيون:٣٧٣/٢.
(٤) التفسير الميسر:١٩٦.
(٥) تفسير السعدي:٣٤٠.
(٦) تفسير الطبري:٣٩٨/١٤.
(٧) تفسير ابن كثير:١٦٣/٤.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٣٨):ص١٨١٥/٦.
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٣٩):ص١٨١٥/٦.
(١٠) مجاز القرآن:٢٦١/١.
(١١) انظر: تفسير الطبري:٢٩٨/١٤، قال المحقق:" هذا نص نادر لا تجده في كتاب اللغة ، فليقيد فيها هو وشاهده".
(١٢) لم أجد هذا البيت فيما وقفت عليه من شعر مهلهل. وقوله : " خمدا " ، أي : سكنوا فماتوا ، كما تنطفئ الجمرة.
(١٣) انظر: تسهيل العقيدة الإسلامية، الجبرين:٢٦٠.

في سبب نزول الآية، أقوال:
أحدها: روى الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي سعيد الخدري قال : " بينا رسول الله - ﷺ - يقسم قسما إذ جاءه ابن ذى الخويصرة التميمى، فقال: اعدل يا رسول الله، قال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل»، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ائذن لى فيه فأضرب عنقه فقال النبى - ﷺ - : دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فينظر فى قذذه فلا يوجد فيه شىء ثم ينظر فى نضيه فلا يوجد فيه شىء ثم ينظر فى رصافه فلا يوجد فيه شىء قد سبق الفرث والدم آيتهم رجل أسود فى إحدى يديه أو قال إحدى ثدييه مثل ثدى المرأة أو مثل البضعة تدردر يخرجون على حين فترة من الناس. فنزلت فيهم {ومنهم من يلمزك فى الصدقات} الآية. قال أبو سعيد: أشهد أنى سمعت هذا من رسول الله - ﷺ - وأشهد أن عليا حين قتلهم وأنا معهم جىء بالرجل على النعت الذى نعته رسول الله - ﷺ -"[1].
والثاني: ونقل الواحدي عن الكلبي، قال: "نزلت في المؤلفة قلوبهم وهم المنافقون، قال رجل منهم يقال له أبو الجواظ للنبي - ﷺ - لم تقسم بالسوية، فأنزل الله تعالى: {ومنهم من يلمزك في الصدقات}"[2].
والثالث: وقال الماوردي:"أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب، كان يقول : إنما يعطي محمد من يشاء ويتكلم بالنفاق فإن أعطي رضي وإن منع سخط ، فنزلت فيه الآية"[3].
قوله تعالى:{وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ} [التوبة : ٥٨]، أي:" ومن المنافقين مَن يعيبك في قسمة الصدقات"[4].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : ومن المنافقين الذين وصفت لك ، يا محمد ، صفتهم في هذه الآيات {من يلمزك في الصدقات}، يقول : يعيبك في أمرها ، ويطعُنُ عليك فيها"[5].
قال ابن زيد:" هؤلاء المنافقون ، قالوا : والله ما يعطيها محمد إلا من أحبَّ ، ولا يؤثر بها إلا هواه ! فأخبر الله نبيه ، وأخبرهم أنه إنما جاءت من الله ، وإن هذا أمر من الله ليس من محمد : (إنما الصدقات للفقراء) ، الآية"[6].
قال الجصاص:" يقال إن هؤلاء كانوا قوما منافقين أرادوا أن يعطيهم رسول الله من الصدقات ولم يكن جائزا أن يعطيهم منها لأنهم ليسوا من أهلها فطعنوا على رسول الله ﷺ في قسمة الصدقات وقالوا يؤثر بها أقرباءه وأهل مودته ويدل عليه قوله تعالى :{فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون}"[7].
وفي معنى {يَلْمِزُكَ} [التوبة : ٥٨]، وجوه :
أحدها : يروزك ويسألك ، قاله مجاهد[8].
والثاني : يغتابك ، حكاه الماوردي عن ابن قتيبة[9].
والثالث: يعيبك، وهذا قول الحسن[10]، الفراء[1]، وأبي عبيدة[2]، والطبري[3]، وابن قتيبة[4]، ومنه قول زياد الأعجم[5]:

---

(1) أخرجه عبد الرزاق (١٤٦/١٠) ، وابن أبى شيبة (٥٦٢/٧، رقم ٣٧٩٣٢)، والطبري(١٦٨١٧):ص٣٠٢/١٤-٣٠٣، وانظر: [كنز العمال ٣١٥٨٩].
(2) اسباب النزول:٢٤٩. والكلبي ضعيف، وما ذكره مر في الحديث السابق.

(3) النكت والعيون:٣٧٣/٢.
(4) التفسير الميسر:١٩٦.
(5) تفسير الطبري:٣٠٠/١٤.
(6) أخرجه الطبري(١٦٨١٧م):ص٣٠٣/١٤-٣٠٤.
(7) أحكام القرآن:٣٢٢/٤.
(8) انظر: تفسير الطبري(١٦٨١٤):ص٣٠٢/١٤.
(9) انظر: النكت والعيون:٣٧٤/٢.
(10) حكاه عنه الجصاص في احكام القرآن:٣٢٢/٤.

إِذَا لَقَيْتُكَ تُبْدِي لِي مُكَاشَرَةً   وَإِنْ أُغَيَّبْ ، فَأَنْتَ العَائِبُ الُّمَزَهْ

ومنه قول رؤبة[٦] :

قَارَبْتُ بَيْنَ عَنَقِي وَجَمْزِي   فِي ظِلِّ عَصْرَيْ بَاطِلِي وَلَمْزِي

والرابع: معناه: يطعن عليك في الصدقات. وهذا قول قتادة [٧].

قوله تعالى:{فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا} [التوبة : ٥٨]، أي:" فإن نالهم نصيب منها رضوا وسكتوا"[٨].

قال الطبري:" يقول : ليس بهم في عيبهم إياك فيها ، وطعنهم عليك بسببها ، الدِّينُ ، ولكن الغضب لأنفسهم ، فإن أنت أعطيتهم منها ما يرضيهم رضوا عنك"[٩].

قوله تعالى:{وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ} [التوبة : ٥٨]، أي:" وإن لم يصبهم حظ منها سخطوا عليك وعابوك"[١٠].

قال الطبري:" يقول: وإن أنت لم تعطهم منهم سخطوا عليك وعابوك"[١١].

الفوائد:

١- أن عيب الصالحين والطعن فيهم ظاهرة دالة على فساد قلوب ونيات من يفعل ذلك.
٢- أن الخوارج شرار الأمة وأبغضهم إلى الله، يدل عليه قوله -ﷺ-:" إن من ضئضئ هذا قوما يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان يمرقون من دين الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ألا إن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد"[١٢].
٣- آفة جميع المنافقين الجهل والتأويل وظنهم أنهم على شيء يظنونه صلاحاً، وأنهم به أهل العقل دون غيرهم ممن ليس على معتقدهم وأنهم بهذا ناجون في الدنيا والآخرة. وهم بهذا لا يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون.

---

[١] انظر: معاني القرآن:٤٤٣/١.

[٢] مجاز القرآن:٢٦١/١.

[٣] انظر: تفسير الطبري:٣٠٠/١٤-٣٠١.

[٤] انظر: غريب القرآن:١٨٨.

[٥] زيادة الأعجم: هو زياد بن سليمان الأعجم ويكنى أبا امامة له ترجمة فى المؤتلف ١٣١ والأغانى ١٤/ ٩٨. - والبيت فى الطبري ١٠/ ٩٥ والسجاوندى ١/ ٢٠١ وشواهد الكشاف ١٥٢.

[٦] ديوانه : ٦٤ ، من رجزه في أبان بن الوليد البجلي ، ثم ذكر فيها نفسه ، فقال : فَإِن تَرَيْنِي الْيَوْمَ أُمَّ حَمْزِ ...
قَارَبْتُ بَيْنَ عَنَقِي وجَمْزِي
مِنْ بَعْدِ تَقْمَاص الشَّبَابِ الأَبْزِ ... فِي ظِلِّ عَصْرَيْ باطِلِي وَلَمْزِي
فَكُلُّ بَدْءٍ صَالحٍ أَوْ نِقْزِ ... لاقٍ حِمَامَ الأَجَلِ المُجْتَزِّ
" أم حمز " ، يعني " أم حمزة " . و " العنق " ضرب من العدو ، و " الجمز " فوق العنق ، ودون الحضر ، وهو العدو الشديد. يعني ما تقارب من جريه لما كبر ، " تقماص الشباب " ، من " القمص " ، " قمص الفرس " ، إذا نفر واستن ، وهو أن يرفع يديه ويطرحهما معًا ، ويعجن برجليه. و " التقماص " مصدر لم تذكره كتب اللغة. و " الأبز " : الشديد الوثب ، المتطلق في عدوه ، يقال : " ظبي أبوز ، وأباز " ، ولم يذكروا في الصفات " الأبز " ، وهو هنا صفة بالمصدر. و " البدء " : السيد الشاب المقدم المستجاد الرأي. و " النقز " (بكسرالنون) : الخسيس الرذال من الناس.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٦٨١٥):ص٣٠٢/١٤.

[٨] التفسير الميسر:١٩٦.

[٩] تفسير الطبري:٣٠١/١٤.

[١٠] التفسير الميسر:١٩٦.

[١١] تفسير الطبري:٣٠١/١٤.

[١٢] أخرجه الطيالسى (ص ٢٩٦، رقم ٢٢٣٤) ، والبخارى (١٢١٩/٣، رقم ٣١٦٦) ، ومسلم (٧٤١/٢، رقم ١٠٦٤) ، وأبو داود (٢٤٣/٤، رقم ٤٧٦٤) ، والنسائى (٨٧/٥، رقم ٢٥٧٨).

ومن الأمثلة على هذا: حادثة ذي الخويصره التميمي أصل الخوارج عندما اعترض على قسمة النبي -ﷺ-[1].

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن المؤمن إن أعطي شكر، وإن لم يعط فإنه يصبر ولا يسخط، لأنه يعمل لله لا يعمل من أجل الدنيا، وبعضهم يحب أن يعطى من الدنيا شيئا، فقد كان بعض الصحابة لا يرضى أن يعطى من الدنيا شيئا، ولا يطلب شيئا، لأنه يريد الدار الآخرة، من باب حفظ أعمالهم ورجاء ثوابها في الدار الآخرة، فلا يحبون أن يتعجلوا من حسناتهم شيئا، ولكن من أعطي من غير تشوف، ومن غير طمع، ومن غير طلب، فإنه يأخذ، كما في الحديث: " إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه وما لا فلا تتبعه نفسك"[2].

فالمؤمن سيان عنده؛ يعطى من الدنيا أو لا يعطى، ولا ينقص ذلك من عمله لله شيئا، لأنه يحب الله ورسوله، ولهذا كان النبي ﷺ يعطي بعض الناس وهو يبغضهم من أجل تأليفهم، والخوف عليهم من النفاق والردة، ويمنع ناسا هم أحب الناس إليه ويكلهم إلى إيمانهم، لأنه واثق من إيمانهم وعقيدتهم، وأنهم لا يتأثرون إذا لم يعطوا، وهذه علامة المؤمن: أنه باق على إيمانه ويقينه أعطي من الدنيا أو لم يعط، أما صاحب الدنيا فهذا إن أعطي منها رضي وإن لم يعط منها سخط، فهو يرضى لها ويغضب لها[3].

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: " تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطى رضى وإن لم يعط سخط تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة وإن كان فى الساقة كان فى الساقة إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع"[4].

القرآن

{وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩)} [التوبة : ٥٩]

التفسير:

ولو أن هؤلاء الذين يعيبونك في قسمة الصدقات رضوا بما قسم الله ورسوله لهم، وقالوا: حسبنا الله، سيؤتينا الله من فضله، ويعطينا رسوله مما آتاه الله، إنا نرغب أن يوسع الله علينا، فيغنينا عن الصدقة وعن صدقات الناس. لو فعلوا ذلك لكان خيرًا لهم وأجدى.

قوله تعالى:{وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ} [التوبة : ٥٩]، أي:" ولو أن هؤلاء الذين يعيبونك في قسمة الصدقات رضوا بما قسم الله ورسوله لهم"[5].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : ولو أنّ هؤلاء الذين يلمزونك ، يا محمد ، في الصدقات ، رضَوا ما أعطاهم الله ورسوله من عطاء ، وقسم لهم من قسم"[6].

قوله تعالى:{وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ} [التوبة : ٥٩]، أي:" وقالوا: حسبنا الله، سيؤتينا الله من فضله، ويعطينا رسوله مما آتاه الله"[7].

---

[1] انظر: الحديث السابق.

[2] أخرجه البخارى (٥٣٦/٢، رقم ١٤٠٤) ، وأحمد (٢١/١، رقم ١٣٦) ، ومسلم (٧٢٣/٢، رقم ١٠٤٥) ..

[3] انظر: إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، الفوزان:١٠١/٢.

[4] أخرجه البخارى (١٠٥٧/٣، رقم ٢٧٣٠) ، وابن ماجه (١٣٨٥/٢، رقم ٤١٣٥) . وأخرجه أيضا: ابن حبان (١٢/٨، رقم ٣٢١٨) ، والبيهقى (١٥٩/٩، رقم ١٨٢٧٩).

[5] التفسير الميسر:١٩٦.

[6] تفسير الطبري:٣٠٤/١٤.

[7] التفسير الميسر:١٩٦.

قال الطبري:" يقول : وقالوا : كافينا الله، سيعطينا الله من فضل خزائنه ، ورسوله من الصدقة وغيرها "[١].

قوله تعالى:{إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} [التوبة : ٥٩]، أي:" إنا نرغب أن يوسع الله علينا، فيغنينا عن الصدقة وعن صدقات الناس. لو فعلوا ذلك لكان خيرًا لهم وأجدى"[٢].

قال الطبري:" يقول : وقالوا : إنا إلى الله نرغب في أن يوسع علينا من فضله ، فيغنينا عن الصدقة وغيرها من صلات الناس والحاجة إليهم "[٣].

قال ابن كثير:" فتضمنت هذه الآية الكريمة أدبا عظيما وسرا شريفا ، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده ، وهو قوله : { وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ } وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول وامتثال أوامره ، وترك زواجره ، وتصديق أخباره ، والاقتفاء بآثاره"[٤].

الفوائد:

١- مظاهر الرحمة الإلهية تتجلى في إرشاد المنافقين إلى أحسن ما يكونوا عليه ليكملوا ويسعدوا في الدارين.
٢- لا كافي إلا الله، ووجوب انحصار الرغبة فيه تعالى وحده دون سواه.
٣- أن التحسب فهو لله وحده، كما قالوا حسبنا الله ولم يقولوا حسبنا الله ورسوله، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال : ٦٤]، أي: يكفيك ويكفي من اتبعك من المؤمنين، وهذا هو المقطوع به في معنى هذه الآية، ولهذا كانت كلمة إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، جاء في الحديث:« أتى بإبراهيم يوم النار إلى النار، فلما أبصرها قال: حسبنا الله ونعم الوكيل»[٥].

القرآن

{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)} [التوبة : ٦٠]

التفسير:

إنما تعطى الزكوات الواجبة للمحتاجين الذين لا يملكون شيئًا، وللمساكين الذين لا يملكون ما يكفيهم ويسد حاجتهم، وللسعاة الذين يجمعونها، وللذين تؤلِّفون قلوبهم بها ممن يُرْجَى إسلامه أو قوة إيمانه أو نفعه للمسلمين، أو تدفعون بها شرَّ أحد عن المسلمين، وتعطى في عتق رقاب الأرقاء والمكاتبين، وتعطى للغارمين لإصلاح ذات البين، ولمن أثقلَتْهم الديون في غير فساد ولا تبذير فأعسروا، وللغزاة في سبيل الله، وللمسافر الذي انقطعت به النفقة، هذه القسمة فريضة فرضها الله وقدَّرها. والله عليم بمصالح عباده، حكيم في تدبيره وشرعه.

قوله تعالى:{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ} [التوبة : ٦٠]، أي:" إنما تعطى الزكوات الواجبة للمحتاجين الذين لا يملكون شيئًا"[٦].

قوله تعالى:{وَالْمَسَاكِينِ} [التوبة : ٦٠]، أي:" وللمساكين الذين لا يملكون ما يكفيهم ويسد حاجتهم"[٧].

---

[١] تفسير الطبري:٣٠٤/١٤.
[٢] التفسير الميسر:١٩٦.
[٣] تفسير الطبري:٣٠٤/١٤.
[٤] تفسير ابن كثير:١٦٤/٤.
[٥]أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١٩/١) . وأخرجه أيضا: أبو بكر الإسماعيلى فى معجم شيوخه (٦٩٤/٢) .
وللحديث أطراف أخرى منها: "حسبنَا الله ونعم الوكيل"، "كان آخر كلام".
ومن غريب الحديث: "يوم النار": المراد يوم أوقدوا له النار..
[٦] التفسير الميسر:١٩٦.
[٧] التفسير الميسر:١٩٦.

اختلف في قوله تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ} [التوبة : ٦٠]، على ستة اقوال:
أحدها : أن الفقير المحتاج المتعفف عن المسألة . والمسكين : المحتاج السائل ، قاله ابن عباس[١] والحسن[٢]، وجابر[٣]، ومجاهد[٤]،والزهري[٥]، وابن زيد[٦].
والثاني : أن الفقير هو ذو الزمانة من أهل الحاجة ، والمسكين : هو الصحيح الجسم منهم ، قاله قتادة[٧].
والثالث : أن الفقراء هم المهاجرون، والمساكين: غير المهاجرين، قاله الضحاك بن مزاحم[٨]، وإبراهيم[٩].
وروي عن سعيد بن جبير ، وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزي قالا :" كان ناس من المهاجرين لأحدهم الدار ، والزوجة ، والعبد ، والناقة يحج عليها ويغزو ، فنسبهم الله إلى أنهم فقراء ، وجعل لهم سهمًا في الزكاة"[١٠].
والرابع : أن الفقير من المسلمين ، والمسكين : من أهل الكتاب ، قاله عكرمة[١١].
والخامس : أن الفقير الذي لا شيء له لأن الحاجة قد كسرت فقاره ، والمسكين الذي له ما لا يكفيه لكن يسكن إليه ، قاله الشافعي[١٢].
وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " ليس الفقير بالذي لا مال له ، ولكن الفقير الأخلقُ الكسْب". قال ابن عليّة : «الأخلق»: المحارف عندنا"[١٣]. ومنه قول الشاعر :
لما رأى لُبَدُ النُّسور تطايرت رفع القوادم كالفقير الأعزل
والسادس : أن الفقير الذي له ما لا يكفيه ، والمسكين : الذي ليس له شيء يسكن إليه قاله أبو حنيفة[١٤].
قال الطبري:" وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب ، قول من قال : «الفقير»: هو ذو الفقر أو الحاجة ، ومع حاجته يتعفّف عن مسألة الناس والتذلل لهم ، في هذا الموضع، و «المسكين»: هو المحتاج المتذلل للناس بمسألتهم. وإنما قلنا إن ذلك كذلك ، وإن كان الفريقان لم يُعْطَيا إلا بالفقر والحاجة ، دون الذلة والمسألة ، لإجماع الجميع من أهل العلم أن " المسكين " ، إنما يعطى من الصدقة المفروضة بالفقر ، وأن معنى " المسكنة " ، عند العرب ، الذلة ، كما قال الله جل ثناؤه : {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ}، [سورة البقرة : ٦١] ، يعني بذلك : الهون والذلة ، لا الفقر. فإذا كان الله جل ثناؤه قد صنَّف من قسم له من الصدقة المفروضة قسمًا بالفقر ، فجعلهم صنفين ، كان معلومًا أن كل صنف منهم غير الآخر. وإذ كان ذلك كذلك ، كان لا شك أن المقسوم له باسم " الفقير " ، غير المقسوم له باسم الفقر و " المسكنة " ، والفقير المعطَى ذلك باسم الفقير المطلق ، هو الذي لا مسكنة فيه. والمعطى باسم المسكنة والفقر ، هو الجامع

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٦٨١٩):ص٣٠٥/١٤.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٦٨١٨):ص٣٠٥/١٤.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٢٠):ص٣٠٥/١٤.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٢٢):ص٣٠٦/١٤.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٢١):ص٣٠٦/١٤.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٢٣):ص٣٠٦/١٤.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٢٥):ص٣٠٦/١٤.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٢٧):ص٣٠٧/١٤.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٢٨):ص٣٠٧/١٤.
[١٠] أخرجه الطبري(١٦٨٣١):ص٣٠٧/١٤.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٣٥):ص٣٠٧/١٤.
[١٢] انظر: النكت والعيون:٣٧٤/٢.
[١٣] أخرجه الطبري(١٦٨٣٣):ص٣٠٨/١٤.
[١٤] انظر: النكت والعيون:٣٧٥/٢.

إلى فقره المسكنة ، وهي الذلّ بالطلب والمسألة. فتأويل الكلام ، إذ كان ذلك معناه : إنما الصدقات للفقراء : المتعفِّف منهم الذي لا يسأل ، والمتذلل منهم الذي يسأل"(١).

وروي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " ليس المسكين بالذي تردّه اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، إنما المسكين المتعفف! اقرءوا إن شئتم : {لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} [سورة البقرة : ٢٧٣]"(٢).

قال الطبري:" معنى قوله ﷺ :«إنما المسكين المتعفف» على نحو ما قد جرى به استعمال الناس من تسميتهم أهل الفقر «مساكين»، لا على تفصيل المسكين من الفقير، ومما ينبئ عن أن ذلك كذلك ، انتزاعه ﷺ بقول الله : «اقرءوا إن شئم» : {لا يسألون الناس إلحافًا}» ، وذلك في صفة من ابتدأ الله ذكره ووصفه بالفقر فقال : {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} [سورة البقرة : ٢٧٣]"(٣).

قوله تعالى:{وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا} [التوبة : ٦٠]، أي:" وللسعاة الذين يجمعونها"(٤).

عن معقل بن عبيد الله قال : "سألت الزهري : عن {العاملين عليها}، فقال : السعاة"(٥).

عن قتادة : "{والعاملين عليها}، قال : جُباتها الذين يجمعونها ويسعون فيها"(٦).

عن ابن زيد:" {والعاملين عليها}، الذي يعمل عليها"(٧).

قال الطبري:" وهم السعاة في قبضها من أهلها ، ووضعها في مستحقِّيها ، يعطون ذلك بالسعاية ، أغنياء كانوا أو فقراء"(٨). قال الشاعر (٩):

إن السُّعاة عصوك حين بعثتهم ... لم يفعلوا مما أمرت فتيلا

وقال الراعي(١٠):

إنَّ السُّعاةَ عَصَوْكَ يَوْمَ أَمْرَتَهُمْ ... وأَتَوْا دَواهِيَ، لو عَلِمْتَ، وغُولا

قال الماوردي:"وليس الإمام من العاملين عليها ولا والي الإقليم"(١١).

قال ابن كثير:" هم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطا على ذلك ، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة ، لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب

---

(١) تفسير الطبري:١٤/٣٠٨-٣٠٩.

(٢) أخرجه الطبري(١٦٨٣٦):ص١٤/٣٠٩.

(٣) تفسير الطبري:١٤/٣٠٩-٣١٠.

(٤) التفسير الميسر:١٩٦.

(٥) أخرجه الطبري(١٦٨٣٧):ص١٤/٣١٠.

(٦) أخرجه الطبري(١٦٨٣٨):ص١٤/٣١٠.

(٧) أخرجه الطبري(١٦٨٣٩):ص١٤/٣١٠-٣١١.

(٨) تفسير الطبري:١٤/٣١٠.

(٩) لم أعرف قائله، والبيت من شواهد الماوردي في النكت والعيون:٢/٣٧٥، وأبي حيان في البحر المحيط:٥/٤٤٣.

(١٠)جمهرة أشعار العرب: ١٧٥، وغيرها، من ملحمته المشهورة، قالها لعبد الملك بن مروان، وكان بعض عماله على الصدقات، قد أوقع ببني نمير قوم الراعي، لأن قيسًا كانت زبيرية الهوى، فقال:

أَخَلِيفَةَ الرَّحْمَنِ إنَّا مَعْشَرٌ ... حُنَفَاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وأَصِيلاً

عَرَبٌ، نَرَى للهِ في أمْوالِنا ... حَقَّ الزَّكاةِ مُنَزَّلاً تنزيلاً

إنَّ السُّعاةَ عَصَوْكَ يَوْمَ أَمْرَتَهُمْ ... وأَتَوْا دَواهِيَ، لو عَلِمْتَ، وغُولا

ثم يقول له: أَخَذُوا العَرِيفَ فَقَطَّعُوا حَيْزُومَهُ ... بِالأَصْبَحِيَّةِ قائمًا مَغْلُولاً

حَتَّى إذَا لَمْ يَتْرُكُوا.......... ... .

جَاءوا بِصَكِّهِمُ، وَأَحْدَبَ أَسْأَرَتْ ... مِنْهُ السِّياطُ يَرَاعَةً إجْفِيلا

وهي من جيد الشعر.

(١١) النكت والعيون:٢/٣٧٥.

بن ربيعة بن الحارث : أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة ، فقال : «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد ، إنما هي أوساخ الناس»[١]"[٢].

وفي قدر نصيبهم منها قولان :

أحدهما : الثمن ، لأنهم أحد الأصناف الثمانية ، قال مجاهد[٣]، والضحاك[٤].

والثاني : قدر أجور أمثالهم ، قاله عبد الله بن عمرو بن العاص[٥]، وابن زيد[٦].

عن عطاء بن زهير العامري ، عن أبيه : "أنه لقي عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله عن الصدقة : أيُّ مالٍ هي ؟ فقال : مالُ العُرْجان والعُوران والعميان ، وكل مُنْقَطَع به. فقال له : إن للعاملين حقًّا والمجاهدين! قال : إن المجاهدين قوم أحل لهم ، والعاملين عليها على قدر عُمالتهم. ثم قال : لا تحل الصدقة لغنيّ ، ولا لذي مِرَّة سويّ"[٧].

قال الطبري:" : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ، قولُ من قال : يعطى العامل عليها على قدر عُمالته وأجر مثله، وإنما قلنا : ذلك أولى بالصواب ، لأن الله جل ثناؤه لم يقسم صدقة الأموال بين الأصناف الثمانية على ثمانية أسهم ، وإنما عرّف خلقه أن الصدقات لن تجاوز هؤلاء الأصناف الثمانية إلى غيرهم ، وإذ كان كذلك ، بما سنوضح بعدُ ، وبما قد أوضحناه في موضع آخر ، كان معلومًا أن من أعطي منها حقًّا ، فإنما يعطى على قدر اجتهاد المعطى فيه. وإذا كان ذلك كذلك ، وكان العامل عليها إنما يعطى على عمله ، لا على الحاجة التي تزول بالعطية ، كان معلومًا أن الذي أعطاه من ذلك إنما هو عِوَض من سعيه وعمله ، وأن ذلك إنما هو قدر يستحقه عوضًا من عمله الذي لا يزول بالعطية ، وإنما يزول بالعزل"[٨].

قوله تعالى:{وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ} [التوبة : ٦٠]، أي:" وللذين تؤلِّفون قلوبهم بها ممن يُرْجَى إسلامه أو قوة إيمانه أو نفعه للمسلمين، أو تدفعون بها شرَّ أحد عن المسلمين"[٩].

قال الطبري:" فإنهم قوم كانوا يُتَألَّفون على الإسلام ، ممن لم تصحّ نصرته ، استصلاحًا به نفسَه وعشيرتَه ، كأبي سفيان بن حرب ، وعيينة بن بدر، والأقرع بن حابس ، ونظرائهم من رؤساء القبائل"[١٠].

عن الحسن : "{والمؤلفة قلوبهم}، الذين يُؤَلَّفون على الإسلام"[١١].

عن قتادة : "وأما {المؤلفة قلوبهم }، فأناس من الأعراب ومن غيرهم ، كان نبي الله ﷺ يتألفهم بالعطية كيما يؤمنوا"[١٢].

معقل بن عبيد الله قال : "سألت الزهري عن قوله : {والمؤلفة قلوبهم}، فقال : من أسلم من يهوديّ أو نصراني. قلت : وإن كان غنيًّا ؟ قال : وإن كان غنيًّا"[١٣].

عن ابن عباس قوله : "{والمؤلفة قلوبهم}، وهم قوم كانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسلموا ، وكان رسول الله ﷺ يرضَخ لهم من الصدقات ، فإذا أعطاهم من الصدقات فأصابوا منها خيرًا قالوا : هذا دين صالح ! وإن كان غير ذلك ، عابوه وتركوه"[١٤].

---

[١]صحيح مسلم برقم (١٠٧٢).
[٢] تفسير ابن كثير:١٦٧/٤.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٤١):ص٣١١/١٤.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٤٠):ص٣١١/١٤.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٤٢):ص٣١١/١٤.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٤٣):ص٣١٢/١٤.
[٧] أخرجه الطبري(١٦٨٤٢):ص٣١١/١٤.
[٨] تفسير الطبري:٣١٢/١٤.
[٩] التفسير الميسر:١٩٦.
[١٠] تفسير الطبري:٣١٢/١٤-٣١٣.
[١١] أخرجه الطبري(١٦٨٤٩):ص٣١٤/١٤.
[١٢] أخرجه الطبري(١٦٨٥٠):ص٣١٤/١٤.
[١٣] أخرجه الطبري(١٦٨٥١):ص٣١٤/١٤.
[١٤] أخرجه الطبري(١٦٨٤٥):ص٢١٣/١٤.

عن يحيى بن أبي كثير : أن المؤلفة قلوبهم من بني أمية : أبو سفيان بن حرب ومن بني مخزوم : الحارث بن هشام ، وعبد الرحمن بن يربوع ومن بني جُمَح : صفوان بن أمية ومن بني عامر بن لؤي : سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ومن بني أسد بن عبد العزى : حكيم بن حزام ومن بني هاشم : سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ومن بني فزارة : عيينة بن حصن بن بدر ومن بني تميم : الأقرع بن حابس ومن بني نصر : مالك بن عوف ومن بني سليم : العباس بن مرداس ومن ثقيف : العلاء بن حارثة أعطى النبي ﷺ كل رجل منهم مئة ناقة ، إلا عبد الرحمن بن يربوع ، وحويطب بن عبد العزى ، فإنه أعطى كلَّ رجل منهم خمسين"[١].

عن الزهري قال: "قال صفوان بن أمية : لقد أعطاني رسول الله ﷺ ، وإنه لأبغض الناس إليّ ، فما بَرِح يعطيني حتى إنه لأحبُّ الناس إليّ"[٢].

عن مجاهد قال : "ناس كان يتألفهم بالعطية ، عيينة بن بدر ومن كان معه"[٣].

قال الماوردي:" وهم قوم كان رسول الله -ﷺ- يتألفهم بالعطية ، وهم صنفان : مسلمون ومشركون .

فأما المسلمون فصنفان :

- صنف كانت نياتهم في الإسلام ضعيفة فتألفهم تقوية لنياتهم ، كعقبة بن زيد وأبي سفيان بن حرب والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس .
- وصنف آخر منهم كانت نياتهم في الإسلام حسنة فأعطوا تألفاً لعشائرهم من المشركين مثل عدي بن حاتم . ويعطي كِلا الصنفين من سهم المؤلفة قلوبهم .

وأما المشركون فصنفان :

- صنف يقصدون المسلمين بالأذى فيتألفهم دفعاً لأذاهم مثل عامر بن الطفيل.
- وصنف كان لهم ميل إلى الإسلام تألفهم بالعطية ليؤمنوا مثل صفوان بن أمية"[٤].

وفي تألفهم بعد رسول الله -ﷺ- بالسهم المسمى لهم من الصدقات قولان[٥]:

أحدهما : يعطونه ويتألفون به، قاله أبو جعفر[٦]، وهو محكي عن الشافعي[٧].

والثاني : يمنعون منه ولا يعطونه لإعزاز الله دينه عن تألفهم ، قاله الحسن[٨]، وعامر[٩]، وهو وهو محكي عن الشافعي أيضا[١٠].

وروي عن حبان بن أبي جبلة قال : "قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : وأتاه عيينة بن حصن : {الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ} [سورة الكهف : ٢٩] ، أي : ليس اليوم مؤلفة"[١١].

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندي : أن الله جعل الصدقة في معنيين أحدهما : سدُّ خَلَّة المسلمين ، والآخر : معونة الإسلام وتقويته. فما كان في معونة الإسلام وتقوية أسبابه ، فإنه يُعطاه الغني والفقير ، لأنه لا يعطاه من يعطاه بالحاجة منه إليه ، وإنما يعطاه معونةً للدين. وذلك كما يعطى الذي يُعطاه بالجهاد في سبيل الله ، فإنه يعطى ذلك غنيًّا كان أو فقيرًا ، للغزو ، لا لسدّ خلته. وكذلك المؤلفة قلوبهم ، يعطون ذلك وإن كانوا أغنياء ، استصلاحًا بإعطائهموه أمرَ الإسلام وطلبَ تقويته وتأييده. وقد أعطى النبي ﷺ من أعطى من المؤلفة قلوبهم ، بعد أن

---

[١] أخرجه الطبري(١٦٨٤٦):ص١٤/٣١٣.
[٢] أخرجه الطبري(١٦٨٤٧):ص١٤/٣١٣-٣١٤.
[٣] أخرجه الطبري(١٦٨٤٨):ص١٤/٣١٤.
[٤] النكت والعيون:٢/٣٧٥-٣٧٦.
[٥] انظر: النكت والعيون:٢/٣٧٦.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٥٨)، (١٦٨٥٩):ص١٤/٣١٥-٣١٦.
[٧] انظر: النكت والعيون:٢/٣٧٦.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٥٣):ص١٤/٣١٥.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٥٤):ص١٤/٣١٥.
[١٠] انظر: النكت والعيون:٢/٣٧٦.
[١١] أخرجه الطبري(١٦٨٥٥):ص١٤/٣١٥.

فتح الله عليه الفتوح ، وفشا الإسلام وعز أهله. فلا حجة لمحتجّ بأن يقول : " لا يتألف اليوم على الإسلام أحد ، لامتناع أهله بكثرة العدد ممن أرادهم " ، وقد أعطى النبي ﷺ من أعطى منهم في الحال التي وصفت"[١].

قوله تعالى:{وَفِي الرِّقَابِ} [التوبة : ٦٠]، أي:" وتعطى في عتق رقاب الأرقاء والمكاتبين"[٢].

قال سعيد بن جبير:" يعني: فكاك الرقاب"[٣].

وفي قوله تعالى:{وَفِي الرِّقَابِ} [التوبة : ٦٠]، قولان:

أحدهما : أنهم المكاتبون ، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأبو موسى الأشعري[٤]، والحسن[٥]، والزهري[٦]، وابن زيد[٧]، ومقاتل بن حيان[٨]، والشافعي[٩].

والثاني : أنهم عبيد يُشترون بهذا السهم. قاله ابن عباس[١٠]، ومالك[١١].

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندي ، قولُ من قال : " عنى بالرقاب ، في هذا الموضع ، المكاتبون " ، لإجماع الحجة على ذلك ، فإن الله جعل الزكاة حقًّا واجبًا على من أوجبها عليه في ماله ، يخرجها منه ، لا يرجع إليه منها نفعٌ من عرض الدنيا ، ولا عِوَض. والمعتق رقبةً منها ، راجع إليه ولاء من أعتقه ، وذلك نفع يعود إليه منها"[١٢].

عن ابن شهاب، "أن عمر بن عبد العزيز أمره فكتب السنة في مواضع الصدقة فكتب: وسهم الرقاب نصفان نصف لكل مكاتب يدعي الإسلام وهم على أصناف شتى في الإسلام فضيلة ولمن سواهم منزلة أخرى، على قدر ما أدى كل رجل منهم وما بقي عليه إن شاء الله"[١٣].

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : "ثلاثة حق على الله عونُهم : الغازي في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف"[١٤].

عن البراء بن عازب قال : "جاء رجل فقال : يا رسول الله ، دُلَّني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار. فقال : "أعتق النسَمة وفك الرقبة". فقال : يا رسول الله ، أو ليسا واحدا ؟ قال : "لا عتق النسمة أن تُفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها"[١٥].

قوله تعالى:{وَالْغَارِمِينَ} [التوبة : ٦٠]، أي:" وتعطى للغارمين لإصلاح ذات البين، ولمن أثقلَتْهم الديون في غير فساد ولا تبذير فأعسروا"[١٦].

قال الطبري:" الذين استدانوا في غير معصية الله ، ثم لم يجدوا قضاء في عين ولا عَرَض"[١].

---

[١] تفسير الطبري:٣١٦/١٤.

[٢] التفسير الميسر:١٩٦.

[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٥٥٨):ص٢٩٠/١.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٦٠):ص٣١٧/١٤-٣١٨.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٦٣):ص٣١٧/١٤.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٦١):ص٣١٧/١٤.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٦٢):ص٣١٧/١٤.

[٨] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٣٨٤):ص١٨٢٣/٦.

[٩] انظر: النكت والعيون:٣٧٦/٢.

[١٠] انظر: تفسير الطبري:٣١٧/١٤، حكاه دون ذكر الإسناد.

[١١] انظر: النكت والعيون:٣٧٦/٢.

[١٢] تفسير الطبري:٣١٧/١٤.

[١٣] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٨٥):ص١٨٢٤/٦.

[١٤] المسند (٢٥١/٢) وسنن الترمذي برقم (١٦٥٥) وسنن النسائي (٦١/٦) وسنن ابن ماجه برقم (٢٥١٨) وقال وقال الترمذي : "هذا حديث حسن".

[١٥] المسند (٢٩٩/٤).

[١٦] التفسير الميسر:١٩٦.

قال الماوردي:" وهم الذين عليهم الدين يلزمهم غرمه ، فإن ادّانوا في مصالح أنفسهم لم يعطوا إلا مع الفقر ، وإن ادّانوا في المصالح العامة أعطوا مع الغنى والفقر"[2].

عن مجاهد في قوله: "{والغارمين}، قال: من أحرق بيته وذهب السيل بماله، وأدان على عياله"[3].

وقال مجاهد ايضا:"هم قوم ركبتهم الديون في غير فساد ولا تبذير ، فجعل الله لهم في هذه الآية سهمًا"[4].

عن أبي جعفر:"{والغارمين}، قال: المستدينين في غير فساد"[5].

قال ابن زيد : " «الغارم»، الذي يدخل عليه الغُرْم"[6].

عن مقاتل بن حيان: "وأما «الغارمون»: فهو الذي يسأل في دم أو جائحة تصيبه"[7].

وروي عن محمد بن شعيب بن شابور عن مقاتل، قال: هم الذين عليهم الدين"[8].

عن القاسم بن مخيمرة، "أنه قدم على عمر بن عبد العزيز فسأله قضاء دينه، فقال: وكم دينك؟ قال: تسعون دينارا، قال: قد قضيناه عنك أنت من الغارمين"[9].

عن الأوزاعي: "أن عمر بن عبد العزيز فرض للقاسم بن مخيمرة في ستين وقضى عنه تسعين دينارا، وقال له: أنت من الغارمين، وأمر له بخادم ومسكن"[10].

واختلف فيمن ادّان في معصية على ثلاثة أقوال[11]:

أحدها: لا يعطى لئلا يعان على معصية .

والثاني : يعطى لأن الغرم قد وجب ، والمعصية قد انقضت .

والثالث : يعطى التائب منها ولا يعطى إن أصر عليها .

قوله تعالى:{وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة : ٦٠]، أي:" وللغزاة في سبيل الله"[12].

قال الطبري:" يعني : وفي النفقة في نصرة دين الله وطريقه وشريعته التي شرعها لعباده ، بقتال أعدائه ، وذلك هو غزو الكفار "[13].

قال الماوردي:" هم الغزاة المجاهدون في سبيل الله يعطون سهمهم من الزكاة مع الغنى والفقر "[14].

عن ابن زيد:" {وفي سبيل الله}، قال: الغازي في سبيل الله"[15].

عن قتادة :"{وفي سبيل الله}، قال: يحمل من الصدقة من ليس له حملان، وقال قتادة ويحمل الرجل في سبيل الله من الصدقة ويعطي إذا صار لا شيء له ثم يكون سهم له بعد مع المسلمين"[16].

---

(1) تفسير الطبري:٣١٧/١٤.
(2) النكت والعيون:٣٧٦/٢.
(3) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٨٦):ص١٨٢٤/٦.
(4) أخرجه الطبري(١٦٨٧٥):ص٣١٩/١٤.
(5) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٨٧):ص١٨٢٤/٦.
(6) أخرجه الطبري(١٦٨٧١):ص٣١٨/١٤.
(7) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٨٨):ص١٨٢٤/٦.
(8) أخرجه ابن أبي حاتم: ص١٨٢٤/٦. [الخبر لم يرقم]
(9) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٨٩):ص١٨٢٤/٦.
(10) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٩٠):ص١٨٢٤/٦.
(11) انظر: النكت والعيون:٣٧٦/٢.
(12) التفسير الميسر:١٩٦.
(13) تفسير الطبري:٣١٩/١٤.
(14) النكت والعيون:٣٧٦/٢.
(15) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٩٣):ص١٨٢٥/٦.
(16) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٩٢):ص١٨٢٥/٦.

عن أبي معقل، "أنه جاء إلى رسول الله- ﷺ- فقال: إن أم معقل جعلت عليها حجة معك وعندي جمل جعلته حبيسا في سبيل الله فأعطيها إياه فتركبه؟ قال: نعم"[١].

عن عطاء بن يسار قال : قال النبي ﷺ : " لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة : رجل عمل عليها ، أو رجل اشتراها بماله ، أو في سبيل الله ، أو ابن السبيل ، أو رجل كان له جار تصدَّق عليه فأهداها له"[٢].

وروي عن مقاتل بن حيان أنه قال: هم المجاهدون"[٣].

قوله تعالى:{وَابْنِ السَّبِيلِ} [التوبة : ٦٠]، أي:" وللمسافر الذي انقطعت به النفقة"[٤].

قال الطبري:" المسافر الذي يجتاز من بلد إلى بلد، و«السبيل»: الطريق، وقيل للضارب فيه : «ابن السبيل» ، للزومه إياه ، كما قال الشاعر[٥]:

أَنَا ابنُ الحَرْبِ رَبَّتْنِي وَلِيدًا   إِلَى أَنْ شِبْتُ واكْتَهَلَتْ لِدَاتِي

وكذلك تفعل العرب ، تسمي اللازم للشيء يعرف به: «ابنه»"[٦].

وروي عن الحسن: نحوه[٧].

وفي {وَابْنِ السَّبِيلِ} [التوبة : ٦٠]، قولان:

أحدهما : هو المسافر لا يجد نفقة سفره ، يعطى منها وإن كان غنياً في بلده ، حكاه الماوردي عن الجمهور[٨].

قال مجاهد: "لابن السبيل حق من الزكاة وإن كان غنيًّا ، إذا كان مُنْقَطَعًا به"[٩].

عن مقاتل بن حيان في قوله: "{وابن السبيل}: المنقطع به يعطي قدر ما يبلغه"[١٠].

عن الضحاك ، "أنه قال : في الغني إذا سافر فاحتاج في سفره. قال : يأخذ من الزكاة"[١١].

عن أبي جعفر في قوله: "{وابن السبيل}، قال: المجتاز من الأرض إلى الأرض"[١٢].

معقل بن عبيد الله قال : "سألت الزهري عن «ابن السبيل»، قال : يأتي عليَّ ابن السبيل ، وهو محتاج. قلت : فإن كان غنيًّا ؟ قال : وإن كان غنيًّا"[١٣].

والثاني : أنه الضيف، قاله قتادة[١٤]، وحكاه ابن الأنباري[١٥].

عن قتادة : "{وابن السبيل}، الضيف ، جعل له فيها حق"[١٦].

قوله تعالى:{فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ} [التوبة : ٦٠]، أي:" هذه القسمة فريضة فرضها الله وقدَّرها"[١٧].

قال ابن كثير:" أي: حكما مقدرا بتقدير الله وفَرْضِه وقَسْمه"[١٨].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٩٤):ص١٨٢٥/٦.
[٢] أخرجه الطبري(١٦٨٧٧):ص٣١٩/١٤.
[٣] تفسير ابن ابي حاتم:ص١٨٢٥/٦. ذكره دون إسناد
[٤] التفسير الميسر:١٩٦.
[٥]لم أعرف قائله، والبيت من شواهد الطبري في تفسيره:٣٢٠/١٤.
[٦] تفسير الطبري:٣٢٠/١٤.
[٧]انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٨٢٥/٦. حكاه دون ذكر السند
[٨] انظر: النكت والعيون:٣٧٦/٢.
[٩] أخرجه الطبري(١٦٨٨٠):ص٣٢٠/١٤-٣٢١.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٩٧):ص١٨٢٥/٦.
[١١] أخرجه الطبري(١٦٨٨٤):ص٣٢١/١٤.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٩٦):ص١٨٢٥/٦.
[١٣] أخرجه الطبري(١٦٨٨١):ص٣٢١/١٤.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٨٢):ص٣٢١/١٤.
[١٥] انظر: النكت والعيون:٣٧٦/٢.
[١٦] أخرجه الطبري(١٦٨٨٢):ص٣٢١/١٤.
[١٧] التفسير الميسر:١٩٦.
[١٨] تفسير ابن كثير:١٦٩/٤.

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه : قَسْمٌ قسمه الله لهم ، فأوجبه في أموال أهل الأموال لهم"[١].

عن قتادة، قوله: "{فريضة من الله والله عليم حكيم}: ثمانية أسهم فرضهن الله وأعلمهن"[٢].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة : ٦٠]، أي:" والله عليم بمصالح عباده، حكيم في تدبيره وشرعه"[٣].

قال الطبري:" {والله عليم}، بمصالح خلقه فيما فرض لهم ، وفي غير ذلك ، لا يخفى عليه شيء. فعلى علم منه فرض ما فرض من الصدقة وبما فيها من المصلحة، {حكيم} في تدبيره خلقه ، لا يدخل في تدبيره خلل "[٤].

قال ابن كثير:" أي : عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده ، { حَكِيمٌ } فيما يفعله ويقوله ويشرعه ويحكم به ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه"[٥].

واختلف أهل العلم في كيفية قسم الصدقات التي ذكرها الله في هذه الآية ، وهل يجب لكل صنف من الأصناف الثمانية فيها حق ، أو ذلك إلى رب المال ؟ ومن يتولى قسمها ، في أن له أن يعطي جميعَ ذلك من شاء من الأصناف الثمانية، وفي ذلك قولان:

أحدهما: أنه للمتولي قسمُها ووضعُها في أيِّ الأصناف الثمانية شاء. وإنما سمَّى الله الأصناف الثمانية في الآية ، إعلامًا منه خلقَه أن الصدقة لا تخرج من هذه الأصناف الثمانية إلى غيرها ، لا إيجابًا لقسمها بين الأصناف الثمانية الذين ذكرهم. وهذا قول حذيفة[٦]، وعمر[٧]، وابن عباس[٨]، وسعيد بن جبير[٩]، عطاء[١٠]،وأبي العالية[١١]، وإبراهيم[١٢]، وميمون بن مهران[١٣]، مهران[١٣]، وهذا القول حكاه الطبري عن عامة أهل العلم[١٤].

والثاني: : أنه إذا تولى رب المال قَسْمها كان عليه وضعها في ستة أصناف ، وذلك أن المؤلفة قلوبهم عنده قد ذهبوا ، وأنّ سهم العاملين يبطل بقسمه إياها، وأنه لا يجزيه أن يعطي من كل صنف أقل من ثلاثة أنفس، وإن تولى قَسْمها الإمامُ، كان عليه أن يقسمها على سبعة أصناف ، لا يجزي عنده غير ذلك. وهذا القول حكاه الطبري عن بعض المتأخرين[١٥].

قال ابن كثير:" لما ذكر الله تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولمزهم إياه في قَسْم الصدقات ، بين تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها ، وتولى أمرها بنفسه ، ولم يَكلْ قَسْمها إلى أحد غيره ، فجزّأها لهؤلاء المذكورين ، كما رواه الإمام أبو داود في سننه من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم - وفيه ضعف - عن زياد بن نعيم ، عن زياد بن الحارث الصُدَائي ، رضي الله عنه ، قال : أتيت النبي ﷺ فبايعته ، فأتى رجل فقال : أعطني من الصدقة فقال له :

---

[١] تفسير الطبري:١٤/٣٢١.
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٩٨):ص٦/١٨٢٥.
[٣] التفسير الميسر:١٩٦.
[٤] تفسير الطبري:١٤/٣٢١.
[٥] تفسير ابن كثير:٤/١٦٩-١٧٠.
[٦]انظر: تفسير الطبري(١٦٨٨٦):ص١٤/٣٢٢.
[٧]انظر: تفسير الطبري(١٦٨٨٨):ص١٤/٣٢٢.
[٨]انظر: تفسير الطبري(١٦٨٩١):ص١٤/٣٢٣.
[٩]انظر: تفسير الطبري(١٦٨٩٠):ص١٤/٣٢٢.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٦٨٨٩):ص١٤/٣٢٢.
[١١]انظر: تفسير الطبري(١٦٨٩٥):ص١٤/٣٢٣.
[١٢]انظر: تفسير الطبري(١٦٨٩٢):ص١٤/٣٢٣.
[١٣]انظر: تفسير الطبري(١٦٨٩٨):ص١٤/٣٢٣.
[١٤] انظر: تفسير الطبري:١٤/٣٢٢.
[١٥] انظر: تفسير الطبري:١٤/٣٢٣-٣٢٤.

«إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو ، فجزأها ثمانية أصناف ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك»[1]"[2].
الفوائد:
١- تقرير فرضية الزكاة، وأحكام الزكاة من جهة النصاب، ومن جهة المستحقين لم تكن عرفت في مكة، بل فريضة الزكاة لم تكن شرعت في مكة إنما الذي شرع الصدقات العامة، وفرض الزكاة وبدايتها إنما كان في المدينة، فبيان المستحقين للزكاة إنما نزل في المدينة في سورة التوبة: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ} إلى آخر الآية التي فيها الأصناف الثمانية، ثم النصاب نصاب الزكاة ليس محددا في القرآن، وشرطها وهو حول الحول ليس محددا في القرآن ولا مبينا فيه[3].
٢- بيان مصارف الزكاة.
٣- وجوب التسليم لله تعالى في قسمته بعدم محاولة الخروج عنها.
٤- أنه لا يجوز إعطاء الزكاة لغير مسلم؛ إلا إذا كان من المؤلفة قلوبهم قال الله تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٦٠].
روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: "أن رسول الله ﷺ بعث معاذا إلى اليمن فقال: إنك تأتي قوما أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب" [4].
٥- إثبات اسمين من اسمائه تعالى، وهما:«العليم»، و«الحكيم»:
- فـ«الحكيم»: "هو المحكم لخلق الأشياء.قال تعالى:{آلر، تلك آيات الكتاب الحكيم} [يونس:١] وقال في موضع آخر: {كتاب أحكمت آياته} [هود: ١]، فدل على أن المراد بـ«الحكيم» هنا، الذي أحكمت آياته، صرف عن مفعل إلى فعيل، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها [5].
- ومن أسمائه «العليم»، والْعِلْمُ صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجلَّ، ،فهو سبحانه «العليم»المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[6].
قال الخطابي:"«العليم»: هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق. كقوله تعالى: {إنه عليم بذات الصدور} [لقمان:٢٣]. وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم، ولذلك قال -سبحانه-: {وفوق كل ذي علم عليم} [يوسف:٧٦]. والآدميون -وإن كانوا يوصفون بالعلم- فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات، دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فيخلف علمهم الجهل، ويعقب ذكرهم النسيان، وقد نجد الواحد منهم عالما بالفقه غير عالم بالنحو وعالما بهما غير عالم بالحساب وبالطب ونحوهما من الأمور، وعلم

---

[1] سنن أبي داود برقم (١٦٣٠).
[2] تفسير ابن كثير:١٦٥/٤.
[3] انظر: فتاوى ورسائل سماحة الشيخ عبد الرزاق عفيفي - قسم العقيدة:٢٧٦.
[4] متفق عليه، أخرجه البخاري في الصحيح ٣/ ٣٥٧ كتاب الزكاة (٢٤)، باب أخذ الصدقة من الأغنياء. . . (٦٣)، الحديث (١٤٩٦)، وأخرجه مسلم في الصحيح ١/ ٥٠ كتاب الإيمان (١)، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (٧)، الحديث (٢٩/ ١٩).
[5] انظر: شأن الدعاء، للخطابي:٧٣-٧٤.
[6] انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.

الله -سبحانه- علم حقيقة، وكمال {قد أحاط بكل شيء علما} [الطلاق:١٢]، {وأحصى كل شيء عددا} [الجن: ٢٨]"[١].

٤- ويستفاد من اقتران الصفتين «العلم» و«الحكمة»، أنه متى كان الله تعالى عليما بخلقه وحاجاتهم حكيما في تصرفه وشرعه وجب التسليم لأمره والخضوع له بالطاعة والانقياد.

القرآن

{وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)} [التوبة : ٦١]

التفسير:

ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام، ويقولون: إنه يستمع لكل ما يقال له فيصدقه، قل لهم -أيها النبي-: إن محمدًا هو أذن تستمع لكل خير، يؤمن بالله ويصدق المؤمنين فيما يخبرونه، وهو رحمة لمن اتبعه واهتدى بهداه. والذين يؤذون رسول الله محمدًا صلى الله عليه وسلم بأي نوع من أنواع الإيذاء، لهم عذاب مؤلم موجع.

سبب النزول:

عن ابن إسحاق قال:" ذكر الله غشَّهم، يعني : المنافقين وأذاهم للنبي ﷺ فقال : {ومنهم الذين يؤذون النبيّ ويقولون هو أذن}، الآية. وكان الذي يقول تلك المقالة ، فيما بلغني ، نبتل بن الحارث ، أخو بني عمرو بن عوف ، وفيه نزلت هذه الآية ، وذلك أنه قال : «إنما محمد أذُنٌ! من حدّثه شيئًا صدّقه!» ، يقول الله : {قل أذن خير لكم}، أي : يسمع الخير ويصدِّق به"[٢].

وقال الكلبي : "نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين كانوا يعيبون النبي -ﷺ- ويقولون فيه ما لا يجوز ، فنزلت هذه الآية فيهم "[٣].

قوله تعالى:{وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ} [التوبة : ٦١]، أي:" ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام"[٤].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : ومن هؤلاء المنافقين جماعة يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعيبونه"[٥].

قال ابن كثير:" تعالى : ومن المنافقين قوم يُؤذون رسولَ الله ﷺ بالكلام فيه"[٦].

قوله تعالى:{وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ} [التوبة : ٦١]، أي:" ويقولون: إنه يستمع لكل ما يقال له فيصدقه"[٧].

قال ابن عباس:" يسمع من كل أحد"[٨].

قال قتادة:" كانوا يقولون : " إنما محمد أذن ، لا يحدَّث عنا شيئًا ، إلا هو أذن يسمع ما يقال له"[٩].

عن مجاهد : "{ويقولون هو أذن}، نقول ما شئنا ، ونحلف ، فيصدقنا"[١٠].

---

[١] شأن الدعاء:٥٧.
[٢] أخرجه الطبري(١٦٨٩٩):ص١٤/٣٢٥.
[٣] النكت والعيون:٢/٣٧٧.
[٤] التفسير الميسر:١٩٦.
[٥] تفسير الطبري:١٤/٣٢٤.
[٦] تفسير ابن كثير:٤/١٧٠.
[٧] التفسير الميسر:١٩٦.
[٨] أخرجه الطبري(١٦٩٠٠):ص١٤/٣٢٦.
[٩] أخرجه الطبري(١٦٩٠١):ص١٤/٣٢٦.
[١٠] أخرجه الطبري(١٦٩٠٢):ص١٤/٣٢٦.

قال الطبري:أي:"سامعةٌ ، يسمع من كل أحدٍ ما يقول فيقبله ويصدّقِه"[١].
قال ابن كثير:"أي : من قال له شيئا صدقه ، ومن حدثه فينا صدقه ، فإذا جئنا وحلفنا له صدقنا"[٢].
قال البيضاوي:أي:" يسمع كل ما يقال له ويصدقه، سمي بالجارحة للمبالغة، كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة السماع كما سمي الجاسوس عينا لذلك، أو اشتق له فعل من :أذن أذنا، إذا استمع كأنف وشلل"[٣].
وقوله«أذن»، هو من قولهم : "رجل أذنة "، مثل " فعلة " إذا كان يسرع الاستماع والقبول ، كما يقال : " هو يَقَن ، ويَقِن " إذا كان ذا يقين بكل ما حُدِّث. وأصله من " أَذِن له يأذَن " ، إذا استمع له. ومنه الخبر عن النبي ﷺ : " ما أَذِن الله لشيء كأَذَنِه لنبيّ يتغنى بالقرآن "، ومنه قول عدي بن زيد[٤]:
أَيُّها القَلْبُ تَعَلَّلْ بِدَدَنْ   إنَّ هَمِّي فِي سَمَاعٍ وَأَذَنْ[٥]
قوله تعالى:{قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ} [التوبة : ٦١]، أيَ:" قل لهم -أيها النبي-: إن محمدًا هو أذن تستمع لكل خير"[٦].
قال ابن كثير:" أي : هو أذن خير ، يعرف الصادق من الكاذب "[٧].
قال البيضاوي:" تصديق لهم بأنه «أذن»، ولكن لا على الوجه الذي ذموا به بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله"[٨].
قَرَأَ نَافِع وَحده {هُوَ أذن قل أذن خير لكم} بِإِسْكَان الذَّال فيهمَا، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ {هُوَ أذن قل أذن خير لكم} بتثقيل الْأذن وَكلهمْ يضيف {آذن} إِلَى {خير}[٩].
قوله تعالى:{يُؤْمِنُ بِاللَّهِ} [التوبة : ٦١]، أي:" يصدِّق بالله وحده لا شريك له"[١٠].
قال ابن عباس:" يعني : يؤمن بالله"[١١].
قال البيضاوي:أي:" يصدق به لما قام عنده من الأدلة"[١٢].
قوله تعالى:{وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ} [التوبة : ٦١]، أي:"ويصدق المؤمنين فيما يخبرونه"[١٣].
قال ابن عباس:"ويصدق المؤمنين"[١٤].
قال البيضاوي:أي:" ويصدقهم لما علم من خلوصهم، و«اللام» مزيدة للتفرقة بين إيمان التصديق فإنه بمعنى التسليم وإيمان الأمان"[١٥].
قال الطبري:"ويصدق المؤمنين، لا الكافرين ولا المنافقين، وقيل : {ويؤمن للمؤمنين}، معناه: ويؤمن المؤمنين، لأن العرب تقول فيما ذكر لنا عنها : «آمنتُ له وآمنتُه»، بمعنى : صدّقته ، كما قيل : {رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ} [سورة النمل : ٧٢]، ومعناه: ردفكم وكما

---

(١) تفسير الطبري:٣٢٤/١٤.
(٢) تفسير ابن كثير:١٧٠/٤.
(٣) تفسير البيضاوي:٨٦/٣.
(٤) أمالي الشريف المرتضى ١ : ٣٣ ، واللسان (أذن) و (ددن) ، و " الدد " (بفتح الدال) و " الددن " ، اللهو. و " السماع " ، الغناء ، والمغنية يقال لها " المسمعة ".
(٥) انظر: تفسير الطبري:٣٢٤/١٤-٣٢٥.
(٦) التفسير الميسر:١٩٦.
(٧) تفسير ابن كثير:١٧٠/٤.
(٨) تفسير البيضاوي:٨٦/٣.
(٩) انظر: السبعة في القراءات:٣١٥.
(١٠) تفسير الطبري:٣٢٧/١٤.
(١١) أخرجه الطبري(١٦٩٠٥):ص٣٢٧/١٤.
(١٢) تفسير البيضاوي:٨٦/٣.
(١٣) التفسير الميسر:١٩٦.
(١٤) أخرجه الطبري(١٦٩٠٥):ص٣٢٧/١٤.
(١٥) تفسير البيضاوي:٨٦/٣.

قال: {لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} [سورة الأعراف : ١٥٤] ، ومعناه : للذين هم ربّهم يرهبون"[١]. يرهبون"[١].

قوله تعالى:{وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ} [التوبة : ٦١]، أي:" وهو رحمة لمن اتبعه واهتدى بهداه"[٢].

قال ابن كثير:" أي : وهو حجة على الكافرين"[٣].

قال البيضاوي:" أي: وهو رحمة. للذين آمنوا منكم لمن أظهر الإيمان حيث يقبله ولا يكشف سره، وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلا بحالكم بل رفقا بكم وترحما عليكم"[٤].

وقوله تعالى: {وَرَحْمَةٍ}، وقرأ حمزة ورحمة بالجر عطفا على خير. وقرئ بالنصب على أنها علة فعل دل عليه {أذن خير}، أي يأذن لكم رحمة. وقرأ نافع أذن بالتخفيف فيهما [٥].

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التوبة : ٦١]، أي:" والذين يؤذون رسول الله محمدًا ﷺ بأي نوع من أنواع الإيذاء، لهم عذاب مؤلم موجع"[٦].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : لهؤلاء المنافقين الذين يعيبون رسول الله ﷺ ، ويقولون : «هو أذن»، وأمثالِهم من مكذِّبيه ، والقائلين فيه الهُجْرَ والباطل، عذابٌ من الله موجع لهم في نار جهنم"[٧].

الفوائد:

١- حرمة أذية رسول الله بأي وجه من الوجوه.

٢- أن من آذى الرسول صلّى الله عليه وسلّم فقد آذى الله، وهو محاد لله عزّ وجل ومن شاق الرسول فقد شاق الله، ومن عصى الرسول فقد عصى الله، قال الله عزّ وجل: {يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ٦٢ - ٦٣] ، فأذى النبي صلّى الله عليه وسلّم محادة لله؛ لأنه ذكر هذه الآية بعد قوله عزّ وجل: {وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ} [التوبة: ٦١] ، وبين الله عزّ وجل أن من حاد الله ورسوله فهو أذل في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ} [المجادلة: ٢٠] ، والأذل أبلغ من الذليل.

وبين عزّ وجل أن المحادين لله ورسوله كبتوا كمن كان قبلهم بقوله: }ِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} [المجادلة: ٥] ، والكبت: الإذلال والخزي والصرع[٨] .

وجعل الله عزّ وجل مشاقته ومشاقة رسوله ومحادته ومحادة رسوله، وأذاه وأذى رسوله، ومعصيته ومعصية رسوله بمنزلة واحدة، فقال: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ} [الأنفال: ١٣] وقال: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [المجادلة: ٢٠] ، وقال: {أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللّهَ وَرَسُولَهُ} [التوبة: ٦٣] ، وقال: {وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ} [النساء: ١٤] .

٣- كون النبي ﷺ رحمة للمؤمنين دعوة للإيمان والإسلام.

٤- توعد الله تعالى من يؤذى رسوله بالعذاب الأليم.

---

[١] تفسير الطبري:٣٢٧/١٤.
[٢] التفسير الميسر:١٩٦.
[٣] تفسير ابن كثير:١٧٠/٤.
[٤] تفسير البيضاوي:٨٦/٣.
[٥] انظر: تفسير الطبري:٣٢٨/١٤، وتفسير البيضاوي:٨٦/٣
[٦] التفسير الميسر:١٩٦.
[٧] تفسير الطبري:٣٢٨/١٤.
[٨]انظر: الصارم المسلول ص٢١ - ٢٢.

القرآن
{يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢)} [التوبة : ٦٢]
التفسير:
يحلف المنافقون الأيمان الكاذبة، ويقدمون الأعذار الملفقة؛ ليُرضُوا المؤمنين، والله ورسوله أحق وأولى أن يُرضُوهما بالإيمان بهما وطاعتهما، إن كانوا مؤمنين حقًا.
سبب النزول:
عن قتادة قوله :" {يحلفون بالله لكم ليرضوكم} ، الآية ، ذكر لنا أن رجلا من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، وإن كان ما يقول محمد حقًّا ، لهم شَرٌّ من الحمير! قال : فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد حق ، ولأنت شر من الحمار ! فسعى بها الرجل إلى نبي الله ﷺ ، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال له : ما حملك على الذي قلت ؟ فجعل يلتَعنُ ، ويحلف بالله ما قال ذلك. قال : وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدِّق الصادق ، وكذِّب الكاذب ! فأنزل الله في ذلك : {يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين}"[١].
قوله تعالى:{يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ} [التوبة : ٦٢]، أي:" يحلف المنافقون الأيمان الكاذبة، ويقدمون الأعذار الملفقة؛ ليُرضُوا المؤمنين"[٢].
قال البيضاوي:أي:" على معاذيرهم فيما قالوا أو تخلفوا. {ليرضوكم}، لترضوا عنهم والخطاب للمؤمنين"[٣].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله ﷺ : يحلف لكم ، أيها المؤمنون ، هؤلاء المنافقون بالله ، ليرضوكم فيما بلغكم عنهم من أذاهم رسولَ الله ﷺ ، وذكرِهم إياه بالطعن عليه والعيب له ، ومطابقتهم سرًّا أهلَ الكفر عليكم بالله والأيمان الفاجرة : أنهم ما فعلوا ذلك ، وإنهم لعلى دينكم ، ومعكم على من خالفكم ، يبتغون بذلك رضاكم"[٤].
قوله تعالى:{وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ } [التوبة : ٦٢]، أي:" والله ورسوله أحق وأولى أن يُرضُوهما بالإيمان بهما وطاعتهما"[٥].
قال الطبري:أي:" بالتوبة والإنابة مما قالوا ونطقوا"[٦].
قال البيضاوي:أي:" أحق بالإرضاء بالطاعة والوفاق، وتوحيد الضمير لتلازم الرضاءين أو لأن الكلام في إيذاء الرسول ﷺ وإرضائه، أو لأن التقدير والله أحق أن يرضوه والرسول كذلك"[٧].
قوله تعالى:{إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ} [التوبة : ٦٢]، أي:" إن كانوا مؤمنين حقًّا"[٨].
قال البيضاوي:أي:" إن كانوا مؤمنين صدقا"[٩].
قال الطبري:" يقول : إن كانوا مصدِّقين بتوحيد الله ، مقرّين بوعده ووعيده"[١٠].
الفوائد:

---
[١] أخرجه الطبري(١٦٩٠٦):ص٣٢٩/١٤-٣٣٠.
[٢] التفسير الميسر:١٩٧.
[٣] تفسير البيضاوي:٨٧/٣.
[٤] تفسير الطبري:٣٢٩/١٤.
[٥] التفسير الميسر:١٩٧.
[٦] تفسير الطبري:٣٢٩/١٤.
[٧] تفسير البيضاوي:٨٧/٣.
[٨] التفسير الميسر:١٩٧.
[٩] تفسير البيضاوي:٨٧/٣.
[١٠] تفسير الطبري:٣٢٩/١٤.

١- بيان كذب المنافقين وجبنهم حيث يحلفون للمؤمنين أنهم ما طعنوا في الرسول وقد طعنوا بالفعل، وإنما حلفهم الكاذب يدفعون به غضب المؤمنين والانتقام منهم.
٢- تبيّن من الآية الكريمة: أن العزة للمؤمنين لا للمنافقين، فعلم أن العزة والقوة كانت لأصحاب محمد ﷺ وأن المنافقين كانوا أذلة بينهم، قال تعالى {يحلفون بالله لكم ليرضوكم}، فهذه صفات الذليل المقهور وأما السابقون الأولون من المهاجرون والأنصار فما زالوا أعز الناس بعد نبيهم وقبل موته.
٣- وجوب طلب رضا الله تعالى بفعل محابه وترك مساخطه.

القرآن

{أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣)} [التوبة : ٦٣]

التفسير:

ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن مصير الذين يحاربون الله ورسوله نارُ جهنم لهم العذاب الدائم فيها؟ ذلك المصير هو الهوان والذل العظيم، ومن المحاربة أذِيَّة رسول الله ﷺ بسبه والقدح فيه، عياذًا بالله من ذلك.

قوله تعالى:{أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا} [التوبة : ٦٣]، أي:" ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن مصير الذين يحاربون الله ورسوله نارُ جهنم لهم العذاب الدائم فيها؟"[١].

قال الطبري:" ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يحلفون بالله كذبًا للمؤمنين ليرضوهم ، وهم مقيمون على النفاق، أنه من يحارب الله ورسوله ، ويخالفهما فيناوئهما بالخلاف عليهما {فأن له نار جهنم) ، في الآخرة {خالدًا فيها}، يقول : لابثًا فيها، مقيمًا إلى غير نهاية ؟"[٢].

وقرأ بعض نحويي البصرة:« فإنّ» بالكسر[٣].

قوله تعالى:{ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ} [التوبة : ٦٣]، أي:" ذلك المصير هو الهوان والذل العظيم، ومن المحاربة أذِيَّة رسول الله ﷺ بسبه والقدح فيه، عياذًا بالله من ذلك"[٤].

قال البيضاوي:" يعني: الهلاك الدائم"[٥].

قال الطبري:" يقول : فلُبْثُه في نار جهنم وخلوده فيها ، هو الهوان والذلُّ العظيم"[٦].

الفوائد:

١- توعد من يحادد الله ورسوله بالعذاب الأليم.

وقد اختلف العلماء في معنى المحادة لله ولرسوله - ﷺ - على قسمين[٧]:

القسم الأول: يرى أن المحادة تكون بمجرد المخالفة بأن يكون في حدٍّ والطرف الآخر في حدٍّ آخر، والحد هو الطرف وعلى هذا فكل الكفار داخلون فيمن حاد الله ورسوله ﷺ ، واستدل أصحاب هذا المذهب بأن الله تعالى نعت المنافقين الذين يؤذون النبي ﷺ بأنهم يُحادون الله ورسوله فلا يلزم من المحادة أن يكون الكافر محارباً للدين وأهله فقط بل يشمل جميع الكفار عموماً حيث قال تعالى ذكره عنهم:{وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ

---

(١) التفسير الميسر:١٩٧.
(٢) تفسير الطبري:٣٣٠/١٤.
(٣) انظر: تفسير الطبري:٣٣٠/١٤.
(٤) التفسير الميسر:١٩٧.
(٥) تفسير البيضاوي:٨٧/٣.
(٦) تفسير الطبري:٣٣٠/١٤.
(٧) انظر: الولاء والبراء والعداء في الإسلام، البدراني: ١٠٦.

أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ}[التوبة:٦١-٦٢].
القسم الثاني: يرى أن المحادة ليست على معنى واحد، بل هي مراتب متفاوتة، تتراوح بين مجرد المخالفة في الدين وبين المحاربة للدين وأهله ، وهذه المحادة يتعين المراد منها من خلال السياق وسبب النزول ونحو ذلك ، وسياق آية المجادلة يدل على أن المحادة هنا هي أمر زائد على مجرد الكفر بدليل سبب النزول والذي وإن كان ضعيف الإسناد إلا أن أهل التفسير المحققين تلقوه بالقبول ناهيك عن أن السياق أيضاً يدل على أنها في المحاربين، وعليه فالمحادون لله ولرسوله في آية المجادلة بالتحديد هم الكفار المحاربون لله ولرسوله، الصادون عن سبيله، المجاهرون بالعداوة والبغضاء بخلاف المسالمين لنا من أهل الذمة وغيرهم وقد صرح القاسمي في تفسيره محاسن التأويل بهذا في تفسيره لآية المجادلة.

٢- ومن الفوائد: أن النار هي الدار التي أعدها الله للكافرين به، المتمردين على شرعه، المكذبين لرسله، وهي عذابه الذي يعذب فيه أعداءه، وسجنه الذي يسحن فيه المجرمين.
وهي الخزي الأكبر، والخسران العظيم، الذي لا خزي فوقه، ولا خسران أعظم منه،:{ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظلمين من أنصار} [آل عمران: ١٩٢] {ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له، نار جهنم خلداً فيها ذلك الخزى العظيم} [التوبة: ٦٣] ، وقال: {إن الخاسرين الذي خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين}[الزمر: ١٥] .
وكيف لا تكون النار كما وصفنا وفيها من العذاب والآلام والأحزان ما تعجز عن تسطيره أقلامنا، وعن وصفه ألسنتنا، وهي مع ذلك خالدة وأهلها فيها خالدون، ولذلك فإن الحق أطال في ذم مقام أهل النار في النار{إنها سآءت مستقراً ومقاماً} [الفرقان: ٦٦]، {هذا وإن للطغين لشر مئاب * جهنم يصلونها فبئس المهاد} [ص: ٥٥ - ٥٦](١).

القرآن

{يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤)} [التوبة : ٦٤]

التفسير:
يخاف المنافقون أن تنزل في شأنهم سورة تخبرهم بما يضمرونه في قلوبهم من الكفر، قل لهم -أيها النبي-: استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية، إن الله مخرج حقيقة ما تحذرون.
سبب النزول:
قال الطبري:" قيل : إن الله أنزل هذه الآية على رسول الله ﷺ ، لأن المنافقين كانوا إذا عابوا رسول الله ﷺ ، وذكروا شيئًا من أمره وأمر المسلمين ، قالوا : " لعل الله لا يفشي سِرَّنا! " ، فقال الله لنبيه ﷺ : قل لهم : {استهزءوا} ، متهددًا لهم متوعدًا : {إن الله مخرج ما تحذرون}"(٢). وروي عن مجاهد نحو هذا المعنى"(٣).
قوله تعالى:{يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ} [التوبة : ٦٤]، أي:" يخاف المنافقون أن تنزل في شأنهم سورة تخبرهم بما يضمرونه في قلوبهم من الكفر"(٤).

---

(١) انظر: الجنة والنار، العتيبي:١١.
(٢) تفسير الطبري:٣٣١/١٤.
(٣) انظر: تفسير الطبري((١٦٩٠٧)، و(١٦٩٠٨)):ص٣٣١/١٤-٣٣٢.
(٤) التفسير الميسر:١٩٧.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : يخشى المنافقون أن تنزل فيهم {سورة تنبئهم بما في قلوبهم}، يقول : تظهر المؤمنين على ما في قلوبهم"[١].

عن مجاهد : "{يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة}، قال : يقولون القول بينهم ، ثم يقولون : " عسى الله أن لا يفشي سرنا علينا! "[٢]. وفي رواية" سِرَّنا هذا"[٣].

قال البيضاوي:" { يحذر المنافقون أن تنزل عليهم}، على المؤمنين. {سورة تنبئهم بما في قلوبهم} وتهتك عليهم أستارهم، ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين فإن النازل فيهم كالنازل عليهم من حيث إنه مقروء ومحتج به عليهم، وذلك يدل على ترددهم أيضا في كفرهم وأنهم لم يكونوا على بت في أمر الرسول ﷺ بشيء. وقيل إنه خبر في معنى الأمر"[٤].

قوله تعالى:{قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ} [التوبة : ٦٤]، أي:" قل لهم -أيها النبي-: استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية، إن الله مخرج حقيقة ما تحذرون"[٥].

قال الطبري:" يعني به : إن الله مظهر عليكم ، أيها المنافقون ما كنتم تحذرون أن تظهروه ، فأظهر الله ذلك عليهم وفضحهم، فكانت هذه السورة تدعَى : «الفَاضِحَةَ»"[٦].

قال البيضاوي:" {إن الله مخرج}، مبرز أو مظهر. {ما تحذرون}، أي: ما تحذرونه من إنزال السورة فيكم، أو ما تحذرون إظهاره من مساويكم"[٧].

عن قتادة قال : "كانت تسمَّى هذه السورة : «الفَاضِحَةَ»، فاضحة المنافقين"[٨].

الفوائد:

١- الكشف عن مدى ما كان يعيش عليه المنافقون من الحذر والخوف.

٢- أن الهزل والاستهزاء بالله أو بالرسول ﷺ أو بالقرآن مناف لأصل التوحيد.

٣- ضرورة مراقبة الإنسان للسانه، كما في أحاديث منها:

- "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله - لا يلقي لها بالا - يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله - لا يلقي لها بالا - يهوي بها في جهنم"[٩].

- "وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم"[١٠].

٤- أن الاستهزاء بآيات الله يشمل الآيات الشرعية كالقرآن، والآيات الكونية كتقدير الله الليل والنهار ......الخ، التي تدل على صنع الله تعالى وتدبيره وحكمته.

٥- ومن فوائد الآية أن النفاق له آثار خطيرة، وأضرار مُهلكة، منها ما يأتي[١١]:

أ- النفاق الأكبر يسبّب الخوف والرّعب في القلوب، قال الله - عز وجل -:{يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِؤُواْ إِنَّ الله مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ}[التوبة:٦٤].

ب- النفاق الأكبر يُوجب لعنة الله تعالى، قال الله - عز وجل -: {وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ الله وَلَهُمْ عَذَابٌ

---

[١] تفسير الطبري:٣٣١/١٤.
[٢] أخرجه الطبري(١٦٩٠٧):ص٣٣١/١٤.
[٣] أهخرجه الطبري(١٦٩٠٨):ص٣٣١/١٤-٣٣٢.
[٤] تفسير البيضاوي:٨٧/٣.
[٥] التفسير الميسر:١٩٧.
[٦] تفسير الطبري:٣٣٢/١٤.
[٧] تفسير البيضاوي:٨٧/٣.
[٨] أخرجه الطبري(١٦٩٠٩):ص٣٣٢/١٤.
[٩]رواه البخاري (٦٤٧٨)، ومسلم (٢٩٨٨) عن أبي هريرة مرفوعا.
[١٠]صحيح. الترمذي (٢٦١٦) عن معاذ مرفوعا. الصحيحة (١١٢٢).
[١١] انظر: عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسُّنَّة - المفهوم، والفضائل، والمعنى، والمقتضى، والأركان، والشروط، والنواقص، والنواقض:٦٨٥/٢-٦٨٨.

مُّقِيمٌ}[التوبة:٦٨]، وقال سبحانه: {لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا}[الأحزاب:٦٠-٦١].

ت- النفاق الأكبر لا يغفره الله إذا مات عليه صاحبه؛ لأنه أشدُّ من الكفر الظاهر الذي قال الله تعالى في أصحابه: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرًا}[النساء:١٦٨-١٦٩].

ث- النفاق الأكبر يوجب لصاحبه النار، ويُحرّم عليه الجنة، قال الله - عز وجل -: {إِنَّ الله جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا}[النساء:١٤٠].

ج- النفاق الأكبر يُخلّد صاحبه في النار، فلا يخرج منها أبداً؛ لقول الله - عز وجل -: {وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا}[التبوة:٦٨].

ح- النفاق الأكبر يُسبّب نسيان الله لصاحبه، قال الله تعالى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ الله فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [التوبة:٦٧].

خ- النفاق الأكبر يُحبط جميع الأعمال، قال الله - عز وجل -: {قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَو كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِالله وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ}[التوبة:٥٣-٥٤].

د- النفاق الأكبر يُطفئ الله نور أصحابه يوم القيامة، قال الله - عز وجل -: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ}[الحديد:١٣].

ذ- النفاق الأكبر يَحرِمُ العبد دعاء المؤمنين والصلاة عليه عند موته، قال الله - عز وجل -: {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِالله وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ} [التوبة:٨٤].

ر- النفاق الأكبر يُسبّب عذاب الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: {فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة:٥٥].

ز- النفاق الأكبر إذا أظهر صاحبه كفره يُوجب العداوة بين صاحبه والمؤمنين، فلا يُوالونه ولو كان أقرب قريب، وأما إذا لم يُظهر كفره فيُعامل بالظاهر، والله يتولّى السّرائر.

س- النفاق الأصغر، وهو النفاق العملي، ينقص الإيمان ويضعفه، ويكون صاحبه على خطر من عذاب الله تعالى.

ش- النفاق الأصغر صاحبه على خطر؛ لئلا يجرّه إلى النفاق الأكبر.

ونعوذ بالله من غضبه، ومن جميع أنواع النفاق صغيره وكبيره، ونسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

القرآن

{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥)} [التوبة : ٦٥]

التفسير:

ولئن سألتهم -أيها النبي- عما قالوا من القَدْح في حقك وحق أصحابك لَيَقولُنَّ: إنما كنا نتحدث بكلام لا قصد لنا به، قل لهم -أيها النبي-: أبالله عز وجل وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟

سبب النزول:

عن عبد الله بن عمر قال : "قال رجل في غزوة تبوك في مجلس : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء ، أرغبَ بطونًا ، ولا أكذبَ ألسنًا ، ولا أجبن عند اللقاء! فقال رجل في المجلس : كذبتَ ، ولكنك منافق ! لأخبرن رسول الله ﷺ ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر : فأنا رأيته متعلقًا بحَقَب ناقة رسول الله ﷺ تَنْكُبه الحجارة ، وهو يقول : " يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب! " ، ورسول الله ﷺ يقول : {أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم}"[1].

وعن قتادة قوله : "{ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب}، الآية ، قال : بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوته إلى تبوك ، وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا : " يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشأم وحصونها! هيهات هيهات " ! فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك ، فقال نبي الله ﷺ : " احبسوا عليَّ الرَّكْب ! فأتاهم فقال : قلتم كذا ، قلتم كذا. قالوا : " يا نبي الله ، إنما كنا نخوض ونلعب " ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم ما تسمعون"[2].

قوله تعالى:{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ} [التوبة : ٦٥]، أي:" ولئن سألتهم -أيها النبي- عما قالوا من القَدْح في حقك وحق أصحابك لَيَقولُنَّ: إنما كنا نتحدث بكلام لا قصد لنا به"[3].

قال الطبري:" يقول تعالى جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ : ولئن سألت ، يا محمد ، هؤلاء المنافقين عما قالوا من الباطل والكذب، ليقولن لك: إنما قلنا ذلك لعبًا ، وكنا نخوض في حديثٍ لعبًا وهزؤًا!"[4].

قال القاضي أبو بكر بن العربي: "لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جد أو هزلاً، وهو كيفما كان كفر، فإن الهزل بالكفر كفر لا خلاف فيه بين الأمة، فإن التحقيق أخو الحق والعلم والهزل أخو الباطل والجهل"[5].

عن ابن إسحاق قال : "كان الذي قال هذه المقالة فيما بلغني ، وديعة بن ثابت ، أخو بني أمية بن زيد ، من بني عمرو بن عوف"[6].

عن مجاهد : "{إنما كنا نخوض ونلعب}، قال : قال رجل من المنافقين : " يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادي كذا وكذا ، في يوم كذا وكذا! وما يدريه ما الغيب ؟ "[7].

عن عكرمة في قوله : "{ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب} ، إلى قوله : {بأنهم كانوا مجرمين} ، قال : فكان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول : " اللهم إني أسمع آية أنا أعْنَى بها ، تقشعرُّ منها الجلود ، وتَجِبُ منها القلوب، اللهم فاجعل وفاتي قتلا في سبيلك ، لا يقول أحدٌ : أنا غسَّلت ، أنا كفَّنت ، أنا دفنت " ، قال : فأصيب يوم اليمامة ، فما من أحدٌ من المسلمين إلا وُجد غيره"[8].

قوله تعالى:{قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ} [التوبة : ٦٥]، أي:" قل لهم -أيها النبي-: أبالله عز وجل وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟"[9].

قال الطبري يقول الله لمحمد ﷺ: قل، يا محمد، أبالله وآيات كتابه ورسوله كنتم تستهزءون؟"[1].

---

[1] أخرجه الطبري(١٦٩١٢):ص١٤/٣٣٣-٣٣٤.
[2] أخرجه الطبري(١٦٩١٤):ص١٤/٣٣٤.
[3] التفسير الميسر:١٩٧.
[4] تفسير الطبري:١٤/٣٣٢.
[5] أحكام القرآن:٢/٩٧٦-٩٧٧.
[6] أخرجه الطبري(١٦٩١٠):ص١٤/٣٣٢.
[7] اخرجه الطبري(١٦٩١٧):ص١٤/٣٣٥.
[8] أخرجه الطبري(١٦٩١٣):ص١٤/٣٣٤.
[9] التفسير الميسر:١٩٧.

عن زيد بن أسلم : "أن رجلا من المنافقين قال لعوف بن مالك في غزوة تبوك : ما لقُرَّائنا هؤلاء أرغبُنا بطونًا وأكذبُنا ألسنةً ، وأجبُننا عند اللقاء ! فقال له عوف : كذبت ، ولكنك منافق! لأخبرن رسول الله ﷺ ! فذهب عوف إلى رسول الله ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه قال زيد: قال عبد الله بن عمر : فنظرت إليه متعلقًا بحَقَب ناقة رسول الله ﷺ تنكبُهُ الحجارة، يقول: {إنما كنا نخوض ونلعب}! فيقول له النبي ﷺ : {أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن}؟ ما يزيده"[٢].

عن ابي معشر عن محمد بن كعب وغيره قالوا : "قال رجل من المنافقين : ما أرى قُرَّاءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونًا ، وأكذبنا ألسنة ، وأجبننا عند اللقاء ! فرُفع ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله ﷺ ، إنما كنا نخوض ونلعب ! فقال : {أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون}، إلى قوله : {مجرمين}، وإن رجليه لتنسفان الحجارة، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ ، وهو متعلق بنِسْعَةِ رسول الله ﷺ"[٣].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: من كفر من غير إكراه فقد شرح بالكفر صدرا، وإذا تكلم بكلمة الكفر طوعاً فقد شرح بها صدراً، قال تعالى:{ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ}.

٢- ومنها: أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه، وقال تعالى في موضع آخر:{وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ} إلي قوله: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [النور: ٤٧: ٥١] فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول، وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا، فبين أن هذا من لوازم الإيمان.

٣- أخبر الله أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم: إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له، بل كنا نخوض ونلعب، وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدره بهذا الكلام، ولو كان الإيمان في قلبه منعه أن يتكلم بهذا الكلام.

٤- أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به، وأشدها خطرًا إرادات القلوب فهي كالبحر الذي لا ساحل له. ويفيد الخوف من النفاق الأكبر، فإن الله تعالى أثبت لهؤلاء إيمانًا قبل أن يقولوا ما قالوه، كما قال ابن أبي مليكة: "أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه" نسأل الله السلامة والعفو والعافية في الدنيا والآخرة[٤].

عن الحارث بن سويد: "أن رجلا أتى عمر فقال إنى أخاف أن أكون منافقا، قال عمر ما خاف النفاق على نفسه منافق"[٥].

وقال إبراهيم التيمي: "ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذب""[٦].

وقال ابن أبي مليكة: " أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل "[٧].

---

(١) تفسير الطبري:٣٣٢/١٤.
(٢) أخرجه الطبري(١٦٩١١):ص٣٣٣/١٤.
(٣) أخرجه الطبري(١٦٩١٦):ص٣٣٥/١٤.
(٤) انظر: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد:.٥٤٠-٥٤١.
(٥)كنز العمال (١٦٠٥).
(٦) صحيح البخاري(باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر):ص١٨/١.
(٧) صحيح البخاري(باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر):ص١٨/١.

ويذكر عن الحسن: " ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق. وما يحذر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة، لقول الله تعالى: {ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون} [آل عمران: ١٣٥] "[١].
٥- وفي الآية دلالة على علم الله سبحانه، وعلى قدرته وإلهيته، وعلى أن محمدًا رسول الله.

القرآن
{لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)} [التوبة : ٦٦]
التفسير:
لا تعتذروا -معشر المنافقين- فلا جدوى مِن اعتذاركم، قد كفرتم بهذا المقال الذي استهزأتم به، إن نعف عن جماعة منكم طلبت العفو وأخلصت في توبتها، نعذب جماعة أخرى بسبب إجرامهم بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.
سبب النزول:
عن معمر قال: "قال بعضهم : كان رجل منهم لم يمالئهم في الحديث، يسير مجانبًا لهم، فنزلت : {إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة}، فسُمِّي " طائفةً " وهو واحدٌ"[٢].
قوله تعالى:{لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [التوبة : ٦٦]، أي:" لا تعتذروا -معشر المنافقين- فلا جدوى مِن اعتذاركم، قد كفرتم بهذا المقال الذي استهزأتم به"[٣].
قال ابن كثير:" أي : بهذا المقال الذي استهزأتم به"[٤].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : قل لهؤلاء الذين وصفت لك صفتهم : {لا تعتذروا} ، بالباطل ، فتقولوا : {كنا نخوض ونلعب} {قد كفرتم}، يقول : قد جحدتم الحق بقولكم ما قلتم في رسول الله ﷺ والمؤمنين به {بعد إيمانكم} ، يقول : بعد تصديقكم به وإقراركم به"[٥].
عن محمد بن كعب : "{إن نعف عن طائفة منكم}، قال : {طائفة} ، رجل"[٦].
قوله تعالى: {إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ} [التوبة : ٦٦]، أي:" إن نعف عن جماعة منكم طلبت العفو وأخلصت في توبتها، نعذب جماعة أخرى بسبب إجرامهم بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة"[٧].
قال الطبري:{نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ}" معناه : نعذب طائفة منهم باكتسابهم الجرم ، وهو الكفر بالله ، وطعنهم في رسول الله ﷺ... ذكر أنه عُنِي : بالـ«طائفة»، في هذا الموضع ، رجلٌ واحد "[٨].
قال ابن كثير:"أي : لا يُعْفى عن جميعكم ، ولا بد من عذاب بعضكم { بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ } أي : مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة"[٩].
عن ابن إسحاق قال : "كان الذي عُفِي عنه، فيما بلغني مَخْشِيّ بن حُمَيِّر الأشجعي، حليف بني سلمة ، وذلك أنه أنكر منهم بعض ما سمع"[١].

قال الحافظ في " الفتح ": هذا التعليق وصله ابن أبي خيثمة في تاريخه لكن أبهم العدد، وكذا أخرجه محمد بن نصر المروزي مطولا في كتاب الإيمان له، وعينه أبو زرعة الدمشقي في تاريخه من وجه آخر مختصرا كما هنا.
[١] صحيح البخاري(باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر):ص١٨/١.
[٢] أخرجه الطبري(١٦٩٢٢):ص٣٣٧/١٤.
[٣] التفسير الميسر:١٩٧.
[٤] تفسير ابن كثير:١٧٢/٤.
[٥] تفسير الطبري:٣٣٦/١٤.
[٦] أخرجه الطبري(١٦٩٢٠):ص٣٣٦/١٤.
[٧] التفسير الميسر:١٩٧.
[٨] تفسير الطبري:٣٣٦/١٤-٣٣٧.
[٩] تفسير ابن كثير:١٧٢/٤.

عن محمد بن كعب : "{إن نعف عن طائفة منكم}، قال : {طائفة} ، رجل"[٢].

وفي قوله تعالى:{إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ} [التوبة : ٦٦]، وجهان:

أحدهما: معناه : {إن نعف عن طائفة منكم} ، بإنكاره ما أنكر عليكم من قبل الكفر {نعذب طائفة}، بكفره واستهزائه بآيات الله ورسوله. وهذا قول معمر[٣].

والثاني: معناه: إن تتب طائفة منكم فيعفو الله عنه ، يعذب الله طائفة منكم بترك التوبة. ذكره الطبري عن آخرين[٤].

الفوائد:

١- كفر من استهزأ بالله أو آياته أو رسوله.

وقد ذكر أهل العلم انه:"ليس من تكلم بكلمة كفرية يحكم بكفره مطلقاً؛ لأنها قد تجري على لسانه من غير اعتقاد، وقد يكون متأولاً أو نحو ذلك ولكن يستفصل بعد ذلك، فإذا رؤي من عقيدته الاعتراف بما قاله فإنه يحكم بكفره، ويدعى إلى التوبة ويهدد إذا لم يتب، وقد كفر الله تعالى المستهزئين بقوله تعالى: {لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [التوبة:٦٦] لما قالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء. واعتذروا بقولهم: {إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ} [التوبة:٦٥] فقال تعالى: {قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ} [التوبة:٦٥] .

فالحاصل أن من أتى بكلمة كفر ناطقاً بها من غير اعتقاد فإنه يستفصل منه، فإذا رؤي أنه مصر عليها حكم بكفره، وإذا ادعى أنه متأول أو جاهل قبل عذره وقبلت توبته"[٥].

٢- مصداق ما أخبر به تعالى من أنه سيعذب طائفة فقد هلك عشرة بداء الدبيلة "خراج يخرج من الظهر وينفذ ألمه إلى الصدر فيهلك صاحبه حتما".

١- أن جواز العفو عن بعضهم مع أن ذنبهم واحد، مشعر بأنه سبحانه علم أن في تعذيب بعضهم بذنبه صلاحا، وفي العفو عن جميعهم فسادا، وهو العليم الحكيم سبحانه وتعالى.

ومع معرفة السر في عذاب الكافرين يعظم الرجاء للمسلمين حيث لم يكن في عذابهم نصر للأنبياء والمرسلين والصالحين، بل هم شفعاؤهم وأحباؤهم، ولذلك يقول الله تعالى: " شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيخرج من النار من ليس في قلبه خير قط ممن قال: لا إله إلا الله "[٦].

وكذلك ورد في الحديث الشريف:"أن الله يعطي كل مسلم يهوديا أو نصرانيا، فيقول هذا فداؤك من النار " [٧]، وهو ينظر إلى قوله تعالى: {وفديناه بذبح عظيم} [الصافات: ١٠٧].

---

[١] أخرجه الطبري(١٦٩١٩):ص١٤/٣٣٦.

[٢] أخرجه الطبري(١٦٩٢٠):ص١٤/٣٣٦.

[٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٩٢٢):ص١٤/٣٣٧.

[٤] انظر: تفسير الطبري:١٤/٣٣٧.

[٥]اعتقاد أهل السنة، ابن جبرين. [الدرس(٩)/ مرقم آليا].

[٦]من حديث أبي سعيد الخدري. وانظره في " صحيح ابن حبان " (٧٣٧٧).

[٧]أخرجه مسلم (٢٧٦٧)، وأحمد ٤/ ٣٩٨ و٤٠٢ و٤٠٧ و٤٠٨ و٤٠٩ - ٤١٠ من حديث أبي موسى الأشعري.

ولفظ مسلم: " إذا كان يوم القيامة، دفع الله عز وجل إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا، فيقول: هذا فكاكك من النار ".

وفي رواية: " لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهوديا أو نصرانيا ".

وفي رواية: " يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى ".

القرآن

{الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧)} [التوبة : ٦٧]

التفسير:

المنافقون والمنافقات صنف واحد في إعلانهم الإيمان واستبطانهم الكفر، يأمرون بالكفر بالله ومعصية رسوله وينهون عن الإيمان والطاعة، ويمسكون أيديهم عن النفقة في سبيل الله، نسوا الله فلا يذكرونه، فنسيهم من رحمته، فلم يوفقهم إلى خير. إن المنافقين هم الخارجون عن الإيمان بالله ورسوله.

قوله تعالى:{الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ} [التوبة : ٦٧]، أي:" المنافقون والمنافقات صنف واحد في إعلانهم الإيمان واستبطانهم الكفر"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : {المنافقون والمنافقات}، وهم الذين يظهرون للمؤمنين الإيمانَ بألسنتهم ، ويُسِرُّون الكفرَ بالله ورسوله {بعضهم من بعض}، يقول : هم صنف واحد ، وأمرهم واحد ، في إعلانهم الإيمان ، واستبطانهم الكفر"[٢].

قوله تعالى:{يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ} [التوبة : ٦٧]، أي:" يأمرون بالكفر بالله ومعصية رسوله وينهون عن الإيمان والطاعة"[٣].

قال الطبري:" {يأمرون} مَنْ قبل منهم {بالمنكر}، وهو الكفر بالله وبمحمد ﷺ ، وبما جاء به وتكذيبه {وينهون عن المعروف}، يقول : وينهونهم عن الإيمان بالله ورسوله ، وبما جاءهم به من عند الله"[٤].

قال ابن كثير:" يقول تعالى منكرا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين ، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، كان هؤلاء { يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ }"[٥].

قوله تعالى:{وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ} [التوبة : ٦٧]، أي:" ويمسكون أيديهم عن النفقة في سبيل الله"[٦].

قال ابن كثير:" أي : عن الإنفاق في سبيل الله "[٧].

قال الطبري:" يقول : ويمسكون أيديهم عن النفقة في سبيل الله ، ويكفُّونها عن الصدقة ، فيمنعون الذين فرضَ الله لهم في أموالهم ما فرَض من الزكاة حقوقَهم"[٨].

وفي قوله تعالى:{وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ} [التوبة : ٦٧]، وجوه:

أحدها : يقبضونها عن الإنفاق في سبيل الله تعالى ، قاله الحسن[٩]، ومجاهد[١٠].

عن مجاهد في قوله : "{ويقبضون أيديهم}، قال : لا يبسطونها بنفقة في حق"[١١].

والثاني : يقبضونها عن كل خير ، قاله قتادة[١٢].

عن قتادة قوله : "{ويقبضون أيديهم}، لا يبسطونها بخير"[١]. وفي رواية:"يقبضون أيديهم عن كل خير"[٢].

---

[١] التفسير الميسر:١٩٧.

[٢] تفسير الطبري:٣٣٧/١٤-٣٣٨.

[٣] التفسير الميسر:١٩٧.

[٤] تفسير الطبري:٣٣٨/١٤.

[٥] تفسير ابن كثير:١٧٢/٤.

[٦] التفسير الميسر:١٩٧.

[٧] تفسير ابن كثير:١٧٢/٤.

[٨] تفسير الطبري:٣٣٨/١٤.

[٩] انظر: النكت والعيون:٣٧٩/٢.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٦٩٢٣):ص٣٣٨/١٤.

[١١] اخرجه الطبري(١٦٩٢٣):ص٣٣٨/١٤.

[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٦٩٢٧)، و(١٦٩٢٨):ص٣٣٨/١٤.

والثالث : يقبضونها عن الجهاد مع النبي -ﷺ- ، حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين[٣].
والرابع : يقبضون أيديهم عن رفعها في الدعاء إلى الله تعالى. ذكره الماوردي[٤].

قوله تعالى:{نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} [التوبة : ٦٧]، أي:" نسوا الله فلا يذكرونه، فنسيهم من رحمته، فلم يوفقهم إلى خير"[٥].

قال ابن كثير:" أي : نسوا ذكر الله ، { فَنَسِيَهُمْ } أي : عاملهم معاملة من نسيهم ، كقوله تعالى : { وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا } [الجاثية : ٣٤]"[٦].

قال الطبري:" معناه : تركوا الله أن يطيعوه ويتبعوا أمره ، فتركهم الله من توفيقه وهدايته ورحمته"[٧].

قال الماوردي:" أي: تركوا أمره فترك رحمتهم"[٨].

وروي قتادة قوله : "{نسوا الله فنسيهم} ، نُسُوا من الخير ، ولم ينسوا من الشرّ"[٩].

قال ابن عباس : "كان المنافقون بالمدينة من الرجال ثلاثمائة ، ومن النساء سبعين ومائة امرأة"[١٠].

قوله تعالى:{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [التوبة : ٦٧]، أي:" . إن المنافقين هم الخارجون عن الإيمان بالله ورسوله"[١١].

قال ابن كثير:" أي : الخارجون عن طريق الحق ، الداخلون في طريق الضلالة"[١٢].

قال الطبري:"يقول : إن الذين يخادعون المؤمنين بإظهارهم لهم بألسنتهم الإيمانَ بالله ، وهم للكفر مستبطنون، هم المفارقون طاعةَ الله ، الخارجون عن الإيمان به وبرسوله"[١٣].

الفوائد:

١- في الآية إشارة أن لا ولاية بين المؤمن والمنافق، و كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تراءى ناراهما»[١٤].
٢- أن النفاق الأكبر يُسبّب نسيان الله لصاحبه، قال تعالى: {نَسُواْ الله فَنَسِيَهُمْ}.
٣- إن المنافقين لما كان مرضهم واحد وهو الكفر الباطني كان سلوكهم متشابها.
٤- الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف علامة النفاق وظاهرة الكفر وانتكاس الفطرة.
٥- الاغترار بالمال والولد من عوامل عدم قبول الحق والإذعان له والتسليم به.

---

[١] اخرجه الطبري(١٦٩٢٧):ص٣٣٨/١٤.
[٢] اخرجه الطبري(١٦٩٢٨):ص٣٣٨/١٤.
[٣] انظر: النكت والعيون:٣٧٩/٢.
[٤] انظر: النكت والعيون:٣٧٩/٢.
[٥] التفسير الميسر:١٩٧.
[٦] تفسير ابن كثير:١٧٢/٤-١٧٣.
[٧] تفسير الطبري:٣٣٩/١٤.
[٨] النكت والعيون:٣٧٩/٢.
[٩] أخرجه الطبري(١٦٩٢٩):ص٣٣٩/١٤.
[١٠] النكت والعيون:٣٧٩/٢.
[١١] التفسير الميسر:١٩٧.
[١٢] تفسير ابن كثير:١٧٣/٤.
[١٣] تفسير الطبري:٣٣٩/١٤.
[١٤]أخرجه أبو داود في: الجهاد، ٩٥ - باب على ما يقاتل المشركون، حديث ٢٦٤٥ ونصه: عن جرير بن عبد الله قال: بعث رسول الله ﷺ سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود. فأسرع فيهم القتل.
قال، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأمر لهم بنصف العقل. وقال «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين» قالوا: يا رسول الله! لم؟ قال «لا تراءى ناراهما».
قال في النهاية ٢/ ٥٤: "يلزم المسلم ويجب عليه أن يباعد منزله عن منزل المشرك، ولا ينزل بالموضع الذي أوقدت فيه ناره تلوح وتظهر لنار المشرك إذا أوقدها في منزله ولكنه ينزل مع المسلمين في دارهم. والترائي: تفاعل من الرؤية وإسناد الترائي إلى النار مجاز".

القرآن

{وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨)} [التوبة : ٦٨]

التفسير:

وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار بأن مصيرهم إلى نار جهنم خالدين فيها أبدًا، هي كافيتهم؛ عقابًا على كفرهم بالله، وطردهم الله مِن رحمته، ولهم عذاب دائم.

قوله تعالى:{وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ} [التوبة : ٦٨]، أي:" وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار بأن مصيرهم إلى نار جهنم"[١].

قال ابن كثير:" أي : على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم "[٢].

قوله تعالى:{خَالِدِينَ فِيهَا} [التوبة : ٦٨]، أي:" ماكثين فيها أبدًا ، لا يحيون فيها ولا يموتون"[٣].

قال ابن كثير:" أي : ماكثين فيها مخلدين ، هم والكفار "[٤].

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي - ﷺ - قال: " يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم: يا أهل النار لا موت، ويا أهل الجنة لا موت، خلود "[٥].

وروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: " يقال لأهل الجنة: يا أهل الجنة خلود لا موت، ولأهل النار، يا أهل النار خلود لا موت "[٦].

وهذا يقال بعد ذبح الموت كما في حديث ابن عمر عند البخاري، قال: قال رسول الله - ﷺ -: " إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي منادي: يا أهل الجنة لا موت، يا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم "[٧].

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله - ﷺ -: " يُجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت. قال: ويقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح. قال: ثم قال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت". قال: ثم قرأ رسول الله - ﷺ -: [وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون} [مريم: ٣٩] "[٨].

وأخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري يرفعه قال: " إذا كان يوم القيامة أتي بالموت كالكبش الأملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيذبح وهم ينظرون، فلو أن أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنة، ولو أن أحداً مات حزناً لمات أهل النار "[٩].

قوله تعالى:{هِيَ حَسْبُهُمْ} [التوبة : ٦٨]، أي:" هي كافيتهم عقابًا على كفرهم بالله"[١٠].

قال ابن كثير:" أي : كفايتهم في العذاب "[١١].

قال الطبري:" يقول : هي كافيتهم عقابًا وثوابًا على كفرهم بالله"[١٢].

---

[١] التفسير الميسر:١٩٧.

[٢] تفسير ابن كثير:١٧٣/٤.

[٣] تفسير الطبري:٣٣٩/١٤

[٤] تفسير ابن كثير:١٧٣/٤.

[٥]صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، فتح الباري: (٤٠٦/١١).

[٦]صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، فتح الباري: (٤٠٦/١١).

[٧]صحيح البخاري، كتاب الرقاق: باب صفة الجنة والنار، فتح الباري: (٤١٥/١١) .

[٨]صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها: (٢١٨٨/٤) .

[٩]سنن الترمذي: ٢٥٥٨.

[١٠] التفسير الميسر:١٩٧.

[١١] تفسير ابن كثير:١٧٣/٤.

[١٢] تفسير الطبري:٣٣٩/١٤-٣٤٠.

قوله تعالى:{وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ} [التوبة : ٦٨]، أي:" وطردهم الله مِن رحمته"[١].
قال ابن كثير:" أي : طردهم وأبعدهم"[٢].
قال الطبري:" يقول : وأبعدهم الله وأسحقهم من رحمته"[٣].
قال الراغب:" «اللعن»: هو إفضاء على وجه الإهانة، ومن قال : هو العذاب، فمن حيث أنه لا تنفك لعنة الله عن العذاب"[٤].
قوله تعالى:{وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ} [التوبة : ٦٨]، أي:" ولهم عذاب دائم"[٥].
قال الطبري:" يقول : وللفريقين جميعًا : يعني من أهل النفاق والكفر ، عند الله {عذابٌ مقيم}، دائم ، لا يزول ولا يبيد"[٦]، " كما قال الشاعر[٧]:

فَإِنَّ لَكُمْ بِيَوْمِ الشِّعْبِ مِنِّي ... عَذَابًا دَائِمًا لَكُمُ مُقِيمَا"[٨].

قال أبو الليث السمرقندي:أي:"دائم أبدا "[٩].
قال المراغي:" «المقيم»: هو الثابت الذي لا يرتحل أبدا"[١٠].
عن أبي مالك قوله: "{عذاب مقيم}، يعني: دائما لا ينقطع"[١١].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: إثبات النار، وأنها دار الكافرين.
٢- ومنها: خلود أهل النار فيها؛ وهو خلود مؤبد لا يخفف عنهم فيه العذاب، وقد صرح الله عزّ وجلّ بتأبيد الخلود فيها في ثلاثة مواضع من القرآن.
٣- ومنها: أن هؤلاء الموصوفين في الآية مستحقون للعنة الله، وهي واجبة عليهم؛ لقوله تعالى: {وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ}.

القرآن

{كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩)} [التوبة : ٦٩]

التفسير:

إن أفعالكم -معشر المنافقين- من الاستهزاء والكفر كأفعال الأمم السابقة التي كانت على جانب من القوة والمال والأولاد أشد منكم، فاطْمَأنوا إلى الحياة الدنيا، وتَمتَّعوا بما فيها من الحظوظ والملذات، فاستمعتم أيها المنافقون بنصيبكم من الشهوات الفانية كاستمتاع الذين من قبلكم بحظوظهم الفانية، وخضتم بالكذب على الله كخوض تلك الأمم قبلكم، أولئك الموصوفون بهذه الأخلاق هم الذين ذهبت حسناتهم في الدنيا والآخرة، وأولئك هم الخاسرون ببيعهم نعيم الآخرة بحظوظهم من الدنيا.

قوله تعالى:{كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا} [التوبة : ٦٩]، أي:" إن أفعالكم -معشر المنافقين- من الاستهزاء والكفر كأفعال الأمم السابقة التي كانت على جانب من القوة والمال والأولاد أشد منكم"[١].

---

[١] التفسير الميسر:١٩٧.
[٢] تفسير ابن كثير:١٧٣/٤.
[٣] تفسير الطبري:٣٤٠/١٤.
[٤] تفسير الراغب الأصفهاني: ٢٥٨/١.
[٥] التفسير الميسر:١٩٧.
[٦] تفسير الطبري:٣٤٠/١٤.
[٧] لم أتعرف على قائله، والبيت من شواهد الطبري:٢٩٣/١٠، ومجاز القرآن لأبي عبيدة:١٦٥/١.
[٨] تفسير الطبري:٢٩٣/١٠.
[٩] بحر العلوم:٣٨٧/١.
[١٠] تفسير المراغي:١١٣/٦.
[١١] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٥٠١):ص١٨٣٣/٦-١٨٣٤.

قال ابن كثير:" يقول تعالى : أصاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم ، وقد كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا "[٢].

عن قتادة قوله: "{كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا}، الآية، قال: صنيع الكفار"[٣].

قوله تعالى:{فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ} [التوبة : ٦٩]، أي:" فتمتعوا بنصيبهم وحظهم من ملاذ الدنيا"[٤].

عن الحسن" "{فاستمتعوا بخلاقهم}، قال: بدينهم"[٥].

عن السدي قوله: "{فاستمتعوا بخلاقهم}، يقول: بنصيبهم من الدنيا"[٦].

عن عكرمة أن ابن عباس قال: "ما أشبه الليلة بالبارحة {كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا}، فهؤلاء بنو إسرائيل أشبهناهم، قال ابن جريج: ولا أعلم إلا أن فيه: والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه"[٧].

قوله تعالى:{فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ} [التوبة : ٦٩]، أي:" فاستمعتم أيها المنافقون بنصيبكم من الشهوات الفانية كاستمتاع الذين من قبلكم بحظوظهم الفانية"[٨].

عن أبي هريرة :"{فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم}، قال: الخلاق: الدين"[٩]. وروي عن مجاهد نحوه[١٠].

عن ابن عباس قوله: بخلاقهم قال: بدينهم"[١١].

قوله تعالى:{وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا} [التوبة : ٦٩]، أي:" وخضتم بالكذب على الله كخوض تلك الأمم قبلكم"[١٢].

قال ابن كثير:" أي : في الكذب والباطل "[١٣].

عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقول: في قول الله: "{وخضتم كالذي خاضوا}، قال: الخوض: ما يتكلمون به من الباطل، وما يخوضون فيه من أمر الله ورسله، وتكذيبهم إياهم"[١٤].

وفي هؤلاء قولان[١٥]:

أحدهما : أنهم فارس والروم .

والثاني : أنهم بنو اسرائيل .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "ثم قوله فاستمتعتم وخضتم، خبر عن وقوع ذلك في الماضي، وهو ذم لمن يفعله إلى يوم القيامة، كسائر من أخبر الله به عن الكفار والمنافقين عند مبعث محمد ﷺ، فإنه ذم لمن حالهم كحالهم إلى يوم القيامة"[١].

---

[١] التفسير الميسر:١٩٨.
[٢] تفسير ابن كثير:١٧٤/٤.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٠٢):ص١٨٣٤/٦.
[٤] صفوة التفاسير:٥٠٩/١.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٠٤):ص١٨٣٤/٦.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٠٥):ص١٨٣٤/٦.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٠٣):ص١٨٣٤/٦.
[٨] التفسير الميسر:١٩٨.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٠٦):ص١٨٣٤/٦.
[١٠] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٨٣٥/٦ حكاه دون سند.
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٠٩):ص١٨٣٥/٦.
[١٢] التفسير الميسر:١٩٨.
[١٣] تفسير ابن كثير:١٧٤/٤.
[١٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٠٠):ص١٨٣٥/٦.
[١٥] انظر: النكت والعيون:٣٨٠/٢.

قوله تعالى:{أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} [التوبة : ٦٩]، أي:" أولئك الموصوفون بهذه الأخلاق هم الذين ذهبت حسناتهم في الدنيا والآخرة"[٢].

قال ابن كثير:" أي : بطلت مساعيهم ، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة "[٣].

عن أبي مالك قوله: "{حبطت أعمالهم}، يقول: بطلت أعمالهم"[٤].

قوله تعالى:{وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [التوبة : ٦٩]، أي:" وأولئك هم الخاسرون ببيعهم نعيم الآخرة بحظوظهم من الدنيا"[٥].

قال الثعلبي:" أي: المغبونون بالعقوبة وفوت المثوبة"[٦].

قال ابن كثير:" لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب "[٧].

قال ابن عثيمين:" «الخاسر»، هو الذي فاته الربح؛ وذلك؛ لأن هؤلاء فاتهم الربح الذي ربحه من لم ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، ولم يقطع ما أمر الله به أن يوصل"[٨].

الفوائد:

١- تشابه حال البشر وإتباع بعضهم لبعض في الباطل والفساد والشر.

٢- أن التشبه بهذه الأمم عام في كل شيء فيشمل الاختلاف والتفرق في الدين، وقد نبه الله على هذه الناحية من التشبه بقوله: {كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [التوبة:٦٩] .

فقد أخبر الله سبحانه أن من هذه الأمة من سوف يتشبه بالأمم السابقة في الاستمتاع بالشهوات، والخوض بالشبهات، فإذا كان وقع هذا من بعض الأمم المعاصرين للنبي ﷺ، فوقوعه ممن بعدهم من باب أولى-فهو أخبر عن أمر دائم مستمر، فيكون كل من حصل منه الاستمتاع والخوض إلى يوم القيامة مخاطباً بذلك[٩].

٣- ذم -جلّ وعلا - المتشبهين بالكفار، والنبي -ﷺ- جاءت سنته صريحة في النهي عن التشبه بالكفار، وتنوعت دلالاتها، كقوله -ﷺ-: من تشبه بقوم فهو منهم"[١٠].

وقوله: "خالفوا المشركين"[١١].

وقوله: "خالفوا اليهود"[١٢]. وغير ذلك.

---

[١]اقتضاء الصراط المستقيم :١٠٤-١٠٥.

[٢] التفسير الميسر:١٩٨.

[٣] تفسير ابن كثير:١٧٤/٤.

[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٠١):ص١٨٣٥/٦.

[٥] التفسير الميسر:١٩٨.

(٦٢) تفسير الثعلبي:١٧٣/١.

[٧] تفسير ابن كثير:١٧٤/٤.

(٨) تفسير ابن عثيمين: ١٠٣/١.

[٩]انظر: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية تحقيق ناصر بن عبد الكريم العقل ١٠٥/١ ط الأولى ١٤٠٤هـ..

[١٠]أخرجه أحمد ٢/ ٥٠، حديث رقم ٥١١٤، وأخرجه أبو داود ص ١٥١٨، كتاب اللباس، باب ٤: في لبس الشهرة، حديث رقم ٤٠٣١، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنفن كتاب السير، باب ٧٩: ما قالوا فيما ذكر من الرماح واتخاذها، حديث رقم ٣٣٠٠٦، قال الحافظ في الفتح ١٠/ ٢٧١: أخرجه أبو داود بسند حسن؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: حسن صحيح ٢/ ٥٠٤، وقال في الإرواء: صحيح ٥/ ١٠٩، حديث رقم ١٢٦٩ .

[١١]أخرجه البخارى (٢٢٠٩/٥، رقم ٥٥٥٣) ، ومسلم (٢٢٢/١ رقم ٢٥٩) .والحديث تمامه:" خالفوا المشركين أحفوا الشوارب وأوفوا اللحى".

[١٢]للحديث صيغ متعددة:

- "خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون فى نعالهم ولا خفافهم"
(أبو داود، وابن حبان، والحاكم، والبيهقى عن شداد بن أوس)

٤- حبوط الأعمال بالباطل وهلاك أهلها أمر مقضى به لا يتخلف.
٥- ومنها: أن هؤلاء الموصوفين الأرض هم الخاسرون، وإن ظنوا أنهم يحسنون صنعاً.

القرآن

{أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)} [التوبة : ٧٠]

التفسير:

ألم يأت هؤلاء المنافقين خبرُ الذين مضوا مِن قوم نوح وقبيلة عاد وقبيلة ثمود وقوم إبراهيم وأصحاب (مدين) وقوم لوط عندما جاءهم المرسلون بالوحي وبآيات الله فكذَّبوهم؟ فأنزل الله بهؤلاء جميعًا عذابه؛ انتقامًا منهم لسوء عملهم، فما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم بالتكذيب والمخالفة.

قوله تعالى:{أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [التوبة : ٧٠]، أي:" ألم يأت هؤلاء المنافقين خبر الأمم الذين كانوا من قبلهم"(١).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : ألم يأت هؤلاء المنافقين الذين يُسِرُّون الكفرَ بالله ، وينهون عن الإيمان به وبرسوله (نبأ الذين من قبلهم) ، يقول : خبر الأمم الذين كانوا من قبلهم ، حين عصوا رسلنا وخالفوا أمرنا ، ماذا حلّ بهم من عقوبتنا ؟"(٢).

عن الضحاك قوله مما يعير به المنافقون :"{ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم}، الآية"(٣).

قوله تعالى:{قَوْمِ نُوحٍ} [التوبة : ٧٠]، أي:" قوم نوح الذين أهلكوا بالطوفان"(٤).

قال الطبري:يقول:" ألم يأت هؤلاء المنافقين خبر قوم نوح وصنيعي بهم ، إذ كذبوا رسولي نوحًا ، وخالفوا أمري ؟ ألم أغرقهم بالطوفان ؟"(٥).

قال محمد بن إسحاق قال: كان من حديث نوح وحديث قومه فيما قص الله على لسان نبيه محمد- ﷺ- وما يذكر أهل الكتاب يعني: من أهل التوراة وما حفظ لنا من الأحاديث عن عبد الله بن عباس وعن عبيد بن عمير أن الله- عز وجل- بعث نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله، وقد فشت في الأرض المعاصي وكثرت فيها الجبابرة وعتوا على الله عتوا كبيرا، وكان نوح فيما يذكر حليما صبورا، لم يلق نبي من قومه من البلاء أكثر مما لقي إلا نبي قتل"(٦).

أخرجه أبو داود (١٧٦/١، رقم ٦٥٢) ، وابن حبان (٥٦١/٥، رقم ٢١٨٦) ، والحاكم (٣٩١/١، رقم ٩٥٦) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقى (٤٣٢/٢، رقم ٤٠٥٦) وأخرجه أيضا: البزار (٤٠٦/٨، رقم ٣٤٨٠) .

- "خالفوا اليهود وصلوا فى خفافكم ونعالكم فإنهم لا يصلون فى خفافهم ولا فى نعالهم". (البزار عن أنس) أخرجه البزار كما فى مجمع الزوائد (٥٤/٢) قال الهيثمى: فيه عمر بن نبهان وهو ضعيف.
- "خالفوهم صوموا أنتم".

(ابن حبان عن أبى موسى قال كانت يهود تتخذ يوم عاشوراء عيدا فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ... فذكره) أخرجه ابن حبان (٣٩١/٨، رقم ٣٦٢٧) .

- "صلوا فى نعالكم ولا تشبهوا باليهود".

(الحكيم، والطبرانى، والضياء عن شداد بن أوس) أورده الحكيم (١٧٢/٢) ، وأخرجه الطبرانى (٢٩٠/٧، رقم ٧١٦٤).

- "خالفوا اليهود وصوموا التاسع والعاشر".

(عبد الرزاق، والطحاوى عن ابن عباس موقوفا) جامع الأحاديث(٤٥٠٤٨):ص٣٢٨/٤١

(١) انظر: تفسير الطبري: ٣٤٤/١٤، والتفسير الميسر:١٩٨.
(٢) تفسير الطبري:٣٤٤/١٤.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٠٢):ص١٨٣٥/٦.
(٤) صفوة التفاسير:٥٠٩/١.
(٥) تفسير الطبري:٣٤٥/١٤.
(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٤):ص١٨٣٦/٦. كذا الترقيم بالمطبوع!

عن قتادة: "أن نوحا بعث من الجزيرة"[١].
قوله تعالى:{وَعَادٍ} [التوبة : ٧٠] ، أي:" وقوم هود «عاد» الذين أهلكوا بالريح"[٢].
عن السدي قال: "إن عادا كانوا قوما باليمن بالأحقاف والأحقاف: هي الرمال، فأتاهم فوعظهم وذكرهم بما قص الله في القرآن فكذبوه وكفروا، وسألوه أن يأتيهم بالعذاب"[٣].
قال محمد بن إسحاق: "وكان من حديث عاد فيما بلغني- والله أعلم- أنهم كانوا قوما عربا وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، صنم يقال له: صمدن وآخر يقال له: صمود، وصنم يقال له: الهناء، فبعث الله إليهم هودا فأمرهم أن يوحدوا الله، لا يعبدوا معه إلها غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس، لم يأمرهم فيما يذكرون والله أعلم إلا بذلك"[٤].
قوله تعالى:{وَثَمُودَ} [التوبة : ٧٠] ، أي:" وقوم صالح «ثمود» الذين أهلكوا بالصيحة"[٥].
عن ابن عباس: أن صالحا النبي- ﷺ- بعثه الله إلى قومه فآمنوا به، ثم إنه مات فرجعوا بعده عن الإسلام، فأحيى الله صالحا وبعثه إليهم، فأخبرهم أنه صالح، فكذبوه وقالوا: قد مات صالح، فائتنا بآية إن كنت من الصادقين، فسأل الله أن يأتيهم بآية، فأتاهم الله بالناقة، فكفروا به وعقروها، فأهلكهم الله"[٦].
عن محمد بن إسحاق قال: "فلما أهلك الله عادا وتقضى أمرها، عمرت ثمود بعدها، فاستخلفوا في الأرض فربلوا وانتشروا ثم عتوا على الله، فلما ظهر فسادهم وعبدوا غير الله، بعث الله إليهم صالحا- وكانوا قوما عربا، وهو من أوسطهم نسبا، وأفضلهم موضعا رسولا، وكانت منازلهم الحجر إلى قرح، وهو وادي القرى وبين ذلك ثمانية عشر ميلا، فيما بين الحجاز والشام، فبعثه الله إليهم غلاما شابا، فدعاهم إلى الله حتى شمط وكبر لا يتبعه منهم أحد إلا قليل مستضعفون"[٧].
قوله تعالى:{وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ} [التوبة : ٧٠] ، أي:" وقوم إبراهيم الذين أهلكوا بسلب النعمة"[٨].
عبد الصمد بن معقل قال: "سمعت وهبا يعني: ابن منبه، يذكر مسير إبراهيم النبي- ﷺ- حين أخرجه قومه بعد ما ألقوه في النار فخرج بامرأته سارة ومعه أخوها لوط- فتوجها إلى أرض الشام ثم بلغوا مصر"[٩].
قوله تعالى:{وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ} [التوبة : ٧٠] ، أي:" قوم شعيب الذين أهلكوا بعذاب يوم الظلة"[١٠].
عن السدي قال: "إن الله- عز وجل- بعث شعيبا إلى مدين وإلى أصحاب الأيكة: هي الغيضة من الشجر، فكانوا مع كفرهم يبخسون الكيل والوزن، فدعاهم فكذبوه، فقال لهم: ما ذكر الله في القرآن، وما ردوا عليه، فلما عتوا وكذبوا سألوه العذاب"[١١].
قوله تعالى:{وَالْمُؤْتَفِكَاتِ} [التوبة : ٧٠] ، أي:" قرى قوم لوط الذين انقلبت بهم فصار عاليها سافلها، وأمطروا حجارة من سجيل"[١٢].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٥٠٣):ص١٨٣٥/٦.
[٢] صفوة التفاسير:٥٠٩/١.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٥):ص١٨٣٦/٦.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٦):ص١٨٣٦/٦.
[٥] صفوة التفاسير:٥٠٩/١.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٧):ص١٨٣٦/٦.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٨):ص١٨٣٧/٦.
[٨] صفوة التفاسير:٥٠٩/١.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٩):ص١٨٣٧/٦.
[١٠] صفوة التفاسير:٥٠٩/١.
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٠):ص١٨٣٧/٦.
[١٢] صفوة التفاسير:٥٠٩/١.

عن قتادة قوله: "{والمؤتفكات} قال: قوم لوط، ائتفكت بهم أرضهم فجعل عاليها سافلها"(١).

عن ابن عباس قال: لما ولج رسل الله على قوم لوط ظن أنهم ضيفان قال: فأخرج بناته بالطريق، وجعل ضيفانه بينه وبين بناته قال :{ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ }. فقال: إن {هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي}، إلى قوله: {أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ}(٢) فالتفت إليه جبريل- عليه السلام- فقال: لا تخف إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فلما دنوا طمس أعينهم، فانطلقوا يركب بعضهم بعضا، حتى خرجوا إلى الذين بالباب فقالوا: جئناكم من عند أسحر الناس، طمست أبصارنا، قال: فانطلقوا يركب بعضهم بعضا حتى دخلوا المدينة، فكان في جوف الليل، فرفعت حتى إنهم ليسمعون صوت الطير في جو السماء، ثم قلبت عليهم، فمن أصابته الائتفاكة أهلكته، قال: ومن خرج منها اتبعه حجر حيث كان فقتله، قال: وخرج منها لوط ببناته وهن ثلاث فلما بلغ مكانا من الشام، ماتت الكبرى فدفنها فخرجت عندها عين يقال لها عين الدبة، قال: سمعت ابن عباس يقول: ربثا، قال: ثم انطلق حتى بلغ مكانا آخر، ماتت الصغرى فدفنها، فخرجت عندها عين يقال لها: الزغرتة، قال: سمعت ابن عباس يقول: زغوتا قال: ولم يبق غير الوسطى"(٣).

عن الهذلي في قوله: "{المؤتفكات}، قال: هن أربع، المؤتفكات دادوما، وسدوم، وعامورا، وصابوما"(٤).

قوله تعالى:{أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} [التوبة : ٧٠] ، أي:" جاءتهم رسلهم بالمعجزات فكذبوهم"(٥).

عن مقاتل بن حيان قوله: "{بالبينات}، يعني: البينات، ما أنزل الله من الحلال والحرام"(٦).

قوله تعالى:{فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ} [التوبة : ٧٠]، أي:" فما أهلكهم الله ظلما"(٧).

قوله تعالى:{وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [التوبة : ٧٠]، أي:" ولكن كانوا هم الظالمين لأنفسهم بالتكذيب والمخالفة"(٨).

قال السعدي:" فيعود ضرره عليهم"(٩).

عن ابن عباس في قوله:"{يظلمون}، قال: يضرون"(١٠).

قال الماتريدي: " والظلم: ما ذكرنا: هو وضع الشيء في غير موضعه، فهو - والله أعلم - قال: هم الذين وضعوا أنفسهم في غير موضعها، لا أن وضع الله أنفسهم ذلك الموضع؛ لأنهم عبدوا غير الله، ولم يجعلوا أنفسهم خالصين سالمين لله، فهم الذين ظلموا أنفسهم؛ حيث أسلموها لغير الله، وعبدوا دونه، فذلك وضعها في غير موضعها؛ لأن وضعها موضعها هو أن يجعلوها خالصة لله، سالمة له"(١١).

الفوائد:

١- وجوب الاعتبار بأحوال السابقين والاتعاظ بما لاقاه أهل الكفر منهم من عذاب.

٢- انتفاء الظلم عن الله، لقوله تعالى:{فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ}.

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠١):ص١٨٣٧/٦.

(٢)[هود : ٨٠].

(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٢):ص١٨٣٧/٦-١٨٣٨.

(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٣):ص١٨٣٨/٦.

(٥) صفوة التفاسير:٥٠٩/١.

(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٢٢):ص١٨٣٨/٦. كذا الترقيم بالمطبوع!

(٧) التفسير الميسر:١٩٨، وصفوة التفاسير:٥٠٩/١.

(٨) التفسير الميسر:١٩٨، وصفوة التفاسير:٥٠٩/١.

(٩) تفسير السعدي: ٥٢.

(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٢٢):ص١٨٣٨/٦. كذا الترقيم بالمطبوع!

(١١)تأويلات أهل السنة، تفسير الماتريدي: ٢/ ٤٦٢ .

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن العاصي لا يضر الله شيئاً؛ وإنما يظلم نفسه، قال تعالى:{وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}.
٤- أن الله خلق أفعال العباد حسب علمه الذي أحاط بكل شيء، وأن عقاب العبد وثوابه، لا يكون إلا على اكتساب العبد ذلك الفعل والعمل به بعد اختياره على كسب ذلك أو تركه، فإن كان شراً فشر، وإن كان خيراً فخير.
٥- ومن فوائد الآية: أن العذاب ظلم وضر من العباد لأنفسهم كما قال تعالى {وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}، وأما من الله تعالى فانما هو منه عدل وحكمة.

أما العدل فلوقوعه جزاء وفاقا بعد التمكن والانذار وقطع الاعذار والاشهاد والكتابة والوزن بموازين الحق وأمثال ذلك.

وأما الحكمة فللنص على حاجة المتشابه إلى التأويل، وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام بيان أن التأويل بيان وجوه خفية تناسب عقول العقلاء وسيأتي هذا المعنى مبسوطا واضحا في مسألة الحكمة من هذا المختصر إن شاء الله تعالى وسيأتي في مسألة الافعال بيان أن المعاصي من العباد وما ورد في ذلك من نصوص القرآن والسنة الجمة التي لا نزاع فيها ولا معارض لها ومجموع ذلك يقتضي نسبتها ونسبة جميع ما يترتب عليها ويتفرع عنها من شرور الدارين إلى العباد المستحقين للذم والعذاب عليها بالنصوص والاجماع، وأما تقدير الله تعالى لوقوعها باختيار العباد لحكمة فهو مثل سبق علمه بذلك لا يوجب لله تعالى إلا وصف القدرة والعزة[١].

القرآن

{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)} [التوبة : ٧١]

التفسير:

والمؤمنون والمؤمنات بالله ورسوله بعضهم أنصار بعض، يأمرون الناس بالإيمان والعمل الصالح، وينهونهم عن الكفر والمعاصي، ويؤدون الصلاة، ويعطون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله، وينتهون عما نُهوا عنه، أولئك سيرحمهم الله فينقذهم من عذابه ويدخلهم جنته. إن الله عزيز في ملكه، حكيم في تشريعاته وأحكامه.

قوله تعالى:{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [التوبة : ٧١]، أي:" والمؤمنون والمؤمنات بالله ورسوله بعضهم أنصار بعض"[٢].

قال النضر بن شميل: "تفسير المؤمن: إنه آمن من عذاب الله"[٣].

عن قتادة قال: "{المؤمنون}، هم العجاجون بالليل والنهار والله ما زالوا يقولون: ربنا ربنا، حتى استجيب لهم"[٤].

عن جرير بن عبد الله قال: سمعت النبي- صلى عليه وسلم- يقول: «المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة، والطلقاء من قريش، والعتقاء من ثقيف، بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة»"[٥].

قوله تعالى:{يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [التوبة : ٧١]، أي:" يأمرون الناس بالإيمان والعمل الصالح، وينهونهم عن الكفر والمعاصي"[٦].

---

(١) انظر: إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد:١٧٣-١٧٤.
(٢) التفسير الميسر:١٩٨.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٢٢):ص١٨٣٨/٦. كذا الترقيم بالمطبوع!
(٤) اخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٨):ص١٨٣٩/٦.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٢٢):ص١٨٣٨/٦-١٨٣٩.كذا الترقيم بالمطبوع!
(٦) التفسير الميسر:١٩٨.

عن مقاتل بن حيان قوله:"{يأمرون بالمعروف}، قال: يأمرون بطاعة ربهم، {وينهون عن المنكر}، قال: وينهون عن معصيته، يعني: عن معصية ربهم- عز وجل-"[1].

قوله تعالى:{وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ} [التوبة : ٧١]، أي:" ويؤدون الصلاة"[2].

قال الزهري: "إقامتها: أن تصلي الأوقات الخمس لوقتها"[3].

قال الزجاج: " وإقامتها تمامها بجميع فرضها، وأول فروضها صحة الإيمان بها وهذا كقولك: فلان قائم بعلمه الذي وليه، تأويله إنه يوفي العمل حقوقه، ومعنى: {يقيمون} من قولك هذا قوام الأمر"[4].

قوله تعالى:{وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [التوبة : ٧١]، أي:" ويعطون الزكاة"[5].

قوله تعالى:{وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [التوبة : ٧١]، أي:" ويطيعون الله ورسوله في كل أمر ونهي"[6].

قال عطاء:"طاعة الرسول: اتباع الكتاب والسنة"[7].

قوله تعالى:{أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ} [التوبة : ٧١]، أي:" أولئك سيرحمهم الله فينقذهم من عذابه ويدخلهم جنته"[8].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة : ٧١]، أي:" إن الله عزيز في ملكه، حكيم في تشريعاته وأحكامه"[9].

عن أبي العالية في قوله: عزيز حكيم يقول: عزيز في نقمته إذا انتقم حكيم في أمره"[10].

الفوائد:

١- بيان صفات المؤمنين والمؤمنات والتي هي مظاهر إيمانهم وأدلته.
٢- إثبات الولاية بين أهل الحق، وأثبتها بين المؤمنين [تشريعا و] تشريفا في مثل ما في الأنفال وبراءة، فقال: {إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض} [الأنفال: ١٧٢}، {والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض} [التوبة: ٧١].
٣- أن المؤمن يتولى المؤمن في دينه، وجاء عن النبي ﷺ: « لا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا»[11]. فهكذا ينبغي أن يكونوا وليس التفرق من ذلك. وبالله التوفيق.
٤- أهمية صفات أهل الإيمان وهي الولاء لبعضهم بعضا، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة، طاعة الله ورسوله.
٥- فضيلة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

ومن الفوائد: إثبات اسمين من أسماء الله. وهما «العزيز»«الحكيم»:

---

[1] اخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٩):ص١٨٣٩/٦.

[2] التفسير الميسر:١٩٨.

[3]أخرجه ابن أبي حاتم (٦٥٥٠): ص ٤/ ١١٦٢.

[4]معاني القرآن: ٢/ ١٨٣ - ١٨٤.

[5] التفسير الميسر:١٩٨.

[6] انظر: التفسيراليسر:١٩٨، وصفوة التفاسير:٥١٠/١.

[7] اخرجه ابن ابي حاتم(١١١١١):ص١٨٣٩/٦. كذا الترقيم في المطبوع!

[8] التفسير الميسر:١٩٨.

[9] التفسير الميسر:١٩٨.

[10] اخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠١):ص١٨٣٩/٦. كذا الترقيم في المطبوع!

[11]أخرجه البخاري في الصحيح (٦٠٦٤ و ٦٠٦٦ و ٦٠٧٦)، وفي الأدب المفرد (٤٠٨)، ومسلم (٢٥٥٩ و ٢٥٦٣ و ٢٥٦٤)، وأبو داود الطيالسي (٢٠٩١)، وأحمد (٢ ٢٧٧ و ٤٦٩) و (٣ ١٦٥ و ٢٠٩)، والترمذي (١٩٣٥)، وأبو يعلى (٣٦١٢)، والقضاعي في مسنده (٩٣٩)، والطبراني في الصغير (٢٨٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (١١٢٧٦ و ١٤٥٥٠ و ١٦٩٠٦).

- فـ«العزيز»:هو المنيع الذي لا يغلب"[١].
- و«الحكيم»:"هو المحكم لخلق الأشياء، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها[٢].

القرآن

{وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)} [التوبة : ٧٢]

التفسير:

وعد الله المؤمنين والمؤمنات بالله ورسوله جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار ماكثين فيها أبدًا، لا يزول عنهم نعيمها، ومساكن حسنة البناء طيبة القرار في جنات إقامة، ورضوان من الله أكبر وأعظم مما هم فيه من النعيم. ذلك الوعد بثواب الآخرة هو الفلاح العظيم.

قوله تعالى:{وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [التوبة : ٧٢]، أي:" وعد الله المؤمنين والمؤمنات بالله ورسوله جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : وعد الله الذين صدقوا الله ورسوله ، وأقرُّوا به وبما جاء به من عند الله ، من الرجال والنساء، بساتين تجري تحت أشجارها الأنهار"[٤].

قوله تعالى:{خَالِدِينَ فِيهَا} [التوبة : ٧٢]، أي:" ماكثين فيها أبدًا، لا يزول عنهم نعيمها"[٥].

قوله تعالى:{وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ} [التوبة : ٧٢]، أي:" ومساكن حسنة البناء طيبة القرار في جنات إقامة"[٦].

قال الطبري:" يقول : ومنازل يسكنونها طيبةً، وهذه المساكن الطيبة التي وصفها جل ثناؤه ، {في جنات عدن}"[٧].

قال البغوي:" منازل طيبة، {في جنات عدن} أي: بساتين خلد وإقامة، يقال: عدن بالمكان إذا أقام به"[٨].

وقوله تعالى: {وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً} [التوبة : ٧٢]، يحتمل وجهين[٩]:

أحدهما : أن المساكن الطيبة قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر مبنية بهذه الجواهر .

عن الحسن قال : "سألت عمران بن حصين وأبا هريرة عن آية في كتاب الله تبارك وتعالى : {ومساكن طيبة في جنات عدن}، فقالا على الخبير سقطت! سألنا رسول الله ﷺ فقال : قصرٌ في الجنة من لؤلؤ ، فيه سبعون دارًا من ياقوتة حمراء ، في كل دار سبعون بيتًا من زمردة خضراء ، في كل بيت سبعون سريرًا"[١٠].

الثاني : أنها المساكن التي يطيب العيش فيها.

---

[١] شأن الدعاء:٤٧/١-٤٨.
[٢]انظر:شأن الدعاء:٧٢/١-٧٣.
[٣] التفسير الميسر:١٩٨.
[٤] تفسير الطبري:٣٤٨/١٤.
[٥] التفسير الميسر:١٩٨.
[٦] التفسير الميسر:١٩٨.
[٧] تفسير الطبري:٣٤٨/١٤-٣٥٠. [بتصرف]
[٨] تفسير البغوي:٧٣/٤.
[٩] انظر: النكت والعيون:٣٨١/٢.
[١٠] أخرجه الطبري(١٦٩٤٠):ص٣٤٩/١٤.

وفي {جَنَّاتِ عَدْنٍ} [التوبة : ٧٢]، وجوه:
أحدها : أنها جنات خلود وإقامة، ومنه سمي المعدن لإقامة جوهره فيه، ومنه قول الأعشى[(١)]:
وَإِنْ يَسْتَضِيفُوا إِلَى حِلْمِه يُضَافُوا إِلَى رَاجِحٍ قَدْ عَدَن
يعني: ثابت الحلم . وهذا مروي عن ابن عباس[(٢)]، وذكره الطبري[(٣)].
والثاني : أن جنات عدن هي جنات كروم وأعناب بالسريانية ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً[(٤)].
والثالث : أن «عدن» اسم لبطنان الجنة، اي: وسطها ، قاله عبد الله بن مسعود[(٥)].
والرابع : أن «عدن»اسم قصر في الجنة ، قاله عبد الله بن عمرو بن العاص[(٦)]، والحسن[(٧)].
والخامس :أنها مدينة الجنة، فيها الرُّسُل والأنبياء والشهداء ، وأئمة الهدى ، والناس حولهم بعدُ ، والجنات حولها. قاله الضحاك[(٨)].
والسادس: أنها اسم نهر في الجنة ، جنّاته على حافتيه. قاله عطاء[(٩)].
والسابع: أن جنة «عدن» في السماء العليا لا يدخلها إلا نبيّ أو صديق أو شهيد أو إمام عدل، وجنة المأوى في السماء الدنيا تأوي إليها أرواح المؤمنين[(١٠)]. ذكره الماوردي وقال:"رواه معاذ بن جبل مرفوعاً"[(١١)].
وقد روي عن الحسن:" قصرٌ من ذهَب ، لا يدخله إلا نبي ، أو صدّيق ، أو شهيد ، أو حكم عدل"[(١٢)].
والثامن: أنه قيل لها «جنات عدن»، لأنها دارُ الله التي استخلصها لنفسه، ولمن شاء من خلقه.
روي عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : "عدن دارُه، يعني دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر، وهي مسكنه ، ولا يسكنها معه من بني آدم غير ثلاثة : النبيين ، والصديقين ، والشهداء. يقول الله تبارك وتعالى : طوبى لمن دخلك"[(١٣)].
ووفي رواية أخرى عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : "إن الله يفتح الذكرَ في ثلاث ساعات يبقين من الليل ، في الساعة الأولى منهن ينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره ، فيمحو ما يشاء ويثبت. ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن ، وهي في داره التي لم

---

(١)ديوانه : ١٧ ، ومخطوطة ديوانه القصيدة رقم : ١٥ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١ : ٢٦٤ ، واللسان " وزن " ، وهي من كلمته الأولى التي أقبل بها على قيس بن معد يكرب الكندي ، ورواية الديوان " إلى حكمه " ، ولكنها في المخطوطة ومجاز القرآن كما أثبتها ، ولكن المطبوعة كتب " حكمه " . يقول قبله :
ولكنّ رَبِّي كَفَى غُرْبتِي ... بِحَمْدِ الإلَهِ ، فقد بَلَّغَنْ
أَخَا ثِقَةٍ عَالِيًا كَعْبُهُ ... جَزِيلَ العَطاء كَرِيمَ المِنَنْ
كَرِيمًا شَمَائِلُهُ ، مِنْ بَني ... مُعَاوِيةَ الأَكْرَمِينَ السُّنَنْ
فَإِنْ يَتْبَعُوا أَمْرَهُ يَرْشُدُوا ... وَإِنْ يَسْأَلُوا مَالَهُ لا يَضِنّْ
و " استضاف إليه " ، لجأ إليه عند الحاجة..
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٦٩٤٢):ص٣٥١/١٤.
(٣) انظر: تفسير الطبري:٣٥٠/١٤.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٦٩٤٥):ص٣٥٢/١٤.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٦٩٤٦)-(١٦٩٥٢):ص٣٥٣/١٤.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٦٩٥٥)،و(١٦٩٥٦):ص٣٥٤/١٤-٣٥٥.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٦٩٥٣):ص٣٥٤/١٤.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٦٩٥٧):ص٣٥٥/١٤.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٦٩٥٨):ص٣٥٥/١٤.
(١٠)قال ابن القيم:" والصحيح أنه[أي: جنة المأوى] اسم من أسماء الجنة كما قال تعالى {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} وقال في النار {فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} وقال: {وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ}". حادي الأرواح:٩٧.
(١١) انظر: النكت والعيون:٣٨٢/٢. ولم أهتد إلي الحديث.
(١٢) أخرجه الطبري(١٦٩٥٣):ص٣٥٤/١٤.
(١٣) أخرجه الطبري(١٦٩٤٤):ص٣٥٢/١٤.

ترها عين ولم تخطر على قلب بشر ، وهي مسكنه ، ولا يسكن معه من بني آدم غير ثلاثة : النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، ثم يقول : طوبى لمن دخلك ، وذكر في الساعة الثالثة"[١].

فيمكن القول بأن «عَدْن» هي جنةٌ متميزة عن سائر جنان الله التي خلقها الله لعباده الصالحين، فهي جنة أراد الله أن تمتاز عن غيرها من الجنان بشكل خاص رغم أن كل جنان الله هي قمة في الابداع و الجمال و مجتمعة فيها مستلزمات الراحة و الرفاهية التامة.

قوله تعالى:{وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ} [التوبة : ٧٢]، أي:" ورضوان من الله أكبر وأعظم مما هم فيه من النعيم"[٢].

قال الطبري:" معناه : ورضَى الله عنهم أكبر من ذلك كله ، وبذلك جاء الخبر عن رسول الله ﷺ"[٣].

قال البغوي:" أي: رضا الله عنهم أكبر من ذلك"[٤].

عن سعيد بن جبير في قوله: "{ورضوان من الله أكبر}، يعني: إذا أخبروا أن الله عنهم راض فهو أكبر عندهم من التحف والتسليم"[٥].

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : " يقول الله -عز وجل- لأهل الجنة: يا أهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحدا من خلقك، فيقول: أفلا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: ربنا وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا"[٦].

عن حفص ، عن شمر قال : "يجيء القرآن يوم القيامة في صورة الرجل الشاحب ، إلى الرجل حين ينشقُّ عنه قبره ، فيقول : أبشر بكرامة الله! أبشر برضوان الله ! فيقول مثلك من يبشِّر بالخير ؟ ومن أنت ؟ فيقول : أنا القرآن الذي كُنْت أسهِر ليلك ، وأُظمئ نهارك! فيحمله على رقبته حتى يُوافي به ربَّه ، فيمثُلُ بين يديه فيقول : يا رب ، عبدك هذا ، اجزه عني خيرًا ، فقد كنت أسهر ليله ، وأظمئ نهاره ، وآمره فيطيعني ، وأنهاه فيطيعني. فيقول الرب تبارك وتعالى : فله حُلَّة الكرامة. فيقول : أي ربّ ، زدْهُ ، فإنه أهلُ ذلك ! فيقول : فله رِضْواني قال : {ورضوان من الله أكبر}"[٧].

قوله تعالى:{ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة : ٧٢]، أي:" ذلك الوعد بثواب الآخرة هو الفلاح العظيم"[٨].

قال الطبري:" هذه الأشياء التي وعدت المؤمنين والمؤمنات {هو الفوز العظيم}، يقول : هو الظفر العظيم ، والنجاء الجسيم ، لأنهم ظفروا بكرامة الأبد ، ونَجوْا من الهوان في سَقَر ، فهو الفوز العظيم الذي لا شيء أعظم منه"[٩].

عن أبي مالك قوله: "{ذلك}، يعني: هذا"[١٠].

عن مقاتل بن حيان قوله: "{فوزا}، يقول: نصيبا"[١١].

عن سعيد بن جبير:"{عظيما}: وافرا"[١].

---

[١] أخرجه الطبري(١٦٩٤٣):ص٣٥١/١٤.

[٢] التفسير الميسر:١٩٨.

[٣] تفسير الطبري:٣٥٥/١٤.

[٤] تفسير البغوي:٧٣/٤.

[٥] اخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٥٥):ص١٨٤٠/٦.

[٦]أخرجه البخاري في التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة: ١٣ / ٤٨٧، وفي الرقاق أيضا، ومسلم في الجنة الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة برقم (٢٨٢٩) ٤ / ٢١٧٦، والمصنف في شرح السنة: ١٥ / ٢٣١-٢٣، وأخرجه الطبري(١٦٩٥٩):ص٣٥٦/١٤.

[٧] أخرجه الطبري(١٦٩٦٠):ص٣٥٦/١٤.

[٨] التفسير الميسر:١٩٨.

[٩] تفسير الطبري:٣٥٧/١٤.

[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٧):ص١٨٤٠/٦.

[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٨):ص١٨٤١/٦.

الفوائد:
١- من ثمرات الإيمان: الفوز برضا الله، ودار كرامته، إذ أن جزاء أهل الإيمان في الدار الآخرة هو النعيم المقيم في دار الإسلام.
٢- أفضلية رضا الله تعالى على سائر النعيم.
٣- بيان معنى الفوز وهو النجاة من النار، ودخول الجنة.

القرآن
{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣)} [التوبة : ٧٣]
التفسير:
يا أيها النبي جاهد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان والحجة، واشدد على كلا الفريقين، ومقرُّهم جهنم، وبئس المصير مصيرهم.
قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} [التوبة : ٧٣]، أي:" يا أيها النبي جاهد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان والحجة"[٢].
قال السعدي:" أي: بالغ في جهادهم ...وهذا الجهاد يدخل فيه الجهاد باليد، والجهاد بالحجة واللسان، فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد، واللسان والسيف والبيان، ومن كان مذعنا للإسلام بذمة أو عهد، فإنه يجاهد بالحجة والبرهان ويبين له محاسن الإسلام، ومساوئ الشرك والكفر، فهذا ما لهم في الدنيا"[٣].
وفي جهاد المنافقين، ثلاثة أقوال :
أحدها : جهادهم بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه وقلبه ، فإن لم يستطع فليكفهر في وجوههم ، قاله ابن مسعود[٤].
روي عن ابن مسعود في قوله: "{جاهد الكفار والمنافقين}، قال: بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فليكفهرَّ في وجهه"[٥].
والثاني : جهادهم باللسان ، وجهاد الكفار بالسيف ، قاله ابن عباس[٦]، والضحاك[٧].
قال الضحاك:"يقول: جاهد الكفار بالسيف، وأغلظ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم[٨].
والثالث : أن جهاد الكفار بالسيف ، وجهاد المنافقين بإقامة الحدود عليهم ، قاله الحسن[٩]، وقتادة[١٠].
قال الماوردي:"وكانوا أكثر من يصيب الحدود"[١١] .
قال الطبري:" وأولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب، ما قال ابن مسعود: من أنّ الله أمر نبيَه ﷺ من جهاد المنافقين، بنحو الذي أمرَه به من جهاد المشركين.
فإن قال قائل: فكيف تركهم ﷺ مقيمين بين أظْهرِ أصحابه، مع علمه بهم؟

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٩):ص١٨٤١/٦.
(٢) التفسير الميسر:١٩٩.
(٣) تفسير السعدي:٣٤٤.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٦٩٦١):ص٣٥٨/١٤.
(٥) أخرجه الطبري(١٦٩٦١):ص٣٥٨/١٤.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٦٩٦٢):ص٣٥٨/١٤-٣٥٩.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٦٩٦٤):ص٣٥٩/١٤.
(٨) أخرجه الطبري(١٦٩٦٤):ص٣٥٩/١٤.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٦٩٦٥):ص٣٥٩/١٤.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٦٩٦٦):ص٣٥٩/١٤.
(١١) النكت والعيون:٣٨٣/٢.

قيل: إن الله تعالى ذكره إنما أمر بقتال من أظهرَ منهم كلمةَ الكفر، ثم أقام على إظهاره ما أظهر من ذلك. وأمّا مَنْ إذا اطُّلع عليه منهم أنه تكلم بكلمة الكفر وأُخِذ بها، أنكرها ورجع عنها وقال: "إني مسلم"، فإن حكم الله في كلّ من أظهر الإسلام بلسانه، أن يحقِنَ بذلك له دمه وماله، وإن كان معتقدًا غير ذلك، وتوكَّل هو جلّ ثناؤه بسرائرهم، ولم يجعل للخلق البحثَ عن السرائر. فلذلك كان النبيّ ﷺ، مع علمه بهم وإطْلاع الله إياه على ضمائرهم واعتقاد صُدورهم، كان يُقِرّهم بين أظهر الصحابة، ولا يسلك بجهادهم مسلك جهاد من قد ناصبَه الحرب على الشرك بالله، لأن أحدهم كان إذا اطُّلِع عليه أنه قد قال قولا كفر فيه بالله، ثم أخذ به أنكره وأظهر الإسلام بلسانه. فلم يكن ﷺ يأخذه إلا بما أظهر له من قوله، عند حضوره إياه وعزمه على إمضاء الحكم فيه، دون ما سلف من قولٍ كان نطقَ به قبل ذلك، ودون اعتقاد ضميرِه الذي لم يبح الله لأحَدٍ الأخذ به في الحكم، وتولَّى الأخذَ به هو دون خلقه"[1].

قوله تعالى:{وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [التوبة : ٧٣]، أي:" واشدد على كلا الفريقين"[2].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: واشدد عليهم بالجهاد والقتال والإرْهاب"[3].

قال السعدي:أي:وبالغ في" الغلظة عليهم حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم "[4].

عن ابن عباس قوله: "{واغلظ عليهم}، يقول: أذهب الرفق عنهم"[5].

عن الضحاك قوله: "{واغلظ عليهم}، قال: واغلظ على المنافقين بالكلام"[6].

ويحتمل قوله تعالى:{وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [التوبة : ٧٣]، وجهين[7]:

أحدهما : تعجيل الانتقام منهم.

والثاني : ألا يصدق لهم قولاً ، ولا يبر لهم قسماً .

قوله تعالى:{وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ} [التوبة : ٧٣]، أي:" ومقرُّهم جهنم"[8].

قال الطبري:" يقول: ومساكنهم جهنم وهي مثواهم ومأواهم"[9].

قال السعدي:" {و} أما في الآخرة، فـ {مأواهم جهنم} أي: مقرهم الذي لا يخرجون منها"[10].

عن محمد بن إسحاق:"{وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ } النار، أي: فلا تظنوا أن لهم عاقبة نصر ولا ظهور عليكم، ما اعتصمتم بي، واتبعتم أمري، للمعصية التي أصابتكم منهم بذنوب قدمتموها لأنفسكم"[11].

قوله تعالى:{وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [التوبة : ٧٣]، أي:" وبئس المصير مصيرهم"[12].

قال الطبري:" يقول: وبئس المكان الذي يُصَار إليه جهنَّمُ"[13].

قال أبو السعود: " أي بئس المصيرُ النارُ أو عذابُها"[14].

عن ابن أبي نجيح قوله: "{وبئس المصير}، قال: مصير الكافر إلى النار، قال ابن أبي نجيح: سمعته من عكرمة فعرضته على مجاهد فلم ينكره"[1].

---

(١) تفسير الطبري:٣٥٩/١٤-٣٦٠.
(٢) التفسير الميسر:١٩٩.
(٣) تفسير الطبري:٣٦٠/١٤.
(٤) تفسير السعدي:٣٤٤.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٠٦):ص١٨٤٢/٦.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٠٧):ص١٨٤٢/٦.
(٧) انظر: النكت والعيون:٣٨٣.
(٨) التفسير الميسر:١٩٩.
(٩) تفسير الطبري:٣٦٠/١٤.
(١٠) تفسير السعدي:٣٤٤.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٠٨):ص١٨٤٢/٦.
(١٢) التفسير الميسر:١٩٩.
(١٣) تفسير الطبري:٣٦٠/١٤.
(١٤)تفسير أبي السعود: ١/ ١٥٩.

قال عطاء: "نسخت هذه الآية كل شيء من العفو والصفح"[٢].

الفوائد:

١- بيان آية السيف وهي {يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين}.

٢- ومن الفوائد: إثبات اليوم الآخر.

٣- ومنها: الثناء على النار بهذا الذم، وأنها بئس المصير؛ فكل إنسان يسمع هذا من كلام الله عزّ وجلّ سوف ينفر من هذه النار، ولا يعمل عمل أهلها.

القرآن

{يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)} [التوبة : ٧٤]

التفسير:

يحلف المنافقون بالله أنهم ما قالوا شيئًا يسيء إلى الرسول وإلى المسلمين، إنهم لكاذبون؛ فلقد قالوا كلمة الكفر وارتدوا بها عن الإسلام وحاولوا الإضرار برسول الله محمد ﷺ، فلم يمكنهم الله من ذلك، وما وجد المنافقون شيئًا يعيبونه، وينتقدونه، إلا أن الله -تعالى- تفضل عليهم، فأغناهم بما فتح على نبيه ﷺ من الخير والبركة، فإن يرجع هؤلاء الكفار إلى الإيمان والتوبة فهو خير لهم، وإن يعرضوا، أو يستمروا على حالهم، يعذبهم الله العذاب الموجع في الدنيا على أيدي المؤمنين، وفي الآخرة بنار جهنم، وليس لهم منقذ ينقذهم ولا ناصر يدفع عنهم سوء العذاب.

سبب النزول:

أ-في سبب نزول قوله تعالى: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا}[التوبة : ٧٤]، أقوال:

أحدها : أنها نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت ، قال : إن كان ما جاء به محمد حقاً فنحن شر من الحمير ، ثم حلف أنه ما قال ، وهذا قول عروة[٣]، وابن إسحاق[٤].

عن عروة:" {يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر}، قال: نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت، قال: "إن كان ما جاء به محمد حقًّا، لنحن أشرُّ من الحُمُر! "، فقال له ابن امرأته: والله، يا عدو الله، لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت، فإني إن لا أفعل أخاف أن تصيبني قارعةٌ، وأؤاخذ بخطيئتك! فدعا النبي ﷺ الجلاس، فقال: "يا جُلاس، أقلت كذا وكذا؟ فحلف ما قال، فأنزل الله تبارك وتعالى: {يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهمُّوا بما لم ينالوا وما نَقَموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله}"[٥].

والثاني : أنه عبد الله بن أبي بن سلول . قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قاله قتادة[٦].

عن قتادة قوله : "{يحلفون بالله ما قالوا}، إلى قوله : {من وليّ ولا نصير}، قال : ذكر لنا أنّ رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة ، والآخر من غِفار ، وكانت جهينة حلفاء ، الأنصار ، وظهر الغفاريّ على الجهنيّ ، فقال عبد الله بن أبيّ للأوس : انصروا أخاكم ، فوالله ما مثلنا ومَثَلُ محمد إلا كما قال القائل : " سمِّن كلبك يأكلك " ، وقال : {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ} [سورة المنافقون : ٨] ، فسعى بها رجل من المسلمين إلى نبيّ الله صلى الله

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٠٩):ص١٨٤٢/٦.

[٢] تفسير البغوي:٧٤/٤.

[٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٩٦٧):ص٣٦١/١٤.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٩٦٩):ص٣٦٢/١٤-٣٦٣.

[٥] أخرجه الطبري(١٦٩٦٧):ص٣٦١/١٤.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٦٩٧٤)، (١٦٩٧٥):ص٣٦٤/١٤.

عليه وسلم ، فأرسل إليه فسأله ، فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله تبارك وتعالى : (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر"[١].

والثالث : أنهم جماعة من المنافقين قالوا ذلك ، قاله الحسن[٢].

وروي عن ابن عباس قال : "كان رسول الله ﷺ جالسًا في ظلّ شجرة ، فقال : إنه سيأتيكم إنسانٌ فينظر إليكم بعيني شيطان ، فإذا جاء فلا تكلموه. فلم يلبث أن طلَع رجل أزرقُ ،فدعاه رسول الله ﷺ ، فقال : علامَ تشتمني أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه ، فحلفوا بالله ما قالوا وما فعلوا ، حتى تجاوَز عنهم ، فأنزل الله : (يحلفون بالله ما قالوا) ، ثم نعتهم جميعًا ، إلى آخر الآية"[٣].

وروي عن مجاهد[٤]، أنها نزلت في رجل دون تحديد الإسم.

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله تعالى أخبر عن المنافقين أنّهم يحلفون بالله كذبًا على كلمة كُفْر تكلموا بها أنهم لم يقولوها. وجائز أن يكون ذلك القول ما روي عن عروة : أن الجلاس قاله وجائز أن يكون قائله عبد الله بن أبي ابن سلول ، والقول ما ذكر قتادة عنه أنه قال، ولا علم لنا بأيّ ذلك من أيٍّ ، إذ كان لا خبر بأحدهما يوجب الحجة ، ويُتوصَّل به إلى يقين العلم به ، وليس مما يدرك علمه بفطرة العقل ، فالصواب أن يقال فيه كما قال الله جل ثناؤه : (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم}"[٥].

إسلامهم}"[٥].

ب- سبب نزول قوله تعالى: {وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا}[التوبة : ٧٤]:

قال الضحاك: "هموا أن يدفعوا النبي - ﷺ - ليلة العقبة وكانوا قوما قد أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله - ﷺ – وهم معه، يلتمسون غرته حتى أخذ في عقبة، فتقدم بعضهم وتأخر بعضهم وذلك كان ليلا قالوا: إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي، وكان قائده في تلك الليلة عمار بن ياسر وسائقه حذيفة فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل، فالتفت فإذا هو بقوم متلثمين، فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله؛ فأمسكوا، ومضى النبي عليه الصلاة والسلام حتى نزل منزله الذي أراد، فأنزل الله تعالى قوله: {وهموا بما لم ينالوا}"[٦].

ت-سبب نزول قوله تعالى:{وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ}[التوبة : ٧٤]:

قال عكرمة:"قضى النبي ﷺ بالدية اثنى عشر ألفًا في مولى لبني عديّ بن كعب ، وفيه أنزلت هذه الآية : {وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله}"[٧].

عن عمرو قال: "سمعت عكرمة: أن مولى لبني عدي بن كعب قتل رجلا من الأنصار، فقضى رسول الله ﷺ بالدية اثنى عشر ألفا ، وفيه أنزلت: {وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله}، قال عمرو: لم أسمع هذا عن النبي ﷺ إلا من عكرمة، يعني : الدية اثني عشر ألفًا"[٨].

وروي عن ابن عباس : "أن النبيّ ﷺ جعل الدية اثني عشر ألفًا. فذلك قوله : {وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله}، قال : بأخذ الديّة"[٩].

قوله تعالى:{يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا} [التوبة : ٧٤]، أي:" يحلف المنافقون بالله أنهم ما قالوا شيئًا يسيء إلى الرسول وإلى المسلمين"[١].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٦٩٧٤):ص٣٦٤/١٤.
[٢] انظر: النكت والعيون:٣٨٣/٢.
[٣] أخرجه الطبري(١٦٩٧٣):ص٣٦٣/١٤.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٦٩٧٠):ص٣٦٣/١٤.
[٥] تفسير الطبري:٣٦٣/١٤-٣٦٤.
[٦] أسباب النزول للواحدي:٢٥١-٢٥٢.
[٧] أخرجه الطبري(١٦٩٨٠):ص٣٦٦/١٤-٣٦٧.
[٨] أخرجه الطبري(١٦٩٨٢):ص٣٦٧/١٤.
[٩] أخرجه الطبري(١٦٩٨٣):ص٣٦٧/١٤.

قال السعدي:" أي: إذا قالوا قولا كقول من قال منهم {ليخرجن الأعز منها الأذل} والكلام الذي يتكلم به الواحد بعد الواحد، في الاستهزاء بالدين، وبالرسول، فإذا بلغهم أن النبي ﷺ قد بلغه شيء من ذلك، جاءوا إليه يحلفون بالله ما قالوا"[٢].

قوله تعالى:{وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ} [التوبة : ٧٤]، أي:" فلقد قالوا كلمة الكفر"[٣].

قال السعدي:" قال تعالى مكذبا لهم: {ولقد قالوا كلمة الكفر}"[٤].

قوله تعالى:{وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ} [التوبة : ٧٤]، أي:" أظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام"[٥].

قال السعدي:" فإسلامهم السابق -وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر -فكلامهم الأخير ينقض إسلامهم، ويدخلهم بالكفر"[٦].

قوله تعالى:{وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا} [التوبة : ٧٤]، أي:" وحاولوا الإضرار برسول الله محمد ﷺ، فلم يمكنهم الله من ذلك"[٧].

قال السعدي:" وذلك حين هموا بالفتك برسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقص الله عليه نبأهم، فأمر من يصدهم عن قصدهم"[٨].

وفي قوله تعالى:{وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا} [التوبة : ٧٤]، ثلاثة وجوه:

أحدها : أن المنافقين هموا بقتل الذي أنكر عليهم ، قاله مجاهد[٩].

، قال مجاهد: "همَّ المنافق بقتله، يعني: قتل المؤمن الذي قال له :أنت شر من الحمار! فذلك قوله : {وهموا بما لم ينالوا}"[١٠].

والثاني : أن الذي همّ ، عبد الله بن أبي ابن سلول ، وكان همُّه الذي لم ينله ، قوله : {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْهَا الأذَلَّ} [سورة المنافقون : ٨]. وهذا قول قتادة[١١].

والثالث : أنهم هموا بقتل النبي -ﷺ- ، وهذا مروي عن مجاهد أيضاً[١٢].

عن مجاهد في قوله : "{وهموا بما لم ينالوا}، قال : رجل من قريش ، همّ بقتل رسول الله ﷺ ، يقال له : " الأسود"[١٣].

قوله تعالى:{وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ} [التوبة : ٧٤]، أي:" وما وجد المنافقون شيئًا يعيبونه، وينتقدونه، إلا أن الله -تعالى- تفضل عليهم، فأغناهم بما فتح على نبيه ﷺ من الخير والبركة"[١٤].

قال الطبري:" ذكر لنا أن المنافق الذي ذكر الله عنه أنه قال كلمة الكفر ، كان فقيرًا فأغناه الله بأن قُتِل له مولًى ، فأعطاه رسول الله ديتَه. فلما قال ما قال ، قال الله تعالى : {وما نقموا}، يقول : ما أنكروا على رسول الله ﷺ شيئًا ، {إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله}"[١٥].

---

[١] التفسير الميسر:١٩٩.
[٢] تفسير السعدي:٣٤٤.
[٣] التفسير الميسر:١٩٩.
[٤] تفسير السعدي:٣٤٤.
[٥] صفوة التفاسير:٥١٠/١.
[٦] تفسير السعدي:٣٤٤.
[٧] التفسير الميسر:١٩٩.
[٨] تفسير السعدي:٣٤٤.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٦٩٧٦):ص٣٦٥/١٤.
[١٠] أخرجه الطبري(١٦٩٧٦):ص٣٦٥/١٤.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٦٩٧٤):ص٣٦٤/١٤.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٦٩٧٨):ص٣٦٦/١٤.
[١٣] أخرجه الطبري(١٦٩٧٨):ص٣٦٦/١٤.
[١٤] التفسير الميسر:١٩٩.
[١٥] تفسير الطبري:٣٦٦/١٤.

قال السعدي:أي:" {و} الحال أنهم {ما نقموا} وعابوا من رسول الله ﷺ {إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله} بعد أن كانوا فقراء معوزين، وهذا من أعجب الأشياء، أن يستهينوا بمن كان سببا لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومغنيا لهم بعد الفقر، وهل حقه عليهم إلا أن يعظموه، ويؤمنوا به ويجلوه؟ " فاجتمع الداعي الديني وداعي المروءة الإنسانية"[١].

قال ابن كثير:" أي : وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سفارته ، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به ، كما قال ، عليه السلام للأنصار : «ألم أجدكم ضُلالا فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟»[٢] كلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أمن.

وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كما قال تعالى : { وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } [البروج : ٨] وكما قال ، عليه السلام :«ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيرا فأغناه الله»[٣]"[١].

---

[١] تفسير السعدي:٣٤٤.

[٢] الحديث: عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: لما أفاء الله على رسوله يوم حنين ما أفاء، قال: قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يقسم ولم يعط الأنصار شيئا، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: " يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فجمعكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي "، قال: كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن، قال: " ما يمنعكم أن تجيبوني؟ "، قالوا: الله ورسوله أمن، قال: " لو شئتم لقلتم جئتنا كذا وكذا، ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار لو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبهم، الأنصار شعار والناس دثار، وإنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض ".

أخرجه احمد(١٦٤٧٠):ص٣٩٢/٢٦-٣٩٣، وإسناده صحيح على شرط الشيخين. وأخرجه ابن أبي شيبة ١٦٢/١٢ و٥٣٣/١٤ عن عفان بن مسلم الصفار، بهذا الإسناد.

وأخرجه البخاري (٤٣٣٠) و (٧٢٤٥) عن موسى بن إسماعيل، عن وهيب ابن خالد، به.

وأخرجه مسلم (١٠٦١) ، وابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (١٧١٩) و (١٧٢٢) و (١٧٢٩) و (١٧٣٣) ، والبيهقي في "السنن" ٣٣٩/٦ من طرق عن عمرو بن يحيى، به.

[٣] الحديث: عن أبي هريرة، قال: بعث رسول الله ﷺ عمر على الصدقة، فقيل: منع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس عم النبي ﷺ. فقال النبي ﷺ: " ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيرا فأغناه الله، وأما خالد، فإنكم تظلمون خالدا، فقد احتبس أدراعه في سبيل الله، وأما العباس فهي علي ومثلها ". ثم قال: " أما علمت أن عم الرجل صنو أبيه".

المسند(٨٧٨٤):ص٣٨/١٤-٣٩.

إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير علي بن حفص، فمن رجال مسلم. ورقاء: هو ابن عمر اليشكري، وأبو الزناد: هو عبد الله بن ذكوان.

وأخرجه البيهقي ١١١/٤ من طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه، بهذا الإسناد.

وأخرجه مسلم (٩٨٣) من طريق علي بن حفص، به.

وأخرجه أبو داود (١٦٢٣) ، والترمذي (٣٧٦١) ، وابن خزيمة (٢٣٣٠) ، وابن حبان (٣٢٧٣) ، والدارقطني ٢٣/١٢، والبيهقي ١٦٣/٦-١٦٤ من طريق شبابة بن سوار، عن ورقاء بن عمر اليشكري، به. ورواية الترمذي مختصرة بلفظ: "العباس عم رسول الله، وإن عم الرجل صنو أبيه، أو من صنو أبيه". وقال: حسن صحيح غريب.

وأخرجه البخاري (١٤٦٨) ، ومن طريقه البغوي (١٥٧٨) ، وأخرجه البيهقي ١٦٤/٦ من طريق شعيب بن أبي حمزة، عن أبي الزناد، به. وفيه: "فهي عليه صدقة ومثلها معها" وليس فيه ذكر العم صنو الأب.

وأخرجه النسائي ٣٤/٥، وابن خزيمة (٢٣٢٩) ، والبيهقي ١٦٤/٦ من طريق موسى بن عقبة، عن أبي الزناد، به. وفيه: "فهي له ومثلها معها". وليس فيه ذكر العم صنو الأب.

وأخرجه الدارقطني ١٢٣/٢ من طريق ابن إسحاق، عن أبي الزناد، به. وفيه: "فهي على ومثلها معها هي له" وليس فيه ذكر العم صنو الأب. ولم يصرح ابن إسحاق بالسماع.

وأخرجه البيهقي ١٦٤/٦ من طريق أبي أويس عبد الله بن عبد الله الأصبحي، عن أبي الزناد، به. وفيه: "فهي عليه ومثلها معها" ولم يذكر العم صنو الأب.

عن عروة:" {وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله}، وكان الجلاس قُتِل له مولًى ، فأمر له رسول الله ﷺ بديته ، فاستغنى ، فذلك قوله : {وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله}"(٢).

قوله تعالى:{فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ} [التوبة : ٧٤]، أي:" فإن يرجع هؤلاء الكفار إلى الإيمان والتوبة فهو خير لهم"(٣).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : فإن يتب هؤلاء القائلون كلمة الكفر من قِيلهم الذي قالوه فرجعوا عنه ، يك رجوعهم وتوبتهم من ذلك ، خيرًا لهم من النفاق"(٤).

قال السعدي:" لأن التوبة، أصل لسعادة الدنيا والآخرة"(٥).

قوله تعالى:{وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} [التوبة : ٧٤]، أي:" وإن يعرضوا، أو يستمروا على حالهم، يعذبهم الله العذاب الموجع في الدنيا على أيدي المؤمنين، وفي الآخرة بنار جهنم"(٦).

قال الطبري:" يقول : وإن يدبروا عن التوبة ، فيأتوها ويصرُّوا على كفرهم ، {يعذبهم الله عذابًا أليمًا}، يقول : يعذبهم عذابًا موجعًا في الدنيا ، إما بالقتل ، وإما بعاجل خزي لهم فيها ، ويعذبهم في الآخرة بالنار"(٧).

وأخرجه النسائي ٣٣/٥-٣٤، وابن خزيمة بإثر الحديث (٢٣٣٠) من طريق علي بن عياش الحمصي، عن شعيب بن أبي حمزة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، قال: قال عمر: فذكره. وفيه: "فهي عليه صدقة ومثلها معها" رواية ابن خزيمة مختصرة.

قال الحافظ في "الفتح" ٣٣٢/٣ عن هذا الطريق: وزاد فيه عمر، والمحفوظ أنه من مسند أبي هريرة، وإنما جرى لعمر فيه ذكر فقط.

وأخرجه عبد الرزاق في "المصنف" (٦٨٢٦) عن ابن جريج، قال: حدثت حديثا رفع إلى عبد الرحمن الأعرج، عن أبي هريرة. وفيه: "فهي عليه ومثلها معها"، وقال فيه أيضا: "أبو جهم بن حذيفة"، بدل: "ابن جميل"، وإسناده ضعيف.

قلنا: وأصح هذه الروايات رواية ورقاء بن عمر اليشكري، وغيرها إما مؤولة وإما وهم، وقد روي من طرق ضعيفة أن النبي ﷺ كان قد استسلف العباس صدقة عامين لحاجة، أورد هذه الطرق الحافظ ابن حجر في "الفتح" ٣٣٣/٣-٣٣٤، وقال: وليس ثبوت هذه القصة في تعجيل صدقة العباس ببعيد في النظر بمجموع هذه الطرق، والله أعلم. وانظر "صحيح ابن خزيمة" ٤٩/٤، و"صحيح ابن حبان" ٦٩/٨، و"سنن البيهقي" ١١١/٤.

ويحتمل أن العباس هو الذي سأل تعجيل صدقة عامين إليه ﷺ كما سلف عن علي برقم (٨٢٢) بإسناد حسن، لكن قال ابن خزيمة: في القلب منه، يعني: شيء!

وفي باب قوله: "عم الرجل صنو أبيه" عن علي بن أبي طالب، سلف برقم (٧٢٥) ، وعن عبد المطلب بن ربيعة، سيأتي ١٦٥/٤.

قوله: "صنو أبيه"، قال السندي: بكسر صاد وسكون نون، أي: مثله، وأصل الصنو: أن تطلع نخلتان في عرق واحد، يريد أن أصل العباس وأصل أبي واحد، وهو مثل أبي. وقوله: "ما ينقم"، أي: ما ينكر، أو يكره.

وقوله: "تظلمون خالدا"، قال الحافظ: أي: بنسبتكم إياه إلى المنع وهو لا يمنع، وكيف يمنع الفرض وقد تطوع بتحبيس سلاحه وخيله!

وقيل: إنهم ظنوا أنها للتجارة فطالبوه بزكاة قيمتها، فأعلمهم عليه الصلاة والسلام بأنه لا زكاة عليه فيما حبس.

وقيل: إنه كان نوى بإخراجها عن ملكه الزكاة عن ماله، لأن أحد الأصناف سبيل الله، وهم المجاهدون. وانظر تتمة التفصيل في المعنى في "الفتح" ٣٣٤/٣.

(١) تفسير ابن كثير:١٨٣/٤.

(٢) أخرجه الطبري(١٦٩٧٩):ص٣٦٦/١٤.

(٣) التفسير الميسر:١٩٩.

(٤) تفسير الطبري:٣٦٧/١٤-٣٦٨.

(٥) تفسير السعدي:٣٤٤.

(٦) التفسير الميسر:١٩٩.

(٧) تفسير الطبري:٣٦٨/١٤.

قال السعدي:" {وإن يتولوا} عن التوبة والإنابة {يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا والآخرة} في الدنيا بما ينالهم من الهم والغم والحزن على نصرة الله لدينه، وإعزار نبيه، وعدم حصولهم على مطلوبهم، وفي الآخرة، في عذاب السعير"[١].

عن عروة:"{فإن يتوبوا يك خيرًا لهم} ، قال : قال الجلاس : قد استثنى الله لي التوبة ، فأنا أتوب. فقبل منه رسول الله ﷺ"[٢].

قوله تعالى:{وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [التوبة : ٧٤]، أي:" وليس لهم منقذ ينقذهم ولا ناصر يدفع عنهم سوء العذاب"[٣].

قال الطبري:" يقول : وما لهؤلاء المنافقين إن عذبهم الله عاجل الدنيا (من ولي) ، يواليه على منعه من عقاب الله {ولا نصير} ينصره من الله فينقذه من عقابه. وقد كانوا أهل عز ومنعة بعشائرهم وقومهم ، يمتنعون بهم من أرادهم بسوء ، فأخبر جل ثناؤه أن الذين كانوا يمنعونهم ممن أرادهم بسوء من عشائرهم وحلفائهم ، لا يمنعونهم من الله ولا ينصرونهم منه ، إن احتاجوا إلى نصرهم"[٤].

قال السعدي:أي:[مِنْ وَلِيٍّ]" يتولى أمورهم، ويحصل لهم المطلوب، {ولا نصير} يدفع عنهم المكروه، وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى، فثم أصناف الشر والخسران، والشقاء والحرمان"[٥].

الفوائد:

١- تقرير مبدأ الردة وهي أن يقول المسلم كلمة الكفر فيكفر بها وذلك كالطعن في الإسلام أو سب الله أو رسوله ﷺ أو التكذيب بما أمر الله تعالى بالإيمان به والتصديق بضده أي بما أمر الله بتكذيبه.
٢- تقرير مبدأ التوبة من كل الذنوب، وأن من تاب تقبل توبته.
٣- الوعيد الشديد لمن يصر على الكفر ويموت عليه.

القرآن

{وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)} [التوبة : ٧٥]

التفسير:

ومن فقراء المنافقين مَن يقطع العهد على نفسه: لئن أعطاه الله المال ليصدَّقنَّ منه، وليعمَلنَّ ما يعمل الصالحون في أموالهم، وليسيرَنَّ في طريق الصلاح.

سبب النزول:

في سبب نزول الآيتين[٧٤-٧٥]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أن هذه الآية والتي بعدها نزلت في ثعلبة ابن حاطب الأنصاري . وفي سبب نزولها قولان :

القول الأول: أنه كان له مال بالشام خاف هلاكه فنذر أن يتصدق منه ، فلما قدم عليه بخل به ، قاله الكلبي[٦].

وروي عن ابن عباس قوله : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله) ، الآية ، وذلك أن رجلا يقال له : " ثعلبة بن حاطب " ، من الأنصار ، أتى مجلسًا فأشهدهم فقال : لئن آتاني الله من فضله ، آتيت منه كل ذي حقٍّ حقه ، وتصدّقت منه ، ووصلت منه القرابة! فابتلاه الله

---

[١] تفسير السعدي:٣٤٤.
[٢] أخرجه الطبري(١٦٩٨٤):ص٣٦٨/١٤.
[٣] التفسير الميسر:١٩٩.
[٤] تفسير الطبري:٣٦٨/١٤.
[٥] تفسير السعدي:٣٤٤.
[٦] انظر: النكت والعيون:٣٨٤/٢.

فآتاه من فضله ، فأخلف الله ما وعدَه ، وأغضبَ الله بما أخلفَ ما وعده. فقصّ الله شأنه في القرآن : {ومنهم من عاهد الله} ، الآية ، إلى قوله : {يكذبون}"[1].

عن أبي أمامة الباهلي :"عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري ، أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ادع الله أن يرزقني مالا! فقال رسول الله ﷺ : ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدِّي شكره ، خير من كثير لا تطيقه! قال : ثم قال مرة أخرى ، فقال : أما ترضى أن تكون مثل نبيِّ الله ، فوالذي نفسي بيده ، لو شئتُ أن تسيرَ معي الجبال ذهبًا وفضة لسارت! قال : والذي بعثك بالحق لئن دعوتَ الله فرزقني مالا لأعطينّ كلّ ذي حق حقه ! فقال رسول الله ﷺ : اللهم ارزق ثعلبه مالا! قال : فاتَّخذ غنمًا ، فنمت كما ينمو الدُّود ، فضاقت عليه المدينة ، فتنحَّى عنها ، فنزل واديًا من أوديتها ، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ، ويترك ما سواهما. ثم نمت وكثرت ، فتنحّى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهي تنمو كما ينمو الدود ، حتى ترك الجمعة. فطفق يتلقَّى الركبان يوم الجمعة ، يسألهم عن الأخبار ، فقال رسول الله ﷺ : ما فعل ثعلبة ؟ فقالوا : يا رسول الله ، اتخذ غنمًا فضاقت عليه المدينة! فأخبروه بأمره ، فقال : يا ويْحَ ثعلبة ! يا ويح ثعلبه ! يا ويح ثعلبة! قال : وأنزل الله : {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً} [سورة التوبة : ١٠٣] الآية ، ونزلت عليه فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة ، رجلا من جهينة ، ورجلا من سليم ، وكتب لهما كيفَ يأخذان الصدقة من المسلمين ، وقال لهما : مرَّا بثعلبة ، وبفلان ، رجل من بني سليم ، فخذا صدقاتهما ! فخرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة ، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ ، فقال : ما هذه إلا جزية! ما هذه إلا أخت الجزية! ما أدري ما هذا ! انطلقا حتى تفرُغا ثم عودا إليّ. فانطلقا ، وسمع بهما السُّلمي ، فنظر إلى خِيار أسنان إبله ، فعزلها للصدقة ، ثم استقبلهم بها. فلما رأوها قالوا : ما يجب عليك هذا ، وما نريد أن نأخذ هذا منك. قال : بلى ، فخذوه ، فإنّ نفسي بذلك طيّبة ، وإنما هي لي! فأخذوها منه. فلما فرغا من صدقاتهما رجعا ، حتى مرَّا بثعلبة ، فقال : أروني كتابكما ! فنظر فيه ، فقال : ما هذه إلا أخت الجزية! انطلقا حتى أرى رأيي. فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ ، فلما رآهما قال : يا ويح ثعلبة ! قبل أن يكلِّمهما ، ودعا للسلميّ بالبركة ، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة ، والذي صنع السلميّ ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيه : {ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين}، إلى قوله : {وبما كانوا يكذبون}، وعند رسول الله رجلٌ من أقارب ثعلبة ، فسمع ذلك ، فخرج حتى أتاه ، فقال : ويحك يا ثعلبة! قد أنزل الله فيك كذا وكذا ! فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ ، فسأله أن يقبل منه صدقته. فقال : إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك ! فجعل يَحْثِي على رأسه التراب ، فقال له رسول الله ﷺ : هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعني! فلما أَبَى أن يقبض رسولُ الله ﷺ ، رجع إلى منزله ، وقُبِض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئًا. ثم أتى أبا بكر حين اسْتخلِف ، فقال : قد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ ، وموضعي من الأنصار ، فاقبل صدقتي ! فقال أبو بكر : لم يقبلها رسول الله ﷺ وأنا أقبلها! فقُبِض أبو بكر ، ولم يقبضها. فلما ولي عمر ، أتاه فقال : يا أمير المؤمنين ، اقبل صدقتي ! فقال : لم يقبلها رسولُ الله ﷺ ولا أبو بكر ، وأنا أقبلها منك ! فقُبِض ولم يقبلها ، ثم ولي عثمان رحمة الله عليه ، فأتاه فسأله أن يقبل صدقته فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر رضوان الله عليهما وأنا أقبلها منك ! فلم يقبلها منه. وهلك ثَعْلبة في خلافة عثمان رحمة الله عليه"[2].

والثاني : أن مولى لعمر قتل رجلاً لثعلبة فوعد إن أوصل الله الدية إليه أخرج حق الله تعالى منها ، فلما وصلت إليه بخل بحق الله تعالى أن يخرجه ، قاله مقاتل[3].

والثاني: أنها نزلت في رجلين : أحدهما ثعلبة ، والآخر معتب بن قشير. وهذا قول الحسن[4].

---

(١) أخرجه الطبري(١٦٩٨٦):ص١٤/٣٧٠.

(٢) أخرجه الطبري(١٦٩٨٧):ص١٤/٣٧٠-٣٧١.

(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١٨٤/٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري(١٦٩٩٠):ص١٤/٣٧٤-٣٧٥.

عن الحسن : "{ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله} الآية ، وكان الذي عاهد الله منهم : ثعلبة بن حاطب ، ومعتب بن قشير ، وهما من بني عمرو بن عوف"[١].

وروي عن مجاهد في قول الله : "{ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله}، قال رجلان خرجا على ملأ قُعُود فقالا والله لئن رزقنا الله لنصدقن ! فلما رزقهم بخلوا به"[٢].

والثالث: أنها نزلت صنف من المنافقين. وهذا قول ابن زيد[٣].

قال ابن زيد في قوله : "{ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله} الآية ، قال : هؤلاء صنف من المنافقين ، فلما آتاهم ذلك بخلوا به ، فلما بخلوا بذلك أعقبهم بذلك نفاقًا إلى يوم يلقونه ، ليس لهم منه توبة ولا مغفرة ولا عفو ، كما أصاب إبليس حين منعه التوبة"[٤].

قوله تعالى:{وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ} [التوبة : ٧٥]، أي:" ومن فقراء المنافقين مَن يقطع العهد على نفسه: لئن أعطاه الله المال ليصدَّقنَّ منه"[٥].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : ومن هؤلاء المنافقين الذين وصفت لك ، يا محمد ، صفتهم أعطى الله عهدًا : لئن أعطانا الله من فضله ، ورزقنا مالا ووسَّع علينا من عنده، لنخرجن الصدقة من ذلك المال الذي رزقنا ربُّنا" [٦]..."وقال قوم : كان العهد الذي عاهد الله هؤلاء المنافقون ، شيئًا نووه في أنفسهم ، ولم يتكلموا به"[٧].

قال ابن كثير:" يقول تعالى : ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه : لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله"[٨].

قال السعدي:" أي: ومن هؤلاء المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه {لئن آتانا من فضله} من الدنيا فبسطها لنا ووسعها {لنصدقن} "[٩].

عن معتمر بن سليمان التيمي يقول : ركبت البحرَ ، فأصابنا ريحٌ شديدة ، فنذر قوم منا نذورًا ، ونويت أنا ، لم أتكلم به. فلما قدمت البصرة سألت أبي سليمانَ فقال لي : يا بُنَيّ ، فِ به. قال معتمر : وحدثنا كهمس ، عن سعيد بن ثابت قال قوله : {ومنهم من عاهد الله} ، الآية ، قال : إنما هو شيء نووه في أنفسهم ولم يتكلموا به ، ألم تسمع إلى قوله : {ألم يعلموا أن الله يعلم سِرَّهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب}؟"[١٠].

قوله تعالى:{وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ} [التوبة : ٧٥]، أي:" وليعمَلَنَّ ما يعمل الصالحون في أموالهم، وليسيرَنَّ في طريق الصلاح"[١١].

قال الطبري:"يقول : ولنعملنّ فيها بعَمَل أهل الصلاح بأموالهم ، من صلة الرحم به ، وإنفاقه في سبيل الله"[١٢].

عن عبد الله بن عمرو قال : "ثلاث من كن فيه كان منافقًا : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان. قال : وتلا هذه الآية : {ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين}، إلى آخر الآية"[١٣].

الفوائد:

---

[١] أخرجه الطبري(١٦٩٩٠):ص١٤/٣٧٤-٣٧٥.

[٢] أخرجه الطبري(١٦٩٩١):ص١٤/٣٧٥.

[٣] انظر: تفسير الطبري(١٦٩٩٤):ص١٤/٣٧٥.

[٤] أخرجه الطبري(١٦٩٩٤):ص١٤/٣٧٥.

[٥] التفسير الميسر:١٩٩.

[٦] تفسير الطبري:١٤/٣٦٩.

[٧] تفسير الطبري:١٤/٣٧٩.

[٨] تفسير ابن كثير:٤/١٨٣.

[٩] تفسير السعدي:٣٤٤.

[١٠] أخرجه الطبري(١٧٠٠٢):ص١٤/٣٧٩.

[١١] التفسير الميسر:١٩٩.

[١٢] تفسير الطبري:١٤/٣٦٩.

[١٣] أخرجه الطبري(١٦٩٩٦):ص١٤/٣٧٦.

١- وجوب الوفاء بالعهود وخاصة عهود الله تعالى.

واختلف في نية الطلاق أو الصدقة بدون أن يلفظ هل يلزمه ما نواه بقلبه أو لا يلزمه، الراجح: أنه لا يلزمه ما لم يتلفظ به والدليل في قوله ﷺ " إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به "[١]، والشاهد في قوله: "أو تتكلم به" والعمل بهذا عند أهل العلم.

٢- ويستفاد من الآية كراهية النذر، والنذر "هو إلزام الإنسان نفسه بشيء ما، أو طاعة لله غير واجبة مكروه، وقال بعض العلماء إنه محرم"[٢]، إذ ان الحكمة من نهي النبي ﷺ عن النذر؛ لأن النذر معاهدة مع الله عز وجل، ولهذا نهى النبي ﷺ عن النذر، وقال: " إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل "[٣].

ومع ذلك فإذا نذر الإنسان طاعة لله وجب عليه فعلها لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه"[٤].

وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى تحريم النذر، وظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يميل إلى تحريم النذر[٥]؛ لأن رسول الله ﷺ نهى عنه، ونفى أنه يأتي بخير.

إذن ما الذي نستفيد من أمر نهى عنه الرسول ﷺ، وقال: إنه لا يأتي بخير؟

الجواب؛ لا نستفيد إلا المشقة على أنفسنا، وإلزام أنفسنا بما نحن منه في عافية، ولهذا؛ فالقول بتحريم النذر قول قوي جدا، ولا يعرف مقدار وزن هذا القول إلا من عرف أسئلة الناس وكثرتها، ورأى أنهم يذهبون إلى كل عالم لعلهم يجدون خلاصا مما نذروا[٦].

القرآن

{فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦)} [التوبة : ٧٦]

التفسير:

---

[١]حديث أبى هريرة: أخرجه البخارى (٢٠٢٠/٥، رقم ٤٩٦٨) ، ومسلم (١١٦/١، رقم ١٢٧) ، وأبو داود (٢٦٤/٢ رقم ٢٢٠٩) ، والترمذى (٤٨٩/٣، رقم ١١٨٣) وقال: حسن صحيح. والنسائى (١٥٦/٦، رقم ٣٤٣٣) ، وابن ماجه (٦٥٨/١، رقم ٢٠٤٠) . وأخرجه أيضا: الطيالسى (ص ٣٢٢، رقم ٢٤٥٩) ، وأحمد (٣٩٣/٢، رقم ٩٠٩٧) ، وأبو يعلى (٢٧٨/١١، رقم ٦٣٩٠) ، وابن حبان (١٧٨/١٠، رقم ٤٣٣٤) ، والقضاعى (١٦٧/٢، رقم ١١١٤) .

حديث عمران بن حصين: أخرجه الطبرانى (٢١٦/١٨ رقم ٥٣٩) قال الهيثمى (٢٥٠/٦) : فيه المسعودى وقد اختلط، وبقيه رجاله رجال الصحيح. وتمام (١٤٩/١، رقم ٣٤٢).

[٢]شرح ثلاثة الأصول، ابن عثيمين:٦٨.

[٣]رواه: البخاري (كتاب الأيمان، باب الوفاء بالنذر، ٢٧٧/٤) ، ومسلم (كتاب النذر، باب النهي عن النذر، ١٢٦٠/٣).

[٤]أخرجه أحمد (٣٦/٦، رقم ٢٤١٢١) ، والبخارى (٢٤٦٤/٦، رقم ٦٣٢٢) ، وأبو داود (٢٣٢/٣، رقم ٣٢٨٩) ، والترمذى (١٠٤/٤، رقم ١٥٢٦) وقال: حديث حسن صحيح. والنسائى (١٧/٧، رقم ٣٨٠٦) ، وابن ماجه (٦٨٧/١، رقم ٢١٢٦) ، وابن حبان (٢٣٥/١٠، رقم ٤٣٨٩) . وأخرجه أيضا: مالك (٤٧٦/٢، رقم ١٠١٤) ، والشافعى (٣٣٩/١) وإسحاق بن راهويه (٣٩١/٢، رقم ٩٤٤) ، وابن أبى شيبة (٦٦/٣، رقم ١٢١٤٦) ، والدارمى (٢٤١/٢، رقم ٢٣٣٨) ، وأبو عوانة (١٣/٤، رقم ٥٨٥٢) ، والطحاوى (١٣٣/٣) ، والبيهقى (٢٣١/٩، رقم ١٨٦٣٢)

٢٤٠٣١) من نذر نذرا لم يطقه فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذرا أطاقه فليف به (ابن ماجه عن ابن عباس)

أخرجه ابن ماجه (٦٨٧/١، رقم ٢١٢٨)

٢٤٠٣٢) من نذر نذرا ولم يسمه فكفارته كفارة يمين (أبو داود عن عقبة بن عامر)

أخرجه ابن ماجه (٦٨٧/١، رقم ٢١٢٧).

[٥]انظر: الاختيارات : ٣٢٨.

[٦] انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين:٣٠٣/٢-٣٠٣.

فلما أعطاهم الله من فضله بخلوا بإعطاء الصدقة وبإنفاق المال في الخير، وتولَّوا وهم معرضون عن الإسلام.

قوله تعالى:{فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ} [التوبة : ٧٦]، أي:" فلما أعطاهم الله من فضله بخلوا بإعطاء الصدقة وبإنفاق المال في الخير"[١].

قال الطبري:" يقول الله تبارك وتعالى : فرزقهم الله وأتاهم من فضله {فلما آتاهم الله من فضله بخلوا به} ، بفضل الله الذي آتاهم ، فلم يصدّقوا منه ، ولم يصلوا منه قرابةً ، ولم ينفقوا منه في حق الله"[٢].

قال ابن كثير:" فما وفى بما قال ، ولا صدق فيما ادعى "[٣].

قال السعدي:" لم يفوا بما قالوا، بل {بخلوا به وتولوا} عن الطاعة والانقياد"[٤].

قوله تعالى:{وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [التوبة : ٧٦]، أي:" وتولَّوا وهم معرضون عن الإسلام"[٥].

قال الطبري:" يقول: وأدبروا عن عهدهم الذي عاهدوه الله {وهم معرضون} عنه "[٦].

قال السعدي:" أي: غير ملتفتين إلى الخير"[٧].

الفوائد:

١- ذم البخل وأهله.

٢- أن نقض العهود من علامات المنافقين.

٣- ومن الفوائد: أن الإنسَان في حالة الشدة يعترف ويقر بفقره إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ، فيعاهد نفسه عَلَى أن يستمر عبداً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا عافاه الله بعد المرض أو أغناه بعد الفقر نكص عَلَى عقبيه، كما قال الله عن المنافقين:{فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [التوبة: ٧٦]، وهذا ليس خاصاً بالمنافقين بل حتى المؤمن قد يقع منه ما يشبه ذلك أو يقاربه.

٤- ذم من يتولى بإعراض، لقوله: {وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}، فالتولي إذا كان بإعراض وعدم المبالاة كان أشد، والتولي مذموم كله.

القرآن

{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧)} [التوبة : ٧٧]

التفسير:

فكان جزاء صنيعهم وعاقبتهم أَنْ زادهم نفاقًا على نفاقهم، لا يستطيعون التخلص منه إلى يوم الحساب؛ وذلك بسبب إخلافهم الوعد الذي قطعوه على أنفسهم، وبسبب نفاقهم وكذبهم.

قوله تعالى:{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ} [التوبة : ٧٧]، أي:" فكان جزاء صنيعهم وعاقبتهم أَنْ زادهم نفاقًا على نفاقهم، لا يستطيعون التخلص منه إلى يوم الحساب"[٨].

قال الطبري:" {فأعقبهم} الله ببخلهم بحق الله الذي فرضه عليهم فيما آتاهم من فضله ، وإخلافهم الوعد الذي وعدُوا الله ، ونقضهم عهدَه في قلوبهم {إلى يوم يلقونه}"[٩].

---

(١) التفسير الميسر:١٩٩.

(٢) تفسير الطبري:٣٦٩/١٤.

(٣) تفسير ابن كثير:١٨٣/٤.

(٤) تفسير السعدي:٣٤٤.

(٥) التفسير الميسر:١٩٩.

(٦) تفسير الطبري:٣٦٩/١٤.

(٧) تفسير السعدي:٣٤٤.

(٨) التفسير الميسر:١٩٩.

(٩) تفسير الطبري:٣٦٩/١٤-٣٧٠.

قال ابن كثير:" فأعقبهم هذا الصنيع نفاقا سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله ، عز وجل ، يوم القيامة ، عياذا بالله من ذلك"[١].

قال السعدي:" فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع، أن يعاهد ربه، إن حصل مقصوده الفلاني ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفي بذلك، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء"[٢].

وفي قوله تعالى:{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ} [التوبة : ٧٧]، وجهان[٣]:
أحدهما: فعاقبهم نفاقا في قلوبهم، يقال: أعقبه وعاقبه بمعنى واحد.
والمعنى الثاني: أخلفهم نفاقا في قلوبهم.

قوله تعالى:{بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ} [التوبة : ٧٧]، أي:" وذلك بسبب إخلافهم الوعد الذي قطعوه على أنفسهم"[٤].

قال الطبري: أي:" من الصدقة والنفقة في سبيله"[٥].

قال ابن كثير:" أي : أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم ، كما جاء في الصحيح ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان»[٦]، وله شواهد كثيرة"[٧].

قوله تعالى:{وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [التوبة : ٧٧]، أي:" وبسبب نفاقهم وكذبهم"[٨].

قال الطبري: أي:" في قيلهم ، وحَرَمهم التوبة منه ، لأنه جل ثناؤه اشترط في نفاقهم أنَّه أعقبهموه إلى يوم يلقونه ، وذلك يوم مماتهم وخروجهم من الدنيا "[٩].

عن عبد الرحمن بن يزيد قال ، قال عبد الله : "اعتبروا المنافق بثلاثٍ : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدَر ، وأنزل الله تصديقَ ذلك في كتابه : {ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله}، إلى قوله : {يكذبون}"[١٠].

محمد بن كعب القرظي: "كنت أسمع أن المنافق يعرف بثلاث : بالكذب ، والإخلاف ، والخيانة ، فالتمستُها في كتاب الله زمانًا لا أجدُها ، ثم وجدتها في اثنتين من كتاب الله، قوله : {ومنهم من عاهد الله} حتى بلغ : {وبما كانوا يكذبون} ، وقوله : {إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [سورة الأحزاب : ٧٢] ، هذه الآية"[١١].

عن عبد الله بن عمرو بن وائل : "أنه لما حضرته الوفاة قال : إنّ فلانًا خطب إليّ ابنتي ، وإني كنت قلت له فيها قولا شبيهًا بالعِدَة ، والله لا ألقى الله بثُلُث النفاق ، وأشهدكم أني قد زوَّجته"[١٢].

عن الحسن قال : "قال رسول الله ﷺ : ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان ، فقلت للحسن : يا أبا سعيد ، لئن كان لرجل عليّ دين فلقيني فتقاضاني ، وليس عندي ، وخفت أن يحبسني ويهلكني ، فوعدته أن أقضيه رأسَ الهلال ، فلم أفعل ، أمنافق أنا ؟ قال : هكذا جاء الحديث! ثم حدّث عن عبد الله بن عمرو : أن أباه لما حضره الموت قال : زوِّجوا فلانًا ، فإني وعدته أن أزوجه ، لا

---

[١] تفسير ابن كثير:١٨٣/٤.
[٢] تفسير السعدي:٣٤٤.
[٣] انظر: تفسير السمعاني:٣٣١/٢.
[٤] التفسير الميسر:١٩٩.
[٥] تفسير الطبري:٣٧٠/١٤.
[٦]صحيح البخاري برقم (٣٣) وصحيح مسلم برقم (٥٩) من حديث أبي هريرة ، رضي الله عنه.
[٧] تفسير ابن كثير:١٨٤/٤.
[٨] التفسير الميسر:١٩٩.
[٩] تفسير الطبري:٣٧٠/١٤.
[١٠] أخرجه الطبري(١٦٩٩٥):ص٣٧٦/١٤.
[١١] أخرجه الطبري(١٦٩٩٨):ص٣٧٧/١٤.
[١٢] أخرجه الطبري(١٧٠٠١):ص٣٧٨/١٤.

ألقى الله بثُلُثِ النفاق ! قال قلت : يا أبا سعيد ، ويكون ثُلُث الرجل منافقًا ، وثلثاه مؤمن ؟ قال : هكذا جاء الحديث. قال : فحججت فلقيت عطاء بن أبي رباح ، فأخبرته الحديثَ الذي سمعته من الحسن ، وبالذي قلت له وقال لي ، فقال لي : أعجزت أن تقول له : أخبرني عن إخوة يوسف عليه السلام ، ألم يعدوا أباهم فأخلفوه ، وحدَّثوه فكذبوه ، وأتمنهم فخانوه ، أفمنافقين كانوا ؟ ألم يكونوا أنبياء ؟ أبوهم نبيٌّ ، وجدُّهم نبي ؟ قال : فقلت لعطاء : يا أبا محمد ، حدِّثني بأصل النفاق ، وبأصل هذا الحديث. فقال : حدثني جابر بن عبد الله : أن رسول الله ﷺ إنما قال هذا الحديث في المنافقين خاصَّة ، الذين حدَّثوا النبي فكذبوه ، وأتمنهم على سرّه فخانوه ، ووعدوه أن يخرجوه معه في الغزو فأخلفوه. قال : وخرج أبو سفيان من مكة ، فأتى جبريلُ النبيَّ ﷺ فقال : إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا. فقال النبي ﷺ لأصحابه : إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا ، فاخرجوا إليه ، واكتموا. قال : فكتب رجل من المنافقين إليه " " إن محمدًا يريدكم ، فخذوا حذرَكم " . فأنزل الله : {لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، [سورة الأنفال : ٢٧] ، وأنزل في المنافقين : {ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله) ، إلى : {فأعقبهم نفاقًا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدو وبما كانوا يكذبون}، فإذا لقيت الحسن فأقرئه السلام ، وأخبره بأصل هذا الحديث ، وبما قلت لك. قال : فقدمت على الحسن فقلت : يا أبا سعيد ، إن أخاك عطاءً يقرئك السلام ، فأخبرته بالحديث الذي حدث ، وما قال لي ، فأخذ الحسن بيدي فأشالها ، وقال : يا أهل العراق ، أعجزتم أن تكونوا مثلَ هذا ؟ سمع مني حديثًا فلم يقبله حتى استنبط أصله ، صدق عطاء ، هكذا الحديث ، وهذا في المنافقين خاصة"[١].

الفوائد:

١- تقرير مبدأ أن السيئة يتولد عنها سيئة.

٢- أن العقوبة قد تكون في الدين، فإن المصيبة في الأديان أعظم من المصيبة في الأموال والأبدان.

القرآن

{أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)} [التوبة : ٧٨]

التفسير:

ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله يعلم ما يخفونه في أنفسهم وما يتحدثون به في مجالسهم من الكيد والمكر، وأن الله علام الغيوب؟ فسيجازيهم على أعمالهم التي أحصاها عليهم.

قوله تعالى:{أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ} [التوبة : ٧٨]، أي:" ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله يعلم ما يخفونه في أنفسهم وما يتحدثون به في مجالسهم من الكيد والمكر"[٢].

قال السمعاني:" يعني: ما أضمروا في قلوبهم"[٣].

قال الطبري:" ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يكفرون بالله ورسوله سرًّا ، ويظهرون الإيمان بهما لأهل الإيمان بهما جهرًا {أن الله يعلم سرهم} ، الذي يسرُّونه في أنفسهم ، من الكفر به وبرسوله {ونجواهم}، يقول : " ونجواهم " ، إذا تناجوا بينهم بالطعن في الإسلام وأهله ، وذكرِهم بغير ما ينبغي أن يُذكروا به ، فيحذروا من الله عقوبته أن يحلَّها بهم ، وسطوته أن يوقعها بهم ، على كفرهم بالله وبرسوله ، وعيبهم للإسلام وأهله ، فينزعوا عن ذلك ويتوبوا منه"[٤].

قال ابن كثير:" يخبرهم تعالى أنه يعلم السر وأخفى ، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها ، فإنه أعلم بهم من أنفسهم"[٥].

---

[١] أخرجه الطبري(١٦٩٩٩):ص١٤/٣٧٧-٣٧٨.

[٢] التفسير الميسر:١٩٩.

[٣] تفسير السمعاني:٣٣١/٢.

[٤] تفسير الطبري:٣٨١/١٤.

[٥] تفسير ابن كثير:١٨٤/٤.

قوله تعالى:{وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [التوبة : ٧٨]، أي:" وأن الله علام الغيوب؟ فسيجازيهم على أعمالهم التي أحصاها عليهم"[١].

قال الطبري:"يقول : ألم يعلموا أن الله علام ما غاب عن أسماع خلقه وأبصارهم وحواسّهم ، مما أكنّته نفوسهم ، فلم يظهرْ على جوارحهم الظاهرة ، فينهاهم ذلك عن خداع أوليائه بالنفاق والكذب ، ويزجرهم عن إضمار غير ما يبدونه ، وإظهار خلاف ما يعتقدونه ؟"[٢].

قال ابن كثير:"أي : يعلم كل غيب وشهادة ، وكل سر ونجوى ، ويعلم ما ظهر وما بطن"[٣].

الفوائد:

١- جواز تقريع وتأنيب أهل الباطل.

٢- وجوب مراقبة الله تعالى إذ لو راقب هؤلاء المنافقون٢ الله تعالى لما خرجوا عن طاعته.

وجاء في الصحيح قوله ﷺ " آيات المنافق من إذا حدث كذب وإذا ائتمن خان وإذا وعد أخلف "[٤].

وفي حديث آخر: " أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر"[٥].

واختلف العلماء في تأويل هذين الحديثين، وقسموا النفاق إلى اعتقادي وعملي:

- فالاعتقادي: ما كان صاحبه كافرا بالله ورسوله مكذبا لهما.
- والعملي: ما كان صاحبه مؤمنا مصدقا ولكن يأتي منه المحظورات جهلا وفسقا.

وهذا صحيح. ولكن يتأتى لعبد يؤمن بالله ورسوله أن يتعمد الكذب على المسلمين وإخلاف الوعد لهم، والغدر بهم، وخيانتهم في أماناتهم والفجور في التخاصم معهم، ومن هنا كان المطلوب اجراء الخبر على ظاهره ما دام العبد يتعمد هذه المحظورات نكاية بالمسلمين وبغضا لهم وعدم اعتراف بحقوقهم وظلما واعتداء عليهم، إذ مثل هذا لا يكون معه إيمان بالله ورسوله ﷺ.

٣- ومن الفوائد: إثبات اسم من أسمائه تعالى: «العَلاَّم»: هو اسم من أسماء الله تعالى على وزن «فعّال» ، وهو صيغة مبالغة، يدل على سعة العلم وعظمته، وقد ورد في القرآن الكريم أربع مرات، في قوله تعالى: {قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} [المائدة ١٠٩] ، وقوله: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} [المائدة: ١١٦] ، وقوله: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} [التوبة: ٧٨] ، وقوله: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [سبأ :٤٨]، وعلم الله تعالى أزلي، وهو صفة من صفاته الذاتية سبحانه، يقتضي علمه بالظواهر والسرائر،

---

[١] التفسير الميسر:١٩٩.

[٢] تفسير الطبري:٣٨١/١٤.

[٣] تفسير ابن كثير:١٨٤/٤.

[٤]أخرجه الطبرانى فى الأوسط (١٣٢/٨، رقم ٨١٨٧) . قال الهيثمى (١٠٨/١) : فيه زنفل العرفى كذاب. وقد تفرد الهيثمى بتكذيب زنفل. انظر ترجمته فى: الضعفاء لابن حبان (٣١١/١، ترجمة ٣٧٤) ، والكامل (٢٣٥/٣، ترجمة ٧٢٧) ، والميزان (١١٩/٣، ترجمة ٢٩٠٩) ، واللسان (٢٢٠/٧، ترجمة ٢٩٨٢) ..

[٥]حديث مسروق: أخرجه الخرائطى فى مساوئ الأخلاق (ص ٦٧، رقم ١٤٦، ص ١٢٣، رقم ٣٠٢) .

حديث ابن مسعود: أخرجه ابن عساكر (٣٩٦/٢٧) .

ومن غريب الحديث: "خالصا": المراد شديد الشبه بالمنافقين. "يدعها": يتركها. "غدر": نقض العهد..

وإحاطته بكل شيء، فلا يغيب عنه ولا يعْزُب مثقال ذرة في السموات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر[1]، فيعلم ما يصلح للعباد وما يدبرهم عليه[2].
قال الخطابي:" العلاّم: بمنزلة «العليم»، وبناء «فعّال» بناء التكثير"[3].

القرآن
{الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩)} [التوبة : ٧٩]
التفسير:
ومع بخل المنافقين لا يَسْلَم المتصدقون من أذاهم؛ فإذا تصدق الأغنياء بالمال الكثير عابوهم واتهموهم بالرياء، وإذا تصدق الفقراء بما في طاقتهم استهزؤوا بهم، وقالوا سخرية منهم: ماذا تجدي صدقتهم هذه؟ سخر الله من هؤلاء المنافقين، ولهم عذاب مؤلم موجع.
سبب نزول الآيتين[٧٩-٨٠]:
عن ابن عباس قوله :«{الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم}، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج إلى الناس يومًا فنادى فيهم : أن أجمعوا صدقاتكم! فجمع الناس صدقاتهم. ثم جاء رجل من آخرهم بِمَنٍّ من تمر، فقال : يا رسول الله ، هذا صاع من تمرٍ ، بِتُّ ليلتي أجرُّ بالجرير الماءَ، حتى نلت صاعين من تمرٍ ، فأمسكت أحدَهما ، وأتيتك بالآخر. فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات. فسخر منه رجال وقالوا : والله إن الله ورسوله لغنيَّان عن هذا! وما يصنعان بصاعك من شيء " ! ثم إن عبد الرحمن بن عوف ، رجل من قريش من بني زهرة ، قال لرسول الله ﷺ : هل بقي من أحد من أهل هذه الصدقات ؟ فقال : لا! فقال عبد الرحمن بن عوف : إن عندي مئة أوقية من ذهب في الصدقات. فقال له عمر بن الخطاب : أمجنون أنت ؟ فقال : ليس بي جنون! فقال : فعلْتَ ما قلت ؟ قال : نعم! مالي ثمانية آلاف ، أما أربعة آلافٍ فأقرضها ربيّ ، وأما أربعة آلاف فلي! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت ! وكره المنافقون فقالوا : " والله ما أعطى عبد الرحمن عطيَّته إلا رياءً" ! وهم كاذبون ، إنما كان به متطوِّعًا. فأنزل الله عذرَه وعذرَ صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر ، فقال الله في كتابه : {الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين في الصدقات}، الآية»[4].
عن يحيى بن أبي كثير اليمامي قال : "جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله مالي ثمانية آلاف ، جئتك بأربعة آلاف ، فاجعلها في سبيل الله ، وأمسكت أربعة آلاف لعيالي. فقال رسول الله ﷺ : بارك الله فيما أعطيت وفيما أمسكت! وجاء رجل آخر فقال : يا رسول الله ، بتُّ الليلة أجرُّ الماء على صاعين ، فأما أحدهما فتركت لعيالي وأما الآخر فجئتك به ، أجعله في سبيل الله ، فقال : بارك الله فيما أعطيت وفيما أمسكت! فقال ناس من المنافقين : والله ما أعطى عبد الرحمن إلا رياءً وسمعة ، ولقد كان الله ورسوله غنيَّين عن صاع فلان! فأنزل الله : {الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين في الصدقات} ، يعني عبد الرحمن بن عوف : {والذين لا يجدون إلا جهدهم}، يعني صاحب الصاع {فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم}"[5].
عن ابن أبي عقيل ، عن أبيه قال : "بتُّ أجرُّ الجرير على ظهري على صاعين من تمر فانقلبتُ بأحدهما إلى أهلي يتبلَّغون به ، وجئت بالآخر أتقرَّب به إلى رسول الله ﷺ. فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال : انثره في الصدقة. فسخر المنافقون منه. وقالوا : لقد كان الله غنيًّا عن

---
(1) انظر: تيسير الكريم الرحمن الجزء٣٣/١.
(2) انظر: المصدر نفسه:٣٢/٣.
(3) شأن الدعاء:١٠٣.
(4) أخرجه الطبري(١٧٠٠٤):ص٣٨٣/١٤.
(5) أخرجه الطبري(١٧٠١٧):ص٣٩١/١٤.

صدقة هذا المسكين! فأنزل الله : {الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات}، الآيتين"[١].

عن عمر بن أبي سلمة ، عن أبيه : "أن رسول الله ﷺ قال : تصدقوا ، فإني أريد أن أبعث بعثًا. قال : فقال عبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ، إن عندي أربعة آلاف ، ألفين أقرضهما الله ، وألفين لعيالي. قال : فقال رسول الله ﷺ : بارك الله لك فيما أعطيت ، وبارك لك فيما أمسكت ! فقال رجل من الأنصار : وإن عندي صاعين من تمرٍ ، صاعًا لربي ، وصاعًا لعيالي ! قال : فلمز المنافقون وقالوا : ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياءً ! وقالوا : أو لم يكن الله غنيًّا عن صاع هذا ! فأنزل الله : {الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين}، إلى آخر الآية"[٢].

عن الربيع بن أنس في قوله : "{الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات}، قال : أصاب الناس جَهْدٌ شديد ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يتصدَّقوا ، فجاء عبد الرحمن بأربعمائة أوقية ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم بارك له فيما أمسك. فقال المنافقون : ما فعل عبد الرحمن هذا إلا رياء وسمعة ! قال : وجاء رجل بصاع من تمر ، فقال : يا رسول الله آجرت نفسي بصاعين ، فانطلقت بصاع منهما إلى أهلي ، وجئت بصاع من تمر. فقال المنافقون : إن الله غنيٌّ عن صاع هذا ! فأنزل الله هذه الآية : {والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم}"[٣].

عن أبي مسعود قال : "لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل، قال أبو النعمان : كنا نعمل قال : فجاء رجل فتصدق بشيء كثير. قال : وجاء رجل فتصدق بصاع تمر ، فقالوا : إن الله لغنيٌّ عن صاع هذا ! فنزلت : {الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم}"[٤].

قوله تعالى:{الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ} [التوبة : ٧٩]، أي:" ومع بخل المنافقين لا يَسْلَم المتصدقون من أذاهم؛ فإذا تصدق الأغنياء بالمال الكثير عابوهم واتهموهم بالرياء"[٥].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : الذين يلمزون المطوّعين في الصدقة على أهل المسكنة والحاجة ، بما لم يوجبه الله عليهم في أموالهم ، ويطعنون فيها عليهم بقولهم : إنما تصدقوا به رياءً وسُمْعة ، ولم يريدوا وجه الله "[٦].

عن أبي السليل قال : "وقف على الحيّ رجل ، فقال : حدثني أبي أو عمي فقال : شهدت رسول الله ﷺ وهو يقول : من يتصدق اليوم بصدقة أشهدُ له بها عند الله يوم القيامة ؟ قال : وعليّ عمامة لي. قال : فنزعت لَوْثًا أو لوثيْن لأتصدق بهما ، قال : ثم أدركني ما يدرك ابن آدم ، فعصبت بها رأسي. قال : فجاء رجل لا أرى بالبقيع رجلا أقصرَ قِمَّة ، ولا أشدَّ سوادًا ، ولا أدَمَّ بعينٍ منه ، يقود ناقة لا أرى بالبقيع أحسن منها ولا أجمل منها. قال : أصدقةٌ هي ، يا رسول الله ؟ قال : نعم! قال : فدُونَكها ! فألقى بخطامها أو بزمامها قال : فلمزه رجل جالسٌ فقال : والله إنه ليتصدّق بها ، ولهي خيرٌ منه ! فنظر إليه رسولُ الله ﷺ فقال : بل هو خير منك ومنها! يقول ذلك ثلاثًا ﷺ"[٧].

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ} [التوبة : ٧٩]، أي:" ويعيبون الذين لا يجدون إلا طاقتهم فيهزءون منهم"[٨].

---

[١] أخرجه الطبري(١٧٠١٤):ص١٤/٣٨٨-٣٨٩.
[٢] أخرجه الطبري(١٧٠١٠):ص١٤/٣٨٦.
[٣] أخرجه الطبري(١٧٠١١):ص١٤/٣٨٦-٣٨٧.
[٤] أخرجه الطبري(١٧٠١٣):ص١٤/٣٨٨.
[٥] التفسير الميسر:١٩٩.
[٦] تفسير الطبري:١٤/٣٨١-٣٨٢.
[٧] أخرجه الطبري(١٧٠١٥):ص١٤/٣٨٩-٣٩٠.
[٨] صفوة التفاسير:١/٥١٤.

قال الطبري:" ويلمزون الذين لا يجدون ما يتصدَّقون به إلا جهدهم ، وذلك طاقتهم ، فينتقصونهم ويقولون : لقد كان الله عن صدقة هؤلاء غنيًّا! سخريةً منهم بهم"[١].

قال ابن كثير:" وهذه أيضا من صفات المنافقين : لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال ، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم ، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا : هذا مراء ، وإن جاء بشيء يسير قالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا"[٢].

قال ابن عباس : "أمر النبي ﷺ المسلمين أن يجمعوا صدَقاتهم ، وإذا عبد الرحمن بن عوف قد جاء بأربعة آلاف ، فقال : هذا مالي أقرِضُه الله ، وقد بقي لي مثله. فقال له : بورك لك فيما أعطيت وفيما أمسكت ! فقال المنافقون : ما أعطى إلا رياءً ، وما أعطى صاحبُ الصّاع إلا رياءً ، إن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا ! وما يصنع الله بصاع من شيء!"[٣].

عن ابن إسحاق : "{الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات} ، الآية ، وكان المطوعون من المؤمنين في الصدقات ، عبد الرحمن بن عوف ، تصدق بأربعة آلاف دينار ، وعاصم بن عدي أخا بني العَجلان، وذلك أن رسول الله ﷺ رغَّب في الصدقة ، وحضَّ عليها ، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف درهم ، وقام عاصم بن عدي فتصدق بمئة وَسْقٍ من تمر ، فلمزوهما وقالوا : ما هذا إلا رياء ! وكان الذي تصدّق بجهده : أبو عقيل ، أخو بني أُنيف ، الأراشي ، حليف بني عمرو بن عوف ، أتى بصاع من تمر فأفرغه في الصدقة ، فتضاحكوا به وقالوا : إن الله لغنيٌّ عن صاع أبي عقيل!!"[٤].

وقال ابن زيد في قوله : "{الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات) ، إلى قوله : {ولهم عذاب أليم} ، قال : أمر النبي عليه الصلاة والسلام المسلمين أن يتصدّقوا ، فقام عمر بن الخطاب : فألفَى ذلك مالي وافرًا ، فآخذ نصفه. قال : فجئت أحمل مالا كثيرًا. فقال له رجل من المنافقين : ترائِي يا عمر! فقال : نعم ، أرائي الله ورسوله ، وأما غيرهما فلا! قال : ورجلٌ من الأنصار لم يكن عنده شيء ، فواجَرَ نفسه ليجرّ الجرير على رقبته بصاعين ليلته ، فترك صاعًا لعياله ، وجاء بصاع يحمله ، فقال له بعض المنافقين : إن الله ورسوله عن صاعك لغنيَّان ! فذلك قول الله تبارك وتعالى : {الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم} ، هذا الأنصاري {فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم}"[٥].

وروي عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك قال: "الذي تصدّق بصاع التمر فلمزه المنافقون : " أبو خيثمة الأنصاري "[٦].

وقوله {إِلاَّ جُهْدَهُمْ}[التوبة : ٧٩]، قرئ بضم «الجيم» وفتحها، وفيه وجهان[٧]:

أحدهما : أنهما يختلف لفظهما ويتفق معناهما ، قاله البصريون .

والثاني : أن معناهما مختلف ، فالجهد بالضم الطاقة ، وبالفتح المشقة ، قاله بعض الكوفيين.

وروي عن الشعبي قال :«"الجَهْدُ"، و"الجُهْد"، الجَهْدُ في العمل، والجُهْدُ في القوت»"[٨].

قوله تعالى:{سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ} [التوبة : ٧٩]، أي:" سخر الله من هؤلاء المنافقين"[٩].

قال الصابوني:" أي: جازاهم على سخريتهم وهو من باب المشاكلة"[١].

---

[١] تفسير الطبري:٣٨٢/١٤.
[٢] تفسير ابن كثير:١٨٤/٤.
[٣] أخرجه الطبري(١٧٠١٨):ص٣٩١/١٤.
[٤] أخرجه الطبري(١٧٠١٢):ص٣٨٧/١٤.
[٥] أخرجه الطبري(١٧٠١٩):ص٣٩٢/١٤.
[٦] اخرجه الطبري(١٧٠١٦):ص٣٩٠/١٤.
[٧] انظر: تفسير الطبري:٣٩٣/١٤، والنكت والعيون:٣٨٤/٢-٣٨٥.
[٨] أخرجه الطبري(١٧٠٢٠):ص٣٩٣/١٤.
[٩] التفسير الميسر:١٩٩.

قال ابن كثير:" قوله : { فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ } وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فعاملهم معاملة من سخر بهم ، انتصارا للمؤمنين في الدنيا"(٢).

وفي قوله تعالى:{سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ} [التوبة : ٧٩]، وجهين(٣):

أحدهما : أنه ما أوجبه عليهم من جزاء الساخرين .

والثاني : بما أمهلهم من المؤاخذة .

قال ابن عباس : وكان هذا في الخروج إلى غزاة تبوك "(٤).

عن مجاهد : "{الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين}، قال : جاء عبد الرحمن بن عوف بصدقة ماله أربعة آلاف ، فلمزه المنافقون وقالوا : " راءَى " {والذين لا يجدون إلا جهدهم}، قال : رجل من الأنصار آجرَ نفسه بصاع من تمر ، لم يكن له غيره ، فجاء به فلمزوه ، وقالوا : كان الله غنيًّا عن صاع هذا!"(٥).

عن قتادة: قوله : "{الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين} ، الآية ، قال : أقبل عبد الرحمن بن عوف بنصف ماله ، فتقرَّب به إلى الله ، فلمزه المنافقون فقالوا : ما أعطى ذلك إلا رياء وسمعة ! فأقبل رجل من فقراء المسلمين يقال له " حبحاب ، أبو عقيل" فقال : يا نبي الله ، بتُّ أجرُّ الجرير على صاعين من تمر ، أما صاع فأمسكته لأهلي ، وأما صاع فها هو ذا! فقال المنافقون : " والله إن الله ورسوله لغنيَّان عن هذا " . فأنزل الله في ذلك القرآن : {الذين يلمزون}، الآية"(٦).

قال الألوسي: "الاستهزاء: الاستخفاف والسخرية، وذكر الغزالي أن الاستهزاء الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وبالإشارة والإيماء ... وأصل هذه المادة الخفة، يقال: ناقة تهزأ به أي: تسرع وتخف"(٧).

قوله تعالى:{وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التوبة : ٧٩]، أي:" ولهم عذاب مؤلم موجع"(٨).

قال الطبري:" يقول : ولهم من عند الله يوم القيامة عذابٌ موجع مؤلم"(٩).

قال ابن كثير:"وأعد للمنافقين في الآخرة عذابا أليما"(١٠).

الفوائد:

١- حرمة لمز المؤمن والطعن فيه.

٢- حرمة السخرية بالمؤمن.

٣- من صفات المنافقين: سب وعيب العلماء والمصلحين وجميع المؤمنين الصادقين، بغضاً لهم ولدعوتهم ولدينهم، قال الله تعالى عنهم: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ} [البقرة:١٣] ، وقال سبحانه: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التوبة: ٧٩] ، ولهذا تجد منهم في هذا العصر من يعيب العلماء والمصلحين، ومن يعيب الدعاة والفقهاء في وسائل الإعلام وغيرها.

---

(١) صفوة التفاسير:٥١٤/١.
(٢) تفسير ابن كثير:١٨٨/٤.
(٣) انظر: النكت والعيون:٣٨٥/٢.
(٤) انظر: النكت والعيون:٣٨٥/٢.
(٥) أخرجه الطبري(١٧٠٠٥):ص٣٨٤/١٤.
(٦) أخرجه الطبري(١٧٠٠٨):ص٣٨٤/١٤-٣٨٥.
(٧)روح المعاني:١/ ١٥٨. [باختصار].
(٨) التفسير الميسر:١٩٩.
(٩) تفسير الطبري:٣٨٢/١٤.
(١٠) تفسير ابن كثير:١٨٨/٤.

ولقد حرص أعداء الإسلام من اليهود والنصارى وأذنابهم من منافقي هذا الزمان على تشويه سمعة العلماء، وزعزعة مكانتهم في نفوس الأمة المسلمة، فمما جاء في البروتوكول السابع عشر من بروتوكولات اليهود:"وقد عنينا عناية عظيمة بالحط من كرامة رجال الدين من الأمميين (غير اليهود) في أعين الناس، وبذلك نجحنا في الإضرار برسالتهم التي كان يمكن أن تكون عقبة كؤوداً في طريقنا، وإن نفوذ رجال الدين على الناس ليتضاءل يوماً فيوماً"[١].

وسعى هؤلاء في سبيل ذلك سعياً حثيثاً، فشنوا الحملات المسعورة، وأعدوا المخططات الرهيبة من أجل الكيد لهذا الدين والصد عنه، عن طريق الطعن في حملة الإسلام ودعاته وعلمائه، وقد آتت هذه المؤامرات ثمارها النكدة كما هو مشاهد في واقع الأمة، وتولت وسائل الإعلام في بلاد المسلمين وغيرها كبر هذه الهجمة الشرسة على علماء الأمة [٢]، فظهر الاستهزاء بالعلماء والصالحين على وسائل الإعلام المختلفة، وتطاول الأقزام من أهل الشبهات والشهوات على مقامات أهل العلم والصلاح باسم حرية الرأي والفكر!، واستهزئ بأهل الصلاح والديانة تحت مظلة محاربة التطرف والتشدد!

وساعد على استفحال هذا المنكر أسباب كثيرة، فبالإضافة إلى ما سبق ذكره، نذكر أيضاً من تلك الأسباب:-

أ- غلبة الجهل بدين الله تعالى بين المسلمين، سواء كان الجهل بحرمة المسلم وعظيم حقه ومنزلته، أو الجهل بحكم الاستهزاء بأهل العلم والصلاح.

ب- تنحية شرع الله تعالى في بلاد المسلمين.

وإن الاستهزاء بالعلماء والصالحين على ضربين:-

أحدهما:- الاستهزاء بأشخاصهم، كمن يستهزئ بأوصافهم الخَلْقِية أو الخُلُقِية، وهذا محرم لقوله تعالى::{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الحجرات:١١].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ، أنه قال :«الكبر بطر الحق وغمص الناس". ويروى وغمط الناس»[٣]، والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم، وهذا وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله تعالى، وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له ... "[٤].

والضرب الآخر:- الاستهزاء بالعلماء لكونهم علماء، ومن أجل ما هم عليه من العلم الشرعي، وهذا استهزاء بدين الله تعالى، وكذا الاستهزاء بأهل الصلاح من أجل استقامتهم على الديانة، واتباعهم للسنة، فالاستهزاء - هاهنا - متوجه إلى الدين والسنة[٥].

٤- ومن فوائد الآية: غيرة الله على أوليائه حيث سخر الله ممن سخر من المطوعين.

القرآن

---

[١][١٠٦٤٧])) ((بروتوكولات حكماء صهيون)) ترجمة محمد خليفة التونسي (ص ١٨٧).

[٢][١٠٦٤٨])) انظر ((المشايخ والاستعمار)) لحسني عثمان، و ((القول المبين في حكم الاستهزاء بالمؤمنين)) لعبد السلام آل عبد الكريم، و ((الاستهزاء بالدين وأهله)) لمحمد القحطاني.

[٣]أخرجه بلفظ «غمط» مسلم في الإيمان حديث ١٤٧، وأبو داود في اللباس باب ٢٦، وأحمد في المسند ١/ ٣٨٥، ٣٢٧، وأخرجه بلفظ «غمص» ، الترمذي في البر باب ٦١، وأحمد في المسند ٤/ ١٣٤، ١٥١.

[٤] تفسير ابن كثير:٣٥١/٧.

[٥] انظر: الموسوعة العقدية، مجموعة من المنافقين: ٥٦/٧-٥٧.

{اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)} [التوبة : ٨٠]

التفسير:

استغفر -أيها الرسول- للمنافقين أو لا تستغفر لهم، فلن يغفر الله لهم، مهما كثر استغفارك لهم وتكرر؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله. والله سبحانه وتعالى لا يوفق للهدى الخارجين عن طاعته.سبب النزول:

عن عروة : "أن عبد الله بن أبي ابن سلول قال لأصحابه : لولا أنكم تُنْفقون على محمد وأصحابه لانفَضُّوا من حوله! وهو القائل : {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْهَا الأذَلَّ} [سورة المنافقون : ٨] ، فأنزل الله : {استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم}، قال النبي ﷺ : لأزيدنّ على السبعين! فأنزل الله : {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ }، فأبى الله تبارك وتعالى أن يغفر لهم"[١].

عن مجاهد : "{إن تستغفر لهم سبعين مرة}، فقال النبي ﷺ : سأزيد على سبعين استغفارة! فأنزل الله في السورة التي يذكر فيها المنافقون :{لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}، عزمًا"[٢].

عن قتادة قوله : "{إستغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم} ، فقال نبي الله : قد خيَّرني ربي ، فلأزيدنهم على سبعين! فأنزل الله: { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ }، الآية"[٣].

عن ابن عباس قوله : "{استغفر لهم أو لا تستغفر لهم} إلى قوله : {القوم الفاسقين}، فقال رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية : أسمعُ ربّي قد رَخّص لي فيهم ، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة ، فلعل الله أن يغفر لهم ! فقال الله ، من شدة غضبه عليهم : {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}[سورة المنافقون : ٦]"[٤].

قوله تعالى:{اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ} [التوبة : ٨٠]، أي:" سواء يا محمد استغفرت لهؤلاء المنافقين أم لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم"[٥].

قال الزمخشري:" هذا الأمر في معنى الخبر، كأنه قيل: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، وإن فيه معنى الشرط"[٦].

قال الماوردي:" وهذا على وجه المبالغة في اليأس من المغفرة وإن كان على صيغة الأمر ، ومعناه أنك لو طلبتها لهم طلب المأمور بها أو تركتها ترك المنهي عنها لكان سواء في أن الله تعالى لا يغفر لهم"[٧].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ادع الله لهؤلاء المنافقين ، الذين وصفت صفاتهم في هذه الآيات بالمغفرة ، أو لا تدع لهم بها. وهذا كلام خرج مخرج الأمر ، وتأويله الخبر ، ومعناه : إن استغفرت لهم ، يا محمد ، أو لم تستغفر لهم ، فلن يغفر الله لهم"[٨].

قال ابن كثير:" يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلا للاستغفار ، وأنه لو استغفر لهم ، ولو سبعين مرة فإن الله لا يغفر لهم. وقد قيل : إن «السبعين» إنما ذكرت حسما لمادة الاستغفار لهم ؛ لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها ، ولا تريد التحديد بها ، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها"[٩].

---

[١] أخرجه الطبري(١٧٠٢٣):ص٣٩٥/١٤.

[٢] أخرجه الطبري(١٧٠٢٥):ص٣٩٦/١٤.

[٣] أخرجه الطبري(١٧٠٣١):ص٣٩٧/١٤.

[٤] أخرجه الطبري(١٧٠٣٠):ص٣٩٦/١٤-٣٩٧.

[٥] صفوة التفاسير:٥١٤/١.

[٦] الكشاف:٢٩٥/٢.

[٧] النكت والعيون:٣٨٦/٢.

[٨] تفسير الطبري:٣٩٥/١٤.

[٩] تفسير ابن كثير:١٨٩/٤.

قوله تعالى:{إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} [التوبة : ٨٠]، أي:" فلن يغفر الله لهم، مهما كثر استغفارك لهم وتكرر"[١].

قال الطبري:" يقول : إن تسأل لهم أن تُسْتر عليهم ذنوبهم بالعفو منه لهم عنها ، وترك فضيحتهم بها ، فلن يستر الله عليهم ، ولن يعفو لهم عنها ، ولكنه يفضحهم بها على رءوس الأشهاد يوم القيامة "[٢].

قال الزمخشري:" و«السبعون» جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير، قال على بن أبى طالب -عليه السلام-:

لأصبحن العاص وابن العاصى   سبعين ألفا عاقدى النواصى

فإن قلت: كيف خفى على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته، والذي يفهم من ذكر هذا العدد كثرة الاستغفار، كيف وقد تلاه بقوله ذلك بأنهم كفروا ... الآية فبين الصارف عن المغفرة لهم حتى قال: «قد رخص لي ربى فسأزيد على السبعين» قلت: لم يخف عليه ذلك، ولكنه خيل بما قال إظهارا لغاية رحمته ورأفته على من بعث إليه، كقول إبراهيم عليه السلام ومن عصاني فإنك غفور رحيم وفي إظهار النبي ﷺ الرأفة والرحمة: لطف لأمته ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض"[٣].

قال الماوردي:" قوله {إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً}، ليس بحد لوقوع المغفرة بعدها ، وإنما هو على وجه المبالغة بذكر هذا العدد لأن العرب تبالغ بالسبع والسبعين لأن التعديل في نصف العقد وهو خمسة إذا زيد عليه واحد كان لأدنى المبالغة ، وإذا زيد عليه اثنان كان لأقصى المبالغة ، ولذلك قالوا للأسد سبُع أي قد ضوعفت قوته سبع مرات ، وهذا ذكره علي بن عيسى"[٤].

عن الشعبي قال : "دعا عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول النبيَّ ﷺ إلى جنازة أبيه ، فقال له النبي ﷺ : من أنت ؟ قال : حُباب بن عبد الله بن أبيّ. فقال له النبي ﷺ : بل أنت عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول ، إن " الحُبَاب " هو الشيطان[٥]. ثم قال النبي عليه الصلاة والسلام والسلام : إنه قد قيل لي : {استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم}، فأنا استغفر لهم سبعين وسبعين وسبعين ، وألبسه النبي ﷺ قميصَه وهو عَرِقٌ"[٦].

وفي رواية اخرى عن الشعبي أيضا: "لما ثَقُل عبد الله بن أبيّ ، انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال له : إن أبي قد احْتُضِر ، فأحبُّ أن تشهده وتصليّ عليه! فقال النبي ﷺ : ما اسمك ؟ قال : الحُباب بن عبد الله. قال : بل أنت عبد الله بن عبد الله بن أبي ، إن " الحباب " اسم شيطان. قال : فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عَرِق ، وصلى عليه ، فقيل له : أتصلي عليه وهو منافق ؟ فقال : إن الله قال : {إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم} ، ولأستغفرن له سبعين وسبعين! قال هشيم : وأشكُّ في الثالثة"[٧].

قوله تعالى:{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [التوبة : ٨٠]، أي:" عدم المغفرة لهم بسبب كفرهم بالله ورسوله كفراً شنيعاً حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر"[٨].

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه : هذا الفعل من الله بهم ، وهو ترك عفوه لهم عن ذنوبهم ، من أحل أنهم جحدوا توحيد الله ورسالة رسوله "[١].

---

[١] التفسير الميسر:١٩٩.
[٢] تفسير الطبري:٣٩٥/١٤.
[٣] الكشاف:٢٩٥/٢-٢٩٦.
[٤] النكت والعيون:٣٨٦/٢.
[٥]" الحباب " (بضم الحاء) ، الحية ، قال ابن كثير : " ويقع على الحية أيضا ، كما يقال لها الشيطان ، فهما مشتركان فيه ".
[٦] أخرجه الطبري(١٧٠٢٤):ص٣٩٥/١٤.
[٧] أخرجه الطبري(١٧٠٢٩):ص٣٩٦/١٤.
[٨] صفوة التفاسير:٥١٤/١.

قوله تعالى:{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة : ٨٠]، أي:" والله سبحانه وتعالى لا يوفق للهدى الخارجين عن طاعته"[٢].

قال الطبري:" ، يقول : والله لا يوفق للإيمان به وبرسوله من آثر الكفر به والخروج عن طاعته ، على الإيمان به وبرسوله"[٣].

الفوائد:

١- من مات على الكفر لا ينفعه الاستغفار له، بل ولا يجوز الاستغفار له.
٢- التوغل في الفسق أو الكفر أو الظلم يحرم صاحبه الهداية.
٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن التوبة تقبل، بل وتطلب من كل أحد مؤمناً كان أم كافراً، براً أم فاجراً، أما الاستغفار فلا يقبل إلا من المؤمن، وللمؤمن؛ فلا يقبل من الكافر، ولا يجوز أن يستغفر للكافر.

القرآن

{فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١)} [التوبة : ٨١]

التفسير:

فرح المخلفون الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ بقعودهم في (المدينة) مخالفين لرسول الله ﷺ، وكرهوا أن يجاهدوا معه بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وقال بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحرِّ، وكانت غزوة (تبوك) في وقت شدة الحرِّ. قل لهم -أيها الرسول-: نار جهنم أشد حرًا، لو كانوا يعلمون ذلك.

سبب النزول:

عن ابن عباس قوله : "{فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله}، إلى قوله : {يفقهون}، وذلك أن رسول الله ﷺ أمرَ الناس أن ينبعثوا معه ، وذلك في الصيف ، فقال رجال : يا رسول الله ، الحرُّ شديدٌ ، ولا نستطيع الخروجَ ، فلا تنفر في الحرّ ! فقال الله : {قل نار جهنم أشد حرًّا لو كانوا يفقهون}، فأمره الله بالخروج"[٤].

عن أبي معشر، عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا : "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرٍّ شديدٍ إلى تبوك ، فقال رجل من بني سَلِمة : لا تنفروا في الحرّ ! فأنزل الله : (قل نار جهنم) ، الآية"[٥].

قوله تعالى:{فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ} [التوبة : ٨١]، أي:" فرح المخلفون الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ بقعودهم في (المدينة) مخالفين لرسول الله صلى"[٦].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : فرح الذين خلَّفهم الله عن الغزو مع رسوله والمؤمنين به وجهاد أعدائه {بمقعدهم خلاف رسول الله}، يقول : بجلوسهم في منازلهم {خلاف رسول الله}، يقول : على الخلاف لرسول الله في جلوسه ومقعده. وذلك أن رسول الله ﷺ أمرهم بالنَّفْر إلى جهاد أعداء الله ، فخالفوا أمْرَه وجلسوا في منازلهم"[٧].

قال ابن كثير:" يقول تعالى ذَامّا للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه"[٨].

---

[١] تفسير الطبري:٣٩٥/١٤.
[٢] التفسير الميسر:٢٠٠.
[٣] تفسير الطبري:٣٩٥/١٤-٣٩٦.
[٤] أخرجه الطبري(١٧٠٣٣):ص٤٠٠/١٤.
[٥] أخرجه الطبري(١٧٠٣٥):ص٤٠٠/١٤.
[٦] التفسير الميسر:٢٠٠.
[٧] تفسير الطبري:٣٩٧/١٤-٣٩٨.
[٨] تفسير ابن كثير:١٨٩/٤.

عن قتاده في قوله : "{بمقعدهم خلاف رسول الله}، قال : هي غزوة تبوك"[١].
عن ابن إسحاق قال : "[ثم] ذكر قول بعضهم لبعض ، حين أمر رسول الله ﷺ بالجهاد ، وأجمع السير إلى تبوك ، على شدّة الحرّ وجدب البلاد. يقول الله جل ثناؤه : {وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرًّا}"[٢].
وفي قوله تعالى:{ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ} [التوبة : ٨١]، وجهان:
أحدهما : يعني: مخالفة رسول الله -ﷺ- حكاه الماوردي عن الأكثرين[٣].
والثاني : معناه بعد رسول الله -ﷺ- قاله أبو عبيدة[٤]، وأنشد قول الحارث بن خالد المخزومي[٥]:
المخزومي[٥]:

عَقَبَ الرَّبِيعُ خِلافَهُمْ فَكَأَنَّمَا   بَسَطَ الشَّوَاطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرَا

قال الطبري:" وذلك قريبٌ لمعنى ما قلنا ، لأنهم قعدوا بعده على الخلافِ له"[٦].
قوله تعالى:{وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة : ٨١]، أي:" وكرهوا أن يجاهدوا معه بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله"[٧].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : وكره هؤلاء المخلفون أن يغزُوا الكفار بأموالهم وأنفسهم في دين الله الذي شرعه لعباده لينصروه ، ميلا إلى الدعة والخفض ، وإيثارًا للراحة على التعب والمشقة ، وشحًّا بالمال أن ينفقوه في طاعة الله"[٨].
قوله تعالى:{وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ} [التوبة : ٨١]، أي:" وقال بعضهم لبعض: لا تخرجوا إلى الجهاد في وقت الحر"[٩].
قال الطبري:"وذلك أن النبي ﷺ استنفرهم إلى هذه الغزوة ، وهي غزوة تبوك ، في حرّ شديدٍ ، فقال المنافقون بعضهم لبعض :«لا تنفروا في الحر»"[١٠].
قال ابن كثير:" وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر ، عند طيب الظلال والثمار "[١١].
وفي قوله تعالى:{وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ} [التوبة : ٨١]، وجهان[١٢]:
أحدهما : هذا قول بعضهم لبعض حين قعدوا .

---

[١] أخرجه الطبري(١٧٠٣٤):ص٤٠٠/١٤.
[٢] أخرجه الطبري(١٧٠٣٦):ص٤٠٠/١٤.
[٣] انظر: النكت والعيون:٣٨٦/٢.
[٤] انظر: مجاز القرآن:٢٦٤/٢.
[٥]الأغاني ٣ : ٣٣٦ (دار الكتب) ١٥ : ١٢٨ (ساسي) ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١ : ٢٦٤ ، واللسان (عقب) (عقب) ، (خلف) ، من قصيدة روى بعضها أبو الفرج في أغانيه ، يقوله في عائشة بنت طلحة تعريضًا ، وتصريحًا ببسرة جاريتها ، يقول قبله :
يَا رَبْع بُسرَةَ إن أضَرَّ بِكَ البِلَى ... فَلَقد عَهِدتُكَ آهلا مَعْمورًا
ورواية أبي الفرج " عقب الرذاذ " ، و " الرذاذ " صغار المطر . وأما " الربيع " ، فهو المطر الذي يكون في الربيع . قال أبو الفرج الأصبهاني : " وقوله : عقب الرذاذ ، يقول : جاء الرذاذ بعده . ومنه يقال : عقب لفلان غنى بعد فقر وعقب الرجل أباه : إذا قام بعده مقامه . وعواقب الأمور ، مأخوذة منه ، واحدتها عاقبة . . . والشواطب : النساء اللواتي يشطبن لحاء السعف ، يعملن منه الحصر . ومنه السيف المشطب ، والشطبية : الشعبة من الشيء . ويقال : بعثنا إلى فلان شطبية من خيلنا ، أي : قطعة " . قلت : وإنما وصف آثار الغيث في الديار ، فشبه أرضها بالحصر المنمقة ، للطرائق التي تبقى في الرمل بعد المطر.
[٦] تفسير الطبري:٣٩٩/١٤.
[٧] التفسير الميسر:٢٠٠.
[٨] تفسير الطبري:٣٩٩/١٤.
[٩] صفوة التفاسير:٥١٤/١.
[١٠] تفسير الطبري:٣٩٩/١٤.
[١١] تفسير ابن كثير:١٨٩/٤.
[١٢] انظر: النكت والعيون:٣٨٧/٢.

والثاني : أنهم قالوه للمؤمنين ليقعدوا معهم ، وهؤلاء المخلفون عن النبي -ﷺ- في غزاة تبوك وكانوا أربعة وثمانين نفساً .

قوله تعالى:{قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا} [التوبة : ٨١]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: نار جهنم أشد حرًا"[١].

قال الطبري:" فقال الله لنبيه محمد ﷺ : {قل} لهم ، يا محمد {نار جهنم}، التي أعدّها الله لمن خالف أمره وعصى رسوله {أشد حرًّا}، من هذا الحرّ الذي تتواصون بينكم أن لا تنفروا فيه. يقول : الذي هو أشد حرًا ، أحرى أن يُحذر ويُتَّقى من الذي هو أقلهما أذًى "[٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضا فنفسني، فأذن لها في نفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف فأشد ما تجدون من الحر من سمومها، وأشد ما تجدون من البرد من زمهريرها"[٣].

قال ابن كثير:" قال الله تعالى لرسوله : { قل } لهم : { نَارُ جَهَنَّمَ } التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم { أَشَدُّ حَرًّا } مما فررتم منه من الحر ، بل أشد حرا من النار ، كما قال الإمام مالك ، عن أبي الزِّناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : «نار بني آدم التي يوقدون بها جزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنم»، فقالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية. قال : «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا»[٤]"[٥].

وعن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : "إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ، وضربت بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد"[٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "أوقد على النار ألف سنة حتى احمرَّت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضَّت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهي سوداء كالليل المظلم"[٧].

عن أنس قال : "تلا رسول الله ﷺ : { نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ } [التحريم : ٦] قال : "أُوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ، وألف عام حتى احمرت ، وألف عام حتى اسودت ، فهي سوداء كالليل ، لا يضيء لهبها"[٨].

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث تمام بن نَجِيح - وقد اختلف فيه - عن الحسن ، عن أنس مرفوعا : "لو أن شرارة بالمشرق - أي من نار جهنم - لوجد حرها مَنْ بالمغرب"[٩].

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : "لو كان هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون ، وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه ، لاحترق المسجد ومن فيه"[١٠]. قال ابن كثير:" غريب"[١١].

---

[١] التفسير الميسر:٢٠٠.
[٢] تفسير الطبري:٣٩٩/١٤.
[٣]رواه البخاري (٥٣٧)، ومسلم (٦١٧).
[٤]الموطأ (٩٩٤/٢) وصحيح البخاري برقم (٣٢٦٥) ورواه مسلم في صحيحه برقم (٢٨٤٣) من طريق المغيرة بن عبد الرحمن عن أبي الزناد به.
[٥] تفسير ابن كثير:١٨٩/٤.
[٦]المسند (٢٤٤/٢). قال ابن كثير:" وهذا أيضا إسناده صحيح". تفسير ابن كثير:١٨٩/٤
[٧]سنن الترمذي برقم (٢٥٩١) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٢٠) وقال الترمذي : "حديث أبي هريرة في هذا موقوف أصح ، ولا أعلم أحدا رفعه غير يحيى بن أبي بكير عن شريك".
[٨])رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه كما في تفسير ابن كثير: ١٨٩/٤-١٩٠، ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٧٩٩) من طريق سهل بن حماد عن مبارك بن فضالة به نحوه..
[٩]) المعجم الأوسط برقم (٤٨٤١) "مجمع البحرين" وأشار الحافظ هنا إلى الاختلاف في حال تمام بن نجيح ، قال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٦٢/٤) : "في إسناده احتمال للتحسين".
[١٠]مسند أبي يعلى (٢٢/١٢) ورواه أبو نعيم في الحلية (٣٠٧/٤) من طريق إسحاق بن أبي إسرائيل به ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٦٣/٤) : "إسناده حسن ، وفي متنه نكارة".
[١١] تفسير ابن كثير:١٩٠/٤.

عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : "إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لمن له نعلان وشِرَاكان من نار ، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ، لا يرى أحدا من أهل النار أشدُّ عذابا منه ، وإنه أهونهم عذابا"[١].

عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ قال : "إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار ، يغلي دماغه من حرارة نعليه"[٢].

عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : "إن أدنى أهل النار عذابا رجل يجعل له نعلان يغلي منهما دماغه"[٣].

قال ابن كثير:" والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة ، وقال الله تعالى في كتابه العزيز : { كَلا إِنَّهَا لَظَى نزاعَةً لِلشَّوَى } [المعارج : ١٥ ، ١٦] وقال تعالى : { يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } [الحج : ١٩ - ٢٢] وقال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ } [النساء : ٥٦]

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة[الأخرى: { قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } أي : لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر ، ليتقوا به حَرَّ جهنم ، الذي هو أضعاف أضعاف هذا ، ولكنهم كما قال الآخر [٤]:

كالمستجير من الرمضاء بالنار

وقال الآخر[٥] :

عُمرُكَ بالحميَة أفْنَيْتَه مَخَافَةَ البارد والحَار
وَكانَ أولَى بك أنْ تَتقي مِنَ المعَاصِي حَذرَ النَّار"[٦].

قوله تعالى:{لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} [التوبة : ٨١]، أي:"لو كانوا يعلمون ذلك"[٧].

قال الطبري:" يقول : لو كان هؤلاء المنافقون يفقهون عن الله وعظَه ، ويتدبَّرون آي كتابه ، ولكنهم لا يفقهون عن الله ، فهم يحذرون من الحرّ أقله مكروهًا وأخفَّه أذًى ، ويواقعون أشدَّه مكروهًا وأعظمه على من يصلاه بلاءً "[٨].

الفوائد:

١- من علامات النفاق الفرح بترك طاعة الله ورسوله.
٢- من علامات النفاق كراهية طاعة الله ورسوله.
٣- إن الجهاد فيه مشقة ولم يعذر الله تعالى أناسا تخلفوا عن الجهاد في غزوة تبوك[٩] بما فيها من المشقة حتى قال الله تعالى: فيهم شر ما قال لأحد فقال: {سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [التوبة:٩٥]. كما سيأتي تفسير الآية إن شاء الله.

---

[١]صحيح البخاري برقم (٦٥٦٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٣+).
[٢]صحيح مسلم برقم (٢١١).
[٣]المسند (٤٣٨/٢). قال ابن كثير:١٩٠/٤:" وهذا إسناد جيد قوي ، رجاله على شرط مسلم ، والله أعلم".
[٤]وصدر البيت : "والمستجير بعمرو عند كربته" وذكره داود الأنطاكي في مصارع العشاق (ص ٢١٩).
[٥] غير منسوب في تفسير ابن كثير:١٩١/٤.
[٦] تفسير ابن كثير:١٩١/٤.
[٧] التفسير الميسر:٢٠٠.
[٨] تفسير الطبري:٣٩٩/١٤.
[٩]في رجب سنة تسع من الهجرة، وهي آخر غزاة غزاها النبي ﷺ بنفسه، وكان خروجه في عام جدب وفي حر حر شديد. الدّر في اختصار المغازي ٢٨.

٤- في الآية الكريمة بين الله - تعالى - أن حرارة جهنم لا يمكن أن تقاس بالمقاييس التي يعرفها البشر بالنسبة لدرجات الحرارة لأنها نار اليوم الذي يفصل الله فيه بين الخلائق، وهي نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة. فلا يستطيع أحد أن يقيسها بنار الدنيا.

القرآن

{فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)} [التوبة : ٨٢]

التفسير:

فليضحك هؤلاء المنافقون الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة (تبوك) قليلا في حياتهم الدنيا الفانية، وليبكوا كثيرًا في نار جهنم؛ جزاءً بما كانوا يكسبون في الدنيا من النفاق والكفر.

قوله تعالى:{فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا} [التوبة : ٨٢]، أي:" فليضحك هؤلاء المنافقون الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة (تبوك) قليلا في حياتهم الدنيا الفانية، وليبكوا كثيرًا في نار جهنم"(١).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : فرح هؤلاء المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، فليضحكوا فرحين قليلا في هذه الدنيا الفانية بمقعدهم خلاف رسول الله ولَهْوِهم عن طاعة ربهم ، فإنهم سيبكون طويلا في جهنم مكانَ ضحكهم القليل في الدنيا"(٢).

قال الزمخشري:" معناه: فسيضحكون قليلا، ويبكون كثيرا جزاء إلا أنه أخرج على لفظ الأمر، للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره. يروى أن أهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا، لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم"(٣).

عن ابن عباس قوله : "{فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرًا}، قال : هم المنافقون والكفار ، الذين اتخذوا دينهم هُزُوًا ولعبًا. يقول الله تبارك وتعالى : {فليضحكوا قليلا}، في الدنيا {وليبكوا كثيرًا} ، في النار"(٤).

وروي عن ابن عباس أيضا: "قوله: {فليضحكوا قليلا}، قال: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، {وليبكوا كثيرا}، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله، استأنفوا بكاء لا ينقطع أبدا"(٥).

أبدا"(٥).

وعن أبي رزين : "{فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرًا}، قال يقول الله تبارك وتعالى : الدنيا قليل ، فليضحكوا فيها ما شاءوا ، فإذا صاروا إلى الآخرة بكوا بكاءً لا ينقطع. فذلك الكثير"(٦).

عن الحسن : "{فليضحكوا قليلا}، قال : ليضحكوا قليلا في الدنيا {وليبكوا كثيرًا}، في الآخرة ، في نار جهنم {جزاء بما كانوا يكسبون}"(٧).

عن الربيع بن خثيم: "{فليضحكوا قليلا}، قال : في الدنيا {وليبكوا كثيرًا}، قال : في الآخرة"(٨).

عن قتادة : "{فليضحكوا قليلا}، أي: في الدنيا. {وليبكوا كثيرًا}، أي: في النار. ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال : والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا. ذكر لنا أنه نودي عند ذلك ، أو قيل له : لا تُقَنِّط عبادي"(٩).

---

(١) التفسير الميسر:٢٠٠.

(٢) تفسير الطبري:٤٠١/١٤.

(٣) الكشاف:٢٩٦/٢.

(٤) أخرجه الطبري(١٧٠٤٥):ص٤٠٢/١٤-٤٠٣.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٥٠٦):ص١٨٥٥/٦.

(٦) أخرجه الطبري(١٧٠٣٧):ص٤٠١/١٤.

(٧) أخرجه الطبري(١٧٠٤١):ص٤٠٢/١٤.

(٨) أخرجه الطبري(١٧٠٣٨):ص٤٠١/١٤.

(٩) أخرجه الطبري(١٧٠٤٢):ص٤٠٢/١٤.

قال ابن زيد في قوله : "{فليضحكوا}، في الدنيا ، {قليلا}. {وليبكوا}، يوم القيامة ، {كثيرًا}. وقال: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ}، حتى بلغ :{هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}، [سورة المطففين : ٣٦]"[١].

قال الماوردي:" قوله عز وجل {فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً}، هذا تهديد وإن خرج مخرج الأمر ، وفي قلة ضحكهم وجهان :

أحدهما : أن الضحك في الدنيا لكثرة حزنها وهمومها قليل ، وضحكهم فيها أقل لما يتوجه إليهم من الوعيد .

الثاني : أن الضحك في الدنيا وإن دام إلى الموت قليل ، لأن الفاني قليل"[٢].

وفي قوله تعالى:{ وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً} [التوبة : ٨٢]، فيه وجهان [٣]:

أحدهما : في الآخرة لأنه يوم مقداره خمسون ألف سنة ، وهم فيه يبكون ، فصار بكاؤهم كثيراً ، وهذا معنى قول الربيع بن خيثم[٤].

الثاني : في النار على التأبيد لأنهم إذا مسهم العذاب بكوا من ألمه ، وهذا قول السدي [٥].

قال الماوردي:"ويحتمل أن يريد بالضحك السرور ، وبالبكاء الغم"[٦].

عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "يا أيها الناس ، ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول ، حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون. فلو أن سُفُنًا أُزْجِيَتْ فيها لَجرَت"[٧].

عن زيد بن رُفَيْع ، رفعه قال : "إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زمانا ، ثم بكوا القيح زمانا" قال : "فتقول لهم الخَزَنَة : يا معشر الأشقياء ، تركتم البكاء في الدار المرحوم فيها أهلها في الدنيا ، هل تجدون اليوم من تستغيثون به ؟ قال : فيرفعون أصواتهم : يا أهل الجنة ، يا معشر الآباء والأمهات والأولاد ، خرجنا من القبور عطاشا ، وكنا طول الموقف عطاشا ، ونحن اليوم عطاش ، فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، فيدعون أربعين سنة لا يجيبهم ، ثم يجيبهم : { إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ } [الزخرف : ٧٧] فييأسون من كل خير"[٨].

وعن أنس بن مالك مرفوعاً بلفظ: " يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم حتى تصير في وجوههم كهيئة الأخدود، لو أرسلت فيه السفن لجرت"[٩].

لجرت"[٩].

قال السمعاني:" «الضحك»: حالة تكون في الإنسان من التعجب والفرح، و«البكاء»: حالة تعتري الإنسان من الهم وضيق القلب مع جريان الدمع على الخد، ويقال: إن الضحك في بني آدم كالصهيل في الخيل"[١٠].

---

[١] أخرجه الطبري(١٧٠٤٦):ص٤٠٣/١٤.

[٢] النكت والعيون:٣٨٧/٢.

[٣] انظر: النكت والعيون:٣٨٧/٢.

[٤] انظر: النكت والعيون:٣٨٧/٢.

[٥] انظر: النكت والعيون:٣٨٧/٢.

[٦] النكت والعيون:٣٨٧/٢.

[٧]مسند أبي يعلى (١٦١/٧ - ١٦٢) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٢٤) وقال البوصيري في الزوائد (٣٢٣/٣) : "هذا إسناد فيه يزيد بن أبان الرقاشي وهو ضعيف".

[٨] رواه الحافظ أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا في صفة النار (ق ١٥٢ ظاهرية) وله شواهد من حديث حديث أبي موسى الأشعري وأبي سعيد الخدري ، رضي الله عنهما. وانظر: تفسير ابن كثير:١٩٢/٤

[٩]أورد الشيخ ناصر الحديثين في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٢٤٥/٤) حديث رقم: ١٦٧٩، وعزا الحديث الأول منهما إلى الحاكم في مستدركه، وقد قال فيه الحاكم: (حديث صحيح الإسناد) . ووافقه الذهبي: قال الشيخ ناصر: وحقه أن يزيد: على شرط الشيخين (فإن رجاله كلهم من رجالهما، وذكر أن أحد رجاله وهو أبو النعمان ويلقب (بعارم) كان قد اختلط، وساق الشيخ ناصر الحديث الثاني شاهداً للأول، وعزاه إلى ابن ماجة وابن أبي الدنيا، ويزيد الرقاشي أحد رواته ضعيف، وباقي رجاله رجال الشيخين.

[١٠] تفسير السمعاني:٣٣٣/٢.

قوله تعالى:{جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [التوبة : ٨٢]، أي:" جزاءً بما كانوا يكسبون في الدنيا من النفاق والكفر"[١].

قال الطبري:" يقول : ثوابًا منا لهم على معصيتهم ، بتركهم النفر إذ استنفروا إلى عدوّهم ، وقعودهم في منازلهم خلافَ رسول الله {بما كانوا يكسبون}، يقول : بما كانوا يجترحون من الذنوب "[٢].

عن السدي قوله: "{جزاء بما كانوا يكسبون}، يقول: إن مرجعهم إلى النار"[٣].

الفوائد:

١- كراهية الضحك والإكثار منه.

وصح عنه ﷺ أنه قال: " إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجدا والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله"[٤].

وورد أن كثرة الضحك تميت القلب[٥]، وكان النبي ﷺ جل ضحكه الابتسام[٦].

الابتسام[٦].

---

[١] التفسير الميسر:٢٠٠.

[٢] تفسير الطبري:٤٠١/١٤.

[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٠١):ص١٨٥٦/٦.

[٤]أخرجه أحمد (١٧٣/٥، رقم ٢١٥٥٥) والترمذى (٥٥٦/٤ رقم ٢٣١٢) وقال: حسن غريب. وابن ماجه (١٤٠٢/٢ رقم ٤١٩٠) والحاكم (٥٥٤/٢، رقم ٣٨٨٣) وقال: صحيح الإسناد. وأبو الشيخ فى العظمة (٩٨٢/٣، رقم ٥٠٧).

[٥] الحديث:" اتق المحارم تكن أعبد الناس وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب".

أخرجه أحمد (٣١٠/٢، رقم ٨٠٨١) ، والترمذى (٥٥١/٤، رقم ٢٣٠٥) ، وقال: غريب، والبيهقى فى شعب الإيمان (٧٨/٧، رقم ٩٥٤٣) .

وللحديث أطراف أخرى منها: "كن ورعا تكن أعبد الناس".

[٦]عن هند: أن رسول الله - ﷺ - كان فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألأ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع وأقصر من المشذب، عظيم الهامة، رجل الشعر إن انفرقت عقيقته فرق وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب سوابغ فى غير قرن بينهما عرق يدره الغضب، أقنى العرنين له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية أدعج، سهل الخدين ضليع الفم، أشنب مفلج الأسنان دقيق المسربة، كأن عنقه جيد دمية فى صفاء الفضة، معتدل الخلق بادن متماسك، سواء البطن والصدر، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أنور المتجرد موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجرى كالخط، عارى الثديين والبطن مما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر، طويل الزندين رحب الراحة سبط القصب، شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف خمصان الأخمصين، مسيح القدمين، ينبو عنهما الماء، إذا زال زال قلعا ويخطو تكفئا، ويمشى هونا، ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب فإذا التفت التفت جميعا، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه يبدأ من لقى بالسلام، كان متواصل الأحزان، دائم الفكرة ليست له راحة، لا يتكلم فى غير حاجة، طويل السكوت يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه ويتكلم بجوامع الكلم، فصل لا فضول ولا تقصير، دمث ليس بالجافى ولا بالمهين يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئا غير أنه لم يكن يذم ذواقا ولا يمدحه. ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها، فإذا تعدى الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شىء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها فضرب بباطن راحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض بصره، جل ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام، كان إذا أوى إلى منزله جزأ نفسه ثلاثة أجزاء، جزء لله، وجزء لأهله، وجزء لنفسه، ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس، فيرد ذلك على العامة بالخاصة ولا يدخر عنهم شيئا، فكان من سيرته فى جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه، وقسمه على قدر فضلهم فى الدين، فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج فيتشاغل بهم فيما أصلحهم والأمة عن مسألة عنه وإخبارهم بالذى ينبغى لهم، ويقول لهم: ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياي، فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياه، ثبت الله قدميه يوم القيامة، لا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره، يدخلون روادا، ولا يفترقون إلا عن ذواق،

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: بيان معنى: «الكسب»: أي: أفعال العباد، فأهل السنة والجماعة يقولون: إن أفعال المكلفين المختارين الاختيارية هي مخلوقة لله عز وجل، فالله عز وجل علم أفعال العباد وكتبها وشاءها وقدرها سبحانه في سابق علمه.

القرآن

{فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣)} [التوبة : ٨٣]

التفسير:

فإنْ رَدَّك الله -أيها الرسول- مِن غزوتك إلى جماعة من المنافقين الثابتين على النفاق، فاستأذنوك للخروج معك إلى غزوة أخرى بعد غزوة (تبوك) فقل لهم: لن تخرجوا معي أبدًا في غزوة من الغزوات، ولن تقاتلوا معي عدوًا من الأعداء؛ إنكم رضيتم بالقعود أول مرة، فاقعدوا مع الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ.

سبب النزول:

عن ابن عباس قال : "قال رجل : يا رسول الله ، الحر شديد ، ولا نستطيع الخروج ، فلا تنفر في الحرّ ! وذلك في غزوة تبوك فقال الله : {قل نار جهنم أشد حرًّا لو كانوا يفقهون}، فأمره الله بالخروج. فتخلف عنه رجال ، فأدركتهم نفوسهم فقالوا : والله ما صنعنا شيئًا ! فانطلق منهم ثلاثة ، فلحقوا برسول الله ﷺ ، فلما أتوه تابوا ، ثم رجعوا إلى المدينة ، فأنزل الله : (فإن رجعك الله إلى طائفة منهم) ، إلى قوله : {ولا تقم على قبرة}، فقال رسول الله ﷺ : هلك الذين تخلَّفوا ، فأنزل الله عُذْرَهم لما تابوا ، فقال: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ}، إلى قوله : {إن الله هو التواب الرحيم} [سورة التوبة : ١١٧ ، ١١٨]"[١].

ويخرجون أدلة. كان يخزن لسانه إلا مما كان يعينهم، ويؤلفهم ولا يفرقهم، ويكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه، يتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما فى الناس، ويحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهيه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه، الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة، كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، لا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك، ويعطى كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه، من جالسه أو أقامه فى حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس منه بسطة وخلقة فصار لهم أبا وصاروا له أبناء عنده فى الحق سواء، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم ولا تنثى فلتاته متعادلين متواصين فيه بالتقوى متواضعين، يوقرون الكبير ويرحمون الصغير، ويؤثرون ذوى الحاجة ويحفظون الغريب، كان دائم البشر سهل الخلق، لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح يتغافل عما لا يشتهى ولا يوئس منه راجيه ولا يخيب فيه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء، أو الإكثار، وما لا يعنيه. وترك الناس من ثلاث، كان لا يذم أحدا ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه، وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير وإذا تكلم سكتوا، وإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده الحديث من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم ويقول: إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرشدوه، ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوزه، فيقطعه بنهى أو قيام، كان سكوته على أربع: على العلم، والحذر، والتدبر، والتفكر، فأما تدبره ففى تسوية النظر واستماع بين الناس، وأما تفكره ففيما يبقى ويفنى، وجمع له الحلم والصبر، فكان لا يوهنه ولا يستفزه، وجمع له الحذر فى أربع: أخذه بالحسن ليقتدى به، وترك القبيح ليتناهى عنه، واجتهاده الرأى فيما يصلح أمته، والقيام لها فيما يجمع لهم أمر الدنيا والآخرة".

أخرجه الترمذى فى الشمائل المحمدية (٣٤/١، رقم ٨) ، والطبرانى (١٥٥/٢٢، رقم ٤١٤) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (١٥٤/٢، رقم١٤٣٠) ، وابن عساكر (٣٤٣/٣).

[كنز العمال ١٨٥٣٥، ١٧٨٠٧]

[١] أخرجه الطبري(١٧٠٤٧):ص٤٠٤/١٤.

قوله تعالى:{فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ} [التوبة : ٨٣]، أي:" فإنْ رَدَّك الله -أيها الرسول- مِن غزوتك إلى جماعة من المنافقين الثابتين على النفاق"[١].

قال السمعاني:" يعني: لو ردك الله إلى طائفة منهم"[٢].

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ : فإن ردّك الله ، يا محمد ، إلى طائفة من هؤلاء المنافقين من غزوتك هذه"[٣].

قال ابن كثير:" يقول تعالى آمرا لرسوله عليه الصلاة والسلام { فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ } أي : ردك الله من غَزْوَتك هذه { إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ }"[٤].

قال الزمخشري:" وإنما قال {إلى طائفة منهم}، لأن منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف، أو اعتذر بعذر صحيح. وقيل: لم يكن المخلفون كلهم منافقين، فأراد بالطائفة: المنافقين منهم"[٥].

قوله تعالى:{فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ} [التوبة : ٨٣]، أي:" فاستأذنوك للخروج معك إلى غزوة أخرى بعد غزوة «تبوك»"[٦].

قال السمعاني:" ليخرجوا معك في القتال"[٧].

قال الطبري:أي:" معك في أخرى غيرها"[٨].

قال ابن كثير:" أي : معك إلى غزوة أخرى"[٩].

قال الزمخشري:" يعنى: إلى غزوة بعد غزوة تبوك. وأول مرة هي الخروج إلى غزوة تبوك، وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم الذي علم الله أنه لم يدعهم إليه إلا النفاق، بخلاف غيرهم من المتخلفين مع الخالفين"[١٠].

قوله تعالى:{فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا} [التوبة : ٨٣]، أي:" فقل لهم: لن تخرجوا معي أبدًا في غزوة من الغزوات"[١١].

قال ابن كثير:أي:" تعزيرا لهم وعقوبة "[١٢].

قوله تعالى:{وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا} [التوبة : ٨٣]، أي:" ولن تقاتلوا معي عدوًا من الأعداء"[١٣].

قال السمعاني:" قال أهل التفسير: «العدو» ها هنا: أهل الكتاب؛ فإنه لم يكن بقي بجزيرة العرب مشرك في ذلك الوقت"[١٤].

قوله تعالى:{إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [التوبة : ٨٣]، أي:" إنكم قعدتم عن الخروج معي أول مرة حين لم تخرجوا إلى «تبوك»"[١٥].

قال الطبري:" وذلك عند خروج النبي ﷺ إلى تبوك"[١٦].

---

[١] التفسير الميسر:٢٠٠.
[٢] تفسير السمعاني:٣٣٤/٢.
[٣] تفسير الطبري:٤٠٣/١٤.
[٤] تفسير ابن كثير:١٩٢/٤.
[٥] الكشاف:٢٩٧/٢.
[٦] التفسير الميسر:٢٠٠.
[٧] تفسير السمعاني:٣٣٤/٢.
[٨] تفسير الطبري:٤٠٣/١٤.
[٩] تفسير ابن كثير:١٩٢/٤.
[١٠] الكشاف:٢٩٧/٢.
[١١] التفسير الميسر:٢٠٠.
[١٢] تفسير ابن كثير:١٩٢/٤.
[١٣] التفسير الميسر:٢٠٠.
[١٤] تفسير السمعاني:٣٣٤/٢.
[١٥] صفوة التفاسير:٥١٥/١.
[١٦] تفسير الطبري:٤٠٣/١٤.

قال ابن كثير:" ثم علل ذلك بقوله : { إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ } وهذا كقوله تعالى : { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ } [الأنعام : ١١٠] فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، كما قال في عُمرة الحديبية : { سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ } [الفتح : ١٥]"[١].

قوله تعالى:{فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ} [التوبة : ٨٣]، أي:" فاقعدوا مع الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله-ﷺ-"[٢].

قال الطبري:" يقول : فاقعدوا مع الذين قعدوا من المنافقين خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنكم منهم ، فاقتدوا بهديهم ، واعملوا مثل الذي عملوا من معصية الله ، فإن الله قد سخط عليكم"[٣].

وفي قوله تعالى:{فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ} [التوبة : ٨٣]، وجهان:

أحدهما : أنهم النساء والصبيان ، قاله الحسن[٤]، وقتادة[٥].

عن قتادة قوله : "{فإن رجعك الله إلى طائفة منهم}، إلى قوله : {فاقعدوا مع الخالفين}، أي : مع النساء. ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر رجلا من المنافقين ، قيل فيهم ما قيل"[٦].

الثاني : هم الرجال الذين تخلفوا بأعذار وأمراض ، قاله ابن عباس[٧].

روي عن ابن عباس : "{فاقعدوا مع الخالفين}، و«الخالفون»: الرجال"[٨].

قال السمعاني:"و«الخالفون» هاهنا هم النساء والصبيان، وقيل: هم أهل الزمانة والضعف"[٩].

قال الطبري:" والصواب من التأويل في قوله : {الخالفين}، ما قال ابن عباس، فأما ما قال قتادة من أن ذلك النساء ، فقولٌ لا معنى له. لأن العرب لا تجمع النساء إذا لم يكن معهن رجال ، بالياء والنون ، ولا بالواو والنون. ولو كان معنيًّا بذلك النساء لقيل : " فاقعدوا مع الخوالف " ، أو " مع الخالفات " . ولكن معناه ما قلنا ، من أنه أريد به : فاقعدوا مع مرضى الرِّجال وأهل زَمانتهم ، والضعفاء منهم ، والنساء. وإذا اجتمع الرجال والنساء في الخبر ، فإن العرب تغلب الذكور على الإناث ، ولذلك قيل : {فاقعدوا مع الخالفين}، والمعنى ما ذكرنا"[١٠].

قرأ مالك بن دينار رحمه الله: «مع الخلفي»ن، على قصر «الخالفين»[١١].

الفوائد:

١- تعمد ترك الطاعة قد يسبب الحرمان منها.

٢- الحذر من التهاون بالامر إذا حضر وقته، قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في "بدائع الفوائد": "حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء:

أحدهما: رد الحق لمخالفه هواك، فإنك تعاقب بتقليب القلب، ورد ما يَرِد عليك من الحق رأسًا ولا تتقبله إلا إذا برز في قالب هواك، قال -تعالى-: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك.

---

[١] تفسير ابن كثير:١٩٢/٤.

[٢] التفسير الميسر:٢٠٠.

[٣] تفسير الطبري:٤٠٣/١٤-٤٠٣.

[٤] انظر: النكت والعيون:٣٨٨/٢.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٠٤٨):ص٤٠٤/١٤.

[٦] أخرجه الطبري(١٧٠٤٨):ص٤٠٤/١٤.

[٧]انظر: تفسير الطبري(١٧٠٤٩):ص٤٠٤/١٤.

[٨] أخرجه الطبري(١٧٠٤٩):ص٤٠٤/١٤.

[٩] تفسير السمعاني:٣٣٤/٢.

[١٠] تفسير الطبري:٤٠٤/١٤-٤٠٥.

[١١] انظر: الكشاف:٢٩٧/٢.

والثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته، فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره عقوبة لك، قال -تعالى-: {فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ}. فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين فلتهنه السلامة"(١).
السلامة"(١).

٣- قال أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى: "وقد دل الله على إمامة أبي بكر في سورة براءة، فقال للقاعدين عن نصرة نبيه عليه السلام والمتخلفين عن الخروج معه: {فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً}..."(٢).

القرآن

{وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤)} [التوبة : ٨٤]

التفسير:

ولا تصلِّ -أيها الرسول- أبدًا على أحد مات من المنافقين، ولا تقم على قبره لتدعو له؛ لأنهم كفروا بالله تعالى وبرسوله ﷺ وماتوا وهم فاسقون.

سبب نزول الآيتان:[٨٤-٨٥]

عن ابن عمر قال : "جاء ابن عبد الله بن أبيّ ابن سلول إلى رسول الله حين مات أبوه فقال : أعطني قميصَك حتى أكفّنه فيه ، وصلّ عليه ، واستغفر له . فأعطاه قميصه وإذا فرغتم فآذنوني، فلما أراد أن يصلي عليه ، [جذبه] عمر، وقال : أليس قد نهاك الله أن تُصَلّيّ على المنافقين ؟ فقال : بل خيّرني وقال : {استغفر لهم أو لا تستغفر لهم}، قال : فصلي عليه. قال : فأنزل الله تبارك وتعالى : {ولا تُصَلِّ على أحَدٍ منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره}، قال : فترك الصلاة عليهم"(٣).

عن عبد الله بن عباس قال : "سمعتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لما توفي عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول ، دُعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه ، فقام إليه. فلما وقف عليه يريد الصلاة ، تحوَّلتُ حتى قمت في صدره فقلت : يا رسول الله ، أتصلي على عدوّ الله عبد الله بن أبي ، القائل يوم كذا كذا وكذا!! أعدِّد أيّامه ، ورسول الله عليه السلام يتبسم ، حتى إذا أكثرت عليه قال : أخِّر عنّي يا عمر ، إني خُيِّرت فاخترت ، وقد قيل لي : {استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم} ، فلو أنّي أعلم أنّي إن زدت على السبعين غفر له ، لزدت ! قال : ثم صلى عليه ، ومشى معه ، فقام على قبره حتى فرغ منه. قال : فعجبتُ لي وجُرْأتي على رسول الله ﷺ ، والله ورسوله أعلم. فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان : {ولا تصلِّ على أحدا منهم مات أبدًا}، فما صلى رسول الله ﷺ بعدَه على منافق ، ولا قام على قبره ، حتى قبضه الله"(٤).

وعن قتادة قوله : "{ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره}، الآية ، قال : بعث عبد الله بن أبيّ إلى رسول الله ﷺ وهو مريض ليأتيه ، فنهاه عن ذلك عمر. فأتاه نبيُّ الله ﷺ ، فلما دخل عليه ، قال نبي الله ﷺ : أهلكك حبُّ اليهود! قال فقال : يا نبي الله ، إني لم أبعث إليك لتؤنّبني ، ولكن بعثت إليك لتستغفر لي! وسأله قميصه أن يكفن فيه ، فأعطاه إياه ، فاستغفر له رسولُ الله ﷺ ، فمات فكفن في قميص رسول الله ﷺ ، ونفث في جلده ، ودلاه في قبره ، فأنزل الله تبارك وتعالى : {ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا} ، الآية. قال : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كُلِّم

---

(١)بدائع الفوائد:٣/١٨٠-١٨١ .

(٢)الإبانة عن أصول الديانة ص/٦٧، وانظر مقالات الإسلاميين ٢/١٤٤، الاعتقاد للبيهقي ص/١٧٢-١٧٣.

(٣) أخرجه الطبري(١٧٠٥٠):ص١٤/٤٠٦.

(٤) اخرجه الطبري(١٧٠٥٥):ص١٤/٤٠٨-٤٠٩.

في ذلك فقال : وما يغني عنه قميصي من الله أو : ربي، وصلى عليه وإني لأرجو أن يسلم به ألفٌ من قومه"[1].

عن جابر بن عبد الله : "أن رأسَ المنافقين مات بالمدينة ، فأوصى أن يصلي عليه النبيُّ ﷺ ، وأن يكفَّن في قميصه ، فكفنه في قميصه ، وصلى عليه وقام على قبره ، فأنزل الله تبارك وتعالى : {ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره}"[2].

قال ابن كثير:" أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يَبْرَأ من المنافقين ، وألا يصلي على أحد منهم إذا مات ، وألا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له ؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا عليه. وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أُبَيّ بن سلول رأس المنافقين"[3].

قوله تعالى:{وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا} [التوبة : ٨٤]، أي:" ولا تصلِّ -أيها الرسول- أبدًا على أحد مات من المنافقين"[4].

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ : ولا تصلِّ ، يا محمد ، على أحد مات من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معك أبدًا"[5].

قال الصابوني:" أي: لا تصل يا محمد على أحدٍ من هؤلاء المنافقين إذا مات، لأن صلاتك رحمة، وهم ليسوا أهلاً للرحمة "[6].

قوله تعالى:{وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ} [التوبة : ٨٤]، أي:" ولا تقم على قبره لتدعو له"[7].

قال الطبري:" يقول : ولا تتولَّ دفنه وتقبيره"[8].

قال الصابوني:" أي: لا تقف على قبره للدفن، أو للزيادة والدعاء"[9].

عن أنس : "أن رسول الله ﷺ أراد أن يصلي على عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول ، فأخذ جبريل عليه السلام بثوبه فقال :{ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره}"[10].

عن جابر قال : "جاء النبيُّ ﷺ عبدَ الله بن أبيّ وقد أدخل حُفْرته ، فأخرجه فوضعه على ركبتيه ، وألبسه قميصه ، وتَفَل عليه من ريقه ، والله أعلم"[11].

عن عاصم بن عمر بن قتادة قال : "لما مات عبد الله بن أبي ، أتى ابنه عبد الله بن عبد الله رسولَ الله ﷺ ، فسأله قميصه ، فأعطاه ، فكفَّن فيه أباه"[12].

قال الإمام البيضاوي:" وإنما لم ينه عن التكفين في قميصه ونهى عن الصلاة عليه لأن الضن بالقميص كان مخلا بالكرم ولأنه كان مكافأة لإلباسه العباس قميصه حين أسر ببدر، والمراد من الصلاة الدعاء للميت والاستغفار له وهو ممنوع في حق الكافر ولذلك رتب النهي على قوله: {مات أبدا}، يعني: الموت على الكفر فإن إحياء الكافر للتعذيب دون التمتع فكأنه لم يحي، {ولا تقم على قبره}، ولا تقف عند قبره للدفن أو الزيارة"[13].

---

[1] أخرجه الطبري(١٧٠٥٨):ص٤٠٩/١٤-٤١٠.
[2] أخرجه الطبري(١٧٠٥٢):ص٤٠٧/١٤.
[3] تفسير ابن كثير:١٩٢/٤-١٩٣.
[4] التفسير الميسر:٢٠٠.
[5] تفسير الطبري::٤٠٥/١٤.
[6] صفوة التفاسير:٥١٥/١.
[7] التفسير الميسر:٢٠٠.
[8] تفسير الطبري::٤٠٥/١٤.
[9] صفوة التفاسير:٥١٥/١.
[10] أخرجه الطبري(١٧٠٥٣):ص٤٠٧/١٤.
[11] أخرجه الطبري(١٧٠٥٤):ص٤٠٨/١٤.
[12] أخرجه الطبري(١٧٠٥٦):ص٤٠٩/١٤.
[13] تفسير البيضاوي:٩٢/٣.

قوله تعالى:{إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [التوبة : ٨٤]، أي:" لأنهم كانوا في حياتهم منافقين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر"[١].

قال الطبري:" يقول : إنهم جحدوا توحيد الله ورسالة رسوله وماتوا وهم خارجون من الإسلام ، مفارقون أمرَ الله ونهيه "[٢].

قوله تعالى:{وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} [التوبة : ٨٤]، أي:" وماتوا وهم على نفاقهم خارجون من الإسلام متمردون في العصيان"[٣].

قال أهل العلم:"وهذا حكم عام في كل من عُلِمَ نفاقه"[٤].

الفوائد:

١- حرمة الصلاة على الكافر مطلقا.

٢- حرمة غسل الكافر والقيام على دفنه والدعاء له، فلا يجوز للمسلم تغسيل الكافر، ولا تكفينه؛ لأن الرسول ـ ﷺ ـ ألقى قتلى بدر من المشركين في القليب، بلا غسل، ولا تكفين، ولا تجوز الصلاة عليه؛ لقوله ـ جل وعلا ـ: [وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا}]التوبة:٨٤].

٣- حرمة: الدعاء للكافر بالمغفرة والرحمة، أو قول: المرحوم فلان؛ لقوله ـ جل وعلا ـ: [مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى}]التوبة :١١٣]، كما لا يجوز للمسلم تولي دفن غير المسلم كما يدفن أموات المسلمين، وإذا لم يكن للكافر الميت قريب يدفنه، فللمسلم أن يواري جثته في التراب ليمنع تأذي الخلق من نتنها، كما لا يجوز للمسلم أن يتبع جنازته، أو يمشي فيها، أو يحملها معهم، أو يحضر دفنه إذا أراد أهله دفنه؛ لقوله ـ جل وعلا ـ:{ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ} [التوبة :٨٤]، وأما إن لم يوجد من الكفار من يدفن الكافر دفنه المسلمون كما فعل النبي ﷺ بقتلى بدر وبعمه أبي طالب لما توفي قال لعلي" اذهب فواره "[٥].

٤- عدم جواز دفن الكافر في مقابر المسلمين، بل يدفن في مقابر مثله من غير المسلمين؛ لفعل النبي ـ ﷺ ـ وإجماع المسلمين على ذلك، إلا إذا ماتت امرأة كتابية زوجها مسلم وهي حامل منه، وقد بلغ عمر الحمل أكثر من ثلاثة أشهر فإنها تدفن في قبر المسلمين، ويكون ظهرها إلى القبلة؛ ليكون وجه حملها مستقبل القبلة؛ لأن الجنين مسلم؛ لكون أبيه مسلما، والمسلم لا يجوز دفنه في مقابر غير المسلمين، فرعاية لحقه تقدم مصلحة دفنه في مقابر المسلمين على مفسدة دفن أمه فيها[٦].

---

[١] صفوة التفاسير:٥١٥/١.

[٢] تفسير الطبري::٤٠٥/١٤-٤٠٦.

[٣] صفوة التفاسير:٥١٥/١.

[٤] التفسير الميسر:٢٠٠.

[٥]ناجية بن كعب: أن عليا ـ رضي الله عنه ـ قال: «لما مات أبو طالب أتيت رسول الله ـ ﷺـ، فقلت: إن عمك الشيخ الضال قد مات، قال: اذهب فوار أباك، ثم لا تحدثن شيئا حتى تأتيني، فواريته فجئته، فأمرني فاغتسلت، فدعا لي» أخرجه أبو داود.

وعند النسائي: «أنه أتى النبي ـ ﷺـ فقال: إن أبا طالب مات، فقال: اذهب فواره، قال: إنه مات مشركا، قال: اذهب فواره، فلما واريته رجعت إليه، فقال لي: اغتسل» .

وله في أخرى قال: قلت للنبي ـ ﷺـ: «إن عمك الشيخ الضال مات، فمن يواريه؟ قال: اذهب فوار أباك، ولا تحدثن حدثا حتى تأتيني، فواريته، ثم جئت، فأمرني فاغتسلت، ودعا لي ... وذكر دعاء لم أحفظه».

رواه أبو داود رقم (٣٢١٤) في الجنائز، باب الرجل يموت وله قرابة مشرك، والنسائي ١ / ١١٠ في الطهارة، باب الغسل من مواراة المشرك، و ٤ / ٧٩ في الجنائز، باب مواراة المشرك، ورواه أيضا أحمد والطيالسي وابن أبي شيبة والبيهقي وغيرهم، وهو حديث صحيح، وانظر " التلخيص " ٢ / ١١٤.

(فواره) التواري: الاستتار، أراد به الدفن.

[٦] انظر: الولاء والبراء والعداء في الإسلام، البدراني:٥٧-٥٨.

٥- كراهة الصلاة على أهل الفسق دون الكفر.
٦- في الآية الرد على المرجئة والكرامية، القائلين بأن: الإيمان هو الإقرار باللسان دون عقد القلب، فيكون المنافقون على هذا مؤمنين، وقد قال تعالى فيهم: {ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله} إلى قوله: {وتزهق أنفسهم وهم كافرون} وغير ذلك من الآيات، وهم قد نطقوا بالشهادتين بألسنتهم فقط وكذبهم الله -عز وجل- في دعواهم في غير موضع من القرآن[١].

القرآن

{وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥)} [التوبة : ٨٥]

التفسير:

ولا تعجبك -أيها الرسول- أموال هؤلاء المنافقين وأولادهم، إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا بمكابدتهم الشدائد في شأنها، وبموتهم على كفرهم بالله ورسوله.

قوله تعالى:{وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ} [التوبة : ٨٥]، أي:" ولا تعجبك -أيها الرسول- أموال هؤلاء المنافقين وأولادهم"[٢].

قال الطبري:" : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ولا تعجبك ، يا محمد ، أموالُ هؤلاء المنافقين وأولادهم ، فتصلي على أحدهم إذا مات وتقوم على قبره ، من أجل كثرة ماله وولده"[٣].

قوله تعالى:{إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا} [التوبة : ٨٥]، أي:" ، إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا بمكابدتهم الشدائد في شأنها"[٤].

قال الطبري:يقول:" فإني إنما أعطيته ما أعطيته من ذلك لأعذبه بها في الدنيا بالغموم والهموم ، بما ألزمه فيها من المؤن والنفقات والزكوات ، وبما ينوبه فيها من الرزايا والمصيبات"[٥].

وفي قوله تعالى:{إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا} [التوبة : ٨٥]، أربعة وجوه[٦]:

أحدها : يعذبهم بحفظها في الدنيا والإشفاق عليها .

والثاني : يعذبهم بما يلحقهم منها من النوائب والمصائب .

والثالث : يعذبهم في الآخرة بما صنعوا بها في الدنيا عند كسبها وعند إنفاقها .

والرابع : أنه على التقديم والتأخير ، وتقديره : ولا تعجبك أموالهم وأولادهم في الدنيا إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الآخرة . حكاه الماوردي عن ابن الأنباري[٧].

قوله تعالى:{وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة : ٨٥]، أي:" وبموتهم على كفرهم بالله ورسوله"[١].

---

[١] انظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، الحكمي:٦٠٢/٢.
[٢] التفسير الميسر:٢٠٠.
[٣] تفسير الطبري:٤١٠/١٤-٤١١.
[٤] التفسير الميسر:٢٠٠.
[٥] تفسير الطبري:٤١١/١٤.
[٦] انظر: النكت والعيون:٣٨٩/٢.
[٧] انظر: النكت والعيون:٣٨٩/٢.

قال الطبري:" يقول : وليموت فتخرج نفسه من جسده ، فيفارق ما أعطيته من المال والولد ، فيكون ذلك حسرة عليه عند موته ، ووبالا عليه حينئذٍ ، ووبالا عليه في الآخرة ، بموته جاحدًا توحيدَ الله ، ونبوةَ نبيه محمد صلى "[٢].

قال الصابوني:"أي: تخرج أرواحهم ويموتوا على الكفر منشغلين بالتمتع بالأموال والأولاد عن النظر والتدبر في العواقب"[٣].

عن السدي : "{وتزهق أنفسهم}، في الحياة الدنيا"[٤].

قال الإمام البيضاوي:وهذه الآية" تكرير للتأكيد والأمر حقيق به فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد والنفوس مغتبطة عليها. ويجوز أن تكون هذه في طريق غير الأول"[٥].

الفوائد:

١- حرمة الإعجاب بأحوال الكافرين المادية.
٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه سبحانه مريد للكائنات، من الخير والشر، والنفع والضر، والإيمان والكفر، والطاعة والمعصية. قال تعالى:{ إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون}.

القرآن

{وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦)} [التوبة : ٨٦]

التفسير:

وإذا أنزلت سورة على محمد صلى الله عليه ولم تأمر بالإيمان بالله والإخلاص له والجهاد مع رسول الله، طلب الإذن منك -أيها الرسول- أولو اليسار من المنافقين، وقالوا: اتركنا مع القاعدين العاجزين عن الخروج.

قوله تعالى:{وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ} [التوبة : ٨٦]، أي:" وإذا أنزلت سورة على محمد صلى الله عليه ولم تأمر بالإيمان بالله والإخلاص له والجهاد مع رسول الله"[٦].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : وإذا أنزل عليك ، يا محمد ، سورة من القرآن ، بأن يقال لهؤلاء المنافقين : {آمنوا بالله}، يقول : صدِّقوا بالله {وجاهدوا مع رسوله}، يقول : اغزوا المشركين مع رسول الله ﷺ "[٧].

وفي قوله تعالى:{وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ} [التوبة : ٨٦]، ثلاثة وجوه[٨]:

أحدها : استديموا الإيمان بالله .

والثاني : افعلوا فعل من آمن بالله .

والثالث : آمنوا بقلوبكم كما آمنتم بأفواهكم ، ويكون خطاباً للمنافقين .

قوله تعالى:{اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ} [التوبة : ٨٦]، أي:" طلب الإذن منك -أيها الرسول- أولو اليسار من المنافقين"[٩].

---

(١) التفسير الميسر:٢٠٠.
(٢) تفسير الطبري:٤١١/١٤.
(٣) صفوة التفاسير:٥١٥/١.
(٤) أخرجه الطبري(١٧٠٦٠):ص٤١١/١٤.
(٥) تفسير البيضاوي:٩٢/٣.
(٦) التفسير الميسر:٢٠٠.
(٧) تفسير الطبري:٤١١/١٤.
(٨) انظر: النكت والعيون:٣٨٩/٢.
(٩) التفسير الميسر:٢٠٠.

قال الطبري:" يقول : استأذنك ذوو الغنى والمال منهم في التخلف عنك ، والقعود في أهله"[١].

وفي قوله تعالى:{اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ} [التوبة : ٨٦]، وجهان:

أحدهما : أهل الغنى ، قاله ابن عباس[٢]، وقتادة .

والثاني : أهل القدرة . ذكره الماوردي[٣].

روي عن ابن إسحاق : "{وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم}، كان منهم عبد الله بن أبيّ ، والجدُّ بن قيس. فنعى الله ذلك عليهم"[٤].

قوله تعالى:{وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة : ٨٦]، أي:" وقالوا: اتركنا مع القاعدين العاجزين عن الخروج"[٥].

قال الطبري:" وقالوا لك : دعنا ، نكن ممن يقعد في منزله مع ضعفاء الناس ومرضاهم ، ومن لا يقدر على الخروج معك في السفر"[٦].

عن أبي مالك قوله: "{ذر}، يعني: خل"[٧].

الفوائد:

١- لقرآن هو مصدر التشريع الإلهي الأول والسنة الثاني.
٢- مشروعية الاستئذان للحاجة الملحة.
٣- حرمة الاستئذان للتخلف عن الجهاد مع القدرة عليه.

القرآن

{رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧)} [التوبة : ٨٧]

التفسير:

رضي هؤلاء المنافقون لأنفسهم بالعار، وهو أن يقعدوا في البيوت مع النساء والصبيان وأصحاب الأعذار، وختم الله على قلوبهم؛ بسبب نفاقهم وتخلفهم عن الجهاد والخروج مع رسول الله ﷺ في سبيل الله، فهم لا يفقهون ما فيه صلاحهم ورشادهم.

قوله تعالى:{رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ} [التوبة : ٨٧]، أي:" رضي هؤلاء المنافقون لأنفسهم بالعار، وهو أن يقعدوا في البيوت مع النساء والصبيان وأصحاب الأعذار"[٨].
الأعذار"[٨].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : رضي هؤلاء المنافقون الذين إذا قيل لهم : آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله ، استأذنك أهل الغنى منهم في التخلف عن الغزو والخروج معك لقتال أعداء الله من المشركين أن يكونوا في منازلهم ، كالنساء اللواتي ليس عليهن فرض الجهاد ، فهن قعود في منازلهنّ وبيوتهنّ"[٩].

قال ابن كثير:" يقول تعالى منكرًا وذامًا للمتخلفين عن الجهاد ، الناكلين عنه مع القدرة عليه ، ووجود السعة والطَّوْل ، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا : { ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ } ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء ، وهن الخوالف ، بعد خروج الجيش ، فإذا

---

(١) تفسير الطبري:٤١١/١٤.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٧٠٦١):ص٤١٢/١٤.
(٣) انظر: النكت والعيون:٣٨٩/٢.
(٤) أخرجه الطبري(١٧٠٦٣):ص٤١٢/١٤.
(٥) التفسير الميسر:٢٠٠.
(٦) تفسير الطبري:٤١١/١٤-٤١٢.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٣):ص١٨٥٩/٦.
(٨) التفسير الميسر:٢٠١.
(٩) تفسير الطبري:٤١٢/١٤-٤١٣.

وقع الحرب كانوا أجبن الناس ، وإذا كان أَمْنٌ كانوا أكثر الناس كلامًا ، كما قال الله) تعالى ، عنهم في الآية الأخرى : { فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ } [الأحزاب : ١٩] أي : علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن ، وفي الحرب أجبن شيء ، وكما قال الشاعر [١]:

أفي السّلم أعيارًا جفَاءً وَغلْظَةً وَفي الحَرْب أشباهُ النّسَاءِ العَوارِكِ

وقال تعالى في الآية الأخرى : { وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نزلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ [فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأرْضِ}الآية [محمد : ٢٠ - ٢٢] "[٢]

وفي قوله تعالى:{رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ} [التوبة : ٨٧]، ثلاثة وجوه:

أحدها : مع المنافقين ، حكاه الماوردي عن مقاتل[٣].

والثاني : أنهم خساس الناس وأدناهم مأخوذ من قولهم فلان خالفه أهله إذا كان دونهم ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : أنهم النساء، قاله ابن عباس[٤]، والحسن[٥]، ومجاهد[٦]، وعكرمة[٧]، وقتادة[٨]، وشمر وشمر بن عطية[٩]، وأبي مالك[١٠]، والضحاك[١١]، والسدي[١٢]، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم[١٣]، والكلبي[١٤].

عن السدي :"{رضوا بأن يكونوا مع الخوالف}،: وهم النساء. رضوا بأن يقعدوا كما قعدت النساء"[١٥].

قوله تعالى:{وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [التوبة : ٨٧]، أي:" وختم الله على قلوبهم؛ بسبب نفاقهم وتخلفهم عن الجهاد والخروج مع رسول الله ﷺ في سبيل الله"[١٦].

قال الطبري:" يقول : وختم الله على قلوب هؤلاء المنافقين"[١٧].

قال ابن كثير:" أي : بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله "[١٨].

عن سعيد المقبري في قول الله- عز وجل-: "{وطبع على قلوبهم}، قال: ختم على قلوبهم"[١].

---

[١]البيت في السيرة النبوية لابن هشام (٦٥٦/١) منسوبا إلى هند بنت عتبة ، والأعيار : جميع عير وهو الحمار الحمار ، والعوارك : هن الحوائض.

[٢] تفسير ابن كثير:١٩٦/٤-١٩٧.

[٣] انظر النكت والعيون:٣٩٠/٢، ورجاعت تفسير مقاتل بن سليمان، وإنما فسّره بالنساء. فقال:" مع الخوالف يعني مع النساء". انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١٨٨/٢

[٤] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٢٠٤):ص١٨٥٩/٦.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٠٦٩):ص٤١٤/١٤، وتفسير ابن ابي حاتم:١٨٥٩/٦ حكاه دون ذكر الإسناد.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٧٠٧٠):ص٤١٤/١٤، وتفسير ابن ابي حاتم:١٨٥٩/٦ حكاه دون ذكر الإسناد.

[٧] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٨٥٩/٦ حكاه دون ذكر الإسناد.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٧٠٦٨):ص٤١٣/١٤-٤١٤، وتفسير ابن ابي حاتم:١٨٥٩/٦ حكاه دون ذكر الإسناد.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٧٠٦٦):ص٤١٣/١٤، وتفسير ابن ابي حاتم:١٨٥٩/٦ حكاه دون ذكر الإسناد.

[١٠] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٨٥٩/٦ حكاه دون ذكر الإسناد.

[١١]تفسير الطبري(١٧٠٦٧):ص٤١٣/١٤.

[١٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٢٠٥):ص١٨٥٩/٦.

[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٧٠٧٢):ص٤١٤/١٤، وتفسير ابن ابي حاتم:١٨٥٩/٦ حكاه دون ذكر الإسناد.

[١٤] انظر: النكت والعيون:٣٩٠/٢.

[١٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٥):ص١٨٥٩/٦.

[١٦] التفسير الميسر:٢٠١.

[١٧] تفسير الطبري:٤١٣/١٤.

[١٨] تفسير ابن كثير:١٩٧/٤.

عن قتادة قوله: وطبع على قلوبهم أي: بأعمالهم فهم لا يفقهون"[٢].
قوله تعالى:{فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} [التوبة : ٨٧]، أي:" فهم لا يفقهون ما فيه صلاحهم ورشادهم"[٣].
قال الطبري : أي: "عن الله مواعظه ، فيتعظون بها"[٤].
قال ابن كثير:"أي : لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه ، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه"[٥].
قال البيضاوي:أي:" ما في الجهاد وموافقة الرسول من السعادة وما في التخلف عنه من الشقاوة"[٦].
الفوائد:
١- حرمة التخلف عن الجهاد بدون إذن من الإمام.
٢- فضل الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله.
٣- من فوائد الآية: أن الإنسان إذا لم يكن له إقبال على الحق، وكان قلبه مريضاً فإنه يعاقب بزيادة المرض؛ لقوله تعالى: {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ }؛ وهذا المرض الذي في قلوب المنافقين: شبهات، وشهوات؛ فمنهم من علم الحق، لكن لم يُرده؛ ومنهم من اشتبه عليه؛ وقد قال الله تعالى في سورة النساء: {إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلًا} [النساء: ١٣٧]، وقال تعالى في سورة المنافقين: {ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون} [المنافقون: ٣].
٤- ومن فوائد الآية: أن أسباب إضلال اللهِ العبدَ هو من العبد؛ لقوله تعالى: {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ }؛ ومثل ذلك قوله تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} [الصف: ٥]، وقوله تعالى: {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة} [الأنعام: ١١٠]، وقوله تعالى: {فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم} [المائدة: ٤٩].

القرآن
{لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨)} [التوبة : ٨٨]
التفسير:
إنْ تخلَّف هؤلاء المنافقون عن الغزو، فقد جاهد رسول الله ﷺ والمؤمنون معه بأموالهم وأنفسهم، وأولئك لهم النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة، وأولئك هم الفائزون.
قوله تعالى:{لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ} [التوبة : ٨٨]، أي:" إنْ تخلَّف هؤلاء المنافقون عن الغزو، فقد جاهد رسول الله ﷺ والمؤمنون معه بأموالهم وأنفسهم"[٧].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : لم يجاهد هؤلاء المنافقون الذين اقتصصت قصصهم المشركين ، لكن الرسول محمد ﷺ والذين صدقوا الله ورسوله معه ، هم الذين جاهدوا المشركين بأموالهم وأنفسهم ، فأنفقوا في جهادهم أموالهم واتعبوا في قتالهم أنفسهم وبذلوها"[١].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٦):ص١٨٥٩/٦.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٧):ص١٨٥٩/٦.
[٣] التفسير الميسر:٢٠١.
[٤] تفسير الطبري:٤١٣/١٤.
[٥] تفسير ابن كثير:١٩٧/٤.
[٦] تفسير البيضاوي:٩٢/٣.
[٧] التفسير الميسر:٢٠١.

قال البيضاوي:" أي: إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم"[2].
قال الرازي:" لما شرح حال المنافقين في الفرار عن الجهاد بين أن حال الرسول والذين آمنوا معه بالضد منه، حيث بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والتقرب إليه.
وقوله: {لكن} فيه فائدة، وهي: أن التقدير أنه إن تخلف هؤلاء المنافقون عن الغزو، فقد توجه إليه من هو خير منهم، وأخلص نية واعتقادا، كقوله: {فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما} [الأنعام: ٨٩] وقوله: {فإن استكبروا فالذين عند ربك} [فصلت: ٣٨]"[3].
قوله تعالى:{وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ} [التوبة : ٨٨]، أي:" وأولئك لهم النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة"[4].
قال البيضاوي:أي:" منافع الدارين النصر والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في الآخرة"[5].
قال الطبري:" يقول : وللرسول وللذين آمنوا معه الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم (الخيرات) ، وهي خيرات الآخرة ، وذلك : نساؤها ، وجناتها ، ونعيمها"[6].
قال ابن كثير:" أي : في الدار الآخرة ، في جنات الفردوس والدرجات العلى "[7].
وفي قوله تعالى:{وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ} [التوبة : ٨٨]، اربعة وجوه[8]:
أحدها : أنها غنائم الدنيا ومنافع الجهاد .
والثاني : فواضل العطايا .
والثالث : ثواب الآخرة .
والرابع : حُور الجنان ، من قوله تعالى :{فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ} [الرحمن : ٧٠] .
قال الطبري:" [«الخيرات»]: واحدتها " خَيْرَة " ، كما قال الشاعر [9]:
وَلَقَدْ طَعَنْتُ مَجَامِعَ الرَّبَلاتِ   رَبَلاتِ هِنْدٍ خَيْرَةِ المَلِكاتِ
و«الخيرة»، من كل شيء ، الفاضلة[10].
قوله تعالى:{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [التوبة : ٨٨]، أي:" وأولئك هم الفائزون"[11].
قال البيضاوي:أي:" الفائزون بالمطالب"[12].
قال الطبري:" يقول : وأولئك هم المخلدون في الجنات ، الباقون فيها ، الفائزون بها"[13].
عن ابن عباس: "{وأولئك هم المفلحون}، أي: الذين أدركوا ما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا"[14].

---

(1) تفسير الطبري:٤١٤/١٤.
(2) تفسير البيضاوي:٩٣/٣.
(3) مفاتيح الغيب:١١٩/١٦.
(4) التفسير الميسر:٢٠١.
(5) تفسير البيضاوي:٩٣/٣.
(6) تفسير الطبري:٤١٤/١٤.
(7) تفسير ابن كثير:١٩٧/٤.
(8) انظر: النكت والعيون:٣٩٠/٢.
(9) الشعر لرجل من بني عدي ، عدي تيم تميم ، وهو جاهلي، انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ : ٢٦٧ ، واللسان (خير) ، و " الربلات " جمع " ربلة " (بفتح الراء وسكون الباء ، أو فتحها) ، وهي لحم باطن الفخذ . عنى أمرًا قبيحًا . وقوله " خيرة " ، مؤنث " خير " ، صفة ، لا بمعنى التفضيل ، يقال : " رجل خير ، وامرأة خيرة " ، فإذا أردت التفضيل قلت : " فلانة خير الناس ".
(10) انظر: تفسير الطبري:٤١٥/١٤.
(11) التفسير الميسر:٢٠١.
(12) تفسير البيضاوي:٩٣/٣.
(13) تفسير الطبري:٤١٥/١٤.
(14) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٨):ص١٨٥٩/٦-١٨٦٠ .

عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي قال: "سمعت أبا حازم يقول: إن الله ليعد للعبد من عبيده في الجنة لؤلؤة مسيرة أربعة برد، أبوابها وغرفها ومغاليقها ليس فيها فصم ولا قصم، والجنة مائة درجة فثلاث منها ورق وذهب ولؤلؤة وزبرجد وياقوت، وسبعة وتسعون لا يعلمها إلا الذي خلقها"(١).

قال الرازي:" ولما وصفهم بالمسارعة إلى الجهاد ذكر ما حصل لهم من الفوائد والمنافع. وهو أنواع:

أولها: قوله: {وأولئك لهم الخيرات}، واعلم أن لفظ «الخيرات»، يتناول منافع الدارين، لأجل أن اللفظ مطلق. وقيل: «الخيرات الحور»، لقوله تعالى: {فيهن خيرات حسان} [الرحمن: ٧٠].

وثانيها: قوله: {وأولئك هم المفلحون}، فقوله: {لهم الخيرات} المراد منه الثواب. وقوله: {هم المفلحون} المراد منه التخلص من العقاب والعذاب.

وثالثها: قوله:{أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها}(٢) يحتمل أن تكون هذه الجنات كالتفسير للخيرات وللفلاح، ويحتمل أن تحمل تلك الخيرات والفلاح على منافع الدنيا، مثل الغزو، والكرامة، والثروة، والقدرة، والغلبة، وتحمل الجنات على ثواب الآخرة. والفوز العظيم عبارة عن كون تلك الحالة مرتبة رفيعة، ودرجة عالية"(٣).

الفوائد

١- بيان عظم الأجر وعظيم الجزاء لأهل الإيمان والجهاد.
٢- قال الله في حق المؤمنين المجاهدين أربعة أمور:
الأول:- كون الخيرات لهم.
والثاني:- كونهم مفلحين.
والثالث:- وعد الجنات:
والرابع:- خلودهم فيها.
٣- ثناء الله تعالى على صحابة رسول الله ﷺ.
٤- في الآية الرد على الطاعنين على الصحابة الكرام، وذلك أن الله تعالى في الآية الكريمة بشر الصحابة المؤمنين المجاهدين الذين كانوا مع الرسول ﷺ بأن لهم الخيرات وبالفلاح وبالخلود في الجنات، فشهد الله لأصحاب نبيه ﷺ الذين آمنوا، وشرفوا بالهجرة والجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم بالفوز وعظيم الدرجات، وبشرهم برحمة منه ورضوان وبالنعيم المقيم في الجنات فهل هذه الشهادة وهذه البشارة تكون لقوم علم الله أنهم سيرتدون من بعد عن دينهم ويموتون وهم كفار؟، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، قال تعالى: {لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[التوبة:٨٨-٨٩]
٥- وفي الآية إثبات صحة خلافة الخلفاء الأربعة، إذ لا شك أن الخلفاء الأربعة كانوا من المؤمنين المجاهدين مع الرسول ﷺ، فثبت لهم الفلاح والخيرات والخلود في الجنات، وثبتت صحة خلافتهم، ولا مجال للطعن فيهم ولا في غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

القرآن

{أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩)} [التوبة : ٨٩]

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٩):ص١٨٦٠/٦ .

(٢) [التوبة : ٨٩]. وسوف يأتي تفسيره إن شاء الله.

(٣) مفاتيح الغيب:١١٩/١٦-١٢٠.

التفسير:
أعدَّ الله لهم يوم القيامة جنات تجري مِن تحت قصورها وأشجارها الأنهار ماكثين فيها أبدًا. وذلك هو الفلاح العظيم.

قوله تعالى:{أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [التوبة : ٨٩]، أي:" أعدَّ الله لهم يوم القيامة جنات تجري مِن تحت قصورها وأشجارها الأنهار"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : أعد الله لرسوله محمد ﷺ وللذين آمنوا معه {جنات}، وهي البساتين ، تجري من تحت أشجارها الأنهار "[٢].

قوله تعالى:{خَالِدِينَ فِيهَا} [التوبة : ٨٩]، أي:" ماكثين فيها أبدًا"[٣].

قال الطبري:" يقول : لابثين فيها ، لا يموتون فيها ، ولا يظعنون عنها"[٤].

قوله تعالى:{ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة : ٨٩]، أي:" وذلك هو الفلاح العظيم"[٥].

قال الطبري:" يقول : ذلك النجاء العظيم ، والحظ الجزيل"[٦].

قال سعيد بن جبير: " يعني: ذلك الثواب الفوز العظيم"[٧].

قال الراغب: " ووصف الفوز بالعظيم اعتبارا بفوز الدنيا"[٨].

قال النسفي: " لأنه باق بخلاف الفوز في الدنيا فهو غير باق"[٩].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: بيان فضب الصحابة الكرام وعدالتهم، إذ أن الله تعالى يثني على الصحابة بمعاونتهم لرسوله ﷺ ونصرتهم لدينه ببذل الأموال والأنفس، وأخبر عن نيلهم الخيرات وحسن العاقبة والفوز الجليل الأبدي. وهذا يستلزم عدالتهم رضي الله عنهم.
٢- بيان ثواب طاعة الله ورسوله وهو الخلود في الجنة.
٣- من فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الثواب بالجنة؛ لقوله: {لَهُمْ جَنَّاتٌ}، وهذا أمر معتقد عند جميع الطوائف المسلمة.
٤- ومن فوائد الآية الكريمة: وصف الجنات بأن الأنهار المطردة تجري من تحت الأشجار والقصور، وما أجمله من منظر وما ألذَّه من مَخْبَر، اللهم اجعلنا منهم، قال تعالى:{تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}.
٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أهل الجنة مخلَّدون فيها أبدًا؛ لقوله: {خَالِدِينَ فِيهَا}، وهي موجودة الآن، في السماوات؛ قال الله تعالى: {أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٣] والإعداد يكون مهيَّأ لأهله، والنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم دخلها حين عُرِجَ به ورأى فيها ما رأى[١٠]، ومَثُلَت له حين قام يصلي صلاة الكسوف [١١] هي والنار.
٦- أن أن الفوز حقيقة ليس بالربح، بربح الدينار والدرهم، وإنما الربح العظيم أو الفوز العظيم هو فوز الإنسان بجنات النعيم -أسأل الله أن يجعلني وإياكم من الفائزين بها- ولهذا قال: {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

---

[١] التفسير الميسر:٢٠١.
[٢] تفسير الطبري:٤١٥/١٤.
[٣] التفسير الميسر:٢٠١.
[٤] تفسير الطبري:٤١٥/١٤.
[٥] التفسير الميسر:٢٠١.
[٦] تفسير الطبري:٤١٥/١٤.
[٧]أخرجه ابن أبي حاتم (٤٩٦٠): ص ٣/ ٨٩١.
[٨]تفسير الراغب الأصفهاني: ٣/ ١١٣٨.
[٩]تفسير النسفي: ١/ ٤٨٨.
[١٠]متفق عليه؛ البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣/ ٢٦٣) من حديث أبي ذر.

[١١]متفق عليه؛ البخاري (٥٤٠)، ومسلم (٢٣٥٩/ ١٣٦) من حديث أنس بن مالك.

القرآن

{وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠)} [التوبة : ٩٠]

التفسير:

وجاء جماعة من أحياء العرب حول (المدينة) يعتذرون إلى رسول الله ﷺ، ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج للغزو، وقعد قوم بغير عذر أظهروه جرأة على رسول الله ﷺ. سيصيب الذين كفروا من هؤلاء عذاب أليم في الدنيا بالقتل وغيره، وفي الآخرة بالنار.

قوله تعالى:{وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ} [التوبة : ٩٠]، أي:" وجاء جماعة من أحياء العرب حول (المدينة) يعتذرون إلى رسول الله ﷺ، ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج للغزو"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : {وجاء}، رسولَ الله ﷺ {المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم}، في التخلف"[٢].

قال ابن كثير:" ثم بَيَّن تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد ، الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ، ويبينون له ما هم فيه من الضعف ، وعدم القدرة على الخروج ، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة"[٣].

قال البيضاوي:" والمعذر إما من عذر في الأمر إذا قصر فيه موهما أن له عذرا ولا عذر له، أو من اعتذر إذا مهد العذر"[٤].

قال الفخر:" «المعذر»: هو المجتهد البالغ في العذر، ومنه قولهم: «قد أعذر من أنذر»، وعلى هذه القراءة، فمعنى الآية: أن الله تعالى فصل بين أصحاب العذر وبين الكاذبين، فـ«المعذرون» هم الذين أتوا بالعذر"[٥].

وفي قوله تعالى:{وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ} [التوبة : ٩٠]، وجهان[٦]:

أحدهما : أنهم المعتذرون بحق اعتذروا به فعذروا ، قاله ابن عباس[٧]، ومجاهد-في أحد قوليه[٨]، وهو تأويل قراءة من قرأها بالتخفيف. وهو اختيار ابن كثير[٩].

عن الضحاك قال : كان ابن عباس يقرأ : «وَجَاءَ الْمُعْذِرُونَ»، مخففةً ، ويقول : هم أهل العذر"[١٠].

والثاني : هم المقصرون المعتذرون بالكذب ، قاله الحسن[١١]، وقتادة[١٢]، ومجاهد[١٣]، وتأويل من قرأها بالتشديد ، لأنه إذا خفف مأخوذ من العذر، وإذا شدد مأخوذ من التعذير ، والفرق بينهما أن العذر حق والعذير كذب.

عن يونس قال: "كان الحسن يقرأ: وجاء المعذرون من الأعراب قال: اعتذروا بشيء ليس بحق"[١].

---

(١) التفسير الميسر:٢٠١.

(٢) تفسير الطبري:٤١٦/١٤.

(٣) تفسير ابن كثير:١٩٧/٤.

(٤) تفسير البيضاوي:٩٣/٣.

(٥) مفاتيح الغيب:١٢٠/١٦.

(٦) انظر: تفسير الطبري:٤١٦/١٤-٤١٧، والنكت والعيون:٣٩١/٢.

(٧) مانظر: تفسير الطبري(١٧٠٧٣):ص٤١٦/١٤.

(٨) انظر: تفسير الطبري(١٧٠٧٦):ص٣١٨/١٤.

(٩) انظر: تفسير ابن كثير:١٩٨/٤.

(١٠) أخرجه الطبري(١٧٠٧٣):ص٤١٦/١٤.

(١١) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٢٠٢):ص١٨٦٠/٦، والنكت والعيون:٣٩١/٢.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٧٠٧٤):ص٤١٧/١٤.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٧٠٧٥):ص٤١٧/١٤.

عن أبي إسحاق :"{وجاء المعذرون من الأعراب}، ذكر لي: أنهم نفر من بني غفار جاءوا فاعتذروا فلم يعذرهم رسول الله- ﷺ-"[٢].
قال السدي:"من قرأها «وجاء المعذرون» خفيفة، قال: بنو مقرن، ومن قرأها «وجاء المعذرون من الأعراب»، قال: الذين لهم عذر"[٣].
عن مجاهد : "{وجاء المعذرون من الأعراب}، قال : نفر من بني غفار ، جاءوا فاعتذروا ، فلم يعذرهم الله"[٤].
وروي عن ابن إسحاق قال : "كان المعذرون ، فيما بلغني ، نفرًا من بني غِفارٍ ، منهم : خفاف بن أيماء بن رَحَضة ، ثم كانت القصة لأهل العذر ، حتى انتهى إلى قوله : {ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم}، الآية"[٥].
قوله تعالى:{وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [التوبة : ٩٠]، أي:" وقعد قوم بغير عذر أظهروه جرأة على رسول الله صلى الله عليه"[٦].
قال ابن كثير:"أي : وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار"[٧]
قال الطبري:" {وقعد}، عن المجيء إلى رسول الله ﷺ والجهاد معه{الذين كذبوا الله ورسوله}، وقالوا الكذب ، واعتذرُوا بالباطل منهم "[٨].
قوله تعالى:{سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التوبة : ٩٠]، أي:" سيصيب الذين كفروا من هؤلاء عذاب أليم في الدنيا بالقتل وغيره، وفي الآخرة بالنار"[٩].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : سيُصيب الذين جحدوا توحيد الله ونبوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم منهم ، عذابٌ أليم "[١٠].
قال البيضاوي:"{ سيصيب الذين كفروا منهم}، من الأعراب أو من المعذرين، فإن منهم من اعتذر لكسله لا لكفره عذاب أليم بالقتل والنار"[١١].
عن ابن عباس في قوله: "{عذاب أليم}، يقول: نكال"[١٢].
أخرج ابن أبي حاتم بسنده "عن أبي العالية، في قوله: {ولهم عذاب أليم}، قال: الأليم الموجع في القرآن كله"[١٣].
قال ابن أبي حاتم: " وكذلك فسره سعيد بن جعفر، والضحاك بن مزاحم، وقتادة وأبو مالك، وأبو عمران الجوني، ومقاتل بن حيان"[١٤].
قال الثعلبي: أي: "وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم، وهو بمعنى مؤلم"[١٥].
قال القرطبي: " «أليم»، في كلام العرب معناه مؤلم أي موجع، مثل السميع بمعنى المسمع، قال ذو الرمة يصف إبلا[١٦]:

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٢):ص١٨٦٠/٦.
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٠٣):ص١٨٦٠/٦.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠١):ص١٨٦٠/٦.
[٤] أخرجه الطبري(١٧٠٧٥):ص٤١٧/١٤.
[٥] أخرجه الطبري(١٧٠٧٧):ص٤١٨/١٤-٤١٩.
[٦] التفسير الميسر:٢٠١.
[٧] تفسير ابن كثير:١٩٨/٤.
[٨] تفسير الطبري:٤١٦/١٤.
[٩] التفسير الميسر:٢٠١.
[١٠] تفسير الطبري:٤١٦/١٤.
[١١] تفسير البيضاوي:٩٣/٣.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٤):ص١٨٦١/٦.
[١٣] تفسير ابن أبي حاتم (١١٩): ص ١/ ٤٤.
[١٤]أنظر: تفسير ابن أبي حاتم: ص ١/ ٤٤.
[١٥]تفسير الثعلبي: ١/ ١٥٤.
[١٦]ديوانه: ٢/ ٦٧٧، قال الباهلي في شرحه: شمردلات: هي نوق طوال سراع، ويصكّ يضرب، ووهج، أي

ونرفع من صدور شمردلات يصُك وجوهها وهج أليم [1]

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة : ثبوت الجزاء على العمل لقوله:{سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

٢- ومنها: أن العقوبات لا تكون إلا بأسباب. أي: أن الله لا يعذب أحداً إلا بذنب.؛ لقوله تعالى: {سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

٣- ومنها: ذم الكذب، وأنه سبب للعقوبة؛ فإن الكذب من أقبح الخصال؛ وقد بين رسول الله ﷺ أن الكذب من خصال المنافقين، فقال ﷺ "آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب .."[2] الحديث؛ والكذب مذموم شرعاً، ومذموم عادة، ومذموم فطرة أيضاً.

٤- ومنها: الوعيد الشديد للمنافقين؛ لقوله تعالى: {سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

القرآن

{لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١)} [التوبة : ٩١]

التفسير:

ليس على أهل الأعذار مِن الضعفاء والمرضى والفقراء الذين لا يملكون من المال ما يتجهزون به للخروج إثم في القعود إذا أخلصوا لله ورسوله، وعملوا بشرعه، ما على مَن أحسن ممن منعه العذر عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، وهو ناصح لله ولرسوله من طريق يعاقب مِن قِبَلِه ويؤاخذ عليه. والله غفور للمحسنين، رحيم بهم.

في سبب نزول الآية، وجهان:

أحدهما: عن زيد بن ثابت قال: "كنت أكتب لرسول الله- ﷺ-. فكنت أكتب براءة، فإني لواضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله- ﷺ- ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى، فقال: كيف بي يا رسول الله، وأنا أعمى؟ فنزلت: {ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله}، قال: نزلت في عائذ ابن عمرو وفي غيره"[3].

وعن قتادة: {ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله}، نزلت في عائذ بن عمرو"[4].

والثاني: عن ابن عباس، قوله: "{تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون}، وذلك أن رسول الله- ﷺ- أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم: عبد الله بن مغفل فقالوا: يا رسول الله، احملنا فقال لهم رسول الله- ﷺ- «والله ما أجد ما أحملكم عليه فتولوا ولهم بكاء» ، وعزيز عليهم أن يحبسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة، ولا محملا، فلما رأى الله عز وجل حرصهم على محبته ومحبة رسوله، أنزل عذرهم في كتابه فقال: {ليس على الضعفاء ولا على المرضى} إلى قوله: {تولوا وأعينهم تفيض من الدمع} الآية"[5].

حرّ شديد.

[1] تفسير القرطبي: ١/ ١٩٨.

[2] أخرجه البخاري ص ٥، كتاب الإيمان، باب ٢٤: علامات المنافق، حديث رقم ٣٣؛ وأخرجه مسلم ص ٦٩٠، كتاب الإيمان، باب ٢٥: خصال المنافق، حديث رقم ٢١١ [١٠٧] ٥٩.

[3] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٠٥):ص١٨٦١/٦.

[4] أخرجه الطبري(١٧٠٧٨):ص٤٢٠/١٤.

[5] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٠٠):ص١٨٦٣/٦-١٨٦٤. كذا الترقيم بالمطبوع!

قوله تعالى:{لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ} [التوبة : ٩١]، أي:" ليس على أهل الأعذار مِن الضعفاء والمرضى والفقراء الذين لا يملكون من المال ما يتجهزون به للخروج إثم في القعود"[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ليس على أهل الزمانة وأهل العجز عن السفر والغزو، ولا على المرضى، ولا على من لا يجد نفقة يتبلغ بها إلى مغزاه حرج، وهو الإثم"[٢].

وفي «الضعفاء»، ها هنا أربعة أوجه:

أحدها : أنهم الصغار لضعف أبدانهم[٣].

الثاني : المجانين لضعف عقولهم[٤].

الثالث : العميان لضعف بصرهم. كما قيل في تأويل قوله تعالى في شعيب:{إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً} [هود : ٩١]، أي: ضريراً[٥].

والرابع: أنهم الزّمنى[٦]، والشيخ الكبير. قاله مقاتل[٧].

قال الزمخشري:" {الضعفاء}: الهرمى والزمنى. و{الذين لا يجدون}: الفقراء. وقيل: هم مزينة وجهينة وبنو عذرة"[٨].

عن ابن لهيعة، "أن أبا شريح الكعبي كان من الذين قال الله: {ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله}"[٩].

قوله تعالى:{إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} [التوبة : ٩١]، أي:" إذا أخلصوا لله ورسوله، وعملوا بشرعه"[١٠].

قال الطبري:أي:" إذا نصحوا لله ولرسوله في مغيبهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم"[١١].

قال ابن كثير:" فليس على هؤلاء حَرَج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم ، ولم يرجفوا بالناس ، ولم يُثَبِّطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا"[١٢].

وفي قوله تعالى:{إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} [التوبة : ٩١]، وجهان[١٣]:

أحدهما : إذا برئوا من النفاق .

الثاني : إذا قاموا بحفظ المخلفين من الذراري والمنازل.

قال الماوردي:" فإن قيل بالتأويل الأول كان راجعاً إلى جميع من تقدم ذكره من الضعفاء . والمرضى الذين لا يجدون ما ينفقون ، وإن قيل بالتأويل الثاني كان راجعاً إلى الذين لا يجدون ما ينفقون خاصة"[١٤].

قال الزمخشري:" النصح لله ورسوله: الإيمان بهما، وطاعتهما في السر والعلن، وتوليهما، والحب والبغض فيهما كما يفعل الموالي الناصح بصاحبه"[١].

---

[١] التفسير الميسر:٢٠١.
[٢] تفسير الطبري:٤١٩/١٤.
[٣] انظر: النكت والعيون:٣٩١/٢.
[٤] انظر: النكت والعيون:٣٩١/٢.
[٥] انظر: النكت والعيون:٣٩١/٢.
[٦]وهم سائر أصحاب الآفات كالمرضى والصرعى والجرحى والقتلى والأسرى والهلكى والصعقى. انظر: طلبة طلبة الطلبة، النسفي:٥٠
[٧] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١٨٩/٢.
[٨] الكشاف:٣٠١/٢.
[٩] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٠٦):ص١٨٦١/٦.
[١٠] التفسير الميسر:٢٠١.
[١١] تفسير الطبري:٤١٩/١٤.
[١٢] تفسير ابن كثير:١٩٨/٤.
[١٣] انظر: النكت والعيون:٣٩١/٢.
[١٤] النكت والعيون:٣٩١/٢.

عن أبي ثمامة قال: "قال الحواريون: يا روح الله، أخبرنا من الناصح لله؟ قال: الذي يؤثر حق الله على حق الناس، وإذا حدث له أمران، أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة، بدأ بالذي للآخرة ثم يفرغ للذي للدنيا"(٢).

قوله تعالى:{مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} [التوبة : ٩١]، أي:" ما على مَن أحسن ممن منعه العذر عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، وهو ناصح لله ولرسوله من طريق يعاقب مِن قِبَلِه ويؤاخذ عليه"(٣).

قال الطبري:" يقول: ليس على من أحسن فنصح لله ولرسوله في تخلّفه عن رسول الله ﷺ عن الجهاد معه، لعذر يعذر به، طريقٌ يتطرَّق عليه فيعاقب من قبله"(٤).

قال الزمخشري:" معنى: لا سبيل عليهم: لا جناح عليهم. ولا طريق للعاتب عليهم"(٥).

عن الأوزاعي: خرج الناس إلى الاستسقاء، فقام فيهن بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر من حضر، ألستم مقرين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم إنا نسمعك تقول: {ما على المحسنين من سبيل}، وقد أقررنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا، واسقنا، ورفع يديه ورفعوا أيديهم، فسقوا"(٦).

قوله تعالى:{وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة : ٩١]، أي:" والله غفور للمحسنين، رحيم بهم"(٧).

قال الطبري:" يقول: والله ساتر على ذنوب المحسنين، يتغمدها بعفوه لهم عنها = {رحيم}، بهم، أن يعاقبهم عليها"(٨).

عن سعيد بن جبير في قوله: "{والله غفور}، لما كان منهم في الشرك، {رحيم} بهم بعد التوبة"(٩).

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أن للعبد قدرة هي مناط الأمر والنهي، وهذه قد تكون قبله، لا يجب أن تكون معه، والقدرة التي بها الفعل لا بد أن تكون مع الفعل، لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة، وأما القدرة التي من جهة الصحة والوسع، والتمكن وسلامة الآلات - فقد تتقدم الأفعال. وهذه القدرة المذكورة في قوله تعالى المنافقين: {لو استطعنا لخرجنا معكم}. وكذبهم في ذلك القول، ولو كانوا أرادوا الاستطاعة التي هي حقيقة قدرة الفعل - ما كانوا بنفيهم عن أنفسهم كاذبين، وحيث كذبهم دل أنهم أرادوا بذلك المرض أو فقد المال، على ما بين تعالى بقوله: {ليس على الضعفاء ولا على المرضى} إلى أن قال: {إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء}[التوبة:٩٣](١٠).

٢- ومنها: أن الله تعالى لا يكلف الإنسان مع عجزه، إنما يكلفه إذا كان قادراً، وكذلك إذا كان فاهماً، ولذلك أسقط الله التكاليف عن الأطفال لكونهم غير قادرين ولا فاهمين، وأسقطها عن فاقدي العقول لنقصهم معنوياً، وكذلك أسقطها عن العاجزين في قوله تعالى في الجهاد: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ} [التوبة:٩١] ، يعني: ليس عليهم حرج في أن يتخلفوا عن الجهاد، مثل

---

(١) الكشاف:٣٠١/٢.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٠٧):ص١٨٦١/٦.
(٣) الكشاف:٣٠١/٢.
(٤) تفسير الطبري:٤١٩/١٤.
(٥) الكشاف:٣٠١/٢.
(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٩):ص١٨٦٢/٦.
(٧) الكشاف:٣٠١/٢.
(٨) تفسير الطبري:٤١٩/١٤.
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢١٠):ص١٨٦٢/٦.
(١٠) انظر: شرح الطحاوية:٤٣٤.

هؤلاء لا يستطيعون أن يخوضوا المعارك، وكذلك المرضى لا يستطيعون، وكذلك الذين لا يجدون ما ينفقون، لا يجدون مركوباً أو لا يجدون عدة، فهؤلاء أسقط الله عنهم الجهاد، كما أسقط عن العاجز مالياً الحج بقوله: {مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [آل عمران:٩٧] ، وفسرت (سبيلاً) : بالزاد والراحلة في بعض الأحاديث والآثار، فدل على أن الاستطاعة: قدرة العبد من حيث المال ومن حيث البدن، فإذا كان ذلك الفعل يستدعي مالاً كالحج والجهاد سقط عنه إذا فقد المال، وإذا كان لا يستدعي مالاً كالقريب من مكة ولكنه يستدعي قوة البدن، وكان هذا الإنسان مريضاً أو عاجزاً بدنياً سقط عنه، والجهاد كذلك يسقط عنه إذا كان عاجزاً بدنياً، وأما إذا كان عاجزاً مالياً، ولكن هناك من تكفل به وجهزه فإنه لا يسقط عنه.

وكذلك العبادات البدنية المحضة إذا كان فيها مشقة فإنها تسقط أو تؤجل، مثل: الصيام في السفر أو في المرض، يقال: لا يستطيع أن يصوم وهو مريض، لا يستطيع أن يصوم وهو مسافر لمشقة السفر، فيؤجل الصيام، وكذلك بقية الأعذار، أما الصلاة فإنها عمل بدني؛ فلأجل ذلك تتوقف أفعالها على القوة والقدرة، فإذا لم يستطع أن يحصل على الماء سقطت عنه الطهارة بالماء، واكتفى بالتيمم، يقال: لا يستطيع الحصول على الماء أو لا يستطيع استعمال الماء لمرض أو حرق أو نحو ذلك، وكذلك فعل الصلاة: إذا لم يستطع أن يصلي وهو قائم صلى وهو جالس، فإن عجز عن الصلاة جالساً صلى على جنب أو مستلقياً كما في بعض الروايات، فمن عجز عن نوع من الاستطاعة البدنية انتقل إلى ما يستطيعه، ويعرف ذلك العرب في كل شيء حتى يقول بعضهم: إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيعُ أراد بذلك الأمور العادية، أي: الأفعال المحسوسة، فمثلاً: الحرف تختلف، فالإنسان الذي معه قوة بدنية يستطيع أن يحمل الأثقال، فهذا يحترف هذه الحرفة، وقد تكون أكثر أجرة، وآخر لا يستطيع ذلك، ولكن يستطيع أن يعمل الأعمال التي ليس فيها حمل ولا أثقال، كحراسة أو ما أشبهها، فالناس يتفاوتون في الاستطاعة[1].

١- ومنها: أنه لا حرج على أصحاب الأعذار الذين ذكر الله تعالى في قوله {ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج} وفي هذه الآية {ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون} حرج وبشرط طاعة الله والرسول فيما يستطيعون والنصح لله والرسول بالقول والعمل وترك التثبيط والتخذيل والإرجاف من الإشاعات المضادة للإسلام والمسلمين.

٢- مظاهر الكمال المحمدي في تواضعه ورحمته وبره وإحسانه إلى المؤمنين.

٣- ومنها: إثبات هذين الاسمين الكريمين: «الغفور»، و«الرحيم»؛ وما تضمناه من صفة، وفعل.

- فـ«الغفور»: هو الذي تكثر منه المغفرة. وبناء فعول: بناء المبالغة في الكثرة[2].

والفرق بين صيغتي:«الغفار»، و«الغفور»: أن "«الغفار»[3]، معناه: الستار لذنوب عباده في الدنيا بأن لا يهتكهم ولا يشيدهما عليهم، ويكون معنى «الغفور»: منصرفا إلى مغفرة الذنوب في الآخرة، والتجاوز عن العقوبة فيها"[1].

---

[1] انظر: شرح الطحاوية لابن جبرين: الدرس(٦٨)[دروس صوتية مرقم آليات].

[2] انظر: شأن الدعاء:٦٥/١.

[3]قال الخطابي:" الغفار: هو الذي يغفر ذنوب عباده مرة بعد أخرى. كلما تكررت التوبة في الذنب من العبد تكررت المغفرة. كقوله -سبحانه-: {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} [طه:٨٢].

وأصل الغفر في اللغة: الستر والتغطية، ومنه قيل لجنة الرأس: المغفر، وبه سمي زئبر الثوب غفرا وذلك لأنه يستر سداه؛ فالغفار: الستار لذنوب عباده، والمسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته. ومعنى الستر في هذا أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهره فيعيونهم ويقال: إن المغفرة مأخوذة من الغفر: وهو

- و«الرحيم»:أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء [٢].

قال الشيخ ابن عثيمين:"«الرحيم»:أي الموصل للرحمة من يشاء من عباده"[٣]، وهو "صيغة مبالغة، أو صفة مشبهة من الرحمة؛ والرحمة صفة من صفات الله سبحانه وتعالى الذاتية الفعلية؛ فهي باعتبار أصل ثبوتها لله صفة ذاتية؛ وباعتبار تجدد من يرحمه الله صفة فعلية؛ ولهذا علقها الله سبحانه وتعالى بالمشيئة في قوله تعالى: {يعذب من يشاء ويرحم من يشاء} [العنكبوت: ٢١]، فهي صفة حقيقية ثابتة لله عز وجل، وأهل التأويل -والأصح أن نسميهم أهل التحريف- يقولون: إن الرحمة غير حقيقية؛ وأن المرادبرحمة الله إحسانه؛ أو إرادة الإحسان؛ فيفسرونها إما بالإرادة؛ وإما بالفعل؛ وهذا لا شك أنه خطأ؛ وحجتهم: أنهم يقولون: إن الرحمة رقة، ولين؛ والرقة، واللين لا تناسبان عظمة الخالق سبحانه وتعالى؛ فنقول لهم: إن هذه الرحمة رحمة المخلوق؛ أما رحمة الخالق فإنها تليق به سبحانه وتعالى؛ ولا تتضمن نقصاً؛ فهو ذو رحمة بالغة، وسلطان تام؛ فلا يرد بأسه عن القوم المجرمين"[٤].

٤-ومنها: إثبات ما ذكره أهل السنة والجماعة من أن أسماء الله سبحانه وتعالى المتعدية يستفاد منها ثبوت تلك الأحكام المأخوذة منها؛ فالأسماء المتعدية تتضمن الاسم، والصفة، والأثر - الذي هو الحكم المترتب عليه -[٥].

القرآن

{وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢)} [التوبة : ٩٢]

التفسير:

وكذلك لا إثم على الذين إذا ما جاؤوك يطلبون أن تعينهم بحملهم إلى الجهاد قلت لهم: لا أجد ما أحملكم عليه من الدوابِّ، فانصرفوا عنك، وقد فاضت أعينهم دَمعًا أسفًا على ما فاتهم من شرف الجهاد وثوابه؛ لأنهم لم يجدوا ما ينفقون، وما يحملهم لو خرجوا للجهاد في سبيل الله.

اختلف فيمن نزلت هذه الآية، على أقوال :

أحدها : أنها نزلت في العرباض بن سارية ، قاله عبد الرحمن بن عمرو السلمي[٦]، وحجر بن حجر الكلاعي[٧].

والثاني : أنها نزلت في عبد الله بن الأزرق وأبي ليلى ، قاله السدي[٨].

عن السدي قوله: "{ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه}، قال: أقبل رجلان من الأنصار، أحدهما يقال له: عبد الله بن الأزرق والآخر: أبو ليلى فسألوا، النبي- ﷺ- أن يحملهم فيخرجون معه فقال: لا أجد ما أحملكم عليه. فبكوا حزنا ألا يجدوا ما ينفقون"[٩].

والثالث : أنها نزلت في بني مقرّن من مُزينة ، قاله مجاهد[١٠].

فيما حكاه بعض أهل اللغة نبت يداوى به الجراح، يقال إنه إذا ذر عليها دملها وأبراها". [شأن الدعاء:٥٢/١-٥٣، وانظر: اللسان وتاج العروس، مادة"غفر"].

[١] شأن الدعاء:٦٥/١.

[٢] انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٨٨/١، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.

[٣] تفسير ابن عثيمين الفاتحة والبقرة:٥/١.

[٤] تفسير ابن عثيمين:الفاتحة والبقرة:٢٥٢/٢-٢٥٣.

[٥] انظر: تسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:٢٥٩/٢.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٧٠٨٦):ص٤٢١/١٤.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٧٠٨٦):ص٤٢١/١٤.

[٨] تفسير ابن أبي حاتم(١٠٢٠١):ص١٨٦٤/٦.

[٩] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٠١):ص١٨٦٤/٦.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٧٠٨٠)-(١٧٠٨٥):ص٤٢٠/١٤-٤٢١.

وروي محمد بن خالد بن عثمة عن كثير بن عبد الله بن عمرو المزني :"وكان إذا حدث قال: أبي والله، يعني جده عمرا- أحد النفر الذين أنزل الله فيهم :{ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا} الآية "[١].

والرابع : أنها نزلت في سبعة من قبائل شتى ، قاله محمد بن كعب[٢]، ومحمد بن إسحاق[٣].

عن أبي معشر ، عن محمد بن كعب وغيره قال : "جاء ناسٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحملونه ، فقال : {لا أجد ما أحملكم عليه}! فأنزل الله : {ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم}، الآية. قال : هم سبعة نفر : من بني عمرو بن عوف : سالم بن عمير ومن بني واقف : هرمي بن عمرو ومن بني مازن بن النجار : عبد الرحمن بن كعب ، يكنى أبا ليلى ومن بني المعلى : سلمان بن صخر ومن بني حارثة : عبد الرحمن بن يزيد ، أبو عبلة ، وهو الذي تصدق بعرضِه فقبله الله منه ومن بني سَلِمة : عمرو بن غنمه ، وعبد الله بن عمرو المزني"[٤].
المزني"[٤].

عن ابن إسحاق قوله : "{ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم}، إلى قوله : {حزنًا}، وهم البكاؤون ، كانوا سبعة"[٥].

والخامس: أنها نزلت في عبدالله بن مغفل وأصحابه. قاله ابن عباس[٦].

عن ابن عباس، قوله: "{تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون}، وذلك أن رسول الله- ﷺ- أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم: عبد الله بن مغفل فقالوا: يا رسول الله، احملنا فقال لهم رسول الله- ﷺ- «والله ما أجد ما أحملكم عليه فتولوا ولهم بكاء» ، وعزيز عليهم أن يحبسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة، ولا محملا، فلما رأى الله عز وجل حرصهم على محبته ومحبة رسوله، أنزل عذرهم في كتابه فقال: {ليس على الضعفاء ولا على المرضى} إلى قوله: {تولوا وأعينهم تفيض من الدمع} الآية"[٧].

وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن الربيع بن أنس :"عن أبي العالية عن عبد الله بن مغفل وكان أحد هؤلاء الذين ذكروا في هذه الآية: ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه الآية"[٨].

والسادس: أنها نزلت في أبي موسى وأصحابه ، قاله الحسن[٩].

قوله تعالى:{وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} [التوبة : ٩٢]، أي:" وكذلك لا إثم على الذين إذا ما جاؤوك يطلبون أن تعينهم بحملهم إلى الجهاد قلت لهم: لا أجد ما أحملكم عليه من الدوابّ"[١٠].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : ولا سبيل أيضًا على النفر الذين إذا ما جاءوك ، لتحملهم ، يسألونك الحُمْلان ، ليبلغوا إلى مغزاهم لجهاد أعداءِ الله معك ، يا محمد ، قلت لهم : لا أجد حَمُولةً أحملكم عليها"[١١].

عن الحسن قال: قال رسول الله- ﷺ- «لقد خلفتم بالمدينة أقواما، ما أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم واديا، ولا نلتم من عدو نيلا، إلا وقد شاركوكم في الأجر، ثم قرأ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد الآية"[١].

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٠٤):ص١٨٦٢/٦-١٨٦٣.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٧٠٨٨):ص٤٢٣/١٤.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٧٠٨٩):ص٤٢٣/١٤.
[٤] أخرجه الطبري(١٧٠٨٨):ص٤٢٣/١٤.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٠٨٩):ص٤٢٣/١٤.
[٦] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٢٠٠):ص١٨٦٣/٦-١٨٦٤. كذا الترقيم بالمطبوع!
[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٠٠):ص١٨٦٣/٦-١٨٦٤. كذا الترقيم بالمطبوع!
[٨] تفسير ابن ابي حاتم(١٠٢٠٢):ص١٨٦٢/٦.
[٩] النكت والعيون:٣٩٢/٢.
[١٠] الكشاف:٣٠١/٢.
[١١] تفسير الطبري:٤٢١/١٤.

وفي قوله تعالى:{وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} [التوبة : ٩٢]، وجهان:

أحدهما : أنه لم يجد لهم زاداً وماءا، لأنهم طلبوا ما يتزودون به ، قاله أنس بن مالك[٢].

والثاني : أنه لم يجد لهم نعالاً، لأنهم طلبوا النعال ، قاله الحسن[٣]، وإبراهيم بن أدهم[٤].

وروي عن الحسن بن عطية قال: "سمعت الحسن بن صالح يقول في هذه الآية: {ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم}، قال: استحملوه النعال"[٥].

عن إبراهيم بن أدهم في قوله: "{ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم}، قال: ما سألوه الخيل، ما سألوه إلا النعال"[٦].

قوله تعالى:{تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ} [التوبة : ٩٢]، أي:" فانصرفوا عنك، وقد فاضت أعينهم دَمعًا أسَفًا على ما فاتهم من شرف الجهاد وثوابه؛ لأنهم لم يجدوا ما ينفقون، وما يحملهم لو خرجوا للجهاد في سبيل الله"[٧].

قال الطبري:" يقول: أدبروا عنك، وهم يبكون من حزن على أنهم لا يجدون ما ينفقون، ويتحمَّلون به للجهادِ في سبيل الله "[٨].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أن الثابت المتواتر أن أهل الصفة في مجملهم كانوا كثيراً ما يشكون حالهم إلى رسول الله ﷺ على أمل أن يساعدهم على حياة طيبة في الدنيا تكون عوناً لهم إلى الآخرة، وقد أخبر الله عنهم أنهم يتولون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون، وقد تحقق لمعظمهم بعد ذلك مال وافر، عملاً منهم بقول الله تعالى وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا [القصص:٧٧].

٢- بيان ما كان عليه أصحاب الرسول ﷺ من المهاجرين والأنصار من الإيمان واليقين والسمع والطاعة والمحبة والولاء ورقة القلوب وصفاء الأرواح.

٣- ومنها: أن المسلم إذا عجز عن المشاركة بالمال أو النفس في العمل الخيري، فلا أقل من المشاركة بمشاعر الحب. قال تعالى:{ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا}.

اللهم إنا نحبهم بحبك فأحببنا كما أحببتهم واجمعنا معهم في دار كرامتك.

القرآن

{إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣)} [التوبة : ٩٣]

التفسير:

إنما الإثم واللوم على الأغنياء الذين جاءوك -أيها الرسول- يطلبون الإذن بالتخلف، وهم المنافقون الأغنياء اختاروا لأنفسهم القعود مع النساء وأهل الأعذار، وختم الله على قلوبهم بالنفاق، فلا يدخلها إيمان، فهم لا يعلمون سوء عاقبتهم بتخلفهم عنك وتركهم الجهاد معك.

قوله تعالى:{إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ} [التوبة : ٩٣]، أي:" إنما الإثم واللوم على الأغنياء الذين جاءوك -أيها الرسول- يطلبون الإذن بالتخلف، وهم المنافقون الأغنياء"[١].

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٥):ص١٨٦٣/٦.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٢٠٩):ص١٨٦٣/٦.

(٣) النكت والعيون:٣٩٢/٢.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٢٠٧):ص١٨٦٣/٦.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٠٦):ص١٨٦٣/٦.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٢٠٧):ص١٨٦٣/٦.

(٧) الكشاف:٣٠١/٢.

(٨) تفسير الطبري:٤٢١/١٤.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ما السبيل بالعقوبة على أهل العذر، يا محمد، ولكنها على الذين يستأذنونك في التخلف خِلافَك، وترك الجهاد معك، وهم أهل غنى وقوّةٍ وطاقةٍ للجهاد والغزو، نفاقًا وشكًّا في وعد الله ووعيده"[٢].

قال ابن كثير:" ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء"[٣].

قوله تعالى:{رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ} [التوبة : ٩٣]، أي:" اختاروا لأنفسهم القعود مع النساء وأهل الأعذار"[٤].

قال الطبري:" يقول: رضوا بأن يجلسوا بعدك مع النساء وهن "الخوالف"، خلف الرجال في البيوت، ويتركوا الغزو معك"[٥].

قال ابن كثير:" وأنَّبَهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال"[٦].

قال الزمخشري:" فإن قلت: {رضوا} ما موقعه؟ قلت: هو استئناف، كأنه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل: رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف"[٧].

قوله تعالى:{وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [التوبة : ٩٣]، أي:" وختم الله على قلوبهم بالنفاق، فلا يدخلها إيمان"[٨].

قال مقاتل:" يعني: وختم على قلوبهم بالكفر، يعني: المنافقين"[٩].

قال الطبري:" يقول: وختم الله على قلوبهم بما كسبوا من الذنوب"[١٠].

قال الزمخشري:" يعنى أن السبب في استئذانهم رضاهم بالدناءة وخذلان الله تعالى إياهم"[١١].

قوله تعالى:{فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [التوبة : ٩٣]، أي:" فهم لا يعلمون سوء عاقبتهم بتخلفهم عنك وتركهم الجهاد معك"[١٢].

قال الطبري:أي:" سوء عاقبتهم، بتخلفهم عنك، وتركهم الجهاد معك، وما عليهم من قبيح الثناء في الدنيا، وعظيم البلاء في الآخرة"[١٣].

قال ابن كثير:" ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء ، وأنَّبَهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال،{ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ}"[١٤].

الفوائد:

١- لا سبيل إلى أذية المؤمنين الصادقين إذا تخلفوا فإنهم ما تخلفوا إلا لعذر. وإنما السبيل على الأغنياء القادرين على السير إلى الجهاد وقعدوا عنه لنفاقهم.
٢- الآية دليل على ختم الله على قلوب من أراد من عباده، وذلك أن الله عز وجل قد علم أزلاً أنهم سيختارون الكفر على الإيمان، وأنهم سيختارون عصيان الرسل على الانقياد والإذعان والتسليم لهم، فطبع الله تعالى على قلوبهم فهم لا يؤمنون.

---

[١] الكشاف:٣٠١/٢.
[٢] تفسير الطبري:٤٢٣/١٤.
[٣] تفسير ابن كثير:٢٠٠/٤.
[٤] الكشاف:٣٠١/٢.
[٥] تفسير الطبري:٤٢٣/١٤-٤٢٤.
[٦] تفسير ابن كثير:٢٠٠/٤.
[٧] الكشاف:٣٠١/٢.
[٨] الكشاف:٣٠١/٢.
[٩] تفسير مقاتل بن سليمان:١٩٠/٢.
[١٠] تفسير الطبري:٤٢٤/١٤.
[١١] الكشاف:٣٠١/٢.
[١٢] الكشاف:٣٠١/٢.
[١٣] تفسير الطبري:٤٢٤/١٤.
[١٤] تفسير ابن كثير:٢٠٠/٤.

٣- استدل الشرباصي بقوله تعالى: {وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ}، على أن «الطابع» من أسمائه سبحانه وتعالى[١]، وهو من الأسماء التى يرجح عدم ثبوتها إمَّا لعدم ورود النَّصِّ أولعدم صحة الإطلاق.

القرآن

{يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤)} [التوبة : ٩٤]

التفسير:

يعتذر إليكم -أيها المؤمنون- هؤلاء المتخلفون عن جهاد المشركين بالأكاذيب عندما تعودون مِن جهادكم من غزوة (تبوك) ، قل لهم -أيها الرسول-: لا تعتذروا لن نصدقكم فيما تقولون، قد نبأنا الله من أمركم ما حقق لدينا كذبكم، وسيرى الله عملكم ورسوله، إن كنتم تتوبون من نفاقكم، أو تقيمون عليه، وسيُظهر للناس أعمالكم في الدنيا، ثم ترجعون بعد مماتكم إلى الذي لا تخفى عليه بواطن أموركم وظواهرها، فيخبركم بأعمالكم كلها، ويجازيكم عليها.

قوله تعالى:{يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ} [التوبة : ٩٤]، أي:" يعتذر إليكم -أيها المؤمنون- هؤلاء المتخلفون عن جهاد المشركين بالأكاذيب عندما تعودون مِن جهادكم من غزوة (تبوك)"[٢].

قال القرطبي:" قوله تعالى: {يعتذرون إليكم}، يعني: المنافقين"[٣].

قال ابن كثير:" أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم"[٤].

قوله تعالى:{قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ} [التوبة : ٩٤]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: لا تعتذروا لن نصدقكم فيما تقولون"[٥].

قال ابن كثير:" أي : لن نصدقكم "[٦].

قال الزمخشري:" {لن نؤمن لكم}، علة للنهى عن الاعتذار، لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به، فإذا علم أنه مكذب وجب عليه الإخلال"[٧].

قال القرطبي:" {لن نؤمن لكم}، أي: لن نصدقكم"[٨].

قوله تعالى:{قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ} [التوبة : ٩٤]، أي:" قد نبأنا الله من أمركم ما حقق لدينا كذبكم"[٩].

قال القرطبي:" أي: أخبرنا بسرائركم"[١٠].

قال ابن كثير:" أي : قد أعلمنا الله أحوالكم "[١١].

قال الزمخشري:" قوله :{قد نبأنا الله من أخباركم}، علة لانتفاء تصديقهم، لأن الله عز وجل إذا أوحى إلى رسوله الإعلام بأخبارهم وما في ضمائرهم من الشر والفساد، لم يستقم مع ذلك تصديقهم في معاذيرهم"[١].

---

[١]انظر ص ١١٢-١١٤، وانظر: اعتقاد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى:٢٣٤.
[٢] التفسير الميسر:٢٠٢.
[٣] تفسير القرطبي:٢٣٠/٨.
[٤] تفسير ابن كثير:٢٠١/٤.
[٥] التفسير الميسر:٢٠٢.
[٦] تفسير ابن كثير:٢٠١/٤.
[٧] الكشاف:٣٠٢/٢.
[٨] تفسير القرطبي:٢٣٠/٨.
[٩] التفسير الميسر:٢٠٢.
[١٠] تفسير القرطبي:٢٣٠/٨.
[١١] تفسير ابن كثير:٢٠١/٤.

قوله تعالى:{وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ} [التوبة : ٩٤]، أي:" وسيرى الله عملكم ورسوله، إن كنتم تتوبون من نفاقكم، أو تقيمون عليه"[٢].

قال ابن كثير:" أي : سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا "[٣].

قال الزمخشري:أي: "أتنيبون أم تثبتون على كفركم "[٤].

قوله تعالى:{ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [التوبة : ٩٤]، أي:" ثم ترجعون بعد مماتكم إلى الذي لا تخفى عليه بواطن أموركم وظواهرها"[٥].

قال الزمخشري: " وهو عالم كل غيب وشهادة وسر وعلانية"[٦].

قال البيضاوي:" { تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ}، أي: إليه، فوضع الوصف موضع الضمير للدلالة على أنه مطلع على سرهم وعلنهم لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم"[٧].

قوله تعالى:{فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة : ٩٤]، أي:" فيخبركم بأعمالكم كلها، ويجازيكم عليها"[٨].

قال ابن كثير:" أي: فيخبركم بأعمالكم ، خيرها وشرها ، ويجزيكم عليها"[٩].

قال الزمخشري: " فيجازيكم على حسب ذلك"[١٠].

قال البيضاوي:" بالتوبيخ والعقاب عليه"[١١].

الفوائد:

١- مشروعية الاعتذار على شرط أن يكون المؤمن صادقا في اعتذاره.

٢- أن هذه الآية دليل على ثبوت الأفعال الاختيارية لله وقيامها به، قال تعالى: {وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ}.

٣- أن هذه الآية من الآيات الدالة على الرؤية، قال تعالى:{ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ}، هذه صريحة في المنافقين، فالله يرى أعمال المؤمنين من: صلاتهم، وصدقاتهم وحجهم، وجهادهم، ويرى أعمال الكافرين من: شركهم، وظلمهم، وعدوانهم، وجرائمهم، يرى هؤلاء وهؤلاء.

القرآن

{سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥)} [التوبة : ٩٥]

التفسير:

سيحلف لكم المنافقون بالله -كاذبين معتذرين- إذا رجعتم إليهم من الغزو؛ لتتركوهم دون مساءلة، فاجتنبوهم وأعرضوا عنهم احتقارًا لهم، إنهم خبثاء البواطن، ومكانهم الذي يأوون إليه في الآخرة نار جهنم؛ جزاء بما كانوا يكسبون من الآثام والخطايا.

قوله تعالى:{سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ} [التوبة : ٩٥]، أي:" سيحلف لكم المنافقون بالله -كاذبين معتذرين- إذا رجعتم إليهم من الغزو؛ لتتركوهم دون مساءلة

---

[١] الكشاف:٣٠٢/٢.

[٢] التفسير الميسر:٢٠٢.

[٣] تفسير ابن كثير:٢٠١/٤.

[٤] الكشاف:٣٠٢/٢.

[٥] التفسير الميسر:٢٠٢.

[٦] الكشاف:٣٠٢/٢.

[٧] تفسير البيضاوي:٩٤/٣.

[٨] التفسير الميسر:٢٠٢.

[٩] تفسير ابن كثير:٢٠١/٤.

[١٠] الكشاف:٣٠٢/٢.

[١١] تفسير البيضاوي:٩٤/٣.

قال ابن كثير:" ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تُؤَنِّبُوهم "[١].
قال البيضاوي:أي:" فلا تعاتبوهم"[٢].
قوله تعالى:{فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ} [التوبة : ٩٥]، أي:" فاجتنبوهم وأعرضوا عنهم احتقارًا لهم"[٣].
قال البيضاوي:أي:" ولا توبخوهم"[٤].
قال ابن كثير:" احتقارا لهم "[٥].
قوله تعالى:{إِنَّهُمْ رِجْسٌ} [التوبة : ٩٥]، أي:" إنهم خبثاء البواطن"[٦].
قال ابن كثير:" أي : خُبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم "[٧].
قال البيضاوي:أي:" لا ينفع فيهم التأنيب فإن المقصود منه التطهير بالحمل على الإنابة وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير فهو علة لإعراض وترك المعاتبة"[٨].
قوله تعالى:{وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ} [التوبة : ٩٥]، أي:" ومكانهم الذي يأوون إليه في الآخرة نار جهنم"[٩].
قال البيضاوي:" {ومأواهم جهنم}، من تمام التعليل، وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار لا ينفع فيهم التوبيخ فى الدنيا والآخرة، أو تعليل ثان والمعنى: أن النار كفتهم عتابا فلا تتكلفوا عتابهم"[١٠].
قوله تعالى:{جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [التوبة : ٩٥]، أي:" جزاء بما كانوا يكسبون من الآثام والخطايا"[١١].
قال ابن كثير:" أي : من الآثام والخطايا"[١٢].
الفوائد:
١- المنافقون كالمشركين رجس أي نجس لأن بواطنهم خبيثة بالشرك والكفر وأعمالهم الباطنة خبيثة أيضا إذ كلها تآمر على المسلمين ومكر بهم وكيد لهم.
٢- ومن فوائد قوله تعالى: {وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ}، بيان معنى: «الكسب»: أي: أفعال العباد، فأهل السنة والجماعة يقولون: إن أفعال المكلفين المختارين الاختيارية هي مخلوقة لله عز وجل، فالله عز وجل علم أفعال العباد وكتبها وشاءها وقدرها سبحانه في سابق علمه.

القرآن
{يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)} [التوبة : ٩٦]
التفسير:

---
[١] تفسير ابن كثير:٢٠١/٤.
[٢] تفسير البيضاوي:٩٤/٣.
[٣] التفسير الميسر:٢٠٢.
[٤] تفسير البيضاوي:٩٤/٣.
[٥] تفسير ابن كثير:٢٠١/٤.
[٦] التفسير الميسر:٢٠٢.
[٧] تفسير ابن كثير:٢٠١/٤.
[٨] تفسير البيضاوي:٩٤/٣.
[٩] التفسير الميسر:٢٠٢.
[١٠] تفسير البيضاوي:٩٤/٣.
[١١] التفسير الميسر:٢٠٢.
[١٢] تفسير ابن كثير:٢٠١/٤.

يحلف لكم -أيها المؤمنون- هؤلاء المنافقون كذبًا؛ لتَرضَوا عنهم، فإن رضيتم عنهم -لأنكم لا تعلمون كذبهم- فإن الله لا يرضى عن هؤلاء ولا غيرهم ممن استمروا على الفسوق والخروج عن طاعة الله ورسوله.

قوله تعالى:{يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ} [التوبة : ٩٦]، أي:" يحلف لكم -أيها المؤمنون- هؤلاء المنافقون كذبًا؛ لتَرضَوا عنهم"[١].

قال الزمخشري:" أى: غرضهم في الحلف بالله طلب رضاهم لينفعهم ذلك في دنياهم"[٢].

قال البيضاوي:أي:" بحلفهم، فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم"[٣].

قوله تعالى:{فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [التوبة : ٩٦]، أي:" فإن رضيتم عنهم -لأنكم لا تعلمون كذبهم- فإن الله لا يرضى عن هؤلاء ولا غيرهم ممن استمروا على الفسوق والخروج عن طاعة الله ورسوله"[٤].

قال الزمخشري:أي:" فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطا عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها. وقيل إنما قيل ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين يقتضى رضا الله عنهم. قيل: هم جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما، وكانوا ثمانين رجلا منافقين فقال النبي ﷺ حين قدم المدينة، لا تجالسوهم ولا تكلموهم. وقيل: جاء عبد الله ابن أبى يحلف أن لا يتخلف عنه أبدا"[٥].

قال البيضاوي:" أي: فإن رضاكم لا يستلزم رضا الله ورضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كانوا في سخط الله وبصدد عقابه، وإن أمكنهم أن يلبسوا عليكم لا يمكنهم أن يلبسوا على الله فلا يهتك سترهم ولا ينزل الهوان بهم، والمقصود من الآية النهي عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم بعد الأمر بالإعراض وعدم الالتفات نحوهم"[٦].

قال ابن كثير:" {الْفَاسِقِينَ} أي : الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله ، فإن الفسق هو الخروج ، ومنه سميت الفأرة "فُوَيسقة" لخروجها من جُحرها للإفساد ، ويقال : "فسقت الرطبة" : إذا خرجت من أكمامها"[٧].

الفوائد:

١- حرمة الرضا على الفاسق المجاهر بفسقه، إذ يجب بغضه فكيف يرضى عنه ويحب؟

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله لا يحب الكافرين، مع أن الكفر واقع بمشيئته، لكن لا يلزم من وقوعه بمشيئته، أن يكون محبوبا له سبحانه وتعالى.، قال تعالى: {فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين}، والفاسق -وهو الخارج عن طاعة الله- قد يراد به الكافر، وقد يراد به العاصي.

٣- ومنها: إثبات الرضا لله عن المحسنين والغضب والسخط على الفاسقين.

القرآن

{الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧)} [التوبة : ٩٧]

التفسير:

---

[١] التفسير الميسر:٢٠٢.
[٢] الكشاف:٣٠٢/٢.
[٣] تفسير البيضاوي:٩٤/٣.
[٤] التفسير الميسر:٢٠٢.
[٥] الكشاف:٣٠٢/٢.
[٦] تفسير البيضاوي:٩٤/٣.
[٧] تفسير ابن كثير:٢٠١/٤.

الأعراب سكان البادية أشد كفرًا ونفاقًا من أهل الحاضرة، وذلك لجفائهم وقسوة قلوبهم وبُعدهم عن العلم والعلماء، ومجالس الوعظ والذكر، فهم لذلك أحق بأن لا يعلموا حدود الدين، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام. والله عليم بحال هؤلاء جميعًا، حكيم في تدبيره لأمور عباده.

قوله تعالى:{الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا} [التوبة : ٩٧]، أي:" الأعراب سكان البادية أشد كفرًا ونفاقًا من أهل الحاضرة، وذلك لجفائهم وقسوة قلوبهم وبُعدهم عن العلم والعلماء، ومجالس الوعظ والذكر"[١].

قال ابن كثير:" أخبر تعالى أن في الأعراب كفارا ومنافقين ومؤمنين ، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد "[٢].

قال الزمخشري:" «الأعراب»، أهل البدو أشد كفرا ونفاقا من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم، ونشئهم في بعد من مشاهدة العلماء ومعرفة الكتاب والسنة"[٣].

وفي قوله تعالى:{الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا} [التوبة : ٩٧]، وجهان[٤]:

أحدهما : أن يكون الكفر والنفاق فيهم أكثر منه في غيرهم لقلة تلاوتهم القرآن وسماعهم السنن.

الثاني : أن الكفر والنفاق فيهم أشد وأغلظ منه في غيرهم لأنهم أجفى طباعاً وأغلظ قلوباً .

عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : "من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غَفَل ، ومن أتى السلطان افتتن"[٥].

ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولا وإنما كانت البعثة من أهل القرى ، كما قال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى } [يوسف : ١٠٩] ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فردَّ عليه أضعافها حتى رضي ، قال : «لقد هممت ألا أقبل هدية إلا من قُرشي ، أو ثَقَفي أو أنصاري ، أو دَوْسِيّ»[٦]؛ لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن : مكة ، والطائف ، والمدينة ، واليمن ، فهم ألطف أخلاقًا من الأعراب : لما في طباع الأعراب من الجفاء"[٧].

عن عائشة قالت : «قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبّلون صبيانكم ؟ قالوا : نعم. قالوا : ولكنا والله ما نقبّل. فقال رسول الله ﷺ : "وَأمْلكُ أن كان الله نزع منكم الرحمة ؟". وقال ابن نمير : "من قلبك الرحمة"»[٨].

قوله تعالى:{وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ} [التوبة : ٩٧]، أي:" فهم لذلك أحق بأن لا يعلموا حدود الدين، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام"[٩].

قال ابن كثير:" أي : أحرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله "[١٠].

قال الطبري:" يقول: وأخلق أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله"[١١].

قال الزمخشري:" وأحق بجهل حدود الدن وما أنزل الله من الشرائع والأحكام. ومنه قوله ﷺ :«إن الجفاء والقسوة في الفدادين»[١٢]"[١].

---

[١] التفسير الميسر:٢٠٢.

[٢] تفسير ابن كثير:٢٠١/٤.

[٣] الكشاف:٢٠٣/٢.

[٤] انظر: النكت والعيون:٣٩٣/٢.

[٥]المسند (٣٥٧/١) وسنن أبي داود برقم (٢٨٥٩) وسنن الترمذي برقم (٢٢٥٦) وسنن النسائي (١٩٥/٧).

[٦]رواه النسائي في السنن (٢٧٩/٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[٧] تفسير ابن كثير:٢٠٢/٤.

[٨]صحيح مسلم برقم (٢٣١٧).

[٩] التفسير الميسر:٢٠٢.

[١٠] تفسير ابن كثير:٢٠١/٤.

[١١] تفسير الطبري:٤٢٩/١٤.

[١٢] قال المحقق:" متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى في أثناء حديث فيه «وإن الجفاء وغلظ القلوب في الفدادين عند أصول أذناب الإبل» كذا البخاري ولمسلم «إن القسوة وغلظ القلوب»".

روي عن الرسول-ﷺ-«إن الإيمان هاهنا إن الإيمان هاهنا وإن القسوة وغلظ القلوب فى الفدادين عند أصول

قال الماوردي:" ومعنى {أجدر}، أي: أقرب ، مأخوذ من الجدار الذي يكون بين مسكني المتجاورين"[٢].

قال الزجاج:" المعنى: أجدر بترك العلم، تقول: أنت جدير أن تفعل كذا، وبأن تفعل كذا، كما تقول أنت خليق أن تفعل، أي هذا الفعل ميسر فيك"[٣].

وفي المراد بحدود الله ما أنزل الله، وجوه:

أحدها : فروض العبادات المشروعة[٤].

الثاني : الوعد والوعيد في مخالفة الرسول -ﷺ- والتخلف عن الجهاد[٥].

والثالث: يعني: سنن ما أنزل الله على رسوله في كتابه، يقول: هم أقل فهما بالسنن من غيرهم. قاله مقاتل[٦].

وروي عن قتادة قوله: "{وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله}، قال: هم أقل علمًا بالسُّنن"[٧].

عن إبراهيم قال: "جلس أعرابي إلى زيد بن صَوْحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوَنْد، فقال: والله إنّ حديثك ليعجبني، وإن يدك لَتُرِيبُني! فقال زيد: وما يُريبك من يدي؟ إنها الشمال! فقال الأعرابي: والله ما أدري، اليمينَ يقطعون أم الشمالَ؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله: {الأعرابُ أشدُّ كفرًا ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزلَ الله على رسوله}"[٨].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة : ٩٧]، أي:" والله عليم بحال هؤلاء جميعًا، حكيم في تدبيره لأمور عباده"[٩].

قال ابن كثير:" أي : عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم ، { حَكِيمٌ } فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق ، لا يسأل عما يفعل ، لعلمه وحكمته"[١٠].

قال الطبري:" يقول: {والله عليم}، بمن يعلم حدودَ ما أنزل على رسوله، والمنافق من خلقه، والكافرِ منهم، لا يخفى عليه منهم أحد {حكيم}، في تدبيره إياهم، وفي حلمه عن عقابهم، مع علمه بسرائرهم وخِداعهم أولياءَه"[١١].

قال الزمخشري:" {والله عليم} يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر، {حكيم} فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم ومخطئهم ومصيبهم من عقابه وثوابه"[١٢].

الفوائد:

أذناب الإبل حيث يطلع قرن الشيطان فى ربيعة ومضر».

أخرجه ابن عساكر من طريق أبى يعلى (٢١٣/٣٧) . وأخرجه أيضا: أحمد (١١٨/٤، رقم ١٧١٠٧) ، وابن أبى شيبة (٤٠٦/٦، رقم ٣٢٤٣٣) ، والبخارى (١٢٠٢/٣، رقم ٣١٢٦) ، ومسلم (٧١/١، رقم ٥١) ، وأبو عوانة (٦١/١، رقم ١٦١) ، والطبرانى فى الكبير (٢٠٩/١٧، رقم ٥٦٥) ، وفى الأوسط (٣٤٠/٢، رقم ٢١٦٣).

ومن غريب الحديث: "الفدادين": هم الذين تعلو أصواتهم فى حروثهم ومواشيهم. مفردها: فداد.[انظر: جامع الاحاديث:٤٨٧/٥].

[١] الكشاف:٢٠٣/٢.

[٢] النكت والعيون:٣٩٣/٢.

[٣] معاني القرآن:٤٦٥/٢.

[٤] انظر: النكت والعيون:٣٩٣/٢.

[٥] انظر: النكت والعيون:٣٩٣/٢.

[٦] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٢/!٩١.

[٧] أخرجه الطبري(١٧٠٩٢):ص٤٢٩/١٤.

[٨] أخرجه الطبري(١٧٠٩٣):ص٤٢٩/١٤.

[٩] التفسير الميسر:٢٠٢.

[١٠] تفسير ابن كثير:٢٠٢/٤.

[١١] تفسير الطبري:٤٣٠/١٤.

[١٢] الكشاف:٢٠٣/٢.

١- ذمّ سبحانه من لم يعرف حدود ما أنزل على رسوله فقال:- {الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله}.
٢- بيان أن سكان البادية يحرمون من كثير عن الآداب والمعارف فلذا سكن البادية غير محمود إلا إذا كان فرارا من الفتن.
٣- من الأعراب المؤمن والكافر والبر والتقي والعاصي والفاجر كسكان المدن إلا أن كفار البادية ومنافقيها أشد كفرا ونفاقا لتأثير البيئة.
٤- إثبات اسمين من اسمائه تعالى، وهما:«العليم»، و«الحكيم»:
- فـ«العليم»، والْعِلْمُ صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجلَّ ،فهو سبحانه «العليم»المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[١].

قال الخطابي:"«العليم»: هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق. كقوله تعالى: {إنه عليم بذات الصدور} [لقمان:٢٣]. وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم، ولذلك قال -سبحانه-: {وفوق كل ذي علم عليم} [يوسف:٧٦]. والآدميون -وإن كانوا يوصفون بالعلم- فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات، دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فيخلف علمهم الجهل، ويعقب ذكرهم النسيان، وقد نجد الواحد منهم عالما بالفقه غير عالم بالنحو وعالما بهما غير عالم بالحساب وبالطب ونحوهما من الأمور، وعلم الله -سبحانه- علم حقيقة، وكمال {قد أحاط بكل شيء علما} [الطلاق:١٢]، {وأحصى كل شيء عددا} [الجن: ٢٨]"[٢].

- ومن اسمائه تعالى:«الحكيم»: "هو المحكم لخلق الأشياء.قال تعالى:{آلر، تلك آيات الكتاب الحكيم} [يونس:١] وقال في موضع آخر: {كتاب أحكمت آياته} [هود: ١].

فدل على أن المراد بـ«الحكيم» هنا، الذي أحكمت آياته، صرف عن مفعل إلى فعيل، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها[٣].

القرآن

{وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨)} [التوبة : ٩٨]

التفسير:

ومن الأعراب مَن يحتسب ما ينفق في سبيل الله غرامة وخسارة لا يرجو له ثوابًا، ولا يدفع عن نفسه عقابًا، وينتظر بكم الحوادث والآفات، ولكن السوء دائر عليهم لا بالمسلمين. والله سميع لما يقولون عليم بنياتهم الفاسدة.

سبب النزول:

قال مقاتل:" نزلت في أعراب مزينة"[٤].

قوله تعالى:{وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا} [التوبة : ٩٨]، أي:" ومن الأعراب مَن يحتسب ما ينفق في سبيل الله غرامة وخسارة لا يرجو له ثوابًا، ولا يدفع عن نفسه عقابًا"[٥].

عقابًا"[٥].

قال مقاتل:" لا يحتسبها: كأن نفقته غرم يغرمها"[٦].

[١] انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.
[٢] شأن الدعاء:٥٧.
[٣] انظر: شأن الدعاء، للخطابي:٧٣-٧٤.
[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:١٩١/٢.
[٥] التفسير الميسر:٢٠٢.
[٦] تفسير مقاتل بن سليمان:١٩١/٢.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن الأعراب من يَعُدُّ نفقته التي ينفقها في جهاد مشرك، أو في معونة مسلم، أو في بعض ما ندب الله إليه عباده {مغرما}، يعني: غرمًا لزمه، لا يرجو له ثوابًا، ولا يدفع به عن نفسه عقابًا"[١].

قال ابن كثير:" أخبر تعالى أن منهم { مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ } أي : في سبيل الله { مَغْرَمًا } أي : غرامة وخسارة "[٢].

وفي قوله تعالى:{وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا} [التوبة : ٩٨]، وجهان[٣]:

أحدهما : ما يدفع من الصدقات .

الثاني : ما ينفق في الجهاد مع الرسول -ﷺ- مغرماً.

والمغرم التزام ما لا يلزم ، ومنه قوله تعالى:{إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً} [الفرقان : ٦٥] أي: لازماً ، ومنه قوله تعالى: { فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ} [الطور : ٤٠]، ومنه قول الشاعر[٤]:

فَمَا لَكَ مَسْلُوبَ العَزَاءِ كَأَنَّمَا ... تَرَى هَجْرَ لَيْلَى مَغْرَماً أَنْتَ غارِمُهُ

قال الزمخشري:"{مغرما}، غرامة وخسرانا. و«الغرامة»: ما ينفقه الرجل وليس يلزمه، لأنه لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء، لا لوجه الله عز وجل وابتغاء المثوبة عنده... قيل: هم أعراب أسد وغطفان وتميم"[٥].

قوله تعالى:{وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ} [التوبة : ٩٨]، أي:" وينتظر بكم الحوادث والآفات"[٦].

قال الزجاج:" أي: الموت والقتل"[٧].

قال الطبري:" يقول: وينتظرون بكم الدوائر، أن تدور بها الأيام والليالي إلى مكروهٍ ومجيء محبوب، وغلبة عدوٍ لكم"[٨].

قال ابن كثير:" أي : ينتظر بكم الحوادث والآفات "[٩].

قال الزمخشري:" دوائر الزمان: دوله وعقبه، لتذهب غلبتكم عليه ليتخلص من إعطاء الصدقة"[١٠].

وفي قوله تعالى:{وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ} [التوبة : ٩٨]، وجهان[١١]:

أحدهما : في إعلان الكفر والعصيان.

والثاني : في انتهاز الفرصة بالانتقام.

قال ابن زيد:" هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين إنما ينفقون رياءً اتِّقاءَ أن يُغْزَوْا أو يُحارَبوا أو يقاتلوا، ويرون نفقتهم مغرمًا. ألا تراه يقول: {ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء}"[١٢].

قوله تعالى:{عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ} [التوبة : ٩٨]، أي:" ولكن السوء دائر عليهم لا بالمسلمين"[١٣].

---

[١] تفسير الطبري:٤٣٠/١٤.

[٢] تفسير ابن كثير:٢٠٢/٤.

[٣] انظر: النكت والعيون:٣٩٤/٢.

[٤] لم أقف عليه، والبيت من شواهد الماوردي في النكت والعيون:٣٩٤/٢، والسمعاني في تفسيره:٣٤٠/٢، والحميري في شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم:٤٩٢٦/٨.

[٥] الكشاف:٢٠٣/٢.

[٦] التفسير الميسر:٢٠٢.

[٧] معاني القرآن:٤٦٥/٢.

[٨] تفسير الطبري:٤٣٠/١٤.

[٩] تفسير ابن كثير:٢٠٢/٤.

[١٠] الكشاف:٢٠٣/٢.

[١١] انظر: النكت والعيون:٣٩٤/٢.

[١٢] أخرجه الطبري(١٧٠٩٤):ص٤٣١/١٤.

[١٣] التفسير الميسر:٢٠٢.

قال مقاتل:" يعني يتربص بمحمد الموت، يقول يموت فنستريح منه ولا نعطيه أموالنا"[1].
قال الطبري:" يقول: جعل الله دائرة السوء عليهم، ونزول المكروه بهم لا عليكم أيها المؤمنون، ولا بكم"[2].
قال ابن كثير:" أي : هي منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم "[3].
قال الزمخشري:"{عليهم دائرة السوء}، دعاء معترض، دعى عليهم بنحو ما دعوا به، كقوله عز وجل: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ} [المائدة : ٦٤]"[4].
قرأ ابن كثير وَأَبُو عَمْرو: {دَائِرَة السوء} بِضَم السِّين وكذلك في سورة الْفَتْح: { دَائِرَةُ السَّوْءِ} [الفتح : ٦]، وَقَرَأَ نَافِع وَعَاصِم وَابْن عَامر وَحَمْزَة والكسائى :{دَائِرَة السوء} بِفَتْح السِّين فيهمَا، وَلم يخْتَلف فى غَيرهمَا، وروي الصوفى عَن روح عَن مُحَمَّد بن صَالح عَن شبْل عَن ابْن كثير {دَائِرَة السوء} بِفَتْح السِّين وَكَذَلِكَ فى الْفَتْح، قَالَ وَقَرَأَ ابْن مُحَيْصِن {السوء} بِضَم السِّين[5].
قال الزمخشري:" وقرئ «السوء» بالضم وهو العذاب، كما قيل له :سيئة. و«السوء» بالفتح، وهو ذم للدائرة، كقولك: رجل سوء، في نقيض قولك: رجل صدق، لأن من دارت عليه ذام لها"[6].
قوله تعالى:{وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة : ٩٨]، أي:" والله سميع لما يقولون عليم بنياتهم"[7].
قال مقاتل:" {سميع} لمقالتهم، {عليم} بها "[8].
قال الطبري:" "{والله سميع) ، لدعاء الداعين، {عليم} بتدبيرهم، وما هو بهم نازلٌ من عقاب الله، وما هم إليه صائرون من أليم عقابه"[9].
قال ابن كثير:" أي : سميع لدعاء عباده ، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان"[10].
قال الزمخشري:" {والله سميع}، لما يقولون إذا توجهت عليهم الصدقة، {عليم} بما يضمرون"[11].
الفوائد:
١- من فوائد الآية الكريمة أن الأعراب إذا آمنوا، لم يضرهم تعرُّبهم.
٢- ومنها: أن نفس الأعرابية والأعجمية ليست مذمومة في نفسها عند الله تعالى وعند رسوله وعند عباده المؤمنين، بل الأعراب منقسمون إلى أهل جفاء، وإلى أهل إيمان وبر.
٣- اثبات اسمين من أسمائه تعالى، وهما:«السميع»، «العليم»:
- فـ«السميع»: هو "الذي يسمع جميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، فالسر عنده علانية البعيد عنده قريب"[12].
وسمعه تعالى نوعان[13]:

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:١٩١/٢.
(٢) تفسير الطبري:٤٣٠/١٤.
(٣) تفسير ابن كثير:٢٠٢/٤.
(٤) الكشاف:٢٠٣/٢.
(٥) السبعة في القراءات:٣١٦.
(٦) الكشاف:٢٠٣/٢.
(٧) التفسير الميسر:٢٠٢.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:١٩١/٢.
(٩) تفسير الطبري:٤٣٠/١٤.
(١٠) تفسير ابن كثير:٢٠٢/٤.
(١١) الكشاف:٢٠٣/٢.
(١٢)توضيح الكافية الشافية:١١٨، وتفسير أسماء الله الحسنى للسعدي:٢٠٩.
(١٣) انظر: الحق الواضح المبين:٣٥، تفسير اسماء الله الحسنى للسعدي:٢١٠.

احدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، واحاطته التامة بها.

والثاني: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيصيبهم ويثيبهم، ومنه قوله تعالى: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [إبراهيم:٣٩]، وقول المصلي «سمع الله لمن حمده»، أي: استجاب.

- ومن أسمائه تعالى: «العليم»:هو المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[١].

القرآن

{وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)} [التوبة : ٩٩]

التفسير:

ومن الأعراب مَن يؤمن بالله ويقرُّ بوحدانيته وبالبعث بعد الموت، والثواب والعقاب، ويحتسب ما ينفق من نفقة في جهاد المشركين قاصدًا بها رضا الله ومحبته، ويجعلها وسيلة إلى دعاء الرسول ﷺ له، ألا إن هذه الأعمال تقربهم إلى الله تعالى، سيدخلهم الله في جنته. إن الله غفور لما فعلوا من السيئات، رحيم بهم.

سبب النزول:

عن البختريّ بن المختار العبدي قال، "سمعت عبد الرحمن بن معْقل قال: كنا عشرة ولد مقرّن، فنزلت فينا: {ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر}، إلى آخر الآية"[٢].

وروي عن مجاهد قوله: "{ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر}، قال: هم بنو مقرِّن، من مزينة، وهم الذين قال الله فيهم: {وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا}"[٣].

قوله تعالى:{وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [التوبة : ٩٩]، أي:" ومن الأعراب مَن يؤمن بالله ويقرُّ بوحدانيته وبالبعث بعد الموت، والثواب والعقاب"[٤].

قوله تعالى:{وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ} [التوبة : ٩٩]، أي:" ويحتسب ما ينفق من نفقة في جهاد المشركين قاصدًا بها رضا الله ومحبته، ويجعلها وسيلة إلى دعاء الرسول ﷺ له"[٥].

قال الطبري:يعني:" ويبتغي بنفقة ما ينفق، مع طلب قربته من الله، دعاءَ الرسول واستغفارَه له"[٦].

قال ابن كثير:" هذا هو القسم الممدوح من الأعراب ، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله ، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم "[٧].

وفي قوله تعالى:{وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ} [التوبة : ٩٩]، وجهان[٨]:

أحدهما : أنها تقربة من طاعة الله ورضاه .

الثاني : أن ثوابها مذخور لهم عند الله تعالى فصارت قربات عند الله.

وفي قوله تعالى:{ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ} [التوبة : ٩٩]، وجهان:

---

[١] انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١/١٨٨.
[٢] أخرجه الطبري(١٧٠٩٨):ص١٤/٤٣٣.
[٣] أخرجه الطبري(١٧٠٩٧):ص١٤/٤٣٣.
[٤] التفسير الميسر:٢٠٢.
[٥] التفسير الميسر:٢٠٢.
[٦] تفسير الطبري:١٤/٤٣٢.
[٧] تفسير ابن كثير:٤/٢٠٢.
[٨] انظر: النكت والعيون:٢/٣٩٤.

أحدهما : أنه استغفاره لهم ، قاله ابن عباس[1]، ومقاتل[2]، ويحيى بن سلام[3].
الثاني : دعاؤه لهم ، قاله قتادة[4]، وابن قتيبة[5]، والتستري[6]، والزجاج[7].
قال ابن قتيبة:"{وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ} [التوبة: ٩٩] يعني: دعاءه. وقال الأعشى يذكر الخمر والخمّار[8]:

وقابلها الرّيح في دنّها وصلّى على دنّها وارتسم

أي: دعا لها بالسلامة من الفساد والتغيّر.
و«الصّلاة» من الله: الرحمة والمغفرة. قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ} [الأحزاب: ٥٦] . وقال: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ} [الأحزاب: ٤٣]، وقال: {أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ} [البقرة: ١٥٧] أي: مغفرة، وقال النبي، صلّى الله عليه وسلم: «اللهم صلّ على آل أبي أوفى»[9]، يريد: ارحمهم واغفر لهم"[10].
قال الخليل:" وصلوات الرسول للمسلمين: دعاؤه لهم وذكرهم. وصلوات الله على أنبيائه والصالحين من خلقه: حسن ثنائه عليهم وحسن ذكره لهم. وقيل: مغفرته لهم. وصلاة الناس على الميت: الدعاء. وصلاة الملائكة: الاستغفار"[11].
قوله تعالى:{أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ} [التوبة : ٩٩]، أي:" ألا إن هذه الأعمال تقربهم إلى الله تعالى"[12].
قال ابن كثير:" أي : ألا إن ذلك حاصل لهم "[13].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ألا إنّ صلوات الرسول قربة لهم من الله، وقد يحتمل أن يكون معناه: ألا إنّ نفقته التي ينفقها كذلك، قربةٌ لهم عند الله"[14].
وفي قوله تعالى:{أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ} [التوبة : ٩٩]، وجهان[15]:
أحدهما : أن يكون راجعاً إلى إيمانهم ونفقتهم أنها قربة لهم .

---

[1] انظر: تفسير الطبري(١٧٠٩٥):ص١٤/٤٣٢-٤٣٣.
[2] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١٩٢/٢.
[3] انظر: التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه:١٦٦.
[4] انظر: تفسير الطبري(١٧٠٩٦):ص٤٣٣/١٤.
[5] انظر: تأويل مشكل القرآن:٢٥٥، وغريب القرآن:١٩١.
[6] انظر: تفسير التستري:٣٣.
[7] انظر: معاني القرآن:٤٦٦/٢.
[8] البيت من المتقارب، وهو للأعشى في ديوانه ص ٨٥، ولسان العرب (رسم) ، (صلا) ، والمخصص ١٣/ ٨٥، ومقاييس اللغة ٣/ ٣٠٠، وتهذيب اللغة ٩/ ١٦٦، ١٢/ ٢٣٧، وجمهرة اللغة ص ١١٥، ٧٢٠، وتاج العروس (رسم) ، وبلا نسبة في لسان العرب (دنن) ، وتاج العروس (دنن).
[9] أخرجه البخاري في الزكاة ٢/ ١٥٩، ومسلم في الزكاة حديث ١٧٦، والنسائي في الزكاة باب ٧، وابن ماجه حديث ١٧٩٦، وأحمد في المسند ٤/ ٣٥٣، ٣٥٥- ٣٨١، والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ١٥٢، ٤/ ١٥٧، ٧/ ٥، والبغوي في شرح السنة ٣/ ١٤٥، وابن كثير في تفسيره ٤/ ١٤٦، والقرطبي في تفسيره ١/ ٣٨٢، ١٥/ ١١٨، والبخاري في التاريخ الكبير ٥/ ٢٤، والطحاوي في شرح مشكل الآثار ٤/ ١٦٢، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ٢٧٥، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٢/ ٣١٩، ١٤/ ٢٣٥، والساعاتي في منحة المعبود ٨٣٣، والبغوي في شرح السنة ٥/ ٤٨٥، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٩٦، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٨٢، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٤/ ١٥٦، والقاضي عياض في الشفاء ٢/ ١٨٩، وابن حجر في فتح الباري ٧/ ٤٤٨، ٥٣٤، ١١/ ١٣٦، ١٦٩، والطبراني في المعجم الكبير ١٨/ ١٠، وابن حجر في الكافي والشافي في تخريج أحاديث الكشاف ٧٩، ١٣٧، وابن أبي شيبة في مصنفه ٢/ ٥١٩، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٦/ ٢١٢٢.
[10] تأويل مشكل القرآن:٢٥٥.
[11] العين، مادة"صلو"::ص١٥٤/٧.
[12] التفسير الميسر:٢٠٢.
[13] تفسير ابن كثير:٢٠٢/٤.
[14] تفسير الطبري:٤٣٤/١٤.
[15] انظر: النكت والعيون:٣٩٤/٢.

الثاني : إلى صلوات الرسول أنها قربة لهم .
قوله تعالى:{سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ} [التوبة : ٩٩]، أي:" سيدخلهم الله في جنته"[١].
قال الطبري:" يقول: سيدخلهم الله فيمن رحمه فأدخله برحمته الجنة"[٢].
قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة : ٩٩]، أي:" إن الله غفور لما فعلوا من السيئات، رحيم بهم"[٣].
قال الطبري:" {إن الله غفورٌ}، لما اجترموا، {رحيم} بهم مع توبتهم وإصلاحهم أن يعذبهم"[٤].
عن عكرمة والحسن في قول الله في براءة: "{الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم}، قد استثنى فقال: {ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول}، إلى قوله: {غفور رحيم}"[٥].
الفوائد:
١- فضل النفقة في سبيل الله والإخلاص فيها لله تعالى.
٢- كان في أصحاب رسول الله ﷺ ممن وفد عليه ومن غيرهم من الأعراب من هو أفضل من كثير من القرويين، فهذا كتاب الله يحمد بعض الأعراب، ويذم بعضهم.
٣- -ومنها: إثبات هذين الاسمين الكريمين: «الغفور»، و«الرحيم»؛ وما تضمناه من صفة، وفعل.
- فـ«الغفور»: هو الذي تكثر منه المغفرة. وبناء فعول: بناء المبالغة في الكثرة[٦].
والفرق بين صيغتي:«الغفار»، و«الغفور»: أن "«الغفار»[٧]، معناه: الستار لذنوب عباده في الدنيا بأن لا يهتكهم ولا يشيدهما عليهم، ويكون معنى «الغفور»: منصرفا إلى مغفرة الذنوب في الآخرة، والتجاوز عن العقوبة فيها"[٨].
- و«الرحيم»:أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء [٩].
قال الشيخ ابن عثيمين:"«الرحيم»:أي الموصل للرحمة من يشاء من عباده"[١٠]، وهو "صيغة مبالغة، أو صفة مشبهة من الرحمة؛ والرحمة صفة من صفات الله سبحانه وتعالى الذاتية الفعلية؛ فهي باعتبار أصل ثبوتها لله صفة ذاتية؛ وباعتبار تجدد من يرحمه الله صفة فعلية؛ ولهذا علقها الله سبحانه وتعالى بالمشيئة في قوله تعالى: {يعذب من يشاء ويرحم من يشاء} [العنكبوت: ٢١]، فهي صفة حقيقية ثابتة لله عز وجل، وأهل التأويل -والأصح أن نسميهم أهل التحريف- يقولون: إن الرحمة غير

---

[١] التفسير الميسر:٢٠٢.
[٢] تفسير الطبري:٤٣٤/١٤.
[٣] التفسير الميسر:٢٠٢.
[٤] تفسير الطبري:٤٣٤/١٤.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٢٠٧):ص١٨٦٧/٦.
[٦] انظر: شأن الدعاء:٦٥/١.
[٧]قال الخطابي:" الغفار: هو الذي يغفر ذنوب عباده مرة بعد أخرى. كلما تكررت التوبة في الذنب من العبد تكررت المغفرة. كقوله -سبحانه-: {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} [طه:٨٢].
وأصل الغفر في اللغة: الستر والتغطية، ومنه قيل لجنة الرأس: المغفر، وبه سمي زئبر الثوب غفرا وذلك لأنه يستر سداه؛ فالغفار: الستار لذنوب عباده، والمسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته. ومعنى الستر في هذا أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهره فيعيونهم ويقال: إن المغفرة مأخوذة من الغفر: وهو فيما حكاه بعض أهل اللغة نبت يداوى به الجراح، يقال إنه إذا ذر عليها دملها وأبراها". [شأن الدعاء:٥٢/١-٥٣، وانظر: اللسان وتاج العروس، مادة"غفر"].
[٨] شأن الدعاء:٦٥/١.
[٩] انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٨٨/١، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.
[١٠] تفسير ابن عثيمين الفاتحة والبقرة:٥/١.

حقيقية؛ وأن المرادبرحمة الله إحسانه؛ أو إرادة الإحسان؛ فيفسرونها إما بالإرادة؛ وإما بالفعل؛ وهذا لا شك أنه خطأ؛ وحجتهم: أنهم يقولون: إن الرحمة رقة، ولين؛ والرقة، واللين لا تناسبان عظمة الخالق سبحانه وتعالى؛ فنقول لهم: إن هذه الرحمة رحمة المخلوق؛ أما رحمة الخالق فإنها تليق به سبحانه وتعالى؛ ولا تتضمن نقصاً؛ فهو ذو رحمة بالغة، وسلطان تام؛ فلا يرد بأسه عن القوم المجرمين"[١].

٤- ومنها: إثبات ما ذكره أهل السنة والجماعة من أن أسماء الله سبحانه وتعالى المتعدية يستفاد منها ثبوت تلك الأحكام المأخوذة منها؛ فالأسماء المتعدية تتضمن الاسم، والصفة، والأثر - الذي هو الحكم المترتب عليه-[٢].

القرآن

{وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)} [التوبة : ١٠٠]

التفسير:

والذين سبقوا الناس أولا إلى الإيمان بالله ورسوله من المهاجرين الذين هجروا قومهم وعشيرتهم وانتقلوا إلى دار الإسلام، والأنصار الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه الكفار، والذين اتبعوهم بإحسان في الاعتقاد والأقوال والأعمال طلبًا لمرضاة الله سبحانه وتعالى، أولئك الذين رضي الله عنهم لطاعتهم الله ورسوله، ورضوا عنه لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم وإيمانهم، وأعدَّ لهم جنات تجري تحت قصورها وأشجارها الأنهار خالدين فيها أبدًا، ذلك هو الفلاح العظيم.

قوله تعالى:{وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ} [التوبة : ١٠٠]، أي:" والذين سبقوا الناس أولا إلى الإيمان بالله ورسوله من المهاجرين الذين هجروا قومهم وعشيرتهم وانتقلوا إلى دار الإسلام، والأنصار الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه الكفار"[٣].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : والذين سبقوا الناس أولا إلى الإيمان بالله ورسوله {من المهاجرين}: الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم ، وفارقوا منازلهم وأوطانهم، {والأنصار}: الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه من أهل الكفر بالله ورسوله"[٤].

واختلف في المعنيين في قوله تعالى:{وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ} [التوبة : ١٠٠]، على خمسة اقوال:

أحدها : أنهم الذين صلّوا إلى القبلتين مع رسول الله -ﷺ- ، قاله أبو موسى الأشعري[٥]، وسعيد بن المسيب[٦]، وابن سيرين[٧]،والحسن[٨]، وقتادة[٩]، والشعبي-في إحدى الروايات[١٠].

الثاني : أنهم الذين بايعوا رسول الله -ﷺ- بيعة الرضوان ، قاله الشعبي[١١]، وابن سيرين-في إحدى الروايات[١٢].

---

[١] تفسير ابن عثيمين:الفاتحة والبقرة:٢٥٢/٢-٢٥٣.

[٢] انظر: تسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:٢٥٩/٢.

[٣] التفسير الميسر:٢٠٣.

[٤] تفسير الطبري:٤٣٥/١٤.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٧١٠٧):ص٤٣٦/١٤.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٧١٠٩)-(١٧١١٢):ص٤٣٦/١٤-٤٣٧.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٧١١٣):ص٤٣٧/١٤.

[٨] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٨٦٨/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٧١١٥):ص٤٣٧/١٤.

[١٠] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٨٦٨/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١٧٠٩٩)-(١٧١٠٦):ص٤٣٥/١٤-٤٣٦.

[١٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٨٦٨/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.

الثالث : أنهم أهل بدر ، قاله عطاء[1].
الرابع : أنهم السابقون بالموت والشهادة من المهاجرين والأنصار سبقوا إلى ثواب الله تعالى وحسن جزائه[2].
والخامس: أن السابقين الأولين من المهاجرين هم الذين آمنوا بمكة قبل هجرة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عنهم ، والسابقون الأولون من الأنصار هم الذين آمنوا برسول الله ورسوله قبل هجرته إليهم. أفاده الماوردي[3].
قرأ عمر بن الخطاب، والحسن، وقتادة، وعيسى الكوفي، وسلام، وسعيد بن أبي سعيد، وطلحة، ويعقوب:«والأنصارُ»: برفع «الراء» عطفا على {والسابقون}، فيكون «الأنصار» جميعهم مندرجين في هذا اللفظ. وعلى قراءة الجمهور وهي الجر، يكونون قسمين: سابق أول، وغير أول [4].
قوله تعالى:{وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ} [التوبة : ١٠٠]، أي:" والذين اتبعوهم بإحسان في الاعتقاد والأقوال والأعمال طلبًا لمرضاة الله سبحانه وتعالى"[5].
قال الطبري:" يقول : والذين سَلَكوا سبيلهم في الإيمان بالله ورسوله ، والهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام ، طلبَ رضا الله "[6].
عن قتادة قوله: "{والذين اتبعوهم بإحسان}، قال: التابعون"[7].
وروي عن عبد الرحمن في قوله: "{والذين اتبعوهم بإحسان}، من بقي من أهل الإسلام إلى أن تقوم الساعة"[8].
وفي قوله تعالى:{وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ} [التوبة : ١٠٠]، وجهان[9]:
أحدهما : من الإيمان .
الثاني : من الأفعال الحسنة.
عن ابن عباس: "أتاه رجل فذكر بعض أصحاب محمد- ﷺ- ورضي عنهم كأنه يتنقص بعضهم، فقال ابن عباس: {والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان}، أما أنت فلم تتبعهم بإحسان"[10].
عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: "كان الناس على ثلاث منازل: المهاجرون الأولون، والذين اتبعوهم بإحسان ... ، والذين جاؤ من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، فأحسن ما نكون أن نكون بهذه المنزلة"[11].
عن محمد بن كعب قال : مرّ عمر برجل وهو يقرأ هذه الآية : {والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان} ، قال : من أقرأك هذه الآية ؟ قال : أقرأنيها أبيّ بن كعب. قال : لا تفارقْني حتى أذهب بك إليه ! فأتاه فقال : أنت أقرأت هذا هذه الآية ؟ قال : نعم! قال : وسمعتها من رسول الله ﷺ ؟! قال : [نعم!]. لقد كنتُ أرانا رُفِعنا رَفْعَةً لا يبلُغها أحدٌ بعدنا! فقال أبيّ : تصديق ذلك في أول الآية التي في أول الجمعة وأوسط الحشر ، وآخر الأنفال. أما أول الجمعة : {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ } [سورة الجمعة : ٣] ، وأوسط الحشر :{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإيمَانِ} [سورة الحشر : ١٠] ،

---

(١) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون:٣٩٥/٢.
(٢) انظر: النكت والعيون:٣٩٥/٢.
(٣) انظر: النكت والعيون:٣٩٥/٢.
(٤) انظر: البحر المحيط في التفسير:٤٩٥/٥.
(٥) التفسير الميسر:٢٠٣.
(٦) تفسير الطبري:٤٣٥/١٤.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٥):ص١٨٦٩/٦.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٦):ص١٨٦٩/٦.
(٩) انظر: النكت والعيون:٣٩٥/٢.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٤):ص١٨٦٨/٦.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٣):ص١٨٦٨/٦.

وأما آخر الأنفال : {وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ} [سورة الأنفال : ٧٥]"[١].

وعن ابن عامر الأنصاري: "أن عمر بن الخطاب قرأ : «وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارُ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ»، فرفع «الأنصار» ولم يلحق الواو في {الذين}، فقال له زيد بن ثابت {والذين اتبعوهم بإحسان} ، فقال عمر : «الذين اتبعوهم بإحسان»، فقال زيد : أمير المؤمنين أعلم! فقال عمر : ائتوني بأبيّ بن كعب. فأتاه ، فسأله عن ذلك ، فقال أبي : {والذين اتبعوهم بإحسان}، فقال عمر : إذًا نتابع أبَيًّا"[٢].

وقد ذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرأ : "«الأنْصَارُ»، بالرفع ، عطفًا بهم على {السابقين}"[٣].

قوله تعالى:{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ} [التوبة : ١٠٠]، أي:"أولئك الذين رضي الله عنهم لطاعتهم الله ورسوله"[٤].

وفي قوله تعالى:{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ} [التوبة : ١٠٠]، ثلاثة وجوه:

أحدها : رضي الله عنهم بالإيمان ، ورضوا عنه بالثواب ، قاله ابن بحر[٥].

الثاني : رضي الله عنهم في العبادة . ورضوا عنه بالجزاء ، حكاه الماوردي عن علي بن عيسى[٦].

الثالث : رضي الله عنهم بطاعة الرسول -ﷺ- ، ورضوا عنه بالقبول[٧].

قال الطبري:" معنى الكلام : رضي الله عن جميعهم لما أطاعوه ، وأجابوا نبيّه إلى ما دعاهم إليه من أمره ونهيه ورضي عنه السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم إياه ، وإيمانهم به وبنبيه عليه السلام"[٨].

قوله تعالى:{وَرَضُوا عَنْهُ} [التوبة : ١٠٠]، أي:" ورضوا عنه لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم وإيمانهم"[٩].

عن أنس: "قال رسول الله- ﷺ- :ثم يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى- فيقول: سلوني أعطكم، قال: فيسألونه الرضا، فيقول: رضاي أحلكم داري وأنالكم كرامتي فسلوني أعطكم قال: فيسألونه الرضا، قال: فيشهدهم أنه قد رضي عنهم"[١٠].

قوله تعالى:{وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ} [التوبة : ١٠٠]، أي:" وأعدَّ لهم جنات تجري تحت قصورها وأشجارها الأنهار"[١١].

قوله تعالى:{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [التوبة : ١٠٠]، أي:" مقيمين فيها من غير انتهاء"[١٢].

قال الطبري:" لابثين فيها {أبدًا}، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها "[١٣].

قوله تعالى:{ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة : ١٠٠]، أي:" ذلك هو الفلاح العظيم"[١٤].

---

[١] أخرجه الطبري(١٧١١٦):ص١٤/٤٣٧-٤٣٨.
[٢] أخرجه الطبري(١٧١١٨):ص١٤/٤٣٨-٤٣٩.
[٣] انظر: تفسير الطبري:١٤/٤٣٩.
[٤] التفسير الميسر:٢٠٣.
[٥] انظر: النكت والعيون:٢/٣٩٥.
[٦] انظر: النكت والعيون:٢/٣٩٥.
[٧] انظر: النكت والعيون:٢/٣٩٥.
[٨] تفسير الطبري:١٤/٤٣٩.
[٩] التفسير الميسر:٢٠٣.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٧):ص٦/١٨٦٩.
[١١] التفسير الميسر:٢٠٣.
[١٢] صفوة التفاسير:١/٥٢٠.
[١٣] تفسير الطبري:١٤/٤٣٩.
[١٤] التفسير الميسر:٢٠٣.

قال ابن كثير:" يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ، ورضاهم عنه بما أعدَّ لهم من جنات النعيم ، والنعيم المقيم "[١].

عن سعيد بن جبير قوله: "{ذلك الفوز العظيم}، يعني: ذلك الثواب، الفوز العظيم"[٢].

قال أبو حيان:" ولما بين تعالى الصائل الأعراب المؤمنين المتصدقين، وما أعد لهم من النعيم، بين حال هؤلاء السابقين وما أعد لهم، وشتان ما بين الإعدادين والثناءين، هناك قال: {أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ}[التوبة:٩٩] وهنا {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ}[التوبة:١٠٠]، وهناك :{ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ}[التوبة:٩٩]، وهنا {وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي}[التبوة:١٠٠]، وهناك ختم: {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[التوبة:٩٩]، وهنا {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[التوبة:١٠٠]"[٣].

الفوائد:

١- فضل أصحاب رسول الله ﷺ على غيرهم ممن جاء بعدهم.
٢- وفي هذه الآية تزكية للصحابة -رضي الله عنهم- وتعديل لهم، وثناء عليهم؛ ولهذا فإن توقيرهم من أصول الإيمان.
٣- فضل التابعين لأصحاب رسول الله ﷺ إن أحسنوا المتابعة.
٤- من ثمرات الإيمان: الفوز برضا الله، ودار كرامته، إذ أن جزاء أهل الإيمان في الدار الآخرة هو النعيم المقيم في دار الإسلام.
٥- أفضلية رضا الله تعالى على سائر النعيم.
٦- بيان معنى الفوز وهو النجاة من النار، ودخول الجنة.

القرآن

{وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)} [التوبة : ١٠١]

التفسير:

ومن القوم الذين حول (المدينة) أعراب منافقون، ومن أهل (المدينة) منافقون أقاموا على النفاق، وازدادوا فيه طغيانًا، بحيث يخفى عليك -أيها الرسول- أمرهم، نحن نعلمهم، سنعذبهم مرتين: بالقتل والسبي والفضيحة في الدنيا، وبعذاب القبر بعد الموت، ثم يُرَدُّون يوم القيامة إلى عذاب عظيم في نار جهنم.

قوله تعالى:{وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ} [التوبة : ١٠١]، أي:" ومن القوم الذين حول (المدينة) أعراب منافقون"[٤].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : ومن القوم الذين حول مدينتكم من الأعراب منافقون" [٥].

قوله تعالى:{وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ} [التوبة : ١٠١]، أي:" ومن أهل المدينة منافقون أيضا لجوا في النفاق واستمروا عليه"[٦].

قال الطبري:أي:"ومن أهل مدينتكم أيضًا أمثالهم أقوامٌ منافقون، مرَنُوا عليه ودَرِبوا به"[٧].

عن محمد بن إسحاق:" {مردوا على النفاق}، أي: لجوا فيه وأبوا"[٨].

---

[١] تفسير ابن كثير:٢٠٢/٤.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٨):ص١٨٦٩/٦.
[٣] البحر المحيط:٤٩٤/٥-٤٩٥.
[٤] التفسير الميسر:٢٠٣.
[٥] انظر: النكت والعيون:٣٩٦/٢.
[٦] صفوة التفاسير:٥٢١/١.
[٧] انظر: النكت والعيون:٣٩٦/٢.
[٨] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٠٩):ص١٨٦٩/٦.

وفي قوله تعالى:{وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ} [التوبة : ١٠١]، ثلاثة وجوه:
أحدها : أقاموا عليه ولم يتوبوا منه ، قاله عبد الرحمن بن زيد[١].

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم :"{ومن أهل المدينة مردوا على النفاق}، قال: أقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب آخرون"[٢].

الثاني : مردوا عليه أي عتوا فيه ، ومنه قوله عز وجل:{وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً}[النساء : ١١٧][٣].

قال الفراء:أي:" مرنوا عليه وجرؤوا عليه كقولك: تمردوا"[٤].

قال الطبري:"ومنه : « شيطانٌ مارد ، ومَرِيد»، وهو الخبيث العاتي. ومنه قيل : تمرَّد فلان على ربه، أي : عتَا ، ومرنَ على معصيته واعتادها"[٥].

الثالث : تجردوا فيه فظاهروا ، مأخوذ منه تجرد خد الأمرد لظهوره[٦].

قوله تعالى:{لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ} [التوبة : ١٠١]، أي:" لا تعلمهم أنت يا محمد لمهارتهم في النفاق بحيث يخفى أمرهم على كثيرين، ولكن نحن نعلمهم ونخبرك عن أحوالهم"[٧].

قال مقاتل:" لا تعرف نفاقهم نحن نعرف نفاقهم"[٨].

قال الطبري:" يقول لنبيه محمد ﷺ : لا تعلم ، يا محمد ، أنت هؤلاء المنافقين الذين وصفتُ لك صفتهم ممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة ، ولكنا نحن نعلمهم"[٩].

عن ابن عباس:"{ نحن نعلمهم}، يقول: نعرفهم"[١٠].

وفي قوله تعالى:{لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ} [التوبة : ١٠١]، وجهان[١١]:
أحدهما : لا تعلمهم حتى نعلمك بهم .
الثاني : لا تعلم أنت عاقبة أمورهم وإنما نختص نحن بعلمها ، وهذا يمنع أن يحكم على أحد بجنة أو نار .

عن قتادة في قوله: "{وممن حولكم من الأعراب} إلى قوله: {لا تعلمهم نحن نعلمهم}، قال قتادة: فما بال أقوام يتكلفون على الناس؟ يقول: فلان في الجنة، وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري، لعمري لأنت بنفسك أعلم منك بأعمال الناس، ولقد تكلفت شيئا ما تكلفه نبي، قال نبي الله نوح- ﷺ- { وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[١٢]، وقال نبي الله شعيب- ﷺ- {بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين}[١٣]، وقال الله لنبيه محمد- ﷺ- { لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُم}[١٤]"[١٥].

---

[١] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٠٣٠٠):ص١٨٦٩/٦. كذا الترقيم بالمطبوع!
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٠٠):ص١٨٦٩/٦. كذا الترقيم بالمطبوع!
[٣] انظر: النكت والعيون:٣٩٦/٢.
[٤] معاني القرآن:٤٥٠/١.
[٥] تفسير الطبري:٤٤٠/١٤.
[٦] انظر: النكت والعيون:٣٩٦/٢.
[٧] صفوة التفاسير:٥٢١/١.
[٨] تفسير مقاتل بن سليمان:١٩٣/٢.
[٩] تفسير الطبري:٤٤٠/١٤-٤٤١.
[١٠] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٠١):ص١٨٧٠/٦.
[١١] انظر: النكت والعيون:٣٩٦/٢.
[١٢][الشعراء : ١١٢].
[١٣][هود : ٨٦].
[١٤][التوبة : ١٠١].
[١٥] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٠٢):ص١٨٧٠/٦.

قوله تعالى:{سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ} [التوبة : ١٠١]، أي:" سنعذبهم مرتين: بالقتل والسبي والفضيحة في الدنيا، وبعذاب القبر بعد الموت"[١].

وفي تفسير قوله تعالى:{سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ} [التوبة : ١٠١]، وجوه:

أحدها : أن أحد العذابين الفضيحة في الدنيا والجزع من المسلمين ، والآخر عذاب القبر ، قاله ابن عباس[٢]، وأبو مالك[٣].

قال ابن عباس:" قام رسول الله ﷺ خطيبًا يوم الجمعة ، فقال : اخرج يا فلان ، فإنك منافق. اخرج ، يا فلان ، فإنك منافق. فأخرج من المسجد ناسًا منهم ، فضحهم. فلقيهم عمر وهم يخرجون من المسجد ، فاختبأ منهم حياءً أنه لم يشهد الجمعة ، وظنّ أن الناس قد انصرفوا ، واختبأوا هم من عمر ، ظنّوا أنه قد علم بأمرهم. فجاء عمر فدخل المسجد ، فإذا الناس لم يصلُّوا ، فقال له رجل من المسلمين : أبشر ، يا عمر ، فقد فضح الله المنافقين اليوم ! فهذا العذاب الأول ، حين أخرجهم من المسجد. والعذاب الثاني ، عذاب القبر"[٤].

عن أبي مالك : "{سنعذبهم مرتين}، قال : كان رسول الله ﷺ يخطب فيذكر المنافقين ، فيعذبهم بلسانه ، قال : وعذاب القبر"[٥].

والثاني : أن أحدهما عذاب الدنيا والآخر عذاب القبر ، قاله الحسن[٦]، و قتادة[٧]، وابن جريج[٨].

قال قتادة:" ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ أسرَّ إلى حذيفة باثني عشر رجلا من المنافقين ، فقال : " ستة منهم تكفيكَهم الدُّبيلة ، سِراج من نار جهنم ، يأخذ في كتف أحدهم حتى تُفضي إلى صدره، وستة يموتون موتًا. ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رحمه الله ، كان إذا مات رجل يرى أنه منهم، نظر إلى حذيفة، فإن صلى عليه، وإلا تركه. وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة : أنشُدُك الله ، أمنهم أنا ؟ قال : لا والله ، ولا أومِن منها أحدًا بعدك!"[٩].

والثالث : أن أحدهما مصائبَهم في أموالهم وأولادهم ، والمرة الأخرى في جهنم. قاله ابن زيد[١٠].

قال ابن زيد:" أما عذابٌ في الدنيا ، فالأموال والأولاد ، وقرأ قول الله : {فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، [سورة التوبة : ٥٥] ، بالمصائب فيهم ، هي لهم عذاب ، وهي للمؤمنين أجر. قال : وعذاب في الآخرة ، في النار {ثم يردون إلى عذاب عظيم}، قال : النار"[١١].

والرابع :أن إحدى المرتين ، الحدود ، والأخرى : عذابُ القبر. ذكر ذلك عن ابن عباس من وجه غير مرتضًى[١٢].

والخامس:أن احدهما القتل والسِّبَاء، قاله مجاهد-في إحدى الروايات-[١٣]، وابن قتيبة[١٤].

والسادس: أن احدهما الجوع، والآخر عذاب القبر. وهو مروي عن مجاهد أيضا[١].

---

[١] التفسير الميسر:٢٠٣.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٧١٢٢):ص١٤/٤٤١-٤٤٢.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٧١٢٣):ص١٤/٤٤٢.
[٤]أخرجه الطبري(١٧١٢٢):ص١٤/٤٤١-٤٤٢.
[٥] أخرجه الطبري(١٧١٢٣):ص١٤/٤٤٢.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٧١٣١):ص١٤/٤٤٣.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٧١٣٠):ص١٤/٤٤٣.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٧١٣٣):ص١٤/٤٤٤.
[٩] أخرجه الطبري(١٧١٣٠):ص١٤/٤٤٣.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٧١٣٤):ص١٤/٤٤٤.
[١١] أخرجه الطبري(١٧١٣٤):ص١٤/٤٤٤.
[١٢] انظر: تفسير الطبري:١٤/٤٤٤.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٧١٢٤):ص١٤/٤٤٢.
[١٤] انظر: غريب القرآن:١٩٢.

والسابع: أن احدهما الجوع، والآخر القتل. وهو مروي عن مجاهد أيضا[٢].
والثامن: أن احدهما الخوف، والآخر القتل. وهو مروي عن مجاهد في رواية يحيى بن آدم[٣].
والتاسع: أن احدهما القتل، والآخر عذاب القبر. قاله الفراء[٤].
والعاشر: أن أحدهما الزكاة التي تؤخذ منهم والآخر الجهاد الذي يؤمرون به لأنهم بالنفاق يرون ذلك عذاباً . قال الحسن[٥].
والحادي عشر: أي سنعذبهم بالإنفاق وبالفعل. قاله الزجاج[٦].
والثاني عشر: أن إحدى المرتين: عذابُهم بما يدخل عليهم من الغَيْظِ في أمر الإسلام. قاله ابن إسحاق[٧].

قال ابن إسحاق:" العذاب الذي وعدَهم مرتين ، فيما بلغني ، غَمُّهم بما هم فيه من أمر الإسلام ،وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حِسْبة ، ثم عذابهم في القبر إذا صاروا إليه ، ثم العذاب العظيم الذي يردُّون إليه ، عذابُ الآخرة ، والخُلْد فيه"[٨].

والثالث عشر: أن العذاب الاول: عند الموت تضرب الملائكة الوجوه والأدبار، والثاني: في القبر منكر ونكير. وهذا قول مقاتل[٩].

قال الإمام الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال : إن الله أخبر أنه يعذِّب هؤلاء الذين مرَدوا على النفاق مرتين ، ولم يضع لنا دليلا يوصِّل به إلى علم صفة ذينك العذابين وجائز أن يكون بعض ما ذكرنا عن القائلين ما أنبئنا عنهم. وليس عندنا علم بأيِّ ذلك من أيٍّ. غير أن في قوله جل ثناؤه : (ثم يردّون إلى عذاب عظيم) ، دلالة على أن العذاب في المرَّتين كلتيهما قبل دخولهم النار. والأغلب من إحدى المرتين أنها في القبر"[١٠].

قوله تعالى:{ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} [التوبة : ١٠١]، أي:" ثم يُرَدُّون يوم القيامة إلى عذاب عظيم في نار جهنم"[١١].

قال الطبري:" يقول : ثم يردُّ هؤلاء المنافقون ، بعد تعذيب الله إياهم مرتين ، إلى عذاب عظيم ، وذلك عذاب جهنم"[١٢].

قال الزجاج:" أي: يعذبون في الآخرة"[١٣].

وفي قوله تعالى:{ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} [التوبة : ١٠١]، ثلاثة وجوه[١٤]:
أحدها : أنه عذاب النار في الآخرة .
الثاني : أنه إقامة الحدود في الدنيا .
الثالث : إنه أخذ الزكاة منهم .
الفوائد:
١- من فوائد الآية الكريمة : أن علم ما في القلوب إلى الله تعالى فلا يعلم أحد من الغيب إلا ما علمه الله عز وجل.

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٧١٢٥):ص٤٤٢/١٤.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٧١٢٧):ص٤٤٢/١٤.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٧١٢٦):ص٤٤٢/١٤.
[٤] انظر: معاني القرآن:٤٥٠/١.
[٥] انظر: تفسير الطبري:٤٤٤/١٤.
[٦] انظر: معاني القرآن:٤٦٧/٢.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٧١٣٥):ص٤٤/١٤-٤٤٥.
[٨] أخرجه الطبري(١٧١٣٥):ص٤٤/١٤-٤٤٥.
[٩] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١٩٣/٢.
[١٠] تفسير الطبري:٤٤٥/١٤.
[١١] التفسير الميسر:٢٠٣.
[١٢] تفسير الطبري:٤٤٥/١٤.
[١٣] معاني القرآن:٤٦٧/٢.
[١٤] انظر: النكت والعيون:٣٩٨/٢.

٢- ومنها: أنّ الإجماع منعقد على الاعتبار بالظّاهر دون الباطن، ومن نجم نفاقه وظهر كفره ترك حديثه، ومن ظهر إسلامه وأمانته وصدقه قبل وإن كان في الباطن خلاف ما ظهر منه، فقد علمنا لما وجب علينا وبذلنا في طلب الحق جهدنا، وقد كان رسول الله - ﷺ - يعمل بالظّاهر ويتبرأ من علم الباطن. وإلى ذلك الإشارة بقوله في هذه الآية: {لاَ تَعْلَمُهُم نَحْنُ نَعْلَمُهُم} [التوبة:١٠١][1].

القرآن

{وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)} [التوبة : ١٠٢]

التفسير:

وآخرون من أهل (المدينة) وممن حولها، اعترفوا بذنوبهم وندموا عليها وتابوا منها، خلطوا العمل الصالح -وهو التوبة والندم والاعتراف بالذنب وغير ذلك من الأعمال الصالحة- بآخر سيّئ -وهو التخلف عن رسول الله ﷺ وغيره من الأعمال السيئة- عسى الله أن يوفقهم للتوبة ويقبلها منهم. إن الله غفور لعباده، رحيم بهم.

في سبب نزول الآية ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنها نزلت في سبعة من الأنصار منهم أو لبابة بن عبد المنذر ، وأوس بن ثعلبة ، ووديعة بن حزام ، كانوا من جملة العشرة الذين تخلفوا عن رسول الله -ﷺ- في غزاة تبوك ، فربطوا أنفسهم لما ندموا على تأخرهم إلى سواري المسجد ليطلقهم رسول الله -ﷺ- إن عفا عنهم ، فلما عاد رسول الله -ﷺ- مر بهم وكانوا على طريقة فسأل عنهم فأخبر بحالهم فقال : لاَ أَعذُرُهُمْ وَلاَ أُطْلِقُهم حَتَّى يَكونَ اللَّهَ تَعالَى هُوَ الَّذِيَ يَعْذُرُهم وَيُطْلِقُهُمْ. فنزلت هذه الآية فيهم فأطلقهم ، وهذا قول ابن عباس[2].

عن ابن عباس قوله:"{وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا}، قال : كانوا عشرة رَهْطٍ تخلّفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك ، فلما حضرَ رُجوع النبي ﷺ ، أوثق سبعةٌ منهم أنفسهم بسواري المسجد ، فكان ممرّ النبي ﷺ إذا رجع في المسجد عليهم فلما رآهم قال : " من هؤلاء الموثِّقون أنفسهم بالسواري ؟ قالوا : هذا أبو لبابة وأصحابٌ له تخلفوا عنك ، يا رسول الله ، [وحلفوا لا يطلقهم أحد] ، حتى تطلقهم ، وتعذرهم. فقال النبي عليه السلام : وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم ، حتى يكون الله هو الذي يطلقهم ، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين! فلما بلغهم ذلك قالوا : ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله الذي يطلقنا ! فأنزل الله تبارك وتعالى : {وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا عسى الله أن يتوب عليهم}، و «عسى» من الله واجب. فلما نزلت أرسل إليهم النبي ﷺ فأطلقهم وعَذَرَهُم"[3].

وروي عن ابن عباس أيضا قوله : "{وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا عسى الله}، إلى قوله : {إن الله غفور رحيم}، وذلك أن رسول الله ﷺ غزا غزوة تبوك ، فتخلف أبو لبابة وخمسة معه عن النبي ﷺ. ثم إن أبا لبابة ورجلين معه تفكّروا وندموا ، وأيقنوا بالهلكة ، وقالوا : " نكون في الكِنِّ والطمأنينة مع النساء ، ورسول الله والمؤمنون معه في الجهاد! والله لنوثقنّ أنفسنا بالسّواري ، فلا نطلقها حتى يكون رسول الله ﷺ هو يطلقنا ويعذرُنا " ، فانطلق أبو لبابة وأوثق نفسه ورجلان معه بسواري المسجد ، وبقي ثلاثةُ نفرٍ لم يوثقوا أنفسهم. فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلممن غزوته ، وكان طريقه في المسجد ، فمرَّ عليهم فقال : من هؤلاء الموثقو أنفسهم بالسواري ؟ فقالوا : هذا أبو لبابة وأصحاب له ،

---

[1] انظر : الرَّوضُ البَاسِمُ في الذِّبِّ عَنْ سُنَّةِ أبي القَاسِمِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -(وعليه حواشٍ لجماعةٍ من العلماء منهم الأمير الصّنعاني):٢٩٥/١.

[2] انظر: تفسير الطبري(١٧١٣٦):ص٤٤٧/١٤-٤٤٨.

[3] أخرجه الطبري(١٧١٣٦):ص٤٤٧/١٤-٤٤٨.

تخلفوا عن رسول الله ﷺ ، فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم وترضى عنهم ، وقد اعترفوا بذنوبهم. فقال رسول الله ﷺ : والله لا أطلقهم حتى أومر بإطلاقهم ، ولا أعذرهم حتى يكون الله هو يعذرهم ، وقد تخلفوا عني ورغبوا بأنفسهم عن غزو المسلمين وجهادهم ! فأنزل الله برحمته : {وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم}، و«عسى» من الله واجب فلما نزلت الآية أطلقهم رسول الله ﷺ ، وعذرَهم ، وتجاوز عنهم"[١].

والقول الثاني : أنها نزلت في ابي لبابة وحده، وفي سبب نزولها وجهان:

أحدهما: أنها نزلت فيه وذلك حين قال لبني قريظة -حين أرادوا النزول على حكم النبي -صلى الله عليه وسلم- -إنه ذابحكم إن نزلتم على حكمه ، قاله مجاهد[٢].

عن مجاهد : "ربط أبو لبابة نفسه إلى سارية ، فقال : لا أحلُّ نفسي حتى يحلني الله ورسوله ! قال : فحلَّه النبي ﷺ : وفيه أنزلت هذه الآية : {وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحًا}، الآية"[٣].

الثاني:أنها نزلت في أبي لبابة ، بسبب تخلفه عن تبوك. وهذا قول الزهري[٤].

قال الزهري:" قال الزهري : كان أبو لبابة ممن تخلف عن النبي ﷺ في غزوة تبوك ، فربط نفسه بسارية ، فقال : والله لا أحلّ نفسي منها ، ولا أذوق طعامًا ولا شرابًا ، حتى أموت أو يتوب الله عليّ ! فمكث سبعة أيام لا يذوق طعامًا ولا شرابًا ، حتى خرّ مغشيا عليه ، قال : ثم تاب الله عليه ، ثم قيل له : قد تيب عليك يا أبا لبابة! فقال : والله لا أحلّ نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو يحلني ! قال : فجاء النبي ﷺ فحله بيده. ثم قال أبو لبابة : يا رسول الله ، إنّ من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب ، وأن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلى رسوله! قال : يجزيك يا أبا لبابة الثلث[٥].

والقول الثالث: أنها نزلت في الأعراب. وهذا القول مروي عن ابن عباس أيضا[٦].

عن ابن عباس : "{وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا}، قال : إنهم من الأعراب"[٧].

قوله تعالى:{وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا} [التوبة : ١٠٢]، أي:" وآخرون من أهل (المدينة) وممن حولها، اعترفوا بذنوبهم وندموا عليها وتابوا منها، خلطوا العمل الصالح -وهو التوبة والندم والاعتراف بالذنب وغير ذلك من الأعمال الصالحة- بآخر سيِّئ -وهو التخلف عن رسول الله ﷺ وغيره من الأعمال السيئة"[٨].

واختلف في هؤلاء المعنينن على أقوال:

أحدها: كانوا ستة، أحدهم أبو لبابة. وهذا قول ابن عباس أيضا[٩].

والثاني: أنها نزلت في عشرة أنفس كانوا تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، منهم أبو لبابة ، فربط سبعةٌ منهم أنفسهم إلى السّواري عند مَقْدم النبي ﷺ ، توبةً منهم من ذنبهم. وهذا قول ابن عباس[١٠].

---

[١] أخرجه الطبري(١٧١٣٧):ص٤٤٨/١٤-٤٤٩.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٧١٤٤)(١٧١٤٨):ص٤٥١/١٤-٤٥٢.
[٣] أخرجه الطبري(١٧١٤٧):ص٤٥١/١٤-٤٥٢.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٧١٤٩):ص٤٥٢/١٤.
[٥] أخرجه الطبري(١٧١٤٩):ص٤٥٢/١٤.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٧١٥٠):ص٤٥٢/١٤.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٧١٥٠):ص٤٥٢/١٤.
[٨] التفسير الميسر:٢٠٣.
[٩] أخرجه الطبري(١٧١٣٧):ص٤٤٨/١٤-٤٤٩.
[١٠] أخرجه الطبري(١٧١٣٦):ص٤٤٧/١٤-٤٤٨.

والثالث: أن الذين ربطوا أنفسهم بالسواري كانوا ثمانية ، منهم كرْدَم ، ومرداس ، وأبو لبابة. وهذا قول ابن زيد[١].
والرابع:أنهم كانوا سبعة: فأما الذين خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا، فهم: جدُّ بن قيس ، وأبو لبابة ، وحرام ، وأوس ، وكلهم من الأنصار. وهذا قول قتادة[٢].
والخامس: أنهم كانوا خمسة: هلال ، وأبو لبابة ، وكردم ، ومرداس ، وأبو قيس. وهذا القول مروي عن سعيد[٣].
والسادس: عني بهذه الآية أبو لبابة خاصة، وذنبه الذي اعترف به فتيب عليه فيه ، ما كان من أمره في بني قريظة. وهذا قول مجاهد[٤].
والسابع: أنه عني بهذه الآية: الأعراب. وهذا القول مروي عن ابن عباس أيضا[٥].

قال الطبري:" وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك ، قولُ من قال : نزلت هذه الآية في المعترفين بخطأ فعلهم في تخلفهم عن رسول الله ﷺ ، وتركهم الجهادَ معه ، والخروجَ لغزو الروم ، حين شخص إلى تبوك وأن الذين نزل ذلك فيهم جماعة ، أحدهم أبو لبابة.

وإنما قلنا : ذلك أولى بالصواب في ذلك ، لأن الله جل ثناؤه قال : {وآخرون اعترفوا بذنوبهم}، فأخبر عن اعتراف جماعة بذنوبهم ، ولم يكن المعترفُ بذنبه ، الموثقُ نفسه بالسارية في حصار قريظة ، غير أبي لبابة وحده. فإذ كان ذلك كذلك، وكان الله تبارك وتعالى قد وصف في قوله : {وآخرون اعترفوا بذنوبهم}، بالاعتراف بذنوبهم جماعةً ، عُلِم أن الجماعة الذين وصفهم بذلك ليست الواحد ، فقد تبين بذلك أن هذه الصفة إذا لم تكن إلا لجماعة ، وكان لا جماعةَ فعلت ذلك ، فيما نقله أهل السير والأخبار وأجمع عليه أهل التأويل ، إلا جماعة من المتخلفين عن غزوة تبوك ، صحَّ ما قلنا في ذلك. وقلنا : " كان منهم أبو لبابة " ، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك"[٦].

وفي قوله تعالى:{خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا} [التوبة : ١٠٢]، ثلاثة وجوه:
أحدها : أن الصالح : غزوهم مع النبي-ﷺ- ، والسيء ، تخلفهم عن النبي-ﷺ-، قاله السدي[٧].
الثاني : أن السيىء : الذنب، والصالح : التوبة ، حكاه الماوردي عن بعض التابعين[٨].
وروي عن الحسن، في قوله: اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا قال: تابوا"[٩].
الثالث : ما قاله الحسن : ذنباً وسوطاً لا ذهباً فروطاً ، ولا ساقطاً سقوطاً[١٠].

قال الطبري:"يعني جل ثناؤه بالعمل الصالح الذي خلطوه بالعمل السيئ : اعترافهم بذنوبهم ، وتوبتهم منها ، والآخر السيئ : هو تخلفهم عن رسول الله ﷺ ، حين خرج غازيًا ، وتركهم الجهادَ مع المسلمين"[١١].

عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا: "يا رسول الله، ثنا ما رأيت ليلة أسري بك؟ قال: رأيت أمتي ضربين، ضرب عليهم ثياب أشد بياضا من القرطاس، وضرب عليهم ثياب رمد، فقلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: أما أصحاب الثياب الرمد: فإنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا"[١٢].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٧١٣٨):٤٤٩/١٤.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٧١٤٠):ص٤٤٩/١٤-٤٥٠.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٧١٣٩):٤٤٩/١٤.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٧١٤٤):ص٤٥١/١٤.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٧١٥٠):ص٤٥٢/١٤.
[٦] تفسير الطبري:٤٥٣/١٤.
[٧] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٣٠٣)،(١٠٣٠٥):ص١٨٧٤/٦.
[٨] انظر: النكت والعيون:٣٩٨/٢.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٤):ص١٨٧٤/٦.
[١٠] انظر: النكت والعيون:٣٩٨/٢.
[١١] تفسير الطبري:٤٤٦/١٤.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠١):ص١٨٧٤/٦.

قال الأحنف بن قيس: "عرضت نفسي على القرآن فلم أجدني بآية أشبه مني بهذه الآية: وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا"[1].

قوله تعالى:{عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} [التوبة : ١٠٢]، أي:" عسى الله أن يوفقهم للتوبة ويقبلها منهم"[2].

قال ابن عباس:" و«عسى» من الله واجب"[3]. وروي عن الضحاك والحسن وأبي مالك مالك والسدي نحو ذلك[4].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة : ١٠٢]، أي:" إن الله غفور لعباده، رحيم بهم"[5].

الفوائد:

١- الرجاء لأهل التوحيد الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا بأن يغفر الله لهم ويرحمهم.

٢- أن «عسى» من الله بمعنى القطع، لأن الترجي لا يجوز عليه، وقد روى البخاري في " صحيحه "[6] من حديث سمرة في الرؤيا النبوية الطويلة أنه رأى قوما نصف خلقهم كأقبح ما رأى، ونصفها كأحسن ما رأى، فغمسوا في نهر، فخرجوا منه، وصاروا كلهم كأحسن ما رأى، فقيل له: إنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، تاب الله عليهم.

وهذا أصح من تفسيرهم بالتائبين سندا ونظرا.

٣- أن أن الاعتراف يقتضي الندم. وفي حديث عائشة - رضي الله عنها - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: « فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه»[7].

٤- ومنها: إثبات هذين الاسمين الكريمين: «الغفور»، و«الرحيم»؛ وما تضمناه من صفة، وفعل.

- فـ«الغفور»: هو الذي تكثر منه المغفرة. وبناء فعول: بناء المبالغة في الكثرة[8].

والفرق بين صيغتي:«الغفار»، و«الغفور»: أن "«الغفار»[9]، معناه: الستار لذنوب عباده في الدنيا بأن لا يهتكهم ولا يشيدهما عليهم، ويكون معنى «الغفور»: منصرفا إلى مغفرة الذنوب في الآخرة، والتجاوز عن العقوبة فيها"[10].

- و«الرحيم»:أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء [11].

---

[1] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٢):ص١٨٧٤/٦.

[2] التفسير الميسر:٢٠٣.

[3] أخرجه الطبري(١٧١٣٦):ص٤٤٧/١٤-٤٤٨.

[4] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٨٧٤/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.

[5] التفسير الميسر:٢٠٣.

[6]برقم (٧٠٤٧).

[7]هو جزء من حديث الإفك الطويل: أخرجه البخاري (١٥١٧/٤، رقم ٣٩١٠) ، ومسلم (٢١٢٩/٤، رقم ٢٧٧٠) . وأخرجه أيضا: عبد الرزاق (٤١٠/٥، رقم ٩٧٤٨) ، وإسحاق بن راهويه (٥١٦/٢، رقم ١١٠٤) ، والترمذى (٣٣٢/٥، رقم ٣١٨٠) ، والنسائى فى الكبرى (٢٩٥/٥، رقم ٨٩٣١) ، وأبو يعلى (٣٢٢/٨، رقم ٤٩٢٧) ، وابن حبان (١٣/١٠،
رقم ٤٢١٢) ، والطبرانى (٥٠/٢٣، رقم ١٣٣) ، والبيهقى (١٥٣/١٠، رقم ٢٠٣٤٤).

[8] انظر: شأن الدعاء:٦٥/١.

[9]قال الخطابي:" الغفار: هو الذي يغفر ذنوب عباده مرة بعد أخرى. كلما تكررت التوبة في الذنب من العبد تكررت المغفرة. كقوله -سبحانه-: {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} [طه:٨٢].

وأصل الغفر في اللغة: الستر والتغطية، ومنه قيل لجنة الرأس: المغفر، وبه سمي زئبر الثوب غفرا وذلك لأنه يستر سداه؛ فالغفار: الستار لذنوب عباده، والمسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته. ومعنى الستر في هذا أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهره فيعيونهم ويقال: إن المغفرة مأخوذة من الغفر: وهو فيما حكاه بعض أهل اللغة نبت يداوى به الجراح، يقال إنه إذا ذر عليها دملها وأبراها". [شأن الدعاء:٥٢/١-٥٣، وانظر: اللسان وتاج العروس، مادة"غفر"].

[10] شأن الدعاء:٦٥/١.

[11] انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٨٨/١، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.

٥- ومنها: إثبات ما ذكره أهل السنة والجماعة من أن أسماء الله سبحانه وتعالى المتعدية يستفاد منها ثبوت تلك الأحكام المأخوذة منها؛ فالأسماء المتعدية تتضمن الاسم، والصفة، والأثر - الذي هو الحكم المترتب عليه-[١].

القرآن

{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣)} [التوبة : ١٠٣]

التفسير:

خذ -أيها النبي- من أموال هؤلاء التائبين الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا صدقة تطهرهم مِن دنس ذنوبهم، وترفعهم عن منازل المنافقين إلى منازل المخلصين، وادع لهم بالمغفرة لذنوبهم واستغفر لهم منها، إن دعاءك واستغفارك رحمة وطمأنينة لهم. والله سميع لكل دعاء وقول، عليم بأحوال العباد ونياتهم، وسيجازي كلَّ عامل بعمله.

سبب النزول:

عن ابن عباس قال : جاءوا بأموالهم يعني أبا لبابة وأصحابه حين أطلقوا ، فقالوا : يا رسول الله هذه أموالنا فتصدّق بها عنا ، واستغفر لنا ! قال : ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئًا! فأنزل الله : {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها} ، يعني بالزكاة : طاعة الله والإخلاص {وصل عليهم}، يقول : استغفر لهم"[٢].

وروي عن ابن عباس أيضا:" لما أطلق رسول الله ﷺ أبا لبابة وصاحبيه ، انطلق أبو لبابة وصاحباه بأموالهم ، فأتوا بها رسول الله ﷺ ، فقالوا : خذ من أموالنا فتصدَّق بها عنا ، وصلِّ علينا يقولون : استغفر لنا وطهرنا. فقال رسول الله ﷺ : لا آخذ منها شيئًا حتى أومر. فأنزل الله : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم) ، يقول : استغفر لهم من ذنوبهم التي كانوا أصابوا. فلما نزلت هذه الآية أخذ رسول الله ﷺ جزءًا من أموالهم ، فتصدَّق بها عنهم"[٣].

عن الضحاك ، قال : "لما أطلق نبيّ الله ﷺ أبا لبابة وأصحابه ، أتوا نبيّ الله بأموالهم فقالوا : يا نبي الله ، خذ من أموالنا فتصدَّق به عنا ، وطهَّرنا ، وصلِّ علينا ! يقولون : استغفر لنا فقال نبي الله : لا آخذ من أموالكم شيئًا حتى أومر فيها فأنزل الله عز وجل : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم) ، من ذنوبهم التي أصابوا {وصل عليهم}، يقول : استغفر لهم. ففعل نبي الله عليه السلام ما أمره الله به"[٤].

عن زيد بن أسلم قال : "لما أطلق النبي ﷺ أبا لبابة والذين ربطوا أنفسهم بالسَّواري ، قالوا : يا رسول الله ، خذ من أموالنا صدقة تطهرنا بها ! فأنزل الله : {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم}، الآية"[٥].

عن سعيد بن جبير قال : "قال الذين ربطوا أنفسهم بالسواري حين عفا عنهم : يا نبيّ الله ؛ طهّر أموالنا ! فأنزل الله : {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها}، وكان الثلاثة إذا اشتكى أحدهم اشتكى الآخران مثله ، وكان عَمي منهم اثنان ، فلم يزل الآخر يدعو حتى عَمِي"[٦].

---

[١] انظر: تسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:٢٥٩/٢.
[٢] أخرجه الطبري(١٧١٥٢):ص٤٥٤/١٤-٤٥٥.
[٣] أخرجه الطبري(١٧١٥٣):ص٤٥٥/١٤.
[٤] أخرجه الطبري(١٧١٥٧):ص٤٥٦/١٤.
[٥] أخرجه الطبري(١٧١٥٤):ص٤٥٥/١٤.
[٦] أخرجه الطبري(١٧١٥٥):ص٤٥٥/١٤.

قوله تعالى:{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا} [التوبة : ١٠٣]، أي:" خذ -أيها النبي- من أموال هؤلاء التائبين الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا صدقة تطهرهم مِن دنس ذنوبهم، وترفعهم عن منازل المنافقين إلى منازل المخلصين"[١].

قال مقاتل:" { تطهرهم} من تخلقهم، {وتزكيهم}، يعنى: وتصلحهم بها"[٢].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : يا محمد ، خذ من أموال هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم فتابوا منها {صدقة تطهرهم}، من دنس ذنوبهم {وتزكيهم بها}، يقول : وتنمِّيهم وترفعهم عن خسيس منازل أهل النفاق بها ، إلى منازل أهل الإخلاص"[٣].

عن عكرمة، في قوله: "{خذ من أموالهم صدقة}، قال: من البقر والإبل والغنم، وغيره"[٤].

عن ابن عباس، قوله: "{وتزكيهم بها}، يعني: بالزكاة: طاعة الله والإخلاص"[٥].

عن قتادة قوله: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها}، قال: ذكر لنا أنهم سبعة رهط تخلفوا عن غزوة تبوك، أما أربعة: فهم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، وفيهم قيل: {خذ من أموالهم صدقة}، وكانوا وعدوا الله أن يجاهدوا ويتصدقوا"[٦].

قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم:" هؤلاء ناس من المنافقين، ممن كان تخلف عن النبي- ﷺ- في غزوة تبوك، اعترفوا بالنفاق وقالوا: يا رسول الله، قد ارتبنا ونافقنا وشككنا، ولكن توبة جديدة وصدقة نخرجها من أموالنا لله، فقال الله- عز وجل- لنبيه- ﷺ- {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها}"[٧].

عن الضحاك: "فأنزل الله عز وجل: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها}، من ذنوبهم التي أصابوا"[٨].

قوله تعالى:{وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ} [التوبة : ١٠٣]، أي:" وادع لهم بالمغفرة لذنوبهم واستغفر لهم منها، إن دعاءك واستغفارك رحمة وطمأنينة لهم"[٩].

قال الطبري:" يقول : وادع لهم بالمغفرة لذنوبهم ، واستغفر لهم منها (إن صلاتك سكن لهم) ، يقول : إن دعاءك واستغفارك طمأنينة لهم ، بأن الله قد عفا عنهم وقبل توبتهم "[١٠].

وفي قوله تعالى:{وَصَلِّ عَلَيْهِمْ} [التوبة : ١٠٣]،

وجهان:

أحدهما : استغفر لهم : قاله ابن عباس[١١]، ومقاتل[١٢].

الثاني : ادع لهم ، قاله السدي[١٣]، وأبو عبيدة[١٤]، وابن قتيبة[١٥]، والزجاج[١٦].

وفي قوله تعالى:{إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ} [التوبة : ١٠٣]، وجوه من التفسير:

---

(١) التفسير الميسر:٢٠٣.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:١٩٤/٢.
(٣) تفسير الطبري:٤٥٤/١٤.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٨):ص١٨٧٥/٦.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٣):ص١٨٧٦/٦.
(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٩):ص١٨٧٥/٦.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠١):ص١٨٧٥/٦.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٣٠٢):ص١٨٧٥/٦.
(٩) التفسير الميسر:٢٠٣.
(١٠) تفسير الطبري:٤٥٤/١٤.
(١١) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٣٠٤):ص١٨٧٦/٦.
(١٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١٩٤/٢.
(١٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٣٠٥):ص١٨٧٦/٦.
(١٤) انظر: مجاز القرآن:٢٦٨/١.
(١٥) انظر: غريب القرآن:١٦٧/١، وتأويل مشكل القرآن:٢٥٥.
(١٦) انظر: معاني القرآن:٤٦٧/٢.

أحدها : قربة لهم ، قاله ابن عباس في رواية الضحاك[١].
الثاني : رحمة لهم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس أيضاً[٢].
الثالث : وقار لهم ، قاله قتادة[٣].
الرابع : تثبت لهم، قاله ابن قتيبة .
الخامس: تثبيت وسكون ورجاء، قاله وأبو عبيدة[٤]، وأنشد قول الأعشى[٥]:
تقول بنتي وقد قرّبت مرتحلا   يا ربّ جنّب أبى الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صليت فاغتمضى   نوما فإن لجنب المرء مضطجعا
وقال الزجاج:" أي: يسكنون بها"[٦].
والسادس: أمن لهم، وهو مروي عن قتادة أيضا[٧]، ومنه قول الشاعر[٨]:
يَا جَارَةَ الحَيِّ كُنتِ لي سَكَناً   إذْ لَيْسَ بعضُ الجِيرَانِ بِالسَّكَنِ
والسابع:أي: سكن لقلوبهم وطمأنينة لهم. وهذا قول مقاتل[٩].
وفي الصلاة عليهم والدعاء لهم عند أخذ الصدقة منهم ستة أوجه[١٠]:
أحدها : يجب على الآخذ الدعاء للمعطي اعتباراً بظاهر الأمر .
الثاني : لا يجب ولكن يستحب لأن جزاءها على الله تعالى لا على الآخذ .
والثالث : إن كانت تطوعاً وجب على الآخذ الدعاء ، وإن كانت فرضاً استحب ولم يجب .
والرابع : إن كان آخذها الوالي استحب له الدعاء ولم يجب عليه ، وإن كان آخذها الفقير وجب عليه الدعاء له ، لأن الحق في دفعها إلى الوالي معيّن ، وإلى الفقير غير معيّن .
والخامس : إن كان آخذها الوالي وجب ، وإن كان الفقير استحب ولم يجب . لأنه دفعها إلى الوالي إظهار طاعة فقوبل عليها بالشكر وليس كذلك الفقير .
والسادس : إن سأل الدافع الدعاء وجب ، وإن لم يسأل استحب ولم يجب .
وروى عبد الله بن أبي أوفى: "كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: اللهم صل على آل فلان، فأتاه أبي بصدقته فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى"[١١] وفي رواية: "إذا أتى الرجل النبي ﷺ بصدقته قال: اللهم صل عليه"[١٢].
قوله تعالى:{وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة : ١٠٣]، أي:" والله سميع لكل دعاء وقول، عليم بأحوال العباد ونياتهم، وسيجازي كلَّ عامل بعمله"[١٣].
قال مقاتل:" {سميع}، لقولهم: «خذ أموالنا فتصدق بها»، {عليم} بما قالوا"[١].

---

[١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٣٠٦):ص١٨٧٦/٦.
[٢] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٣٠٧):ص١٨٧٦/٦.
[٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٣٠٨):ص١٨٧٦/٦.
[٤] انظر: مجاز القرآن:٢٦٨/١.
[٥]ديوانه ص ٧٣، والأول هو التاسع والثاني هو الثاني عشر من رقم ١٣، وهما معا فى جمهرة الأشعار، والاقتضاب ٦، والخزانة ١/ ٣٥٩.
[٦] معاني القرآن:٤٦٧/٢.
[٧] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٣٠٩):ص١٨٧٦/٦.
[٨] لم اقف عليه، والبيت من شواهد الماوردي في النكت والعيون:٣٩٩/٢، وأبو حيان في البحر:٥٠٠/٥، ولسمين الحلبي في الدر المصون:١١٧/٦، و١٩٥/١٠.
[٩] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١٩٤/٢.
[١٠] انظر: النكت والعيون:٣٩٩/٢.
[١١]متفق عليه، أخرجه البخاري في الصحيح ٣/ ٣٦١ كتاب الزكاة (٢٤)، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة. . . (٦٤)، الحديث (١٤٩٧)، وأخرجه مسلم في الصحيح ٢/ ٧٥٦ - ٧٥٧ كتاب الزكاة (١٢)، باب الدعاء لمن أتى بصدقة (٥٤)، الحديث (١٧٦/ ١٠٧٨).
[١٢]متفق عليه، أخرجه البخاري في الصحيح ٧/ ٤٤٨ كتاب المغازي (٦٤)، باب غزوة الحديبية. . . (٣٥)، الحديث (٤١٦٦)، وأخرجه مسلم في الصحيح ٢/ ٧٥٧ كتاب الزكاة (١٢)، باب الدعاء لمن أتى بصدقة (٥٤)، الحديث (١٧٦/ ١٠٧٨).
[١٣] التفسير الميسر:٢٠٣.

قال الطبري:" يقول : والله سميع لدعائك إذا دعوت لهم ، ولغير ذلك من كلام خلقه {عليم}، بما تطلب بهم بدعائك ربّك لهم ، وبغير ذلك من أمور عباده "[٢].

الفوائد:

١- الصدقة تكفر الذنوب ونطهر الأرواح من رذيلة الشح والبخل.

٢- أن الصلاة من الخلق فهي الدعاء، وأصل الصلاة التي جاء بها الشرع هي الصلاة المعروفة التي تفتح بالتكبير، وتختتم بالتسليم، وتشتمل على القيام والقراءة والركوع وغير ذلك، وأصلها مأخوذ من الدعاء، قال الله جل وعلا آمراً نبيه ﷺ: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ} [التوبة:١٠٣] يعني: ادع لهم فهذا بالنسبة للخلق، ومعلوم أن الفعل يختلف بإضافته وصدوره من الخلق عما إذا صدر من الله جل وعلا، فالله جل وعلا له أفعال تخصه كما أن له صفات يختص بها، وعباده كذلك، وليس بين الله جل وعلا وبين خلقه مشابهة أو مماثلة، ولكن يجب أن يثبت لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز التحريف أو التأويل الذي يخرج الكلام عن مراد المتكلم.

٣- اثبات اسمين من أسمائه تعالى، وهما:«السميع»، «العليم»:

- فـ«السميع»: هو "الذي يسمع جميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، فالسر عنده علانية البعيد عنده قريب"[٣].
- ومن أسمائه تعالى: «العليم»:هو المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[٤].

القرآن

{أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤)} [التوبة : ١٠٤]

التفسير:

ألم يعلم هؤلاء المتخلفون عن الجهاد وغيرهم أن الله وحده هو الذي يقبل توبة عباده، ويأخذ الصدقات ويثيب عليها، وأن الله هو التواب لعباده إذا رجعوا إلى طاعته، الرحيم بهم إذا أنابوا إلى رضاه؟

سبب النزول:

قال ابن زيد: قال الآخرون - يعني الذين لم يتوبوا من المتخلفين-: هؤلاء، يعني الذين تابوا، كانوا بالأمس معنا لا يكلَّمون ولا يجالَسون، فما لهم؟ فقال الله: {إن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم}"[٥].

قال القرطبي:" قيل: قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين: هؤلاء كانوا معنا بالأمس، لا يكلمون ولا يجالسون، فما لهم الآن؟ وما هذه الخاصة التي خصوا بها دوننا، فنزلت:" ألم يعلموا" فالضمير في" يعلموا" عائد إلى الذين لم يتوبوا من المتخلفين. قال معناه ابن زيد"[٦].

قوله تعالى:{أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ} [التوبة : ١٠٤]، أي:" ألم يعلم هؤلاء المتخلفون عن الجهاد وغيرهم أن الله وحده هو الذي يقبل توبة عباده، ويأخذ الصدقات ويثيب عليها"[٧].

---

[١] تفسير مقاتل بن سليمان:١٩٤/٢.
[٢] تفسير الطبري:٤٥٤/١٤.
[٣]توضيح الكافية الشافية:١١٨، وتفسير أسماء الله الحسنى للسعدي:٢٠٩.
[٤] انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.
[٥] أخرجه الطبري(١٧١٦٢):ص٤٥٩/١٤.
[٦] تفسير القرطبي:٢٥٠/٨.
[٧] التفسير الميسر:٢٠٣.

قال الطبري:" وهذا خبرٌ من الله تعالى ذكره، أخبر به المؤمنين به: أن قبول توبة من تاب من المنافقين، وأخذ الصدقة من أموالهم إذا أعطوها، ليسا إلى نبيّ الله ﷺ وأن نبيَّ الله حين أبى أن يطلق من ربط نفسه بالسواري من المتخلفين عن الغزو معه، وحين ترك قبول صدقتهم بعد أن أطلق الله عنهم حين أذن له في ذلك، إنما فعل ذلك من أجل أن ذلك لم يكن إليه صلى الله عليه وسلم، وأن ذلك إلى الله تعالى ذكره دون محمد، وأن محمدًا إنما يفعل ما يفعل من تركٍ وإطلاقٍ وأخذِ صدقةٍ وغير ذلك من أفعاله بأمر الله. فقال جل ثناؤه: ألم يعلم هؤلاء المتخلفون عن الجهاد مع المؤمنين، الموثقو أنفسهم بالسواري، القائلون: "لا نُطلق أنفسنا حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقنا"، السَّائلو رسولِ الله ﷺ أخذَ صدقة أموالهم، أنَّ ذلك ليس إلى محمد، وأن ذلك إلى الله، وأن الله هو الذي يقبل توبة من تاب من عباده أو يردُّها، ويأخذ صدقة من تصدَّق منهم أو يردُّها عليه دون محمد، فيوجِّهوا توبتهم وصدقتهم إلى الله، ويقصدوا بذلك قصدَ وجهه دون محمد وغيره، ويخلصوا التوبة له، ويريدوه بصدقتهم"[1].

قال الزمخشري:" قرئ «ألم يعلموا» بالياء والتاء، وفيه وجهان:

أحدهما: أن يراد المتوب عليهم، يعنى: ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم أن الله هو يقبل التوبة إذا صحت، ويقبل الصدقات إذا صدرت عن خلوص النية، وهو للتخصيص والتأكيد، وأن الله تعالى من شأنه قبول توبة التائبين.

وقيل: معنى التخصيص في هو: أن ذلك ليس إلى رسول الله ﷺ، إنما الله سبحانه هو الذي يقبل التوبة ويردها، فاقصدوه بها ووجهوها إليه"[2].

قال قتادة:" ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: "والذي نفس محمد بيده، لا يتصدق رجلٌ بصدقة فتقع في يد السائل، حتى تقع في يد الله! "[3].

قال عبدالله بن مسعود:" ما من عبدٍ تصدق بصدقة إلا وقعت في يد الله، فيكون هو الذي يضعُها في يد السائل. وتلا هذه الآية: {هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات}"[4].

عن أبي هريرة قال: "قال رسول الله ﷺ: إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه، فيربِّيها لأحدكم كما يربِّي أحدكم مُهْرَه، حتى إن اللقمة لتصيرُ مثل أُحُدٍ. وتصديق ذلك في كتاب الله: {وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات}، و{يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ}، [سورة البقرة: ٢٧٦]"[5].

قوله تعالى:{وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة : ١٠٤]، أي:" وأن الله هو التواب لعباده إذا رجعوا إلى طاعته، الرحيم بهم إذا أنابوا إلى رضاه"[6].

قال الطبري:أي:" ويعلموا أن الله هو التواب الرحيم؟ يقول: المراجع لعبيده إلى العفو عنه إذا رجعوا إلى طاعته، الرحيم بهم إذا هم أنابوا إلى رضاه من عقابه"[7].

عن ابن عباس: "{وأن الله هو التواب الرحيم}، يعني: إن استقاموا"[8].

الفوائد:

١- يستحب لمن يأخذ صدقة امرئ مسلم أن يدعو له بمثل: آجرك الله على ما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت.

٢- ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله. وهما {التواب} ، و{الرحيم} ؛ وإثبات ما تضمناه من صفة. وهي: التوبة، والرحمة.

---

[1] تفسير الطبري:٤٥٩/١٤.
[2] الكشاف:٣٠٨/٢.
[3] أخرجه الطبري(١٧١٧١):ص٣٦٢/١٤.
[4] أخرجه الطبري(١٧١٦٣):ص٤٥٩/١٤.
[5] أخرجه الطبري(١٧١٦٨):ص٤٦١/١٤.
[6] التفسير الميسر:٢٠٣.
[7] تفسير الطبري:٤٥٩/١٤.
[8] أخرجه الطبري(١٧١٧٢):ص٤٦٢/١٤.

فـ«التواب»:" هو الذي يتوب على عبده، ويقبل توبته كلما تكررت التوبة تكرر القبول"[١].

قال الخطابي:" ومعنى التوبة: عود العبد إلى الطاعة بعد المعصية"[٢].

قال السعدي:" التواب الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين فكل من تاب إلى الله توبة نصوحا تاب الله عليه، وتوبته على عبده نوعان:
أحدهما: أنه يوقع في قلب عبده التوبة إليه، والإنابة إليه، فيقوم بالتوبة وشروطها من الإقلاع عن المعاصي، والندم على فعلها، والعزم على أن لا يعود إليها، وإستبدالها بعمل صالح.
والثاني: توبته على عبده بقبولها وإجابتها، ومحو الذنوب بها فإن التوبة النصوح تجب ما قبلها"[٣].

- ومن اسماءه تعالى: «الرحيم»:أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء [٤].

٦- ومنها: إثبات ما ذكره أهل السنة والجماعة من أن أسماء الله سبحانه وتعالى المتعدية يستفاد منها ثبوت تلك الأحكام المأخوذة منها؛ فالأسماء المتعدية تتضمن الاسم، والصفة، والأثر - الذي هو الحكم المترتب عليه- [٥].

فالجمع بين الاسمين من اسمائه، وهما {التواب} ، و {الرحيم} ؛ فأنه قد يكون للاسم من أسماء الله معنًى إذا انفرد؛ ومعنًى إذا انضم إلى غيره، وإثبات ما تضمناه من صفة باقترانهما. لا تكون عند انفراد أحدهما؛ لأنه لما اقترنا حصل من اجتماعهما صفة ثالثة. وهي: الجمع بين التوبة التي بها زوال المكروه، والرحمة التي بها حصول المطلوب، فجمع الله بينهما؛ فهو يتوب؛ وإذا تاب سبحانه وتعالى رحم التائب، ويسَّره لليسرى، وسهل له أمور الخير؛ فحصل على الخير العظيم[٦].

قال ابن عثيمن:"{التواب} على من أذنب؛ {الرحيم} على من أخلص، وعمل؛ فالرحمة تجلب الخير؛ والتوبة تدفع الشر"[٧].

القرآن

{وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)} [التوبة : ١٠٥]

التفسير:

وقل -أيها النبي- لهؤلاء المتخلِّفين عن الجهاد: اعملوا لله بما يرضيه من طاعته، وأداء فرائضه، واجتناب المعاصي، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، وسيتبين أمركم، وسترجعون يوم القيامة إلى مَن يعلم سركم وجهركم، فيخبركم بما كنتم تعملون.

قوله تعالى:{وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} [التوبة : ١٠٥]، أي:" وقل -أيها النبي- لهؤلاء المتخلِّفين عن الجهاد: اعملوا لله بما يرضيه من طاعته، وأداء فرائضه، واجتناب المعاصي، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، وسيتبين أمركم"[٨].

---

[١] شأن الدعاء:٩٠.
[٢] شأن الدعاء:٩٠.
[٣] تفسير أسماء الله الحسنى:١٧٦.
[٤] انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٨٨/١، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.
[٥] انظر: تسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:٢٥٩/٢.
[٦] انظر: تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:٢٠٩/٢.
[٧] انظر: تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٠٨/٢.
[٨] التفسير الميسر:٢٠٣.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {وقل}، يا محمد، لهؤلاء الذين اعترفوا لك بذنوبهم من المتخلفين عن الجهاد معك {اعملوا} لله بما يرضيه، من طاعته، وأداء فرائضه فسيرى الله إن عملتم عملكم، ويراه رسوله والمؤمنون، في الدنيا"[1].

قال الزمخشري:أي:" وقل لهؤلاء التائبين {اعملوا} فإن عملكم لا يخفى- خيرا كان أو شرا- على الله وعباده، كما رأيتم وتبين لكم. والثاني: أن يراد غير التائبين ترغيبا لهم في التوبة، فقد روى أنهم لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا: هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم؟ فنزلت... وقوله {فسيرى الله}، وعيد لهم وتحذير من عاقبة الإصرار والذهول عن التوبة"[2].

قال الواحدي:" يريد: إن الله تعالى يطلع المؤمنين على ما في قلوب إخوانهم من الخير والشر؛ إن كان خيرًا أوقع في قلوبهم لهم المحبة، وإن كان شرًا أوقع في قلوبهم لهم البغضة"[3].

قال القرطبي:" قوله تعالى: {وقل اعملوا} خطاب للجميع. {فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون}، أي: بإطلاعه إياهم على أعمالكم. وفي الخبر: «لو أن رجلا عمل في صخرة لا باب لها ولا كوة لخرج عمله إلى الناس كائنا ما كان»[4]"[5].

قال الصابوني:" {اعملوا} صيغة أمر متضمنة للوعيد، أي:اعملوا ما شئتم من الأعمال فأعمالكم لا تخفى على الله، وستعرض يوم الحساب على الرسول والمؤمنين"[6].

قوله تعالى:{وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [التوبة : ١٠٥]، أي:" وسترجعون يوم القيامة إلى مَن يعلم سركم وجهركم"[7].

قال الطبري:" {وستردون} يوم القيامة، إلى من يعلم سرائركم وعلانيتكم، فلا يخفى عليه شيء من باطن أموركم وظواهرها"[8].

قوله تعالى:{فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة : ١٠٥]، أي:" فيخبركم بما كنتم تعملون"[9].

قال الطبري:" يقول: فيخبركم بما كنتم تعملون، وما منه خالصًا، وما منه رياءً، وما منه طاعةً، وما منه لله معصية، فيجازيكم على ذلك كله جزاءكم، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته"[10].

قال أهل العلم:"وفي هذا تهديد ووعيد لمن استمر على باطله وطغيانه"[11].

الفوائد:

١- ينبغي للتائب من الذنب الكبير أن يكثر بعده من الصالحات كالصدقات والصلوات ونحوها.

---

(١) تفسير الطبري:٤٦٢/١٤-٤٦٣.
(٢) الكشاف:٣٠٨/٢.
(٣) التفسير البسيط:٤٠/١١.
(٤)رواه أحمد في "المسند" ٣/ ٢٨، والحاكم في "المستدرك" ٤/ ٣١٤ وقال صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، ووراه أيضًا ابن حبان في "صحيحه" (الإحسان) رقم (٥٦٧٨) ١٢/ ٤٩١، وقد ضعف الحديث الشيخ الألباني، انظر: "ضعيف الجامع الصغير"، رقم (٤٨٠٢) ٥/ ٤٠، وكذلك الشيخ شعيب الأرنؤوط في تعليقه على "صحيح ابن حبان".
(٥) تفسير القرطبي:٢٥٢/٨.
(٦) صفوة التفاسير:٥٢١/١.
(٧) التفسير الميسر:٢٠٣.
(٨) تفسير الطبري:٤٦٢/١٤.
(٩) التفسير الميسر:٢٠٣.
(١٠) تفسير الطبري:٤٦٢/١٤.
(١١) التفسير الميسر:٢٠٣.

٢- أن السبب والمسبب بقدر الله تعالى، قال الله تعالى: {وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله}.
٣- ومن الفوائد: إثبات صفة الرؤية لله سبحانه وتعالى.

القرآن

{وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)} [التوبة : ١٠٦]

التفسير:

ومن هؤلاء المتخلفين عنكم -أيها المؤمنون- في غزوة (تبوك) آخرون مؤخرون؛ ليقضي الله فيهم ما هو قاض. وهؤلاء هم الذين ندموا على ما فعلوا، وهم: مُرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أُميَّة، إما يعذبهم الله، وإما يعفو عنهم. والله عليم بمن يستحق العقوبة أو العفو، حكيم في كل أقواله وأفعاله.

سبب النزول:

عن ابن عباس قال: "وكان ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم بالسواري أرجوا سنة لا يدرون أيعذبون أو يتاب عليهم؟ فأنزل الله تعالى يعني قوله: {وآخرون مرجون لأمر الله}"[١].

قوله تعالى:{وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ} [التوبة : ١٠٦]، أي:" ومن هؤلاء المتخلفين عنكم -أيها المؤمنون- في غزوة (تبوك) آخرون مؤخرون؛ ليقضي الله فيهم ما هو قاض"[٢].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : ومن هؤلاء المتخلفين عنكم حين شخصتم لعدوّكم ، أيها المؤمنون ، آخرون، : مُرْجئون لأمر الله وَقضائه"[٣].

قال أبو عبيدة:" {مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ}، أي: مؤخرون، يقال: أرجأتك، أي أخرتك"[٤].

قال ابن قتيبة:" أي: مؤخرون على أمره"[٥].

قال مقاتل:" يعني موقوفون للتوبة عن أمر الله مرارة بن ربيعة من بني زيد، وهلال بن أمية من الأنصار من أهل قباء من بني واقب، وكعب بن مالك الشاعر من بني سلمة كلهم من الأنصار من أهل قباء، لم يفعلوا كفعل أبي لبابة لم يذكروا بالتوبة ولا بالعقوبة"[٦].

قال الفراء:" هم ثلاثة نفر مسمون، تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، فلما رجع قال: {ما عذركم}؟ قالوا: لا عذر لنا إلا الخطيئة، فكانوا موقوفين حتى نزلت توبتهم في قوله: {لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار}[التوبة:١١٧]، وقوله: {وعلى الثلاثة الذين خلفوا} [:التوبة:١١٨] وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة"[٧].

عن مجاهد : "{وآخرون مرجون لأمر الله}، قال : هلال بن أمية ، ومرارة بن ربعيّ ، وكعب بن مالك ، من الأوس والخزرج"[٨].

عن قتادة قوله : "{وآخرون مرجون لأمر الله}، قال : كنا نُحدَّث أنهم الثلاثة الذين خُلّفوا : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن ربيعة ، رهط من الأنصار"[٩].

عن ابن إسحاق : "{وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم}، وهم الثلاثة الذين خلفوا ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرهم ، حتى أتتهم توبتهم من الله"[١].

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٥٦):ص١٨٧٨/٦.
[٢] التفسير الميسر:٢٠٣.
[٣] تفسير الطبري:٤٦٤/١٤.
[٤] مجاز القرآن:٢٦٩/١.
[٥] غريب القرآن:١٩٢.
[٦] تفسير مقاتل بن سليمان:٢٩٥/٢.
[٧] معاني القرآن:٤٥١/١.
[٨] أخرجه الطبري(١٧١٧٨):ص٤٦٥/١٤.
[٩] أخرجه الطبري(١٧١٨٣):ص٤٦٧/١٤.

عن الضحاك :قوله "{وآخرون مرجون لأمر الله}، هم الثلاثة الذين خلفوا عن التوبة يريد : غير أبي لبابة وأصحابه ولم ينزل الله عذرهم ، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت. وكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين : فرقة تقول : " هلكوا " ، حين لم ينزل الله فيهم ما أنزل في أبي لبابة وأصحابه، وتقول فرقة أخرى : " عسى الله أن يعفو عنهم ! " ، وكانوا مرجئين لأمر الله. ثم أنزل الله رحمته ومغفرته فقال : {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ}الآية ، وأنزل : {وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا}، الآية"[٢].

عن ابن عباس :"لما نزلت هذه الآية يعني قوله : {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها} أخذ رسول الله ﷺ من أموالهم يعني من أموال أبي لبابة وصاحبيه فتصدَّق بها عنهم ، وبقي الثلاثة الذين خالفوا أبا لبابة ، ولم يوثقوا ، ولم يذكروا بشيء ، ولم ينزل عذرهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحُبت. وهم الذين قال الله : {وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم}. فجعل الناس يقولون : هلكوا! إذ لم ينزل لهم عذر ، وجعل آخرون يقولون : عسى الله أن يغفرَ لهم ! فصاروا مرجئين لأمر الله ، حتى نزلت : {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ }، الذين خرجوا معه إلى الشام { مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ }، ثم قال : {وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا}، يعني المرجئين لأمر الله ، نزلت عليهم التوبة ، فعُمُّوا بها ، فقال : {حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ }، إلى قوله : {إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }"[٣].

قوله تعالى:{إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ} [التوبة : ١٠٦]، أي:" إما يعذبهم الله، وإما يعفو عنهم"[٤].

قال الطبري:" يعني : إما أن يحجزهم الله عن التوبة بخذلانه ، فيعذبهم بذنوبهم التي ماتوا عليها في الآخرة، وإما يوفقهم للتوبة فيتوبوا من ذنوبهم ، فيغفر لهم"[٥].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة : ١٠٦]، أي:" والله عليم بمن يستحق العقوبة أو العفو، حكيم في كل أقواله وأفعاله"[٦].

قال الطبري:" يقول : والله ذو علم بأمرهم وما هم صائرون إليه من التوبة والمقام على الذنب {حكيم}، في تدبيرهم وتدبير من سواهم من خلقه ، لا يدخل حكمه خَلَلٌ"[٧].

الفوائد:

١- فضيلة الخوف والرجاء فالخوف يحمل على ترك المعاصي والرجاء يعمل على الإكثار من الصالحات.

٢- وفي الآية حجة على ثبوت حكمة الله تعالى فيما تعرف العقول حسنه من هدايتهم وما لا تعرفه من تركها مع القدرة عليها فانها لا تعرف حسن ذلك إلا بتعريف الشرع.

٣- اثبات اسمين من أسمائه تعالى، وهما:«العليم»، «الحكيم»:

- فـ«العليم»:هو المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[٨].
- و«الحكيم»:"هو المحكم لخلق الأشياء، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها[٩].

---

(١) أخرجه الطبري(١٧١٨٥):ص١٤/٤٦٧.
(٢) أخرجه الطبري(١٧١٧٨):ص١٤/٤٦٥-٤٦٦.
(٣) أخرجه الطبري(١٧١٨٢):ص١٤/٤٦٦.
(٤) التفسير الميسر:٢٠٣.
(٥) تفسير الطبري:١٤/٤٦٧.
(٦) التفسير الميسر:٢٠٣.
(٧) تفسير الطبري:١٤/٤٦٧.
(٨) انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١/١٨٨.
(٩)انظر:شأن الدعاء:١/٧٢-٧٣.

القرآن
{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧)} [التوبة : ١٠٧]

التفسير:
والمنافقون الذين بنوا مسجدًا؛ مضارة للمؤمنين وكفرًا بالله وتفريقًا بين المؤمنين، ليصلي فيه بعضهم ويترك مسجد (قباء) الذي يصلي فيه المسلمون، فيختلف المسلمون ويتفرقوا بسبب ذلك، وانتظارا لمن حارب الله ورسوله من قبل -وهو أبو عامر الراهب الفاسق- ليكون مكانًا للكيد للمسلمين، وليحلفنَّ هؤلاء المنافقون أنهم ما أرادوا ببنائه إلا الخير والرفق بالمسلمين والتوسعة على الضعفاء العاجزين عن السير إلى مسجد (قباء) ، والله يشهد إنهم لكاذبون فيما يحلفون عليه. وقد هُدِم المسجد وأُحرِق.

سبب النزول:
عن ابن عباس قوله : "{والذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين}، قال : لما بنى رسول الله ﷺ مسجد قُباء ، خرج رجالٌ من الأنصار ، منهم : بحزج ، جدُّ عبد الله بن حنيف ، ووديعة بن حزام ، ومجمع بن جارية الأنصاري ، فبَنوا مسجد النفاق ، فقال رسول الله ﷺ لبحزج ويلك! ما أردت إلى ما أرى! فقال : يا رسول الله ، والله ما أردت إلا الحسنى ! وهو كاذب ، فصدَّقه رسول الله وأراد أن يعذِره ، فأنزل الله : {والذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله}، يعني رجلا منهم يقال له " أبو عامر " كان محاربًا لرسول الله ﷺ ، وكان قد انطلق إلى هرقل ، فكانوا يرصدون [إذا قدم] أبو عامر أن يصلي فيه ، وكان قد خرج من المدينة محاربًا لله ولرسوله {وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون}"[١].

عن ابن إسحاق ، عن الزهريّ ، ويزيد بن رومان ، وعبد الله بن أبي بكر ، وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا : أقبل رسول الله ﷺ يعني : من تبوك حتى نزل بذي أوان بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار. وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهّز إلى تبوك ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا قد بنينا مسجدًا لذي العلّة والحاجة والليلة المطِيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ! فقال : إني على جناح سفر وحال شُغْلٍ أو كما قال رسول الله ﷺ ولو قَدْ قَدمنا أتيناكم إن شاء الله ، فصلَّينا لكم فيه. فلما نزل بذي أوان ، أتاه خبرُ المسجد ، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُّخْشُم ، أخا بني سالم بن عوف ، ومعن بن عدي أو أخاه : عاصم بن عدي أخا بني العجلان فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه ! فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : أنْظِرني حتى أخرج إليك بنارٍ من أهلي ! فدخل [إلى] أهله ، فأخذ سَعفًا من النخل ، فأشعل فيه نارًا ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله ، فحرّقاه وهدماه ، وتفرقوا عنه. ونزل فيهم من القرآن ما نزل : {والذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا}، إلى آخر القصة. وكان الذين بنوه اثني عشر رجلا خِذَام بن خالد ، من بني عبيد بن زيد ، أحد بني عمرو بن عوف ، ومن داره أخرج مسجد الشقاق وثعلبة بن حاطب ، من بني عبيد ، وهو إلى بني أمية بن زيد ومعتب بن قشير ، من بني ضبيعة بن زيد وأبو حبيبة بن الأزعر ، من بني ضبيعة بن زيد وعباد بن حنيف ، أخو سهل بن حنيف ، من بني عمرو بن عوف وجارية بن عامر ، وابناه : مجمع بن جارية ، وزيد بن جارية ، ونبتل بن الحارث ، وهم من بني ضبيعة وبَحْزَج ، وهو إلى بني ضبيعة وبجاد بن عثمان ، وهو من بني ضبيعة ووديعة بن ثابت ، وهو إلى بني أمية ، رهط أبي لبابة بن عبد المنذر"[٢].

---

[١] أخرجه الطبري(١٧١٨٨):ص١٤/٤٧٠-٤٧١.
[٢] أخرجه الطبري(١٧١٨٦):ص١٤/٤٦٨-٤٦٩.

قال ابن زيد في قوله : "{والذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل} ، قال : مسجد قباء ، كانوا يصلون فيه كلهم. وكان رجل من رؤساء المنافقين يقال له : " أبو عامر " ، أبو : " حنظلة غسيل الملائكة " ، و " صيفي " ، [واحق]. وكان هؤلاء الثلاثة من خيار المسلمين ، فخرج أبو عامر هاربًا هو وابن عبد ياليل ، من ثقيف ، وعلقمة بن علاثة ، من قيس ، من رسول الله ﷺ حتى لحقوا بصاحب الروم. فأما علقمة وابن عبد ياليل ، فرجعا فبايعا النبي ﷺ وأسلما. وأما أبو عامر ، فتنصر وأقام. قال : وبنى ناسٌ من المنافقين مسجد الضرار لأبي عامر ، قالوا : " حتى يأتي أبو عامر يصلي فيه " ، وتفريقًا بين المؤمنين ، يفرقون به جماعتهم ، لأنهم كانوا يصلون جميعًا في مسجد قباء. وجاءوا يخدعون النبي ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، ربما جاء السيلُ ، فيقطع بيننا وبين الوادي ، ويحول بيننا وبين القوم ، ونصلي في مسجدنا ، فإذا ذهب السيل صلينا معهم ! قال : وبنوه على النفاق. قال : وانهار مسجدهم على عهد رسول الله ﷺ. قال : وألقى الناس عليه التِّبن والقُمامة ، فأنزل الله : {والذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين} ، لئلا يصلي في مسجد قباء جميعُ المؤمنين {وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل}، أبي عامر {وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون}"[١].

وعن مجاهد : "{والذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين} ، قال : نزلت في المنافقين، وقوله :{ وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل}، قال : هو أبو عامر الراهب"[٢].

عن سعيد بن جبير : "{والذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا}، قال : هم بنو غنم بن عوف"[٣].

وقال مقاتل:" نزلت في اثني عشر رجلا من المنافقين وهم من الأنصار كلهم من بني عمرو بن عوف منهم: حرح بن خشف، وحارثة بن عمرو ، وابنه زيد بن حارثة، ونفيل بن الحرث ، ووديعة بن ثابت، وحزام بن خالد، ومجمع بن حارثة، قالوا: نبني مسجدا نتحدث فيه وتخلوا فيه فإذا رجع أبو عامر الراهب"[٤].

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ} [التوبة : ١٠٧]، أي:" والمنافقون الذين بنوا مسجدًا؛ مضارة للمؤمنين وكفرًا بالله وتفريقًا بين المؤمنين ليصلي فيه بعضهم ويترك مسجد (قباء) الذي يصلي فيه المسلمون يختلف المسلمون ويتفرقوا بسبب ذلك"[٥].

قال الطبري:يعني:" والذين ابتنوا مسجدًا ضرارًا لمسجد رسول الله ﷺ ، وكفرًا بالله لمحادّتهم بذلك رسولَ الله ﷺ ، ويفرّقوا به المؤمنين ، ليصلي فيه بعضهم دون مسجد رسول الله ﷺ ، وبعضهم في مسجد رسول الله ﷺ ، فيختلفوا بسبب ذلك ويفترقوا"[٦].

عن قتادة قوله : "{والذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا}، الآية ، عمد ناسٌ من أهل النفاق ، فابتنوا مسجدًا بقباء ، ليضاهوا به مسجد رسول الله ﷺ ، ثم بعثوا إلى رسول الله ليصلِّي فيه. ذكر لنا أنه دعا بقميصه ليأتيهم ، حتى أطلعه الله على ذلك"[٧].

عن ليث: "أن شقيقًا لم يدرك الصلاة في مسجد بني عامر، فقيل له : مسجد بني فلان لم يصلُّوا بعدُ ! فقال : لا أحب أن أصلي فيه ، فإنه بُني على ضرار ، وكل مسجد بُنِيَ ضرارًا أو رياءً أو سمعة ، فإن أصله ينتهي إلى المسجد الذي بني على ضرار"[١].

---

[١] أخرجه الطبري(١٧١٩٩):ص١٤/٤٧٣-٤٧٤.
[٢] أخرجه الطبري(١٧١٩٢):ص١٤/٤٧٢.
[٣] أخرجه الطبري(١٧١٩٤):ص١٤/٤٧٢.
[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٢/١٩٥.
[٥] التفسير الميسر:٢٠٤.
[٦] تفسير الطبري:١٤/٤٦٩.
[٧] أخرجه الطبري(١٧١٩٧):ص١٤/٤٧٣.

قوله تعالى:{وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ} [التوبة : ١٠٧]، أي:" وانتظارا لمن حارب الله ورسوله من قبل -وهو أبو عامر الراهب الفاسق- ليكون مكانًا للكيد للمسلمين"(٢).

قال الطبري:" يقول : وإعدادًا له ، لأبي عامر الكافر الذي خالف الله ورسوله ، وكفر بهما ، وقاتل رسول الله {من قبل}، يعني من قبل بنائهم ذلك المسجد. وذلك أن أبا عامر هو الذي كان حزَّب الأحزاب يعني : حزّب الأحزاب لقتال رسول الله ﷺ فلما خذله الله ، لحق بالروم يطلب النَّصْر من ملكهم على نبي الله ، وكتب إلى أهل مسجد الضِّرار يأمرهم ببناء المسجد الذي كانوا بنوه ، فيما ذكر عنه ، ليصلي فيه ، فيما يزعم ، إذا رجع إليهم. ففعلوا ذلك"(٣).

قال ابن عباس : "{وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل}، قال : أبو عامر الراهب ، انطلق إلى قيصر ، فقالوا : " إذا جاء يصلي فيه " ، كانوا يرون أنه سيظهر على محمد ﷺ"(٤).

عن مجاهد : "{والذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا}، قال المنافقون {لمن حارب الله ورسوله}، لأبي عامر الراهب"(٥).

قال قتادة :" وأما قوله : {وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله}، فإنه كان رجلا يقال له : " أبو عامر "، فرّ من المسلمين فلحق بالمشركين ، فقتلوه بإسلامه. قال : إذا جاء صلى فيه ، فأنزل الله : {لا تقم فيه أبدًا لمسجد أسس على التقوى}، الآية"(٦).

عن عائشة قالت:"{وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله}، أبو عامر الراهب انطلق إلى الشأم ، فقال الذين بنوا مسجد الضرار : إنما بنيناه ليصلي فيه أبو عامر"(٧).

وفي محاربة الله تعالى ورسوله وجهان(٨):

أحدهما : مخالفتهما .

الثاني : عداوتهما .

قال الماوردي:"والمراد بهذا الخطاب أبو عامر الراهب والد حنظلة بن الراهب كان قد حزّب على رسول الله -ﷺ- ، ثم خاف فهرب إلى الروم وتنصر واستنجد هرقل على رسول الله -ﷺ- . فبنوا هذا المسجد له حتى إذا عاد من هرقل صلى فيه ، وكانوا يعتقدون أنه إذا صلى فيه نُصِر ، وكانوا ابتدأوا بنيانه ورسول الله -ﷺ- خارج إلى تبوك ، فسألوه أن يصلي لهم فيه فقال : «أَنَا عَلَى سَفَرٍ وَلَو قَدِمْنَا إِن شَآءَ اللَّهُ أَتَينَاكُم وَصَلَّينَا لَكُم فِيهِ». فلما قدم من تبوك أتوه وقد فرغوا منه وصلوا فيه الجمعة والسبت والأحد ، وقالوا قد فرغنا منه ، فأتاه خبر المسجد وأنزل الله تعالى فيه ما أنزل"(٩).

قوله تعالى:{وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى} [التوبة : ١٠٧]، أي:" وليحلفنَّ هؤلاء المنافقون أنهم ما أرادوا ببنائه إلا الخير والرفق بالمسلمين والتوسعة على الضعفاء العاجزين عن السير إلى مسجد (قباء) "(١٠).

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه : وليحلفن بانوه : " إن أردنا إلا الحسنى " ، ببنائناه ، إلا الرفق بالمسلمين ، والمنفعة والتوسعة على أهل الضعف والعلة ومن عجز عن المصير إلى مسجد رسول الله ﷺ للصلاة فيه ، وتلك هي الفعلة الحسنة"(١١).

---

(١) أخرجه الطبري(١٧٢٠٠):ص٤٧٤/١٤.

(٢) التفسير الميسر:٢٠٤.

(٣) تفسير الطبري:٤٦٩/١٤-٤٧٠.

(٤) أخرجه الطبري(١٧١٨٩):ص٤٧١/١٤-٤٧٢.

(٥) أخرجه الطبري(١٧١٩٠):ص٤٧٢/١٤.

(٦) أخرجه الطبري(١٧١٩٧):ص٤٧٣/١٤.

(٧) أخرجه الطبري(١٧١٩٦):ص٤٧٢/١٤-٤٧٣.

(٨) انظر: النكت والعيون:٤٠١/٢.

(٩) انظر: النكت والعيون:٤٠١/٢.

(١٠) التفسير الميسر:٢٠٤.

(١١) تفسير الطبري:٤٧٠/١٤.

وفي قوله تعالى:{وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى} [التوبة : ١٠٧]، ثلاثة وجوه[١]:
أحدها : طاعة الله تعالى .
والثاني : الجنة .
والثالث : فعل التي هي أحسن ، من إقامة الدين والجماعة والصلاة ، وهي يمين تحرُّج .

قوله تعالى:{وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [التوبة : ١٠٧]، أي:" والله يشهد إنهم لكاذبون فيما يحلفون عليه. وقد هُدِم المسجد وأُحرِق"[٢].

قال الطبري:" في حلفهم ذلك ، وقيلهم : " ما بنيناه إلا ونحن نريد الحسنى! " ، ولكنهم بنوه يريدون ببنائه السُّوآى ، ضرارًا لمسجد رسول الله ﷺ ، وكفرًا بالله ، وتفريقًا بين المؤمنين ، وإرصادًا لأبي عامر الفاسق"[٣].

و قوله تعالى:{وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [التوبة : ١٠٧]، يحتمل وجهين[٤]:
أحدهما : والله يعلم إنهم لكاذبون في قولهم خائنون في إيمانهم .
والثاني : والله يعلمك أنهم لكاذبون خائنون . فصار إعلامه له كالشهادة منه عليهم .
الفوائد:
١- بيان أكبر مؤامرة ضد الإسلام قام بها المنافقون بإرشاد الفاسق أبي عامر الراهب.
٢- بيان أن تنازع الشرف هو سبب البلاء كل البلاء فابن أبي حارب الإسلام لأنه كان يؤمل في السلطة على أهل المدينة فحرمها بالإسلام. وأبو عامر الراهب ترهب لأجل الشرف على أهل المدينة والسلطان الروحى فلذا لما فقدها حارب من كان سبب حرمانه وهو الرسول ﷺ حتى قال له مواجهة: ما قاتلك قوم إلا قاتلتك معهم. بل ذهب إلى الروم يؤلبهم على رسول الله ﷺ واليهود ما حاربوا الإسلام إلا من أجل المحافظة على أملهم في مملكة إسرائيل.
٣- لا يصح الاغترار بأقوال أهل النفاق فإنها كذب كلها.
٤- ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها.
كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله.
٥- إثبات اسم من اسماءه تعالى، وهو «الشهيد»:
و«الشهيد»: "هو الذي لا يغيب عنه شيء. يقال: شاهد وشهيد كعالم، وعليم. أي: كأنه الحاضر الشاهد الذي لا يعزب عنه شيء. وقد قال –سبحانه-: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [البقرة : ١٨٥]، أي: من حضر منكم في الشهر فليصمه.
ويكون «الشهيد»، بمعنى: العليم. كقوله: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [آل عمران : ١٨]، قيل: معناه: علم الله.
وقال أبو العباس أحمد بن يحيى معناه: «بين الله أنه لا إله إلا هو»، وهو أيضا الشاهد للمظلوم الذي لا شاهد له ولا ناصر على الظالم المتعدي الذي لا مانع له في الدنيا؛ لينتصف له منه"[٥].

القرآن

---

[١] انظر: النكت والعيون:٢/٤٠١-٤٠٢.
[٢] التفسير الميسر:٢٠٤.
[٣] تفسير الطبري:١٤/٤٧٠.
[٤] انظر: النكت والعيون:٢/٤٠٢.
[٥] شأن الدعاء:٧٦.

{لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)} [التوبة : ١٠٨]

التفسير:

لا تقم -أيها النبي- للصلاة في ذلك المسجد أبدًا؛ فإن المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى من أول يوم -وهو مسجد (قباء) - أولى أن تقوم فيه للصلاة، ففي هذا المسجد رجال يحبون أن يتطهروا بالماء من النجاسات والأقذار، كما يتطهرون بالتورع والاستغفار من الذنوب والمعاصي. والله يحب المتطهرين.

سبب النزول:

عن ابن عباس قوله : "{والذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا} ، وهم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدًا ، فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجدكم ، واستعدُّوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم ، فآتي بجند من الروم ، فأخرج محمدًا وأصحابه ! فلما فرغوا من مسجدهم ، أتوا النبي عليه الصلاة والسلام فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا ، فنحبُّ أن تصلي فيه ، وتدعو لنا بالبركة! فأنزل الله فيه : {لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ} ، إلى قوله : {وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}"[١].

و روي عن ابن عباس أيضا:" فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي- ﷺ- فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعو بالبركة، فأنزل الله: {لا تقم فيه أبدا}"[٢].

قوله تعالى:{لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا} [التوبة : ١٠٨]، أي:" لا تقم -أيها النبي- للصلاة في ذلك المسجد أبدًا"[٣].

قوله تعالى:{لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ} [التوبة : ١٠٨]، أي:" فإن المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى من أول يوم -وهو مسجد (قباء) - أولى أن تقوم فيه للصلاة"[٤].

وفي هذا المسجد ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه مسجد رسول الله -ﷺ- بالمدينة ، قاله أبو سعيد الخدري[٥]، وزيد بن ثابت[٦]، وابن عمر[٧].

وروي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : "مر بي عبد الرحمن بن أبي سعيد فقلت : كيف سمعت أباك يقول في المسجد الذي أسس على التقوى ؟ فقال لي : قال أبي: أتيت رسول الله ﷺ ، فدخلت عليه في بيت بعض نسائه ، فقلت : يا رسول الله ، أيُّ مسجدٍ الذي أسس على التقوى ؟ قال : فأخذ كفًّا من حصباء فضرب به الأرض ، ثم قال : هو مسجدكم هذا! فقلت: هكذا سمعت أباك يذكره"[٨].

الثاني : أنه مسجد قباء، وهو أول مسجد بني في الإسلام ، قاله ابن عباس[٩]، وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير[١٠]، وابن بريدة[١١]، وقتادة[١]، والضحاك[٢]، وعطية[٣]، وابن زيد[٤]، وهو اختيار الزجاج[٥].

---

[١] أخرجه الطبري(١٧١٨٧):ص٤٧٠/١٤.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٧٤):ص١٨٨١/٦.
[٣] التفسير الميسر:٢٠٤.
[٤] التفسير الميسر:٢٠٤.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٠٢):ص٤٧٦/١٤.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٠٢):ص٤٧٦/١٤.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٠٢):ص٤٧٦/١٤.
[٨] أخرجه الطبري(١٧٢٠٦):ص٤٧٧/١٤.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٧٢١٢):ص٤٧٨/١٤.
[١٠] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٨٨٢/٦. حكاه دون ذكر الإسناد
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٧٢١٥):ص٤٧٩/١٤، وتفسير ابن أبي حاتم:١٨٨٢/٦. حكاه دون ذكر الإسناد

الثالث : أنه كل مسجد بني في المدينة أسس على التقوى ، قاله محمد بن كعب[6].
قال الطبري: والصواب قول من قال : "هو مسجد الرسول ﷺ ، لصحة الخبَر بذلك عن رسول الله"[7].
قال أهل العلم:" وإذا كان مسجد (قباء) قد أُسِّسَ على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله، ﷺ، كذلك بطريق الأولى والأحرى"[8].
قوله تعالى:{فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا} [التوبة : ١٠٨]، أي:" ففي هذا المسجد رجال يحبون أن يتطهروا بالماء من النجاسات والأقذار، كما يتطهرون بالتورع والاستغفار من الذنوب والمعاصي"[9].
قوله تعالى:{وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [التوبة : ١٠٨]، أي:" والله يحب المبالغين في الطهارة الظاهرة والباطنة"[10].
عن أبي أيوب الأنصاري قال: "قيل: يا رسول الله من الذين ذكر الله فيهم : {رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين}؟ قال: كانوا يستنجون بالماء"[11].
عن عطاء في قوله: "{يحب المطهرين}، قال: المتطهرين بالماء"[12].
عن أبي المنهال قال: "كنت عند أبي العالية فتوضأ أو توضأت، فقلت: إن الله يحب المتطهرين فقال: إن الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المتطهرون من الذنوب"[13].
وروي عن مجاهد قال: "من فعله فليس من المتطهرين، يعني: من أتى امرأته في دبرها"[14].
وروي عن الأعمش في قوله: "{والله يحب المطهرين}، قال: التوبة من الذنب، والمتطهر من الشرك"[15].
الفوائد:

١- فضل التطهر والمبالغة في الطهارتين الروحية والبدنية.
٢- ومن الفوائد: : النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها.
٣- ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه، وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد " قباء"
٤- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات محبة الله عزّ وجلّ؛ لقوله تعالى: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ}؛ والمحبة صفة حقيقية لله عزّ وجلّ على الوجه اللائق به؛ وهكذا جميع ما وصف الله به نفسه من المحبة، والرضا، والكراهة، والغضب والسخط، وغيرها؛ كلها ثابتة لله على وجه الحقيقة من غير تكييف ولا تمثيل.

---

[1] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٨٨٢/٦. حكاه دون ذكر الإسناد
[2] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٨٨٢/٦. حكاه دون ذكر الإسناد
[3] انظر: تفسير الطبري(١٧٢١٤):ص٤٧٨/١٤.
[4] انظر: تفسير الطبري(١٧٢١٦):ص٤٧٩/١٤.
[5] انظر: معاني القرآن:٤٦٩/٢.
[6] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٧٨):ص١٨٨٢/٦.
[7] تفسير الطبري:٤٧٩/١٤.
[8] التفسير الميسر:٢٠٤.
[9] التفسير الميسر:٢٠٤.
[10] انظر: التفسير الميسر:٢٠٤، وصفوة التفاسير:٥٢٢/١
[11] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٨١):ص١٨٨٣/٦.
[12] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٨٢):ص١٨٨٣/٦.
[13] أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٨٣):ص١٨٨٣/٦.
[14] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٨٤):ص١٨٨٣/٦.
[15] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٠٨٥):ص١٨٨٣/٦.

٥- ومنها: أن محبة الله من صفاته الفعلية - لا الذاتية -؛ لأنها علقت بالتطهير، وكل صفة من صفات الله تتعلق بأسبابها فهي من الصفات الفعلية.
٦- ومنها: محبة الله تعالى للمتطهرين؛ لقوله تعالى: {ويحب المتطهرين}.

ويجدر القول بأن لوازم "محبة" المخلوق التي نعرف حقيقتها وحقيقة صاحبها لا تلزم "محبة" الله الذي ليس كمثله شيء الذي لا نحيط به علماً ذاتاً وصفة سبحانه ما أحلمه؟!! يسمع خوض الخائضين وحذلقة المتحذلقين، ثم يمهلهم، ولا يعاجلهم لعلهم يتوبون، ويرجعون، وعلى كل حال فإن صفة المحبة صفة ثابتة بالكتاب والسنة، وإجماع الأمة من الرعيل الأول وأئمة السلف، فالكلام فيها كالكلام في بقية الصفات الخبرية وبعد إذا ثبت في كتاب الله المبين، والأخبار الصحيحة بأن الله يحب عباده المحسنين، وأنهم يحبونه فليس لأحد كلام مع كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك هذه الآيات:

- {وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[البقرة:١٩٥]
- {إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}[التوبة: ٤، ٧]
- {ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[المائدة٩٣]
- {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[آل عمران:٣١]
- {فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}[المائدة:٥٤]
- {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [التوبة:١٠٨].

ومن السنة النبوية قوله عليه الصلاة والسلام:

- "إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه، أو كما يكره أن تؤتى معصيته" [١].
- "اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني"[٢]، وهو دعاء يدعو به الداعي في ليلة يرجو أن تكون ليلة القدر -كما ثبت ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها.

القرآن

{أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩)} [التوبة : ١٠٩]

التفسير:

لا يستوي مَن أسَّس بنيانه على تقوى الله وطاعته ومرضاته، ومن أسَّس بنيانه على طرف حفرة متداعية للسقوط، فبنى مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المسلمين، فأدَّى به ذلك إلى السقوط في نار جهنم. والله لا يهدي القوم الظالمين المتجاوزين حدوده.

قوله تعالى:{أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} [التوبة : ١٠٩]، أي:" لا يستوي مَن أسَّس بنيانه على تقوى الله وطاعته ومرضاته، ومن أسَّس بنيانه على طرف حفرة متداعية للسقوط، فبنى مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المسلمين"[٣].

---

[١]حديث رواه أحمد في مسنده ١٠٨/٢، والبيهقي في سننه عن عبد الله بن عمر، وصححه السيوطي. راجع فيض القدير ٢٩٢/٢.

[٢]أخرجه أحمد "١٧١/٦، ١٨٢، ١٨٣، ٢٠٨، ٢٥٨"، والترمذي في الدعوات ٥٣٤/٥، وابن ماجه في الدعاء ١٢٦٥/٢، وقال الترمذي: حسن صحيح.

[٣] التفسير الميسر:٢٠٤.

قال الطبري:" أيُّ هؤلاء الذين بنوا المساجد خير، أيها الناس، عندكم: الذين ابتدأوا بناء مسجدهم على اتقاء الله، بطاعتهم في بنائه، وأداء فرائضه ورضًى من الله لبنائهم ما بنوه من ذلك، وفعلهم ما فعلوه خيرٌ، أم الذين ابتدأوا بناءَ مسجدهم على على حرف جُرُف متهوِّر"[1].

قال ابن كثير:" يقول تعالى : لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى الله ورضوان ، ومن بنى مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل [2].

و«الجرف»، من الركايا، ما لم يُبْنَ له جُولٌ، و«هار»، يعني: متهوِّر" [3].

ويحتمل المقصود بضرب هذا المثل وجهين[4]:

أحدهما : أنه لم يبق بناؤهم الذي أسس على غير طاعة الله حتى سقط كما يسقط ما بني على حرف الوادي .

الثاني : أنه لم يخف ما أسرُّوه من بنائه حتى ظهر كما يظهر فساد ما بنى على حرف الوادي بالسقوط .

قال الزجاج:" وهذا مثل، المعنى أن بناء هذا المسجد الذي بني ضرارا وكفرا كبناء على جرف جهنم يتهور بأهله فيها"[5].

قوله تعالى:{ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} [التوبة : ١٠٩]، أي:" فأدَّى به ذلك إلى السقوط في نار جهنم"[6].

قال الطبري:اي:" فانتثر الجرف الهاري ببنائه في نار جهنم"[7].

قال ابن كثير:" فإنما بنى هؤلاء بنيانهم { عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ } أي : طرف حَفِيرة مثاله { فِي نَارِ جَهَنَّمَ}"[8].

عن الضحاك قوله: "{فانهار به}، يقول: فخرَّ به"[9].

وفي قوله تعالى:{ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} [التوبة : ١٠٩]، وجهان :

أحدهما : أنهم ببنيانهم له سقطوا في نار جهنم[10].

الثاني : أن بقعة المسجد مع بنائها وبُناتها سقطت في نار جهنم ، قاله قتادة[11]، والسدي[12].

قال قتادة : "ذكر لنا أنه تحفَّرت بقعة منها، فرُؤي منها الدخان"[13].

وقال جابر بن عبد الله : رأيت المسجد الذي بني ضرارًا يخرج منه الدخان على عهد النبي ﷺ"[14].

عن أصبغ بن الفرج قال: "وذكر سفيان بن عيينة: أنه لا يزال منه دخان يفور لقوله فانهار به في نار جهنم ويقال: إنه بقعة من نار جهنم"[15].

قال ابن جريج: "بنو عمرو بن عوف. استأذنوا النبي ﷺ في بنيانه، فأذن لهم، ففرغوا منه يوم الجمعة، فصلوا فيه الجمعة ويوم السبت ويوم الأحد. قال: وانهار يوم الاثنين. قال:

---

(1) تفسير الطبري:٤٩١/١٤-٤٩٢.
(2) تفسير ابن كثير:٢١٧/٤.
(3) انظر: تفسير الطبري:٤٩١/١٤.
(4) انظر: النكت والعيون:٤٠٤/٢.
(5) معاني القرآن:٤٧٠/٢.
(6) التفسير الميسر:٢٠٤.
(7) تفسير الطبري:٤٩٢/١٤.
(8) تفسير ابن كثير:٢١٧/٤.
(9) أخرجه الطبري(١٧٢٤٥):ص٤٩٢/١٤.
(10) انظر: النكت والعيون:٤٠٤/٢.
(11) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٩٠):ص١٨٨٤/٦.
(12) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٩١):ص١٨٨٤/٦.
(13) أخرجه الطبري(١٧٢٤٦):ص٤٩٢/١٤-٤٩٣.
(14) أخرجه الطبري(١٧٢٤٨):ص٤٩٣/١٤.
(15) أخرجه ابن ابي حاتم(١٠٠٩٢):ص١٨٨٤/٦.

وكان قد استنظرهم ثلاثًا، السبت والأحد والاثنين ، {فانهار به في نار جهنم}، مسجد المنافقين، انهار فلم يتناهَ دون أن وقع في النار، قال ابن جريج: ذكر لنا أن رجالا حفروا فيه، فأبصروا الدخان يخرج منه"(1).

عن خلف بن ياسين الكوفي قال: "حججت مع أبي في ذلك الزمان - يعني: زمان بني أمية - فمررنا بالمدينة، فرأيت مسجد القبلتين -يعني مسجد الرسول -وفيه قبلة بيت المقدس، فلما كان زمان أبي جعفر، قالوا: يدخل الجاهل فلا يعرف القبلة! فهذا البناءُ الذي ترون، جرى على يَدِ عبد الصمد بن علي. ورأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله في القرآن، وفيه حجر يخرج منه الدخان، وهو اليوم مَزْبَلة"(2).

قوله تعالى:{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة : ١٠٩]، أي:" والله لا يهدي القوم الظالمين المتجاوزين حدوده"(3).

قال الطبري:" يقول: والله لا يوفق للرشاد في أفعاله، من كان بانيًا بناءه في غير حقه وموضعه، ومن كان منافقًا مخالفًا بفعله أمرَ الله وأمرَ رسوله"(4).

قال ابن كثير:" أي : لا يصلح عمل المفسدين "(5).

الفوائد:

١- التحذير من الظلم والإسراف فيه فإنه يحرم صاحبه هداية الله فيهلك وهو ظالم فيخسر دنيا وأخرى.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن العقيدة أصل الدين وأساس مبناه، وأنت تعرف أن الأصل هو الأساس؛ لأنه الذي يُبنى عليه غيره كأساس الحائط والعمود، فإنه إذا تأصل وثبت تحمل ما يبنى عليه، وأما إذا كان على شفا جرف هار فإنه يسقط، كما قال تعالى: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ} [التوبة:١٠٩] ، والجرف: هو ما يحفر في السيل، فإذا كان الإنسان بنى جداره قريباً من مجرى السيل، وجاء له السيل فحفر تحته وحمل التراب الذي تحته يبقى الجدار متعلقاً فيسقط، فهذا معنى قوله تعالى: {أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} [التوبة:١٠٩] ، وهو مثال(6).

٣- أن العقيدة السليمة لها آثار طيبة في القلوب والسلوك الاجتماعي والنظام العمراني؛ فهناك فريقان كل منهما بنى مسجدًا في عهد النبي ﷺ: فريق بنى مسجده بنية صالحة وعقيدة خالصة لله عز وجل، وفريق بنى مسجده لهدف سيىء وعقيدة فاسدة؛ فأمر الله نبيه أن يصلي في المسجد أسس على التقوى، نهاه أن يصلي في المسجد الذي أسس على الكفر والمقاصد السيئة.

القرآن

{لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)} [التوبة : ١١٠]

التفسير:

لا يزال بنيان المنافقين الذي بنوه مضارَّة لمسجد (قباء) شكًا ونفاقًا ماكثًا في قلوبهم، إلى أن تتقطع قلوبهم بقتلهم أو موتهم، أو بندمهم غاية الندم، وتوبتهم إلى ربهم، وخوفهم منه غاية

---

(1) أخرجه الطبري(١٧٢٤٧):ص٤٩٣/١٤.

(2) أخرجه الطبري(١٧٢٥٠):ص٤٩٤/١٤.

(3) التفسير الميسر:٢٠٤.

(4) تفسير الطبري:٤٩٤/١٤.

(5) تفسير ابن كثير:٢١٧/٤.

(6) انظر: اعتقاد أهل السنة، ابن جبرين:الدرس(١٧)[مرقم آليا].

الخوف. والله عليم بما عليه هؤلاء المنافقون من الشك وما قصدوا في بنائهم، حكيم في تدبير أمور خلقه.

قوله تعالى:{لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ} [التوبة : ١١٠]، أي:" لا يزال بنيان المنافقين الذي بنوه مضارَّة لمسجد (قباء) شكًا ونفاقًا ماكثًا في قلوبهم، إلى أن تتقطع قلوبهم بقتلهم أو موتهم، أو بندمهم غاية الندم، وتوبتهم إلى ربهم، وخوفهم منه غاية الخوف"[١].

قال الطبري:" لا يزال بنيان هؤلاء الذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا، شكًّا ونفاقًا في قلوبهم ، يحسبون أنهم كانوا في بنائه مُحْسنين، إلا أن تتصدع قلوبهم فيموتوا"[٢].

قال المراغي:" أي: لا يزال بنيانهم سبب ريبة وشك فى الدين، لأنهم يظهرون فيه حال قيامه ما فى قلوبهم من آثار الكفر والنفاق ويدبرون أمورهم ويتشاورون فى ذلك ويلقى بعضهم إلى بعض ما سمعوا من أسرار المؤمنين مما يزيدهم ريبة وشكا فى الدين، وحين أمر صلى الله عليه وسلم بتخريبه وهدمه ثقل ذلك عليهم وعظم خوفهم وارتابوا فى أمرهم: أيتركون على حالهم أم يؤمر بهم فيقتلون وتنهب أموالهم، إلى أنهم اعقدوا أنهم كانوا محسنين فى البناء، فلما أمر بتخريبه أصبحوا شاكين في أمره، ولأى سبب كان ذلك"[٣].

وفي قوله تعالى:{ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ} [التوبة : ١١٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه شك في قلوبهم ، قاله ابن عباس[٤]، والحسن[٥]، وقتادة[٦]، وإبراهيم[٧]، والضحاك[٨]، والضحاك[٨]، وسعيد بن أبي عروبة[٩]، ومنه قول النابغة الذبياني[١٠]:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَهَلْ يَأْثَمَنْ ذُو أُمَّةٍ وَهْوَ طَائِعُ؟

والثاني: كفر في قلوبهم. وهذا قول السدي [١١].

عن سفيان ، عن السدي : "{ريبة في قلوبهم}، قال : كفر. قلت : أكفر مجمّع بن جارية؟ قال : لا ولكنها حَزَازة" [١٢].

والثالث: معناه: راضين بما صنعوا ، كما حُبِّب العجل في قلوب أصحاب موسى. وهذا قول ابن زيد[١٣].

والرابع: أن تكون الريبة ما أضمروه من الإضرار برسول الله -ﷺ- والمؤمنين. ذكره الماوردي[١٤].

والخامس: أن معنى«ريبة في قلوبهم» حزازة في قلوبهم ، قاله السدي[١٥].

والسادس: معناها: ندامة في قلوبهم بما صنعوا. قاله حمزة[١].

---

[١] التفسير الميسر:٢٠٤.

[٢] تفسير الطبري:٤٩٤/١٤-٤٩٥.

[٣] تفسير المراغي:٢٩/١١.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٥١):ص٤٩٥/١٤.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٥٨):ص٤٩٦/١٤.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٥٢):ص٤٩٥/١٤.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٦٥):ص٤٩٧/١٤.

[٨] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٨٨٥/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.

[٩] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٩٧):ص١٨٨٥/٦.

[١٠]ديوانه :٣٥، ولسان العرب (أمم) ، ومقاييس اللغة ١/ ٢٨، وكتاب العين ٨/ ٤٢٨، وتهذيب اللغة ١٥/ ٦٣٥، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٢٤٧، ومجمل اللغة ١/ ١٥٢.

من قصيدته المشهورة في اعتذاره للنعمان. يقول: أيتهجم على الإثم ذو دين، وقد أطاع الله واخبت له، فيحلف لك كاذبا يمين غموس كالتي حلفت بها، لأنفي عن قلبك الريبة في أمري.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٥٨):ص٤٩٦/١٤.

[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٦٢):ص٤٩٦/١٤.

[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٦٤):ص٤٩٧/١٤.

[١٤] انظر: النكت والعيون:٤٠٥/٢.

[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٦٣):ص٤٩٧/١٤.

والسابع:أن المعنى: غيظًا في قلوبهم. قاله حبيب بن أبي ثابت[٢].
والثامن: أن المعنى: غطاء على قلوبهم ، حكاه الماوردي عن حبيب بن أبي ثابت[٣].
والتاسع: أن تكون «الريبة»: الخوف من رسول الله -ﷺ- ومن المؤمنين. ذكره الماوردي[٤].
قال السعدي:{ ريبة في قلوبهم}" أي: شكا، وريبا ماكثا في قلوبهم"[٥].
قوله تعالى:{إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ} [التوبة : ١١٠]، أي:" إلى أن تتقطع قلوبهم بقتلهم أو موتهم، أو بندمهم غاية الندم، وتوبتهم إلى ربهم، وخوفهم منه غاية الخوف"[٦].
قال السعدي:" بأن يندموا غاية الندم ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريبا إلى ريبهم، ونفاقا إلى نفاقهم"[٧].
قال أبو عبيدة:"إلا هاهنا غاية"[٨].
وفي قوله تعالى:{إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ} [التوبة : ١١٠]، ثلاثة أقوال:
أحدها : إلا أن يموتوا ، قاله ابن عباس[٩]، ومجاهد[١٠]، وقتادة[١١]، والضحاك[١٢]، حبيب بن ثابت[١٣]، والسدي[١٤]، وابن زيد[١٥]، ومقاتل[١٦].
الثاني : إلا أن يتوبوا، قاله سفيان[١٧].
قال الزجاج:" وقال بعضهم: إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم"[١٨].
الثالث : إلا أن تقطع قلوبهم في قبورهم ، قاله عكرمة[١٩].
وذكر أن الحسن كان يقرأ : «إِلَى أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ»، بمعنى : حتى تتقطع قلوبهم}[٢٠].
وكان أصحاب عبدالله بن مسعود يقرأونها:{وَلَوْ تَقَطَّعَتْ قُلُوبُهُمْ}[٢١].
قوله تعالى:{وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة : ١١٠]، أي:" والله عليم بما عليه هؤلاء المنافقون من الشك وما قصدوا في بنائهم، حكيم في تدبير أمور خلقه"[٢٢].
قال الطبري:أي: "{عَلِيمٌ} بما عليه هؤلاء المنافقون الذين بنوا مسجد الضرار ، من شكهم في دينهم ، وما قصدوا في بنائهموه وأرادوه ، وما إليه صائرٌ أمرهم في الآخرة ، وفي

---

[١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٩٨):ص١٨٨٥/٦.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٥٩):ص٤٩٧/١٤.
[٣] انظر: النكت والعيون:٤٠٥/٢. ولم أقف عليه. وإنما روي عنه:" غيظًا في قلوبهم". كما في القول السابق.
[٤] انظر: النكت والعيون:٤٠٥/٢.
[٥] تفسير السعدي:٣٥١.
[٦] التفسير الميسر:٢٠٤.
[٧] تفسير السعدي:٣٥١.
[٨] مجاز القرآن:٢٧٠/١.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٥١):ص٤٩٥/١٤.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٥٤):ص٤٩٦/١٤.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٥٢):ص٤٩٥/١٤.
[١٢] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٨٨٥/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
[١٣] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٨٨٥/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
[١٤] انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٨٨٥/٦. حكاه دون ذكر الإسناد.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٧٢٦٤):ص٤٩٧/١٤.
[١٦] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١٩٨/٢.
[١٧] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٠٢):ص١٨٨٦/٦.
[١٨] معاني القرآن:٤٧١/٢.
[١٩] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٠١):ص١٨٨٦/٦.
[٢٠] انظر: تفسير الطبري:٤٩٧/١٤.
[٢١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(١٠٠٠٢):ص١٨٨٦/٦، وانظر: تفسير الطبري:٤٩٧/١٤.
[٢٢] التفسير الميسر:٢٠٤.

الحياة ما عاشوا ، وبغير ذلك من أمرهم وأمر غيرهم، {حكيم} في تدبيره إياهم ، وتدبير جميع خلقه"[1].

قال السعدي:" {والله عليم} بجميع الأشياء، ظاهرها، وباطنها، خفيها وجليها، وبما أسره العباد، وأعلنوه، {حكيم} لا يفعل ولا يخلق ولا يأمر ولا ينهى إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به فلله الحمد"[2].

الفوائد:

٤- من فوائد الآية الكريمة \ تمكن الريبة فى قلوب هؤلاء المنافقين وإضمار الشرك بحيث لا يزول منها ماداموا أحياء.

٥- إثبات اسمين من اسمائه تعالى، وهما: «العليم» «الحكيم»:

- فـ«العليم»: هو المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[3].
- و«الحكيم»: "هو المحكم لخلق الأشياء، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها[4].
- ومنها: إثبات ما ذكره أهل السنة والجماعة من أن أسماء الله سبحانه وتعالى المتعدية يستفاد منها ثبوت تلك الأحكام المأخوذة منها؛ فالأسماء المتعدية تتضمن الاسم، والصفة، والأثر - الذي هو الحكم المترتب عليه- [5].

نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لمرضاته ويجعلنا من الفائزين بجناته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

انتهى الجزء السابع عشر من التفسير ويليه الجزء الثامن عشر بإذن الله، وبدايته تفسير الآية (١١١) من سورة «التوبة».

---

[1] تفسير الطبري: ٤٩٥/١٤.
[2] تفسير السعدي: ٣٥١.
[3] انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين: ١٨٨/١.
[4] انظر: شأن الدعاء: ٧٢/١-٧٣.
[5] انظر: تسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة: ٢٥٩/٢.